تاريخ المغرب الكبير

الجزء الثاني

تأليف : محمد علي دبوز
أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر

إهداء إلى كل أبناء ليبيا الحبيبة

مع كامل محبتي وتقديري

سعيد خليفة الختالي

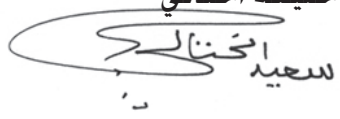

طبع هذا الكتاب سنة 1963 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصفيفه
على نفقة سعيد خليفة الختالي

مؤسسة تاوالت الثقافية 2010
http://www.tawalt.com/

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على نعمة الاستقلال نعد الاستعباد، والصلاة والسلام على خير العباد، وعلى اله وأصحابه الذين كونوا في تاريخنا أغر صفحاته، وتركوا لنا ماضيا مجيدا مشرقا نحيا ونسود بمعرفته، ونتقدم ونسمو بالتأثر به، ونحقق كل الآمال الكبرى باتخاذ مثلنا العليا من أبطاله، والاتصاف بما توجههم الله به من الصلاح والصفاء، ومن الطهر والنقاء.

استغلال المستعمرين لترهات الملوك

وبعد فهذا تاريخ المغرب الكبير نقدمه إلى الأقطار العربية والإسلامية، وارتفاع علم العروبة فيها، وعسى إخواننا في الشرق العربي يرون فيه محيا الجزائر العربية، وتاريخ المغرب صافيا نقيا من دعايات السياسة القديمة، ومن أكاذيب المستعمرين الذين لم يألوا جهدا في استغلال تلك الدعاية التي بثها الملوك المستبدون قديما الذي ثار على الملوك المستبدين، فانشأ دوله الإسلامية العادلة التي سارت فيه سيرة الخلفاء الراشدين، فنعم وساد بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الصحيحة؛ صفحة مغربنا المشرقة، فيبعدوا ناشئتنا عن تاريخ أجدادهم، فيسهل صبغهم بما يريدون، وتجريدهم من شخصيتهم الإسلامية والعربية كما يشاءون !

تشويه تاريخنا في المدارس الاستعمارية

وكان أولئك المستعمرين اللاتينيون إذا قرروا شيئا من تاريخ المغرب في مدارسهم الاستعمارية، سيما الابتدائية، حيث التلاميذ الصغار الذين يسهل الإيحاء إليهم، والتأثير فيهم، لا ينتقون من فصول تاريخ المغرب إلا ما يعج بأكاذيب الملوك ودعايتهم المغرضة، فيبنون على ذلك ما يشاءون من أكاذيبهم التي تبدي وجه البهيجة! وكان على جمال الطواويس وحسنها فيبدونه لأبنائها في حلك الغرباء ونكرها، وكان مزنا في السماء، يطفح بالحياة والنقاء، فيصورونه لهم كثيبا جافا في البيداء، أو دخانا فارغا في الهواء! وتراهم يستغلون كل الاستغلال الصراع الذي ما يشاءون من عصبية في النفوس، وأحقاد في القلوب، ليبعدوا المغرب عن المشرق، ويفصلون الأخ عن أخيه، ويقطعوا قطرنا المغربي الحبيب عن ديار العروبة فلا يعد نفسه أصيلا في أرومة قحطان، ويصرفوا وجهه

عن مشرق الشمس حيث تطلع بأنوارها فتبث اليقظة في النفوس، وتسمح الكرى عن العيون، فتتفتح فتشعر بالذئاب التي ترتع فيه، وأنياب الأفاعي التي تطوقها

وترى أولئك المستعمرين يستغلون الصراع بين المغرب والملوك المستبدين فيجعلون الناشئ يعتقد ان المغرب في كنف الدول الإسلامية كانت أيامه مصبوغة بالدماء، ودهره مملوءا بالدموع، وان الذلة والفقر والخوف هو ما كان يخيم عليه، وان أجدادنا كانوا أشقياء في دولهم لا يتمتعون بما يتمتع به المغرب في جحيم الاستعمار اللاتيني، ليهيئوا نفوسهم للرضوخ للقيود، واستحلاء المرارة فلا يثورون عليها، والرضا بواقعهم الأليم فلا يسخطون عليه! وتراهم يستخدمون تاريخ المغرب المجيد الذي يحرفونه في الإزراء بأجدادنا، وتشويه سمعه دولنا الإسلامية القديمة، ليخلقوا في نفوس أبنائنا عقائد سيئة في أجدادهم، وعقدا نفسية تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم، فلا يرون ما كان يرفل فيه المغرب في عهود دوله الإسلامية الزاهرة من سعادة وهناء،ومن رقي وتقدم، ومن عز وسيادة، ومن أزهار في كل النواحي، وتفوق فيكل الجهات!

محاربة الاستعمار للتاريخ الصحيح

وكان الاستعمار اللاتيني في المغرب الكبير قد اتخذ كل وسيلة للقضاء على اللغة العربية التي هي مفتاح الدين والتاريخ، ليبلغ ما يتلهف عليه من تجريد المغرب من دينه، فحارب التاريخ الإسلامي فحرم تدريسه في المدارس الحرة. وكان التاريخ الإسلامي وتاريخ المغرب على الخصوص أول مادة يسأل عن وجودها في حملاته التفتيشية على هذه المدارس التي يراها خطرا عليه.

وكان معهد الحياة الثانوي في القرارة بجنوب الجزائر من تلك المدارس الحرة التي أنشئت منذ ثمان وثلاثين سنة لنشر التربية الإسلامية الصحيحة. وكنت أتولى تدريس تاريخ المغرب الكبير فيه. وكان غلاة المستعمرين الذين يقصدون التجسس على مدارسنا ومناهجنا يطرقون أبوابه متظاهرين بالزيارة البريئة، والاطلاع على سير التعليم في الجزائر، وإذا دخلوا الفصل الذي القي فيه محاضرات التاريخ ورأوا خرائط دول المغرب الإسلامي ترصع جدرانه في ألوانها الزاهية، وفي جلالها وجمالها، ارتاعوا وتساءلوا، هل تدرسون التاريخ؟! وكان أول سؤال يواجهنا به هؤلاء المستعمرون الذين يطرقون المعهد قبل الثورة: هل تدرسون التاريخ الإسلامي فإذا قلت: نعم اسودت ووجوههم، وبدت علامات التشاؤم والارتياع عليهم!

ان انس فلا أنسى ذلك المستعمر الغشوم الذي غشي المعهد مع (عمدة) القرارة ممثل

الحكومة الاستعمارية. وكان ذلك في شهر مايو من سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية، وقبل ثورتنا الجزائرية بستة شهور. وكان اكتشاف النفط في جنوب الجزائر قد جعل تلك المنطقة متجهة أنظار المستعمرين الفرنسيين ومحل اهتمامهم والناحية التي يفتشونها، ويريدون ان تكون خالية من كل حركة وطنية، ومن كل منبع لليقظة والنهضة من المدارس العربية الحرة التي يرونها أكثر خطرا عليهم وعلى النفط من النيران ! وكانوا يخشون المدارس الثانوية الحرة أكثر لأنها هي التي تخلق الطبقة المتصفة بدينها، العالم بتاريخها ولغتها، وقد رأوا خريجيها ينازلونهم في الميدان، ويحبطون دسائسهم، ويبطلون سعيهم للقضاء على الدين في المغرب!

وكان من الفنون التي أتولى تدريسها في معهد الحياة في سنته النهائية الأدب العربي وكنت في ذلك اليوم مع تلاميذ هذه السنة ندرس قصيدة الرافعي في رسائل الأحزان «حيلة مرآتها» ونقارن بينها وبين قصيدة للبحتري. وكنت منتشيا بالجمال الشعري، وأعيش في جو الرافعي الخلاب وكنت أحب الرافعي واغرم بأدبه واراه سيد الأدباء في العصر الحديث! وكان التلاميذ منتشين، فطرق علينا طارق، فإذا احد أساتذة المعهد يدعوني لمقابلة زائر فرنسي قدم نفسه على انه اكبر صديق للوالي العام في الجزائر في تلك الأيام «ليونار». وكان المدير غائبا في شأن من شئون التعليم، فلم ذلك الأستاذ بدا من استدعائي، وقطعي عن حصتي، فخرجت إليه متذمرا، وبودي ان لا اخرج، فانه مع انقطاعي عن جو الأدب الساحر معاينة طلعة استعمارية لابد وأن تكون من تلك الوجوه التي نرى فيها عيون الذئب المسعور، والعدو الكاشح، والمتغطرس الغشوم، فابتدأ الزائر الاستعماري يلقي علي أسئلته فعزمت ان أكون صريحا معه فاخبره بكل شيء، وأطلعه على حقيقة المعهد، وكنا قبل مع أمثاله إذا الحوا في السؤال نخبرهم بالكليات ونصرفهم عن التفاصيل، ونأبى ان يطلعوا على مناهجنا وكل فنوننا، فيخرجون وهم يعتقدون ان المعهد مدرسة بسيطة من تلمك المدارس التي تشتغل بحشو الرؤوس بالمعلومات بدون ان تعتني بالتربية العقلية والخلقية، فتثقل تلك الرؤوس، فيهيئها ذلك ان تطأطئ لمستعمرين! فأخبرت الزائر المستعمر ان معهدنا ثانوي، للتربية والتعليم ، ولنشر الدين، انه يتقبل تلاميذ المدارس الابتدائية الحرة، وأن خريجي المعهد الذين يتخصصون في العلم نبعثهم إلى الجامعة الزيتونية في تونس الخضراء، أوالى دار العلوم وكلية الآداب في القاهرة. وأخبرته بان لنا تلاميذ في الشرق العربي، وأنهم محل إعجاب وتقدير كلياته، لما وجدوا فيهم عقول واعية، ومتانة في الأخلاق، وغرام واستقامة في السلوك! فاصفر وجه المستعمر ثم اربد وتلجلجت الكلمات في لسانه، وبدا اضطرابه

في المنظار المكبر الذي يحمله في يده. وابتدأ يسألني عن فنون المعهد فكان أول شيء سألني عنه: هل تدرسون تاريخ المغرب ودوله الإسلامية؟ فقلت له: أننا ندرس تاريخ الإسلام العام، ونعتني عناية تامة بتاريخ المغرب ودولنا الإسلامية، وان تلاميذنا يجدون كل النشوة فيه، وهم مغرمون كل الغرام به، ولهم عناية تامة به!

وكان مع الزائر المستعمر غادة يتجلى فيها جملا باريس الفتان الذي يراه الفرنسيون اكبر كنوزهم وأعظم مفاخرهم. وكانت تترقرق جمالا وتمايل رشاقة. وكان إهابها الوردي يشف عن دمائها كأن جسمها من البلور الصافي. وكان هواء الجنوب المنعش وسحر الربيع، وجمال القرارة، وجدة الأشياء في المعهد قد اذكت سرورها، فتألق الابتسام في وجهها، فازداد محياها إشراقا كأن مصابيح قروية قد أسرجت في داخلها! فلما أخبرت صاحبها بحقيقة المعهد وأهدافه ابتدأ الابتسام والإشراف يغيض في وجهها، وكسته صفرة كصفرة الأصيل التي تكسو رؤوس الجبال مؤذنة بموت النهار! ولما قلت لهما أننا نعتني بتاريخ المغرب، وان تلاميذنا مغرمون به، اربد وجهها واسود، وصار ازرق داكنا كراس الأفعى إذا شدخت رأسها بالحجر لتقتلها! فحدقت فيهما فادا صاحبها زائغ البصر واجم، وهي قد تصلبت فذهب تمايلها وغاضت نضارتها،وكستها دهمة التشاؤم والارتياع، فبدت لي عصا مجرودة قد التهمت منها النيران ثم زهدت فيها، فاسودت وذهبت نضارتها! فخرج المستعمر الغشوم وهو يتعثر في خطاه من شدة الفزع والتشاؤم لما وجد تلاميذنا يعيشون مع أجدادهم وفي دولهم الإسلامية الزاهرة، فيقبسون من أجدادهم القوة التي ترفع رؤوسهم، وتدفعهم لتحقيق المثل العليا، وتذكي غرامهم وحرصهم وإصرارهم على ان يحيوا حياة عزيزة حرة سعيدة، لا يكدرها المستعمر بسمومه وأوساخه، وعلى ان يعيشوا دائما تحت راية العربية والدين، ويكونوا جزءا أصيلا من الأسرة العربية والإسلامية ويكون مغربنا في عهدهم كما كان في عهد أجدادنا، منبعا للدين، وحصنا له، ومعدنا العربية ومشرقا لها،ومصدر الإخوة الإسلامية والعربة التي توحد العالم الإسلامي والعربي وتجعله صفا واحدا متراصا لا تصدعه المنافسات والشحناء، ولا تفرقه المذاهب الهدامة التي يكيد بها الأعداء لديننا الحنيف، ولا يضيق نطاقه القوميات الضيقة التي يوحى بها الاستعمار إلى الضعفاء من أبناء امتنا ليبثوا التفرقة بين المسلمين، ويجزئوا امتنا الإسلامية ويقطعوها فيسهل ابتلاعها، ويصرفونا عن امتن رابط، وأقدس وشيجة نصل بيننا، وأعظم سبب يوحدنا ويجعلنا جسما واحدا متشابه الأعضاء، نتراص الصفوف، وهو سبب الدين، ورابطة الإسلام،وهذا الرحم المقدس الذي يربطنا جميعا عليه السلام.

ان الاستعمار اللاتيني قد حرم المغرب من معرفة تاريخ أجداده في مدارسه، جهل بتاريخ أجداده العظماء، وبتاريخ دوله الإسلامية الزاهرة التي أيقظت أوروبا وأنقذتها من الهمجية والضلالة. فلماذا حارب الاستعمار تاريخنا تلك الحرب الشعواء؟ ما هي فائدة التاريخ لنا، وجدواها العظيمة علينا، وما هي الأضرار التي تحصل له من معرفة تاريخنا، ولماذا يعتقد انه اكبر مصيبة تصيبه، وأعظم ويل، واشد الدواهي عليه ان نعرف تاريخ أجدادنا، ونعلم أنباء دولنا الإسلامية الزاهرة التي كان المغرب بها متجه الأنظار من أنحاء الدنيا، وكعبة القصاد من أنحاء العالم الإسلامي والمسيحي؟

فوائد التاريخ التروية وأثره في نهضة الأمم:

ان الله قد خلق في الإنسان غرائز وميولا فطرية هي أساس أخلاقه، وسبب تغيره وترقيه، وعامل تطوره وتقدمه، وبلوغه ارفع الدرجات. وهي التي كانت بها البيئة الاجتماعية التي يختلط بها الإنسان، والناس الذين يعاشرهم، والشخصيات التي يعجب بها سبب اصطباغه بصبغة خاصة، واتجاهه إلى هدف معين.

ان هذه الغرائز والميول الفطرية هي غريزة حب الظهور وهي التي تجعلنا نحرص علا الاحترام والتفوق، والغريزة الاجتماعية، وغريزة الخوف، وهي التي تجعلنا نخشى الفشل والرسوب، وفطرة التقليد، والإيحاء، والمشاركة الوجدانية. إن هذه وغيرها من الغرائز والميول الفطرية العامة هي أساس أخلاقنا، وسبب ما فينا من عقائد تشكل سلوكنا، وترسم طريقنا في الحياة.

ان هذه الغرائز والميول هي سبب تربيته، وهي التي تجعل الربين يستطيعون التأثير فيه، صبغه بما يريدون، وتشكيله كما يشاءون.

وإذا كانت البيئة الاجتماعية التي يعاشرها الإنسان ويختلط بها، وبتنبه إليها، ويعجب بها هي التي تطبعه بطابعها، وتصبغه بصبغتها، فيكون نسخة من يعاشره، ينظر بنظرته إلى الأمور، ويتصرف مثل تصرفه في الشئون، فان التاريخ هو الذي يحفنا ببيئة اجتماعية راقية من أجدادنا فنعاشرهم، فنتأثر بأخلاقهم، ونتطبع بطباعهم، ونحس بوجدانهم في خطبهم ورسائلهم ووصاياهم وأحاديثهم وأحداثهم فيكون وجدانا لنا، يذكي فينا الحماس لمثلهم العليا فنعمل لتحقيقها، والرغبة في طريقتهم المثلى، وفي نهجهم القويم فنتمسك به، ونندفع فيه، فنصل الدرجة الراقية التي كان عليها الأجداد، ونكون مثلهم في العزة والإباء، وفي الطموح والمحاولة، وفي العمل والكد، وفي الإخلاص والإتقان، وفي العمل لله! وتلك هي أسباب النجاح والتفوق، وعوامل القوة

والتقدم، ولا يتف بها إنسان إلا تغير حاله، وتبوأ ارفع الدرجات في كل النواحي، وكان الله معه فيحقق له كل الآمال، فيكون هو السيد الذي يسود غيره، والذروة التي تشمخ على سواها، فلا يستطيع عدو كاشح ان يخضعه، ولا لص مخاتل ان يحتل داره، ولا مستعمر غشوم ان يتسلط عليه!

التربية الأخلاقية هي التي يجب ان نستهدفها في التربة

ان التاريخ اكبر عامل في التربية الخلقية، وأقوى سبب يخلق الأخلاق العظيمة في النفوس. والأخلاق العظيمة هي أساس رقي الإنسان في عقله وفي جسمه، فهي التي تستتبع كل المزايا، وتقتضي تفوقنا في كل النواحي! فهي الغاية التي يجب ان نستهدفها في التربية، ونقصدها في مدارسنا وفي بيوتنا وفي مجتمعنا، ونعتني بها في كل درس، وفي كل عمل. ومتى غرسنا في الطفل الأخلاق الحسنة، فكان على الحزم والنشاط، وعلى الطموح والنظام، وعلى الشجاعة والصبر، وعلى الحب والإتقان لأعماله، وعلى الإخلاص والصفاء، وعلى التضحية والعمل لله، فقد غرسنا فيه من الأخلاق ما يعمل عقله فيترقى، ويخلق فيه الشغف بالعلم يراه قوته وكماله، فيكون م كبار العلماء،وما يرقى جسمه من العادات الصحية التي هي ركن في الأخلاق الحسنة، والشيم الكريمة.

البيئة الاجتماعية وأثرها في التربية

ان اكبر عامل في التربية الخلقية إنما هي البيئة الاجتماعية التي يعاشرها الإنسان. ان المثل العربي يقول: «من عاشر قوما أربعين يوما كان منهم» لان الله قد ركب في المرء الغرائز التي ذكرنا فجعلته يتأثر بسواه، وينهج منهج م يعاشره . ومن تلك الغرائز غريزة حب الظهور التي تجعله يريد الاحترام من بيئته، والتقدير والإكبار ممن يختلط به، وهذا لا يكون إلا بالسلوك الحميد الذي يكبره من يعاشره، والأخلاق الحسنة التي يحبها من يختلط به، فتبعثه تلك الغريزة عليها. انها أقوى غريزة في الإنسان، فتسعه أعشار أعمالنا الحسنة تدفعنا إليها هذه الغريزة، لذلك يجب ان نحف الطفل بالبيئة الاجتماعية التي تحترم الأخلاق الحسنة لتبعثه هذه الغريزة عليها.

ان هذه الغريزة القوية في الإنسان وغيرها من الغرائز هي التي تدفع الإنسان ليتصف بكل ما اتصف به أجداده العظماء الذين عاشرهم، وأعجب بهم، رآهم وعاش معهم في التاريخ، ليصل مثل غايتهم، ويحتل مثل ذراهم،ويستعد كما سعدوا، ويكون سيدا عزيزا كما كانوا سادة أعزاء. وإذا كان عصره قد هيأ له أسباب الكمال وكثرة الوسائل أكثر مما في عصرهم، فانه بصفتهم يربو عما كانوا عليه، ويصل ما لم يصلوه.

ان هذه الآثار العظيمة لتكون لنا بدراسة تاريخ كل امة عظيمة، وان كانت أجنبية عنا، كتاريخ الفرس والرومان، والانجليز والألمان، أما تاريخ الإسلام وهو جزء منا، وهو تاريخ أجدادنا، فان انتباهنا فيه يكون أقوى، وإعجابنا به يكون أعظم، وشغفا به يكون اشد، فجدواه علينا لا تقدر ولا تحصى، وتأثرنا به يكون أضعاف تأثرنا بتاريخ الأجانب عنا.

ان غريزة حب الظهور مما يبعث الإنسان على الشغف بتاريخ أجداده، وعلى التنبه فيه فيزداد تأثره به، لان أجداده جزء منه، فمجدهم مجده؛ وان هذه الغريزة لتجد شبعها بمشاهدة هؤلاء الأجداد في عروشهم، والتحديق فيهم وهم في حلل مجدهم، وأنها لتدفع الابن ليكون مثل جده فيبحث بدون شعور عن الطريق الذي سلكوا، والأسباب التي اخذوا بها فحققوا تلك الغايات، فتدفعه لسلوك ذلك الطريق، والأخذ بتلك الأسباب، فيتصف بأخلاق أجداده فيكون عظيما مثلهم، ومن الأسود الكاسرة فلا تستطيع ثعالب الاستعمار ان ترتع في عرينه، وتستاسد في غابه؛ لذلك حرم الاستعمار اللاتيني علينا دراسة تاريخ دولنا الإسلامية، ومعاشرة أبطالنا، الاختلاط بأجدادنا وهم في ذروة عزهم، وفي عروش مجدهم، تعنوهم رقاب الدنيا إجلالا وتعظيما، ويرضى عنهم الله بأخذهم بكل ما أمرهم من أسباب الصلاح والفلاح، والفوز والنجاح !

مزايا التاريخ الوطني

ان تاريخ أجدادنا هو الذي يؤثر فينا أكثر، فيجب الاعتناء به، والاعتماد عليه في تربيتنا في البيوت والمدارس والمجتمع؛ أما تاريخ من عاشوا في ارض غير أرضك، وكانوا من غير جنسك، يحملون وراثة غير وراثتك، فقد يوحي إليك هذا بأنك لا تستطيع ما استطاعوا، لأنهم في بيئة طبيعية غير بيئتك، وأورثتهم قوى ومواهب لا تكونها فيك بيئتك،وأنهم من جنس قد يخيل إليك انه أرقى من جنسك، وعلى وراثة كونت فيهم مواهب خاصة قد لا تخلقها فيك وراثتك، فلا يطمح المرء كل الطموح ليصل غاياتهم، ولا يثق بنفسه كل الثقة فيسير في طريقهم، ويتغلب على عقباتهم، فيصل مثل ما وصلوا. أما تاريخ أجدادك الذين نشأوا أرضك، فهم أبناء بيئتك الطبيعية التي لا تتبدل، وفي دمائك وراثتهم،تلك الوراثة التي انحدرت إليك منهم وهي بفضل أعمالهم لها في جهادهم أقوى مما انحدر إليهم من أجدادهم، ففيك من عوامل القوة والنجاح أكثر مما فيهم، فتثق بنفسك، فتسلك طريقهم فتصل ما وصلوا. لهذا حرم الاستعمار اللاتيني على المغرب ان يعرف تاريخ أجداده، لان تأثرنا بهم يقتضي ان نثور عليه، فندفع ما يكدر حياتنا ويدنسها وينتنها إلى البحر، ونصفي حياتنا وأوطاننا من المرارة والسموم التي ألقاها البحر إلينا! !

ان التاريخ اكبر عامل لبناء الأمم ونهضة الشعوب، وهو من الوسائل الكبرى في التربية الحسنة!

مزايا التاريخ في التربية

ان التاريخ هو الذي يمكننا في التربية من اختيار البيئة الاجتماعية الصافية الراقية التي نحث بها الآثار التي نريد في التلميذ. أما البيئة الاجتماعية الواقعية فقد لا تطاوعنا، ولا نستطيع ان نجد فيها كل ما نريد، وإذا وجدنا فانه لا بد ان يشوبه ويقترن به كثير من الأشياء السيئة التي لا نريدها، فيتأثر التلميذ بها، فيتصف بصفات تضعف أخلاقه الحسنة، وتقلل نجاحه في الحياة. أما في التاريخ فإننا نستطيع اختيار العصور الزاهرة، والشخصيات العظيمة، كالرسول، والصحابة، والتابعين، والسلف الصالح من أئمتنا، ورؤساء دولنا، وكبار علمائنا، ونختار من التاريخ كل ما هو حسن فنجعله بيئة للتلميذ ينغمس فيها، ويشغف بها، ويعاشرها بالقراءة اللذيذة، والدرس العميق.

ان التاريخ لهذا أحسن من البيئة الاجتماعية الواقعة التي قد لا نستطيع ان نعزل منها م لا يرضينا، ولا نجد فيها كل المثل العليا التي نريدها، لذلك نجد الله يضرب لنا الأمثال في القرآن، فيقص علينا قصص الأنبياء، فنرى صبر أيوب، وعفة يوسف، ويقين إبراهيم، ونسك عيسى، وعظمة محمد عليهم السلام، فيعوضنا الله من تلك القصص التي هي تاريخ للأنبياء ما لا نجده في بيئتنا، ويكمل بيئتنا الاجتماعية بذلك التاريخ.

ان مؤلفينا القدماء في الأخلاق كالجاحظ، والغزالي، والجيطالي،[1] وابن مسكويه يكثرون من إيراد القصص في الكتب الأخلاقية، فترانا نعاشر الصالحين في تلك القصص، ونرى جمال الفضيلة في سلوكهم، فنحبهم ويكونون لنا مثلا أعلى، نحذو حذوه، ونسلك طريقه. وترانا نصدر من القصة التي رسمت لنا شخصية نيرة، ونحن نحس في نفوسنا شعاعا من نورها، آثارا منها، انه إذا تكرر ذلك واطرد، فإننا بعد حين نكون على غرار من عاشرنا، ومثل من اختلطنا به في القصص التاريخية وأعجبنا به!

عناية الأوروبيين بتاريخهم وانتفاعهم به:

ان الأوروبيين قد عرفوا أثار القصص التاريخية للعظماء في بناء الأخلاق العظيمة، والتربية الحسنة، وتهذيب الأمة، فاعتنوا بتاريخ أجدادهم وعظمائهم، فأبرزوه في أسلوب قصصي جذاب، يجعل الناشئة تغرم به، وتستغرق في قراءته، وتتنبه كل التنبه إليه،

1 هو أبو إسماعيل بن موسى الجيطالي عاش في القرن الثامن الهجري وتوفي سنة خمسين وسبعمائة، وكتابه قناطر الخيرات من أعظم الكتب في الأخلاق، وهو في ثلاثة أجزاء، والجزء الثالث خاص بالأخلاق، وهو أحسن ما ألف في المغرب في هذا الباب، ليت طبعه يعاد.

فيتأثرون بأجدادهم العظماء، ويحافظون في أمتهم على تقاليدهم الحسنة التي هي سبب عظمتها وبقائها.

وترى الأوروبيين يجعلون شبابهم وأمتهم تعيش مع أجدادها العظماء دائما لا تنقطع عنهم، فتجدهم يؤلفون الروايات التاريخية التي تصور عظمة أولئك الأجداد، فيقدمونها في المسارح، والسينما، والتليفزيون، ويكتبون المقالات في ذكرى عظمائهم، وفي أعيادهم الوطنية والدينية، ويلقون الخطب، وينشئون الأغاني، فيجعلون الأمة بكل هذا تختلط بأجدادها العظماء وتتأثر بهم، وتثبت على نهجهم القويم، وتقاليدهم الحسنة، وترى السينما والتليفزيون والمسارح عوامل للبناء، وأسبابا للتربية الحسنة، وأبوابا للخير والنجاح والتقديم لشعوبهم، وتجدهم يستعملون الأغاني الشجية في تصوير عظمائهم، والتغني بأمجادهم، وبث الحب والإكبار في نفوس الأمة لعظمائها. أما أفلامنا العربية فتجد اغلبها «ديناميت» الأخلاق، وسموما للأمة، بما تعرض على أبنائنا ونسائنا ورجالنا من مناظر الخلاعة والتهتك، وبما تسمعنا من أغانيها المائعة الماجنة التي تزين الخنا، وتدعو إلى الخيانة، وتهدم ما ترك الاستعمار من أثار الدين في نفوسنا! ! انها باب للشرور والفناء فتحه الاستعمار علينا أيام احتلاله لنا لا زال يتدفق علينا بما يقتلنا. ليت رجال ثوراتنا في الأقطار العربية يسدون هذا الباب، ويكفون هذا الشر، فيعدموا كل الأشرطة الخليعة، ويطردوا من التمثيل كل خليعة وخليع، فلا يتركوا إلا ذوي الأخلاق المتينة، والذين يتركون في الأمة التي يغشونها الآثار الحسنة!

ان تلك الأشرطة السينمائية الخليعة التي تهدم الدين ومتانة الأخلاق في النفوس، وتبث عبادة المظاهر، وحب الفخفخة، وتلك الأغاني الخليعة المتباكية التي تخلل الأخلاق اكبر ما أخشاه على مغربنا الناشئ الذي خرج من أشداق الاستعمار وهو في اشد ما يكون من الحاجة يركز ويقوي فيه ما ترك فيه الاستعمار من متانة في أخلاقه!

ان ما تبقى من متانة الأخلاق في نفوس المغرب هي العدة التي صرعنا بها المستعمرين فتحررنا! ليت مغربنا يحرم الأشرطة السينمائية الخليعة، ولا يعرض على الشعب إلا ما يجعله يعيش مع أجداده العظماء. ليت إخواننا في المشرق الذين تنشأ الأفلام الخليعة في بلادهم والأغاني الماجنة يكفونها عنا فلا يأذنوا للجوقات الموسيقية الخليعة، وللأشرطة الماجنة ان تدخل بلاد المغرب فإنها السب الذي يهدم سمعتنا، ويقتل الاحترام في النفوس!

مزايا التاريخ التربوية على دروس الأخلاق النظرية

ان تاريخ أجدى في التربية، وفي غرس الأخلاق الحسنة، والذود عن الأخلاق السيئة من دروس الأخلاق النظرية، ومن الوعظ والإرشاد النظري، لان التاريخ يجسم جمال الفضيلة في سلوك الصالحين، فنكون أكثر إدراكا له، واشد إعجابا، وأقوى تأثرا، ويجسم الرذيلة في سلوك المذنبين فنكون أكثر إدراكا لبشاعتها، واشد نفورا منها. والمرء يتأثر بالمحسوس الواقع الذي يدركه بحواسه، أو يرسمه التاريخ والقصة في خياله، فيتمثله في حقيقته وكأنه يراه، أكثر من تأثره بالمعاني التي تحكم بجمال الفضيلة، وبقبح الرذيلة، فتحثه على الأولى، وتنهاه عن الثانية. ولعل التاريخ الذي يرسم في خيالنا عظماء ومختلف شخصياته يجعلنا أكثر تأثرا مما لو شاهدنا أولئك بعيوننا، لان الخيال قد يزيد في الصورة فتكون أكثر مما هي في الواقع، ويضفي عليها من تهاويله ما يجعلها أحسن مما هي في الحقيقة. والتاريخ يقدم إليك الشيء مشروحا ظاهر الأسرار، بين الخفايا، فتدرك كل حقيقته، فيكون تأثرك بالغا على حسب الإدراك، أما الحواس فقد لا تطلعك إلا على الظواهر، فترى الرجل العظيم فلا تعرف إلا بعض مزاياه أو لا تعرف شيئا، فتظنه من غرض الناس وهو زعيم قومه، وعبقري فذ في أمته.

ان الإدراك الحسي في الإنسان أقوى من الإدراك المعنوي، لذلك كان تأثره بالمحسوس الذي يراه أو يتخيله أكثر من تأثره بالمعاني التي يفهمها ويعيها. والتاريخ هو الذي يرسم في خيالنا ذلك المحسوس الواقع، فلذلك كانت آثاره ابلغ وارسخ من أثار أوعظ والإرشاد انظري الذي لا يقترن بالقصص التاريخية وبالحكايات التي تجسم معانيه.

والتاريخ يقدم إليك الفضيلة مصحوبة بعاقبتها الحسنة، مقرونة بجدواها العظيمة فتكون كالنظرية يؤيدها الدليل الذي يصاحبها، والدعوى تثبتها الحجة القوية التي تكتنفها، فلا يسع المرء إلا الإيمان بها، والخضوع لها، والأخذ بما جاءت به فالصلاح في الصالحين نراه مقرونا بالنجاح الذي حصلوا عليه، والأخلاق العظيمة في العظماء نراها مصحوبة بالزعامة والعبقرية، والمجد تتوجوا به، فنرى الفضيلة فيهم في هالة مشرقة من عاقبتها الحسنة، ونحس بها في حلاوة عائدتها الجميلة، فيكون إيماننا بها اشد، ورغبتنا فيها أقوى، فتثور غريزة السيطرة وكثير من الغرائز فتبعثنا عليها فنتصف بها. وكذلك الرذيلة، فإنها تبدو في التاريخ متجسمة في سلوك المذنبين، مقرونة بعاقبتها الوخيمة، فنراها في بؤس المذنبين، وفي مشنة المجرمين، وفي جحيم الله أعده للعاصين، فتبدو لنا في أبشع صورها، وفي هو لها ونكرها ونراها عقربا سوداء بادية النكر، شائلة الذنب، تبدوا لنا سمومها، وما تفعله بمن يقرب منها، فتكون نفوسنا أكثر نفورا منها،

واشد مقتالها، وأكثر حردا عليها، فنتنزه منها. أما المواعظ النظرية، ودروس الأخلاق المعنوية، التي لا يؤيد بالقصص التاريخية، فان المرء لا يزيد بها على ان يلين قلبه بعض اللين، وتدمع عينه بعض الدمع، ثم يقسو قلبه، وترقأ دمعته، وينسى ما سمعه من المعاني، لا تفجر المعاني منه ما يفجره المحسوس الواقع الذي يرسمه التاريخ في خيالنا من دموع غزيرة تغسل نفوسنا من الأدران، ويظهرها الوجدان المتأجج بالتحسر والندم، فتكون صافية بيضاء ناصعة كالثوب الأبيض الذي غسلناه فأجرينا عليه المكواة الحامية، فأرجعت له جدته، وزالت تجاعيده، ومنعته من التسوس والبلى !

التاريخ للاتعاظ والاعتبار

والتاريخ للاتعاظ والاعتبار فيجب ان نقف في هفوات الأجداد،وما أثار الأعاصير عليهم، فنصوره للأحفاد، ونحذرهم منه، ونفتح عيونهم على ما أودى بدولنا القديمة من أمراض، كالانغماس في الحضارة، والركون إلى الراحة، والاتصاف بالأنانية، وبالعصبية القبائلية والمذهبية، وبالحسد الذي هو أم هذه الخبائث كلها، وهو الذي أودى بدولنا الإسلامية، وشقق جماعة المسلمين، فداخلها سوس الاستعمار ورتع فيها ذباب أوروبا،وطمعت فيها كل الحشرات الضعيفة. يجب ان نحذر الأبناء مما وقع فيه الآباء، ونبيد في نفوسهم بالتاريخ الصحيح العقد النفسية الموروثة التي ثبتها الاستعمار في نفوسنا ليمزق شملنا، ونريهم خطأ الأجداد فيما أخطأوا فيه، ونحذرهم من العقبة الوخيمة التي جرتها على أجدادنا تلك الذنوب. ان هذا اكبر فرض يجب على المربى في دروس التاريخ، وإلا يكون مقصرا في التربية، مخلا بواجبه الوطني، لم يأت أهم ما يجب عليه في بناء الجيل الجديد الذي يجب ان يكون خاليا من العقد النفسية الموروثة، ومن العقائد البالية الفاسدة ليكون صفا ليكون صفا مرصوصا، وبنيانا متينا فيصل بمغربنا الحبيب إلى الذرى العالية التي تؤهله لها متانة أخلاقه، والبطولة الموروثة من أجداده، وتمسكه بدينه وبالأخلاق الإسلامية التي تسعده وتنيله رضا الله!

التاريخ للتربية العقلية

والتاريخ للتربية العقلية، فيجب ان نعمل عقل التلميذ فيه كل الأعمال، فنكلفه ان يستنبط من المقدمات التي سمعها ما تقتضيه من نتيجة، فإذا سمع باستقامة دولة وتمسكها بالدين، ورسوخها في الصراط المستقيم، فإنها لابد ان يكون على القوة والازدهار، وعلى النجاح في كل الأمور، والتقدم والتفوق في كل النواحي، فيجب على المربى في درس التاريخ ان يسأل التلميذ ليعمل عقله فيتوصل إلى هذا الحكم، ويعرف هذه

النتيجة، فيكون قد ربى فيه الخلق بالفاته إلى عائدة التمسك بالدين، وربى فيه العقل بالاستنباط والاستخراج! وإذا أراه دولة تتنكر لدينها، وتعرض عن الإسلام، وعما أمر به القرآن، وتحتقر الدين وتزدريه وتأخذ بالمذهب الهدامة التي وضعها أعداؤها، وبالقوميات الضيقة التي اختراعها أعداء الإسلام، فان عاقبتها لاشك هي الدمار والاضمحلال، وما تبوء به إنما هو الخسارة والهلاك، والتمزق والتفكك،وما يكون لها في صدور الأحرار والأمم إنما هو الاحتقار والازدراء، فيجب ان نترك التلميذ يستنبط هذا، ونحثه ان يعمل عقله فيتوصل هو إلى هذه النتيجة، فنكون قد قوينا انتباهه إلى ما يجب ان يتأثر به في التاريخ، وقرينا عقله بأعماله فيه، كما يجب ان يكون التمارين التي يعقب بها كل باب مشتملة على أسئلة تدعو التلميذ إلى الاستنباط وتعمل عقله باستخراج النتيجة من مقدماتها.

فن تدريس التاريخ

ان التاريخ اكبر وسيلة للتربية العقلية والخلقية، وأعظم عامل يحرك الشعوب وينهضها، ويدفعها إلى أسمى الغايات، وهو أقوى مطهر للأمم من أمراضها فلذلك حرمه الاستعمار علينا، وكاد أعداؤنا له، فترى أعداء العربية يتخذون كل وسيلة لصرفنا عن تاريخ رسولنا محمد عليه السلام، وتزهيدنا فيه، وترى البلداء الضعفاء الجهلة الذين سمعهم الاستعمار، وركبهم إلى غاياته، والى قتل امتنا، يرون من العصبية الاعتناء بتاريخ الرسول كل الاعتناء، وتخصيص اكبر ما يمكن من الحصص ومن الجهد لتاريخ دولنا الإسلامية، وتاريخ أجدادنا، ولعل الله يقي المغرب من هذه المذاهب الهدامة، ومن هذه الفئات الجاهلة المريضة، فإنها لعمرك شر من المستعمرين ومن الاستعمار اللاتيني الحقود الذي كنا في جحيمه.

ماذا يشترط في مدرس التاريخ

ان التاريخ للتربية الصحيحة ولبث الروح القوية في الأمة، وإذكاء الحماس للمثل العليا في القلوب، ولكن التاريخ لا يؤتى ثماره ونتائجه التربوية العظمى إلا إذا القينا دروسه في تحليل علمي، وفي روح خطابية، وفي أسلوب طلي. ان شخصية المدرس هي التي تؤثر بالتاريخ، فيجب ان ينبع التاريخ من أعماقه متأججا بوجدانه، ومن عقله ممتلئا بفلسفته، لا من لسانه وحده، فيكون أخبارا باردة يسردها، أنباء عتيقة ميتة يحكيها، ان المربى لا يستطيع ان يكون على ذلك الحماس وعلى تلك الروح المؤثرة القوية في التاريخ إلا إذا أتى بدرسه ومحاضرته في رأسه، لا في كراسه، فتنبع من أعماقه حارة دسمة

تشبع العقول، وتحرك النفوس، أما (السندويتش) البارد الذي يأتي به في الأوراق فانه لا تسمن به العقول، لأنها لا تتنبه بقول إلا إذا ألهب حماسها بحماسه، وتفجرت معانيه في التاريخ م عينيه ومن كل جوارحه وكان في التاريخ فيلسوفا وخطيبا.

لنحقق النتائج التربية بالتاريخ يجب ان يتحمس المدرس والمحاضر المربي للفصيلة في تاريخ العظماء، ولكل الأشياء الحسنة في الأمة التي ندرسها، والدولة التي نعرض تاريخها ليفيض وجدان المدرس والمحاضر على تلاميذه فيكون وجدانهم، فيعجبون مثله بالفضيلة، فيتنبهون إليها، فيدركون جمالها، ويكونون مثله في التعلق بها، والرغبة فيها، كما يجب ان يمتلئ كرها للرذيلة، والخيانة، ورقة الدين، ولكل الأشياء السيئة في التاريخ، ليكون تلاميذه على وجدانه فيمقتونها، ويهربون منها.

يجب ان يكون نزهاء في التاريخ، لا نتعصب، ولا نقلد، ونتنبه كل التنبه في كتب التاريخ الإسلامي القديمة، فإنها مملوءة بأكاذيب الملوك، ودعاياتهم الباطلة، ويجب ان لا نترك ألفنا وما ردده أجدادنا فاستقر في عقلنا الباطن يكون أحكامنا في التاريخ، يجب ان ننظر بعقولنا، ونبحث بحثا منطقيا خالصا لا توجهنا فيه العواطف الموروثة، ونعتمد في أحكامنا على الأدلة القوية، والبراهين الساطعة، والنصوص الصحيحة، ونوسع دائرتنا في البحث فنطلع على كل المراجع بدون تحيز ولا تعصب، فإذا توصلنا إلى الحكم صحيح نؤمن به فحكمنا على شيء بالحسن، فيجب ان نتحمس له، ونوجه أنظار التلاميذ إليه، فنكون كالذي اكتشف هلال العيد في أثناء السحب فانه يوجه الأنظار إليه في رنه تؤذن بالبشرى، وتفيض بالأفراح !

ان العاصفة والحماس يجب ان لا يلابسنا في الحكم لا للحكم، ويجب ان نخلوا منهما أثناء البحث والتأمل لا بعد الحكم الذي نؤمن به، والنتيجة التي نتيقنها.

ان التاريخ فن فليفي علمي أدبي يجب ان لا يسند تدريسه إلا للفصحاء الذين وهبهم الله اقتدارا في التعبير، وقوة في العقول، يستطيعون بها التحليل والاستنباط، وكانت الشخصية الخطابية فيهم قوية. أما العاجزون الضعفاء، ذوو الهمود في الوجدان، والعجز في اللسان، والبرودة في الكلام، والضعف في الذكاء، والذين تعوزهم الفصاحة والاقتدار على التعبير، فتراهم في حبسة تنتأ فيها عيونهم كالمحتضر، فإنهم لا يلدون إلا المعاني الميتة، ولا يزيد التاريخ على أيديهم ان يكون مجلبة للنعاس، ومدعاة للسأم، وسببا للأعراض.

يجب ان لا يسند تدريس التاريخ لمن كانت شخصيته علمية محصنة، فانه يقتله، ولا تجدي معلوماته الغزيرة فيه، وذاكرته المحشوة بمادته.

أسباب قوة الذاكرة في التاريخ:

ان التاريخ أصعب الفنون رسوخا في الذاكرة، وبقاء في الحافظة، فالنسيان يسرع إليه أكثر من كل الفنون فيجب الأخذ فيه بكل ما يقوي الذاكرة. انه لا يقوي الذاكرة شيء كالانتباه القوي، والملاحظة التامة، هذا لا يكون إلا بالحماس الذي يؤرثه المربى في نفس التلميذ يدرس التاريخ فينتبه كل الانتباه إليه.

وقوة الذاكرة تكون بكثرة الروابط، فلابد من ربط الحقيقة الواحدة بحقائق كثيرة ما يشابهها ويتصل بها من معلومات التلميذ القديمة، ومن ربط حقائق التاريخ بعضها ببعض، فتاريخ نشأة الدولة يجب ربطه بتاريخ انقراضها، وبمكانها، وعاصمتها، وبأول رؤسائها، فترتبط هذه الحقائق في نفس التلميذ فإذا تذكر واحدة استتبعت أخواتها، فيحصل بهذا التكرار الذي نرسخ به المعلومات وتجددها؛ ولكن هذا الربط لا يستطيعه إلا العالمون بكل فصول التاريخ، العارفون كل المعرفة بأبوابه كلها. أما من ينقل الدرس من الكتاب فيردده كالحاكي، وينفث به كالراقي، ثم ينساه، فانه لا يستطيع هذا الربط الذي هو أساس رسوخ العلوم في الحافظة.

ان الإكثار من الروابط في الدرس، وربط الجديد بالقديم يضمن لنا أيضا التكرار غير الممل الذي ترسخ به المعلومات في ذهن التلميذ.

ان باب تداعي المعاني في كتب علم النفس التربوية، وباب الذاكرة والحافظة، مما يفرض على معلم ان يدرسه، مع ما يجب عليه من دراسة كتب علم النفس التربوي، وكتب التربية والتعليم. ليت مدرسينا في المغرب يأخذون بحظهم الكامل منها، ليكونوا رجال التربية فيه أيضا. وليت حكومات المغرب تقضي عن مدارسنا كل هزيل لا توجد فيه شخصية المعلم، ولا يرغب في وظيفة التربية والتعليم المقدسة ولا يغرم بها، فيستعد لها بدراسة كتب التربية والتعليم، ومتابعة تطور هذا الفن العظيم الذي تقوم عليه عظمة الأمة وتطورها

التمارين الدقيقة بعد كل باب سبب رسوخه

وبعد كل ما تقدم في شخصية المدرس وفي الدرس، يجب ان نعقب كل باب في التاريخ بتمارين مفصلة نسال فيها عن كل شيء يكون عرضة للنسيان، فان هذا اكبر وسيلة لرسوخ التاريخ في ذهن التلميذ.

ومن وسائل رسوخ التاريخ ان نكلف التلميذ بعد إنهاء المحاضرة التي أصغى إليها

بكل اهتمام ان يكتب خلاصتها من ذاكرته، فان هذا يضمن انتباهه في الدرس ليستطيع هذا، ويضمن استعادة المعلومات التي هي من الوسائل الكبرى في قوة الحفظ لما فيها من التكرار المصحوب بالانتباه. أما كتابة التلاميذ للمحاضرة في وقت إلقائها، فإنها تصرفهم عن الانتباه، فلا يزيدون على ملء صفحات الكراس ثم لا يبقى شيء في الرأس. يجب ان ينقش التلميذ درس التاريخ في رأسه، ثم يستعيده ويكتبه في كراسته ان في هذا مع الحفظ القوي، وتمرن على الإنشاء !

هذه قواعد في فن تدريس التاريخ لقدمها لإخواني وأبنائي في مدارسنا، وهي خلاصة تجربتي، وقواعد ألتزمتها في محاضراتي في تاريخ المغرب بمعهد الحياة، فنجحت كل النجاح والحمد لله، فصار تاريخ المغرب بالمعهد هو المادة الحبيبة إلى نفوس التلاميذ وهو العلم الراسخ في أذهانهم، والفن الذي يأخذون فيه أعلى الأرقام رغم شدتي في الامتحانات.

انها قواعد يقررها فن التربية والتعليم، وتؤيدها تجربة لي استمرت أربع عشرة سنة كاملة في المعهد، فعسى إخواني في مدارسنا يزدادون بها إيمانا بما يعرفون، أو تنبها لما لم يعرفوه كله، فيأخذوا الأهبة الكاملة فيه. واراني مقصرا إذا قدمت لمدارسنا في المغرب وكلياتنا مادة هذه الكتاب، ثم سكتت عن الطرق التي جربتها في تدريس التاريخ فنجحت بها كل النجاح والحمد لله.

ان التاريخ هو الفن العظيم الذي حرمنا الاستعمار البغيض منه، وحرمه علينا فيجب ان نبادر بعد استقلال المغرب فنأخذ حظنا منه، وننتفع به في تربية الأجيال القادمة، ونبرز تاريخنا وثوراتنا المباركة في المغرب في أسلوب أدبي طلي يحببه إلى القراء، وفي تحليل علمي وبحث نزيه يصفه من الأكدار والأكاذيب التي ملأه بها الملوك القدماء والمستعمرون. ان هذا فرض على أدبائنا العلماء بعد الاستقلال !

ان الكتاب المغربي هو وجه المغرب الذي يرانا فيه إخواننا، فيشعرون بوجودنا وان لغتنا العربية المقدسة التي أصبحت لغة حكوماتنا فتفتح لها المجال في مغربنا الجديد، ويجب ان ننعشها بالتأليف، ونبرد لهفة المغرب منها بالتصنيف والنتاج الرفيع. يجب ان نقوم بواجبنا في ترقية لغتنا، ونهض بنصيبنا من الحمل في هذا الباب، ولا نكون عالة على إخواننا فيما نستطيعه.

واجب الأدباء والعلماء في المغرب

ان الكتاب المغربي العربي هو المرآة التي يرى العالم، ويرى إخواننا فيها وجه المغرب

العربي الجميل، وإذا كان الكتاب مرآة لأجدادنا، وفي تاريخ مغربنا، فقد تضاعف الجمال، وزادت الجدوى!

وبعد فما هي الأسباب التي دفعتني لتأليف «تاريخ المغرب الكبير» وكيف الفته هذا ما يجب على أصدقائي القراء ان يعرفوه.

لماذا الفت هذا الكتاب؟

لما رجعت من القاهرة إلى الجزائر في سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف هجرية «1948م» بعد انتهاء دراستي، وكان في الجزائر معهدان وطنيان ثانويان للغة العربية احدهما في شمال الجزائر وهو معهد عبد الحميد بن باديس الذي تقوم به جمعية العلماء والثاني في جنوب الجزائر بالقرارة وهو معهد الحياة للغة العربية والتربية الإسلامية تقوم به جمعية الحياة التي يرأسها الشيخ بيوض إبراهيم أمام النهضة العربية الحديثة في جنوب الجزائر، وعالم الجزائر الكبير، وخطيبها الفذ. فدعاني معهد الحياة للقيام معه بالواجب الوطني والديني في ميدان التربية والتعليم، آثرته أيضا. فكان من الفنون التي أسندها إلي للسنتين النهائيتين في المعهد تاريخ المغرب الكبير. فساءني ان لا أجد متابا دراسيا في تاريخ المغرب يليق للثانوي، على الروح التي أريد، وعلى الأسلوب الذي ينبغي،وعلى المنهاج الذي يحقق النتائج التربوية من التاريخ. فكنت عقب كل محاضرة اكتب نصوصها وخلاصتها للتلاميذ بأسلوب أدبي رائق يزيد للتاريخ وضوحا، ويكسبه طلاوة تحببه إلى النفوس، وبروح مؤثرة تجعله ذا آثار بالغة في النفس. فكان إقبال التلاميذ على تلك الخلاصات، وانتشاؤهم بدراستها، ورغبتهم فيها، وتأثرهم بها أكثر مما انتظرت، وابلغ مما رجوت، فاستمرت تلك الخلاصات إلى آخر الدروس فتكون منها كتاب هو الذي اقره المعهد في تاريخ المغرب. وعسى الله ان يمد في الأجل، ويمد بالعون فأطبعه لتنتفع به مدارسنا. وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة وألف هـ «1950م» عزمت ان اكتب شيئا في تاريخ المغرب الكبير بأسلوب أدبي، وتحليل فلسفي، وببحث علمي نزيه يليق لمطالعة مثقفينا، ويكون مرجعا ومصدرا لجامعاتنا ومدارسنا، ويصفي أبواب تاريخ المغرب التي كدرتها ودنستها أكاذيب الملوك القدماء، ودعايات المستعمرين وسمومهم، فصارت خطرا على المغرب، ومنبعا للسموم التي تكدر صفاءه، وتفرق جماعته، وتمكن الحساد والدساسين من بث الفرقة والشقاق في مغربنا الحبيب. فكتبت في سنة سبعين من الهجرة، وفي إحدى وسبعين، وفي أوائل اثنتين وسبعين وثلاثمائة وألف (1951 و52 و53م) مسودة الأجزاء الثلاثة الأولى من «تاريخ المغرب الكبير» فصرت أفكر في طبعها، ولكنني أبيت ان أفرغها في القالب النهائي، واعدها للطبع قبل ان أقوم بجولة واسعة لاطلع على كل ما

استطيع الاطلاع عليه من كتب تاريخ المغرب، سيما المخطوطات القديمة. فزرت في عطلة الربيع لسنة ثلاث وسبعين هـ (1953م) خزائن كثيرة من المخطوطات لا زالت محفوظة في جنوب الجزائر لم تمتد إليها أيدي الاستعمار التي جردت المغرب من كتبه القديمة، ومن مؤلفات أجدادنا في التاريخ، فوجدت فيها من الكتب المخطوطة، ومن الوثائق التاريخية شيئا كثيرا مما أريد. ثم عزمت على زيارة مكاتب تونس الخضراء، ودار الكتب العربية في القاهرة؛ وهذه الدار العظيمة الحبيبة التي درست فيها تاريخ المغرب فصرت اعرف الكثير من مصادر التاريخ فيها. وكان الاستعمار الفرنسي قد ضرب الأسوار الحديدية بين الجزائر والقاهرة والأقطار العربية، فصرت منذ الربيع أسعى للحصول على جواز عام للسفر يمكنني من السفر في عطلة الصيف. فكان الله نعي فحصلت على جواز للسفر طويل الأجل. ولما أوشكت عطلة الصيف ان تبدأ صرت اطرق الأبواب للحصول عل تأشيرة الدخول في مصر. فأرسلت جواز السفر إلى (مرسيليا) وبعد ضمان مالي كبير وضعته في بنك الجزائر، وبعد مساع ووقت طويل،وقلق كبير حصلت على تأشيرة الدخول في مصر على إني مار إلى الحجاز، وتلك هي العلة التي تسترت بها للحصول على الجواز. فسافرت في أول العطلة إلى تونس فغبرت شهرا في مكتبتها الوطنية، وفي المكتبة العبدلية، اطلعت فيهما على كثير من مصادر تاريخنا، ثم وصلت دار الكتب العربية في القاهرة فأسرعت إلى كرسي رقم 21 الذي بنيت فيه نفسي في قاعة المطالعة فصار اعز مكان لدي في الدنيا بعد المعاهد التي نشأت فيه ! فوجدت من أصدقائي القدماء فيها، ومن أمنائها، ومن رئيس قاعة المطالعة فيها صديقي السيد الحاج عبد الهادي يس، ومن مراقب الدار العام السيد عبد المنعم عمر كل ترحيب وإجلال ومساعدة. فكنت اطلب أحيانا عشرين مجلدا فيسرعون بها إلي، فاطلعت على فهارس التاريخ كلها في دار الكتب فوجدت الكثير مما أريد، فاطلعت على المهم منه، سيما المخطوطات والكتب المطبوعة النادرة الوجود. فانقضت عطلتي الصيفية بعد شهرين أمضيتهما في دار الكتب الحبيبة، وكانت هذه الدار جزءا من نفسي! وكانت القاهرة هي المدينة التي انس إليها، واجد فيها نشاط فكري، واستطيع ان أعطي نفسي فيها للعلم. فعزمت ان اطلب في الصيف المقبل من المعهد عطلة طويلة فأعكف في دار الكتب وفي القاهرة الحبيبة فاسكب مسودة كتابي في الصيغة النهائية، وأزيد فيها تكون لي من نظريات ومعلومات، وما سأستفيده من المراجع الجديدة، وتطبعه في القاهرة، فان الطبع فيها أجود، وحرية التأليف والنشر فيها أكثر مما عندنا في المغرب. فلما وصلت الجزائر قامت الثورة المقدسة في أول نفامبر (1954م) فسكتت الأقلام وتكلمت المدافع، وعكفت الأمة الجزائرية كلها على كتابة تاريخها الأغر بدمائها، فتوقف عملي في هذا الباب. فصارت

مسودة الأجزاء الثلاثة مناط أملي، واعز شيء لدي. ولما أصبحت دور المثقفين ورجال العلم بعد قيام الثورة مهددة بالتفتيش، واخذ كل مخطوط عربي وتفتيشه والقضاء عليه ان لم يرقهم، واعتقال صاحبه، وكنت اعرف نظرتهم إلى تاريخ المغرب، سيما وما كتبته في الجزء الأول في الاستعمار الروماني مما يثير ثائرتهم، ويقيم قيامتهم! فجعلت مسودة كتابي في صندوق خشبي لا مسامير فيه لكي لا تكتشفه آلاتهم التي تدل على الحديد، فردمته في الحديقة، فبقي فيها زمنا، فخفت ان تتسرب إليه الانداء فتتلفه، فوضعته عند صديق من الهادئين الذين لا يلفتون أنظار الاستعمار، ولا يفكرون في تفتيش داره. وكنت كلما هوجمت القرارة، وفتشت بعض نواحيها اضرع إلى الله ان يحفظ دار الصديق ويحفظ مسودة الكتاب.

هجوم الجند الفرنسي على القرارة وتفتيشها والعيث فيها

وطوقت القرارة في جمادى الثانية 1381هـ آخر أكتوبر 1961م بكتائب الجند الفرنسي الحقود، وأحيطت بالمدافع والدبابات، وأخليت من السكان، فضربت عليهم الأسلاك الشائكة في ظاهر المدينة، وأحيطوا بالمدافع الرشاشة وبالدبابات، وبنطاق من الجند المسلح! فهجم الجند الفرنسي المسعور على المدينة ليقبض على خلية جبهة التحرير فيها، وعلى جند جيش التحرير الذين قال لهم جواسيسهم ان القرارة صارت من مراكزهم في الجنوب، وليملأوا أيضا جيوبهم، وعرباتهم، وسيارات نقلهم، ويطفئوا أحقادهم في القرارة التي يرونها اكبر منبع للعروبة والدين في الجزائر، ومنبع اليقظة الذي يشعل نار الحماس والوطنية في منطقة «النقط» الأثيرة. وكنت وأنا في الأسلاك الشائكة أسائل الصديق الذي وضعت عنده مسودة الكتاب ويسائلني: ترى هل يفتشون الصندوق الذي أخفاها فيه؟ وهل تسترعي انتباههم خرائط الكتاب التي لفت في خشبة طويلة فعلقت في الحائط فصارت كالعلم الملفوف. وكنت قد قاسيت جهدا كبيرا في صنه خرائط الجزء الأول والثالث. وأمضيت ثلاث سنين في التنقيب عن حدود الدول المغربي في القرن الثاني والثالث الهجري وقبل الإسلام فتم وضعها فصارت وثيقة تاريخية نفسية لا توجد في كتاب، قد يظنونها علم الجزائر فيفتحونها، فإذا وجدوا الخرائط ترسم فوق أديم الجزائر حدود دولنا الإسلامية وتشير إلى استقلال الجزائر القديم، وتم عن الوطنية والتاريخ العربي، فويل للصديق وداره! ان اقل ما يرتكبونه ان يخلو الدار من أثاثه فيتركونها صحراء خاوية، ويمزقون الخرائط والكتاب. ولكن قلبي كان مطمئنا، وكنت موقنا بان كتابي وخرائطي سيحفظها الله لأنني الفتها بنية حسنة، وأردت بها نفع إخواني في الأقطار العربية والإسلامية، وخدمة الدين والعربية في المغرب، والقضاء

على أسباب التفرقة التي يبثها الاستعمار متدرعا بأكاذيب الملوك القدماء على المغرب! وبالتاريخ المشوه الذي أوحوا به إلى دعاتهم! فانتهى التفتيش الذي استمر ثلاثة أيام قامت به كتائب جرارة من الجند المسعور، ففتشوا الديار حجرة حجرة وأعادوا تفتيشها ثلاث مرات. وانتهى اعتقالنا في الأسلاك الشائكة، فدخلنا المدينة فعلمت ان الله معي. ان دار الصديق قد فتشت كل حجراته وكشفوا عن خزائنها، اطلعوا على كل ملفوف محجب فيها، ولما وصلوا حجرة كتابي وخرائطي اطلوا عليها من الباب فانصرفوا، فلم تسترع انتباههم الخرائط الملفوفة ولا الصندوق الكبير المغطى في واجهة الباب. فعلمت ان الله معي! وكانت أفراحي بنجاة مسودة كتابي وخرائطي لا تقدر، فزاد هذا في عزمتي على إبرازه في أول سنة من استقلالنا، ليكون القربان الذي أقدمه شكرا لله على النصر، وعلى خروجنا من المعركة والمحن ظافرين!

أراك تظن يا صديقي إنني سأوزع كتابي مجانا «يدك على جيبك ياخوي» فان ما تشتريه به ثمنا للورق والطبع وتكاليفه الأخرى، وفصوله وأبوابه هدية إليك أيها القارئ العزيز على ان يحفظ لي حق إعادة الطبع والنشر وغيره كما بينا!

كان الله معي، فمدني والدي الكريم بكل نفقات الطبع، وجمع لي كل ما استطاع جمعه من دراهمه، فازددت عزما بهذا. فوصلت القاهرة في منتصف سبتمبر الماضي 1962 فشرعت في إعداد الجزء الثاني للطبع وأنا منتش باستقلال الجزائر ورجوعي إلى القاهرة الحبيبة!

لماذا بدأت بطبع الجزء الثاني؟

وكانت مسودة الجزء الأول الذي يشتمل على تاريخ المغرب قبل الإسلام لا تحتاج إلى زيادة وتعديل كبير، فهي على نحو يرضيني، وعلى مادة كافية، وكانت آخر ما كتبت بعد اطلاعي على كل ما مكنني من الكتب في تلك العصور. ثم ان تاريخ المغرب قبل الإسلام وان كانت حلقاته مظلومة فان الذين ظلموه إنما هم الرومان والمستعمرين اللاتينيون الذين يتبين أبناء المغرب أكاذيبهم وتشويههم لتاريخ أجدادهم أما الفتح الإسلامي، وتاريخ المغرب في القرن الثاني والثالث الهجري، فقد كان الذين شوهوه بالأكاذيب إنما هم الملوك القدماء وصنائعهم من المؤرخين المسلمين الذين ينخدع بهم أبناؤنا وإخواننا في المشرق، فيقعون في أخطاء فاحشة تسئ إلى المغرب، وينظرون أجدادهم في صورة بعيدة عن حقيقتهم المشرقة، وشخصيتهم الجميلة، ووجههم الوضاء! ويقعون في الأغلاط التي طالما استغلها الاستعمار لبث الفرقة والشقاق في مغربنا الحبيب. لها

بدأت بطبع الجزء الثاني والثالث لان مسودتهما لم تتم فالعمل فيهما اشق وأكثر، والحاجة إليهما اكبر، ودراهمي لا تتسع لثلاثة أجزاء.

لماذا يتهجم الملوك القدماء على المغرب

كان المغرب في القرن الثاني والثالث أول قطر إسلامي أحيا الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الصحيحة بعدما قضي عليها الأمويون والعباسيون في المشرق وبايع الأئمة العادلين والرؤساء المتقين الذين اختارهم في حرية كاملة، فساروا فيه سيرة الخلفاء الراشدين! فسعد وازدهر، ودخل أعراسه وأفراحه،وصار ملجأ للمضطهدين في كل أنحاء العالم الإسلامي! فاغتاظ الملوك الأمويون والعباسيون لانفصال المغرب عنهم، وإحيائه للإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، واتجاه الأنظار إليه، وإعجاب أهل المشرق بما في دول المغرب من حرية وعدل مساواة ودين، فبثوا فيه دعاية سوداء ليصرفوا الأنظار عنه، وعن نظام الإمامة الجمهوري الذي اخذ به، فشوهوا هذه الفترة الزاهرة من تاريخه! وجاءت الدولة العبيدية فقضت في آخر القرن الثالث الهجري على دول المغرب المستقلة، وقضى ملوكها على كتب التاريخ لتلك الدول الجمهورية، وبسطوا فيها دعاية مسمومة كاذبة ليقتلوا دول المغرب العادلة في القلوب، ويصرفوا نظر أهل المغرب عن الإمامة الإسلامية التي سعد بها المغرب وانتشى بحلاوتها! فامتلأت كتب التاريخ الإسلامي بالأكاذيب على تلك الدول التي آثرت الجمهورية الإسلامية، وأبت النظام الملوكي واستبداد الملوك. فجاء الاستعمار اللاتيني فاستغل الأكاذيب لبث الفرقة في الإخوة الأشقاء، فأمست خطرا يهدد الإخاء، ويعكر الصفاء، ويسوء إلى المغرب إساءة بالغة بتلطيخ أغر صفحاته، وتسويد أحسن عهوده في الأشراف والبياض؛ فكان لابد من إزالة تلك الأخطاء من تاريخ المغرب لكي لا يقع فيها أبناؤها ومؤلفونا في المستقبل. فابتدأت بالجزء الثاني والثالث وأرجأت الأول الذي يشتمل على تاريخ المغرب قبل الإسلام.

ان تاريخ المغرب قبل الإسلام وان كان مهما حافلا بمناظر البطولة، ومجد أجدادنا، وفيه من المادة ما يترك أعظم الآثار في التلميذ والقارئ،وهو ضروري لمن يريد ان يعرف شخصية المغرب معرفة كاملة، فان تأخير طبعه لا يضر قارئ ما طبع من هذا الكتاب، لان الفتح الإسلامي بداية تاريخ جديد للمغرب، لا تنبني كل الانبناء حلقات الفتح وتاريخ دولنا الإسلامية بعده عليه. وأرجو ان أطبعه قريبا فتكمل الحلقات.

وكان العمل في هذين الجزأين الثاني والثالث المشتملين على تاريخ المغرب في القرون الهجرية الثلاثة الأولى صعبا كل الصعوبة. ان الطريق في هذه العهود مطموس،

والسبيل غير معبدة، واغلب الذين كتبوا في تاريخ المغرب من المحدثين قد اغتروا بالمصادر الملوكية فرددوا أغلاطها! فعلى اكتب في تاريخ المغرب أبوابا جديدة معتمدا فيها على المصادر الصحيحة، واسلك في طريق غير معبد، واتى بشيء لم يسبق إليه مستعينا فيه بنتائج من مضى. وكان الله معي فتغلبت على العقبات، فتم الجزء الثاني تأليفا وطبعا، ويليه الجزء الثالث ان شاء الله، وأرجو ان أزفه إلى القراء بعد ثلاثة أشهر بحول الله.

وحدة المغرب الكبير

ان هذا الكتاب «تاريخ المغرب الكبير» بأسلوب أدبي يحببه إلى القراء، وبتحليل فلسفي يرضي العلماء، وببحث علمي نزيه يفرح به كل محب للحقيقة، ويسر به من له غيرة على المغرب. وسميته «تاريخ المغرب الكبير» لان هذا الاسم هو الذي ينطبق كل الانطباق عليه، ويدل عليه الدلالة الوافية.

ان المغرب قبل الإسلام وفي عهود دولنا الإسلامية القديمة كان وطنا واحدا، يسكنه جنس واحد، لم يعرف هذه التجزئة التي صار عليها المغرب الآن. كان وطنا واحدا! فتجد زناتة وهي من قبائل المغرب الكبرى في طرابلس، وتجدها في الجزائر، وتجدها في المغرب الأقصى، وكذلك بقية القبائل المغربية الأخرى. وكانت الدول التي نشأت في المغرب الأقصى تشمل المغرب كله أو اغلب أجزائه، وكذلك ما انشأ في المغرب الأوسط يمتد إلى المغرب الأدنى، وما نشأ في المغرب الأدنى قد امتد إلى المغرب الأوسط والأقصى.

ان تاريخ المغرب القديم واحد، وهو وطن واحد، فمن غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر العرب إلى السودان، كله وطن واحد، يسكنه جنس واحد قد وفر الله له كل أسباب الامتزاج والاتحاد من الدماء الواحدة، والدين الواحد، والبيئة الطبيعية والاجتماعية الواحدة! ! وكان أجدادنا أينما حلوا في المغرب يعتقدون إنهم في وطنهم وفي الهم! وما عرف هذه التجزئة إلا في العهد التركي وفي عهود الاستعمار الأخيرة. فأرجو ان يعتبر كل أبناء المغرب ان انقسام مغربنا الواحد إلى أربعة أجزاء إنما هو انقسام العائلة الواحدة إذا كبرت، واتسعت، فاستقل كل من الإخوة الأشقاء في داره، وهم لأب واحد، وأم واحدة، وأسرة واحدة، ولم يقسمهم ذلك التقسيم إلا ما يريدونه من توزيع المسؤولية لتعمل كل الأعضاء!

ان المغرب الكبير أسرة واحدة! وهو بحكوماته الأربعة كالطائرة العتيدة، لها أربعة أجهزة، وأربع محركات، تنطلق بها إلى الأجواء البعيدة لتحتل مكانتها بين النجوم! !

المغرب الكبير أملنا

أننا لنرجو -وقد تحررت الجزائر- ان نرى المغرب الكبير يرجع إلى عهود أسلافه، فيكون على نظام فدرالي، وتحت حكومة عليا يختارها المغرب، فتجد العربية، ويجد الإسلام، ويجد إخواننا في المشرق العربي المغرب المتماسك الذي تضافرت جهوده، وكما بعضه بعضا، فأصبح قاعدة الإسلام والعروبة التي لا تتزعزع، وسيف الله الذي يسلطه على أعداء الدين والعروبة فيبيدهم!

أجزاء الكتاب

ان «تاريخ المغرب الكبير» سيكون ان شاء الله في عشرة أجزاء كبار: الجزء الأول يشتمل على جغرافية المغرب الطبيعية والسياسية قبل الإسلام وما يبين شخصية المغرب وحقيقته وصفحات دوله الغراء في هذه العهود، وعهوده تحت الاستعمار وثوراته على المستعمرين القدماء، ونضاله للحرية والاستقلال.

الجزء الثاني وهو هذا في الفتح الإسلامي وفي العهد الأموي في المغرب.

الجزء الثالث يكون في العهد العباسي في المغرب وفي الدول الإسلامية المستقلة في القرن الثاني والثالث الهجري: الدولة الرستمية،والدولة الإدريسية، ودولة بني واسول في (سجلماسة) بجنوب المغرب الأقصى، والدولة الأغلبية.

والجزء الرابع في الدولة العبيدية، والدولة الصنهاجية، والدولة الحمادية.

الجزء الخامس لدول المرابطين، ودولة الموحدين، ودولة الحفصيين.

الجزء السادس لدولة مرين، ودولة بني زيات. ثم ينقسم المغرب في عهد الأتراك فتتسع جوانب التاريخ في المغرب، فلا يستطيع الفرد الواحد ان يكتب كتابة مستفيضة عن أجزائه كلها، فاضطر إلى حصر جهودي في الجزائر التي ى زال اغلب تاريخها في هذه الفترة مجهولا.

فيكون الجزء السابع في العهد التركي في الجزائر في الاحتلال الفرنسي.

والجزء الثامن في مقاومة الجزائر للمحتلين وفي حروب الأمير عبد القادر الجزائري.

الجزء التاسع في جهاد الجزائر الإصلاحي والعلمي بعد الاحتلال، وفي نهضتها العربية الحديثة التي ابتدأت في آخر القرن التاسع عشر المسيحي، فهيأت الجزائر لثورتها الكبرى !

والجزء العاشر في ثورة الجزائر وأدوارها وحال الجزائر في عهدها.

إني بعد ان عجلت للقراء بالحلقات المظلومة من تاريخ المغرب، سأعجل إليهم بحول الله بالحلقة المجهولة من تاريخ الجزائر، وهو تاريخها من منتصف القرن التاسع عشر المسيحي إلى القيام ثورتنا. لقد كان في الجزائر في آخر القرن التاسع عشر المسيحي وفي أول القرن العشرين أبطال مصلحون هم الذين كونوا نهضتنا الحديثة، ودفعوا بالجزائر في طريق العزة والحياة، فبلغت النضوج الذي كون ثورتها الكبرى وأورثها الاستقلال! سأعجل بهذه الحلقة ان شاء الله ما دامت مصادره حية. ان اغلب مادة هذا الجزء توجد في رؤوس شيوخنا العلماء الذين أدركوا أولئك الزعماء، أو رووا عمن يحفظ أخبارهم، ولا يوجد في كتب التاريخ منها إلا الشيء القليل. ثم يليه الجزء العاشر في ثورة الجزائر، سأعجل به أيضا ما دام القائمون بها في الجبال، والذي شاهدوا معاركها وحال قرانا في عهدها على ذكر مما وقع. واني لأرجو من حكومتنا الجزائرية ان تمدني بكل مساعدة في هذا الباب، فتطلعني على الوثائق الرسمية التي تبين تفاصيل ثورتنا وأسرارها، وتفاصيل معاركنا الكبرى مع المستعمرين. كما ارجوا من جبال آوراس، وجبال القبائل، وجبال وانشريس، وجبال تلمسان وكل معاقل ثورتنا كل المساعدة إذا زرتها لجمع مادة هذا الجزء منها، ثم ارجع بعد هذا إلى الجزء الرابع متتبعا الأجزاء على التوالي ان شاء الله . واني لأرجو ان أجد من إخواني في المغرب الأقصى كل المساعدة إذا زرتها لجمع مادة دولة الموحدين، ودولة المرابطين، ودولة بني مرين، كما ان أجد من تونس الخضراء العون والمساعدة في جميع مادة دولة الحفصيين. أمدني الله بعونه وبلغ أملي في تأليف هذه الحلقات على أحسن وجه يبدي وجه أجدادنا الجميل، وصفحات مغربنا الغراء؛ كما ارجوا ان أجد من حكومتنا الجزائرية كل العون للاطلاع على كتب تاريخنا في أوروبا، فان تسعة أعشار كتب المغرب في التاريخ قد اقتنصتها الأيدي، فأمست في مكاتب باريس وروما، ومدريد، وبرلين. فلزام على من يكتب تاريخ المغرب ان يتزود من هذه المكاتب الحافلة في أوروبا.

لقد اخترت لطبع هذا الجزء والذي يليه مطبعة من اكبر المطابع في القاهرة، واخترت له أحسن ورق وجدته، وتحملت وحدي التكاليف المادية الباهظة، ورضيت بنفقات الطبع الغالية ليكون الكتاب في مظهره لائقا بصفحات تاريخ المغرب الغراء، وعنوانا لبرنا بأجدادنا. فإذا وجد الإقبال من القراء، وسد مسدا في المكتبة العربية، وأصبح مصدرا لمعاهدنا العلمية في المغرب، فان هذا سيكافئ الجزء الكبير الذي بذلته فيه، ويكون لي أحسن جزاء مع ما ارجوه من الجزء الكبير عند الله.

وقد بذلت الجهد في تصحيحه، ولكن يستحيل ان يسلم إنسان من اللحن، وكتاب

من الغلط المطبعي. قيل لعبد الملك بن مروان لقد شبت مبكرا! فقال: شيبني ارتقاء المنابر وخوف اللحن! هذا في عهود الفصاحة، وفي الأيام العربية القحة، فما بالك بأيامنا التي شاعت فيها العجمة، وغرست فيها الصحافة والإذاعة والكتب الرخيصة أغلاطا شائعة في الألسنة صرنا لا نشعر باللحن فيها. وقد ورد عمرو بالواو في أول الكتاب وهو منصوب. انه خطأ مطبعي انتبه إليه.

وفي الختام اشكر والدي السيد الحاج على بن عيسى دبوز فهو الذي مدني بنفقات طبع هذين الجزأين، وكان لي اكبر حافز على إخراجه. أسأل الله ان يمد في عمره إلى ان يرى حلقات الكتاب كلها يتم طبعها، ويجعل هذا العمل كنزا ثقيلا في ميزان حسناته. كما اشكر الأساتذة والأصدقاء الذين أعانوني بخدماتهم وقووا عزيمتي على طبع الكتاب. واشكر معهد الحياة الذي كان هو السبب لإقبالي على كتابة تاريخ المغرب، ثم مدني بإجازة عام لأخرجه على أحسن الوجوه. واشكر دار الكتب المصرية في القاهرة على إعارتي كل ما أريد من المصادر، واطلاعي على كل ما أشاء من المخطوطات، وما يغمرني به رئيس قاعة المطالعة، وأمناؤها، وكل موظفيها من احترام وإعزاز. كما اشكر (دار أحياء الكتب العربية، عيسى الباني الحلبي وشركاه)

للطبع على ما وجدت فيها من نظام وإتقان للعمل، وفاء بالمواعيد، وحسن في المعاملة.

حفظ الله مغربنا الكبير وأدامه متوجا بدينه وعروبته، رافلا في عزه وسعادته! وحفظ الله امتنا العربية والإسلامية ورؤساءها المخلصين، ومتعها بالمغرب العربي المتحد الصفوف، والقوي البنيان بدينه وعلمه واتحاده! والحمد لله على تأييده وعونه وحفظه في البدء والختام، والصلاة والسلام على خير الأنام!

القاهرة (التوفيقية)

مساء الثلاثاء 1 من ذي القعدة 1382 / 26 مارس 1963

محمد علي دبوز

الفتح الإسلامي للمغرب

غزوة عمرو بن العاص لبرقة وطرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

فتح برقة 22هـ 642م.

وجاء النور بعد الظلام والصلاح بعد الطلاح، وحبة المسلمين بعد عداوة الروم المستعمرين، والحرية المنعشة بعد الاستعباد المميت. وكانت سيوف المسلمين تضيء الجو، ودين المسلمين ينير القلوب، فتزيل السيوف ما بالشجرة الإنسانية من فروع يابسة تنتشر فيها الممات، ويقتل دين المسلمين ما بالنفوس من أمراض هي التي تحفز القبور للأمم، وما في النفوس من أخلاق دنيئة هي التي تقيد الشعوب للجزارين، وتهيئ الأوطان للآكلين.

وكان الروم المستعمرون الطغاة في المغرب هم ذلك الحطب اليابس الذي تراكم عليه فعزف النيران التي تحرقه: نيران الاستعمار التي يؤججها الروم عليه، ونيران الفساد الأخلاقي التي يبثونها في هذه الربوع بالحضارة الفاخرة، والمدنية الفاسدة.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر في سنة عشرين من الهجرة واستنقذها من مخالب الروم العاتية، رأى ان يتتبع الروم حتى يجليهم عن هذه البقاع، ويظهر منهم هذه الأوطان المغربية كلها، لكي يأمن المسلمون في وطنهم الجديد مصر، وتزول العقبات التي تصد نور الإسلام عن قلوب البربر.

وكان عمرو بن العاص من دهاة المسلمين، ومن العلماء بالأوطان، وكان خبيرا بالمغرب، فعرف ان البربر جنس كريم، وأمة عظيمة تمتاز بخصائص ذهبية فإذا اشرف فيها الإسلام، وتطهرت بالإيمان، فإنها تكون قوة عظيمة للمسلمين، وجندا عتيدا للإسلام، فعزم المغرب، فسار إلى برقة في سنة اثنين وعشرين من الهجرة ففتحها.

وكان أكثر سكان برقة من «لواتة» وهي قبيلة بترية من قبائل البربر الكبرى، فرحبت بالمسلمين ففتحت لهم بلادها وقلوبها فلم يجد عمرو فيها مقاومة ولا مصاولة ففرض عليهم الخراج والجزية فسار إلى طرابلس.

فتح طرابلس: وكانت طرابلس تابعة :لجرجير» ملك افريقية، إلا ان سلطانه عليها ضعيف لثورات البربر على الروم، ولشيخوخة الروم بالفتن والحضارة والبربر. فبعث عمرو بن العاص قائده عقبة بن نافع إلى زويلة وفزان وودان، وهي المدن الكبرى في صحراء طرابلس، ففتحها ليأمن ظهره فلا يثب عليه البربر، فسار هو على الساحل حتى وصل طرابلس.

وكانت طرابلس مدينة تجارية كبيرة فحصنها أهلها بالأسوار المنيعة. وكان أكثر سكانها من نفوسة وهم قوم أشداء، وأبناء الحروب والهيجاء. وكانوا قد اعتنقوا النصرانية على المذهب الدنتوسي البربري الذي يدعوا إلى تحرير الأوطان، فعزموا على الاستقلال في وطنهم، فعلموا بمسيرة عمرو إليهم، وكانوا لا يعرفون حقيقة المسلمين، وظنوا إنهم يردون بهم ما قاسوه طويلا من الرومان والروم المستعمرين، فعزموا على الدفاع فغلقوا أبواب المدينة واعتصموا بها مدافعين.

وكان بالمدينة كثير من الروم المستعمرين فتالف منهم ومن البربر جيش كبير وقف خلف أسوار طرابلس وفي أبراجها لمدافعة المسلمين، فحاصرها عمرو شهرا كاملا حتى أتيحت له فرصة فوجد الطريق من جهة البحر لما جزر عن المدينة فبقي الشاطئ مسيرا يابسا إليها، فهجم عمرو من جهة الشاطئ وكان خاليا من الأسوار ففتحها، وقتل كثيرا من المدفعين عنها، وغنم ما فيها وكان مالا كثيرا من الذهب والفضة والبضائع والنفائس. وذلك البربر والروم وما كانوا عليه من حضارة ومدنية راقية.

أما الروم فإنهم لما سمعوا بتكبيرة الهجوم ورأوا جحافل المسلمين تنصب على المدينة ارتاعوا وهلعوا، فركبوا سفنهم فهربوا فلم يبق منهم إلا الضعفاء الذين لم يستطيعوا النجاة. وأمست طرابلس في قبضة المسلمين،وعزم عمرو على مباغتة مدينة صبرة قبل ان تسمع بفتح طرابلس فتستغلق فتتعبه.

وكانت مدينة «صبرة» في غرب طرابلس على بعد ثلاث وثلاثين ميلا ونصف منها. وكانت مدينة عامرة كبيرة قد اعتنى بها البربر والروم فصارت من عرائس المغرب في العمران والجمال والمدنية الزاهرة. وكانت دائرتها نحو ثلاثة أرباع الميل وطولها من الشمال إلى الجنوب كذلك. وعرضها من الشرق إلى الغرب مثله.

وكان الله قد ركب في صدر المغرب هاتين المدينتين: صبرة وطرابلس ليكون فتنة للأنظار، كما ركب في العذراء نهديها الراسخين لتكون فتنة للقلوب!

وكانت صبرة مدينة حصينة، عالية الأسوار، شامخة الأبراج. وكان أكثر سكانها

نفوسة. وهم في الشجاعة والقوة والذب عن الأوطان ذ، والثبات في الحروب كالأسود المدافعة عن عرينها. وكانت طرابلس قد آذنت صبرة بمسير المسلمين إليها، واستنجدت بهم، فتنمرت صبرة واستعدت للدفاع. ولكنها لما رأت طول محاصرة المسلمين لطرابلس أمنت لاشتغال الجند الإسلامي عنها بطرابلس. فأراد عمرو بن العاص ان يداهمها وهي آمنة، ويهاجمها قبل ان تعلم بوقوع طرابلس في أيدي المسلمين. فبعث إليها كتيبه من جيشه فصبحت صبرة فاحتلتها. ولابد وان تكون نفوسة قد قاتلت المسلمين لما اقتحموا المدينة، ووقعت معركة عنيفة بين أهل صبرة والمسلمين، وفي قبلة صبرة اليوم مقبرة قيل ان فيها قبورا للصحابة وارى ان ذلك ان صح فان هؤلاء الصحابة من الشهداء الذين سقطوا في معركة صبرة. وغنم المسلمون كنوزا لا تحصى من صبرة ورجعوا مظفرين تثقلهم الغنائم والسبي إلى عمرو بن العاص. وبافتتاح فزان وودان وزويلة وطرابلس وصبرة لم يعد في تلك البقاع الساحلية ولا في الصحراء التي امن عمرو فيها ظهره نقطة حربية تدافع، ولا أمكنة تمانع. فوقف عمرو على أبواب افريقية[1] في حدود «قابس» فرأى قوة البربر والروم فيها.وكان البربر قد استرجعوا في أكثر نواحي المغرب استقلالهم وتخلصوا من سلطة الروم، وتكونت لهم عدة ممالك يديرها ملوك مخلصون منهم. وكانوا يعتقدون العزم على الاستماتة دونها. وكان الروم يصورون لهم العرب مغيرين غاشمين يريدون استعمارهم. وكانوا لشدة ما قاسوا من استعمار الأجانب، الرومان والوندال والروم قرونا طويلة يسيئون الظن بكل شيء يأتيهم من خارج المغرب. فبودهم ان لا تهب عليهم حتى النسمات ولا يطلع عليهم حتى السحاب من خارج وطنهم. وكانوا قد افتكوا استقلالهم بقوة السلاح، ومهروا حريتهم بدمائهم وأرواحهم، فعرف عمرو ما يلاقي من دفاع البربر والروم، وعلم انه مقبل على مقارعة البربر الأشداء الذين لا يقلون عن العرب في الشجاعة والبطولة. فأرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح المغرب، ويسأله ان يمده بالجيش والكراع.

وكان يعرف أحوال إفريقيا، ويعرف ثورات أهلها على الروم، وشدة البربر في النزال فخاف على المسلمين من تلك الأهوال، وأبى على عمرو ان يتقدم إليها، ويقحم المسلمين في تلك المسبعة البعيدة عن مركز الدولة فلا يستطيع إنجادهم إذا اسودت الأيام. وكان الإسلام لا زال لم يتركز في مصر وبرقة والروم فيها لا زالوا يرقبون غرة المسلمين، فخاف الفاروق ان يشتغل عمرو بن العاص بفتح افريقية فيثب عليه الروم في مصر، فيقع بين

1 - افريقية كانت تطلق في القديم على القطر التونسي اليوم.

نارين فلا يستطيع إنجاده. فقال رضي الله عنه:»افريقية المفرقة[1] لا أوجه إليها أحدا ما مقلت عيني الماء».

وكان جيش عمرو بن العاص قد أرهقته الفتوح التي اتصلت من الشام إلى طرابلس فكان غفي حاجة إلى مدد يسنده، اعضاد مستريحة تظاهره، ليقدم على هذه الخطوة الجبارة في فتح المغرب. فلما أبى عليه عمر رضي الله عنه ان يتقدم إلى افريقية، رجع أدراجه إلى مصر، فترك عقبة بن نافع في برقة ينشر الدين، ويثقف البربر بثقافة الإسلام، ويحرس ذلك الثغر من هجمات الروم، فعكف هو على ولايته مصر يديرها بعبقرية كالتي فتحها بها.

وكان فتح طرابلس وصبرة في السنة الثالثة والعشرين من الهجرة. وكان عمرو قد رجع بجيشه كله فلم يترك حامية منه في طرابلس لان البربر والروم سيثورون عليها فلا يستطيع إنجادهم لبعد الشقة بين طرابلس ومصر؛ فاكتفى منها بالغنائم ومن حملته هذه بالتمهيد للفتوحات المقبلة؛ تلك الفتوح لبتي لا تتاح له فرصة فتكون على يده ولكن على يد أبطال آخرين أولهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وكان عمرو بن العاص قد طوق المغرب بمن لا تحصى لأنه أول أمير فكر في افتتاح المغرب ليبث نور الإسلام فيه، ويزيل الظلم والطغيان الذي كان الروم يصبونه على بعض أهاليه. وقد نقل السلاوي حكاية من كتاب «الجمان من مختصر أخبار الزمان» ان صحت فإنها تدل على رغبة البربر في الاسم، ولعل هذه الحادثة مما شجع عمروا على المسير إلى المغرب قال السلاوي:»لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واستفتحت مدينة مصر -وكان عليها عمرو بن العاص- قدم عليه ستة نفر من البربر حليقو الرؤوس واللحى فقال لهم عمرو: من انتم، وما الذي جاء بكم، قالوا رغبنا في الإسلام فجئنا له لان جدودنا قد أوصونا بذلك. فوجههم عمرو إلى عمر رضي الله عنه، وكتب إليه بخبرهم فلما قدموا عليه -وهم لا يعرفون لسان العرب كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم : من انتم؟ قالوا: نحن أبناء مازيغ. فقال لهم عمر رضي الله عنه ما علامتكم في بلادكم. قالوا نكرم الخيل ونهين النساء. فقال لهم عمر: ألكم مدائن؟ قالوا: لا. قال: الكم أعلام تهتدون بها؟ قالوا: لا. قال عمر: والله لقد كنت مع رسول الله في بعض مغازيه، فنظرت إلى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله صلة عليه وسلم: يا عمر لا تحزن فان الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا

1 - يريد بالمفرقة ان الروم فيها والبربر ربما أحاطوا بالمسلمين فيفرقون بينهم وبين الفاروق فلا يستطيع الاتصال بهم.

حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطريق ثم قال عمر فالحمد لله الذي من علي برؤيتهم. ثم أكرمهم، ووصلهم، وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه. وكتب إلى عمرو بن العاص انم يجعلهم على مقدمة المسلمين وكانوا من أفخاذ شتى» وإذا صحت هذه القصة فان هؤلاء البربر من جهات برقة الشرقية التي كان اغلب سكانها في تلك العهود على البداوة، وأما أهل طرابلس وافريقية فمتحضرون قد بلغوا في الحضارة والمدنية المستوى الذي كان عليه الروم، وآثارهم في لبدة وصبرة «سبراتة» في ناحية طرابلس دليل على ذلك ثم ان هذا ان صح يكون قبل فتح عمرو لبرقة. ومراد النفر الستة ان صحت القصة: إنهم يهينون النساء إنهم لا يشتغلون بها فتكون همهم، ولكن همهم في الخيل وفي السلاح لا إنهم يظلمونها ويحتقرونها، فان البربر يحترمون المرأة، والبربرية تحظى في مجتمعها بكل حقوقها، وسنفصل ذلك في مناسبات مقبلة ان شاء الله. وعلى كل فسواء كانت القصة صحيحة أو من وضع الرواة فان أمل عمرو سيتحقق فينتشر دين الله في المغرب ويكون العرب والبربر امة فذة في المغرب تجدد للإسلام شبابه، وتورث للأمة الإسلامية قوتها الكبرى. ولكن من هؤلاء المحسنون الذين فتحوا المغرب وأشرقوا بنور الله فيه؟ ان أولهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح!

غزوة عبد الله بن سعد 27هـ 647م

كان عبد اله بن سعد بن أبي سرح العامري ن أبطال الإسلام، ومن اعضاد الدولة. ومن المخالب التي هاضت المشركين، وراشت المسلمين وكان على ميمنة عمرو ابن العاص في فتحه لمصر، ومن ضباطه الكبار في تلك الحروب. وقد حسن إسلام عبد الله بعد الرسول صلى الله عليه وسلمـ وتظهر من الارجاس التي كانت تنفخها فيه بيئة الشرك لما كان منغمسا فيها، فتفقه في الذين أسراره، واختلط بالصحابة واشرب روحهم، فصار من الرجال العظام، ومن أبطال الإسلام.

وكان عبد الله أخا عثمان من الرضاعة، فوصله هذا النسب بعثمان فتأثر به، والفتت هذه الصلة عثمان إليه فعرف كفاءته، فسد ثغورا أزادت في تجربته فأصبح من الإعلام ومن الرجال العظام.

ولما عزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر في سنة خمس وعشرين من الهجرة ولي مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وكان المغرب قريبا من مصر، وكان في عرف الدولة الإسلامية في ذلك الزمان تابعا لمصر، فعاملها هو الذي يقود الجيوش إليه، ويعتني بشؤونه، فرأى عبد الله ابن سعد ما يكون للمسلمين من قوة وسلطان إذا فتح المغرب فكانت أرضه جزءا من بلاد الإسلام والبربر جندا في صفوف المسلمين. ورأى استعمار الروم للمغرب، واضطهادهم الاهاليه، ورأى تخبط الأهالي في ظلام الشرك والفساد؛ والإسلام نور لا يرضي بوجود الظلام، وعدل لا يرضى بحياة الظلم، فعبث هذا النور عبد الله ليفتح تلك الأفاق فيهزم فيها الشرك والفساد. فأراد عبد الله ان يعجم عود المغرب ليرى مقدار قوة البربر والروم هناك، فصار يرسل السرايا فتغير على أطراف افريقية فترجع إليه تثقلها الغنائم، فعلم عبد الله انه يستطيع ان يفتح افريقية، ويهزم فيها جرجير ملك الروم، ويجعلها منبعا لأنوار الدين التي نغمر كل أنحاء المغرب.

وارى ان المنافسة التي كانت بين عبد الله بن سعد وعمرو بن العاص لابد وان تجعل عبد الله يفكر في ما أتاه منافسة من السير إلى المغرب حتى لا يكون اقل شأنا منه في العيون. إذا استطاع ان يحقق ما عجز عنه عمرو فدخل افريقية فأزال ملك الروم منها فان ذلك مما يسره ويسر بني أمية معه، ويزيد في نفوذه عند عثمان. فاستأذن عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه في فتح افريقية واراه ما يكون للإسلام والمسلمين من خير إذا فتحوها.

وكان عثمان حريصا على فتح المغرب ولكنه يعرف ما عرف سلفه الفاروق من حقيقة البربر، وأنهم أبناء حرب وطغيان، وعرف طبيعة بلاد المغرب فعلم ان جبالها الكاسية بالغابات قلاع وحصون طبيعية استطاع بها البربر ان يركبوا الروم والرومان الأقوياء، بهزائم لا تحصى، وان المسلمين سيلاقون من مدافعه أهل البلاد ما يشيب النواصي. فأبى ان يقدم على هذا الفتح قبل ان يجمع عليه الصحابة، وقبل ان يرى حماس رؤساء الدولة فبقي أياما وهو يستشير كبار الصحابة في فتح المغرب فزينوا له هذا الأمر وحثوه عليه، وتحمسوا له. فكتب الله للمغرب ان يخرج من جهالته، وتشرق شموس الذين فيه. فإذن عثمان في المدينة يدعو الناس إلى الجهاد، فتطوعت الجماهير، وسارع كبار الصحابة فانخرطوا في الجيش الإسلامي الذي سيحمل الهداية والنور إلى المغرب. وما رأى الناس في تلك العهود جيشا ضم من أقطاب الصحابة وأحبارهم ما اشتمل عليه هذا الجيش الذي ألفه عثمان لفتح المغرب.

وكان هذا الجيش يسمى جيش العبادلة لوجود اغلب من سمي عبد الله من كبار الصحابة فيه؛ فكان فيه عبد الله بن عباس،وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن أبي بكر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبادلة آخرون.

وكان عثمان حريصا على ان يكون فتح المغرب على يده ليكون له الأجر الجزيل عبد الله، وليضم إلى الأمة الإسلامية الجنس البربري الكريم فيكون لها اكبر قوة، وللإسلام اعز نصير، فأعان الجيش بألف جمل من ماله يمتطيها الفقراء، ويحمل عليها الضعفاء، وجعل لعبد الله بن سعد خمس من الغنائم ان فتح الله عليه في افريقية.وهذا يدل على حرص عثمان على فتح المغرب، وعلى صعوبة هذا الفتح والأهوال التي فيه.

فأرسل عثمان هذا الجيش الذي يدل على اهتمام المسلمين بالمغرب إلى عبد الله بن سعد، فلما وصل مصر أضاف إليه عبد الله بن سعد ما معه من الجيش فسار به إلى المغرب، ولما وصل برقة انضم إليه عقبة بن نافع فيمن كان معه من العرب والبربر المسلمين فصار عدد جيش المسلمين عشرين ألفا، وطلع هذا الجيش المبارك إلى المغرب طلوع السحاب يحمل إليه الحياة والسعادة والقوة وكل الخيرات.

وكان غرض عبد الله بن سعد هو كسر اكبر قوة تعترض سير الإسلام في المغرب، وكانت تلك القوة هي قوة جرجير فسار إليه ليشتبك به في معركة فاصلة ويحتل عاصمته «سبيطلة» ويزيل دولته من الوجود. فوصل عبد الله طرابلس فتنمرت له فاكتفى بان تزود منها فغنم ما استطاع من أموالها، وفعلت قابس كذلك فلم يقف

عليها عبد الله لان تلك المدن وان كانت مراكز لنواحيها فهي توابع سيسلس عنانها إذا ذق الرأس، وفتحت سبيطلة.

وكان جرجير واليا على افريقية الدولة البيزنطية. وفي حوالي سنة 608م. ثار على هرقل بن هرقل ملك بيزنطة فأعلن انفصاله عنه، فأنشأ دولة رومية بربرية جعل عاصمتها سبيطلة وسط بلاد البربر في الجنوب الغربي لتونس اليوم.

وكان البربر قد استرجعوا حريتهم واستقلالهم وأسسوا ممالك لهم في كثير من أنحاء المغرب سيما في الجبال كأوراس، وكان البربر في بقية النواحي متنمرين للروم، وكانوا يرقبون الفرصة لينقضوا عليهم فيزيلوا دولتهم الباغية من المغرب. فعرف جرجير هذا فأشرك البربر معه في دولته وابتعد بعاصمته عن الساحل فلم تكن قرطاجنة لأنها في متناول أيدي الأساطيل البيزنطية، ولان اغلب سكانها من الروم وهو لا يثق بهم، فانتقل إلى داخل البلاد واثر مجاورة البربر الذين يثق بهم أكثر من الروم، وتعصمه بلادهم الجبلية أكثر من الساحل العاري لكل المغيرين. فجعل عاصمته سبيطلة وهي هضبة عالية، فحصنها واعتنى بها هو والبربر الذين ناصروه، فتحضرت وصارت من المدن المرموقة في المغرب، ومن القلاع الحصينة فيه.

وكان أكثر الذين ناصروا جرجير إنما هم البربر الدونتوسيون سكان المدن. وكانوا قد اعتنقوا النصرانية على المذهب الدونتوسي البربري الذي يدعو إلى الحرية والمساواة. فوجد جرجير عامل الدين في هذه الفئات المتنصرة من البربر فجرهم إليه وألبهم على العرب، وصورهم للبربر عتاة مستعمرين، وأنهم أعداء لدينهم ووطنهم.

وكان البربر قد سكنوا إلى دولة جرجير، وكانوا يرونها أحسن ميراث لهم إذا مات جرجير أو ثاروا فقضوا عليه. انه منقطع الأسباب من بيزنطة، الدولة القوية التي تناصره، فلم يبق له إلا هؤلاء الروم الإفريقيون الذين قتلتهم الحضارة، واوقذتهم المدينة، فما أسهل ان يقضي عليهم البربر الصناديد متى أرادوا. ورأى البربر في افريقية ان دولة جرجير جولتهم بمسير المسلمين إليهم فوقفوا في صف جرجير، واستعدوا معه للدفاع. فلولا إشراك جرجير لهم في الدولة، ورضاهم عنه، لانضموا إلى المسلمين كما انضم أجدادهم إلى الوندال لما زحفوا على المغرب لمقاتلة الرومان.

فجمع جرجير جموعه من البربر والروم فبلغ جيشه مائة ألف وعشرين ألف جندي وسار عبد الله بن سعد حتى نزل قمونية في الشمال الشرقي لسبيطلة، وعلى بعد يوم وليلة منها. فأرسل إلى جرجير يعلمه بالقصد من مجئ المسلمين، وانه ليس للغارة

والنهب واستعباد الشعوب كما يفعل الرومان والروم المستعمرون. ولكن لنشر الإسلام، وبث المحبة والوئام، وإخراج المغرب من الظلمات إلى النور؛ فعرض عليه الإسلام أو الجزية، فأبى جرجير واستكبر فاستعد للحرب، فزحف عبد الله بجيشه حتى نزل قريبا من مواقع جرجير. وكانت الحرب مناوشة بينهما، يتصافان ويتبارزان، ويلتقي الفريقان في حرب متهيبة قصيرة المدى. وإذا إذن الظهر رجع كل إلى معسكره.

وكان كل من عبد الله بن سعد، وجرجير يتهيب المعركة الفاصلة يلقي فيها بكل قواه، ويبرز فيها كل طاقته خوفا من فشله فيها، سيما جرجير الذي عرف شجاعة المسلمين، وإيثارهم الاستشهاد في الحرب، ونصرة الله لهم في كل المعارك التي خاضوها مع جيوش الكفر والطغيان، ولم يكن واثقا بجيشه رغم كثرته، وكان مملوءا بالرعب والهلع من الجيش الإسلامي على قلته.

وكان عبد الله يتصل بالبربر في جنوب افريقية،[1] ويدعوهم إلى الإسلام، ويحبب إليهم العربية والدين، فاسلم كثير منهم. وكان يرسل السرايا حول قمونية فتغير على أموال الروم ومن تظاهر بالعداء فتغنم منها فترجع مثقلة بالغنائم التي يتزود منها الجيش في ضروراته.

ودامت الحرب معارك متوسطة الأوار لا يستعر لهيبها في معركة فاصلة. وارى ان عدم أقدام عبد الله بن سعد على المعركة الفاصلة ليس لخوفه من جيش جرجير،فما كان لجيش يضم العبادلة ان يهاب جرجيرا ولو كان في أضعاف ما حارب المسلمين به، ولكنه تأنى لعله يجد عورة في جرجير فيغتنمها، ولعل البربر يعرفون حقيقة الإسلام ومقصد المسلمين فينفصلون عن جرجير فيضربه الضربة القاصمة بأقل عناء، وبأيسر دماء. ثم ان غرض المسلمين من دخول افريقية هو نشر الإسلام، لا القضاء على جرجير وحده، وطول الإقامة تفيدهم، لأنها تمكنهم من الاتصال بالبربر ونشر الدين فيهم فيكونون من أنصارهم، فيعزز جمعهم ويكثر عددهم، ويتظاهرون بالبربر المسلمين على الروم.

وعلى كل فأرى ان عدم إسراع عبد الله بن سعد إلى المعركة الفاصلة قد أفاد المسلمين، لان البربر المتنصرين الذين يدافعون عن أوطانهم وعن دينهم سيقفون من الجيش الإسلامي موقف الليوث الغضبى إذا دافعت عن عرينها. وهم في الشجاعة والفروسية، والثبات في الحروب، والتضحية بالنفوس والإخلاص في المعارك لا يقلون عن العرب، فمن الأحسن ان لا يهيجهم بالمعركة الفاصلة التي لا يعرف كيف تكون نهايتها. فلينتظر فان الفرصة لابد وان تواتيه فيغتنمها.

1 - افريقية كانت تطلق في القديم على القطر التونسي اليوم.

وكان جرجير يؤثر ان تطول الأيام على المسلمين فتنفد ازوادهم، ويضعف صبرهم على الغربة، فيشتبك بهم وقد زالت جدتهم، وفترت حدتهم، بينما يكون هو جديدا لأنه في وطنه، وجيشه في تكاثر بمن ينضم إليه من البربر والروم.

ومضت شهور وعبد الله بن سعد في افريقية وأخبار الفتح لا تصل أمير المؤمنين عثمان، فقلق على المسلمين، وظن ان جرجير قد حاصرهم، ومنع صلتهم به. فافد عبد الله بن الزبير في كتيبة من الجيش مددا اعبد الله، وليأتيه بأخباره. ورأى جرجير غبارا يسد الأفق، وسمع تكبيرة الترحاب والابتهاج من جيش المسلمين. فعرف ان مددا قد جاءهم فارتاع من هذا المدد الذي سيجعل البحر يطفح فيغرقه، والمسلمين يتجددون فيتفوقون عليه.

وكان جرجير يجهل ان بالجيش الإسلامي عشرات من كبار الصحابة كلهم يليق ان يكون قائدا للجيش، ويخلف عبد الله ان وقع به سوء، وظن ان عبد الله هو أصل الشجرة فإذا زال تهدمت الفروع. وكانت له بنت جميلة قد أورثها أصلها الرومي والجو المغربي كل مل يمكن ان يجتمع في فتاة من أنوثة وسحر وجمال، وكانت بالغة الثقافة، قد صقلها جو المغرب الذي أودع الله فيه أسرار البحر الذي يخلق اللالي الساطعة، والجواهر الكريمة. فأمرها أبوها ان تلبس زينة حليها وحللها على زينة جسمها الفتان فتضاعفت بذلك في سحرها وجمالها، فأبرزها لجيشه، وجعل منها الجنة التي تحملهم على المغامرة في الحروب ، وإذن فيهم: ان من قتل عبد الله بن سعد زوجته ابنتي وأعطيته مائة ألف دينار. فصار عبد الله يحترس فان الجواهر من الأنس والدنانير لتسول للماديين الكفار ان يلقوا بأنفسهم في النار. فاقترح عليه بعض خاصته ان يؤذن حيث يسمع جيش جرجير: ان من قتل جرجير زوجته ابنته، وأعطيته مائة ألف دينار، ووليته على بلاده. ففعل عبد الله، فصار جرجير يخاف أكثر.

ان الولاية على البلاد مما يغري البربر المتعطشين إلى السيادة في وطنهم فيفتكون به. ثم وجد عبد الله بن سعد فرصته في جرجير فاغتنمها فهجم جيش المسلمين على جرجير فشتت شمله، وقتله هو وجماعة من صناديد قومه، ورؤوس الكفر من حزبه فزال جرجير فزالت بزواله دولة الروم في المغرب. وكان ذلك في السنة الثامنة والعشرين من الهجرة 648م. وبزوال دولة الروم زالت اكبر عقبة تقف في وجه الإسلام في المغرب، وانجلى الضباب الذي يمنع شمس الذين ان تشرق فيه.

وقد أورد ابن الأثير في الكامل قصة تغلب المسلمين على جرجير ونحن نثبتها لأنها

قد تكون صحيحة، إلا ان ما فيها من نسبة الخطة البارعة التي هزمت جرجير إلى عبد الله بن الزبير قد تكون من الدعاية التي تفضل عبد الله بن الزبير في الخصام الذي وقع بينه وبين الأمويين، والحروب التي شجرت بين الفريقين من اجل الملك. لقد تكونت لابن الزبير شيعة تنسب إليه كل ما يرفعه ويجعل كفته هي الراجحة على عبد الملك بن مروان. وإذا كانت معركة افريقية من المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون، ومن الأعمال العظمى التي وقعت في عهد عثمان، وعلى يد عبد الله بن سعد فانه لا يبعد ان تحاول شيعة عبد الله بن الزبير فتسند إليه الفضل في تلك المعركة الكبرى. بل ان الرواة قد صاغوا القصة على نحو يوحي بضعف عبد الله بن سعد. فإنهم جعلوه لا يهتدي إلى وسيلة يهزم بها جرجير حتى قدم عبد الله بن الزبير من المدينة بعد شهور فكان هو الذي يدل عبد الله بن سعد على المكيدة التي نجحت فانتصر المسلمون الانتصار الباهر على عدوهم.

ان عبد الله بن الزبير منة أبطالنا العظام، ومن صناديد دولتنا الإسلامية، وعبد الله بن سعد من صناديد دولتنا ومن أبطالنا العظام. فما كان لنا في هذا الزمان ان ننساق مع المراجع القديمة فننقل ما سولته الحزبية القديمة لأصحابها. فلنكن على حذر في كتب التاريخ القديمة فان اغلبها من إملاء الساسة المغرضين، ومن العلماء الضعفاء المزلفين.

قال ابن الأثير يروي تلك القصة:... ثم ان عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد ان أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في إمداد متصلة، وبلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم. وقد رأيت ان تترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى ان يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم غرو فلعل الله ينصرنا عليهم. فاحضر جماعة من أعيان الصحابة فاستشارهم فوافقوه على ذلك فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديدا، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير، وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، ثم ان كلا من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا، فعند ذلك اخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم

المسلمون، وقتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزام الروم، وقتل منهم عظيمة وأخذت ابنة جرجير مسبية».

ان محاولة شيعة عبد الله بن الزبير ان تخصه بالفضل في نجاح المسلمين في افريقية مما يدل على عظم هذه المعركة عند المسلمين، وعلى إكبارهم لأثارها، واعتدادهم بها، انها معركة منة معارك أربع خضدت المغرب من أشواكه، وأزالت منه رؤوس الكفر فانتشر فيه الإسلام، ولكن هذه المعركة هي أهمها. فلولا تطهير افريقية، وزوال اكبر دولة من دول الشرك في المغرب، وهي دولة جرجير، وما وجد المسلمون طريقهم إلى أنحاء المغرب فطهروها، وما استطاعوا ان يؤسسوا قاعدة في المغرب وهي القيروان فينبع منها نور الهداية والإيمان. وقد سفقت المدينة طربا، وفرح المسلمون كلهم لنجاح الجيش الإسلامي في القضاء على دولة جرجير. تلك الدولة التي يسندها البربر الشجعان، ويذودون عنها بالبطولة التي يشهد لهم بها التاريخ. ولولا شجاعة الجيش الإسلامي وحنكة قيادته، ولولا نصر الله له ما استطاعوا التغلب على تلك الجيوش الجرارة التي حشدها جرجير.

ولما قتل جرجير وانهزام جيشه، وقتل كثير من صناديد دولته، فض المسلمون على عاصمته سبيطلة فحاصرها عبد الله حتى فتحها فغنم ما فيها، وكانت كنوزا لا تحصى، مما يدل على غنى الدولة والحضارة الراقية التي كان يرفل فيها المغرب؛ وكانت أكثر أموالهم التي غنمها المسلمون الذهب والفضة وذلك أرواج التجارة في المغرب، لكثرة بضائعه، والخيرات التي فيه. وهرب البربر والروم إلى حصن الاجم في شرق سبيطلة، وبين سوسة وصفاقس اليوم، وكان حصنا منيعا، ومدينة حصينة، فحاصرها عبد الله حتى فتحها وغنم ما فيها. فأرسل سرايا إلى شمال سبيطلة وجنوبها، فوصلت سراياه في الشمال إلى حضرموت «سوسة» وفي الجنوب إلى :قفصة» فقتلت كل من تعرض لها، وغنمت ما ظفرت به في تلك البقاع الآهلة العامرة المتحضرة، فرجعت ظافرة منتصرة، تثقلها الغنائم والسبي، وألح عبد الله بالهجومات العنيفة على بلاد الروم والبربر، وكان يهدم أسوار كل حصن يفتحه حتى لا يعتصم به أعداؤه، فأشفق الروم والبربر على أنفوسهم وأموالهم من هجمات المسلمين، فطلبوا إلى عبد الله ان يدفعوا إليه مالا كثيرا ويكف عنهم ويرحل عن بلادهم، فرضي عبد الله فصالحهم بألفي ألف وخمسمائة ألف دينار فدفعوها إليه فكف عنهم.

وقسمت الغنائم بين المجاهدين بعد إخراج الخمس منها لبيت المال، فناب للفارس ثلاثة آلاف دينار، وللراجل ألف دينار.

وقيل ان الغزالة بنت جرجير نفلت إلى عبد الله بن الزبير لأنه قاتل جرجير، وقيل نفلت إلى رجل آخر فعلمت انها ستعتبر امة مسخرة فألقت نفسها من الجمل الذي حملت عليه فماتت. وارى ان هذا هم الصحيح، لان بنت جرجير لو دخلت المدينة وصارت إلى عبد الله لورد ذكرها في تاريخ عبد الله ولكننا لا نرى لها أثرا.

وكان عبد الله بن سعد قد أطال الغيبة عن ولايته مصر فخاف الشغب فيها، ولعله قد لاحظ الأفق بوادر الفتنة التي أثارها خصوم عثمان، وعرف ان في المغرب عقبات كثيرة فلا يفتح بمحاولة واحدة، وان الروم إذا انكسروا في الجنوب فلا زالوا أقوياء في الشمال، وهم معتصمون في مدنهم الحصينة، وقلاعهم العالية، وان البربر لازالوا في جبالهم الشامخة، وهضابهم الصعبة يرقبون المسلمين بعيون النمور المسعورة، وهم مستعدون للموت في سبيل بلادهم. فاكتفى عبد الله بتظهير جنوب افريقية ووسطها وإزالة اكبر قوة فيها، فرجع أدراجه إلى مصر، على ان يرجع في جيش جديد ليواصل فتح المغرب فيتم إسلامه على يده. ولكن الله لا يكتب لعبد الله ان يفتح المغرب كله فقد ثارت الزعازع بقتل عثمان، وعزل عبد الله عن مصر، وأطبقت الفتنة السوداء باغتيال أمير المؤمنين عثمان على المسلمين فشغلهم عن مواصلة فتح المغرب سبع عشرة سنة.

وكان مسير عبد الله بن سعد لغزو افريقية في سنة 27 هجرية ورجوعه فير سنة 28 هـ. ومقام المسلمين في افريقية سنة وثلاثة أشهر. وقيل انه لم يستشهد من المسلمين إلا ثلاثة نفر منهم أبو ذؤيب الشاعر الهذلي فدفن هناك. ولعل هذا العدد في المناوشات الأولى التي كانت تجري بين المسلمين وبين جرجير- وانه استشهد في معارك سبيطلة والاجم، وحضرموت وقفصة وغيرها عدد من المسلمين فلم يذكروه. ان البربر ذوو شجاعة وصدام فلا يمكن ان يعطوا بأيديهم بدون حروب طاحنة، ومعارك تشيب من هولها النواصي، ويسقط فيها عشرات من الشهداء.

وكان عبد الله بن سعد أول قائد أحسن إلى المغرب بان حمل نور الله إليه، وكان العبادلة ومن معهم من كبار الصحابة والتابعين هم مصدر النور الأول الذي لامس المغرب فأخرجه من ظلماته. فيا ما أعظم المنن التي طوقنا بها أولئك الأبطال الذين لم يكن لهم غرض في الزحف على المغرب إلا بث الحياة فيه، والإحسان إلى أهله بإنقاذهم من الجهالة والكفر الذي كانوا عليه. وتعطرت تربة المغرب بدماء الصحابة الأبرار وكانت تلك الدماء هي الانداء التي داخلت صروح الكفر فانهدمت. ثم يسير معاوية ابن حديج بعد سبع عشرة سنة فيتم في افريقية ما بدأه عبد الله.

روى المؤرخون :»ان عثمان أعطى عبد الله بن سعد خمس الخمس من غنائم افريقية وباع أربعة أخماس الغنيمة الباقية لمروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار ثم وضعها عنه».

وكان هذا مما استغله أعداء عثمان في الدعاية ضده، فأوغروا قلوب العامة عليه، فكانت تلك الفتنة التي أدت إلى قتله.

وأنا أرى ان أمير المؤمنين عثمان أكثر ورعا ونزاهة من ان يرتكب في أموال المسلمين هذا، ولكن مروان ماطله في ثمن ما اشترى فلم يقف معه عثمان موقف الشدة ليؤدي ما عليه. وقتل عثمان قبل أداء هذا الدين، فادعى مروان وأبناؤه الذين لا يتعففون عن أموال المسلمين انها قد طرحت عنه، أو طنت العامة ان سكوت عثمان على مروان لما لم يرغمه على دفع ما عليه إعفاء له من السداد. ان عثمان من كبار الصحابة الذين يجب علينا إجلالهم وهو ارفع واجل مقاما من ان يتصف بما يصمه به أعداؤه.

غزوة معاوية بن حديج السكوني 45هـ 666م

وكانت الفتن التي شبت بين معاوية وعلي عائقا للمسلمين عن الفتوح، فظل الهاشميون والأمويون يتناطحون على الخلافة حتى قتل الأمام علي رضي الله عنه في سنة 40هـ، في عشرة آلاف إلى افريقية ليغزوها.

وكان معاوية من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنكين، ومن رجالات الفتوح الكبار، ومن اعضاد معاوية في الاستيلاء على الملك، وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وكان لمقامه عند معاوية بن أبي سفيان إذا وفد عليه زينت له الطرق بقباب الرياحين تعظيما لشأنه. وقيل انه صحابي، وقد حضر غزوة عبد الله بن سعد لافريقية، فأبلى فيها البلاء الحسن، وكان من ضباط عبد الله، ومن أركان حربه. وقيل انه غزا المغرب عدة غزوات بعد غزوة عبد الله، ولعل هذه الغزوات هي السرايا التي كانت تتوالى من مصر فتصيب من أطراف افريقية فترجع مثقلة بالغنائم والسبايا.

وكان في غزوة معاوية كثير ممن شهد غزوة عبد الله من رجالات الإسلام، ومن الصحابة والتابعين.

وكان معاوية بن حديج خبيرا بالمغرب، عارفا لشؤونه، وكان حريصا على فتحه وكان مع هذا قائد جيش مصر فلذلك اختاره معاوية بن أبي سفيان لهذا الأمر الكبير.

وكان المغرب تابعا في عهد عثمان، يغزوه والي مصر، ويقود الجيوش إليه ويراه امتداد لولايته، ولكن معاوية بن أبي سفيان لدهائه وبعد نظره، علم ان المغرب لا يستطيع فتحه والقيام به، ونشر الإسلام فيه إلا شخصية ذات كفاءة تعطي نفسها لذلك ولا يكون لها عمل يشغلها. أما والي مصر فإذا أجدى في فتح بعض نواحي المغرب، فانه لا يستطيع القيام به، والاستقرار فيه ليدوم فيه نفوذ الإسلام، ويكون في جملته المسلمين كما يريد معاوية ويهدف إليه. ثم ان ولاية مصر عبء ثقيل سيما بعد ان تكونت فيها الفتن، وقلبت المجن للأمويين. فأميرها يجب عليه الإقامة فيها ومراقبة شؤونها. من يدري؟ لعل الأحداث التي وقعت في مصر، وأدت إلى قتل عثمان، وشقت عصا المسلمين قد ابتدأت أيام غيبة عبد الله بن سعد عن مصر في فتح افريقية فخلا الجو لخصوم عثمان.

ثم ان المغرب وما فيه من كنوز وأموال لا تحصى وسبايا تكسف الشموس بالجمال، وتخجل الورد بالحسن، وتقول للمحار يا أماه وللربيع يا أبتاه. ان هذا كان يريد معاوية ان يكون له، ولا يكون لصاحب مصر فيستأثر به، أو يهدى له منه الفتات.

ثم البربر وشجاعتهن، وبطولتهم في الحروب، واقتدارهم في الأعمال، وكثرتهم في العدد إذا كانوا من جند صاحب مصر، ينصاعون له، وينفذون أوامره، إلا يداخله الغرور بمال المغرب ورجال المغرب فيثور على الدولة، وينفصل عن الشام؟ ان من جبلة البربر الثابتة حب الاستقلال، فهم أعداء اللامركزية في الحكم، وسيسارعون إلى الانفصال عن الشام إذا سول لهم أمير مصر ذاك. هذا ما رآه معاوية ببعد نظره، وسداد فكره، فاثر ان يكون المغرب ولاية مستقلة، ترجع أمورها إليه، فيضمن بذلك فتح المغرب، والاستفادة بكفاءة رجاله، وان يثني بعنانه إليه، فيكون في قبضته، يصرفه كما يشاء. فلم يكلف وال مصر ان يسير إلى المغرب كما فعل عثمان. بل أمر هو معاوية بن حديج، وأرسل إليه جندا من الشام، وكلفه بان يسير بمن معه إلى المغرب.

وكانت الأسباب الأصلية لإرسال معاوية بن أبي سفيان بجيوشه إلى المغرب هو حرص المسلمين على فتحه، ورغبتهم الأكيدة فيه، وإتمام الخطوات التي سبقت من عثمان لما أرسل ابن أبي سرح إليه، والسبب المباشر هو خليفة جرجير الذي هرب من افريقية إلى الشام.

وكانت بيزنطة لما سمعت بما أعطى الروم والبربر م أموال لعبد الله بن سعد قد أجبرت الروم والبربر في افريقية على ان يعطوها مثل ذلك فاعتذروا، فوقع القتال بين خليفة جرجير وبين القائد الذي أرسلته بيزنطة لاستخلاص الأموال. فهزم القائد خليفة جرجير ففر إلى الشام فاتصل بمعاوية فصار يزين له فتح افريقية، ويصف له خيراتها، ويدله على عورات الروم، فبعث معاوية بن حديج لغزوها.

وسار معاوية حتى وصل طرابلس ففتحها وترك فيها رويقع بن ثابت الأنصاري في كتيبة من الجيش واليا عليها. فسار رويقع بجيشه بحرا إلى جربة ففتحها قيل في سنة 46 وقيل في 17 فنشر فيها الدين، وضم أهاليها البربر إلى المسلمين. أما معاوية فسار إلى افريقية فنزل بقمونية قريبا من مكان القيروان فاعد عدته لمواجهة الروم.

وكانت بيزنطة قد أرسلت جيشا لها إلى المغرب ليطلب لنفوذها الذي زال بانفصال جرجير، وبغزوة المسلمين، فنزل هذا الجيش في حضرموت وهي (سوسة) بشمال القيروان، فأرسل إليه معاوية فصيلة من جيشه تحت قيادة البطل المغوار عبد الله بن الزبير، فتسامع الجيش البيزنطي بمسير المسلمين فداخلهم الذعر فركبوا سفنهم فلاذوا بالفرار، فدخل عبد الله بن الزبير مدينة حضرموت ففتحها، وقاتل من صده من البربر والروم فهزمهم، وغنم من أموالها، وسبي م بنات أورد فيها، فرجع منصورا إلى معسكر المسلمين.

وكان عبد الله بن سعد قد قضى على جرجير وحزبه فطهر وسط افريقية وبقي الساحل الشمالي وبعض المراكز في الجنوب، لا زالت تعج بالروم الذين يتنمرون للمسلمين، ويوغرون قلوب البربر على العرب، ويسعون ان يظل المغرب ثديا لبيزنطة إلى الأبد؛ ثدي الرضيع الذي يمصه ويعضه ولوثه، لا صدي الحسناء الذي تؤثره بالعطر، وتخصه بالعناية، وتحرص ان يكون دائما إلى الأعلى لا إلى الأسفل. فلابد من القضاء على هذه القوة الرومية، واحتلال كل المراكز العدوة، وتطهير الشمال من الروم الذين تظاهروا بالعداوة للمسلمين، واستعدوا لقراعهم ومدافعتهم.

وكانت قلعة «جلولا» من المراكز الحصينة، وقد استغلقت وكشرت عن أنيابها فلابد من احتلالها ليخلص جنوب افريقية ووسطها للمسلمين.

وسمع معاوية بتجمع قوى كثيرة للروم في بنزرت، فقسم جيشه إلى قسمين، فأرسل جزءا منه إلى جلولا تحت قيادة عبد الملك بن مروان وسار هو بالباقي إلى بنزرت.

وكانت جلولا بجنوب القيروان، تبعد عنها بأربعة وعشرين ميلا. وكانت مدينة حصينة، وقلعة عالية، وحصنا منيعا.

وكانت متحضرة مترفة، ناعمة غنية، تربتها خصبة جللها بالرياض، وجوها جميل يكسوها بالسحر، وهي غريقة في الزهور كالعروس، فلذلك سكنها جمهور كبير من الروم والبربر المتحضرين الذي كثروا للمسلمين، فأرسل إليها معاوية من يطهرها.

فسار عبد الملك بن مروان في ألف من الجيش إلى جلولا. وكان عبد الملك شابا حدثا لم يتجاوز سنه التاسع عشرة سنة. وكان فارسا شجاعا، وقائدا محنكا، ورجلا خبيرا بالأمور فاختاره معاوية لفتح جلولا. هذه هي الأسباب التي جعلته يؤثره للقيادة. أما من قال انه أثره لاسترضاء الأمويين، والتزلف إلى معاوية فانه لم ينظر بعيدا. انه لم يختره إلا لكفايته. وما كان لمعاوية ان يقوم أصيلا كعبد الملك إلى مهمة يفشل فيها فان فشله إزراء به وبأسرته، وحطه لمعاوية بن حديج الذي يتحمل المسئولية في كل ما يقع من الجيش أو يقع له، وهو الحريص على ان ينتصر ليزداد علوا في المقام، ونباهة في القدر.

أما عجز عبد الملك عن فتح جلولا بقوة الحسام فذلك لحصانتها وعلو أسوارها. وقد أعجزت طرابلس عمرو بن العاص. فلم تسلق يستطع أسوارها، أو نقب حيطانها، كما أعجزت طرابلس الأمام عبد الوهاب بن رستم في القرن الثاني، رغم عظمة ملكه، ووفرة جنده، وشجاعة رجاله. لو نزل جند جلولا إلى عبد الملك فهزموه لاستضعفناه؛ أما وقد

أعجزته الأبراج العالية، والأسوار العريضة الشامخة، والجند البربري الشجاع المختبئ وراء الأسوار يرمون ولا يرمون، ويصيبون من شاءوا ولا يصابون، فان عجز عبد الملك عنها دليل على حصانة جلولا، وما كان عليه المغرب من حضارة وعمران، لا على عجز عبد الملك والجيش الإسلامي، وهم اسود الوغى، وحتوف الفرسان.

ولما سمعت جلولا بمسيرة المسلمين إليها استغلقت وتنمرت، وتحصن أهلها بأسوارها العالية، واستعدوا للدفاع. فحاصرها عبد الملك أياما فارتد عنها. وما كادوا يبتعدون عنها حتى رأى المسلمون غبارا على أبواب جلولا فظنوه جيشا قد طمع فيهم فنظروا فادا ركن من سور جلولا قد أنهدم فرجع المسلمون فدخلوا من الركن فاحتلوا المدينة، فقتلوا من اعترض سبيلهم، وغنموا منها من الدراهم والكنوز والنفائس الشيء الكثير. فرجع عبد الملك إلى معاوية، وحقائب جيشه تغص بالغنائم، وجوه لا يشرق بوجوه المسلمين التي جلاها الانتصار، وسيوفهم المجلوة بالعناية فحسب، ولكن جلولا التي سباها المسالمون أيضا فحملوها، وهي أغلى عندهم من كل الجواهر والكنوز.

وارى ان انهدام ركن من السور كان المعالجة أهل جلولا ليدعموه لضعفه، ويزيدوه، مغتنمين فرصة تراجع المسلمين، فانهدم. والملائكة التي تحارب مع المسلمين هي التي توالت تهديمه، والله الذي أراد للمغرب ان يتطهر هو الذي فتق جلولا كما يفتق كل القروح ليطهرها المسلمون.

أما معاوية بن حديج فسار ببقية الجيش إلى بنزرت فحاربه الجيش الرومي المتجمع هناك فهزمه، وركب الروم سفنهم ففروا ناجين في البحر لكي لا يغرقهم الجيش الإسلامي في الدماء. وغنم معاوية من تلك البقاع المتحضرة الآهلة غنائم كثيرة فرجع مكللا بالنصر المبين. ثم غادر افريقية راجعا إلى مصر مكتفيا بهذه الخطوة، وبهذه العمليات الثلاث التي مهدت افريقية لاستقرار المسلمين.

وكان معاوية قد نزل بمكان القيروان فحفر فيها آبارا، وقد روى المؤرخ الكبير الشيخ محمود بن سعد مقديش الصفاقسي في كتابه الثمين نزهة الأنظار: ان تلك الآبار موجودة إلى عصره وهو القرن الثالث عشر الهجري. قال:»وهذه الآبار خارج باب تونس بالقيروان عند مصلى الجنائز. وتسمى آبار حديج إلى الآن، غلب عليها اسم أبيه» وقد ابتنى معاوية بيوتا قريبا من مكان القيروان في جبل يسمى القرن وهو المعروف اليوم بجبل «وسلات» وقد آوى إليه فآثره مقرا له لأنه أكثر حصانة من الوهاد، وإذا آثره مقرا دائما للمسلمين الذي سيتوافدون على افريقية فانه قد اخذ بحكمة البربر الذي يبنون

مدنهم في الجبال وعلى كل فان معاوية هو أول من فكر في البناء في افريقية.

ورجع معاوية أدراجه بدون ان يفتح عاصمة الروم قرطاجنة، ولا ان يدق إحدى الحصون البربرية في غرب افريقية ليفتحه. ولعل معاوية بن أبي سفيان هو الذي رسم له هذه الخطة، ان لا يحارب إلا من يحاربه فوجد قرطاجنة والحصون البربرية ساكنة فأبى ان يهيجها. وارى أم معاوية بن أبي سفيان لا بد ان يضع الخطة لقائده، وقد أراد بهذه الغزوة ان يعجم عود المغرب، ويعرف مقدار قوة الروم، ليعرف ماذا يستلزم فتح المغرب من القوى فيوجهها إليه. ان معاوية بن أبي سفيان الداهية الخبير ما كان ليبعث ابن حديج في عشرة آلاف من الجيش لو أراد بهذه الحملة فتح المغرب والاستقرار فيه.

ورجع معاوية بعد ان حفر آبارا من الماء في المغرب، ومهد للفاتحين من بعده ليستنبطوا للمغرب آبارا من الدين تروى غلته، وتلبسه ربيعه، فيطير إلى العلى.

وكان عدد جيش معاوية عشرة آلاف ومسيرة في سنة 45هـ. ومقامه في المغرب شهورا يسيرة. ثم يأتي بعده ولي الله عقبة بن نافع فيسير بالفتح خطوات إلى الأمام.

عقبة بن نافع الفهري 50هـ 671م

غزوته الأولى وبناؤه القيروان

هو عقبة بن نافع بن عبد ألقيس بن لقيط، قرشي من فهر. ولد قبل الهجرة بسنة واحدة. وكان أبوه نافع بن عبد ألقيس من أبطال الفتوح، فول عقبة بوراثة حربية من أبيه، ونشأ في بيئة الدين فتشربه قلبه. فكان من العباد الصالحين، ومن أولياء الله المتقين.

وكانت نشأته أيام الفتوحات الكبرى في عهد أبي بكر والفاروق وعثمان: أيام كان الشباب الإسلامي لا يتحلون بغير السيوف، ولا يرون لهم متاعا إلا الجهاد في سبيل الله، وبث نور الله في القلوب المظلمة فتستنير، وتطهير الأم الكافرة بدين الله فتتنقى، والدفع بالدول الجاهلة الوثنية إلى طريق الحضارة والمدنية الصحيحة فتسعد. فنشأ عقبة وهو مغرم بالجهاد في سبيل الله، ليس له هم في الحياة إلا ان يزرع دين الله في النفوس الضالة، ويحارب الكفر والوثنية في أوكارها فيزيلها، ويستشهد في سبيل الله، وآخر ما يرن في سمعه من أصوات الدنيا حمحمة فرسه في سبيل الله، وصليل سيفه وانين قتلاه الذين صرعهم من اجل الله. ولما كبر سار مع المسلمين إلى الشام في حروبهم مع الروم، فكان من الأبطال الصناديد، ولازم عمرو بن العاص في فتحه لفلسطين ومصر فكان من أركان حربه، ومن سواعده المتينة في فتوحاته.

وكان عقبة ابن خالة عمرو، فالفتت هذه القرابة عمروا إليه، فصار يعتمد عليه، ويسد به الثغور التي أظهرت شخصيته، وأنضجت مواهبه.

وكان عقبة قد حضر فتح برقة وطرابلس مع عمرو بن العاص، وكان من ضباطه الكبار فأرسله إلى جنوب برقة ففتح ودان وفزان وزويلة، وحضر غزوة عبد الله ابن سعد لافريقية. ولما رجع عمرو بن العاص من طرابلس تركه في برقة يغزو وينشر الإسلام، ويثقف البربر بدين الله.

وكانت إقامة عقبة في البربر دهرا طويلا، وحروبه في الشام ومصر وافريقية للروم قد عرفته بالبربر والروم فصار أليق الناس لقيادة الجيوش إلى المغرب، وإدارة معارك الفتوح في أرجائه.

وكان عقبة حريصا على ان يكون فتح المغرب على يده. وكان شخصية حربية ممتازة، فكان المغرب بشدة أهله في المقاومة، واتساع مجالات الفتوح فيه، أليق ميدان يشبع نهمه في الجهاد في سبيل الله.

وكان معاوية بن أبي سفيان حريصا على فتح المغرب، وكان يعلم انه لا يستطيع فتحه ونشر الإسلام فيه إلا جماعة تستقر فيه لتخلق البيئة الإسلامية التي يتأثر بها البربر، وتصد الروم وشيعتهم عن التعدي على المسلمين، وتدبير المكائد لصد الإسلام عن الانتشار، ومنع البربر عن الإقبال على الإسلام والمسلمين. فآثر عقبة نافع لهذه المهمة، لخبرته بافريقية، وإخلاصه في الجهاد، وحرصه على هذا الفتح، وتحرره من وظيفة تعوقه عن الاستقرار في المغرب، ورغبته في محاورة البربر والسكن معهم ليأخذ بأيديهم إلى دين الله.

فولى معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع في سنة 50 هـ. قيادة الجيوش لفتح المغرب، فسار عقبة في عشرة آلاف من المغرب والبربر الذين اسلموا في برقة فنزل بقمونية وهو مكان القيروان اليوم.

وكان عقبة يعتقد ما يؤمن به الملك معاوية، لن فتح المغرب لا يتم، والإسلام لا ينتشر في ربوعه إلا باستقرار المسلمين فيه، وان رجوع المسلمين منه يمحو كل اثر أحدثوه فيه. فقال لأصحابه:»ان افريقية إذا دخلها أمام تحوموا بالإسلام فإذا خرج منها رجع من كان اسلم بها وارتد إلى الكفر، وارى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تجعل فيها عسكرا وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر». فعكف عقبة والمسلمون على بناء القيروان لتكون دارا للمسلمين، فقضى في ذلك خمس سنين. وكان أثناءها يغير على النواحي القريبة، ويتصل بالبربر، وينشر فيهم الإسلام، ويعد الخطة لفتح المغرب.

وكان مكان القيروان بقمونية، وهو ناحية في الوسط الشرقي لافريقية، ليست ضاربة في الشمال فتكون جبلية، ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية، وكان القيروان منه بجانب سبخه كان البحر في الزمان الخالي يربي فيها الجواهر التي يغتني بها البشر، فجزر عنها ليولد فيها الدين الحنيف في المغرب وهو غنى البشر.

وكان العرب منذ عبد الله بن سعد يؤثرون قمونية لنزولهم، لأنها بسيط من الأرض، كثير المراعي، جيد الهواء، خصب التربة، كثير المياه، بعيد عن البحر الذي يمكن ان يداهم منه الروم، خال من الجبال التي يمكن ان يكمن فيها العدو، وهي بعد في سهل واسع مدينة عظيمة كالتي تخيلها عقبة وتمنى ان تكون. وقد حقق الله آمال عقبة، وأنتج غراسه، فصارت القيروان عاصمة المغرب، ومنبعا للدين والعربية، والحضارة الإسلامية، ومنارا من منارات مغربنا الحبيب، تجلو عنه الظلمات، وتهديه إلى طريق الحياة. وقد بنى عقبة المسجد الجامع، ودار الإمارة وسور المدينة ودائرته 13600 ذراع، وبني قواده وأجناده

دورهم وقصورهم فصارت مدينة كبيرة، وعاصمة الإسلام في المغرب.

فتهيأ عقبى بعد بناء مدينته ليفتح المغربين الأوسط والأقصى، وتقر عينه بالجهاد في سبيل الله، ففوجئ بالعزل فتأسف وتحسر، وحزن على عدم إدراك مناه، وتنفيذ كل خطته.

وكان الذي سعى لعزله هو مسلمة بن مخلد الأنصاري، أمير مصر. وكان مسلمة من شخصيات البارزة في الدولة الأموية، ومن أركانها الكبرى، ومن رجالات العرب التي اصطنعها معاوية فرجحت كفته، وبلغ مناه في الملك. وقد ولاه معاوية على مصر الغنية الجميلة الوادعة، مكافأة له على ما أسلف من نصرته، والوقوف بجانبه لما كان يجاذب الأمام عليا رضي الله عنه تاج الرئاسة ليجرده منها فكان مسلمة ذا نفوذ كبير في الدولة، وصاحب دالة على معاوية، لا ير له طلبا، ولا يخيب له مسعى.

وكان مسلمة داهية حكيما، وبطلا طموحا فآثر ان يكون فتح المغرب على يده، لينفذ فيه سياسة حكيمة تضمنه للمسلمين بأيسر عناء، وبأقل دماء، وتجذب البربر إلى الإسلام والمسلمين فيكونون اخلص الأصدقاء، ولعله قد رأى كنوز المغرب فآثر ان يكون على يده ليأخذ من السبي والغنائم ما يريد. وارى ان حرص مسلمة على المجد والعقبى التي تكون له بفتح المغرب، وانضمام المغرب إلى دولته، هو الذي جعله يلزم معاوية على عزل عقبة وضم المغرب إليه، لان سيرة أبي المهاجر في المغرب وقد كانت بوحي من مسلمة تنبئ بان مسلمة ليس من أولئك النهمين الذين يرون المغرب مزرعة، وثديا للرضاع، كما أرى المروانيون من بعده.

فلم يجد معاوية بدا من عزل عقبة عن المغرب، وأبطال ما كان قد قرره من جعل المغرب ولاية مستقلة، فحقق لمسلمة ما أراد فضم إليه المغرب فشمر مسلمة لفتح المغرب بدهائه وحنكته، فاختار له رجلا كفؤا يليق لسياسته فعزل به عقبة، وكان هذا القائد الحكيم، والوالي الجديد هو مولاه أبو المهاجر دينار.

وكان هذا العزل قد وقع في سنة 55 هـ وإذا كانت ولاية عقبة في سنة 50 هـ فان مدة ولايته الأولى على افريقية خمس سنين. ثم يأتي أبو المهاجر فيحقق بعبقريته كثيرا من الأشياء التي آثر عقبة ان تكون من حظوظه في المغرب، ومما يجزل بها أجره عند الله.

ولاية أبي المهاجر دينار على افريقية وفتوحه في المغرب 55هـ 676م.

كان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد اعتقه من العبودية فاستخلصه لنفسه فكان من اعضاده في إمارته، ومن أعوانه في مهماته.

وكان أبو المهاجر دينار داهية من الدهاة، وبطلا من أبطال الإسلام، وسياسيا حكيما لا يسير إلا على خطة محكمة، وأسلوب حكيم.

وكان يعرف ان المسلمين بدينهم الذي يفتح القلوب لا بسيوفهم التي تفتح البلاد، وان السيف لاجتثاث العناصر الخبيثة التي تمنع العقيدة من النبات، وإزالة العقبات من رؤوس الكفر ومعادن الفساد التي تصد نور الإسلام عن الانتشار، أما سلاح الإسلام الأكبر فهو الدعاية التي ينتشر بها، ومتى انتشر فقد ضمن المسلمون لأنفسهم تلك البلاد، وحازوا إلى صفوفهم تلك القلوب. فوضع أبو المهاجر خطته على هذا: ان يطهر افريقية من الروم الذين يبثون الدعاية ضد الإسلام، ويؤلبون البربر على المسلمين، ويسير إلى كل من تحدثه نفسه بمناهضة المسلمين، ثم يقيم بين البربر يتصل بهم، فينشر فيهم الدين بالدعاية، ويبث فيهم الإسلام كما كان يبثه الرسول باللسان لا بالسنان.

وكان أبو المهاجر في انطوائه على اللين وعلى الشدة كنور الشمس، رفيق يداخل الأشياء بالحياة في سهولة، ولكن فيه قوة القتل للجراثيم !

وكان مسلمة بن مخلد أمير مصر هو الذي ولى أبا المهاجر على افريقية والمغرب، ورسم له هذه السياسة الحكيمة، وأمره بتلك الطريقة المثلى.

وكان مسلمة بن مخلد الانصارى الخزرجي من عقلاء العرب، وفضلاء المسلمين. وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث، ونشأ في خير الأزمان. روى شبيان بن أمية عن مسلمة بن مخلد انه قال: ولدت حين قدم النبي صلى عليه وسلم المدينة.

وكان مسلمة كثير العبادة. قال مجاهد، صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ سورة البقرة فما ترك ألفا ولا واوا.

وقد شهد مسلمة فتح مصر واختط بها وقد ورد في كتاب النجوم الزاهرة: ان مسلمة بن مخلد عد في الأربعة الذين يقوم الواحد منهم مقام الألف، وقد مد بهم عمر ابن الخطاب عمرو بن العاص لما استعصى عليه فتح مصر وقد ناصر مسلمة معاوية فكان من أجنحته الجبارة إلى الملك، فولاه معاوية على مصر سنة 47 هـ. مكافأة له فأعاد بناء مسجد عمرو بن العاص وأمر ببناء منار المسجد. ومسلمة هو أول من احدث المنار

بالمساجد والجوامع في الإسلام. وقد توفي بالإسكندرية في سنة 62 هـ فأصيب المغرب فيه برزية كبرى، فلو دام لفتح المغرب سريعا، وبدون دماء وبأقل عناء.

ان مسلمة من الشخصيات التي أحبت المغرب واهتمت به، وسعت إلى خلاصه من الشرك والوثنية، وبفضله فتح المغرب الأوسط وانتشر الإسلام فيه، فلزام على المغرب ان يذكر له هذا الجميل، ويمجده في كل حين.

وبعث مسلمة مولاه أبا المهاجر دينار في سنة 55 هـ ليفتح المغرب وينشر فيه دين الله. فوصل أبو المهاجر القيروان، فوقعت بينه وبين عقبة مشادة واحن أدت إلى اعتقال أبي المهاجر لعقبة وتقييده بالحديد، وسجنه والتنكيل به. ثم أخلى أبو المهاجر قيروان عقبة انتقاما منه فنزل بالمسلمين في قرية بربرية تسمى «دكرور» قريبة من القيروان. ولا ندري سبب هذه المعاملة الشاذة لعقبة. قد تكون إحن وعداوة قديمة بينه وبين مسلمة فأوعز إلى مولاه أبي المهاجر ان ينتقم منه. من يدري؟ لعل عقبة كان لا يبالي بمسلمة أيام ولاينته على افريقية، ولعله قد شمخ عليه، واظهر الاستغناء عنه فجرح ذلك كبرياء مسلمة. ولكن مسلمة أعقل من ان ينتقم من عقبة الصحابي المحبوب لدى البربر المسلمين من اجل هذا السبب الواهي.

وارى ان عقبة لحرصه على ان يكون فتح المغرب على يده، واستعداده لذلك استعدادا كبيرا، قد ساءه عزل مسلمة له، فخاشن أبا المهاجر وأبى ان يخضع له، فقبض عليه أبو المهاجر وسجنه.

وقد سمع معاوية بن أبي سفيان بسجن عقبة فأمر أبا المهاجر بإطلاق سراحه وإرساله إليه. فأطلق أبو المهاجر سراح عقبة وأرسل معه جندا حتى أخرجوه من قابس فخرج من افريقية. ان إرسال أبي المهاجر لجند مع عقبة دليل على تخوفه منه، وعلى ان عقبة لم يخضع لأبي المهاجر، فيمكن ان يثور في طريقه. ويؤلب أصدقائه البربر المسلمين عليه.

وكان أبو المهاجر يجل عقبة ويعرف مقامه في الدين. وقد دعا عقبة على أبي المهاجر لما سجنه ان يمكنه الله من أبي المهاجر لينتقم منه، فلم يزل أبو المهاجر خائفا لدعاء عقبة عليه. فقال: هو رجل لا يرد له دعاء.

قال ابن عبد الحكم فلما قدم عقبة مصر وركب إليه مسلمة بن مخلد فاقسم له بالله لقد خالفه فيما صنع أبو المهاجر. لقد وصيته بك خاصة. وقد شكا عقبة إلى معاوية ما حل به وبمدينته القيروان من أبي المهاجر، وشكا إليه عزله فقال: قد عرفت

مكان مسلمة بن مخلد من الأمام المظلوم، وتقدمه إياه، وقيامه بدمه، وبذله مهجته، فلم يستطع معاوية ولا يريد رد عقبة إلى الولاية حتى توفي مسلمة في سنة 62 هـ.

ان سجن أبي المهاجر لعقبة وهو يجله ويحترمه بدليل شهادته له بأنه لا يرد له دعاء، دليل على ان تلك المعاملة قد اجبر عليها أبو المهاجر لمشادة عقبة له.

ان عقبة يعتد بمقامة عند البربر المسلمين، وبجهوده وجهاده في المغرب، وبصحبته للرسول عليه السلام، وبأصله ونسبه، وانه عربي حر لا مولى كابي المهاجر. وأبو المهاجر يعتد بإمارته، وبما يأنس في نفسه من كفاءة في السياسة وفي الحروب فهو يرى ان عقبة يجب ان يكون له تابع لا متبوعا. فحصلت مشادة بينهما فألقى عليه القبض ليريه تفوقه عليه. ولعل أبا المهاجر ق خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين، وحتى يغلق الباب في وجه كل من يريد الخلاف عليه من جنده الذين يمكن ان لا يبالي به بعضهم لأنه لا عربيا.

ان أبا المهاجر قد سجن عقبة، وأخرجه من افريقية مخفورا لا للخوف عليه بل للخوف منه. لأنه لو خاف عليه لأوصله إلى مصر. ولعل هذا يقوم دليلا على ما يبدو ليمن مخاشنة عقبة لأبي المهاجر فقبض عليه.

ان هذا الخصام الذي وقع بين القائدين العظيمين عقبة وأبي المهاجر، جعلت مثيرا من المؤرخين يضطغنون على أبي المهاجر، ويتجاهلون أعماله العظمى في المغرب. ومنهم من يتناساه فلا يذكره، وينسب كل الفضل في فتح المغرب إلى سيدنا عقبة رضي الله عنه. مع ان أبا المهاجر قد أبدى من كفاءة وحنكة ما لم يبده أي قائد بعده إلا حسان بن النعمان.

ان أبا المهاجر هو الذي فتح المغرب الأوسط ونشر فيه الذين، وأول من دخل البلاد البربرية المستعصية فبث فيها الإسلام، وهو الذي وصل البربر بالعرب، وفتح قلوب البربر لمحبة العرب بلينه وكياسته وحسن تأتيه.

ان أبا المهاجر من الشخصيات التي يجب على المغرب ان يسمى بها شوارعه الكبرى، ويذكرها دائما ولا ينساها. انه من المفاتيح الذهبية الغالية التي أدارها الله في المغرب فتفتحت أقفاله للإسلام !

واستعد أبو المهاجر للجهاد فوضع له خطته. وكان يعرف ان الروم الذين تحببوا إلى

البربر فاجتذبوهم إليهم وصاروا يختلطون بهم هم معدن الفساد فلا بد بإزالته، وان الروم إذا انهزموا في وسط افريقية وجنوبها فإنهم لازالوا قوة في شمالها. سيما رابضة على الشاطئ تنظر نظرات اللبؤة المعتدة بنفسها، فلابد بإخضاعها بالسنان لتنظر إلى المسلمين نظرات القطة الذليلة، وتستكين فلا تحدث نفسها بشر للمسلمين،ثم ان الروم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طانجة. ان الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم ومواطنهم فلابد بالسير إلى هذه النواحي، والمرابطة قريبا من تلك البقاع، ولابد بتطهير كل المدن التي تنطوي على العداوة المسلمين فتكشر عن أنيابها، وتستعد لحربهم. فسار أبو المهاجر في حمحمة الخيل وإشراق السيوف إلى قرطاجنة عاصمة الروم فنازلها فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية فشدد أبو المهاجر عليها الحصار فعلم الروم انه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وان أبا المهاجر لابد ان ينتصر عليهم فيدخل العاصمة باقتداره وقوته فطلبوا الصلح. فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة شريك[1] لتنزل فيها جنوده وتكون للمسلمين، ولم يصالحهم بالأموال ليرجع عنهم كما فعل عبد الله بن سعد لان غرض المسلمين هو الفتح والاستقرار وهذا يكون بامتلاك الأرض لا الأموال.

وكانت جزيرة شريك في شرق قرطاجنة قريبة منها، وهي قليبية ونابل اليوم. وكانت جزيرة ظريفة قد نتأت في وجه افريقية الجميل كما ينتأ الأنف القاني في وجه الحسناء. فاحتل أبو المهاجر جزيرة شريك وانزل فيها طائفة من الجند، وولى عليهم حنش بن عبد الله الصنعاني.

وكان غرض أبي المهاجر من احتلال جزيرة شريك ان يراقب الروم، ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين أثناء غزوه للبلاد، وابتعاده عن ذراري المسلمين وأهليهم وأثقالهم في مقرهم «بدكرور»، ثم ان احتلاله للجزيرة يسهل عليه فتح قرطاجنة إذا أراد.

ثم سار أبو المهاجر مع الساحل مغربا لا يعترض طريقة احد، قد خافه الروم والبربر فانجحروا في مدنهم مستكنين حتى وصل «ميلة» في الجنوب الشرقي لبجاية وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلا فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا بها. فنازلها أبو المهاجر فاحتلها وغنم ما فيه فاستقر بها.

وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط فهي أحسن مكان يرقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في هذه البقاع. فجعل أبو المهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين. وكان

1 - سميت الجزيرة جزيرة شريك لان شريك العبسي كان احد العاملين عليها وهو والد قرة بن شريك عامل مصر المشهور.

في هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين، ويريهم حقيقة المسلمين، فسلست أعنة هذه النواحي في نوميديا وركنت إلى أبي المهاجر ومالت إليه كما يميل الوليد إلى أحضان أمه التي تربه وتحنو عليه. ولم يذكر المؤرخون ان معارك وقعت لأبي المهاجر في هذه النواحي من المغرب الأدنى، قسنطينة الآن ونواحيها إلى بجاية. ان الروم المهاجمين كانوا يتقوون بالبربر الذين يوسوسون لهم بعداوة المسلمين، وقد استطاع أبو المهاجر ان يجتذب البربر إليه ففصلهم عن الروم فسكنت تلك النواحي سكون البحر بعد نوم العاصفة، وكان أبو المهاجر يرى بنظره بعيدا إلى المغرب الأوسط والأقصى يرقب ما يجري فيه فسمع بتجمع البربر والروم لحربه فسار إليهم ليؤدبهم بالسنان.

أقسام البربر:

وكان البربر شعبا عظيما وأمة كبرى، كثيرة القبائل والأفخاذ. وتنقسم الأمة البربرية الكبرى إلى قسمين عظيمين، كل قسم يحتوي على قبائل كثيرة. تنقسم إلى برانس وبتر تشتمل على قبائل كثيرة أكبرها هي هوارة، وكتامة، وزواوة، وصنهاجة، وأوربة، ومصمودة. والبتر أكثر عددا من البرانس فقبائلهم كثيرة، وكل قبيلة تتفرع منها قبائل مختلفة الأسماء. واكبر قبائل البتر هي لواتة، ونفوسة، ونفزاوة، ومزاته، وزناتة، ولماية، ومكناسة، ومطغرة.

وكانت مواطن اغلب القبائل البترية في وسط المغرب وجنوبه، فلم يكن منها في السواحل إلا القليل. وكانت لهم الجبال والهضاب يعتصمون بها. واغلب الثورات التي انفجرت على الرومان والوندال والروم المستعمرين كانوا هم الذين يقومون بها. وقد انتشر الدين المسيحي في سكان المدن منهم ولكن على المذهب الدونتوسي البربري الذي يحمل روح المسيحية الحقيقية، وهو الدعوة إلى العدل والإنصاف والإخاء، كما تأثروا بالحضارة البونيقية تأثرا كبيرا، واقتبسوا من الحضارة الرومانية ما يوافق مزاجهم.

وسكان الجبال والهضاب وجنوب المغرب في الصحراء لم يختلطوا كثيرا بالرومان ولم ينغمسوا في مفاسد الحضارة فتفسد أخلاقهم، فضلوا اقرب إلى البداوة يمتازون بقوة الأجسام، ومتانة الأخلاق، وجرأة الفؤاد. إنهم أنياب المغرب يبرزها إذا ادلهمت الأيام. والبتر هم الذين اتعبوا الفاتحين، وظلوا عقبة كأداة في سبيل المسلمين. والبتر أيضا اقرب إلى المغرب بطبيعتهم البدوية وأخلاقهم. فان الذين اعتنقوا الإسلام في برقة، وتفتحت له قلوبهم في جنوب افريقية، وانخرطوا في الجيش الإسلامي ينصرونه ويؤيدونه، كان اغلب هؤلاء من البتر.

أما البرانس فاغلبهم يسكنون السواحل، وهي موطن الرومان والروم، ومحل الحضارة والمدينة، فتحضروا وشاركوا في بناء المدينة التي أقامها الرومان والروم في المغرب، بل اقتبس الرومان أنواعا من المدينة منهم لما احتل بلادهم، لأنهم كانوا اسبق إلى الحضارة من الرومان؛ فلولا ما كانت ترفل بلادهم من حضارة ونعيم، وما كانت تغض به من خيرات وملذات ما طمع فيها الرومان.

ان البونيقيين هم أساتذة البربر في الحضارة، وهم الذين فتحوا عيون البربر، واخذوا بأيديهم إلى طريق الحياة، فنهضوا في القرن الثالث قبل الميلاد فأسسوا ممالكهم الكبرى التي ورثت الحضارة البونيقية، فصار المغرب بها متجه الأنظار لعمرانه وسعادته ورقيه.

وكان البرانس سكان السواحل قد اختلطوا بالرومان فاثروا بهم فضلو متحضرين. وقد انتشرت في سكان المدن منهم المسيحية على المذهب الدونتوسي.

وكانت منزل هوارة من البرانس على الساحل طرابلس من سرت إلى مدينة طرابلس، وكانت عاصمتها هي مدينة لبدة في شرق في طرابلس، وأثارها الموجودة إلى الآن دليل على الدرجة العظمى التي كانت عليها والبربر في الحضارة والتقدم. أما منازل كتامة فعلى ساحل قسنطينة، منة سكيكدة إلى بجاية، ومنازل زواوة في بال القبائل من غرب بجاية إلى شرق مدينة الجزائر، ومنازل صنهاجة من شرق مدينة الجزائر إلى مليانة. أما أوربة فمن شمال تاهرت إلى وهران،ولها منازل أيضا في غرب فاس مناه «سقومة» قلعة أوربة ومدينة وليلي،أما مصمودة فلها جبالها في غرب مدينة مراكش. ومع كل قبيلة من هذه القبائل في هذه الأمكنة فصائل من القبائل الأخرى تحل معها وتعيش في ديارها،وإنما الجمهور والكثرة لتلك القبيلة.

وكان المغرب في نظر البربر وطنا واحدا لا يتجرأ. فمن غرب الإسكندرية إلى الاطلانطي وطن واحد، فأينما حل البربري فهو وطنه وبين قومه، ولا تكمش ولا انفصال. وكان البربر امة واحدة متماسكة وان تعددت قبائلها.

وكان البرانس أكثر حضارة، والمسيحية قد انتشرت فيهم أكثر، واختلاطهم بالروم كان اشد. فوجد الروم في مزاج الحضارة وفي المسيحية ما يجذب البرانس إليهم، فصاروا يتملقون رؤساءهم، ويتقربون إلى أمرائهم ليجعلوا من البربر الحلفاء الأقوياء ليستطيعوا الوقوف في وجه المسلمين الفاتحين.

وكان الروم يبثون دعايتهم المسمومة في الإسلام والمسلمين، ويصورون العرب للبربر

على إنهم كالمستعمرين، لا تدفعهم إلا بطونهم وجشعهم لغزو البلدان، وأنهم عتاة مستبدون لا يحملون أي خير للبربر.

وكان البربر سيما البرانس في المغرب الأوسط قد استرجعوا حريتهم، وتكونت لهم إمارات يديرها رؤساء منهم، وآلوا ان يقارعوا ويهزموا كل قوة تحدث نفسها باستعبادهم واحتلال بلادهم.

وقد استطاع الروم ان يصوروا للمغرب الأوسط والأقصى الإسلام والمسلمين كما أرادوا فآمن البربر بسمومهم لجهلهم بالإسلام والمسمين، لأنهم بعداء عن مركزهم في القيروان. واعتقد البربر ان المسلمين أعداؤهم، وان الإسلام عقيدة تناوئ دينهم المسيحي، وان أبا المهاجر قد جاءهم مجئ الروم والرومان يحمل إليهم الفقر والجهل والعبودية فثارت ثائرتهم واستعدوا للجلاد.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة كثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها، وكان رئيسها كسيلة بن لمزم الأوربي.

وكان كسيلة قوي الشخصية، ذكي الفؤاد، غيورا على وطنه، وكان البربر يجلونه ويحبونه، وكان نصرانيا متمسكا بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم ان يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين، فرآهم عدوا لدينه ووطنه، ورأى أبا المهاجر في ميلة فعلم انه لابد ان يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب في المغربي الأقصى والأوسط يدعو البربر لمكافحة العرب، والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن البلاد. فتحمي البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم فرنا إلى المشرق مستعرا يرقب مسير أبي المهاجر أو يسير هو إليه. فسمع أبو المهاجر باستعداد كسيلة فسار إليه.

وكان كسيلة قد عسكر بتلمسان، وارى انها عاصمة إمارته فوصل أبو المهاجر بجيشه فحط رحاله حول تلمسان، فالتقى الجيشان جيش المسلمين وجيش كسيلة فوقعت معركة عنيفة سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين، ثم انزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار، واسر كسيلة فحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه وعامله معاملة الملوك.

وكان أبو المهاجر معجبا بشخصية كسيلة، وبذكائه، ودهائه، ومكانته في البربر. فعرف انه إذا اسلم كسيلة فسيكون المفتاح الذهبي الذي يفتح قلوب البربر في المغرب

الأوسط والأقصى لدين المصطفى. فحدث كسيلة عن الإسلام والمسلمين بما عرفه حقيقتهما. وكان كسيلة ذكيا طموحا مخلصا لقومه لا يريد لهم إلا الصلاح. فعلم ان الإسلام هو دين السعادة والقوة والحياة وخير الدارين. وان العرب المسلمين هم الإخوة الأصفياء الذين يسعدون البربر ويأخذون أيديهم إلى النجاح. فآمن كسيلة بما دعاه إليه أبو المهاجر فأصبح من المسلمين. واغرم بالعربية فصار يتعلمها. وأعجب بجمال الإسلام فيس سيرة المسلمين فأحبهم. وأصبح أبو المهاجر وصحبه هم خاصته وأولياؤه. وأحب أبو المهاجر كسيلة ورجا منه خيرا كبيرا للإسلام. فشمر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين. فدعا قومه البربر للدين الحنيف. وافهمهم ما جاء به المصطفى عليه السلام. وانه النور والحياة وخير الدارين. والفت نظرهم إلى جمال الإسلام في سيرة المسلمين. واراهم الفرق بيتهم فغي رحمتهم وإيثارهم وعملهم للناس وبين الروم الجشعين. وكان البربر قد تفتحت قلوبهم لأبي المهاجر والمسلمين فأحبوه لما أطلق رئيسهم كسيلة من الأسر. وأحسن إليه وعظمه وبجله. والبربر جنس كريم معتد بنفسه. يملكه من يحترمه ويعرف له مقامه. فاقبل البربر على الإسلام. فانتشر فيهم انتشار العطر القوى في الساحة. والنور الساطع في المكان. وأصبح البربر أحباء العرب يزدادون تقاربا على الأيام ليصبحوا شعبا واحدا يصل بينهم الإسلام. وتلحم بينهم العربية. فقرت عين أبي المهاجر بما رأى. وازداد بقينا بان السيف وحده ليس وسيلة لامتلاك الشعوب. فرجع إلى مقره قريبا من القيروان. وأقام «بدكرور» يراقب الأمور. ويحبط دسائس الروم. ويعمل لإزالتهم من المغرب.وهو على استعداد لكل من يريد مناوأة المسلمين فينهض إليه. أما إذا سكن فيتركه لان نور الإسلام لا يسكن. فهو يسير سيره. فلابد ان يصل إليه فيغزو قلبه. فيصبح للمسلمين يغير دماء. ويمسى جزءا منهم يورثهم النماء.

وكان أبو المهاجر في المغرب بلينه وسياسته. وبإلحاحه عليهم بالدعاية كالشمس التي تخيم على الثمار فتلح عليها بالأنوار حتى تداخلها حلاوة النضوج وان تكونت فيها حشرة تفسدها قتلتها !

ودام الأمر على ذلك والإسلام كنور الصباح رويدا رويدا فيسير إلى الضحى فيعم المغرب. ويملأ قلوب البربر كلهم. حتى طلع الغمام. وهبت العواصف. فانهدم كثير مما بناه أبو المهاجر. لقد عزل أبو المهاجر وولي عقبة فجاء وهو مغرم بالقتال. فلم يتبع سياسة أبي المهاجر الحكيمة. وظن ان البربر امة هرمة كعلوج الروم يرضخون له سيف. ويستكينون له بالقوة. فآثر العنف العاصفة على اللين الحكيم فثارت البلاد. وانفجر المغرب. واصح الأصدقاء أعداء.

أبو المهاجر دينار ! هو الدينار في كرم عنصره وقوته. وهو غنى للإسلام وعزة للمسلمين. اشترى قلوب البربر فكانت لمحمد. وثنى بأعنة المغرب فابتدأ يتجه إلى القبلة. واسكت النواقيس في كثير من النواحي فجلجل فيها الآذان. فلو دام لفتح البلاد كما يفتح الحب أفئدة العباد. بدون دماء تهرق. ومعامع تشغل المسلمين.

رحم الله أبا المهاجر فانه على قوته وبطولته كان على الرفق الذي حث عليه الرسول لما قال: ما دخل الرفق أمرا إلا زانه. وما داخل العنف شيئا إلا شانه.

وكانت ولاية أبي المهاجر على افريقية في سنة 55 هـ. وعزله في سنة 62 هـ فمدته في المغرب سبع سنين ولم يذكر المؤرخون عدد جيشه فلا بد وان يكون أبو المهاجر قد قدم بقوة جديدة عند ولايته فيكون جيشه أكثر من عشرة آلاف.

غزوة عقبة بن نافع الثانية 62 هـ 683م.

لما توفي مسلمة بن مخلد في سنة 62 زال المانع الذي كان يمنعه معاوية وابنه يزيد من رد عقبة إلى ولايته. فولاه يزيد بن معاوية، وحقق له أمله، وعزل أبا المهاجر دينار. فسار عقبة في سنة 62 إلى المغرب فانتقم من أبي المهاجر بان قيده في الحديد وعامله بالمثل، وأخلى مدينته دكرور فنقل منها المسلمين إلى القيروان وجدد عمارتها، وعمد إلى صديق أبي المهاجر كسيلة ملك البربر ورئيس البرانس فسجنه وأهانه، وصار يعامله كالأسير، ويسوسه كالعدو. وهذا غلط كبير يدل على عدم نظر عقبة إلى العواقب، وتحكمه العاطفة في مقام يجب ان يحكم فيه العقل.

وكان عقبة قد سجن كسيلة وأهانه لصداقته لأبي المهاجر، وخوف عقبة ان ينتقم لصديقه فيثور عليه. من يدري؟ لعل عقبة لم يرض بما فعله أبو المهاجر من اصطناعه لكسيلة، فهو يريد اخذ أمثاله ممن كانوا على الشرك، وحاربوا المسلمين بالشدة، أو إلغاءهم وعدم الإحسان إليهم، ومعاملتهم كالدهماء لا كالسادة الشرفاء.

وكان عقبة لا يكتفي بسجن كسيلة بل يهينه ويحتقره. حكي المؤرخون انه أوتي بغنم كثير لمطبخه. فأمر كسيلة بذبحها وسلخها فقال له: هؤلاء غلماني يكفونني المؤونة، فسبه وأهانه وأرغمه على ذبحها.

لعمري ان تكليف ملك البربر ورئيسهم بالذبح على سبيل الإهانة يجعل دماء الشياه تنبعث منها شعلا مستعرة على قلوب البربر فتحنق، وفرثها يتراكم في صدوهم أوساخا لعقبة فتحقد. فحنق البربر على عقبة، وتأججوا غيظا عليه، فصاروا يرقبون الغرة، ويستعدون للوثبة، ويتهيؤون للانتقام.

وكان عقبة رضي الله عنه شخصية دينية ممتازة، وكان قائدا حربيا عظيما، وكان مغرما بالجهاد في سبيل الله، همه في الفتح والقتال، ونشوته في القراع والنزال، فان لاق قائدا للحرب، فلا يليق واليا للسياسة، يضع الخطط المحكمة، والبرامج الدقيقة لفتح البلاد بأقل عناء، وإسلام البربر بدون دماء.

وكان أبو المهاجر شهما غيورا على المسلمين، فأنكر على عقبة هذه السياسة، وشنع إهانته لكسيلة، وعدم مبالاته بالبربر الأباة فقال:» ما هذا الذي صنعت !؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستالف جبارة العرب ، كالأقرع بن حابس التميمي، وعينه بن حصن، وأنت تجئ إلى رجل هو خيار قومه، فغي داره عزه، قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه !؟ توثق من الرجل فأنى أخاف فتكته»

ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصائح فأورد نفسه والمسلمين معه موارد الحتوف، وأشعل البربر نارا عليه، وخلق منهم الأعداء، بعد ان جعلهم أبو المهاجر بلينه وحسن سياسته أصدقاء.

وخرج سيدنا عقبة رضي الله عنه من القيروان بعد ان استحلف عليها زهير ابن قيس البلوي في خمسة آلاف من الجند، وسار عقبة وسيفه أمامه، وغرامه بالقتال في سبيل الله يدفعه، واخذ معه سيدنا أبا المهاجر مقيدا في الحديد، كما اخذ كسيلة معه كالأسير.

وكان عقبة يريد ان يقتحم وسط البلاد التي لم يطرقها من تقدمه من الفاتحين، ويقرع بالقنا حصون البربر، وينازل فرسانهم في الوغى، فقصد الزاب وحواليه.

وكان اسم الزاب في القديم يطلق على ولاية قسنطينة اليوم. وكان الزاب بلادا عامرة قد اعتنى به البربر منذ ممالكهم القديمة في عهود غولة ومصينيسا، فازدهرت فيه الحضارة، وتكاثف فيه السكان، وكثرت فيه المدن والقرى. حكي المؤرخون ومنهم ابن مقديش الصفاقسي في كتابه نزهة الأنظار : ان بالزاب حول عاصمته «أدنة» ثلاثمائة قرية وستين قرية كلها عامرة.

وكان طريق عقبة إلى الزاب من شمال تبسة وجبال آوراس، فمر على باغاية،وهي حصن بربري قديم، ومدينة قد اعتنى بها الرومان والروم فحصنوها،وكان سكان باغاية من البربر والروم، فخرجوا إلى عقبة والتقوا به خارج حصنهم فوقعت حرب عنيفة بينه وبين البربر، وكان الروم مع البربر في حروب عقبة، ولكن كما يكون الريش مع السهم لا يزيد على ان يدفعه للانطلاق لا يدق الأعناق. وكانوا يحمسون البربر ويغرونهم بالمسلمين، أما المعارك الحامية، ومنازلة الأقران، والذب عن الأوطان، فقد كان يقوم به البربر الشجعان، الذين يتسابقون إلى الموت في الميدان. ان الروم قد شاخوا وانحلت أخلاقهم بالحضارة، فصاروا في عضد المغرب شحمة زائدة ليست هي التي تهز السيف فتصرع به الفرسان. ونازل عقبة البربر والروم حول باغاية فهزمهم فالتجؤوا إلى المدينة فاعتصموا بها، فغنم عقبة ما وجده من أموالهم خارج الحصن، ومنها خيل ما أرى العرب أسرع ولا اصلب منها من نتاج آوراس، ثم رحل عنهم لان غرضه منازلة عاصمة الزاب فلا يمكن ان يفل قواه في احتلال بنائها، ثم قصد مدينة «لمبسيس» تازولت فخرج إليه البربر فوقعت معركة عنيفة بينهم وبين عقبة فانزل الله نصره على المسلمين فانهزم البربر فتحصنوا بمدينتهم العالية الأسوار فاعرض عنهم عقبة، فسار إلى عاصمة الزاب «أدنة».

وكانت أدنة مدينة كبيرة عامرة، تحفها الرياض فتزيدها جمالا كما يحف الهداب المقلة الساحرة فيزيدها بهاء.

وكانت كمدن المغرب الأوسط والأدنى جل من بها من البربر نصارى، فسمع البربر بمسيرة عقبة إليهم فاستعدوا للدفاع، فخرجوا وهم مصممون على الموت في سبيل عاصمتهم، فعسكروا في وادي سهر على بعد بضعة أميال من أدنة، فوصل عقبة رضي الله عنه وأدنه بجيوشها الكثيفة وأسوارها الحصينة، مقلة قد انغلقت أجفانها لا يتسرب إليها حتى النور اللطيف. فاشتبك عقبة بالبربر والروم، واستحر القتال وتطايرت الأوصال، وتعانق الأبطال في النزال، واسود اليوم بالوغى حتى ظن الناس انه الفناء. ثم أزل الله نصره على المسلمين بعد ان سال الوادي بدماء الطرفين، وتجلل بجثث القتلى من الفريقين المتحاربين، فولى البربر الأدبار فاعتصموا بعاصمتهم الحصينة وغلقوا عليهم أبوابها فغنم عقبة من ظاهر أدنة غنائم كثيرة، ثم سار إلى تيهرت، وكانت قاعدة مهمة في المغرب الأوسط، واحد الحصون الكبيرة في تلك النواحي، فسمع سكانها البربر بمسيره فخرجوا إليه لمدافعته فوقعت حرب عنيفة بينهم وبين المسلمين وكان الله مع عقبة فانتصر على البربر الأشداء فولوا الأدبار فاعتصموا بحصنهم وتركهم فغنم منهم أموالا كثيرة، ثم سار يريد طانجة قاعدة المغرب الأقصى. وكانت هذه النواحي من تلمسان إلى طانجة قد تمهدت للمسلمين، وانشر فيها الإسلام بفضل كسيلة وأبى المهاجر،فلم يعد فيها معقل يعادي المسلمين، فأنكر أبو المهاجر على عقبة ان يطرق بجيوشه بلادا هي صديقة لهم فيفسد قلوبها فقال له: ليس بطنجة عدو لك الآن الناس قد اسلموا، وهذا رئيس البلاد -يريد كسيلة- فابعث معه واليا، فأبى عقبة إلا ان يخرج بنفسه» ولم يصادف عقبة في طريقه إلى طانجة مقاومة لا لان البربر قد خافوا كما قال بعض المؤرخين، فان البربر في الشجاعة كالعرب لا يهابون عدوهم، ولا يستسلمون بدون قتال، ولكن سبب هدوء تلك النواحي هو انتشار الإسلام فيها، ومعرفة أصحابها البربر بحقيقة المسلمين فرحبوا بهم. فوصل عقبة طانجة ولما قرب منها خرج إليه ملكها يليان ألغماري فرحب به، وقدم إليه هدية نفيسة ونزل على حكمه.

وكانت طانجة هي قاعدة شمال المغرب الأقصى، وكان يملكها يليان ألغماري ملك غمارة، وهو بربري مستقل في بلاده وله مع القوط في الأندلس علاقات وثيقة.

وكان يليان مخلصا للمسلمين فأراد عقبة ان يسير إلى الأندلس فعلم يليان ان عقبة لا يستطيع التغلب على القوط الأقوياء سيما وقد أعيت قواته الحروب العنيفة مع البربر. فنصحه بعدم الجواز إلى الأندلس . فأشار عليه بغزو السوس الأقصى والأدنى في وسط

المغرب الأقصى وجنوبه لان البربر لازالوا فيها على الجهالة والوثنية فيريد يليان ان يطهر عقبة قومه هؤلاء مما هم فيه. فسار عقبة حتى دخل السوس الأدنى فنزل على مدينة وليلي بغرب فاس الشمالي وهي يومئذ من اكبر مدن المغرب بما بين النهرين العظيمين سبو وورغة، وهي المسماة اليوم بقصر فرعون فافتتحها بعد حرب عنيفة وغنم ما فيها ثم سار إلى السوس الأقصى فهب البربر لدفاعه فخاض معهم حروبا عنيفة قاسية كان النصر فيها للمسلمين، وكان من الذين تصدوا لعقبة فجالدوه المصامدة في غرب مدينة مراكش، ومسوفو ولمتونة في صحراء المغرب الأقصى، فهزمهم عقبة بعد حروب مريرة خاضها للتغلب عليهم قال ابن مقديش الصفاقسي يذكر غنائم عقبة وأسلابه من السوس الأقصى: ...فغنموا أموالهم وسبوا نساءهم، وكن في غاية الحسن والأدب، وقد بلغ ثمن الجارية منهن بالمشرق ألف دينار. وانقضت المراكز البربرية في وسط الصحراء فلم يجد عقبة إمامه إلا الصحراء الخالية برمالها الداكنة فاقتحم فيه فرسه حتى بلغ صدر الفرس فقال: يا ربي لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد إلى ملك ذي القرنين مدافعا عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك» فرجع أدراجه إلى القيروان وهو قرير العين بما بلغ من أمانيه، وهو غزو المغرب وبلوغ أقصى مكان فيه، وكان طريق عقبة في ذهابه إلى المغرب الأقصى على جنوب الأطلس ألتلي، أما رجوعه فعلى شمال الأطلس الصحراوي، لأنه اقرب طريق إلى القيروان، وقد نجا بتغيير طريقه من الفخاخ التي بنيت له.

وكان أبو المهاجر مع عقبة في رحلته الطويلة يرسف في قيوده، وكان معه كسيلة أسيرا كاسف البال منكس الرأس بالهون إلي يلاقيه، ورأى البربر رئيسهم في الهوان فثارت ثائرتهم واشتد غيظهم على عقبة فعزموا على الانتقام.

وكانت الكاهنة ملكة جبال آوراس ترقب مسير عقبة وتتأهب لمدافعته ان سار إليها، ورأت كسيلة ملك البربر وابن بلدتها أسيرا ذليلا فاضطرمت غيظا وعزمت على الانتقام، فبعثت احد أبنائها سرا فصار يطم الآبار خلف عقبة حتى إذا رجع قيده العطش لسيوف البربر فيقضون عليه، ولكن الله سلم المسلمين فلم يقعوا في هذه الفخاخ بتغيير عقبة لطريقه، وظلت الكاهنة ترقب وتتحين الفرصة فيه، وظلت جموع البربر في المغرب الأوسط والأقصى يتحرقون غيظا على عقبة ويتأهبون للثورة عليه. فلما وصل عقبة في رجوعه مدينة طبنة في غرب آوراس ورأى سكون البربر فظنه سكون الاستسلام لا سكون التحفز، أذن لأغلب جيشه بالمسير إلى القيروان من شمال آوراس، وهو الطريق الذي جاء منه لقربه، فبقي هو في عدد قليل من جيشه قيل انه ثلاثمائة ونيف، وآثر

عقبة ان يجعل طريقه إلى القيروان على جنوب جبال آوراس ليعجم عود قلعة تهودة وقلعة باديس ليرى ما يكفيهما من الجند لفتحهما. هذا هو سبب ذهاب عقبة لتهودة، ولم يصل إليها لان كسيلة ثار عليه فاجتذبه إليها ليبعده عن جيشه، كما قال بعض المؤرخين لان كسيلة لو ثار على عقبة وهو بطبنة لاجده جيشه القريب منه، ولم يكن لعقبة حاجة ف أدهى من ان يثوروا عليه وهو قريب من جيشه الذي يحميه. إنهم يريدون عقبة؛ ان يأسروه ليعاملوه معاملته لكسيلة أو يقتلوه. ادن لابد من الانتظار حتى يكون في قلة فتقع عليه الضربات. ولو ثار البربر على عقبة وهو في طبنة ما اتبعهم لان في جيشه من الدهاة كابي المهاجر وغيره من ينبهه ان لم يتنبه لمكيدة كسيلة والكاهنة فيتجنبها. ثم ان مؤرخين كثيرين ذكروا بان البربر والروم في مدية تهودة تحصنوا من عقبة ورموه بالحجارة والنبل وشتموه. ولا يفعل أهل الحصن هذا إلا وعقبة مهاجم لهم، وهو في حالة عادية لم يحط به البربر.

ووصل عقبة تهودة وهب مدينة في جنوب جبال آوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طبنة وتبعد عنها بحوالي 37 ميلا ونصف فما كاد ينازل حصن تهودة ليعجم عوده حتى وجد كسيلة فرصته فهرب من جيش عقبة فانضم إلى جيش الكاهنة الذي هاجم عقبة من جبال آوراس، وإذن كسيلة في البربر بالثورة فأسرعوا جماعات كبرى إلى صفوفه فتقوى جمعه، فأحاط بعقبة وعزم القضاء عليه. فعلم عقبة انه لا طاقة له بهذه الجيوش الباسلة المحنقة، وعلم المسلمون الذين معه، فكسروا أجفان سيوفهم وعزموا على الموت بعد الموت السيوف، فتأججت معركة فظيعة بين الطرفين.

وكان أبو المهاجر في قيوده، فرأى شدة القتال، والخطر المحدق بالمسلمين، وهو لا يستطيع النزال.

وكان أبو المهاجر يعرف حب البربر له، وصداقة كسيلة وإجلاله له، وكان يعرف انه إذا بقي بعد عقبة فان كسيلة سيعامله بالحسنى، ويجازيه بالمثل على إحسانه إليه. فلربما أقامه أميرا في القيروان، وارجع إلى سالف عهده في الولاية على المغرب، ولكن أبا المهاجر لم يكن من الذين تتحكم فيهم غرائزهم فتسيره حظوظه، بل كان شهما مسلما غيورا على الإسلام والمسلمين فشهامته ودينه وغيرته عليه ان يبقى متفرجا والمسلمون تتطاير أشلاؤهم بضربات السيوف، والخطر محدق بهم من كل جانب.

وكان أبو المهاجر مؤمنا يعمر نور الإيمان قلبه فلم يحقد على عقبة وهو في محنته، ولم يرض له هذا المصير، لان عقبة وان أساء إليه بشخصه فهو يمثل مصلحة الإسلام

التي يغار عليها كل مسلم. فثارت غزيرة المقاتلة في أبي المهاجر. واندلع طبع البطولة في أعماقه. وتأججت غيرته على المسلمين. فحاول ان يثب ليحامي عن إخوانه. ويعمل السيف في المهاجمين فأمسكته قيوده. فصار يتململ في القيد ويتحسر بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزنا ان ترتدي الخليل بالقنا *** واترك مشدودا علي وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت *** مصارع من دوني تصم المناديا

فسمعه عقبة فأمر بفك قيوده فقال له. الحق بالقيروان وقم بأمور المسلمين. أما أنا فاغتنم الشهادة !! فلم يؤثر أبو المهاجر إمارة ولا سلامة. ولا حظا للنفس. ولم يتذكر ما كان بينه وبين عقبة من أحقاد. بل تذكر واجبه. وحظه عند ربه. ومصلحة الإسلام المهددة بالأخطار. فاخذ سيفا فقال لعقبة في لهجة التصميم والإخلاص: وأنا أيضا اغتنم الشهادة فخاض معمعة القتال. يجندل الأقران. ويصاول الأسود. حتى سقط صريعا. بعد ان كفنته السيوف بالدماء. وطيبته الرماح بالنجيع. وصلت عليه الخيول بالحمحمة. فنزلت ملائكة الرحمة لتزفه على أعناقها إلى الجنة ! فما أسعده. وما اتهم شهامته وأكرمه !!

وانثالت جموع البربر على عقبة وصحبه وهم يردونها بالقراع. ولكن السيل القوي العارم لا يحجب بالأسوار. ولا ترده السدود. فما زالت المسلمون يدافعون ويجالدون حتى استشهدوا جميعا في ميدان القتال إلا بضعة أنفار منهم أسرهم البربر فلم يقتلوا.

وكان الذين استشهدوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين. وكان في الأسارى محمد بن أوس الأنصارى ويزيد بن خلف العبسي وغيرهما ففداهم ابن مصاد البربري أمير قفصة وأرسلهم إلى القيروان. وذلك لانتشار الإسلام في ناحيته. ولإخلاصه للإسلام والمسلمين.

وكان لما خرج من القيروان قد ترك فيها زهير بن قيس البلوى في خمسة آلاف من اجن ليحمى المسلمين هناك. ويعمر مدينته. فلما سمع بمحنة المسلمين واستشهادهم استعد للقتال وتهيأ للانتقام. ولكن حنش بن عبد الله الصنعاني الذي ولاه أبو المهاجر على جزيرة شريك كان اعرف بقوة البربر. فعلم انه لا قبل للمسلمين بهم. ولا طاقة لهم بكسيلة وقومه. فرجع بمن معه إلى مصر. فاتبعه بقية الجيش ومن استطاع الرحيل من المسلمين. فلم يجد قيس بدا من الرحيل فارتحل حتى وصل برقة فرابط فيها كما كتان

يفعل عقبة. وأقام هناك ينتظر الغزاة الذين يرجعون إلى افريقية لينتقم لصديقه. ويرد هيبة الإسلام إلى القلوب.

ففاض كسيلة بجموعه حتى وصل القيروان فاحتلها. فوجد فيها جماعة من المسلمين لم يقدروا على الرحيل؟. فلم يتعرض لهم بأذى. لان البربر أبطال ذوو شهامة لا يتعرضون للضعفاء. فأمنهم وأحسن إليهم.

وكان كسيلة إلى شهامة الأبطال التي يتحلى بها لا يمس المسلمين بأذى لان فيهم جماعات من البربر قد اسلموا فإيذاؤهم يوغر عليه قلوب قومهم.

وأمسى كسيلة هو ملك القيروان. وصاحب الكلمة العليا في المغرب. وقد آثر كسيلة القيروان على عاصمته الأولى تلمسان ليكون قريبا من باب افريقية فيسارع برد المسلمين إذا هموا بغزوها.

وارتد كسيلة وقومه عن الإسلام بإساءة عقبة وإهانته. وكان إسلامه لا يزال حديثا لم يتفقه معناه. ولم ترسخ عروقه. وثار المغرب على المسلمين واستغلق وتنمر بعد ان تفتح للإسلام بحسن صنيع أبي المهاجر تفتح طلعة المحب يستقبل حبيبه. وتهدم ما بناه أبو المهاجر ومن تقدمه. فاحتاج المسلمون إلى جيوش جرارة. وجهود جبارة لافتتاح المغرب والاستقرار فيه. وبعد زمن سيسير قيس بن زهير البلوي فيهزم كسيلة فيسترجع للإسلام هيبته في المغرب.

تبارت الريح مع الشمس في تجريد في تجريد البدوي من شملته. فثارت الرياح بزعازعها فلم تزد للبدوي إلا تمسكا بها. وألحت عليه الشمس في رفق بحرارتها فخلع الدثار والشعار وأضحى كالقربة يسيل بالعرق تحت الأشجار.

يرحم الله عقبة ما ضره لو اخذ بأسلوب الشمس كابي المهاجر في خلع دثار الكفر عن هذه الديار. ان نيته حسنة؛ ونية المؤمن خير من عمله.

وكان جيش عقبة زهاء عشرين ألفا. وكان استشهاده في سنة 23 ومدة ولايته سنة أو سنة وأشهر.

الأسباب النفسية لفشل عقبة

كان عقبة رضي الله عنه من أبطال المسلمين، ومن العباد الزاهدين، ليس له هم في الدنيا إلا ان يتزود منها بما يورثه ارفع الدرجات في الآخرة. وكان قد نشأ في زمان الفتوح، وحفظ ما قال الرسول عليه السلام في اجر الجهاد، وتلا ما وصف الله في كتابه الكريم من العقبى العظيمة للمقاتل في سبيل الله، ورأى تسابق الصحابة والتابعين إلى صفوف الجهاد، وتنافسهم على الشهادة في سبيل الله، فنشأ عقبة وهو يقدس الجهاد ويراه أحسن قربة إلى الله، أعظم عبادة تورثه رضي الله، واضمن وسيلة تبوئه ما يشاء من الدرجات العليا في الآخرة.

لقد كان على المسلمين في زمن الرسول، وفي عهد الخلفاء الراشدين، ان يقضوا على الدول الكبرى التي تناصر الوثنية، وتقف في طريق الإسلام وتمنعه من الانتشار، وهذه الدول هي دولة الفرس و الروم والإمارات العربية في جزيرة العرب، وهي دول كبرى تستلزم من المسلمين لإزالتها الشجاعة والأقدام، فحث الرسول على القتال وبين أجره، بل أوجبه على المسلمين ووصف عذاب المتخلف والفار من الزحف، فكان الجهاد في نظر المسلمين هو العبادة المقدسة، والفرض ألزم، والقربة المقربة إلى الله. فنشأ عقبة على هذا التقديس للجهاد، وعلى ذلك الغرام للقتال في سبيل الله لا يجد برد كبده إلا في ظلال السيوف، ولا يطرب إذنه إلا حمحمة الخيل في المعركة، ولا يلذ عينه إلا غبار الحرب إذا اعتكر، وإشراف السيوف إذا هوت على الهام.

وشارك عقبة في الفتوح فرأى عمرو بن العاص يفتح مصر بالسيف، ويفظ البلاد بالسنان، ويتكل على القوة في رضوخ ما فتح من البلاد في فلسطين ومصر والمغرب فنشأ وهو حربي لا يعتمد إلا على السيف، ولا يتكل إلا على القوة، ولا يرى الجهاد والفتح في دخول البلاد ظافرا تغمرها عجاجة خلية، وتغرد في أنحائها سيوفه، وتشرق أنهجها بدماء أهاليها.

وكانت شخصية عقبة حربية ممتازة، فعينه عمرو بن العاص للفتوح، فعاش عقبة اغلب حياته في لأمة الحرب وفي صفوف الجندية، فكان من أبطال الإسلام، ومن الفاتحين العظام، الذين نفتخر بهم في الإخلاص والشجاعة والأقدام، ولكن الدهاء السياسي، والمواهب العقلية التي يجب ان يتصف بها أمير يولي على قطر قوي الشكيمة كالمغرب، ان هذه لم تكن قوية فيه رضي الله عنه.

انه قائد يليق للمعامع، وإذا لاق للولاية ففي النواحي الوادعة الهادئة كبرقة أما

المغربات الأوسط والأقصى فلا يليق لهما إلا داهية محنك يعرف كيف يستميل البربر إليه بالحنكة لا بالشدة ، وبالمهارة لا بالعنف. ويدرك الفرق بين البربر والفرس والروم، وما يليق للروم والفرس، وما يليق للبربر، فان البون بين الفريقين شاسع، والفرق بعيد.

وسمع عقبة ما قال الله في الكفار، ورأى احتقاره لهم، وأمره بقتالهم والشدة معهم، وسمع ما قال الرسول، ورأى شدة عمرو بن العاص والقواد المسلمين مع الفرس والروم، فتكونت له نظرة ثابتة إلى الكفار فصار يمقتهم ويحتقرهم، ولا يرى لهم حرمة ولا مكانة. وقد نظر عقبة إلى البربر نظرته إلى الفرس والروم، ونظرته إلى كفار قريش، ومن حارب الرسول واضطهده من أعداء الإسلام، أولئك الذين لعنهم الله في كتابه، واوجب مقتهم على عباده، فلم يعرف عقبة ان هناك فرقا بين الروم والفرس والبربر في المزاج والطباع،وهناك تباين كبير بينهما فيما يتصل بالدين.

ان الفرس والروم أمم شاخت وهرمت، وفسدت طباعها، وانحلت أخلاقها، واصطبغت بالكفر، وتكونت فيها طبقة كبيرة من الاوستوقراطيين، المعاندين الجاحدين لا بد لاجتثائها وأعمال السيف فيها، هذا بعد ان جرب المسلمون اللين معهم فلم ينفع، ودعوهم إلى الإسلام في لطف فاعرضوا وتكبروا.

ثم ان الفرس والروم أمم وثنية أو مسيحية تشوبها الوثنية قد تغلغلت فيه عقائد دينية لا تتزعزع، وثبتت فيهم نظريات لا تزول، قد صمت آذانهم عن سماع القرآن، واستغلقت قلوبهم عن دعوة الإسلام، وحملهم تعصبهم على مدافعه الدين الحنيف، ومحاربة الإسلام بكل ما أتوا من قوة، والوقوف في سبيل انتشاره بكل ما يملكون من سلاح، فلا بد بالقوة معهم ليخضعوا، وإزالتهم من الوجود لينفسح الطريق للإسلام في أممهم. أما البربر فليسوا متعصبين لدينهم كهؤلاء. لقد آمنت طوائف كثيرة من البربر في المدن بالدين المسيحي لأنه دين سماوي يدعو إلى اعدل والمساواة، وهو ما كانوا متعطشين إليه، ويعلمون له مهم تحت كلا كل الاستعمار الروماني.

لقد اتجه البربر إلى المسيحية بدافع سياسي، ووجدوا في دين الرومان وسيلة يصولون بها عليهم فاستعملوها في مهارة. فما آثروا المسيحية لأنها ارث من أجدادهم تمكنت فيهم بالإيحاء والتقليد، ولا رأوا هذا الدين خاصا بهم فيعتبرونه منة مآثرهم فيأبون يكسفه دين آخر يمجد به قوم آخرون.

ان قلوبهم متفتحة لكل دين يدعو إلى الحرية والمساواة، ويمجد العدل والإخاء فلا بد ان يؤمنوا بالقرآن ويؤثروه ويتمسكوا به إذا وجدوه دين العدل والمساواة والحرية، وان

يحبوا المسلمين إذا وجدهم رسل عدل ومحبة وأنصاف. وإذا كانت في البربر رؤوس كفر فقد أزالها عبد الله بن سعد، ومعاوية بن حديج، وأبو المهاجر دينار، فانقضت في المغرب سيما الأدنى والأوسط عملية المحراث الذي يشق الأرض فينزع صخورها وأشجارها، فصار اغلب المغرب أرضا منقوشة ممهدة لبذور الإسلام، فما كان لعقبة ان يشق بمحراثه أرضا ينبت فيها دين الرسول عليه السلام، ويستعمل العنف ويغزو جيوشه بلادا أقبلت على المسلمين.

ثم ان الفرس والروم أمم شاخت وضعفت صفاتهم الحربية، فهم مستعدون للخضوع والرضوخ، فقاتلهم المسلمون فرضخوا واستكانوا استكانة الطفل إذا رفع العصا عليه أبوه. أما البربر فخلاف ذلك. إنهم امة فتية قد استرجعت حريتها من الروم، ونهضت نهضتها الكبرى لتأسيس الدول العظمى، وللسير بكل قوة في طريق التقدم والحياة ! ثم ان البربر أبناء حروب وسنان، وفرسان جلاد وطعان، يتصفون بكل ما يتصف به العرب من عزة وإباء، ومن شمم وأنفة، ولا يخضعون بالسيف ولكن بالإقناع، ولا ينقادون بالعنق ولكن بالحكمة واللين. يكرهون من يحتقرهم، ويثورون على من يهينهم، فلاحترام والتقدير والمجاملة هي التي تفتح قلوبهم، وتجعلهم لك كما يريد.

إنهم لا يهابون الموت، ولكن يتعشقونه في سبيل الأوطان، ولا يهربون من الحرب بل هي أحب إلى نفوسهم في سبيل الكرامة من كل لذة تشره إليها النفوس، وكل قنية تنزع إليها الأفئدة.

هذه هي حقيقة البربر الذين وقفوا على أقدامهم، وبسطوا أجنحتهم، ورؤوسهم إلى العلا ليحلقوا في سماء الحياة والعزة، فما كان لامرئ ان يشدخ تلك الرؤوس، لأنها لا تطأطئ بالمطارق، ولكن يجعلها تخشع وتخضع الحب والاحترام، والإقناع بما في الكتاب، لا العنف بما في الكتائب.

ان البربر ليسوا مسيحيين متعصبين كالروم، ولا مثنيين متعنتين كابي جهل وعصابته.

كان الروم وأبو جهل وقومه، والفرس وشيعتهم، من الوثنيين الذين دافعوا الإسلام،وحاربوا الرسول آذاوه. يعتدون بأديانهم، ويرونها جزءا من شخصيتهم، ومأثرة من اكبر مآثرهم، يستتبعون بها غيرهم ويخضعونه، ويصلون بها كثيرا من أغراضهم، ويحققون بواسطتها كثيرا من آمالهم. إنهم يرون دينهم هو رأس مالهم الاجتماعي، به يصولون، ومفخرة من مفاخرهم، بها يشمخون، لا يرضون لمأثرة أخرى ان تكسفه، ولين

أخر أن يغطي عليه، ولجنس آخر كالعرب ان يأتي بأحسن مما عندهم فيبزهم في المجد، ولنبي آخر أفضل من بينهم فيجتذب الأنظار عنهم، فلذلك كفروا بالإسلام،ولم يصيخوا للقرآن فيتبينوا هداه وإشراقه، ويعرفوا تقدمه على ما عندهم وتفوقه، فيؤثرون الأكمل، ويعلمون ان الإسلام إنما هو تتمة لدين عيسى عليه السلام، جاء لتأييده وترسيخ أصوله في النفوس، ونزل لتكميله ليكون دين الله لائقا لكل زمان ومكان.

ان الروم والفرس كانوا يتعصبون لجنسهم، ويقدسون حضارتهم ويرون إنهم بها أفضل من كل الأجناس، فأبت عليهم كبرياؤهم وتقديسهم للمادة ان يخضعوا لأبناء الصحراء، وهم لا يملكون قصورا كقصورهم، وحضارة كحضارتهم، وان يتبعوا العرب أبناء البادية وهم عند أنفسهم اعلم وأكثر هدى، فالدنيا يجب ان تقتدي بهم، وتسير في ركابهم.

هذه هي نفسية الروم والفرس المريضة، وتلك هي نفسية أبي جهل وحزبه في الجاهلية، فلابد بالكي لهذا المرض ليزول، وبالعمليات الجراحية البالغة لهذه الأمم كي تشفى، ولابد بغمس امة الروم والفرس في برك الدماء كما يطلي الأجرب بالقطران ليصح.

إنهم شجرة مريضة يجللها الخطب اليابس الكثيف من تلك الطبقة الاوستوقراطية الواسعة المصطبغة بالكفر، والتي لا يرجى إسلامها فلابد بتسليط الفؤوس عليها لتقليمها.

ان في الفرس والروم تلك الطبقة المترفة الغنية التي تستعبدها شهواتها، وينابذ الإسلام عاداتها، والتي سارعت إلى نور الإسلام تعبده وتقيم السدود دونه كما يسارع من يرغب في النوم إلى نوافذه فيغلقها ليبعد عنه نور الصباح.

ان هذه الطبقة موجودة بكثرة في الفرس والروم، وهي التي جعلت امة الفرس والروم يشاقون الإسلام، ويحاولون المسلمين فلابد بالعنف معهم ليشق الإسلام طريقه في أممهم. ثم ان الفرس والروم امة شاخت وهرمت فالسيف يرهبهم ويخضعهم فيستكينون استكانة الطفل المريض إذا تخبط في حجر امة فترفع العصا فيستكين، فتجرعه من الدواء ما تشاء.

هذا ما أدركه الفاتحون المسلمون في الفري والروم، فاعملوا فيهم الحسام واعتمدوا في فتح بلادهم على السيف والسنان. ثم ان الفرس والروم ناهضوا دعوة الإسلام، وآثروا

الحرب والحسام، أما البربر ففي الدين والمزاج وموقفهم من الإسلام والمسلمين خلاف الفرس والروم.

ان البربر كان فيهم المسيحيون وهم على ما وصفنا، وفيهم الوثنيون وهم أبناء القرى والجبال الذين كانوا يكرهون الرومان المستعمرين فكرهوا كل شيء يتصل بهم حتى الدين الذي جاء على أيديهم، فبقوا متمسكين بوثنيتهم القديمة التي صارت تزعزعها عقولهم المثقفة بمجاورة الروم والرومان وبني عمومتهم المثقفين.

انه دين يشبعون به غزيرة التدين في نفوسهم، لا تؤيده عقولهم، ولا ينسجم مع نهضتهم وتقدم الزمان عندهم، فلذلك نجد البتر في برقة، وجنوب افريقية، واغلبهم وثنيون يسارعون إلى الإسلام، ويؤمنون بالدين الحنيف، لان قلوبهم قد خلت من جذور دين متمكن تؤيده عقولهم وأهواؤهم. إنهم امة تيقظت للحياة فهي تدلك عيونها لتمسح عنها غشاوة الليل، فلاح لها فجر الإسلام فهفت إليه، وطلعت عليها شمس القرآن فعرفت انها نور لا نار فشغفت بها، فصار البرانس والبتر في المغرب يتعلمون العربية في عهود أبي المهاجر لأنها وعاء الدين، ويختلطون بالعرب ليأخذوا لغتهم لأنها مفتاح القرآن. فما كان لعقبة ان يلزهم مع الفرس والروم في قرن، وان ينظر إليهم نظرة واحدة.

ان البربر لما رجع عقبة إلى المغرب في ولايته الثانية قد سكنوا بفضل سياسة أبي المهاجر الحكيمة، وأصاخوا لنعمة الإسلام الجميلة كما يصيخ الوليد الأغاريد أمه فينكف عن البكاء، وتفتحت قلوب البربر لدعوة الدين النبي كان يقوم بها كسيلة وأبو المهاجر والمسلمون كما تتفتح الأرض المحروثة لحبات الرهام، فصار الإسلام يسير سيره، فلو اتبع عقبة سياسة أبي المهاجر لغزا الإسلام بالدعاية حتى المناطق المنطوية على نفسها كجبال القبائل وأوراس فتكون للمسلمين بدون دماء.

ان عقبة لما وصل المغرب في هذه المرة لم يجد جيشا بربريا متحفزا لحربه، ولا ناحية ثائرة قد أخذت أهبتها لدفعه، ولم يسر لما سار إلى نواحي صعبة فيها ملوك من البربر لا زال المسلمون لم يتصلوا بهم كجبال آوراس، ولكن سار إلى المغرب الأوسط والأقصى، إلى سهولها التي أرسل فيها أبو المهاجر نور الإسلام، فهو يسير سيره فيها مخترقا كل البقاع.

ثم ان عقبة لم يفتح في حروبه الطويلة مدينة كبرى فيستقر فيها، أو يترك جماعة من المسلمين ينشرون فيها الإسلام بالدعاية، كما فعل أبو المهاجر لما فتح مدينة ميلة

فأقام فيها زهاء سنتين، وتلمسان فمكث فيها حوالي عامين، ينشر دين الله بدعايته وحسن سياسته، ويخلق للبربر بيئة جديدة من العرب المسلمين يختلطون بها، فيتأثرون بما فيها، ويقبسون منها العربية والدين، بل نجده يكتفي بحرب البربر في باغاية، وتازولت، وأدنه فيثخن فيهم، بدون ان يفتح بلدا من هذه البلاد التي نازلها. لقد اكتفى بحرب البربر والتغلب عليهم في ميدان الوغى، كان البربر قد اضروا الإسلام والمسلمين بعدوانهم فيجب الاثئار منهم، وكأنهم أشلاء مريضة فيجب استئصالها ؟!! فلو انه إذ حارب فتح مدنا عذراء لم يسبق إليها كأجنة وتاهرت فاحتلها، وترك المسلمين فيها لتكون منابع للدين لكان لنا بعض الغنم، ولكنه اخترق البلاد بجيوشه، وخاض حروبا عنيفة مع البربر أنهكت قواه، وسقط فيها عشرات أو مئات من جنده ثم رجع. فلم تكن الرزئة في عدم انضمام نواحي إلى الإسلام في المغرب لم تنضم، بل في انسلاخ نواحي شاسعة عن الإسلام كانت قد أسلمت.

ان عقبة رضي الله عنه لم يفهم حقيقة البربر، ولم يعرف مزاجهم، ولم يدرك الفرق الفارق بينهم وبين الفرس والروم وبين المشركين المعصبين الذين أمر الله ان يؤخذوا بالشدة، وتستعمل معهم القساوة. ان البربر في ولاية عقبة الثانية من الذين رسم الله لنبيه طريقه افتتاح قلوبهم لتنفتح بلادهم فقال :»ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» وباللين لا بالشدة كان يعتمد الرسول عليه السلام، في دعوة الأنام، إلى نور الإسلام، وقد أثنى عليه الله للطفه لا لشدته فقال:»فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» هذه هي سياسة الإسلام في دعوة الشعوب إلى الدين، وفي معالجة الأمم لتنضم إلى المسلمين. فلو ان عقبة سلك هذا الطريق، واخذ بتلك السياسة لوجد البربر أسرع إلى الإسلام من الماء من قنن الجبال، ولكنه قسا لهم فتحجروا تحجر الماء في الجو القاسي.

ان عدم معرفة لحقيقة البربر هو الذي افسد عليه أعماله، والسبب الثاني هو مزاج عقبة العسكري هذا المزاج الذي يأبى على صاحبه ان يلين للناس ويجذبهم بالحسنى، ويتواضع لهم ويختلط بهم فيحبونه لتواضعه الذي يدل على احترامه لهم، وحنوه عليهم. ان المفتاح الذهبي الذي تفتح به كل الإقفال المستعصية في الأبي، وفي قوم معتدين بأنفسهم كالبربر إنما هو احترامك لهم. وقد عرف أبو المهاجر هذه القاعدة، فاصطنع كسيلة بالاحترام والتقدير، وبمعاملته كملك لا كسوقة، كما كان يحترم

البربر فأحبوه واقبلوا عليه. أما عقبة فأول ما ابتدأ به هو إهانة كسيلة ملك البربر بان قيده وسجنه وعامله معاملة الأعداء الألداء، ثم زحف بجيوشه على بلاد قد أتنشر فيه الإسلام. ان هذا كله قد أوحى إلى البربر باحتقارهم فحقدوا على عقبة فثاروا عليه.

ان هذا الاحتقار للبربر قد أملاه على عقبة رضي الله عنه وأرضاه مزاجه العسكري الذي يدعو إلى الصرامة، ويبعث صاحبه على الشدة والشموخ. وليس كسيلة أول ملك بربري يهينه عقبة ويرتكب الغلطات السياسية معه، بل انه أهان ملوكا آخرين وارتكب فيهم ما يغير قلوب شعوبهم عليه. روى أبو عبيد البكري في كتابه المغرب في بلاد افريقية والمغرب في صفحة 12 طبع الجزائر. روى قصة عقبة لما سار إلى وادن في جنوب طرابلس وقد امتنعوا عن دفع الجزية قال:...ثم سار بنفسه من مغمداس بسرت في أربع مائة فارس، وأربع مائة بعير، وثمانمائة قربة ماء حتى قدم وادن فافتتحها واخذ ملكهم فجدع إذنه فقال: لم فعلت هذا وقد عاهدني المسلمون؟!! قال: أدبا لك إذا مسست أذنك ذكرت فلم تحارب العرب، ثم استخرج منه ما كان فرض عليه: ثلاث مائة رأس، وستين رأسا «من العبيد» ثم سألهم عقبة هل وراءكم احد قالوا جرمة، وهي مدينة فزان العظمى، فسار إليها ثماني ليالي من ودان فلما دنا منها فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا، فنزل منهم على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلا حالت بينه وبين موكبه، فامشوه راجلا حتى أتى عقبة، وقد لغب وأعيا، وكان ناعما، فجعل يبصق الدم. فقال لم فعلت هذا وقد أتيتك طائعا. قال: أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا ثم قال: فسال عقبة أهل قصور فزان التي افتتحها هل وراءكم احد قالوا: نعم أهل جاوان ثم قال البكري... فمضى إمامه «بعد حصاره لجاوان» إلى قصور كور فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها، وفيه ملكها، فأخذه وقطع أصبعه ! فقال: لم فعلت هذا بي ؟!! قال أدبا لك. إذا نظرت أصبعك ذكرت فلم تحارب العرب».

إذا صحت هذه الحوادث فإنها تكون في سنة 50 في مسير عقبة إلى المغرب واليا عليه، ويكون سببها تنكر تلك النواحي للمسلمين، لان عقبة قد فتحها في سنة 23هـ في غزوة عمرو بن العاص لطرابلس. وسواء صحت هذه الحوادث المؤلمة التي نسبت إلى سيدنا عقبة رضي الله عنه أو لم تصح فان عسفه لكسيلة واحتقاره له دليل على انه كان عنيفا مع البربر، لا يعرف كيف يتملكهم.

ان زهير لن قيس قد حارب البربر بعد ارتدادهم عن الإسلام، فحاربهم الحرب المشروعة، فلم يرتكب في رئيس من رؤسائهم ما نسب إلى عقبة من مثلة نهى الله عنها حتى في أموات المشركين.

يرحم الله عقبة لقد كان عسكريا صارما، وكان يجب على معاوية الملك، وابنه يزيد ان يعلموا حقيقة البربر وطبع عقبة، فيسندوا إليه قيادة الجيوش في المغرب ويبعثوا معه واليا كابي المهاجر يتولى شؤون السياسة.

يرحم الله عقبة فقد كرس جهوده لفتح المغرب، وأمضى شبابه في برقة يغزو نواحيها ويبث الدين فيها، وكان حريصا على ان يتم فتح المغرب على يده، ولكن لم يسعفه الحظ، ولم يواته طبعه العسكري، وأراد الله له ان يموت تلك الموتة الرائعة، ويستشهد في المغرب، ويدفن في البلد الذي أحبه واخلص له.

لقد أورد جل المؤرخين حوادث عقبة مشوبة بالتحامل على البربر مما يدل على ان هؤلاء المؤلفين أما إنهم لا يعرفون البربر أو إنهم قد انخدعوا بالرواة الذين كان كثير منهم متعصبا لعرقه. ونحن لا نتعصب لا للعرب و لا للبربر فالعرب أجدادنا والبربر أجدادنا، وكلاهما أثير عندنا، لا نرضى ان يغض من قدرهما إنسان، أو صورهما على غير حقيقتهما احد.

واستشهد عقبة فتعطرت ارض المغرب بدمائه وبدماء صحبه الزكية فدفن في جنوب تاهودة بمدينة سيدي عقبة في الجزائر، ليكون حارسا للدين واصلا من أصوله في المغبر، وقد حاول الاستعمار الفرنسي الصليبي قرنا واثنين وثلاثين سنة، كما حاول الاستعمار الايطالي ان يجردوا المغرب من حلة الدين والعربية، واتخذوا لذلك من الوسائل والأساليب الجهنمية ما ان لو تسلط على الجبال لزالت من مكانها، وعلى النجوم لحال من نوارها فلم يزيدوا للمغرب بذلك إلا رسوخا في دينه، وتمكنا في عربيته، لان عقبة وصحبه، وزهيرا وزملاءه ينادون المغرب دائما ويأمرونه من تحت ثراه ان دم راسخا في طريق الدين فكان ما يأمر به عقبة وأصحابه الأبرار !

ورأى آوراس العتيد الشامخ كيف يستشهد الأبطال في سبيل الدين، فتضاعف في شجاعته، وازداد بطولة، وتعلم كيف يستحلي الحياة في سبيل الدين، فكان من أضراس المغرب العتيد التي طحن بها الاستعمار الفرنسي فزال، وأصبح حارسا للدين والعربية التي استشهد عقبة وصحبه في سبيلهما !

يرحمك الله يا عقبة! لئن قاسيت الأهوال المؤقتة فوق ارض المغرب فانك قد فزت بالفردوس الدائم تحتها.

لقد اسلم المغرب كما تريد، وانه لقلعة للدين في العالم الإسلامي، وسيكون مشرقا

له ينير شماله، ويكون منبعا للهداية والنور تهتدي به الضالة الشقية بعبادة المادة والتكالب عليه!

ثم يأتي زهير بعد عقبة فيواصل عمله في المغرب ثم يلاقي مثل نهايته.

غزوة زهير بن قيس البلوي 69هـ 690م

ورجع زهير بن قيس إلى برقة وفي أعماقه جمرات لا تخبو.وفي نفسه نيران من الحزن على عقبة لا تنطفئ، وفي صدره حرارة للحقد على كسيلة لما أصاب هيبة الإسلام على يده لا تسكن، وفي قلبه حيرة على المسلمين في القيروان وهم قلة في كثرة لا تزول. وكان المسلمون الذين يتحملون المسؤولية في الدولة على هذه الحال، وكان عرش الدولة الإسلامية على تلك المشاعر. فبوده لو انطلقت جحافله تزرع النور بالدعوة، وترجع للإسلام هيبته بكسر شوكة الكفر في المغرب. غير ان الحروب الداخلية التي كانت بين الأمويين ومنافسيهم في الملك بعد موت معاوية بن يزيد كانت تمنع مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان من توجيه الجيوش للفتوح، حتى كانت سنة 69هـ.

وكان على عرش الدولة عبد الملك بن مروان. ذلك الجبار الذب هيأته الوراثة وبنته المحن لهذه الأيام الشديدة كي يقود الدولة في جو كله أعاصير. فولى قيس بن زهير على افريقية، وأرسل إليه مددا كبيرا من إشراف العرب وشجعان المسلمين، وكلفه بالسير لمحاربة كسيلة.

وكان زهير بن قيس من العباد الزاهدين، ومن إشراف المهاجرين، ومن الأبطال الفاتحين. ومن الصحابة المجاهدين. وكان قد شارك في فتوح المغرب، ولازم عقبة في غزواته فكان من أركان حربه، ومن اكبر أعوانه فيما قام به من أعمال في المغرب. وكان تقيا زاهدا لا يحارب للشهرة ولا للغنيمة، ولا للعصبية، ولكنه يحارب لان الجهاد اكبر باب للأجر، فهو يجتهد فيه، ويعطي نفسه له، لينال به رضى ربه.

وكان من تلك الطبقة النزيهة من العباد الزاهدين الذين لا يبالون بالدنيا ولا يتمسكون بالحياة، فينعدم خوف الموت من قلوبهم، فيكونون في المعركة وفي ميادين الحروب في أعلى درجات الأقدام والثبات والشجاعة والبطولة.

وكان محبا لعقبة يراه مثله الأعلى في الجهاد، معجبا به، حزينا على فقده، حردا على الدين قتلوه. ولما ولي على المغرب ووصله المدد الذي يصول به شمر عن ساعده ليزيل عقبة من العقاب التي تخلقت في وجه الإسلام في المغرب.

فسار زهير في جيش كبير من العرب والبربر المسلمين أرى انه يبلغ العشرة آلاف جندي، وقد قدره بعض المؤرخين بستة آلاف، وارى ان هذا هو المدد الذي جاءه من مصر والشام فانضم إليه من كان مع زهير من الجند المرابطين في برقة، ومن المتطوعين المسلمين من

البربر. ولا يمكن ان يكون جيشه اقل من عشرة آلاف. وقد روى ابن مقديش الصفاقسي:ان عبد الملك بن مروان أمر زهير بن قيس بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو افريقية، وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلة من معه الرجال والأموال» ولا يمكن ان يكلف عبد الملك زهيرا بغزو كسيلة الذي يعرف شدة شوكته إلا وهو غفي آلاف من جنده. ولكن زهيرا كان عليما بشجاعة البربر، وببطولة كسيلة وكثرة جيشه فاستمد عبد الملك فأمده. ولا يمكن ان يكون قد سار في اقل من عشرة آلاف.

وسار قيس في جيشه حتى وصل افريقية قريبا من القيروان.

وكان كسيلة قد اختار القيروان لنزوله ليكون قريبا من أبواب افريقية فيسارع لرد العرب ومقاومتهم إذا زحفوا عليها. وتسامع بمسير زهير إليه فاستعد للقاء.

قال ابن الأثير فجمع كسيلة إشراف البربر وتشاور معهم فقال لهم: قد رأيت ان ارحل إلى «مش» فنزلها فان بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين، ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونخاف ان قاتلنا زهيرا ان يثب هؤلاء من ورائنا فإذا نزلنا «مش» أمناهم، وقاتلنا زهيرا فان ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من افريقية، وأم ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى «مش».

وكانت مش في الهضبة على الجنوب الشرقي لجبال آوراس، وكانت مدينة حصينة. فعسكر كسيلة خارجها فصار ينتظر مسير زهير إليه.

وكان كسيلة قد حشد جمعا كبيرا من أنصاره، وكان الروم قد انضموا إليه، فتكون له جيش كبير من البربر والروم، فوقف مستعدا للاشتباك بزهير.

وكان جيش زهير قد تعب بقطع الفيافي الطويلة من مصر إلى افريقية، فاستراح أياما في معسكره حول القيروان، ثم زحف إلى كسيلة فاشبك به حول مش.

وكان كسيلة حردا مغتاظا لمعاملة عقبة له، وكان قد عزم على رد العرب على أعقابهم وإخراجهم من وطنه، والذود عن افريقية بكل ما أوتي من قوة، وكان الروم يحرضونه على المسلمين ويذكون عداوته لهم.

وكان زهير يعلم ان كسيلة ودولته هي العقبة الكأداء في سبيل الإسلام في المغرب فلا بد بإزالتها، وكان مغتاظا على كسيلة لقتله لعقبة ومن معه، ولما انزل بالمسلمين من هزيمة أضعفت نفوذهم.

وكان زهير وجيشه أبناء حروب وسنان؛ وكان البربر كذلك. فالتقى الجيشان فاشتدت

المعركة، وحمي الوطيس، وانتطح الجبل بالجبل، واشتبكت الأسود بالأسود فدام الأمر زمنا حتى ظن المسلمون انه الفناء، ثم انزل الله نصره على المسلمين، فقتل كسيلة وصناديد قومه، وانهزم البربر وتفرقوا في البلاد، واعتصموا بالجبال، فتتبع زهير البربر المنهزمين إلى وادي ملوية، فأخرجهم من المغرب الأوسط خوفا من إعادة الكرة على المسلمين بالقيروان، ثم انساحت جيوشه تغير على مدن البربر والروم حتى وصلت في الشمال إلى مدينة مرماجنة في ناحية قسنطينة، ومدينة الكاف في شمال تونس، فغنموا وسبوا ورجعوا مظفرين فائزين. ثم رجع زهير إلى القيروان فدخلها دخول الفائز المنتصر، وهو قرير العين بجهاده، وإدراك ثأره، ورجوع الجيش الإسلامي إلى المغرب.

وكان زهير رضي الله عنه لم يسر لافريقية حبا للولاية، ولا إيثارا للرئاسة، ولكن لأخذ ثار عقبة وصحابته، ولإرجاع هيبة الإسلام إلى ما كانت عليه، ولإزالة ما قد يصيب المسلمين في القيروان من سوء. وقد تحقق كل ذلك وسكن المغرب فلم يعد فيه عدو يهدد المسلمين.

وكان زهير كعقبة شخصية دينية حربية، يليق للحرب ولا يليق للسياسة فرأى رحمه الله كثرة مشاكل المغرب، فعلم انه لا يستطيع الولاية عليه،وانه لا يقد على دسائس الروم وشدة شكيمة البربر، وان إسلام المغرب وإتمام فتحه يتطلب مهارة سياسية وهو لا يملكها. ورأى أيضا حضارة المغرب، ومدينته الرائعة، وكنوزه وغناه، ورمى ببصره في افريقية فملأته بجمالها وفتنتها وسحرها فخاف على نفسه حب الدنيا فقال: إنما جئت لقتال عدو المسلمين، وقد زال من أخافه عليهم، فلم يبق عدو في البلاد، وأخاف ان قمت في هذه الديار ان يداخلني حب الدنيا فرجع إلى برقة الهادئة التي ألفها وهدأ خاطره فيها.

وكانت مدينة برقة هي مركز ناحيتها، من خليج سرت إلى السلوم، وقد سميت تلك الناحية بها، وهي مدينة جليلة الشأن في الزمن القديم، وهي في شرق مدينة اجدابية بينهما ست مراحل. وقد وصفها البكري وبين حالها في القرن الخامس الهجري وما وصلت إليه م حضارة وعمران قال في صفحة 5 في كتابه المسالك والممالك طبع الجزائر: ومدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني، وهي دائمة الرخاء، كثيرة الخير، تصلح بها السائمة، وتنمي على مراعيها وأكثر ذبائح أهل منها، وهي كثيرة الثمار من الخوز والاترج والسفرجل وأصناف الفواكه. وبمدينة برقة قبر رويفع بن ثابت الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. تلك هي برقة حتى لا يتوهم القارئ انها الناحية الشرقية لليبيا كلها كما هو في كتب الجغرافية اليوم.

ورجع زهير إلى مدينة برقة ومعه جيشه، فلابد وان يكون الذين استوطنوا القيروان قبل واقعة تهودة وهاجروا منها مضطرين وأقام معظمهم مع زهير في برقة، قد بقوات في القيروان. ورجع مع زهير بعض جيشه فقط وهم الذين أرسلهم عبد الملك من مصر والشام.

وكان الروم قد استرجعوا كثيرا من قواهم في بيزنطة، بفضل إصلاحات ملكها قسطنطين الرابع الذي نفخ فيها بعض الحياة فانتعشت، وكان لهم أسطول قوي في صقلية، ولما خرج زهير من مدينة برقة في غزوته لافريقية، لم يترك فيها حامية، وكانت مدينة إسلامية، هي محط أثقال المسلمين وذراريهم، وكان جمهور كبير من ذوي هذه الأموال والذراري من جند زهير. وكان الروم يرقبون أحوال المغرب من ذوي هذه الأموال والذراري من جند زهير. وكان الروم يرقبون أحوال المغرب من صقلية، ويتتبعون حركات زهير. فلما خلت برقة من حاميتها، دفعهم الجشع والحقد والعداوة وحب الانتقام من المسلمين الذين هدموا دولتهم في افريقية، وأزالوا نفوذهم من المغرب. دفعهم ذلك إلى مهاجمة برقة. فهاجموها من صقلية في أسطول كبير، وجيش عرمرم فنزلوا عليها في غيبة زهير فقتلوا ونهبوا وسبوا وارتكبوا في المدينة الإسلامية وفيما حولها من المدن كل الفظائع التي يسولها الحقد ودناءة الجبان في الضعفاء. فسمه زهير بما وقع للمسلمين فظن ان الذين أغاروا عليها شرذمة من الروم. فأمر جيشه ان يسير في طريقة، وعدل هو وجماعة من أصحابه إلى الشاطئ فأسرعوا المسير ليصلوا برقة لاستنقاذ السبايا المسلمين من أيدي الروم، ويؤدبهم بالحسام. فوصل زهير، فوجد برقة ملطخة بالدماء، والروم يجرون النساء المسلمات ومن سبوه من الذراري والرجال، يجرون النساء من شعورهن وهن يتصايحن فيلقون بهن في السفن فأحس هؤلاء المساكين بمجئ زهير كما شعرت به برقة الجريحة فاستغاثوا به وتباكوا له. فثارت ثائرة زهير ومن معه، وعملوا ان انتظارهم حتى يصل كل جيشهم سيمكن الروم من الإقلاع بما في أيديهم من حريم المسلمين وذراريهم وأموالهم. فاخترطوا سيوفهم وعزموا على الموت في سبيل الله.

وكان الروم جيشا كبيرا وزهير في قلة من أصحابه فوقعت معركة عنيفة بين الطرفين أبدى فيها المسلمون كل شجاعة وبطولة، ولكن الكثرة تغلب الأسد فأحاط الروم بزهير وأصحابه فجالوا رحمهم الله حتى استشهدوا كلهم فلم ينج منهم إلا رجل واحد فذهب ذلك الواحد وجيش المسلمين إلى عبد الملك فاخبره بفعلات الروم وباستشهاد زهير فحزن على زهير لمقامه في الدين وبطولته وشجاعته. وعلم ان الروم

أعداء الإسلام في افريقية، وأنهم لا زالوا قوة هناك تحوك الدسائس للمسلمين، فعزم على تطهير المغرب منهم فأرسل حسان بن النعمان العظيم ليتم فتح المغرب، ويفلق رؤوس الروم فيه.

وقد روى ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمغرب في صفحة 202 طبعة ليدن ما يدل على زهيرا قد توقف عن الهجوم ليتلاحق به جيشه، ولكن آثاره واعجله معه. قال :»فخرج «زهير» حتى إذا كان بدرنة لقي الروم وهو في سبعين رجلا، فتوقف ليلحق به الناس فقال له فتى شاب كان معه: جبنت يا زهير فقال ما جبنت يا ابن أخي ولكن قتلتني وقتلت نفسك فلقيهم فاستشهد زهير وأصحابه» ولربما كان عدد من مع زهير من أصحابه صحيحا، ولكن الأسباب التي حملت زهيرا على الهجوم هي التي أسلفنا وقد رواها كثير من المؤرخين.

وتعطرت ارض المغرب الكبير بدماء جماعة أخرى من كبار الصحابة والتابعين لتسقى بذور الإسلام التي نبتت فيه ثم لا تموت أبدا. وأضحت ارض مغربنا العزيزة مرصعة بقبور أولئك المجاهدين، وكل قبر قطعة من الفردوس لأولئك الشهداء الأبرار واستشهد زهير وهو يجالد المستعمرين المغيرين ففاز بأعظم أمانيه. رحم الله زهيرا كأنه أسف لعدم الاستشهاد مع عقبة، وتمنى مثل موقفه وموتته، فجازاه الله لما اقر عين الإسلام في افريقية بادراك مناه.

ان الله هو الذي ساق زهيرا من افريقية لا خوفا من افتتانه بجنات افريقية لان تلك الجنات لا تليق مقاما وجزاءا لزهير على أعماله ونياته فساقته ليقيم في جنات عدن مع الأبرار.

اللهم اجعلنا كزهير وصحبه في الغرام بالجهاد في سبيلك، والعمل لرضاك، والموتة الكريمة وملائكة الرحمة والرضوان تكتنف أرواحنا إلى الرفيق الأعلى كما اكتنفت روح زهير.

وإذا كانت غزوة عبد الله بن سعد قد أطاحت بدولة الروم في افريقية، وأزالت عقبة كبرى في سبيل الإسلام، فان غزوة زهير قد أزالت عقبة من اكبر العقبات لما قضت على دولة كسيلة، وزالت رؤوس المعارضة من البرانس، وكبار البربر المعاندين، ولكن المغرب لا زالت فيه دولة الكاهنة القوية. وقد رأت ما حل بابن عمها كسيلة واشرف البربر الذين معه فغضبت واحتدمت. وأنها لقوة كبرى تحدث نفسها بمهاجمة المسلمين، فلابد بالقضاء عليها. وهذا ما سيفعله حسان العظيم.

وكان مسير زهير إلى افريقية في آخر سنة 69 هـ واستشهاده في سنة 70 هـ ومقامه في افريقية بضعة شهور. ودفن بدرنة قريبا من الشاطئ الذي استشهد فيه.

ولاية حسان بن النعمان على افريقية وفتوحه في المغرب 74 هـ

كانت موته زهير على يد الروم، وعيثهم في برقة، وسبي من سبوا من المسلمين حرقة في أعماق عبد الملك لا تخبو، ورزية عظمى عند المسلمين، وجرأة كبيرة من الروم عند أولى الأمر، تكسف سمعتهم في المغرب، وتطمع فيهم العلوج فيعاودون الكرة على ثغور المسلمين.

وكان عبد الملك يتلهف إلى إرسال جيش عرمرم إلى المغرب ليتم فتحه، ويستأصل شأفة الروم فيه، ويطهره من كل العقبات التي تمنع نور الإسلام من الانتشار في ربوعه، ولكن أحداث المشرق كانت تشغله، وحروبه مع ابن الزبير كانت تغل يده، فلا يستطيع ان يبعد عنه رجاله، والمنافسون على الملك فاغرون لابتلاعه من كل جانب، والأيدي تمتد إليه بالسلاح لتقصيه عن العرش من الحجاز والعراق. ولما قضى عبد الملك في سنة 73 على دولة سيدنا عبد الملك بن الزبير في العراق والحجاز ودانت له تلك النواحي، وخف عنه حمل الحروب التي كان يخوضها للتغلب على الثائرين والنافسين، وهدأ جو المشرق كثيرا من الهدوء، والتفت إلى المغرب فعزم على إتمام فتحه، ونشر دين الله، فولى عليه حسان بن النعمان الغسانيـ، فأمره بالمسير إلى المغرب.

وكان عبد الملك يعلم كثرة العقبات التي بقيت في طريق الإسلام في المغرب، وهول المعارك التي تستقبل المسلمين في تلك الربوع. وكان قد استفاد مما وقع لعقبة، فعلم ان المغرب لا يزيل العقبات منه، وينشر دين الله فيه إلا رجل قوي عبقري يجمع إلى شجاعته وبطولته في المعارك، وبصره بالحروب، حنكة كبيرة في السياسة، ودهاءا تاما في التدبير، ولطفا يستعمله في مقاماته ليفتح به قلوب البربر للإسلام، ويستميل به هذا الجنس البربري القوي المعتد بنفسه كل الاعتداد إلى المسلمين. فتداول مع خاصته في من يصلح لولاية المغرب. فاستعرضوا رجالات الدولة فاتفقوا على انه لا ينهض بهذا العبء الكبير إلا حسان بن النعمان الغساني.

وكان حسان بن النعمان والي مصر لعبد الملك بن مروان، وكان قد أقامه في ذلك الثغر الخطير في هذه السنين العاصفة، ومعه جيش كبير عدة لما يحدث في تلك النواحي من الأعاصير. فأرسل إليه عبد الملك بنم مروان يأمره بالمسير إلى المغرب، وأطلق أيديه في خزائن مصر الغنية ليستعد كما يجب لهذا الأمر العظيم، فقال له عبد الملك «إني أطلقت يد في أموال مصر، فأعط من معك، ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد افريقية على بركة الله».[1]

1 - نهاية الأرب للنويري والكامل لابن الأثير.

وكان حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث، بن عمرو بن عامر الازدى من رجالات الشام وأفذاذهم وكان غسانيا من أولاد الملوك»، فأورثه أجداده همه ملوكية ترتفع به دائما إلى الأعلى. كان أول قائد شامي يولي على المغرب. وكان شخصية فذة وبطلا صنديدا، سياسيا ماهرا، طبخته الحروب فنقته من كل ضعف، وصهرته أحداث الزمان فتوجته ببياض الشيب في رأسه، وبياض الحكمة والحصافة والحنكة في عقله، فصار لا يمشي في ظلام الكوارث والصعوبات إلا بشمس من ذلك البياض !

وكان رجلا نزيها يعمل لمصلحة الإسلام والمسلمين لا لنفسه. وكان يلقب لنزاهته بالشيخ الأمين. وكان عبد الملك بن مروان يعتد به، ويراه من اعضاد دولته الأقوياء، ومن أفذاذ رجاله في ميادين السياسة والوغى. وكان له في الدولة الأموية ماض مشرق كصفحة السيف بعد الجلاء، فلذلك عينته الدولة لهذه المهمة، وأسندت إليه ذلك الأمر العظيم.

وكان المغرب بابا استعصى على الدولة الإسلامية فتحه، فلا يليق له إلا رجل كالمفتاح يجمع إلى حديديته تعاريج من دهائه، أم السيوف المواضي فلا تغني شيئا في فتح الأقفال! وكان حسان ذلك الرجل العظيم!

فشمر حسان عن ساعده فدعا المسلمين إلى الجهاد، ورغبهم في فتح المغرب ونشر دين الله فيه، فنثال المتطوعون عليه، فكملت عدته، فخرج من مصر إلى المغرب في جيش جرار كان عدده أربعين ألف جندي، وهو جيش لم يسر إلى المغرب مثله في فتوح المسلمين. فوصل حسان برقة فهشت له وانضم كثير من البربر المسلمين إلى جيشه، ووصل طرابلس فسكنت له سكون المطمئن الراضي، لان نور الإسلام الذي بثه الفاتحون الأولون في جنوب افريقية وفي القيروان، وقد سرى إليها، فخالط قلوبها، ففتحت طرابلس ذراعيها لاستقبال حسان.

قال ابن عبد الحكم:» فنزل حسان طرابلس واجتمع إليه بها من كان خرج من افريقية من المسلمين، فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي».

وإذا صح هذا اخبر فان البربر في برقة قد أصبحوا قوة للمسلمين، فصار الولاة يعتمدون عليهم في الحروب، ويعينون القواد منهم في الفتوح. فسار حسان فدخل قابس وقفصة ونفزاوة وقسطيلية فتم له ضم جنوب افريقية كله إليه، لم يذكر المؤرخون انه وجد مقاومة، أو تنمرت له إحدى تلك المدن فترك عماله في تلك النواحي فسار إلى القيروان.

وكانت الدولة البيزنطية قد تنفست الصعداء، واسترجعت بعض قوتها لما انجلى

الجيش الإسلامي الذي قارعها في ديارها، وشدد الخناق على القسطنطينية عاصمتهم في حصار المسلمين الثاني لها ليفتحوها. وكان قسطنطين الرابع ملكها قد قام بإصلاح ديني وحد صفوفها، وأنعشها كثيرا ممن الإنعاش فرنت بيزانطة إلى المغرب، وقوت علاقاتها بقرطاجنة وبالروم في المغرب فنفخت فيهم الحماس فرفعوا رؤوسهم، وتجددت الآمال في صدورهم، فحسبوا المغرب وطنهم، فعزموا على مقاومة المسلمين فيه.

ولما رأى حسان ما فعل الروم بزهير وأصحابه، علم ان الروم المستعمرين لا زالوا في افريقية قوة تخشى، وان قرطاجنة هي التي تتجسس لبيزانطة، وهي التي أوعزت لصقلية فهاجمت برقة،وان المستعمرين في المغرب هم مصدر الشر، واصل العداوة للمسلمين، وان تلك القلوب السوداء الجشعة التي لا ى ينوي للمغرب أي خير هي المستنقع الذي يسمم الجو بالدعاية لابد بردمه، والقرحة التي تورث للمغرب مرضه لابد بقطعها، والعقبة الكؤود في وجه الإسلام لابد ان تزول. فعبأ حسان جيوشه فسار إلى قرطاجنة ليفتحها.

وكان في قرطاجنة خلق لا يحصى من الروم والبربر، فسمعوا بمسير حسان إليهم فاستعدوا للدفاع، فغلقوا أبواب المدينة، ورابطوا وراء أسوارها العالية. فحاصرها حسان حصارا شديدا، وقطع الماء عنها بان كسر قناتها التي أنشأها البونيقيون لتوصل الماء العذب إليها مكن زغوان، وكانت هذه القناة من أعاجيب الدنيا، ومن مفاخر الدولة البونيقية،[1] فدخل حسان قرطاجنة بقوة اقتداره، فقتل كل الذين اعترضوا سبيله، فارتاع الروم فركب جمهور كبير منهم إلى صقلية والأندلس، وهرب الباقون إلى أنحاء المغرب. فغنم حسان غنائم لا تحصى من قرطاجنة، ورفرفت الإعلام الإسلامية لأول مرة على عاصمة الروم التي ظلت عذراء مستغلقة لم يدخلها المسلمون . فسكن الروم فظن حسان إنهم قد خضعوا، فخرج من قرطاجنة، فتسارع إليها أهل القرى المجاورة من البربر والروم فاحتلوها، واعتصموا بها، فرجع إليهم حسان فقتلهم قتلا ذريعا واحتل قرطاجنة ثانية فهرب منها من كان بها إلى الضواحي والقرى، فأمرهم حسان بالرجوع إلى قرطاجنة فجاءوه وجلين، فأمرهم بتهديم أسوار قرطاجنة وحصونها فهدموها فأمست عراء لا تعصم ثائرا، ولا تخفي عدوا. وكان الروم والبربر في مدينتي صطفورة وبنزرت في شمال قرطاجنة قد احتشدوا في جيش كبير لمحاربة حسان. وكان قد ساءهم ما حل بعاصمتهم، وعلموا ان حسان لابد ان يسير إليهم، فاستعدوا للحروب. فسار إليهم حسان، فنازلهم في معارك طاحنة كان النصر فيها للمسلمين، فانهزم الروم والبربر

1 - انظر وصف هذه القناة في باب الدولة البونيقية في الجزء الأول من هذا الكتاب.

فهربوا في وجه حسان، فذهبت فلول الروم والرعب يقتلهم إلى باجة في جنوب بنزرت فاختبئوا بها، وذهب البربر إلى «هبون» وطهر حسان شمال افريقية، بنزرت ونواحيها، فانكسر الروم، فلم تعد تلك النواحي قادرة على التنمر للمسلمين، ففرض حسان الجزية على من بقي علة دينه من البربر والروم، ووضع الخراج، وترك فيهم من يعرفهم بدين الله، ويدعو البربر إلى الإسلام، ويأخذ بأيديهم إلى طريق السعادتين.

وكانت معارك مهولة تلك التي خاضها حسان في شمال افريقية مع البربر والروم، فكثرت الجراح في جيشه، ومسهم اللغوب، فرجع إلى القيروان ليستريح جيشه، ويستعد استعداد آخر الفتوح أخرى، ومعارك طاحنة مع الكاهنة،وملكة جبال آوراس، وزعيمة البربر في المغرب.

ولما استجمت القوى، واندملت الجراح، واستعدت الجيوش، سار حسان إلى الكاهنة في جبال آوراس، لأنها هي القوة البربرية بعد البرانس الذين انكسروا بزهير، والإمارة القوية التي يمكن ان تحدث نفسها بمدافعة المسلمين.

الكاهنة ملكة جبال آوراس

الكاهنة: وكانت الكاهنة امرأة بربرية قوية الشخصية، ذكية الفؤاد، حسنة التدبير لإمارتها، مخلصة لقومها، تراهم وتحنو عليهم حنو الأم الرؤوم على وحيدها، فأحبها البربر، ووجدت فيها جبال آوراس صفات الرئاسة فخضعوا لها ودانوا بزعامتها. وكانت إلى مواهبها العقلية التي تتوجها في قومها، وأخلاقها العالية التي تقدمت بها في جبالها، وكللتها بالزعامة والرئاسة، وكانت إلى هذه الخصائص العالية، كاهنة تخبر قومها بأشياء من الغيب. والكاهن في البربر كالكاهن عند العرب في الجاهلية، وهو عالم قومه، ومستشار ناحيته، والقاضي الذي يفصل في كثير من النوازل. انه يمتاز بذكاء الفؤاد، ورجاحة العقل، وبعد النظر. وتراه لبعد نظره، وحدة ذكائه، يرى ما لا يراه سواه، ويستنبط من الواقع ما يقع، ويعرف منه ما لا يتوصل إليه غيره، فيعتقد البسطاء ان معرفته ما لم يقع كان برئي من الجن يخبره، كما يقولون في الشاعر إذا رأوا غرره التي لا يستطيعها إلا هو ان له رئيا ينفث في لسانه ما يقول. وليس شعره إلا من عقله، وليس ما ينتأ له من المعاني الفريدة، والصور الفذة بدون ان يعمل فيها عقله الشاعر.ليست تلك الغرر إلا من عقله الباطن هيأها له لما عجز عنها العقل الشاعر. وترى البسطاء وكثيرا من الشعراء إذا رأوا نزول المعاني العبقرية، والصور الفريدة عليهم فجأة يعتقدون ان ذلك لرئي من الجن يتنزل عليهم بما قالوا، ويمدهم بما أبدعوا . قد يكون الشخص ممتاز بأشياء أما من إفراطه في الذكاء والمعرفة، وتغلب الجانب الروحي فيه على المادي، أو من نقص في التركيب، وخلل في المخ يجعله نوعا فريدا متصفا بما يمكنه من الاتصال بالأرواح كالجن، أو يجعل أرواح تتسلط عليه فتجرى على لسانه أشياء من الأمور الخفية التي لا يعرفها الناس، ولكن الكهان الذين نالوا الزعامة عند العرب وعند البربر في الجاهلية، ورأسوا أقوامهم، وتصدروا مجالسهم،وصدرت القبائل عن رأيهم في مشكلات الأمور، كانوا من النوع الأول الممتاز بمواهب عقلية فريدة، قد يكون معها الاتصال بالأرواح. ان حطب الكهان في الكتب الأدب، وأسجاعهم وأراجيزهم لتنبئ بأنهم حكماء لا مدجلون ولا مختلون. وارى ان الكاهنة زعيمة آوراس من هذا النوع، فان البربر قوم أذكياء ذوو طموح وإباء، لا يخضعون إلا لمن يبزهم بنبوغه، ويكون فريدا فيهم بعقله وخلقه. فما كانوا ليرضوا بالكاهنة رئيسا لولا انها بهرتهم بشخصيتها، وعظمتها، وما كانوا ليقبلوا ان تكون قائدهم في حرب ينازلون فيه حسان العبقري، واكبر جيش إسلامي يدخل المغرب، ويهزم قرطاجنة، ما كانوا ليقبلوا بها قائدا في هذه المعركة العظمى، وهم اسود الوغى، وفرسان الهيجاء لولا ان الكاهنة كانت في رجاحة

العقل، وجرأة الفؤاد، في حسن التدبير والحنكة في أمور قومها في درجة عالية نالت بها ثقة البربر المعتزين بأنفسهم فخضعوا، وإعجاب آوراس الأبي الشامخ لعزته واعتداده فانقاد.

واسم الكاهنة هي داهيا بنت ماتيا بن تيفان. وكان زوجها ملكا على جبال آوراس فتوفي فترك لها ثلاثة أبناء[1] صغارا أوصى بالملك لهم فقامت أمهم مقامهم، تحفظ ملكهم، وتدبر دولتهم حتى ينشؤوا، ولكن الأم لقوة شخصيتها ظلت هي الملكة إلى انقراض الدولة،ولم يستلب احد أبنائها منها ملك أبيه، بل رضوا ان يكونوا وزراء لامهم، وتشركهم في الملك، وتستعين بهم في المهمات. ولعل الكاهنة قد خافت ان هي قدمت احدهم للملك ان يغار الآخران فيثورا، فتفترق الدولة، ويخرج الملك من أيديهم، ويجد المنافسون فيهم فرصتهم، فاحتفظت بالملك أنفسها، وأبناؤها معها في الإدارة أصابع اليد للراحة، ويعينونها ويسدون الثغور في إمارتها.

وكان للمرأة البربرية شخصية وإكبار في مجتمعها، وتتمتع بكل حقوقها، وتحظى من بيئتها بالاحترام والإعزاز. وكان البربر يحترمون المرأة ويعزونها. انها إما زوجة حبيبة، واو أم رؤوم، أو أخت حنون. ثم انها أساس الأسرة، ترب الأبناء، وتسعد الأزواج، وبدونها لا يحظى الرجل بالهناء، ولا يكون للحياة رونقها ولذتها. وقد بلغ البربر من إكبار المرأة واحترامها ان بعض قبائلهم ينسبون الأبناء إلى أمهاتهم لا إلى أبائهم، لان المرأة في نظر البربر هي قاعدة الأسرة، وروح العائلة. ولم يصب البربر في جاهليتهم بما أصيب به العرب في الجاهلية من فتن وحروب داخلية جعلتهم يقدسون الرجل الذي يحمل السلاح، ويصنع انصر لقبيلته، ويحتقرون المرأة لأنها لا تحمل السلاح. وكان البربر أيضا مستقرين في مدنهم وقراهم فلم يتبدوا بداوة تتل فيها المرأة فتحتقر، بل كانت النساء عندهم مصونات، أميرات على عروش القلوب في الأزواج والأبناء ! وقد أيد الإسلام حقوق المرأة في المجتمع البربري، فعاشت المرأة في المغرب محترمة مبجلة، ولا زالت كثير من نواحي المغرب تحتفظ على العادية الحميدة، فيحترمون المرأة ويصونونها، ويبوؤونها عرش القلوب، ويعطونها كل ما قرر الدين لها من حقوق على الرجل. وترى المرأة من هؤلاء ملكة سعيدة في بيتها قريرة العين بما تتمتع به من احترام ، راضية القلب لقيامها بواجبها في البيت ونحو الزوج فبوؤوها أعلى مقام. ليت المتبذلات المتفرنجات اللائي نجح الاستعمار فيهن فنزع عن جباههن تاج الاحترام، وسلبهن السعادة، فخرجن إلى الشارع فانتثرن فيه انتثار

1 - كثير من المؤرخين المشارقة قالوا ان لها ابنين فقط أما ابن عذارى المراكشي والسلاوي المغربي فقالا ان لها ثلاثة أبناء. وأنا آخذ بقولهم لأنهم اعرف بتاريخ بلادهم، والمصادر لديهم أكثر.

تمر العاصفة تحت النخلة، مغبرا يوطأ بالإقدام، وترتع فيه حتى الكلاب والهوام؛ ليت تلك المتفرنجات الجاهلات المغرورات يدخلن القصور المسلمة والديار المتدينة فيشاهدن من سعادة المرأة في بيتها، وإكبار الزوج والأسرة لها، وجلالها لقيامها بواجبها، وعملها بشؤون بيتها،وما يسعد أسرتها، يشاهدون ما شاهدت اميريكية عالمة عاشت في قصر مسلم في مراكش أسبوعا في سنة 1942 فرات جلال المسلمة وسعادتها وهناءها. وقارنت بين حناء المسلمة في يديها الجميلتين، وبين صدإ المعامل ولآلات الكاتبة في أيدي بنات جنسها، وبين خدمة الرجل للمرأة المسلمة وكفالته لها،وجهد بنات جنسها في دخاخين المعامل، وعرق المكاتب فقالت للمرأة المسلمة:» إلا إنكن انتن الفائزات بحقوق المرأة كاملة لا الإفرنجيات فمرحى لكن مرحى !» فرجعت إلى اميريكا وهي تندب حظها، وحظ بنات جنسها.

ان الاستعمار الفرنسي قد غمس كثيرا من بنات المغرب في حبر مدارسه، فصرن بسواده زقاق القطران يتفجرن ليضعن نساء المغرب بذلك السواد الخبيث، فيصرن للدولة والازوا وأبنائهن غربانا سوداء لا حمائهم بيضاء.

وارى بعض الجاهلات في المغرب يقلدن بعض البلدان الشرقية التي مرضت نساؤها، ونجح الاستعمار الفرنسي والانكليزي في احتلال نفوسها، فسكب فيها من سمومه، فتبذلت المرأة وصار كثير منهن عقارب سوداء، بار الزواج، وصارت العزوبة المرة القاسية التي هي قطعة من الجحيم، سعادة عند رجال بجانب الحياة المرة الجهنمية التي تصنعها لأزواجهن تلك النساء المتبدلات المتفرنجات برذائل أوروبا وحدها. ليت هؤلاء الجاهلات يعرفن أي عرش تحتله المرأة المسلمة في المغرب فيحتفظن به، ويرثين لأولئك الشرقيات التعيسات اللائي أصبحن قلاعا للاستعمار في أممهن يصنعن لدولهن حتوفها ودمارها.

ان المرأة هي قلب الرجل فما دامت كنونة مستترة كالقلب بين الضلوع فإنها مصنع حياته، ومنبع مباهجه، فإذا تبذلت في الشوارع، وبدت لكل العيون كانت تكسر عنه أضلاعه، ويقتلع من مكانه، لا يصنع لصاحبه إلا مماته وزواله من الوجود !!

أيتها المرأة المغربية احذري تلك المتفرنجات الجاهلات المتبدلات فان الاستعمار الفرنسي في أدمغتهن وأخلاقهن، وهن قلاع ذلك الاستعمار الفرنسي القتال، يريد احتلالك ليقودك إلى الجزرة والى الجحيم ! فانبذيهن بالقوة والبطولة التي جاهدت بها في معركة الحرية فنبذت أشخاص المستعمر من أوطاننا !!

ان المرأة الانكليزية والألمانية قد اتصفت ببعض ما كانت جدتك أيتها المسلمة تتوج

به كاملا، فكن قوة لأوطانهن، يسعدن الأزواج، ويصنعن الأجيال القوية التي سادت بها الأمة الانكليزية والألمانية في الدنيا !

يا ويل المغرب، ان المستعمر قد زال بشخصه ومدافعه التي سددها طويلا إلى صدورنا، وبقي بروحه في الجبل الذي غمسه في مدارسه في المحبرة، سيما النساء المتفرنجات فشفاههن الحمر بالخضاب في شوارعنا مدافع مشتعلة يسددها الاستعمار إلى قلوب الأمة، والى صدور الدولة فتموت.

ان الحمرة التي يجب ان تحرص عليها المرأة وهي جمالها وسحرها، وهي حمرة السعادة التي تكسو بها وجه زوجها، أما حمرة شفاهها في شوارع متبذلة، فهي علامة افتراسها لدينها وشرفها وسعادتها !!

ان عمائم علماء الين المخلصين الشجعان هي الغنائم الهتانة التي تطفئ تلك النيران، وتنظف أبناءنا وبناتنا من أوساخ المدارس الفرنسية، فترجع المغربية إلى جلالها القديم، وتحظى بما حظيت به جدتها من سعادة لا تدركها الأوروبيات ![1]

كان البربر يحترمون المرأة فلذلك لم يأنفوا ان تسوسهم امرأة، وتتزعم أنثى، وتكون الكاهنة ملكتهم.

وكانت الكاهنة من قبيلة جراوة، وهم ولد جراو بن ديديت بن زانا. وجراة من فروع زناتة القبيلة البترية الكبرى. وكانت الزعامة والملك في جبال آوراس في جراوة لقوتها وتقدمها وشرفها.

وكانت جبال آوراس تكره الرومان وتبغضهم وتثور عليهم، وتعمل لتظهير المغرب منهم، فبغضت كل شيء يتصل بالرومان حتى حضارتهم ودينهم اللذين اخذ بهما البربر في المدن، وناوأت الرومان وعاكستهم في كل الأشياء حتى في الدين، فان الرومان كانوا مسيحيين، فاعتنق آوراس اليهودية التي تنابذ المسيحية وتعاديها، فانتشر دين موسى عليه السلام في آوراس، سيما في قبيلة الكاهنة. ولكنني أرى إنهم تمسوا لهذا الدين يعادي الرومان المسيحيين ونصروه بوجدانهم فقط، أما ان يتقيدوا به في الأعمال، ويقيموا طقوسه في المعابد فهذا ما استبعده، لان المسلمين الفاتحين والمؤرخين الذين نقلوا عنهم لم يذكروا إنهم رأوا في آوراس آثار بيع للعبادة، ولا عيدا من أعياد اليهود الكثيرة، يحتفل به البربر ويبجلونه. وإذا كانت كثير من مظاهر الوثنية التي كان عليها البربر لازالت موجودة في مظاهر أخرى اقرب إلى الإسلام، لتمسك البربر

1 - ان التاريخ للعبرة والموعظة وهذا الاستطراد إلى أمراضنا هو زبدته وروحه.

بعقائدهم، فان طقوس اليهودية سيما أعيادها، لو كانت آوراس تأتيها، لبقيت آثارها إلى اليوم، ولو في أثواب أخرى اقرب إلى الدين الإسلامي.

لقد اعتنق آوراس اليهودية كما اعتنق البربر الآخرون المسيحية لغرض سياسي، والأشياء أعجبوا بها في المسيحية والموسوية،كالدعوة إلى الأخلاق الحسنة، والأمر بالعدل والمساواة والإحسان، والنهي عن الظلم والطغيان، ولما جاء الإسلام فوجدوا جماله ابرع، وأمره بالأخلاق العظمى والعدل والمساواة أكثر، آمنوا به كل الإيمان.

ان كره البربر للرومان، وحب البربر للكمال سيما في الأديان، هو الذي جعلهم يؤمنون بالمسيحية واليهودية. وإيثار آوراس لليهودية، مع ان «دونتوس» الذي وضع المذهب الدونتوسي في المسيحية فاخذ به البربر، وانتشر كل الانتشار لا في مدن المغرب كان من آوراس، وكان في مدينة باغاية جارة آوراس القريبة. ان إيثار آوراس لليهودية كان للسبب الذي أسلفنا، وهو مخالفة الرومان في كل شيء، ومصادقة أعدائهم حتى في الأديان. على ان هذه اليهودية إذا صحت فانه أخذت بها طوائف قليلة في آوراس. ان الكاهنة كانت وثنية، ولما خرجت لمقاتلة حسان في الحرب التي قتلت فيها أخذت معها وثنا من خشب كانت تعبده، وكان يحمل على جمل أمامها.

وكان مع جراوة في جبال آوراس لواتة، وهوارة، وكتامة، وقبائل أخرى واغلبها من البتر.

ان آوراس هي المنطقة التي لم يستطع الرومان الأقوياء، رغم تسلطهم واحتلالهم للمغرب 390 عاما ان يستولوا عليها ويحتلوها، وينشؤوا مراكزهم الحربية فيها. لقد استطاعوا دخول آوراس بعد جهد جهيد ومجالدات ومكابدات، والبقاء فيه مدة قصيرة، ثم ثار عليهم آوراس فدحرجهم كما تدحرج الشمس الحامية أكداس الثلج كم رؤوس الجبال إذا أذابتها.

وكانت آوراس كما كانت جبال القبائل ووانشريس ومعاقل البربر الكبرى يرون الرومان في جلودهم البيضاء اضر أهم من حلول البياض في سواد العيون، فكرهوهم كره البصير للعمى، فثاروا عليهم وجالدوهم بسيوفهم، فلم يستطع الرومان البقاء في آوراس لينفثوا فيهم ميوعة الحضارة، ومفاسد المدينة التي يقيد بها الاستعمار فرائسه ليرتع فيها، فبقيت آوراس على أخلاق البداوة، وفي رأسها الشجاعة والثبات والفداء، والتضحية بالنفس والنفيس فيس سبيل الوطن إذا هدده الأعداء.

وكان سكان آوراس إلى هذا قوما أثرت فيهم بيئة الجبال والغابات الصحية، فأنشأتهم

كالأسود التي يخلقها الغاب، وركبت فيهم شبه جذوعها وصخورها من متانة الأسر، ومثل أشواكها من الآسنة في النزال، والسيوف في القتال، ونفخت فيهم جرأة النمور، وطبيعتهم بما طبع به العرين صاحبه من حب الحرية وكره الاستعباد، فكانوا في الشجاعة والجرأة والصعوبة على الأعداء كجبالهم الصعبة لا تقتحم !!

فسار حسان بن النعمان في جيوشه الجرارة، وعدته الكاملة إلى الكاهنة من القيروان. وكان عدد جيش حسان أربعين ألفا أو يزيد. فعملت الكاهنة بمسير حسان إليها فأذنت في قومها للدفاع، فانثالوا عليها من كل صوب، وأسرع البربر إليها من المغرب الأوسط أيضا، وتجمعت جبال آوراس تحت رايتها، فأشعلت حماسهم بمنطق المرأة المتحمسة الذي ينفجر من العاطفة المتأججة فيؤجج الحماس في الصدور، فقادتهم وهم وراءها كالسيل الأتي[1] إلى النضال. فنزلت من جبال آوراس إلى باغاية، وهي في شمال آوراس وعلى مدخله في طريق الشرق. وكانت باغاية مدينة حصينة، وقلعة منيعة، فخافت الكاهنة ان يستولي عليها حسان فيتحصن فيها فلا تستطيع منازلته، فأخرجت سكانها من البربر والروم فهدمت أسوارها وقلاعها وتركتها عراء لا تعصم من يلتجئ إليها. فسارت حتى وصلت إلى وادي مسكيانة في شرق جبال آوراس، فعسكرت هناك تنتظر وصول حسان. وقد أبت عليه بطولتها وشمم البربر وعزتهم ان تعتصم بجبالها الوعرة وتنتظر هنا وصول حسان، فخرجت هي إليه من جبالها إلى وادي مسكيانة وسهوله الفسيحة لتلتقي به هناك. فوصل حسان إلى وادي مسكيانة مع المساء فكره منازلة الكاهنة في الأصيل لأنه يعرف ان المعركة مع الكاهنة ستطول، فبات المسلمون على خيولهم وفي سلاحهم استعدادا لما عسى ان يحدث م مباغتة الكاهنة لهم. ولما أشرق الصباح، وادي المسلمون فريضة الفجر، أشرقت سيوفهم في الجو فساروا لفريضة الجهاد، فوجدوا الكاهنة على استعداد، فتناطح الجيشان، واشتبك الشجعان، واستحرت المعركة، وصبر المسلمون وصبر البربر، ووقع بين الفريقين حروب الأسود إذا تقاتلت، والجبال إذا تناطحت، وكانت معركة مهولة ما رأى المسلمون مثلها، فتعلب البربر وكانت الدائرة على المسلمين، فقتل منهم البربر عددا لا يحصى، واسروا منهم ثمانين رجلا، فانهزم المسلمون فطاردتهم الكاهنة حتى أخرجتهم من قابس.

وفي سمى المسلمون ذلك اليوم البلاء، ووادي مسكيانة وادي البلاء ووادي العذارى، لهول ما رأوا، ولشدة ما لاقوا،ولعل مرادهم بالعذارى الضربات البكر التي ما رأوا مثلها، والمعركة الفريدة التي لم يقع لهم نظيرها. فخرجوا من افريقية، فرجعت أدراجها إلى

1 - السيل الأتي: القوى المندفع.

آوراس. فواصل حسان سيره حتى وصل سرت بجهة «مسراته» فعرس[1] فيه. فأرسل إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما وقع، ويسأله ان يمده بقوة جديدة ليعاود الكرة على الكاهنة، ولكن عبد الملك كان في شغل شاغل بمناقشة على الملك، وبحروبه مع الازارقة، فأرجأ إمداد حسان، فأمره بالمقام في مكانه حتى تمكنه نجدته فأقام حسان في سرت بناحية مسراتة، فبني فيها قصوره المعروفة إلى اليوم بقصور حسان، وبقي هناك واليا على طرابلس وبرقة ونواحيها، ينشر فيها الدين ويحفظها للمسلمين.

وكانت الكاهنة لم تقاتل المسلمين لعداوة راسخة، ولكن قاتلتهم دفاعا عن الأوطان، ولم تكن تضمر للمسلمين حقدا، ولا للعرب عداوة فاكتفت بإخراجهم من افريقية لتأمن في جبالها، فلم تتعرض للمسلمين في القيروان بسوء، ثم عمدت إلى الأسرى الثمانين الذين عندها فأطلقت سراحهم، وأحسنت إليهم.

وكان في الأسرى خالد بن يزيد القيسي وهو من قواد حسان الكبار، ومن المقربين إليه. وكان جميل الصورة، ذكي الفؤاد، شهما شجاعا، فأعجبت به الكاهنة فتبنته فاستبقته عندها علها تحتاج إلى سفارة بينها وبين حسان فتجده عدة عندها، وأعجب خالد بشخصية الكاهنة وبكرم البربر وإحسانهم وبطولتهم فرضي بالمقام في آوراس عله يستطيع التأثير في الكاهنة وقومها فيسلموا، أو يحفف من ثورتها على حسان فلا يداخلها الروم فيوسوسون لها فتسير إليه في قصوره وهو على غير استعداد.

قال ابن عذارى: وحبست عندها خالد بن يزيد فقالت له يوما ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد ان أرضك فتكون أخا «لأولادي» وقالت له نحن جميع البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به، فعمدت إلى دقيق الشعير فلتته بزيت «فصار بسيسة» وجعلته على ثدييها ودعت «أولادها» وقالت كلوا من على ثديي وقالت لهم: قد صرتم إخوة» وقد أرادت الكاهنة ان تربط خالد إليها برباط البنوة فانه امتن من رباط الصداقة.

فطار صيت الكاهنة في المغرب، وازداد البربر إعجابا بها وإقرارا بزعامتها. أما هي فقرت في جبال آوراس تديرها، وتلاحظ الشرق من هناك، تتتبع حركات حسان. ولم تملك الكاهنة كل المغرب كما قال بعض المؤرخين، لان افريقية كان جنوبها تابعا للقيروان، وشمالها تسيطر عليه قرطاجنة، أما بقية المغرب الأدنى وناحية قسنطينة إلى بجاية، والمغرب الأوسط والأقصى فقد استقل وتحرر من الروم، وتكونت فيه إمارات بربرية مستقلة يديرها أمراؤها؛ وكل منهم ملك في إمارته، وإنما هم جميعا يعجبون بالكاهنة

1 - معرس القوم مكان نزولهم ليلا فأطلق على كل مكان . وعرس أقام.

ويدينون بزعامتها. ولم تتعرض الكاهنة لمسامي القيروان بأي سوء لان الكاهنة لو أرادت إيذاء المسلمين لقتلت الأسرى الثمانين الذين كانوا في قبضتها وكلهم قد حاربها وعزم على القضاء عليها.

ان البربر شجعان أبطال، ذوو شهامة وكرامة، يشتفون من عدوهم في المعركة إذا كان شاكي السلاح قويا، أما الاشتفاء من الضعفاء المسالمين العزل فعمل الجبناء اللئام، كما يفعل الروم وكما سيعمل أحفادهم بعد ثلاث عشر قرنا في حروبهم مع المغرب الثائر على الاستعمار ! ان بعض المؤرخين القدماء ليحلو لهم ان يضعوا من شان البربر والمغرب وان اضطرهم ذلك إلى الأكاذيب التي يحرمها الإسلام المنتسبون إليه !! وترى كثيرا من المؤرخين الأوروبيين المغرضين يلغون في هذه الأكاذيب وينقلونها ليبثوا بها العداوة والبغضاء في المغرب، وهو شعب واحد قد مزج الإسلام بين عناصره كما تمتزج الألوان العديدة في النور فيبدو لونا واحدا يتلألأ في الفضاء !

لتحذر ناشئتنا من خريجي المدارس الفرنسية في المغرب من سموم كتبهم الدراسية في تاريخ الإسلام سيما في المغرب فان غرضهم من تدريسه ان يصوروا أمجادنا وماضينا العظيم في الصورة الزرية التي يمليها عليهم تعصبهم القاتم، وحقدهم على الإسلام، وعدم أمانتهم في العلم، ليحتقر الأبناء أجدادهم فيبتعدوا عن طريقهم، ويتجردوا من لبد الأسود التي كان الأجداد فيها فارتعدت أوروبا مهم ارتعاد الحمامة تحت مخالب الصقر الذي ينقض عليه.

يجب ان يدخل هؤلاء الخريجون من المدارس الفرنسية أيديهم في أفواههم حتى تبلغ أقصى حلوقهم فيتقيؤوا كل ما درسوه من تاريخ المغرب في المدارس الاستعمارية فانه طعام مسموم يقتلهم ويقتل المغرب معهم. وليؤموا ما كتب المسلمون العافون بالمغرب وماضيه، النزهاء فيما كتبوا وليتزودوا من هناك الزاد الضروري فان معرفة تاريخ الأجداد الأمجاد هي الأجنحة التي تطير بك إلى السماء !

وبقي حسان العظيم ينتظر المدد حتى جاءه فرجع إلى افريقية والمغرب رجوع النهار بعد أدباره فأتم فتحه، وأشرق في أرجائه إشراق الضحى. فما أعظم نعمة الله على المغرب في الإسلام والمسلمين !!

العوامل النفسية لهزيمة حسان

لماذا فشل حسان في حربه مع الكاهنة، وجيشه يعد أربعين ألفا أو يزيد، وقد انتصر على قرطاجنة،وتغلب على كل الأعداء الذين اشتبك بهم في بنزرت صطفورة وفتح كل القلاع التي نازلها، لم يستعص عليه حصن، ولا تعذرت عليه قلعة، وفي جيشه من الأبطال المدربين، وأئمة الحروب والنزال، العدد الجم، والجماعة الوفيرة لماذا انهزم هذا الانهزام المنكر، وهو الذي ر يعرف إلا أكاليل النصر تتوج جبينه وشارات الفوز في المعارك العظمى تزين صدره، وهو الذي اختاره عبد الملك لما عجم قواده فوجده اصلبهم عودا، وأكثرهم كفاءة، وأليفهم لافتتاح المغرب الشجاع، والتغلب على البربر الأقوياء؟

لماذا انهزم حسان وولى الأدبار، ثم أخرجته الكاهنة من افريقية فانسحب أمامها تاركا أهله وذريته وضعفاء المسلمين في القيروان؟

لماذا انتصر عقبة على البربر في المغربين الأوسط والأقصى وهو في عشرة آلاف وقد صارع البربر الأقوياء، واسود الوغى؛ وانتصر زهير على حشود كسيلة وفيها البربر الأبطال، وفرسان الوغى والنزال، وجيشه أكثر من جيش زهير؟ ولماذا انتصر أبو المهاجر وجيشه نصف جيش حسان، وقد قاتل البرانس والبتر في عقر دارهم، وهاجمهم في مجتمع قوتهم، وعاصمة ملكهم، وانهزام حسان العظيم في معركته، وحوله أربعون ألف جندي أو يزيد من المسلمين المدربين؟ هذا هو السؤال الذي ينشأ في نفس كل قارئ لمعركة حسان مع الكاهنة، فلم يكلف المؤرخون نفسهم بالجواب عليه، كان وظيفة المؤرخ ان يكون علبة البريد تعطي ما القي فيها، وظيفته تسجيل الأخبار التي تخشى بها آذانه، لا فرق بينه وبين الآلة الكاتبة الصماء. ولا يفتش الأخبار ليعلم صدقها وكذبها، ولا يمعن فيها النظر، ويعمل فيها الفكر فيستنبط منها ما يسوغ المنطق استنباطه، ويستخرج منها ما يوجبه العقل السليم !!

ان سبب هزيمة حسان هو قوته لا ضعفه وكثرة جيشه لا قلته، وتتابع انتصاراته وفوزه على الأعداء. ان الجيش القوي الذي تعود الانتصار، وألف الظفر، وهو الذي يغير بقوته، ويهزأ بعدوه، فلا يبذل كل جهده، ويستخرج كل ما فيه، فيتغلب عليه الضعيف الذي يجتهد ويجاهد فيستخرج كل طلقته، ويستخدم كل قوته، فيكون بهذه الطاقة -وهو الضعيف- أقوى من عدوه المنهاون الذي احتقره فقاتله وهو مستلق، ومد اتليه يد العراك وهو يتثاءب، واغفل شانه فلم يغلق أبواب الفرص في وجهه، وتواني فلم يبادر إلى الفرص التي تلوح فيه. انه يقع في المعركة ما وقع للأرنب السريعة لما سابقت السلحفاة البطيئة، فاجتهدت الثانية ودأبت، ونامت الأولى وتراخت.

ان الاجتهاد في العمل، وبذل الجهد في السعي، والإتقان للأمور، هو سبب النجاح في كل شيء !

لقد اغفل جيش حسان هذه القاعدة، واغتر بكثرته، وبما عوده الله من النصر على عدوه، فلم يبذل كل جهده فخاب، ووقع له ما وقع لجيش الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين.

والسبب الثاني -كما أرى- هو احتقار جيش حسان للبربر، وسوء تقديرهم لقوتهم وبطولتهم، ولعدم معرفتهم ببربر آوراس خاصة. لقد ظنوهم كسكان قرطاجنة والمدن المتحضرة التي نازلوها، ونفوسا واعضادا فثت فيها الحضارة والمدينة، فصارت كالرخام يتفتت بأول طرقة، وينكسر من أول صدام، وما عرفوا أنهم سيناطحون الصخور الصماء، وجنادل الصوان، وينازلون الأسود والعقبان، ويقاتلون قوما ما ساروا إلى حرب إلا شمر عزرائيل عن ساعديه واستعد للاجتهاد، لان من ستجند لهم سيوف اسود آوراس سيغطون الساحة، ويتراكمون في ارض المعركة.

والسبب الثالث الذي أراه هو احتقار جيش حسان للمرأة. ان الإسلام وان تمكن في قلوب الفاتحين، وغسل صدورهم من أوضار الجاهلية، فان احتقار المرأة الموروث لا زالت منه بقايا في كثير من جيش حسان. وكأني بهم وقد ساروا إلى الكاهنة ليحاربوها يتندرون قائلين: ان المرأة لتفوز في معركة ترمي فيها بنبال العيون وبأقواس تمثلها الحواجب المزججة، وتنتصر في معركة تنازل فيها الرجال بسحر الأنوثة وروعة الجمال، وتقتل ببياض يشرق في الثنايا والنحور لا ببياض السيوف، وتحرق بنار تتورد في خديها وشفتيها فتصرع الأبطال، أما النار التي تشتمل من السيوف إذا تقارعت، والرماح إذا تحدت الدروع، فإنها لا تكون من أنثى، ولا تستطيعها امرأة ! وما علموا إنهم مقدمون على لبؤة هصور تصرع الأسود إذا صارعت عن العرين، ودافعت عن الأشبال، وأنهم سيحاربون الكاهنة الجبارة العملاقة التي أورثها احترام المجتمع البربري للمرأة اعتدادا بنفسها يجعلها تصارع الرجال، وتنازل الأبطال، وأنهم إلى ملكة آوراس الجبار سائرون، إنهم إلى حرب وقراع، وان كان من يرميهم يد مخضبة بالحناء، ولكن تقذفهم بجنادل الصوان التي تحطم الصدور وتكسر الجماجم. إنهم جند آوراس العتيد، واسود البربر الصناديد، تدفعهم ملكتهم المحبوبة القوية فيندفعون إلى الحرب في عنف وقوة دونها قوة القنابل إذا انطلقت من مدافعها، والصخور العظيمة إذا تهاوت في الجو من أعاليها.

والسبب الرابع هو قوة البربر وبطولتهم، وشجاعتهم وبسالتهم. إنهم في متانة

الأسر وشدة السواعد، وفي قوة القلوب في القتال، والبراعة في النزال، والثبات في الشدائد يوم الملحمة كالعرب أو يزيدون. قلوبهم فلو إنهم تسلحوا بما تسلح به المسلمون من دين ضاعف قواهم المعنوية فاستماتوا في القتال، واثروا الموت على الحياة في المعركة ما استطاعهم احد، ولا هزمتهم قوة، فلذلك نجد حسان لما تغلب عليهم يسلكهم في جيشه، ويختارهم جندا لم صول بهم في الشدائد، يجالد بهم في النوائب.

هذه هي الأسباب الأربعة التي جعلت المسلمين ينهزمون، وحسان العظيم يرجع القهقري، وهو الذي كان نور الشمس في حروبه وأعماله لا يرتد إلى الوراء !

ثم يأتيه المدد من عبد الملك بن مروان، فيسير إلى الكاهنة وهو على تعبئة جديدة، وتقدير للكاهنة غير الذي كان. فماذا تكون نتيجة المعركة معها يا ترى،وكيف حال افريقية والمغرب لما رجع حسان القهقري؟ سأنبئك يا صديقي إذا تملصت من الحريري وأطعت الجاحظ فيما اسطر، فانه لا افسد للقول من سجع تلتزمه، وقيود ترتبط بها.

عودة حسان إلى افريقية وإتمام فتح المغرب 81 هـ

وكانت إقامة حسان في قصوره بسرت خمس سنين، وارى ان معركة الكاهنة قد وقعت في سنة 76 بعد سنة وشهور من وصول حسان إلى القيروان. وفي سنة 71 أمكن لعبد الملك بن مروان ان يمد قائده العظيم حسان فأرسل إليه جيشا كبيرا وسلاحا كثيرا فزحف إلى الكاهنة.

وكانت الكاهنة لما انهزم حسان وأخرجته من افريقية ترقب حركاته. وكانت تظن ان مقامه في سرت للاستراحة، ثم يواصل سيره إلى مصر، ويعود إلى بلاده عودة اليائس الذي لا يفكر في الرجوع، وبيأس عبد الملك بن مروان من افتتاح المغرب والاستقرار فيه، بعد الهزائم المنكرة التي أنزلتها بجيوشه، وبعد فشله في فتح المغرب رغم استعداده وبذل أقصى طاقته، ورغم أكثر ما يمكنه من جند، واختيار أعظم من وجد من القواد. ها هو نصف قرن وسبع سنين تنقضي منذ سار أول جيش إسلامي إلى المغرب في سنة 22 هـ والمسلمون يطرقون أبوابه، ويهدون عقباته، ثم ينهزمون هذا الانهزام، وتستغلق أبواب المغربين الأوسط والأقصى في وجوههم. فظنت الكاهنة المسلمين سينفضون أيديهم من المغرب ما دام يكلفهم من الخسائر في الأرواح والأموال والزمن أكثر مما يغنمون. من يدري؟ لعل صراع عبد الملك بن مروان مع الازارقة، وحروبه مع منافسيه في العراق، قد بلغ الكاهنة فجعلها تعتقد ان المسلمين لا يستطيعون الرجوع إلى المغرب، وان عبد الملك لا يستطيع ان يجهز جيشا أقوى مما أرسل إليها فهزمته. ولكن حسان يقيم في سرت فيطيل الإقامة، ثم يبني قصوره هناك، وهو أمير مصر، وقائد من أعظم قواد عبد الملك، فما اشد حاجة مصر إليه، وما أكثر افتقار عبد الملك إليه والى جنوده في هذه الظروف العاصفة به. وها هي سنون تمر وهو رابط هناك في سرت لا يعود إلى إمارته. إذن انه ينتظر المدد، ويرقب الفرصة، ليجدد الغزو، ويعاود الكرة على المغرب.

وكانت الكاهنة لا انعزالها في جبال آوراس، وعدم اختلاطها بالمسلمين، لا تعرف قصد المسلمين من المجئ إلى المغرب، واحتلال بلاده، والزحف على نواحيه. ان قصد المسلمين من المجئ إلى المغرب هو نشر دين الله فيه، وإنقاذه من الجهالة والظلمات وإخراجه إلى طريق السعادتين، والفوز بالحسنيين. ولكن الكاهنة لا تعرف هذا القصد الكبير، وتلك الأهداف السامية. انها تظن إنهم طلاب مال؛ ومحبو متعة وجمال. لقد رأتهم منذ غزوة عبد الله بن سعد يزحفون على المغرب، فيقصدون المدن العامرة، والعواصم الغنية فيغنمون منها ويسبون، ثم يرجعون إلى المشرق مثقلين بالسبي والغنائم. فهذا عبد الله بن

سعد يقصد «سبيطلة»[1] والجم، وقفصة وما يلي هذه من المدن العامرة المتحضرة التي تغص بالكنوز، وتشرق بالحسن، وتختال فيها الظباء البارعة الجمال؛ فيغنم ما وجد من كنوز، ويسبي ما أعجبه من الروم والبربر، فيرجع مثقلا بالغنائم والسبي إلى بلاده. وهذا معاوية بن حديج يقصد جلولا المنزفة، وحضرموت الغنية، وما يتصل بها من قرى عامرة، ثم يؤم بلاد الروم في الشمال حيث الغنى المفرط والجمال البارع فيغنم كل ما وجد من تحف وكنوز، ويسبي كل من يعجب بهم من فتيان وصبايا، ثم يرجع إلى بلاده. وهذا عقبة يبعث بسراياه لما كان يبني القيروان فتغنم من بلدان افريقية ما تجد، وتستولي من كنوزها وأموالها على ما تقدر عليه ثم يسير عقبة سيره في البلاد فلا يقصد إلا المدن الغنية السمينة التي تغص خزائنها بالكنوز، والعواصم الجميلة التي تسيل أخلاقها بالذهب، وتفتن القلوب بالحسن، فيغنم عقبة ويسبي، فيرجع منن غزواته، وسير جيشه سير السحاب الكثيف الذي تثقله مياهه، بطيئا لما يحمل من غنائم، ويثقله من كنوز المدن التي غزاها. ثم يأتي أبو المهاجر فيقصد قرطاجنة الغنية، وميلة الجميلة، وتلمسان المترفة، ولا يقصد قرية فقيرة فيقيم فيها، ولا ينازل مكانا قفرا فيحارب أهله. فتيقنت -وخطأ ما رأت ان غرض المسلمين من غزو المغرب إنما هو امتصاص خيراته، والاستيلاء على كنوزه كغرض الروم المستعمرين، وان كنوز افريقية وحضارة افريقية هي التي تجذب المسلمين فيغزون بلادها. ان افريقية هي وجه المغرب الفتان لكثرة حضارتها، ووفرة جمالها وكنوزها. انها هي التي دلهت المسلمين وفتنتهم فانجذبوا إلى المغرب فلا بد بتشويه هذا فيه العشاق فيه العشاق، وإتلاف تلك الحضارة وتلك الكنوز لينصرف عنها الطراق. أليست افريقية هي مسكن الروم؟ إنهم أعداؤها وأعداء وطنها لا يصنعون له إلا الحتوف، وما رأى المغرب منهم إلا شقاءه وويلاته ! لا بد بتخريب افريقية ليرحل عنها هؤلاء العلوج الذين لو وجدوا قوة لأعادوا استعباد المغرب وتعذيبه. ان هذه الحضارة الإفريقية هي التي تمسك الروم وتجذب العرب، فلنتخلص منها نتخلص من الأعداء، فيعيش الأمازيغ[2] مستقلين في مغربيهم الكبير لا يضايقهم احد، ولا تزاحمهم امة. ان هذه الحضارة البراقة وتلك المدينة اللماعة هي التي يفسد الروم بها أخلاق البربر. انها خراب للنفوس، ومهلكة للأمم ! هذا الفسوق المنتشر في المدن، وتلك الموبيقات التي تزخر بها افريقية المتحضرة، وهذه الميوعة، وذلك التخنث الذي يقتل خصائص الأجداد

1 - سبيطلة اسم بربري لعاصمة جرجير والبربر يبتدؤون بالسكون في كلامهم. فيقولون تمارت للحية، وتفويت للشمس.

2 - الأمازيغ هو الاسم الحقيقي للبربر نسبة إلى جدهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. ثم سماهم العرب بربرا بتفخيم الراءين للغتهم التي لا يفهمونها. وقد ورد في الجزء الأول من هذا الكتاب زيادة بسط لهذا.

العظيمة في نفوس البربر المتحضرين، ان ذلك كله وليد تلك المدن، وفرع عن تلك المدينة. لابد بتهديمها !

ان عدوها وعدو وطنها ليس حسان، ولكن ما يجلب إليها حسان، هذه المدن الجميلة وتلك الكنوز الوفيرة فيها. انها هي التي تجذب إلينا الأعداء، وتبتلى المغرب بالحروب الهوجاء، التي منعته نصف قرن كامل الطمأنينة والهناء. لابد بإزالة هذه الحضارة التي تجذب المشارقة فتنقطع أطماعهم عنا، ولابد بفوء هذه العين الساحرة فيزهد فيها عشاقها. هذا ما رأته الكاهنة وحدثت به نفسها ففاوضت قومها فيما رأت فقالت :»ان العرب إنما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد افريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر. فوجهت قومها يقطعون الشجر ويهدمون الحصون، وذكروا ان افريقية كانت ظلا واحدا».[1]

ويروى عن عبد الرحمان بن زياد بن انعم[2]:»ان افريقية كانت ظلا واحدا، وقرى متصلة عامرة. ثم قال: سمعت من يقول انه كان بافريقية مائة ألف حصن ما بين قصر ومدينة، وان ملكها إذا أراد الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس ودينار فيجتمع له مائة ألف فارس، ومائة ألف دينار، ولا ينقص من بلاده شيء. قال الوزير الأندلسي: ومن تأمل هذه المدن والقصور الخربة بافريقية، وتداني بعضها من بعض، ورأى من ذلك ما يفضي إلى العجب، ويستدل به على كثرة عمارتها في السالف. وكذلك الشعراء التي بها إذا تأمل أشجارها رآها في مواضع على اعتدال وترتيب تنبئ بأنها مغروسة لا نباتية. ويقال ما فيها من بطم[3] إنما كان فستقا إنما استحال «ثمره» إلى الصغر والى طعم آخر لطول ما أتى عليه من السنين، ولا شك ان أكل البطم اخضر وجد طعمه كطعم الفستق» وقد روى كثير من المؤرخين ان الساحل المغربي كان ظلا واحدا من افريقية إلى طانجة، لكثرة عمارته،ووفرة مدنه، واتصال مزارعه، وكثرة غاباته. لقد تعاقب على هذا الساحل الجميل دول كثيرة نشأت فيه، وكل منها زادت في عمارته وخصبه، فلا عجب ان يكون كما قال المؤرخون، انه ظل واحد، لا تكاد تخرج من قرية عامرة تكتنفها الرياض الغناء، حتى تدخل في مثلها، ولا تكاد تفارق الجمال الذي صنعه الإنسان، حتى تدخل في جمال الله في الغابات الرائعة التي تكتنف السبيل، والجبال المشجرة الشاهقة

1 - البيان المغرب لابن عذارى.

2 - الحلل السندسية للوزير الأندلسي.

3 - البطم شجر عال وله حب اخضر زيتي، وهو جمال الصحراء، وفي جنوب الجزائر منه كثير، وهو مقيل الأعراب في الصيف لبرودة ظلاله، ولطف جوه.

التي تحوط الطريق. ان المغرب سيما الساحل جنة الله في الأرض، لخصب أرضه، وكثرة غاباته، ووفرة عمارته. اعتنى به أبناؤه الأمازيغ، وأحباؤه البونيقيون فصار مثالا للروعة والبهاء، والعمارة ! وقد استبى الرومان بجماله، وأسال لعباهم بكثرة خيراته ومنتجاته، وخلب لبهم بحضارته، فجاؤوه ليرتعوا فيه، ولولا حضارته ورقية ما فكروا في غزوه واحتلاله، لأنهم أبناء مصالحهم لا يؤمون إلا حيث يشبعون ويرتعون. لقد وصف الأستاذ حسين مؤنس في كتابه فتح العرب للمغرب المؤرخين الذين قالوا: ان الساحل كان ظلا واحدا بالمبالغة، وتخيله أمكنة قفرة أو متوسطة الخصوبة لأنه لم يزر المغرب، سيما من افريقية إلى طانجة، فلو زاره الآن والساحل قد شاخت أراضيه، والمغرب قد دخل بالاستعمار الفرنسي والاسباني في أحزابه فعبس واربد، وقيدت أيدي أبنائه فلم تعد في التعمير كما كانت أيام أفراحه في عهود دوله الزاهرة. لو رآه لعلم تم ما قال المؤرخون ليس فيه كثير من المبالغة، وان الساحل الخصب الأخضر المتصل الخصوبة والجمال هو ناصية المغرب توج الله بها جبينه الوضاح ليكون فتنة للأنظار، كما توج بالناصية جبين الغانية الوضاء ليكون فتنة للقلوب !

لقد رأت الكاهنة كل ذلك الحسن في الساحل وكل تلك المدينة في افريقية فاعتقدت انها مجابة حسان لها، فأرسلت رجالها الأشداء، وجنود آوراس الأقوياء، ففاضوا على افريقية، فهدموا كثيرا من حصونها،[1] وقطعوا كثيرا من أشجارها، وافسدوا كثيرا مما بنى الروم والبربر فيها وشوهوا كثيرا من جمال افريقية، وعمدوا إلى المدن الجميلة خاصة فهدموا فيها، ولابد وان يكونوا قد غنموا ما ظفروا به من كنوز الروم أعدائهم، فأمست افريقية العروس التي كانت تكسف الشموس في عرشها، لحضارتها وجمالها، ممرغة في التراب، مقطوعة الشعر، ممزقة الثياب، وتجاعيد الحزن تكسو وجهها، قد زال الجمال الذي كانت تتيه به، والحسن الذي تستميل به القلوب، وصارت بعاصفة الكاهنة التي أرسلتها عنقودا في حوض الشجرة، قد حطمته الرياح، وامتزج بالطين.

لقد ادعى كثير من المؤرخين القدماء ان الكاهنة خربت كل الساحل من قابس إلى طانجة، فقطعت الأشجار وهدمت الديار وأفسدت كل شيء !! ان هذه مبالغة كبرى فما كانت الكاهنة بمستطيعة ان تخرب كل الساحل وتتلف كل شيء فيه، سيما المزارع والبساتين. لو حاولت الكاهنة ذلك لاقتضاها من الوقت أضعاف ما سادت فيه بافريقية، ومن الرجال والجند أضعاف من عندها. ان الكاهنة لا تستطيع في ذلك الوقت أكثر من تشويه افريقية وهي مقصد المسلمين، إبان تهدم فيها وتفسد منها لا ان تهدمها

1 - الحصن مدينة عالية الأسوار محصنة.

كلها. وقد رأينا الفرنسيين يحاولون حرق الغابات التي يرابط فيها المجاهدون في الجزائر، فسلطوا عليها وسائلهم الجهنمية الفظيعة، والقوا عليها قنابل «أَلْمَابَالْمْ» المحرقة، التي تذيب الحجر، وتأتي على كل شيء، واستعملوا من وسائل التدمير والإحراق كل ما يسول لهم حقدهم وحرصهم على القضاء على ثورة الجزائر، بإزالة الغابات التي يحصد المجاهدون منها جيوشها في المعارك، فلم تستطع ان تزيل منها إلا ما يزول من جناح الصقر إذا ناوشته الرياح ! هذا في سبع سنين، فكيف تستطيع الكاهنة في اقل من هذا الزمان، في سنة أو سنتين ان تخرب كل الساحل وتقضي على أشجاره وعمارته. لقد أفسدت الكاهنة كثيرا في مدن افريقية والساحل فارتاع الروم والبربر المتحضرون لما وقع لهم. وكانت المصيبة على الروم اشد. فهذه القصور الجميلة، وتلك الحدائق الغناء، وتلك المدن البديعة المزدانة بالأقواس والتماثيل والميادين الجميلة، وهي جنتهم، وما يمسكهم في افريقية فبقوا فيها، رغم الهزائم التي نكس المسلمون بها رؤوسهم، ورغم الذلة التي يتجرعونها من البربر الذين استرعوا سيادتهم واستقلالهم، فشمخوا عليهم بأنوفهم. ان تلك الحضارة التي كانوا يتقلبون فيها، والجمال الذي كانوا يرتعون فيه،هو الذي كان يكسب تلك المرارة كثيرا من الحلاوة فيصبرون. أما وقد لتت الكاهنة على كل ذلك، وأصبحوا مهددين أيضا بعودة حسان، هذا الذي هدم عاصمتهم ونكس رؤوسهم فان افريقية لم تعد لهم دار قرار فهاجرت طوائف كبيرة منهم إلى صقلية والأندلس، والى ما يجاور المغرب من الجزر والسواحل. أما البربر في افريقية، ومن لم يستطع الرحيل من الروم، فقد اغتاظوا أيضا بما وقع لهم من الكاهنة، وانقلبت لها قلوبهم؛ فبعد ان كانوا يرونها زعيمة تحميهم، أصبحت هي التي تخرب ديارهم، وتتلف أموالهم، وترزئهم فيما ابتنوه وأنبتوه بعرق جبينهم وجبين أبائهم وأجدادهم. فقالوا بين حسان لو ملك المغرب وبين الكاهنة، فعلموا ان حسان يأمر بالعمارة لا بالتخريب، ويدعو إلى البناء لا آلة التهديم. ها هم المسلمون قد بنوا القيروان، وشمروا عن ساعدهم لغراسة الأشجار، وتعمير تلك الناحية التي كانت فيما مضى أشبة لا نسكنها إلا السباع. إنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه الكاهنة لقوة رجالها. انها إعصار عارم عليهم، ليس للمرء ان يغمض عينيه فيه، ويطأطئ له وإلا قضى عليه. إنهم عزل ضعفاء، لا يستطيعون الدفاع. فنظروا فوجدوا ان الروم في افريقية وفي المغرب، قد نلاشى أمرهم، واضمحلت دولتهم، فصاروا لا يستطيعون الدفاع حتى عن أنفسهم. ان شريف بيزنطة «يوحنا» الذي أرسلته ليرفع نفوذها الذي مزقته سيوف المسلمين في افريقية. وإزالة حسان لدولتهم لما هدم قرطاجنة، لم يستطع بما معه من الجيش أكثر من استرجاع قرطاجنة والمدن المجاورة الموالية لها، فاستقر فيها محتميا بأسوارها وحصانتها، لا يغادرها إلى

مكان آخر ليمتلكه. ان البربر يكرهون الروم ويكرهونه. لقد استرجعوا استقلالهم، فلو تحرك إلى ناحية من بلادهم ليمتلكها لدمغوه وهزموه. انه ضعيف لم يستطع ان يحمي حتى أبناء قرطاجنة فهاجروا من المغرب. لم يبق لهم مفزع من الكاهنة إلا حسان، وليس لهم وسيلة تمنع كرة التخريب والتدمير عليهم، إلا ان يرجع حسان ويملك المغرب. فأرسلوا وفدا كبيرا منهم إلى حسان يشكون إليه الكاهنة ويستصرخونه.

وكان في جنوب افريقية وفي وسطها جماعات كبيرة من البربر الذين اسلموا فداهمتهم الكاهنة فيمن داهمت فنالت من أموالهم وارى إنهم هم الذي أمالوا كفة البربر إلى حسان فذهبوا إليه مستنجدين. روى محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي في كتابه نزهة الأنظار المطبوع في تونس في صفحة 77 «ان ثلاثمائة من النصارى خرجوا يستغيثون بحسان مما نزل بهم من الكاهنة» وارى ان هؤلاء النصارى من البربر والروم ولا بد وان يكون فيهم مسلمون ولكنهم قلة فأغفلها المؤرخون. ففرح حسان بهذا الوفد، وسر سرورا كبيرا بهذه الغلطة السياسية التي ارتكبتها الكاهنة، فعلم ان الجو في المغرب قد تخلق لصالحه، وان بربر افريقية الذين وقفوا في صفها يوم عاركته قد انفصلوا عنها، وقلبوا ظهر المجن لها، وان القوة المعنوية التي كانت لها يوم نازلها، بوقوف البربر كلهم وراءها قد نقصت، وأنها سوف تكون له دوحة بادية العروق يستطيع اقتلاعها، وجدارا بادي الأصول يقدر على هدمه.

ان الله الذي كتب للمغرب السعادة والحياة والازدهار بالإسلام، وهو الذي أضل الكاهنة فرات بعقل المرأة وببساطة البداوة ما رأت، وارتكبت تلك الحماقة التي أفسدت قلوب أنصارها.

ان كسيلة وقد ساد في المغرب وتمكن من ناصيته كما تمكنت، لم تخطر بباله هذه الحماقة، لأنه يعرف حقيقة المسلمين، ويفكر لدهاء الرجال. أما الكاهنة التي لاقت ملكة محبوبة في جبالها، وفي دائرة مملكتها الضيقة، ووفقت في تدبير شؤون قومها الذين كان جمهورهم على بساطة البداوة فإنها صارت بلاء ونقمة لما أعملت فكرها فيما لا تعرفه، وأرادت ان تتصرف في الدائرة الواسعة التي لا تستطيعها. وهكذا المرأة في كل زمان ومكان إذا خرجت عن وظيفتها، واقتعدت عرش الملك والسياسة أحدثت فيه شقا عظيما... ! !

وكانت أحوال عبد الملك بن مروان قد تحسنت كثيرا من التحسن في المشرق ووقعت من الروم قرطاجنة حماقة وفظائع في المسلمين الذين تركهم حسان في افريقية،

فاذكت حماسه، وجعلته يعجل بإرسال المدد إلى حسان. فوصل حسان من مصر والشام جيش كبير وسلاح، وأمره عبد الملك بالزحف على افريقية، وفتح المغرب لينشروا دين الله فيه. ولكن حسان العظيم الداهية، ما كان لينازل الكاهنة القوية قبل ان يعرف أسرارها ومقدار قوتها، فأرسل رسولا إلى جبال آوراس، ولابد وان يكون بربريا يعرف مسالكها، ولسان أهلها لكي لا يفتضح أمره، وأرسل معه رسالة إلى خالد بن يزيد القيسي الذي تبنته الكاهنة فصار من خاصتها. قال الوزير الأندلسي في الحلل السندسية في الأخبار التونسية «فلما أتى رسول حسان خالدا وقف عليه في زي سائل فعلم انه رسول فاعتذر إليه، وقال تعود في غير هذا الوقت، فلما انفض المجلس «ورجع الرسول» اخذ الكتاب فقرأه وكتب في ظهره ان البربر متفرقون لا نظام لهم وإنما ابتلينا بأمر أراد الله ان يكرم به من مضى، فاطو المراحل، وجد في السير، فان الأمر لله «ولست أسلمك ان شاء الله» ولا حول ولا قوة إلا بالله» ومراد خالد إنما ابتلينا بأمر ... هزيمة حسان ومن سقط فيها من الشهداء الذين أكرمهم الله بالشهادة قال الوزير :وجعل خالد الكتاب في خبزة «فأنضجها» فمضى الرسول فلم تلبث الكاهنة ان خرجت ناشرة شعرها، تضرب صدرها وتقول :وبلكم ذهب ملككم فيما يؤكل، فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون ذلك فستره الله تعالى. فلما وصل إلى حسان اخرج الكتاب من الخبزة فوجده قد احترق. فقال له حسان ارجع فقال إني أخاف على نفسي، فان المرأة كاهنة فكتب له كتابا جعله في نقرة قربوس سرجه وغطاه بالشمع فمضى الرسول حتى أتى خالدا، فدفع إليه الكتاب وعرفه ان الأول أحرقته النار، فرد جوابه، أعاده في قربوس سرجه ومضى. فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول: ذهب ملككم في نبات الأرض واراه بين لوحين» فوصل الكتاب حسان. قد تكون هذه القصة صحيحة وقد لا تكون، فان فيها طرافة للقارئ يتجدد بها للحد الذي سنقوده إليه، والبحث العلمي الذي نلتزمه في هذا الكتاب.

وكان حسان عند منازلته لقرطاجنة وحصاره لها ينزل في مكان مدينة تونس اليوم، وهو في جنوب قرطاجنة، وكان فيه قرية صغيرة تسمى «ترشيش»، وقد أعجب حسان بحسن موقعها، وحصانته، فلما فتح الله عليه في قرطاجنة ترك جماعة من المسلمين في ترشيش، لتحرس تلك الناحية، وتنشر الدين في البربر، ويراقبوا حركات الروم في قرطاجنة، وولى على هذه الجماعة من المسلمين مولاه أبا صالح. ولما انهزام حسان وخرج من افريقية انقطع خط الرجعة عنهم فلم يستطيعوا الالتحاق به في سرت فبقوا هناك.

وكان إمبراطور بيزنطة «ليونتيوس» قد ساءه سقوط قرطاجنة وتهديمها، وزوال دولة الروم من افريقية. فلما انهزام حسان، فخلت افريقية من جند المسلمين اغتنم الفرصة فأرسل أسطوله وجيشه تحت قيادة البطريق[1] «يوحنا» وهو من كبار قواده ليحتل قرطاجنة، ويبتز له ما يستطيعه من أموال الروم والبربر فيها وفي نواحها، ويغتنم الفرصة في المسلمين العزل فيرتكب فيهم ما ارتكبه سلفه في مسلمي برقة لما فارقهم زهير.[2] فنزل يوحنا قرطاجنة فاحتلها، فوجد جماعة المسلمين في ترشيش، وكانوا عزلا ضعفاء، فهجم عليهم فقتل وذبح، وارتكب فيهم ما يرتكبه الجبان الخسيس الموتور في خصمه الضعيف من الفظائع والآثام. ان جبينه أبى عليه ان يتوجه إلى حسان في سرت فينازله، فشفى غيظه من هؤلاء الضعفاء، وارانا خسة الروم المستعمرين الذين يفتح أحفادهم الأوروبيون اليوم بإنسانيتهم ورقيهم، ويصورونهم للمغرب رحمة وجمالا، ويصفونهم لتلاميذهم من أبنائنا بأنهم لمغربنا رسل حضارة ورأفة وإنسانية ورقي، وأنهم من نعيم الله عليه !

ان الكاهنة لم تتعرض للمسلمين في القيروان وفي ترشيش، وفيهم من يمكن ان يقاتلها، ولم تمسهم بأذى، بل أحسنت إلى الأسرى المسلمين الذين قاتلوها، وأطلقت سراحهم، لان البربر كرماء، وذوو شجاعة وبطولة تجعلهم يشفون غليلهم في الأقوياء، وفي الحروب الهوجاء، ثم يحملون عن الضعفاء، أما الخسيس الجبان، فانه عقرب لئيم، لا تلذع إلا النيام، ولا تهاجم إلا الضعفاء والغافلين فتفرغ فيهم سمومها !

ذكر حسين مؤنس في «فتح العرب للمغرب» في صفحة 254 رواية اثنين من المؤرخين الأوروبيين أوردا قصة غزو «يوحنا» لقرطاجنة وفظاعته في المسلمين قال: «وقسا يوحنا في معاملة من وقع تحت يده من المسامين قسوة زائدة حتى انه ليقتل الكفار بيده ! كما يقول تيوفانس وتقفور».

ان يوحنا لم يجدد ملك الروم في افريقية كما يدعى كثير من الأوروبيين، ولم يرجع نفوذهم فيها، ولا كان اكبر قوة بها، لأنه لو كان قوة كبرى لأجار الروم الذين هدمت الكاهنة مدنهم، وما التجؤوا إلى الرحيل، ولكنه جاء بقوة حربية ليضمن بها احتلال قرطاجنة وما يجاورها من المدن الرومية فيمتص ما يستطيع امتصاصه من أموالها، ويتحين الفرص في المسلمين العزل فيشفى فيهم غيظه وحقده الذي يعمر التعصب به صدره. هذا هو غرضه وهذا كل ما استطاعه في افريقية. أما ان يتقدم إلى ممالك

1 - البطريق معناه الشريف.

2 - انظر القصة في فصل زهير الذي قبل هذا في كتابنا.

الأمازيغ في جنوب افريقية وفي غربها، أو يسير حتى إلى القيروان التي تحوطها الممالك البربرية، وتراه الكاهنة من نطاقها، فانه لم يستطع، لان البربر أعداؤه، وهم يكرهون الروم، فسيتصدون له، ويقضون عليه. ان اكبر دليل لكره البربر للروم هو حياد الكاهنة في حروب حسان مع قرطاجنة، انها لم تنجدهم، وكيف ينجد المرء عدوا لا يصنع له إذا استطاعه إلا الحتوف، وما رأى المغرب منهم إلا عذابه وأهواله. فسمع حسان بما وقع للمسلمين في افريقية فثارت ثائرته، فطير الخبر لعبد الملك بن مروان، واستمده ليسير إلى افريقية ليطهرها فيأمن فيها المسلمون، وينشر دين الله الذي يجعل الأمازيغ أصدقاء.

قال البكري في المسالك والممالك في صفحة 37: وأغارت الروم من البحر على من كان بقي من المسلمين بمدينة تونس خرجت إليهم في المراكب فقتلوا منبها وسبوا وغنموا، ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم، إنما كانوا معسكرين هناك وبلغ حسان ذلك. ثم قال:وأرسل أربعين رجلا من إشراف العرب إلى عبد الملك ابن مروان، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء، وأقام هناك مرابطا ينتظر رأي عبد الملك، فلما بلغ ذلك عبد الملك عظم عليه، وكان إذ ذاك التابعون متوافرين فيهم اثنان من أصحاب رسول الله، انس بن مالك، وزيد بن ثابت فقالا للمسلمين:من رابط برادس[1] يوما فله الجنة حتما. وقالا لعبد الملك:مد هذه البلاد، وانصر أهلها ليأمنوا من العدو، ويكون لك ثوابها وأجرها».

وكانت هذه الفظائع الرومية من الأسباب التي استفزت عبد الملك بن مروان ملك المسلمين فعجل بالمدد إلى حسان، وأمره بالسير إلى افريقية. فسار حسان إلى افريقية في جيش كبير ليتم فتح المغرب. وكانت إقامته بقصوره في سرت خمس سنين.

1 - رادس هي مرسى قرية ترشيش في القديم.

عودة حسان إلى افريقية وتمتم فتح المغرب 81 هـ

وعاد حسان إلى افريقية بجيش عرمرم وعدة كاملة. وكان المسلمون يحسبون للبربر وللكاهنة ألف حساب. فاستعدوا وتأهبوا. فلم يكد حسان يقترب من «قابس» حتى خرج إليه أفواج من سكانها من البربر والروم مرحبين مبتهجين بقدومه. فقدموا إليه الهدايا ونزلوا على حكمه؛ فبسطت قابس ذراعها لحسان معانقة مرحبة. وكانت من قبل تستغلق وتكشر. فأقام حسان عليها عاملا فسار إلى «قفصة» فرحبت به. ثم سار إلى «قسطيلية» فدخلها. وفتح جنوب افريقية كله وضمه إليه. فأقام في كل ناحية عاملا ترك معه جماعة من المسلمين يعينونه في الإدارة. وينشرون الدين في البربر. فتأهب حسان لمصارعة الكاهنة.

وسمعت الكاهنة بمسير حسان فاستعدت للصدام. وهيأت جندها للقتال. فنزلت بجيوشها من جبال آوراس. فأقامت حول حصن «لجم»[1] بشرق آوراس فعسكرت هناك تنتظر وصول حسان.

وكانت الكاهنة تعرف ان الدائرة ستكون في هذه المرة عليها. وذلك لاستعداد حسان. وتفوقه عليها في القوة. سيما المعنوية. ولانفضاض كثير من البربر عنها ها هم يستقبلون حسان. ويدلونه على عوراتها. لابد وان يكونوا قد انخرطوا في جيشه ليقاتلوها انتقاما لما أفسدت من أموالهم. رأت الكاهنة كل ذلك فتشاءمت وتيقنت الهزيمة. ومع ذلك أبت الاستسلام بدون حروب. وان تعطي بيدها كما يفعل الجبناء. وان تقع أسيرة في يد عدوها يعاملونها معاملة الإماء. فقالت لقومها «إنما الملكة من تعرف كيف تموت !! « فآثرت ان تموت وهي سد في وجه من يغزو بلادها. وان تموت ملكة. على ان تحيا امرأة بسيطة.

وكانت الكاهنة لا تعرف سماحة الإسلام وعدله. وما يسبغ على المرأة من إكرام. وما رفعها إليه من منزلة رفيعة. ولا تعرف عدل المسلمين وإكرامهم للرؤساء واصطناعهم للملوك. سيما من يرجون إسلامه وصلاحه. فآثرت الموت على الوقوع في قبضة حسان. وأنا اعتقد انها لو وقعت في يده وقبض عليها أسيرة لأطلق سراحها وأكرمها. كما أطلقت سراح أسراه وأكرمتهم. ولأعزها وعرف لها مقامها. ان حسان يتصف بكرم الإسلام وشهامة البطولة. فلا بد وان يعاملها معاملة كريمة ممتازة كمعاملة أبي المهاجر لكسيلة. ولعل ما رأته الكاهنة من اضطهاد عقبة لكسيلة لما وقع في يده هو الذي

---

1 - ورد هذا الاسم في كتب التاريخ القديمة بالهمزة الاجم وبدون همزة «لجم» واسمه الحالي بدون همزة ولعله هو الصحيح وقد بدئ بالسكون علامة على انه بربري.

نفرها وحبب إليها الموت على الحياة في أيدي المسلمين. ان كبرياء البطولة، وما يتصف به البربر من شمم وعزة وشموخ، هو الذي جعلها تصمم على الدفاع. وكان قومها في ذلك مثلها.

قال عذارى في البيان المغرب في أخبار المغرب:...فرحل حسان إليها، وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال آوراس في خلق عظيم، ورحل إليها حسان فلما كان الليل قالت لابنيها: أنى مقتولة ! وأخبرتهم انها رأت رأسها مقطوعا بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسان. فقال لها خالد: ارحلي بنا وخلى له عن البلاد، فامتنعت، ورأته عارا لقومها. فقال لها خالد وأولادها: ما نحن صانعون بعدك؟ فقالت: أما أنت يا خالد فتدرك ملكا عظيما عند ملك العرب، وأما أولادي فيدركون سلطانا عند هذا الرجل الذي يقتلني، ويعقدون للبربر عزا. ثم قالت اركبوا واستأمنوا إليه» فرحب حسان بأولاد الكاهنة، وأكرمهم، ودعاهم إلى الإسلام فاسلموا، فوكل بهم من يحفظهم ويخدمهم ويرعاهم، ان الروم الدساسين ربما نالوهم بمكروه أو قتلوهم ليزيدوا لنار الكاهنة وقومها تأججا على حسان، وقد خالد بن يزيد على أعنة الخيل وجعله من قواده في هذه المعركة الفاصلة.

وكانت الملحمة الكبرى، والمعركة الفاصلة، فاشتد القتال بين الطرفين، وصبر كل من الحزبين، وكانت حربا هوجاء، سقط فيها من القتلى عدد لا يحصى، ثم انزل الله نصره على المسلمين، فانهزمت الكاهنة وولت الأدبار، فأسرعت إلى جبال آوراس لتحتمي بها، فأرسل حسان جيشا يتبعها فأدركوها في بئر العطر بناحية «تبسة» فقتلوها.

وكانت الكاهنة فارعة القامة، ضخمة الجثة، عظيمة الخلقة، قيل انه لو دحرجت الاترجة[1] بين كتفيها وعجيزتها لتدحرجت، وذلك لعظم خلقها، وهكذا سكان جبال آوراس، أورثهم الله قوة في الأجسام، تماما في الخلقة لا زالوا يمتازون بها إلى يومنا هذا. ليت أهل الحضر الذين ضعفت دماؤهم، وضمرت أجسامهم، يستنجبون من آوراس، غيرها من الجبال الممتازة بقوة الأجسام، وصحة الفطرة، لينجبوا للمغرب الأجيال الصحيحة التي يصول بها. ان السعادة والهناء والحب الصحيح والجمال البارع الذي يشبه حياء الدين، والطاعة التي تنتظم بها الأسرة، وتتأكد بها المحبة لا تجدها إلا في بنات الجبال والصحراء اللائي لم تفسد الحضارة طباعهن فيكن أفاعي مزركشة رقطاء، لأزواجهن التعساء !

وعاشت الكاهنة مائة وسبعا وعشرين سنة، وملكت قومها خمسا وثلاثين

1 - الاترجة كالبرتقالة الكبرى.

عاما.[1]فاتبع حسان جيش الكاهنة المنهزم فقتل منهم وأثخن، فاستأمنوا إليه على الإسلام والطاعة، فأبى ان يؤمنهم حتى يعطوه من جميع قبائل آوراس اثني عشر ألفا من فتيانهم الشجعان يسلكهم في جيشه، ويكونون معه في حروبه، فأعطوه ما طلب فعفا عنهم وابتسم لهم بعد العبوس، ومد إليهم يد المصالحة والسلام، وغمرهم بجنان الأبوة والمحبة، فاقبلوا علية إقبال النحل على الزهور المتفتحة، والرياض الاريجة، يقبسون منه نور الله، ويسلمون على يده ويتجردون من ثوب الجاهلية الذي كانوا فيه، ويسبغ عليهم حسان حلل الدين التي تطير بهم إلى السعادتين، وتزينهم في الدارين.

وكان حسان داهية عظيما، وسياسيا حكيما، ومخلصا لدينه ودولته. وكان غرضه ان يملك قلوب البربر لا بلادهم، وان يفتح قلوبهم للدين لا أوطانهم. فأكرم أبناء الكاهنة وسكان آوراس واحترامهم، وتصرف معهم تصرفا يدل على التقدير والإكبار، فعقد للأكبر من أولاد الكاهنة علة قومه من جراوة وعلة جبال آوراس،[2] فأصبح واليا على قومه، وأميرا لبلاده، فضمن حسان بذلك طاعة قبائل آوراس المعتدة بنفسها، الشامخة بأنفها، السيئة الظن بكل ما يأتيها من خارج المغرب ونال بذلك رضاهم، واشعر البربر بان دولة الإسلام في المغرب دولتهم، وان الإسلام دين العدل والمساواة، فإذا اعتنقه إنسان ساواه بغيره من المسلمين، لا فرق بين عربي وعجمي، وبين مشرقي ومغربي؛ فالكل امة واحدة يضمنها الإسلام، ويمزج بينها التوحيد، وإذا تقدم شخص على شخص في جماعة المسلمين فلصلاحه وكفاءته، وان أبناء الكاهنة لما اسلموا صاروا كالعرب المسلمين، يسد بهم الثغور، ويجعل منهم الأمراء في النواحي، والقواد على الجيوش. فنال حسان طاعة البربر وحبهم وإسلامهم بتولية الأكبر من أبناء الكاهنة على آوراس، ثم جعل ابنيها الآخرين من قواده، فأقام كلا منهما قائدا على ستة آلاف من الجند الذي اشترطه على آوراس. ان هذه لعمري حنكة كبرى، ومعرفة بحقيقة البربر المعتدين بأنفسهم. إنهم سيزدادون له طاعة وإخلاصا إذا كان قائدهم منهم، يسوسهم بما يليق بمزاجهم، ويشبع في نفوسهم حب الاحترام الذي تشعر به تولته. ان أبناء الكاهنة اعرف بقومهم وبلادهم، فهم أحسن من يليق لرئاستها. وقد انتفع حسان بكفاءتهم في السياسة والحروب، وضمن ولاء قومهم وطاعتهم، وتفتح قلوبهم للإسلام، وهذا ما يريده حسان أكثر من كل الأشياء، -ان يسلم البربر- وهذا هو القصد الذي حارب من اجله، وبقي في لامته وسلاحه، مغتربا عن آله وذويه ثماني سنين.

1 - الاستقصاء للسلاوي.

2 - الاستقصاء للسلاوي ص 83 ج 1 طبع الدار البيضاء.

ثم ان هذا الجند العتيد من أبناء آوراس المتصفين بالشجاعة الخارقة، والبطولة الكاملة، لا ينتفع بهم حسان في معاركه على الوجه الأكمل إلا إذا كان قائدهم منهم يتصف بما يتصفون به من بسالة، ويحسن ما يحسنون من أساليب الحرب، وضروب القتال.

وكان غرض حسان في اشتراطه اثني عشر ألف شاب من قبائل آوراس، ويختلطون بجيشه، ويكونون معه في حروبه، ان يضمن بلك إسلام آوراس. ان آوراس ناحية منطوية على نفسها، فأهلها قد ألفوا العزلة في جبالهم، لا يغادرونها إلى افريقية فيختلطون بالمسلمين فيحسن إسلامهم، ويتعلمون العربية، ويتفقهون في الدين، فأراد حسان ان يمزج بجيشه هذا العدد الغزير من أبناء آوراس ليتأثروا بالبيئة الإسلامية، ويصطبغوا بنور الدين، ويتعلمون لغة القرآن، ويعرفون حقيقة المسلمين ونواياهم الحسنة للمغرب، فينشرون كل هذا في أقوامهم، ويركزون في أعماق آوراس دين الله الحنيف الذي تمكن في نفوسهم، وأشربته قلوبهم. لقد عرف حسان انه إذا لم يفعل ذلك فان آوراس لابد ان يثور عليه، سيما وقد قتل ملكتهم المحبوبة، وعفرهم بالهزيمة،وهم الذين لا يرضون ان يتناثر على جباههم الشماء إلا زهور النصر التي تستقبلهم به العذارى، وتنثرها مع الزغاريد على رؤوسهم أسراب الصبايا، إذا رجعوا من حروبهم مكللين بالنصر الباهر على الأعداء.

ان ما يجعل جبال آوراس تخضع لحسان هو إسلامهم. ان الإسلام فقد هو الذي يجعلهم لحسان ماء سلسا يروى، إلا فان البربر لا يخضعون بالقوة، ولا يسكنون بالعنف. وإذا سكنوا على العنف فسكون مؤقت، سكون المتحين الفرصة المتطلب للغرة. هذا ما عرفه حسان العظيم فاخذ من آوراس زبدته من فتيانهم الأذكياء، وشجعانهم النبهاء، لينفخ فيهم ما يشاء. ان هذا ما تفعله الحكومة الرشيدة المخلصة اليوم في كل مكان تريد ان تغير عقائده، وتقوم طباعه؛ تختار من تلاميذهم الأذكياء، فتنقلهم إلى بيئة صالحة يعيشون فيها، وموارد للعلم الصحيح يكرعون منها، فتملأهم البيئة الصالحة بالصلاح، ويثقف العلم عقولهم بالمعرفة، فيطلعون على أقوامهم طلوع السحاب الذي يغير وجه الثرى، ويشيع الخصب في الورى.

ان ما يحرص عليه حسان العظيم من إسلام البربر هو الذي سول له ان يشترط عليه ما اشترط وقد وفق كل التوفيق فيما فعل، ولو لم يأخذ بتلك السياسة الحكيمة ما خضع له البربر وأطاعوه، وما سكن إليه آوراس وتمرغ في حجره تمرغ القطة الألوف، وهم أسد الشرى، لا يخضعون بالقوة للورى !

ثم ان حسان كان معجبا بشجاعة آوراس وبطولة، وبفروسية البربر وبراعتهم في القتال، وثباتهم في المعارك، فأراد ان يطعم بهم جيشه، ويزداد بهم قوة إلى قوته وينتفع بهم فيما عسى ان يخوضه من الحروب.

وارى ان من الأسباب التي جعلت حسان ينتقي زبدة من آوراس فيخرجها منه انه يريد إضعافه فلا يحدث نفسه بالثورة عليه، ولكن هذا القصد ليس في الدرجة الأولى. ان القصد هو ما أسلفنا: ان تسلم امة البربر العظمى، سيما جبال آوراس التي لا يتم إسلامها إلا بما فعل.

وتفتحت آوراس تفتح الذراعين للحبيب، وشمر حسان وأبناء الكاهنة الثلاث لنشر الإسلام في البربر،فانتشر دين الله في المغرب انتشار الزهر في البرتقالة إذا عانقها الربيع، والنضارة في الوجه إذا داخلته المسرات، واقبل البربر على دين القرآن ولغة القرآن يتعلمونها ويتحدثون بها، فسكن المغرب لحسان فلم تعد فيه إلا أمكنة يسيرة مستغلقة سرعان ما فتحها، فسار إلى القيروان ليستريح جيشه من اللغوب، وهو قرير العين بما يرى من إسلام البربر على يده، وإقبالهم على الدين بفضل سياسته وحكمته. فلما استراح جيشه، واستجمت قوته، اتجه إلى شمال القيروان. فلا زالت هناك بقاع رومية يجب ان يطهرها، وقلاع بربرية يجب ان يفتحها. وكانت جبال زغوان في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنة قد كشرت لحسان، وتنمرت للمسلمين واستغلقت وتظاهرت بالعداء، ولعل قربها من قرطاجنة قد جعل عدوى الروم تتسرب إليها فلم تخضع للمسلمين، ولم يتفتح قلبها لنور الله، فأرسل إليها حسان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثة أيام فاستعصت عليه، فأسرع إليها حسان ففتحها صلحا؛ فدانت له افريقية كلها فلم يبق إلا قرطاجنة فإنها لا زالت مصغرة الخد تشيح بوجهها عن حسان.

وكان «يوحنا» وشيعته من الروم قد حصنوا قرطاجنة، وأعادوا ما تهدم من أسوارها. وكانوا يرقبون حركات حسان، فسار إليهم فتحصنوا بها، فحاصرهم، ثم وقعت معركة كبيرة بين يوحنا وحسان انهزام فيها يوحنا انهزاما شنيعا، فالتجأ إلى قرطاجنة محتميا بها، وهو آيس من ان يكون له في افريقية مقام، وعلم ان حسان الذي يقود جيشا عرمرما من أبناء ما زيغ وقحطان، سيقتحم عليه المدينة فيستأصل جيشه، ويسد عليه أبواب الفرار، فركب هو وجيشه وشيعتهم من الروم سفنهم بالليل فخرجوا هاربين من باب النساء،[1] ففروا إلى صقلية والأندلس، فتركوا قرطاجنة خالية من حاميتها.

1 - المسالك والممالك للبكري صفحة 37 ونزهة الأنظار لابن مقديش ص 79.

قال ابن مقديش الصفاقسي في كتابه القيم نزهة الأنظار: وكانت للروم سفن بباب النساء فحملوا فيها نساءهم وأولادهم ليلا واسلموا المدينة، ولم يبق بها إلا الملك المسمى «بمرناق» وأهله وولده فكتب إلى حسان هل لك ان تعاهدني في أهلي وولي واشترط لنفسي ما شئته من المنازل، واسلم لك المدينة، ولا علم للمسلمين بفرار من فرمنها، فأجابه حسان إلى ذلك، فاشترط الأرض المسماة بمرناق، وهي إذ ذاك قرى كثيرة، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره وغير ولده وأهله فوفى له حسان بما أعطاه من العهد، وأقام مرناق مالكا لهذه الأرض» وقال غيره وهي الناحية المسماة اليوم بمرناق في تونس.

ولما فتح حسا قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل افريقية ففتحها وكان قد استمد عبد الملك بن مروان فأمده بأسطول تحت قيادة عبد الملك ابن قطن فطهر الجزر التي كانت مكمنا للأعداء، فكان المغرب كله للإسلام، وبقاعه جميعها في طاعة المسلمين، فرجع حسان إلى القيروان، وقد انتهى الجهاد الأصغر بالسيف فشمر للجهاد الأكبر، وهو تنظيم المغرب وتثقيفه ليكون كما يؤهله استعداده الكبير، كما يريد حسان العظيم، اكبر قوة للمسلمين وأجنحة الإسلام يطير بها إلى أوروبا !

أسباب صعوبة فتح المغرب

لقد مضى على المسلمين نصف قرن وأربع سنين، من سنة 27 هـ إلى سنة 81 هـ، وهم يطرقون أبواب المغرب لتنفتح، ويعاركونه ليسلس عنانه، ويجالدونه ليكون للمسلمين، فينشرون فيه دين الله، ويوجهونه إلى طريق السعادة والفلاح. وقد تعب المسلمون في ذلك تعبا لم يصابوا به في كل ما فتحوا من الأوطان، بذلت الدولة الإسلامية من أموالها ووقتها ما لم تبذل مثله في كل ما قامت به من الفتوح. فلماذا استعصى فتح المغرب على المسلمين، وأتعبهم أكثر من مصر والشام، وما فتحه المسلمون من البلدان؟

تعدد الممالك

ان سبب صعوبة فتح المغرب هو تعدد ممالكه، واستقلال نواحيه. لقد جاء المسلمون إلى المغرب، وهو قد استرجع حريته من الروم، وانشأ البربر ممالك عديدة أنبتوها بعرقهم ودمائهم، وعزموا على الموت دونها، ودفاع كل من يريد القضاء عليها.

كان البربر يكرهون المركزية في الحكم، وخضوع كل النواحي لعاصمة ترأسها، ومليك يسيطر عليها، بل يريدون ان تعتمد كل ناحية على نفسها، ويرأسها من تقدمه على شؤونها، فيسوسها على حسب مزاجها، وما يليق بها. فتعددت الممالك فيهم.

ففي كل ناحية من أنحاء المغرب مملكة لها رئيس يدبر شؤونها، لا يخضع لما يخضع له الآخرون، ولا يريد ان تتدخل مملكة أخرى في شؤونه ، وتفرض إرادتها عليه. ولم يكن المغرب دولة واحدة يخضع إذا سقطت حكومته، أعطى بيده مليكه، بل كانت فيه حكومات وملوك. فإذا هزم ملك لم يفتح المسلمون إلا ناحيته، وبقيت النواحي الأخرى مستغلقة يستعد ملوكها للدفاع، فلابد بجهود متكررة لفتحها، وغزوات أخرى للاستيلاء عليها. لذلك ترى كل الولاة الأمويين والعباسيين الذين سيرسلون لتهدئة المغرب إذا ثار، يسيرون جيوشهم الكبرى إلى كل أنحاء المغرب فيخضعونها، لا يكتفون بامتلاك القيروان التي كانت العاصمة في عهد الإسلام.

ان غرام البربر بالحياة الاستقلالية، والاعتماد على النفس، يجعلهم يرجعون إلى اللامركزية في الحكم كلما ضعفت القيروان أو ساءتهم بعدم التزام العدل، فتنبت كثير من النواحي عنها، سيما في المغرب الأوسط والأقصى.

ان البربر في القديم سيما أيام دولهم الزاهرة في الجاهلية والإسلام كانوا على نظام قريب من نظام الولايات في أمريكا الشمالية اليوم. كل ناحية تعتمد على نفسها، وتدبر أمورها على حسب مزاجها، لا تكون عالة على العاصمة في كل أشيائها، ولا تنتظر أوامرها ونواهيها في كل أمورها. لهذا الطبع الاستقلالي الذي يقسم المغرب إلى ممالك وولايات، لم يكتف المسلمون الفاتحون بإسقاط ناحية هي العاصمة فتتبع كل النواحي، بل احتاجوا إلى فتوح تعددت على حسب أنحاء المغرب التي قصدوها بجيوشهم، وهذا يستغرق الزمن الطويل والجهود الكبرى.

كره البربر للأجنبي

والسبب الثاني الذي جعل المغرب يستغلق ويكشر للمسلمين،وتهب ممالكه لدفعهم وقراعهم. هو كره البربر للأجنبي، ونفورهم من كل شيء يأتيهم من خارج وطنهم، وذلك لشقائهم بالرومان والوندال والروم قرونا طويلة، وتجرعهم من هؤلاء المستعمرين الظالمين الأعداء للمغرب كل مرارة، فتكونت لهم عقدة نفسية جعلتهم يسيئون الظن بكل إنسان يطرقهم من خارج وطنهم، سيما إذا جاءهم الرومان والرومان في الجيوش والسلاح، فساءت ظنونهم بالمسلمين لما جاؤوهم، واستطاع الروم ان يوسوسا لهم بان غرض المسلمين هو استعمارهم، ويملؤون صدورهم بالخوف والريبة من المسلمين، فآلت كل النواحي ان تدافعهم وتصدهم، فكانت المعارك الطاحنة التي خاضها المسلمون في كل أنحاء المغرب، والزمن الطويل الذي اقتضته تلك الجهود الكبرى من المسلمين.

عداوة الروم المستعمرين للإسلام

والسبب الثالث هو الروم الذين لم يألوا جهدا في أبعاد البربر عن المسلمين، وبث الدعاية الكاذبة المسمومة التي تنفر البربر عن الإسلام، واستعمال كل وسيلة يملكونها لخلق العداوة في قلوب المغرب للفاتحين الأولين. فلولا الروم الذين كانوا في المغرب منبع العداوة للإسلام، والذين كانوا يسممون البربر ويبعدونهم عن المسلمين، لكان إسلام المغرب أسرع، وانضمامه إلى الدولة الإسلامية قد وقع قبل عهد حسان بزمن طويل.

ان الروم هم السحاب الأسود الذي كان يمنه الإسلام ان تسطع في سماء المغرب فتملأ كل أنحائه، لذلك شمر حسان فقضى عليهم ليتأتي له إسلام المغرب كما يريد.

قوة المغرب

والسبب الرابع هو شباب المغرب وقوته، لقد جاء المسلمون وهو واقف على قدميه ليسير سيره، ويبني دوله العظمى، فلم يجدوه في شيخوخته كما وجدوا كثيرا من الأمم التي فتحوها. فشمس عليهم شموس الشباب، وقارعهم مقارعته، وشمخ عليهم شموخه.

والسبب الخامس هو طبيعة بلاد المغرب، فانه جبال شاهقة، غامضة المسالك، تعصم من يأوي إليها. وقد تسارع إليها البربر فآثروها لسكناهم منذ غزا الرومان سهولهم فاستعبدوهم فيها. وقد علمتهم تلك الجبال ان يثوروا على الرومان والروم فيعتصمون بتلك الجبال فتحميهم، وعلمتهم عدم الخضوع للمغير. لذلك قارعوا المسلمين، فعصمتهم جبالهم، وأورثتهم جرأة طالت بها مقارعهم للفاتحين الأولين. ولولا إسلام البربر ما استطاع المسلمون دخول جبالهم والاستقرار فيها، وما انقادت تلك الجبال للقيروان وان فصارت جزءا من الدولة الإسلامية.

والسبب السادس هو شجاعة البربر وآباؤهم، وبطولتهم وبسالتهم، فهبوا لمدافعة المسلمين الذين لم يعرفوا حقيقتهم، وقارعوهم في تلك المعارك التي استمرت كل ذلك الزمن الطويل.

تمسك البربر بشخصيتهم

وسابع الأسباب هو ثبات البربر على مبادئهم، وتمسكهم بالفهم. إنهم امة قوية الشخصية، معتدة بنفسها متمسكة بشخصيتها وتقاليدها بنفسها متمسكة بشخصيتها وتقاليدها، وتقلد، ولا تسارع إلى نبذ ما الفته، ولا تأخذ بالجديد حتى تتيقن

انه أحسن من القديم الذي عندها. لذلك لم يسارع البربر إلى الاسم حتى تأملوه، وعرفوا حقيقة، وتيقنوا انه هو مفتاح السعادة، وسبب النجاح، فاقبلوا عليه، ورسخوا فيه رسوخ جبالهم، وثاروا على كل الملوك المسلمين الذين يخرمون أصوله في السياسة، ويعاملون رعاياهم بغير العدل الذي أمر الله به.

ان البربر لا يسارعون كثيرا إلى الإيمان. إنهم لا يؤمنون إلا بعد التروي والتدبر، وفي أناة وتحفظ. وكذلك في الصداقة؛ فان قلب البربري لا يتفتح لك إلا بعد ان يختبرك طويلا، ويدرسك ويعرف حقيقتك، ويثق بك، وإذا تفتح لك قلبه تفاني فيك، واخلص إليك، وثبت على حبك، وكان لك في السراء والضراء، وكان حبك في قلبه درة في محارتها، ولا يؤذيها تقلب الأمواج، وثورة البحر، ولا يكسفها ظلمة للازمات تخيم عليك كظلمة اليم، وملوحة للأيام تعكر صفوك كملوحة البحار !

ان ثبات البربر على مبدإ هم وتحفظهم، هو الذي جعلهم لا يفتحون قلوبهم للمسلمين ولا يسارعون إلى الإسلام إلا بعد ان تمنعوا فيه، فعرفوا حقيقته، ورأوا جماله وعظمته في سلوك المسلمين.

تقطع الفتح

والسبب الثامن هو عدم اتصال المسلمين في فتح المغرب، وتقطع أعمالهم فيه، ولاشتغالهم بالفتن الداخلية التي تغل الدولة الإسلامية عن مواصلة فتح المغرب، فانمسحت كثير من آثارهم في المغرب برجوعهم عنه، وعدم الاستقرار فيه، ومواصلة العمل والدعاية والاختلاط بالبربر ليسلموا.

هذه هي الأسباب التي ثقلت بها خطوات الفتح الإسلامي في المغرب، وجعلت المسلمين يمضون نصف قرن وخمسة أعوام، وهم يحاولون فتح المغرب ويجتذبونه ليكون للإسلام، ويسير معهم في طريق السعادتين. وقد كان الله مع حسان العظيم، وجيشه الغر الميامين، فأتم فتح المغرب، ومسح براحته الكريمة على قلوب البربر فتفتحت للعربية والدين، فشمر عن ساعده لتنظيم الولاية الإسلامية في المغرب وإرساء قواعدها.

نشأة ولاية المغرب الإسلامية وتنظيم حسان لها

تدوين الدواوين

وولدت الولاية المغربية الإسلامية الكبرى، التي تضم المغرب الكبير كله، من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر المسلمين إلى الصحراء الكبرى، فشمر حسان لتنظيمها، وإنشاء المشاريع الكبرى التي تضمن ازدهارها وتقدمها، فدون الدواوين، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى ديوانا في الكتبة والرؤساء المسؤولون، ونظم الجيش وقسمه على الثغور، وفرض له العطاء من بيت المال. وكان الجيش يتكون من العرب والبربر، فساوى حسان بينهم في العطاء والغنائم وفي الرتب والمعاملة، لا فضل لعربي على بربري، ولا لمشرقي على مغربي، فالكل لديه سواء، إلا ان يتقدم بأحد عمله الصالح فيقدمه، وتبرزه مواهبه ونبوغه فيبرزه، فأحبه البربر لهذا العدل الإسلامي، وتلك المساواة التي أمر بها الله، فاخلصوا للدولة ورأوها دولتهم، وأحبوا العرب، ورأوهم إخوانهم الأشقاء، وأصدقائهم الأوفياء، واتجهوا إلى المشرق بقلوبهم، فرأوا دمشق عاصمتهم، وبلادهم جزءا من الدولة الإسلامية الكبرى.

اختيار العمال

وأقام العمال على النواحي، واختارهم من ذوي الحزم والحصافة والكياسة، وذي الدين والإخلاص والنزاهة، والذين يعملون لله لا لأنفسهم، ويراقبون الله في كل أعمالهم ويستهدفون فيما يأتون ويدعون رضي الله، فيتقيدون في سياستهم وإدارتهم بالقانون الذي وضعه الله لساسة الشعوب، وانزله على محمد عليه السلام.

التربية والتعليم

وكان حسان حريصا على تعليم البربر دينهم ولغة دينهم، فانشأ المساجد في المدن والقرى، وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد، وللفتوى في مسائل الدين، وتنوير بصائر البربر بدروسهم المتوالية، وخطبهم في الجمع في الأعياد، وبأحاديثهم في مجالس الذكر والوعظ التي يعقدها فقهاء المسلمين في المساجد بين الصلوات. وكانت المساجد لتعليم الكبار أمور دينهم، وموالاتهم دائما بالغذاء الروحي الذي ينعش الدين في صدورهم ويوجههم في كل الأعمال إلى ربهم.

وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعلم أبناء المسلمين دينهم وتحفظهم القرآن، تطبع ألسنتهم بلغته، وترهف أذواقهم ببلاغته، وتربيهم تربية إسلامية

صحيحة تجعل منهم ذلك الجيل الإسلامي الصحيح الذي أقام الدولة الإسلامية الكبرى في المغرب، وصار منبعا للهداية والعلم في العالم.

الزكاة

واختار حنش بن عبد الله الصنعاني، وهو من خيار المسلمين، ومن التابعين الأولين، ومن العلماء بالشريعة ومن ذوي الحصانة والحنكة، فأقامه عاملا على الزكاة وهي اكبر مورد للدولة يريش فقراءها، ويشيع الرخاء فيها. فكان حنش يبعث أعوانه إلى النواحي فيأخذون الزكاة في كل ناحية من أغنيائها فيورعونها على فقرائها لا احتجان ولا استئثار، ولا أنانية ولا احتكار، فعمت المحبة بين الفقراء والأغنياء وزال الحسد من الصدور، وأمسى الفقراء ينظرون إلى الأغنياء بمحبة الوليد إلى الأم التي ترضعه والأب الكريم الذي يعوله.

وكانت الزكاة في الإسلام للفقراء ومن عدهم الله في كتابه، أما مصاريف الدولة فمن الخراج والجزية وأملاك الدولة.

وفرض حسان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى، فالجزية على الرقاب، والخراج على أموال وكل ذلك برأفة وعدل حببت الإسلام والمسلمين إلى القلوب وجعلت النصارى من البربر يسرعون إلى هذا الدين الحنيف الذي راعهم جماله وعظمته في عدل المسلمين ونزاهتهم وسلوكهم !

القضاء

وعين حسان القضاة للنواحي، يفضون الخصومات، ويحكمون بين الناس بكتاب الله وسنة رسول الله. كما كان حسان يتقيد في سياسته في المغرب بالدين، فان الدين للدنيا أيضا ينظمها ويسعدها، وللدولة، يرسم لها سياستها في كل النواحي، ليس عبادة فحسب، تنظم علاقة المرء بربه، بل هو دستور يرسم للدول العظمى والأمم الراقية في كل الشؤون طريقها ويبين لها في كل المشاكل حلولها، ويهديها في كل المعظلات إلى الوجه الصحيح لقد تحير الأستاذ حسين مؤنس في كتابه فتح العرب للمغرب في سياسة الولاة في المغرب فقال في صفحة 279 «بيد ان تاريخ المغرب إبان العصر الأموي لا يدل على ان العمال كانوا يجرون في حكم هذه البلاد على سياسة موضوعة ثابتة أو ان الخلفاء كان لديهم نظام ثابت يأخذون به حكمها» كان هناك سياسة غير سياسة الإسلام التي بينها الله في كتابه، واخذ بها الخلفاء الراشدون، والأمراء المسلمون الذين اسعدوا الأمة المحمدية، وازدهرت بهم دولنا الإسلامية العظمى يجب ان يعينها الخليفة

لعماله. ان بني أمية وبني العباس لم يخيبوا، فثار عليهم المغرب، إلا لما صرفوا الأمور في الدولة على هواهم، وحادوا عن سياسة الله التي رسمها الله في دستوره العظيم لتنظيم الدول وإسعاد الشعوب. ان كل ما يجب على رئيس الدولة، ان يختار الولاة، فيشترط فيهم النزاهة والحصافة والحزم، العلم بالدين، والفقه في الشريعة، والعلم بقانون الله لعباده. أما السياسة التي يجب أتباعها فهي في ذلك القانون المقدس الذي وضعه الله بكماله، وانزله كاملا ليليق لكل زمان ومكان !

الشرطة

وأقام حسان في المدن الحراس في الانهج والطرقات، يربون الأمة، ويحفظون الأمن، ويرعون العصاة، ويغيثون الضعيف والملهوف، ويراقبون الأسواق، فيقمعون الغش والاحتكار، ويضربون على أيدي المفسدين، في أسواق المسلمين.

تقسيم الأرض

وقسم حسان الأراضي بين قبائل البربر، فعين لكل قبيلة خطتها، أراها أرضها لا تعتدي قبيلة على أخرى في أرضها، ولا يحدث شنآن بين البربر في وقت الزراعة وألزم كل قبيلة زراعة أرضها، ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين فنشط حسان الزراعة فأحضرت أنحاء المغرب به، كما اخضرت القلوب التي أخصبها بدين الله.[1]

وقد عد حسان والمسلمون ارض البربر وبلادهم مفتوحة صلحا فلذلك اقر الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم، ولو اعتبروها مفتوحة عنوة لكانت ملكا للدولة تمنحها لمن تشاء، وتقرر عليها ما شاءت من الخراج. أما أراضي الروم المستعمرين، والأفارقة الروم المستوطنين بالمغرب فجعلها حسان والمسلمون مال فتح عنوة لان اغلب الروم لم يسلموا، واحتل المسلمون اغلب نواحيهم بالسيف، ودخلوها بالقوة، فلذلك عدت أراضيهم ملكا للدولة، وهم موالي فيها يؤدون خراجها لبيت مال المسلمين.

ان البربر قد اسلموا في أراضيهم وحسن إسلامهم، فاقبلوا على المسلمين، ولولا إسلامهم ما استطاع حسان ان يستقر في المغرب كله، فإسلامهم وإقبالهم هو الذي جعلهم للمسلمين لا السيف والقوة، فلذلك لم يعتبر حسيان أراضي البربر مما فتح عنوة بالسيف. أما الروم فهم أجانب مستعمرين، فجل ما في أيديهم من الأراضي اغتصبوه من البربر، أو كان للدولة البونيقية والدول البربرية الكبرى التي كانت قبل

1 - لا تزال الأراضي القبائلية موجودة في كثير من أنحاء المغرب إلى اليوم وفي جنوب الجزائر منها الكثير. نجد أرضا واسعة هي ملك لقبيلة بأسرها يحرث كل فرد فيها حسب استطاعته. وارى ان هذا نظام بربري قديم اقره حسان.

احتلال الرومان للمغرب فاستحوذوا عليه. ولا بد وان يكون حسان -لعدله- قد رد للقبائل البربرية من أراضي الروم ما أثبتت البينة انه اغتصب من أجدادهم.

تنظيم المدن

واعتنى حسان بالمدن والقرى، فمهد الطرق للسابلة، وأصلح القنوات للري، وحث المسلمين على البناء والتشييد، وعلى العمارة والتنظيم. وجدد بناء مسجد القيروان ووسعه، هدمه كله إلا المحراب، وبناه بناء حسنا يليق بحضارة افريقية، وبذوق البربر السليم، وبعظمة الإسلام وجلاله. «وحمل[1] إليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة، اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول[2] في المواضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب، ويقولون ان صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبا فابتدروا الجامع بهما».

1 - المسالك والممالك للبكري ص 22.
2 - يعني أول مرة.

الاعتناء "بتونس" وإنشاء دار الصناعة فيها

سبب تسمية ترشيش تونس

وكانت «تونس» قبل الإسلام قرية صغيرة في جنوب قرطاجنة تسمى «ترشيش» وكان يسكنها البربر والروم، وهي في سفح جبل، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعي هو كالحصن لها، والسور الذي يمنع الأعداء عنها، وفي شرقيها بحيرة جميلة تلطف جوها،وتزيد في سحرها وجمالها، وحواليها سهول للزراعة، قد تكاتفت فيها البساتين، وترامت فيها المزارع، وترصعت بالرياض الغناء؛ فبدت ترشيش على ربوتها كالعروس قد حفت بالزهور، وأحيطت بالجمال الذي يشبها، وبالزينات التي تزيد في سحرها ! وقد نزلها حسان بن النعمان بجيشه في حصاره لقرطاجنة، فأعجب بمناعة موقعها، وجمالها مكانها، وبخفة روحها وانسها، فتنرك فيها جماعة من المسلمين لينشروا الدين في البربر، ويراقبوا حركات الروم في قرطاجنة. وسماها المسلمون «تونس» لجمالها، وما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب. وقيل إنهم سموها بذلك لدير فيها كان الرهبان طول الليل يترنمون بإنجيلهم في أصوات رخيمة، ونغمات عذبة تؤنس من يسمعها. وارى ان الأمرين كليهما سبب تسميتها بهذا الاسم الجميل. ان من شاهد «تونس» الخضراء، وتجول في أنحائها، ورأى حسن موقعها، وما يحفها من الأماكن الخصبة، والبحيرة الجميلة، أحس بأنس يملآ قلبه، وشعر بروح تونس الخفيفة الجميلة تملأ صدره بالانشراح، ونفسه بالأفراح.

إنشاء المرفأ والأسطول الإسلامي

وكان حسان يعرف عداوة الروم للمسلمين، وأطماعهم في افريقية. وأيقن إنهم لابد ان يغيروا على ساحل افريقية للنهب والانتقام، فعزم على إنشاء أسطول كبير يدافع به عن المغرب، ويغزونه بلاد الروم والقوط في صقلية وسردانيا وايطاليا والأندلس لينشر فيها الدين، ويطهرها من الجهالة والفساد الذي يقتلها، ويشغل الروم بحراسة سواحلهم، والدفاع عن بلادهم، فلا تحدثهم نفوسهم بمهاجمة بلاد المسلمين.

وكانت قرطاجنة هيب المرفأ اللائق للأسطول الكبير، ولكن حسان كان قد خربها، واستثقل روحها، واستوبأ مكانها، وتشاءم من موقعها، ثم عارية مكشوفة في البحر ليس لها الجبل والخندق الذي يحصن تونس، فما أسهل ان يهاجمها العدو في غفلة من المسلمين فيدركون غرضهم منها. وأدرك حسان بعبقريته مزايا تونس، وعرف ان بحيرتها تليق مرفأ لأسطوله، والمدينة تليق سكنا لعماله المسلمين الذين سيستوطنونها فبني

دار الصناعة على بحيرتها وشق زقاقا واسعا فيها لمرور السفن الكبرى. وكانت البحيرة منفصلة عن البحر الكبير فوصلها به في رادس بان شق خليجا واسعا إليه، وهو عمل يدل على همة حسان العالية، وإرادته القوية، وعلى ان الإسلام دين التقدم والعمران، والحضارة والمدينة.

وكان البربر والعرب لا يحسنون بناء السفن لأنهم امة برية، ولا تشق الأنهار الكبرى بلادها، وليسوا سكان جزر فيحتاجون إلى السفن فيبرعون في صناعتها، وإنما العالمون بصناعة السفن هم المصريون لمجاورتهم للنيل، فطلب حسان من عبد الملك ابن مروان ان يرسل إليه من يعمر دار الصناعة ويعلم المسلمين في المغرب صناعة السفن، فأمر عامله على مصر عبد العزيز بن مروان انم يبعث إلى حسان ألف قبطي بعائلاتهم ليستقروا في المغرب، ويقوموا ببناء الأسطول الإسلامي فيه، فشاء الله ان يصل بين مصر والمغرب بامتزاج الدماء، فجاءت ألف عائلة مصرية فاستوطنت افريقية. وارى ان لكثر هذه العائلات القبطية قد أسلمت، واستقرت في المغرب، وامتزجت بالعائلة البربرية العربية الكبرى. ان اقرب الناس إلى سكان مصر الأقدمين إنما هم البربر، لان كليهما من حام بن نوح، فجدهما واحد، وتجاورهما قرنا قد جعل كلا منهما يتأثر بالأخر، فازدادوا تقاربا في كثير من النواحي، فلا عجب ان يستطيب المصريون المقام في بلاد الأمازيغ، لأنهم أبناء عمومتهم، ولابد وان يفتنهم المغرب بجماله، وتروقهم تونس بحسنها، وتعجبهم ديموقراطية حسان وعدله وتمسك المغرب بهذه الديمقراطية، وثورته على الظلم والاستبداد فيؤثروا المغرب وطنا وتونس الجميلة سكنا فتتوثق بهم العلاقات بين مصر والمغرب، يؤكد الله بسبب من امتزاج الدماء سبب الدين جعل المغرب ومصر وطنا واحدا للمسلمين.

وكان البربر يقطعون الأخشاب من جبالهم ويجرونها للمصنع، والمصريون يصنعون السفن ويعلمون المسلمين العرب والبربر صناعتها، فبرعوا فيها براعة المصريين فلم يمض زمن طويل حتى انشأ حسان ثمانمائة[1] سفينة، فولد الأسطول الإسلامي في المغرب، وجللت سفنه بحر العرب، فارتعدت فرائص الروم والقوط بهذا الأسطول الذي يحسون به يخوض في أحشائهم لا في البحر، وانقطعت أطماعهم في المغرب،واشتغلوا بحراسة ثغورهم من هجمات المسلمين. فصار المغرب امة بحرية لها أسطول حربي رابط في

1 - محاضرات الشيخ عبد العزيز الثعالبي «الفتح العربي لشمال إفريقي» ألقاها في سنة 1931 في نادي الشبان المسلمين بالقاهرة ونشرتها جريد الضياء المصرية في أعداد 15 فبراير و 23 و27 ومارس 1931.

مرفئها ربض الأسود أمام عرينها لا يقرب منه إنسان ! وأصبح بحر الروم[1] بحر المسلمين يملكون عنانه، ويسيطر دون عليه. وقد اعتنت الدول الإسلامية المتعاقبة على افريقية بأسطول حسان فتعاظم وتقوى، فاستطاع أسد بن الفرات في عهد الأغالبة ان يحتل به صقلية، وينشر فيها الإسلام الذي طهرها وأسعدها، فتحقق ما كان حسان يأمله، وصار هذا الأسطول حمولة النور الذي اخرج جنوب أوروبا من جهالتها وشقائها إلى حضارة الإسلام وسعادته. كما اعتنت تلك الدول، الأغلبية، والصنهاجية، والموحدون، والحفصيون بمصنع حسان فوسعته وزينته فصار من مفاخر المسلمين في المغرب. قال الشيخ التعالبي في محاضراته: «ومكان المصنع ما زال يعرف إلى اليوم بدار الصناعة، وقد عثرت عليه مصلحة الآثار التونسية، فرفعت عنه الأنقاض، فكان على جانب من الضخامة والتنسيق وحسن البناء والزخارف يكل عنه الوصف. ففيه أحواض لبناء السفن وتعويمها تسع اكبر الجواري، وكلها مفروشة بالفسيفساء، ولا يزال هذا البناء موضع إعجاب غواة الآثار والباحثين».

اللغة العربية لسان رسمي

وجد حسان كل الجد في تعليم العربية للبربر لأنها أصل الدين، والرباط الذي يربط المغرب بالمشرق، ويصل بين المسلمين، فجعلها لسان الحكومة الرسمي، فيها ترفع الشكاوى، وتحرر رسائل العمال ويكتب في الدواوين، ويخطب في الجمع والأعياد. فاقبل البربر على اللغة العربية التي هي مفتاح دينهم، ولغة نبيهم، لا يفهمون القرآن وحديث المصطفى إلا بها، والتي هي لغة دولتهم الحبيبة، واللغة الشريفة التي تمتاز على كل اللغات بفصاحتها وبلاغتها، وبموسيقاها العذبة، وأساليبها الجميلة، وتركيبها البديع فانتشرت العربية في البربر، وتآخت المازيغية والعربية في السنة المغرب، وعد البربر العربية لغتهم الأولى ما دامت هي لغة الدين الذي يؤمنون به ويقدسونه.

السكة الإسلامية

وضرب حسان السكة للمغرب دنانير ودراهم وفلوسا. وكان الناس يتعاملون بسكة القوط والبزانطيين، وهي تحمل رسم ملوكهم، وشعارات دولهم، وهي مظهر لمجدهم تقر تعظيمهم في القلوب، ووسيلة للدعاية، تبث ما يشاؤون في نفوس الناس. انه ليس هناك وسيلة للدعاية أكثر انتشارا، وابلغ أثارا كالدراهم التي تحمل شعار الدولة

1 - بحر الروم اسم كان يطلق على بحرنا الأبيض المتوسط فصار بعد ذلك يسمى بحر العرب ونحن نسميه بحر المسلمين لان هذا الاسم أوسع وأفخم.

وما تريد ان تنقشه في نفوس الأمة ! ان ما ينقش في الدراهم ينقش في نفوس الأمة جميعها. لان الدرهم والدينار هم المتاع الذي تحدق فيه كل النفوس في شراهة، وهو الشيء الوحيد الذي يدخل كل يد، ويتصل بكل إنسان، وهو الشيء الذي نحدق فيه دائما لتبين قيمته، فيؤثر بالتكرار في نفوسنا، فتصبح المعاني المنقوشة فيه عقائد راسخة في صدورنا ! عرف هذا حسان بذكائه وعرفه المسلمون فضرب السكة الإسلامية التي توحي إلى النفوس بعظمة المسلمين، وتقر في الصدور عقيدة الإسلام، وتكون مظهرا للدولة الإسلامية وملوكها العظام. وارى ان البربر الذين يكرهون الروم سيما إسلامهم، هم الذين الحوا على حسان ان يضرب السكة الإسلامية، لتختفي سكة الروم أعدائهم الذين ما رأى المغرب منهم إلا مآتمه وأرزاءه والذين قضى البربر على حضارتهم بعد أفولهم من المغرب فتجلببوا بحضارة الإسلام.

قال الشيخ التعالبي في محاضرته القيمة:[1] وأصلح حسان تقاليد الدولة وغير منها الطراز القديم، كما صنع ذلك في المسكوكات. فقد كان الدينار القرطاجني أيام حكم البيزانطيين يطبع على الوجهين فعلى احدهما صورة القيصر وولي عهده أو القيصرة، وبه من الكتابة اسم القيصر وألقابه،وعلى الوجه الثاني صليب في الوسط قائم على ثيث درج،وهو المعروف «بالصليب القرطاجني» ومكتوب على دائرته باللاتينية ضرب هذا بافريقية ثم السنة بحسب عقد ذات عشر سنوات من استيلاء ذلك القيصر.

أما دينار حسان اللاتيني العربي فهو عين الدينار القرطاجني المتقدم وزنا وشكلا وإنما حذف من الصليب العمود الأفقي وعوضه برسم الكرة في أعلى العمود الراسي وحذف الدرج الأسفل من السلم ووضع صورتي عبد الملك بن مروان والوليد ابنه بدلا من قيصر البيزانطيين وولي عهده.

وبعد حين زاد حسان في ديناره في الكتابة اللاتينية بطريقة اختصار الأحرف ما يأتي. الوجه الأول:

In Ndnimisr Cunsds in Nmine Domi Miseri Cordis Unius

وتعريبها: بسم الله الرحم الإله الأحد.

وفي الوجه الثاني:

Unus Deus Nisl Socius Alis Smilis

1 - محاضرات العلامة الكبير الشيخ عبد العزيز التعالبي التي نشرتها جريدة الضياء المصرية في 27 مارس 1931.

وتعريبها: وحده لا شريك ولا مثيل له.

كما كتب على هذا الوجه أيضا:

Fe Riei in Africa In Dietione

وتعريبها: ضرب بافريقية في العشرة الثالثة يساوي 85 هجرية.

هذه ما كتبه حسان في سكته وقد استعمل اللغة اللاتينية في رسم كلمة التوحيد في سكته، لان الدراهم كما قلنا للدعاية أيضا فأراد حسان ان ينشر الدعاية في الروم للإسلام ليسلموا، ويقذى عيون المستعمرين المتغطرسين المتنطعين الذين لا يؤمنون بكلمة التوحيد التي كتبها بما يفهمون.

فصل الكنيسة القرطاجنية

وكان حسان قد قضى على الروم سياسيا وعسكريا وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببزانطة، وهي العلاقات الكنيسية فقطعها خوفا من ان يتدرع بها البيزانطيون فيتصلون بالمغرب فينفخون فيه من السموم ما يشاؤون. فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الاورتوذوكسية في مصر وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما وبيزانطا. قال الشيخ التعالبي في محاضراته الثالثة: ومن أهم إصلاحاته السياسية انه قطع علاقة الكنيسة القرطاجنية من بطركية الفنار وضمها للكنيسة المرقصية حتى لا يبقى منفذ للأجنبي يتطرق منه الشغب إلى بلاده كما ذهل الأتراك العثمانيون عن ذلك أيام حكموا الشرق».

وكانت أعمال حسان لخير المغرب لا تحصى، وفضله على البربر خاصة لا حد له، وقد أصبح المغرب بفضله ولاية إسلامية راقية تضاهي مصر في البناء والتشييد وفيما تريده الدولة من ولايتها من طاعة وتأييد. فساد الهناء والسعادة والرضى والسكون أنحاء المغرب، واقبل البربر بقلوبهم على حسان العظيم وعلى من معه من العرب المسلمين الميامين، فصار الإسلام ينتشر فيهم بسرعة فيتوغل في الجبال، وينتشر في السهول، وذلك بدعاية حسان ودعاية البربر الذين اسلموا. وقد وجد حسان من كفاءة البربر وذكائهم، واستعدادهم للحضارة والمدنية، ونشاطهم في الأعمال ما مكنه من إنشاء كل ما انشأ في المغرب من منشأت. لقد كانوا سواعده المتينة، وجنده المخلصين. وسعد حسان بما رأى من البربر وسعد البربر بحسان، وأعجبوا بعدله وكفاءته في الأمور، ودهائه في السياسة، وأحبوه لتمسكه بالدين، وإخلاصه للدولة، وحرصه على إسعاد

المغرب وإحيائه، كما أحبوا العرب المسلمين، وامتزجوا بهم وصاهروهم، وعلموا إنهم هم إخواتهم الأوفياء، أطلعهم المشرق الذي يلد لهم الشمس، فجاءوا مجيئا لليقظة والحياة وللنمو والازدهار! وابتدأ المغرب يتطور ويمتزج البربر فيه بالعرب ليكونوا امة واحدة، يربط بينها الدين، وتصل بينهم الرحم التي تكونت بتزوج العرب من البربر.

مساعي أعداء حسان لعزله

وكان عبد الملك بن مروان قد امتلأ طربا وسرورا لما أتم الله فتح المغرب على يده، وكان يتتبع أعمال حسان فيه، فأعجب بسياسته، وقرت عينه بامتلاك قلوب البربر لدولته. وكان يعتد بحسان كل الاعتداد، ويراه أحسن من يليق للمغرب، فلذلك لم يعزله لما هزمته الكاهنة، بل فهم سبب هزيمته فعذره، فأمده بالجند والعتاد وأرجعه إلى المغرب؛ ولكن بعض أبناء عبد الملك سيما الوليد، وبعض إخوته سيما عبد الله، وعامله على مصر عبد العزيز بن مروان لم ترقهم سياسة حسان في المغرب، سيما تسوية البربر بالعرب، وإنفاقه اغلب موارد المغرب في تعميره وبنائه، وأنهم يريدون ان يكون المغرب ثديا يرضعونه، ويملؤون خزائنهم بكنوزه، وروضا يقطفون أزهاره، ويملؤون أيديهم من جمال الله المبثوث فيه؛ صبايا المغرب وحسانه، تلك الأقمار التي تهفوا قلوبهم إليها، والتي لم يروا لها نظيرا في كل ما فتحوا من البلدان. لقد تمكن حسان من ناصية المغرب، ودخل بلاد البربر فائزا منتصرا فلماذا كف عنهم، فلم يبالغ في سبي بنات البربر فيبعث إليهم بأسراب كبيرة من الحسان تشبع نهمهم، وتمل بالجمال الفتان دورهم،وتكون في حياتهم العطر الشذى للزهرة، والزهور الجميلة للشجرة. ان الحياة بدون امرأة جميلة تحوز إعجابك صحراء وان غصت بالكنوز. والذي ينير القلوب فتستنير دنياك، إنما هو نور يولد ميلاد الشمس في شفق لا يتفتح إلا في الخدود ! لمادا لم يبالغ حسان في تجريد المغرب من كنوزه وطرفه فيرسلها إليهم كما يفعل كثير من عمالهم الذين يتزلفون إليهم بالهدايا. ان حسان جبل أشم لا يستطيعون اعتصاره فيجب ان يكون في المغرب من يحتلبه كما يريدون. وكان عبد العزيز بن مروان وأخوه عبد الله أكثر القوم تحسر ا لما يفوتهم من كنوز المغرب وجماله. ان عبد العزيز والى مصر، وهو على قرب من المغرب، تغشى عينيه كنزوه فلا تستطيعها يداه، ويفغم انفه عطر زهوره فلا يملك ان تكون طاقة في داره.

وكان موسى بن نصير من صنائع عبد العزيز،وكان عنده في مصر،وكان يعتد به ويراه أحسن من يليق للولاية على المغرب ليجلب لهم منه كل ما يريدون. فخاطب أخاه عبد الملك يسأله إرساله إلى المغرب وبفضله على حسان. ولكن عبد الملك كان أحسن من

بنيه واخواته للمغرب. انه لا ينظر إليه بأهوائه وأطماعه، ولا يرتكب فيه ما يثير البربر عليه. فتمسك بحسان ورآه هو الأصلح. وقد جرت مراسلة بين عبد العزيز بن مروان وأخيه عبد الملك أوردها صاحب جهرة رسائل العرب[1] في الجزء الثاني قال: كتب عبد العزيز بن مروان إلى أخيه عبد الملك: أما بعد فاني كنت وأنت يا أمير المؤمنين في موسى وحسان كالمتراهنين أرسلا فرسيهما إلى غايتهما فأتيا معا وقد مدت الغاية لأحدهما ولك عنده مزيد ان شاء الله. وقد جاءني يا أمير المؤمنين كتاب من موسى وقد وجهته إليك لتقرأه وتحمد الله عليه والسلام. فأجابه: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك، وفهم المثل الذي مثلته في حسان وموسى،ويقول لك: عند احدهما مزيد، وكل قد عرف الله على يده خيرا ونصرا،وقد أجريت وحدك،وكل مجر بالخلاء مسرور والسلام.

ان جواب عبد الملك يدل على دهاء كبير. انه لم يفسد قلب موسى بن نصير بتفضيل حسان السافر عليه، ولم يسلم لعبد العزيز بان موسى خير من حسان فقال: وعند احدهما مزيد. يريد حسان. وقال: لقد أجريت وحدك. يريد انك لم تجرب حسان وموسى في عمل واحد فترى أيهما أكثر كفاءة، بل أرسلت موسى في بعض مهماتك فنجح فيها فصرت تفضله على حسان.

عزل حسان

وقد اتخذ عبد العزيز بن مروان كل وسيلة، وسلك كل طريق هو وأخوه عبد الله وبعض أبناء عبد الملك ليؤثروا في عبد الملك فبعزل حسان فأعارهم أذنا صماء، وتمسك بقائده العظيم. آثره على موسى بن نصير. فتوفي عبد العزيز بن مروان في سنة خمس وثمانين وحسان في ولايته لم يعزل، وقد خلط كثير من المؤرخين فقالوا ان عبد العزيز قد عزله مع ان عبد العزيز قد مات قبل عبد الملك بسنة. وما كان ليعزله وعبد الملك حي، وهو كما علمنا في التمسك بحسان. فولى على مصر بعد عبد العزيز أخوه عبد الله. وكان على رأيه في موسى، وبمثل نظرته إلى المغرب، ولكن عبد الملك يحمي حسان العظيم فلا يستطيعون عزله،وهو الملك القوي الذي لا يتفتي عليه إنسان، فلا يستطيعون تأخير من يقدم، ونقض ما يبرم. فتوفي عبد الملك في سنة ست وثمانين، فخلفه على العرش ابنه الوليد. وكان على رأي عمه عبد العزيز. ان ريقه يتحلب على طرف المغرب، وقلبه يخفق هياما بجماله وأزهاره، فعزل حسان وولى على المغرب موسى بن نصير فرحل حسان

1 - جمهرة رسائل العرب في لربعة أجزاء. أعظم كتاب في النثر الفني العربي سيما الثالث والرابع منه. وهو رسائل الجاحظ وابن العميد والصابي وغيرها سبب الفصاحة في اللسان،والبلاغة في القلم لا غيرها من الأدب الحديث الصحفي.

إلى المشرق، واستخلف على القيروان مولاه واحد قواد جيشه أبا صالح، فارتاع المغرب لعزل واليه المحبوب، وجزعوا لرحيله، ورأوا عزله نذيرا بتبدل سياسة الأمويين في المغرب، وتشاءموا من تولية موسى بن نصير.

غضب البربر لعزل حسان

وكان البربر دهاء أذكياء، وكانوا حريصين على وطنهم، يرقبون أموره، ويلاحظون في كل دقة ما يحوك عبد العزيز وشيعته من دسائس لحسان، وما ينوونه من تطبيق سياسة الامتصاص والمحاباة في المغرب، فغضب كثير من رؤساء البربر فانفصلوا عن القيروان، واستقلوا عن الدولة، ورجعوا إلى ما يؤثره البربر من الاستقلال واللامركزية في الحكم. لقد انفصلت كثير من النواحي، منها جبال زغوان في شمال القيروان،ونواحي أخرى في المغرب الأوسط والأقصى.

جشع عامل مصر

وكان حسان قد غنم في حروبه ووفر من دخل ولايته أموالا كثيرة، وجوهر نفيسة، مما يدل على غنى المغرب وازدهاره بعدل حسان، فلم يكد يعزل حتى أرسل عبد الملك بن مروان عامل مصر أربعين رجلا[1] من اشرف أصحابه ليتسلموا هذه الأموال، ويراقبوا حسان فيها، عله يفرق بعضها في البربر، أو يستبقي جزءا منها في المغرب، فلا يفرغ لهم كل الخزائن في الجواليق. وارى ان هذه قد يكون بإشارة من الوليد. فعلم حسان ان عبد الله لابد ان يتعرض له إذا وصل مصر فيأخذ من نفائسه، ويستأثر بكنوزه، وهي لبيت مال المسلمين، لابد ان تصل الشام. فعمد إلى الجواهر النفيسة، والى الدنانير فجعلها في قرب الماء واظهر ما سوى ذلك، فرحل حسان رحيل الربيع الذي يعقبه الشتاء، فتأسف البربر وتحسروا،وانفصلت كثير من نواحي المغرب وانكمشت انكماش الحزين الذي يهرب من الجماعة فيقبع في ركن، وهو باك منتحب، ويندب حظه، ويتحسر على ما سلبته الأيام.

قال مقديش:»وكان مع حسان -لما رحل عن المغرب- ثمانون ألف دينار جعلها في قرب الماء» هذا غير الجواهر النفيسة، واللآلي الثمينة. قال السلاوي: وارتحل حسان إلى المشرق بما جمعه ذريع المال، ورائع السبي، ونفيس الذخيرة. فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله بن مروان مائتي جارية منة بنات ملوك الفرنج والبربر، فلم يقنعه فانتزع كثيرا مما بيده، ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكا إليه ما صنع به

1 - نهاية الأرب للنويري جزء 22 المأخوذ بالفتوغرافية في دار الكتب المصرية.

عمه عبد الله فغاظه ذلك وأنكره. ثم أهدى إليه حسان من غريب النفائس التي أخفاها عند الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه، ووعده برده إلى عمله، فخلاف حسان ان لا يلي لبنى أمية أبدا».[1]

غنى المغرب

ان حسان قد انشأ في المغرب منشآت كبرى استنفدت أموالا لا تحصى. ومع ذلك وجدت في خزائنه ثمانون ألف دينار غير الجواهر، ورحل بها إلى المشرق، ودفعها لخزائن الدولة ! ان هذا دليل على غنى البربر وازدهار المغرب في عهد حسان . وعلامة على عدل حسان. فان البلاد تمرع بالعدل، وتزدهر بالديمقراطية، وتعمر وتغتني بساسة الإسلام.

لقد حلف حسان ان لا يلي لبني أمية أبدا لأنه موقن انه بعد ذهاب عبد الملك الذي يحكم دهاءه وعلمه وحسن تدبيره في الأمور، وسوف لن يأتي بعده -حاشا ابنه سليمان وعمر بن عبد العزيز- إلا ملوك يسيطر عليهم الهوى في السياسة، والأنانية في حكم الشعوب.

قال ابن عبد الحكم :»ويقال: ان عبد العزيز (والصحيح عبد الله) اخذ كل ما كان مع حسان من السبي. وكان قد قدم ومعه من وصائف البربر شيء لم ير مثله جمالا. فكان نصيب الشاعر يقول: حضرت السبي الذي كان عبد العزيز اخذ من حسان، مائتي جارية منها ما يقوم بألف دينار !».

لقد خلط كثير من المؤرخين بين عبد الله بن مروان وعبد العزيز أخيه. فجعلوا عبد العزيز هو الذي عزل حسان وسلبه ما معه. والصحيح ان عبد العزيز توفي قبل عزل حسان بسنتين. لقد مات في سنة 85 وعزل حسان في سنة 87، وان والي كمصر كان حينئذ هو عبد الله بن مروان.وعزله وقع في ولاية الوليد لا في عهد عبد الملك.

وكانت مدة ولاية حسان على المغرب أربع عشرة سنة، وترعرع فيها المغرب، وقارب شبابه، وسطع الجمال والقوة في محياه. ولي في سنة 74 وعزل في سنة 87. وقد غبر من هذه المدة ست سنوات وهو وال على المغرب كله بعد ان تم فتحه وأسلس عنانه. والسنوات ألثمان الأخرى أمضاها وهو في السلاح يقرع أبواب المغرب لتنفتح، أو في الانتظار يرقب ورود القوة عليه ليواصل الفتوح.

حسا بن النعمان ! هو حسن ونعمة ! لو دام للمغرب لكان له شأن وأي شأن، شأن

1 - الاستقصاء ج 1 ص 84 ط المغرب.

الصقر الذي بقيت له أجنحة فواصل طيرانه إلى القمم العالية، وشأن الجسم الذي له شبابه فحقق كل ما يريد في الحياة ! انه اكبر المحسنين إلينا فلزام على المغرب إذا انتشى وحمد الله على نعمة الإسلام والعربية التي تحقق لنا سعادة الدارين، ان نذر حسان العظيم الذي أتم فتح المغرب، واخذ بيده في رفق وبراعة إلى دين الله فحسن إسلامه ثم يأتي موسى بن نصير فكيف يجد المغرب، وماذا سيكون حظ البربر منه. أترى الحظ يسعفه فيكون كحسان العظيم، والشيخ الأمين !؟

ولاية موسى بن نصير 87

نسب موسى

هو موسى بن نصير بن عبد الرحمان من لخمن بالولاء، وقيل هو من بكر بن وائل وكان أبوه نصير رئيس شرطة معاوية بن أبي سفيان، ومنزلته عنده كبيرة. روى ابن مقديش وغيره ان نصيرا لم يخرج مع معاوية لقتال الأمام علي رضي الله عنه فقال له معاوية : ما منعك من الخروج معي ولى عندك يد لم تكافئني عليها ! فقال له: لا أشكرك بكفر من هو أولى بشكري منك: فقال ومن هو؟ قال الله عز وجل فاطرق معاوية مليا ثم قال : استغفر الله ورضي عنه.[1]

شخصيته

وكان موسى من التابعين، وروي عن تميم الدارى وكان عاقلا، كريما، شجاعا، داهية في الحروب، لم يهزم له جيش قط.

مكانته في الدولة

وكان موسى ذا مكانة عند عبد الملك بن مروان في أول أمره، يعجب بذكائه وحزمه، وكفاءته في الأمور. وقد ورد في جمهرة رسائل العرب ان عبد الملك بن مروان لما أراد ان يولي أخاه بشر بن مروان على العراق كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو بمصر، وبشر معه يقود الجنود، وكان يومئذ حديث السن: إني قد وليت أخاكم بشرا البصرة. فاشخص معه موسى بن نصير وزيرا ومشيرا وقد بعث إليك بديوان العراق فادفعه إلى موسى، واعلمه انه المأخوذ بكل خلل وتقصير. فشخص بشر من مصر إلى العراق ومعه موسى بن نصير حتى نزل البصرة فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتمه وتخلى عن جميع العمل !

وكان موسى بن نصير من القواد الكبار، يمتاز بالجرأة والشجاعة والدهاء. وكان ماهرا في الإدارة، محنكا في شؤون الدولة. روى ابن عذارى ان موسى كان على خراج البصرة، قدمه عليه عبد الملك بن مروان، فاحتجن الأموال لنفسه على ما ذكروا فأوصى الحجاج لا يفوته، فخافه موسى، فقصد إلى عبد العزيز بن مروان صاحب مصر لانقطاع كان منه إليه، فتوجه عبد العزيز مع موسى إلى الشام فوفدوا على عبد الملك فاغرمه عبد الملك مائة ألف دينار، فغرم عنه عبد العزيز نصفها، وعاد مع عبد العزيز إلى مصر» فظل موسى من صنائع عبد العزيز، يستعين به في الأمور، ويستخدمه في المهمات. وقد

1 نزهة الأنظار ص 79 ط تونس.

رشحه للولاية على المغرب، ووجده أحسن رجل يليق للسياسة التي يراها هوة وأخوه عبد الله وابن أخيه الولي

د للمغرب، فداخل أخاه عبد الملك ليعزل حسان ويولي موسى، ولكن عبد الملك كان يعجب بحسان وبأمانته وحسن سياسته فتمسك به ولم يصغ لأخيه. فتوفي عبد العزيز في سنة خمس وثمانين، وولى مكانه أخوه عبد الله. وكان حريصا مثل أخيه على عزل حسان وتولية موسى على المغرب. وكان الوليد بن عبد الملك كذلك.

أعماله في المغرب

ولما توفي عبد الملك بن مروان في سنة ست وثمانين، وولى الوليد ابنه. عزل حسان في سنة سبع وثمانين وولى موسى بن نصير على المغرب.

وكان البربر قد غضبوا لعزل حسان. وكانوا يحبونه ويعظمونه، لحسن سياسته وأثاره الجميلة في المغرب، وتشاءموا من موسى وسياسته، والوليد ونظرته إليهم. فما كاد حسان يغادر القيروان حتى استقلت نواحي كثيرة في المغرب، وانفصلت عن الدولة، لان البربر كما أسلفنا يهوون اللامركزية في الحكم، سيما إذا كان من سيحكمهم لا يتصف بالعدل، ولا يعاملهم بالحسنى، ولا يسوسهم سياسة تشعر بالاحترام والتقدير.

قال ابن خلدون: وقدم موسى بن نصير القيروان، بها صالح خليفة حسان فعزله ورأى ان البربر قد طمعت في البلاد، فوجه البعوث في النواحي، وبعث ابنه عبد الله في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم وسبى وعاد، ثم بعثه إلى ناحية أخرى، وبعث ابنه مروان كذلك، وتوجه هو إلى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبي».

قال أبو شبيب الصدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير.

ونقل الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القروي المعروف بابن الرقيق: ان موسى نصير لما فتح «سقوما» كتب إلى الوليد بن عبد الملك: انه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الوليد ويحك، إني أظنها من بعض كذباتك،فان كنت صادقا فهذا محشر الأمة.[1]

وروى ان عذارى[2] ان أول فتوح موسى كانت إلى زغوان ونواحيها، وبينها وبين القيروان

1 - الاستقصاء للسلاوي ج 1 ص 85 ط المغرب.

2 - البيان المغرب ج 1.

مسيرة يوم كامل، وفيها قبائل بربرية، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس ففتحها، فبلغ سبيهم عشرة آلاف، وهو أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى ثم وجه ابنه عبد الله إلى بعض نواحي افريقية فأتى بمائة ألف رأس من السبي، ثم وجه ابنه مروان فأتى بمثلها، فكان الخمس يومئذ ستين ألفا فكتب موسى إلى عبد العزيز «صحيح عبد الله» بعلمه بالفتح، ويعلمه ان الخمس بلغ ثلاثين ألفا، وكان ذلك وهما من الكاتب، فلما قرأ عبد العزيز الكتاب، وان الخمس من السبي ثلاثون ألفا استكثر ذلك، ورأى انه وهم من الكاتب، فلما قرأ عبد العزيز الكتاب، ان الخمس من السبي ثلاثون ألفا استكثر ذلك، ورأى انه وهم من الكاتب لكثرته، فكتب آلة موسى يقول له: انه قد بلغني كتابك تذكر ان خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس فاستكثر ذلك، وظننته وهما من الكاتب، فاكتب بالحقيقة. فكتب إليه موسى: قد كان ذلك وهما من الكاتب على ما ظنه الأمير، والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتا بلا وهم فلما بلغه الكتاب امتلأ سرورا !!» وقد روى ابن الأثير والنويري وغيرهما مثل ما روى بان عذاري.

قال ابن خلدون، ثم ان موسى غزا طانجة وافتتح درعة، وصحراء تافيلالت، وأرسل ابنه السوس، وأذعن البربر لسلطانه ودولته، واخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطانجة، وذلك سنة ثمان وثمانين، وولى عليها طارق بن زياد.[1]

أما النويري فقال: ثم استعمل على طانجة وبلادها مولاه طارق بن زياد وتركه بها تسعة عشر ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب ليعلموا البربر القرآن فرائض الإسلام، ويرجع إلى افريقية، فمر بقلعة «مجانة» فتحصن أهلها فترك عليها من يحاصرها مع بشر بن فلان ففتحها فسميت قلعة بشر، ولم يبق بافريقية من ينازعه من البربر ولا من الروم».[2]

ولما وصل موسى في المغرب الأقصى إلى «سقومة» وهي قلعة «أوربة» في شمال فاس، وأوربة هم قوم الأمير كسيلة الذي ثار على سيدنا عقبة رضي الله عنه فقتله وقف عليها فأطلق أيدي أبناء عقبة فانتقموا منهم، وسبوا منهم الكثير. قال ابن فقتيبة:»فتح موسى بن نصير سقومة» وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة عياضا وعثمان وأبا عبيدة ان يأخذوا حقهم من قاتلي أبيهم، فقتلوا من أهل سقومة ستمائة رجل من كبارهم، ثم قال لهم: كفوا فكفوا[3] ثم فتح موسى هوارة وزناتة وكتامة، وأغار عليهم

1 - العبر لابن خلدون ج 4.

2 - نهاية الارب ج 22 من نسخة دار الكتب المصورة.

3 - البيان المغرب ج 1.

وقتلهم وسباهم فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس. وكان عليهم رجل يقال له كامون فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان «الصحيح عبد الله» فقتله. ثم قال وكانت كتامة قد قدمت على موسى فولى عليهم رجلا منهم، واخذ منهم رهائن من خيارهم» أرى ان زناتة وهوارة وكتامة التي سبي منها موسى هي قبائل المغرب الأقصى لان هذه القبائل موجودة هناك. أما كتامة التي وفدت عليه كتامة المغرب الأدنى، قسنطينة ونواحيها.

وكان موسى بن نصير يأخذ الرهائن من القبائل الكبرى التي غزا، وسبي منها وملأ أيديه من أموال كالمصامدة وغيرهم، حتى لا يثوروا عليه، لأنه قرأ في عيون البربر الحنق عليه، وعدم الرضى بسيرته، وعلم إنهم ما كانوا ليسكنوا له مختارين بعد ان وطنهم برجله، وارتكب في ذراريهم وأموالهم ما لم يرتكبه الفاتحون المسلمون قبله.

اعتناء موسى بإسلام البربر

وكان موسى يترك في النواحي التي لم يتم إسلامها سيما في المغرب الأقصى، من يعلمها فرائض الإسلام، ويحفظهم القران، ويصبغهم بالدين، فاسلم كثير من البربر في عهده، وحسن إسلام كثير من النواحي، فأتم بهذه المساعي الحميدة ما بدأه الفاتحون الأولون.

وكان موسى بن نصير داهية في تولية ملاه طارق بن زياد النفزاوي البربري على المغرب الأقصى،وفي جعل رهائن البربر معه، والجيش الذي اخذ سيدنا حسان من آوراس وكان قد حسن إسلامهم، ولكنه مع ذلك أبعدهم عن آوراس، وجعلهم في طانجة مع طارق لان البربر لاعتدادهم بأنفسهم، وحبهم للاحترام، يسرهم ان يكون الجيش الذي يقام لحراسة ناحيتهم منهم، وان يثق بهم موسى ويسد بجيشهم الثغور. كما يسرهم إقامة طارق واليا عليهم،وهو من بني جلدتهم، يكن لهم الحب والاحترام، ويسوسهم بما يوافق مزاجهم، ويضمن لهم الهناء والاطمئنان.

خوف موسى في المغرب

وكان موسى على أهبة الاستعداد للحرب دائما لان في عيون البربر حمرة من نار قلوبهم المشتعلة حنقا عليه، ولولا غزو الأندلس الذي شغل به موسى الجند البربري والمتطوعين البربر، ووجه به عداءهم للقوط، لثار عليه البربر كما ثاروا على عقبة، لأنه عاملهم معاملة خشنة، ونظر إليهم بنظرة المالك إلي قطيعه، يختار منه ما يشاء،

ويأكل منه ما يريد،وهو ما يأباه طبعهم الأبي كل الآباء، وعزة الإسلام التي تملأ نفوس الجمهور الكبير منهم. ان حظ موسى كان حسنا ان وقعت غزوة الأندلس صدفة، ودهاءه كان كبيرا ان قصدها، ووجه بها عداء البربر إلى القوط، فلم ينفجروا عليه انفجار الديناميت فيسحقونه.

ان موسى كان قائدا ماهرا في الحروب، ورجلا صنديدا في القراع، إداريا محنكا في شؤون الدولة، وقد استطاع ان يسترجع النواحي التي استقلت عن دولة وان يخضع البربر لسلطانه. ان إسلام اغلب بلاد البربر جعلها متصلة بالدولة بصلة الدين، فلذلك لم يجد موسى كل المغرب متنمرا عليه، كما وجده من قبله. فلو وجده كذلك لأعياه إخضاعه، وأعجزه استرجاعه، إلا ان يتدرع بقوة ضخمة كقوة حسان ويتصف بحنكته أيضا ولينه.

أننا إذا نظرنا إلى موسى كقائد حربي نعجب بكفاءته، ونشهد له بالبطولة، ولكن إذا نظرنا إليه من زاوية الدين الذي رسم سياسة الشعوب للأمراء، ومن ناحية السياسة التي توجب امتلاك قلوب الرعية على الملوك والزعماء، ننتقد موسى ونخطئه، لان سيرته في البربر هي التي بذرت بذور الثورة التي ستنفجر بعد هذا الزمان بخمس وثلاثين سنة؛ تلك الثورة التي انفصل بها المغرب الأقصى والأوسط عن الدولة الأموية والعباسية ثم لم يعد إلى حظيرتهما. ولولا حكمة سليمان بن عبد الملك وسيدنا عمر بن عبد العزيز وإحسانهما إلى المغرب، وطبهما لجروح موسى، واسترضائهما للمغرب بحسن السياسة وعدل الإسلام، لكانت ثورة المغرب وقعت في آخر القرن الأول، ولكانت براكين البربر قد انفجرت قبل أيام هشام[1] بزمن بعيد.

لقد آثرنا ان نعتمد على النصوص في ذكر أعمال موسى في المغرب، ولم اكتبها بأسلوبي ليعلم القارئ ان ما ينسب إلى موسى هو ما ذكره كل المؤرخين القدماء المشارقة منهم والمغاربة في كتبهم، وتواترت روايته، واتفقوا عليه. لقد سكن البربر لموسى، ولكن على حنق عليه، وتذمر من سياسة. ان معاملته للبربر هي التي غرست البذور الأولى للثورة العارمة التي ستفصل المغرب عن الأمويين والعباسيين. غفر الله لموسى. هلا وقد نافس حسان سلك مثل طريقته، والتزم سياسته، وأحسن مثل إحسانه. لقد ملك حسان العظيم للأمويين ولمليكه شيئا اجل من البربريات الحسان، ومن كنوز البلدان، واكبر عائدة، وأعظم جدوى من الدر والمرجان، وهو قلوب البربر التي جعلها لأمة المصطفى، وملكها لعبد الملك بن مروان. كان حسان يعمل للدين لا للدنيا فوصلهما

1 - هشام بن عبد الملك ثار البربر في عهده لظلم ولاته وعدم عدله.

جميعا. أما موسى الذي لم يتبع طريقة حسان فيكون ما استرضى به الأمويين هو ما يغضبهم عليه. ولكن لماذا يستكثر موسى من سبي البربر، ويبالغ في الغنائم من المغرب الذي انتشر فيه الإسلام، فيرتكب ما لم يأته الفاتحون الأولون الذين حاربوا المغرب قبل ان ينتشر فيه الدين الحنيف. ما هي العوامل النفسية والخارجية، وما هي مزايا الرجل البربري فاستكثر موسى منهم، وما هي خصائص المرأة البربرية حتى رغب فيها الملوك والزعماء، ورأوها الكنز الثمين الذي لا يملأ بالجواهر الرخيصة جيوبهم، ولكن بالسعادة وهناءة الحياة قلوبهم؟ !

الأسباب النفسية لأغلاط موسى بن نصير في المغرب

ما يؤخذ على موسى بن نصير في ولايته بالمغرب وينتقد عليه كل الانتقاد، وقد أنكره العقلاء في زمانه، وأباه أهل الدين والمروءة في عصره، ولامه عليه كل من له خبرة في السياسة، وعلم بمزاج المغرب وما يليق به، حرصه على السبي، ومبالغته فيه مبالغة لم تصدر من الفاتحين الذين سبقوه إلى المغرب، حتى بلغ السبي الذي أخذه من المغرب عددا مهولا لا يخطر ببال، ولا يمر بخاطر، ولا يرضاه إنسان عرف مقاصد الإسلام في فتح البلدان، ومراد الشريعة في الزحف على الشعوب !

ان حرص موسى على ان يبلغ ارفع الدرجات عند الوليد الملك الأموي، ويسطع نجمه في بلاطه، ويرضى عنه فيبقيه في ولايته، وهو الذي جعله يرتكب ما ارتكب ويحشر كل ذلك العدد المهول من البربر ليتحف به الولي وحاشيته الذين ينتظرون من موسى ان يشبع كل أطماعهم ورغبتهم في سبي المغرب وكنوزه.

والسبب الثاني هو عدم معرفته لحقيقة البربر. لقد ولى موسى على خراج البصرة في زمن ولاية الحجاج على العراق. وكان الحجاج في الظلم والاستهتار وعدم المبالاة بدماء المسلمين وأموالهم كما نعرف. فتعلم منه موسى تلك المعاملة للرعية، وعدم المبالاة بالشعب. فجاء إلى المغرب بهذه الطبيعة، فلم يحفل بالبربر، ولم يعرف لهم مقامهم، ونظر إليهم نظرة صاحب المزرعة إلى مزرعته، يأخذ منها ما يشاء، ويقطع مقامهم، منها ما يريد، ظنا منه ان البربر كالأعاجم الذين كان يطؤهم برجله، ويأخذ من مالهم ما يشتهي، ويعاملهم بما يريد، ثم لا يثورون ولا ينتقمون، والفرق بينهم كما بينا شاسع، والبون بعيد وسيرتكب الأغلاط التي وقع فيها موسى عامل آخر سيولى بعده بزمن، هو يزيد بن أبى مسلم، كاتب الحجاج وصاحب شرطته، والذي أراد ان يسير في البربر سيرة الحجاج في أهل العراق، فكان جزاؤه ان ألجمه البربر بالسيف وأطعموه للأرض حاول ان يعفر فيها جباههم الشامخة، ويستذل فيها نفوسهم الأبية.

والسبب الثالث هو ما يعرف موسى من حرص الوليد وكثير من حاشيته وأسرته على سبي المغرب، وحبهم لطرفه، فستكثر منها، بالغ فيها.

ان الوليد لم يكن كوالده عبد الملك في نظرته إلى المغرب وفي ساسته له. لقد كان عبد الملك ينظر آلة المغرب نظرة الحازم القوي الذي يسيطر على هواه، ويملك نفسه فصرف الأمور في المغرب على نحو ضمن سعادته وسكونه، وإقباله على دولته. أما الوليد فقد نشأ في ظلال الملك، لم تلوحه الهواجر التي أنضجت أباه، والمحن التي طبخت والده فأورثته قوته وحنكته. ان جسم المرء يتخلق في حرارة الأرحام، ولكن قله وخلقه لا يتكون إلا بحرارة الأيام، وإذا أراد الله لامرئ عظمة ونبوغا سلط عليه أياما كالمسن الذي يأكل من السيف فيورثه حدثه، وابتلاه بأيام عصيبة تطبق عليه إطباق القالب على الذهب فتورثه شكله الجميل !

إن الوليد نشأ في ظلال الملك، وفي رفاهية القصور، لذلك لم يبلغ شاو أبيه في الحنكة والدهاء، وفي السيطرة على النفس، وإيثار مصلحة الدولة العليا، فعرف موسى فيه الرغبة في صبايا المغرب وطرفه، وعدم العتاب إذا ارتكب في ذلك ما يجرح قلوب البربر ويبعدهم عم دولته، فاستكثر من السبي ليرضي مليكه، فجرح أكباد المغرب بما اقتطع من أفلاذها، وأورث الحزن لكثير من أنحاء المغرب بما اخذ من أبنائها وبناتها، فشان صفحته، وأزرى ببطولته، ولم يترك في المغرب أثرا حسنا كابي المهاجر وحسان.

إذا صح أن خمس بيت المال من سبي المغرب هو ستون ألف رأس، فان ما سماه موسى من أبناء المغرب وبناته هو ثلاثمائة ألف رأس. إن هذا عدد مهول مفزع لا نجد مثله لكل الفاتحين. لذلك قال أبو شبيب الصدق:» لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير !!» إن عامل مصر نفسه عبد الله بن مروان الذي يرغب موسى في استرضائه، ويعرف حرصه على سبي المغرب وطرفه، قد هاله لما قرأ في رسالة موسى أن خمس السبي ثلاثون ألفا، استكثارا له وهو بعض الحقيقة، واستبعادا له وهو بعض الواقع، فكتب إليه يستثبته الخبر، ويسأله أن يخبره بالعدد الصحيح. وقد أنكر الوليد بن عبد الملك نفسه استكثار موسى من السبي. روى السلاوي في الاستقصاء نقلا عن ابن الرقيق. إن موسى بن نصير لما فتح «سقوما» كتب إلى الوليد بن عبد الملك. انه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الولي: ويحك أني أظنها من بعض كذباتك، فان كنت صادقا فهذا محشر الأمة !

كان سبي موسى ثلاثمائة ألف رأس !! إن هذا شيء مهول لا نجد مثله لفاتح يقصد بلادا انتشر فيها الإسلام كالمغرب ! إن عبد الله بن سعد، والفاتحين الأولين سيما عقبة

وحسان اللذين غزيا كل المغرب، ووقعت اغلب أنحائه في قبضتهما، وكانت أكثر جهاته على الكفر لا على الإسلام، لم يبلغ سبيهم هذا العدد ، ولم يخطر ببالهم أن يرتكبوا في المغرب بعض ما أتاه موسى !

إن اغلب البلاد التي غزاها موسى قد انتشر فيه الدين، وإذا كان بعضها قد انقطع عن القيروان، واستقل عنة الدولة، وثار على بني مروان، فالدين يجيز لموسى أن يحاربهم ليرجعهم إلى الجماعة، بدون أن يتعرض لشيء من أموالهم وذراريهم. هذه هي شريعة الله في الحروب التي تقع بين المسلمين. وقد لا يكون موسى معتدا بإسلام كثير من الجهات، ويراه إيمانا سطحيا لم ترسخ عروقه، فان السياسة والحنكة تمنعه مما أتى، لأنه قد نفر البربر، وكان يجب أن يجتذبهم إلى دين الله، وخسر قلوبهم والفرض عليه أن يملكها للدولة الإسلامية.

لقد كان موسى في إكثاره من السبي بعيدا كل البعد عن الحكم التي شرع الله السبي من اجلها. إن من الحكم السبي إنقاذ السبي من دار الكفر ليعيش في بيئة إسلامية نظيفة يتأثر بها، ويستنير قلبه بدين الله فيها، فيتطهر من كفره وارجاسه، فيكون جسمه فقط هو المستعبد، أما روحه فتتحرر من ربقة الشرك والوثنية، وتكون دنياه فقط على بعض القص، أما آخرته فعلى التمام والكمال.

إن المبالغة في السبي، واخذ كل فتاة وفتى يجدهم المسلمون، يسوغ في البلاد التي يغير عليها المسلمون غارة خاطفة ثم يخرجون، كما كانوا يفعلون في بلاد الروم، وفي صقلية وغيرها. أما البلاد التي استقروا فيها كالمغرب فالواجب أن يبثوا فيها الدين ليسلم الآباء، فتتكون منهم أحسن بيئة للأبناء، وان يحسن الفاتح إلى أهل البلاد ليفتح قلوبهم لما يريد، ويثني بأعنتهم إلى حيث يشاء، لا أن يجردهم من اعز شيء لديهم؛ ويرزئهم في أنفس شيء عندهم، وهو أبناؤهم وبناتهم،وهم مقلبون عليه لانتشار الدين فيهم لا مدبرون، وقلوبهم تكسوها الصداقة للمسلمين. إن تلك المعاملة الخشنة، وذلك الإزراء، والتجريد، يجعل قلوبهم تستغلق له، ونفوسهم تنفر منه والعداوة والبغض هو ما يتخلق له النفوس.

إن الإحسان واللطف يجب على الساسة حتى في البلاد الكافرة المكشرة. أما البلاد التي خالط الإسلام قلوبها، وانتشر دين الله فيها كالمغرب ففرض وأكثر وجوبا. إن معاملتها بما فعل موسى لا يجوز عند ذوي الألباب، وفي العقول التي عرفت سماحة الإسلام وعدله، وسياسة النبي صلى الله عليه وسلم ولطفه مع الناس، وإحسانه إلى البلاد التي يغزوها بكل ما يفتح قلوبها للدين، ويجعلها بالحب والولاء للمسلمين.

إن موسى قد حكم هواه فيما أتى، وساير الوليد وشيعته فيما ارتكب،وأحب أن ينال رضي الملك لا رضى الضمير، وان يبلغ ارفع الدرجات عند الوليد، بإهداء ما يسره ويسر حاشيته لا أن يبلغ أعلى الدرجات في المغرب بسياسيته سياسة عادلة تسعده وترقيه، وتزيده ارتباطا بالمشرق وإقبالا عليه. ولكن ما هي الأسباب التي جعلت الوليد وحاشيته وأهل المشرق يشرهون إلى سبي المغرب ويتنافسون عليه حتى بلغت الجارية من سبي المغرب ألف دينار، في وقت كانت فيه البلاد الإسلامية تغص بالسبايا الروميات والفارسيات، وكطل رائعة الحسن بارعة الجمال، وبالمسبيين من الفرس والروم، وفيهم ذوو الجلد والقوة، والنشاط والفراهة، فما خصائص البربر في رجالهم ونسائهم، فحشر موسى منهم إلى المشرق كل ذلك العدد الوفير، ورغب المشرق فيهم تلك الرغبة القوية؟

مزايا البربر

كان الرجل البربري مثالا في الشجاعة والإقدام، ونهاية في الصبر والتحمل، وغاية في حب العمل والنشاط. فجو بلادهم المعتدل جعلهم على النشاط لا على الفتور، وعلى حب العمل لا على حب الراحة، ومع الأمانة التي خلقتها فيهم النفسية العلمية والاعتداد بالنفس، وحب الكمال الذي جبلهم عليه احترامهم لأنفسهم وغرامهم بالعلو والحسن في كل الأشياء.

وكان البربر على الاعتدال في الأجسام، والمتانة في البنيان، لجودة الهواء، وقوة الغذاء، واعتدال الإقليم، ومواصلة الأعمال، وبذل الجهد فيها.

وكانوا على جمال الذوق. إن البيئة الطبيعية الجميلة التي أنشأوا فيها هذبت أذواقهم، وأرهفت نفوسهم، فنشأوا محبين للجمال، ويسبغونه على أشيائهم، ويتطلبونه في كل أمورهم. وكانوا في الذكاء اقل من ذوي المناطق الحارة، وكثير من الأمم الشرقية، ولكنهم كانوا أحسن منها في متانة الأخلاق، وفي حب العمل والنشاط، وفي التمسك بالشخصية والاعتدال بالنفس. والمرء يتفوق في الحياة بأخلاقه العظيمة وبحبه للعمل، وإتقانه له، وبأمانته وطموحه وعفته، ولا بذكائه وحده، ولا بعمله الذي لا يقترن بالأخلاق السامية !

وكان البربر لنشاطهم وحبهم، وطموحهم، ويتقنون أعمالهم، ويبذلون كل الجهد في تحسينها والبلوغ بها إلى أعلى مرتبة يستطيعونها.

وكان البربر متمسكين بشخصيتهم، ثابتين على مبدإهم، يموتون في سبيل

عقيدتهم ويضحون بكل شيء في سبيل ما يؤمنون به، لا يتسرعون إلى الأخذ بالجديد حتى يوقنوا انه أحسن من القديم الذي عندهم.

وكان البربر على الاعتدال في المزاج، طبعهم بذلك جوهم المعتدل، لا يغلب عليهم المزاج والعبث، ولا يجمد بهم الوقار البالغ، والتزمت المميت. إنهم إلى الوقار أميل والجد عليهم اغلب، ولكنهم على المرح في النفوس، يحبون الدعابة في مواطنها، ويهوون المزاح في أماكنه، لا يرون الحياة كلها ضحكا ولهوا، ومزاحا وعبثا، بل يجدون في اغلب الأوقات، وإذا ركنوا إلى الراحة للاستجمام امتلأت مجالسهم بالنكتة المضحكة، وتعالت من نواديهم النغمة المطربة، ورأيت المرح والأنس الذي يقصر به الزمن و ما يعمر تلك المجالس، وما يؤثره البربر ولا يرضون غيره في تلك المواطن. لهذه الأوصاف الخلقية الحسنة والخلقية، ورغب فيهم الملوك والأمراء، ليسدوا بهم الثغور، ويستخدمونهم فيما يستدعي متانة في الأخلاق، وأمانة ورزانة، وشجاعة وقوة، واتقانا ونشاطا،وجمالا في الذوق، وسدادا في التدبير، كالقيادة للجيوش، والحراسة للثغور، والمقارعة في بالحروب، وإدارة القصور، والقيام على المال.

وما يمتاز به البربري ويفوق فيه الفارسي والرومي الإخلاص وصفاء النفس. إنهم لا يكنون بغضا موروثا للعرب، وعداوة قديمة لبني سام. فهو مستعد لحب كل من يعجب بكماله، ويروعه بحسن سلوكه، ويغمره بإحسانه وفضله. ليست لهم عقد نفسية موروثة تعبدهم عن العرب، بل هم يمتزجون بهم امتزاج الماء بالماء، ويخلصون لهم إخلاص الخل الوفي، والحب الوامق. لذلك رغب الملوك الأمويون والعباسيون في استخدامهم، والاعتماد عليهم وحيازتهم في جيوشهم وقصورهم وثغورهم الكبيرة.

مزايا المرأة البربرية

والمرأة البربرية تمتاز بكثير من المزايا العظمى التي خلقتها فيها بيئتها الطبيعية والاجتماعية. إنها ابنة مجتمع يحترم المرأة ويبجلها، ويعرف لها مكانتها، ويعطيها كل حقوقها، وسليلة مجتمع يهوى الحياة الاستقلالية فيطبع أبناءه منذ نعومة أظفارهم على الاعتماد على النفس، والثقة بها، لا تفنى المرأة في الرجل متكلة كل الاتكال عليه، ولا الابن في والديه معتمدا كل الاعتماد في كل أشيائه عليهم، فخلق هذا المجتمع المحترم للمرأة، المحب للحياة الاستقلالية، الشخصية الايجابية القوية التي تخلق في الناس إذا كانت في الرجل الإعجاب مشوبا بالإجلال، وتكون في النفوس إذا كانت في المرأة الإعجاب مقرونا بالافتتان ! إن الشخصية القوية في الإنسان هي سبب الجاذبية والعامل

الأكبر للاحترام والإعجاب، وللحب المكين، والولاء الثابت. وما فتن المظهر إلا انه مجلي للشخصية تتألق فيه، ويبدو جمالها عليه. والمرأة تفتن فتحب بشخصيتها القوية الجميلة لا بشخصها وحده ! إن الشخص الجميل بدون شخصية عمود منمنم مزركش في مصنع نجار، ولا يداني فرع الشجرة أللفاء المتوجه الأغصان المورقة، والأزهار الأريجة، الذي يملأ عينيك بالجمال الحي، وتشعر بحيويته في نفسك ونضارته في قلبك.

وكانت المرأة البربرية قوية الشخصية، معتدة بنفسها، واثقة بها، شجاعة حيية، صبورا، ورحبة الصدر، لا تكشر لأتفه النوازل، ولا يتغضن وجهها حزنا لأقل الهموم، بل إن البشر والرضى، والتفاؤل بالحياة، هو الذي يشرق به وجهها فيشرق به جو بيتها فيسعد زوجها وكل الأسرة بهذا الجو الضاحي الجميل.

إن روح الرجل لا تستنير فشرق دنياه، لا بالشمس ولا بالقمر ولا بالذهب والجواهر ولكن بالمرأة الصالحة المحبوبة التي تعمر داره !

والمرأة البربرية رزينة، لا تطيش طيش الضعيفات، ولا تجمد جمود البليدات، بل هي خلق فيها جوها الطبيعي وجوها الاجتماعي المعتدلين، كما يريد الرجل الحكيم والإنسان المعتدل.

والمرأة البربرية حيية طبعتها بذلك شخصيتها الايجابية، وشعورها بنفسها؛ والحياء هو ما يخلق في المرأة سحرها فتفتتن بها القلوب، وجمالها الفتان فتسحر بها النفوس، ولطفها ورقتها فيظفر فيها الرجل بالعالم اللطيف، وبالعش الحريري الذي ينسيه خشونة الحياة !

إن حياة المرأة هو الذي يخلق الورد الجميل في محياها، والفتور الساحر في عينيها، فتكون بهما لا بالمساحيق والكحل جذابة تستهوي قلب الرجل وتستأثر به، وتثير احترامه وإعجابه بها !

والمرأة البربرية مدبرة حكيمة، مقتصدة قنوع، تعين الزوج على الحياة، وتكفيه كل المؤونة في إدارة المنزل، عمالة تقوم بكل الشؤون في منزلها، لا تحوج الرجل إلى توابع المرأة الكسول من الخدم الذين يفسدون جو البيت على الرجل، ويعكرون صفو الحياة على الأسرة بغرابتهم وعدم انسحابهم بها.

والمرأة البربرية لحبها للعمل، وللذوق الجميل الذي كونه فيها جوها الطبيعي الجميل، صناع اليد، تستطيع أن تمهر في كل ما تتطلبها القصور الراقية من صناعات في المرأة.

وهي إلى اعتدادها بنفسها، مطيعة لزوجها، تعتقد هي وأسرتها أن هذه الطاعة للزوج فرض عليها، وأنها لا تكون سيدة للرجل إلا إذا كانت عبده، تخضع له، وتملك قلبه بالطاعة والاحترام !

إن هذه الفضائل الخلقية التي صقلها الإسلام وأيدها، وضاعفها في المرأة البربرية، لا زالت موجودة في كثير من أنحاء المغرب التي لم تبتل بأمراض الحضارة، ولم تتسلط عليها أوبئة المدينة الأوروبية القتالة لفضائلها ! فكانت المرأة -والمد لله- في هذه الأنحاء السليمة التي يحضنها الدين بسياجه المتين، سبب سعادة وهناء للرجل، وصارت بفضائلها الموروثة، وبفضائل دينها، حواء التي أخف الله بها آدم لتعيده بالسعادة الزوجية إلى الجنة التي اخرج منها !

إن ثبات الصفات في الفروع دليل على تسربها من الأصول، والابن مظهر لأجداده يبدئ حقيقتهم، ويبرز شمائله كل خصائصهم. والوراثة الجميلة في النفوس كالمعادن النفيسة في الأرض، لا تتخلق إلا في قرون عديدة، ولا تتكون إلا في دهور طويلة.

قال ابن مقديش في «نزهة الأنظار» في صفحة 72 :»ثم رحل عقبة -رضي الله عنه- إلى السوس الأقصى فاجتمع عليه البربر فهزمهم المسلمون، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم، وكن في غاية الحسن والأدب ! فبلغ ثمن الجارية منهن بالمشرق ألف دينار !»

وأورد ابن الحكم في كتابه «فتوح مصر والمغرب» في صفحة 202 يذكر ما اخذ عبد العزيز بن مروان من سبي المغرب الذي أرسله حسان إلى عبد الملك فقال:»....ويقال أن عبد العزيز اخذ كل ما كان مع حسان[1] من السبي، وكان قد قدم ومعه من وصائف البربر شيء لم ير مثله جمالا. فكان نصيب الشاعر يقول: حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسان، مائتي جارية، منها ما يقوم بألف دينار !».

وكانت المرأة البربرية مع شخصيتها القوية الجميلة على الحسن البارع في الشخص، والجمال الفتان في الجسم. إنها بنت بيئة طبيعية معتدلة، فلم تكن على بياض الثلوج الذي تتسم نساء أوروبا، ولا على سواد الزنوج الذي يوجد في جنوب افريقية، بلا هي ببشرة الورد الفتان، وبياض تشوبه حمرة جميلة، أو بسمرة خفيفة حلوة، ومعتدلة القوام، رشيقة القد، غير مترهلة ولا معجونة، وليست بالسمينة المستفيضة التي

1 - الصحيح أن الذي اخذ من حسان هو عبد الله بن مروان في عهد الوليد. وارى أن ما ذكره ابن عبد الحكم هو ما أرسله حسان إلى عبد الملك في سنة 71 من خمس السبي والغنائم في فتوحه فتعرض له عبد العزيز. إذا كان مائتا جارية هو كل السبي كان ما سباه حسان ألف رأس فقط فأين ألفه من ثلاثمائة ألف التي سباها موسى. إن حسان العظيم هو الذي تقيد بالدين في سببه.

تبدو في ثوبها شمعا ذائبا في الشمعدان، بل هي زهراء رشيقة تتألق بوجهها تألق الشمعة الرشيقة في حفلات الأعياد ! !

وهذا ما نجد عليه المثير من نساء المغرب إلى يومنا هذا، وفي كل عرجون حشف لا يليق، وفي كل شجرة ثمر لا يروق. والحكم في هذا الباب على الكثرة لا على الجمع.

إن الإنسان ابن بيئته الطبيعية، تطبعه بما طبعت به أجداده. وتكون في الأحفاد ما كان في الأجداد.

لقد رغب أهل المشرق سيما الملوك والأمراء، والسادة والكبراء، في المرأة البربرية لتلك الشخصية القوية الجميلة التي تزهر بها، ويبدو جمالها على جسمها فيضاعف جماله، ويبلغ به ذروته البهاء والحسن الفتان.

وكانت البربرية إلى هذه الشخصية القوية، ودلك الشخص الجميل، صافية النفس، لا تحمل عداء للعرب كما نجد في الروميات والفارسيات. إنها تنظر بعيون الظباء الصافية السليمة من كل حقد وعداوة. سرعان ما تألف الزوج الذي تعجب بفضائله، ويستميلها بإحسانه، فتحبه وتخلص إليه، وتثبت على حبه ثبات البربر على الحب وعدم التنكر للحبيب، وسرعان ما تألف أسرته، وتنسجم بها، وتصير جزءا منها.

وكانت هذه الفضائل الخلقية هي التي جعلت للمرأة البربرية تلك المكانة العظمى عند الملوك والكبراء، فلولاه لكانت زجاجة مزركشة نبرق في الرمال، وماء مصبوغا سمجا لا مذاق له، ولا نكهة فيه. ولكانت ككل نساء المشرق لا تمتاز عليهن بشيء.

وكان الملوك والكبراء يرغبون في النساء البربريات للتسرى بهن، والزواج منهن، ليسعدوا بهن كزوجات يمتعن الأرواح، وربات بيوت يعمرن الديار، ويريدونهن أيضا لنجابة الأولاد، فان إعجابهم ببطولة البربر وفضائلهم جعلهم يرغبون في الزواج من البربريات، ليرث أبناؤهم فضائل الأخوال التي تضاعف فضائل الأعمام وتكملها. وقد أنجبت البربريات في المشرق كثيرا من العظماء كهارون الرشيد الذي كانت أمه بربرية، وغيره كثيرون كانوا عماد الدولة العباسية، وزينة المشرق وبهاءه.

كان الملوك والأمراء يتطلعون إلى كنوز المغرب من الجمال الباهر، والحسن الزاهر، ويرون المغرب مغربا للشمس غير أنها تختفي في بناته فتطلع في محياهن الفتان، وتودع فيهن عطرا كالذي تخلقه في الورد والرياحين، غير أن بعضه يفغم النفوس نمن فضائلهم لا تحس به إلا القلوب الشاعرة، والعقول المدركة، فاستكثر لهم موسى من السبي، فظلم البربر وجرح أكبادهم، وخلق النقط السود الأولى في صفحة الدولة الأموية عندهم.

فائدة السبي

إن إسراف موسى في السبي إن كان فيه ضرر كبير ففيه منفعة كبرى. «وفي كل ما تكره خير كثير» فان الصبايا البربريات، والفتيان البربر الذين سباهم موسى هم الذين بثوا الدماء البربرية في مصر والشام والعراق، فنشأ الجيل الإسلامي الذي رأى العالم الإسلامي كله وطنه، وسكانه كلهم أخواله وأعمامه، فزالت الفروق التي كانت تباعد بين المشرق والمغرب، وامتزجت الدماء العربية والبربرية والمصرية والفارسية وغيرها، فأمست الأقطار الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وطنا واحدا عند الجيل الجديد الذي ازدهرت به الدولة الإسلامية وبلغت قنتها.

إن من حكم السبي التقريب بين الأقطار، ومزج المسلمين بمضيهم ببعض ليتحدوا. فالذي يتسرى ببربرية تخلق هوى فيه إلى البربر، ويكون ابنه منها أكثر تعلقا بأخواله. فلربما تزوج منهم لإيثار الأم دائما أن تزوج ابنها من قومها، فتتقوى الدماء الأخرى في العروق، وتزول من المسلمين كل الفروق. فلا يعود هناك عربي وبربري وفارسي ومصري وغير ذلك من الأجناس، بل يكون المسلم الذي تسرى في عروقه كل هذه الدماء، يصله النسب العريق بكل تلك الأمم.

إن تمسك الأمويين والعباسيين بالمغرب، وقتالهم مكل من يريد الانفصال، من أسبابه امتزاج الدماء الذي صير المشرق يعد المغرب قطعة منه، تصله به خؤولة أو عمومة، ويربطه به حب راسخ أذكته السبايا في أزواجهن وأبنائهن. لقد كان هارون الرشيد، أعظم ملوك الدولة العباسية، ابن الخيزران البربرية. تلك الغادة الفاضلة الفتانة التي استأثرت بقلب المهدي. أترى المهدي لا يتعلق ويغرم بكل ما يتصل بها. إن الحب ليجعل كل أشياء الحبيب فيها من شفتيه، فهي كلها موضع للقبلات، وأمكنة للإعزاز، حتى نعال الحبيب الملطخة بالأوحال يراها المحب في نضاره خدوده، وتلوح له في هالة من سحره. أما أصولها من الناس فهي عنده أشجار الورد، وأغصان الزهر، يتعلق بها، ويتفانى فيها، لأنها حياة ما يراه حياته، وجمال ما يريده نهاية في الحسن والبهاء ![1] أترى هارون الرشيد الذي نقشت أمه فيه حب المغرب لا يتعلق به، ولا يبالي بشؤونه. إن تسامحه مع المغرب حتى استقلت الدولة الأغلبية في كل شؤونها الداخلية، ومن أسبابه ذلك الحب الذي غرسته فيه أمه للمغرب، وذلك الإعزاز الذي خلقته فيه لوطن أجدادها، فأبى الرشيد أن يغرق افريقية والزاب في برك الدماء كما فعل غيره، ويربطها إليه بقوة السيف كما فعل سواه، فعاملها في لطف وإحسان لأنها وطن أخواله، ومنبت أمه الرؤوم.

1 - إن هذا الاستطراد قد جر إليه شجن الحديث، وسيراه المتزمتون نقطة سوداء، أما الأدباء والشباب الذين نريد استمالتهم لقراءة التاريخ فسيرونه خالا اسود في الخد النضير !

وقد تأيدت الدماء البربرية وتقوت في المشرق بجيوشه كتامة وهوارة ولواتة وغيرها من القبائل البربرية التي فتح بها المعز لدين الله مصر والشام فاستقروا بها، وامتزجوا بأهلها. وقد بقيت لأسرهم إلى اليوم أسماءهم البربرية كما نجد اسم هوارة في صعيد مصر، أما دماؤهم فهي مزيج من الدماء البربرية والمصرية، والعربية، والفارسية وغيرها. وقد وقع في المغرب مثل هذا بمن هاجر إليه من المشرق، فصار العالم الإسلامي والحمد لله امة واحدة، قد امتزجت دماؤها، وصار الإسلام لها شعارا،ولف المسلم هو الذي يصدق عليهم جميعا. إن البليد الجاهل هو الذي يدعي في المشرق أو في المغرب انه عربي خالص، أو بربري خالص. انه لم يعد العربي الخالص -إذا أمكن وجوده-إلا في أعماق الصحاري، والبربري الخالص إلا في رؤوس الجبال المنقطعة. أما سكان المدن، واغلب أهل المغرب منهم، فهم مزيج من الدماء البربرية والعربية. وقد تكون لهم اسم عظيم شريف هو الذي يجب أن نتسمى به وهو اسم «المسلم !» وأمة عظمى هي التي يجب أن ننتسب إليها، ونعتد بها، هي الأمة الإسلامية. هذا ما يجب أن ننقشه بالتربية والتعليم في النفوس، وبالدعاية المتوالية في الصدور، وهو ما حاربه الاستعمار وأباه علينا، فغرس في نفوسنا وألسنتنا أسماء تدل على العصبيات الضيقة، والقوميات الهزيلة التي تنفر كثيرا من الطوائف الإسلامية عنا، وتخرجهم من جامعتنا، لأنهم عند أنفسهم ليسوا عربا بل مسلمين !

إن المغرب ليس فيه -والحمد لله- إلا المسلمون. أما دماؤهم فمزيج من الدماء البربرية والعربية والمصرية والفارسية، فاسم المسلم هو الذي يجب أن نتسمى به ولا نرضى منه بديلا أبدا. انه عظيم سمانا الله به في كتابه، فلو وجد اسما اشرف لنا واجمع لامتنا لسانا به، وهو الذي سمانا به الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون،وتسمى به أجدادنا وتمسكوا به ورأوه أكرم أسمائهم، فما كان لنا في هذا العصر أن نتسمى بالأسماء الضيقة، ونطلق على امتنا الأسماء التي لا تعترف بها كل طوائفها.

إن موسى قد أفرط في سبي البربر، وأخذهم بالعنف لا باللين، وعاملهم بالشدة لا بالحسنى. ومما ينتقد عليه ونراه من هفواته ما رواه ابن عذارى عن ابن قتيبة قال لما فتح موسى بن نصير «سقومة» «وهي قلعة أوربة قوم كسيلة» قتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة عياضا وعثمان، وأبا عبيدة أن يأخذوا حقهم من قاتلي أبيهم، فقتلوا من أهل سقومة ستمائة رجل من كبارهم، ثم قال لهم كفوا فكفوا» إن قاتلي عقبة رضي الله عنه هم كسيلة وجيشه، وقد قاتلهم زهير بن قيس، واقتص منهم، واستلحم أشرافهم وصناديدهم، وقتل موسى لأهل «سقومة» اخذ بالظنة، وظلم لا يسوغه

الإسلام، وعمل بعيد عن الحصافة، وشنشنة جاهلية ما جاء الإسلام إلا لقتلها، لو كان أهل «سقومة» مطالبين بدماء عقبة لاقتص منهم حسان بن النعمان، وقد غزا المغرب الأقصى، ولعل أكثر سقومة كانوا حينئذ على الكفر لا على الإسلام، ولكن حسان لم يخطر بباله أن يفعل ذلك، لأنه الشيخ الأمين، والأمير الرصين،والرجل المؤمن الذي لا ينصاع للهوى ولكن للدين.

إن موسى من عقلاء المسلمين، واستبعد أن يغزو «سقومة» لأخذ ثأر عقبة منها وارى أن «سقومة» كانت من النواحي التي انفصلت عن الدولة، وثارت على الأمويين وتنمرت لموسى، فوكل تأديبهم وضمهم إلى الجماعة إلى أولاد عقبة لشجاعتهم ولإضطغانهم على «أوربة» التي ثارت على أبيهم.

إن موسى قد أجدى في المغرب بجماعات الفقهاء التي يتركها في النواحي التي يغزوها سيما التي لم يتم إسلامها، فتفقه البربر في الدين، تنشر فيهم كتاب الله المبين وتعلمهم العربية،وتزيدهم ارتباطا بالدولة الإسلامية. إن موسى قد أحسن باعتنائه بإسلام البربر،وكان من الرجال الذين شاركوا في إسلام المغرب الإسلام الثابت بما عرف من أسرار الدين، وبما انتشر في البربر من لغة كتاب الله الكريم، ثم يكتب موسى صفحته الذهبية بافتتاح الأندلس،ونقل الإسلام إلى جنوب أروبا، وضم عالم واسع جميل إلى الرقعة الإسلامية، ونتقل المسلمين إلى الأندلس لينوا فيها الحضارة الإسلامية العظمى التي ثقفت أروبا، وفتحت عيونها للحياة، فنهضت نهضتها الكبرى التي وصلت بها إلى ما تزخر به أوروبا وأمريكا اليوم من علوم وصناعات،ومن حضارة ومدنيات.

فتح الأندلس

قال ابن الأثير: أول من سكن الأندلس قوم يعرفون بالاندلش بشين معجمة فسمى البلد بهم، ثم عرب بعد ذلك بسين مهملة، والنصارى يسمون الأندلس إشبانية باسم رجل صلب فيها يقال له إشبانس، وقيل باسم ملك كان بها في الزمان الأول اسمه إشبان بن طيطس وهذا هو اسمها عند «بطليموس».

وكانت الأندلس مجموع قبائل مختلطة من الاسبانيين الأصليين، واللاتين والقوط وكانت الفئة المتسلطة على البلاط أيام الفتح الإسلامي للمغرب إنما هم القوط، والقوط من الجرمان من شمال أوروبا زحفوا على الأندلس فاستقروا فيها، وتقووا على سكانها الأصليين، فكان الملك والسلطان في أيديهم إلى أن فتحها المسلمون.

أسباب الفتح الإسلامي

لم يكن فتح الأندلس خطوة مرتجلة قام بها موسى بن نصير كما يفهم من كلام كثير من المؤرخين، بل هو عمل فكر فيه المسلمون منذ زمان عثمان، وعزموا عليه منذ غزوة عبد الله بن سعد في سنة سبع وعشرين. غير أنهم كانوا يقتصرون في أول الأمر على مهاجمة أطراف الأندلس التي تلي المغرب ليعجموا عودها، وليرهبوا العدو فيها، فلا تحدثهم نفوسهم بالمسير إلى المغرب لمعاونة الروم والبربر عل الفاتحين المسلمين. وقد أرسل عبد الله بن سعد الله بن نافع بن عبد ألقيس، وعبد الله ابن الحصين الفهريين في البحر فأغاروا على الأندلس ورجعا فائزين.

وكان المسلمون منذ زمن عثمان رضي الله عنه يعتقدون أن فتح الأندلس ضروري لتمام فتح المغرب، لقرب الأندلس من المغرب. انه لا يفصل بينهما إلا زقاق تعبره السفن في زمن قصير. وإذا كان عمرو بن العاص قد بداله أن يتم فتح مصر بالقضاء على دولة جرجير في طرابلس وافريقية، ونشر الإسلام في تلك الربوع كي يأمن المسلمون في وطنهم الجديد مصر، ويطهر الأرض المجاورة من الروم الذين يحكون له الدسائس، ويبنون له ضروب المكائد، فان المسافة بين المغرب والأندلس واقرب، وخطر القوط وفسادهم وانحلالهم وفساد أخلاقهم أدنى، فلا بد أن يعزم المسلمون على فتح الأندلس ليأمن المسلمون في وطنهم الجديد المغرب.

ثم إن المسلمين يدفعهم إلى فتح البلدان دينهم لينشروه في ربوعها، ويأخذوا بأيدي أهلها إلى طريق السعادتين، ويطهروهم من الفساد والجهالة، ويثقفوهم بدين الله الذي يضمن لهم كل الحظوظ.

وكانت الأندلس قد انحلت بالحضارة، وأنتنت مفاسد المدنية، وانتشرت فيها المنكرات والفسوق، فأمست معدنا للعدوى بالمرض في جانب المغرب الصحيح الذي تطهر بدين الله، وامتلأ بالشباب والقوة لما سرت فيه أنوار الإسلام، فما كان للدين الحنيف أن يرضى ببقاء ذلك الفساد وذلك الظلام الذي قد يعدى المغرب، وما كان له أن يرضى بتخبط الأندلس في جهالتها، ويتركها فريسة لأمراضها، ثم لا يشرق عليها إشراق الشمس التي تقتل كل الجراثيم، وتبث الحياة والشباب في البقاع المتينة فتزدهر. فاندفع المسلمون في المغرب بوازع من دينهم فساروا إلى الأندلس لتطهيرها وإسعادها.

وكان المسلمون منذ زمن عثمان يعتقدون أن فتح القسطنطينية الذي يستعصي عليهم من جهة الشام ممكن إذا هاجموها من جهة أوروبا حين يفتحون الأندلس

ويستقرون فيها. هذه هي الأسباب الأصلية لفتح المسلمين للأندلس. ولو اتصلت ولاية حسان ابن النعمان إلى أن يتم بناء الدولة الإسلامية في المغرب، وتستقر الأمور استقرارا نهائيا، وزيتم إسلام المغرب، لسار هو لفتح الأندلس لان فتحها إتمام لفتح المغرب لابد به، ولان نور الإسلام كنور الشمس يسير دائما إلى الإمام لا يتوقف في ناحية ويفيض على كل مكان لا ينحصر في زاوية.

ومن الأسباب الكبرى التي جعلت موسى بن نصير والوليد بن عبد الملك يقدمون على فتح الأندلس. القوة الجديدة التي تكونت للدولة الإسلامية من البربر المسلمين أن الأنثى عشر ألفا من جند أوراس الذين ضمنهم حسان بن النعمان إلى الجيش الإسلامي أصبحوا قوة كبرى للمسلمين، فاقاهم موسى في «طنجة» هم ومن انظم إليهم من البربر المتطوعين، وأقام عليهم طارق بن زياد، فأصبح هذا الجيش القوي على أبواب الأندلس مما يورث لموسى ثقة بنفسه، ويبعثه على هذا الفتح الكبير. وتلك الخطوة العظمى لقد حسن إسلام هؤلاء الجند، وانضم المغرب إلى الدولة الإسلامية، واستقرت أموره، فان موسى يستطيع أن يخرج بجيشه من المغرب إلى ناحية أخرى دون أن يخاف ثورة البربر عليه، وضربه من خلفه إذا اشتبك بأعدائه.

وكان اغلب الجند الذي غزا به طارق الأندلس م البربر. لقد كان فيه اثنا عشر ألفا من البربر وثلاثمائة من العرب وذلك لإعجاب موسى ببطولة البربر، وثقته بهم وبإسلامهم، ولكره البربر للقوط. إن الوندال منهم،وقد جاؤوهم من الأندلس فاستعبدوهم واضطهدوهم. إن مرارتهم في نفوس البربر لا تزول. فلا بد وقد اسلموا وانظموا إلى الدولة الإسلامية فصارت دولتهم أن يوحوا إلى موسى بغزو الأندلس ويبدوا استعدادهم للقيام بفتحها. وارى أن من أسباب استكثار موسى من البربر في الجيش الذي فتح الأندلس، أن يشغلهم بحرب القوط،ويوجه عداوتهم إلى أعدائهم القدماء، فلا يثورون عليه لما سبي من أبنائهم، ولما عاملهم به من معاملة قاسية جرحت نفوسهم فرأى تلك الجروح في العيون المحمرة الملتهبة التي كانوا يخزرونه بها.[1]

وارى أن من أسباب حرص موسى على فتح الأندلس منافسته لحسان بن النعمان لقد فتح حسان قرطاجنة، وهزم الكاهنة، وفتح أوراس الشامخ العتيد، وأتم فتح المغرب، فصار بذلك من الفاتحين العظماء، ومن قواد الحرب وزعماء السياسة الذين يشار إليهم بالبنان، ويجري مدحهم على كل لسان. إن المغرب قد تمهد للإسلام والأمويين بحنكة

1 - خزر نظر في حدة. وتستعمل إلى الآن في اللغة البربرية في الجزائر لمطلق النظر وهي عربية فصحى وليست بربرية الأصل.

حسان وبطولته، فإذا ثارت فيه زوابع فأخمدها موسى فليس ذلك بالعمل العظيم الذي يضعه في صف حسان. فلا بد بعمل كبير يقوم به في المغرب، وبمساع جديدة ينفرد بشرفها، وببقاع بكرة يضمنها إلى الدولة الإسلامية. إن المغرب قد تنتح كله للإسلام، وانضم إلى الدولة الإسلامية. فلم يبق إلا الأندلس؛ تلك الدولة الهرمة التي هيأتها الفتن الداخلية للسقوط، وهيأها فساد الأخلاق والاستغراق في الشهوات للزوال. إن ملوكها ينظرون نظرة شزراء إلى المغرب المسلم، ويتنمرون للدولة الإسلامية ويكشرون لموسى فلا بد بفتحه. إن الأندلس هو المجال الذي تبدو فيه كفاءته، ويتسع لطموحه ويقوم فيه بأعمال تحقق له منزلة عند الوليد وفي المشرق كالتي حظي بها حسان.

هذه هي الأسباب الأصلية لفتح المسلمين للأندلس، وإقدامهم على هذا العمل العظيم الذي أورث للإسلام شرفا وفخرا، وأحسن به المسلمون إلى أوروبا، لما فتحوا الأندلس فصارت مشرقا للعلم ومنبعا لمتانة الأخلاق التي أخذت بها أوروبا بفضل الأندلس فنهضت نهضتها الحديثة. أما الأسباب المباشرة لهذا الفتح فهي أولا: أبناء «فيتيتزا» الملك الاسباني الذي خلعه «رودريك» من العرش واستنجادهم بموسى وإغراؤهم له «برودريك» وكشفهم لعورات القوط له، وتحريضهم له على فتح الأندلس.

روى المؤرخ النابغة رزق الله منقريوس في كتابة القيم «تاريخ دول الإسلام»[1] إن القوط كانوا يقيمون ملوكهم بالانتخاب، فكان ذلك مصدرا للنزاع والتحزبات والحرب، فاتفق في أواخر القرن السابع المسيحي أن ملكا من هؤلاء القوم يقال له «فيتيتزا» وقع بينه وبين «دوق» قرطبة نزاع فاستطال على الدوق المذكور فقلع عينيه فنهض ابن الدوق للانتقام من الملك والأخذ بثار أبيه. وكان اسمه «رودريك» والعرب يسمونه «لذريق» فقاتل الملك «فيتيتزا» فانتصر عليه، فاغتصب منه تاج المملكة سنة 710م.فذهب أولاد الملك المخلوع وباقي أقاربهم إلى بلاد المغرب فالتجؤوا إلى موسى بن نصير، طلبوا منه أن يقيم حربا على الأندلس لينتقم من ملكها «رودريك» فكتب موسى إلى الوليد يستأذنه فإذن له».

والسبب لثاني هو «أيليان» ألغماري ملك غمارة وكان ملكا على سبتة ونواحيها إلى طانجة والجزيرة الخضراء في الأندلس، وكان مستقلا في مملكته من قبل الفتح الإسلامي، وكان على صلات وثيقة بالقوط في الأندلس، وكان للقوط بعض النفوذ عنده، وبعض الهيمنة عليه. فلما كان الفتح الإسلامي أحسن استقبال الفاتحين المسلمين ونزل على حكمهم، فأبقوه في إمارته وعرفوا له مقامه.

1 - ج 1 ص 66 إن هذا التاريخ في ثلاثة أجزاء وهو من اشمل التواريخ حبذا لو أعيد طبعه.

فتح الأندلس

وكان أيليان على صلة حسنة بالقوط أيضا. وكان «رودريك» يراه من أصدقائه، ومن الأشراف الذين يحرصون على توثيق علاقته بهم قال ابن عذارى: وكانت العادة في الأندلس عند ملوك النصارى أن يستخدموا بني بطارقتهم وكبار رجالهم فالرجال يخدمون خارجا والنساء جوار يعملن في الداخل، ليتأدبوا بالأدب الملوكي فإذا كبروا ألحقهم بخاصته «وزوجهم بالجواري الناشئات في قصره»[1] وكانت عند «رودريك» ابنة أيليان أرسلها لتثقف مع بنات الأشراف في قصره فأعجب رودريك بجمالها الفتان فسطا عليها فأزال عذريتها فأخبرت أباها سرا فاحتال حتى استرجع ابنته من «رودريك» فشمر للانتقام لشرفه. وكان من قبل يضطغن على القوط، ويتقزز من فساد أخلاقهم، ويود أن يغزوهم المسلمون ليطهروا بقاعهم من رذائل المدينة التي انغمسوا فيها. فاتصل بطارق بن زياد عامل موسى على طانجة فحثه على فتح الأندلس، وإعانته على موسى ليقتنع بفتحها، كما اتصل بموسى وأغراه بفتحها ودله على عورات القوط فيه، وواعد بإعانته، ونقل الجند في سفنه، ودلالته على الطريق، وتيسير عملية النزول في الأندلس له، ففرح موسى لإعانة «أيليان» وبالفرصة التي لاحت له لفتح الأندلس، فاستشار الوليد بن عبد الملك فادن له في الفتح الكبير ووضع له خطته. ونحن ننقل إليك أيها القارئ العزيز قصة الفتح من الكامل لابن الأثير، ومن البيان المغرب لابن عذارى فإنهما أحسن المراجع التي أوردت هذه القصة وهما يكمل بعضهما بعضا قال ابن الأثير: فلما ولى «رذريق» أرسل إليه «يوليان» وهو صاحب الجزيرة الخضراء وسبتة وغيرهما ابنة له فاستحسنها «رذريق» وافتضها فكتبت إلى أبيها فأغضبه ذلك، فكتب إلى موسى بن نصير بالطاعة، واستدعاه إليه فسار إليه فادخله يوليان مدائنه « وهي «سبتة» ونواحيها واخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به، ثم وصف له الأندلس وجعاه إليها، وذلك آخر سنة تسعين فكتب موسى إلى الوليد بما فتح الله عليه، وما دعاه إليه «بوليان» فكتب إليه الوليد خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر الأهوال، فكتب إليه موسى انه ليس ببحر متسع وإنما هو خليج يبين ما وراءه، فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا، وان كان الأمر على ما حكيت، فبعث رجلا بربريا[2] من مواليه يقال له طريفة ويكنى بابي زرعة في أربعمائة رجل،ومعه مائة فرس، فسار في أربع سفائن فخرج في جزيرة بالأندلس فسميت جزيرة طريف لنزوله فيه، ثم أغار على الجزيرة الخضراء، فأصاب غنائم كثيرة،

1 - ما بين قوسين لم يرد في كلام ابن عذارى وقد ورد في كتب أخرى كالاستقصاء وبقية كلامه روينا اغلبه بالمعنى لرداءة أجزاء منه بتحريف النساخ.

2 - البيان المغرب.

ورجع سالما في رمضان سنة إحدى وتسعين فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو.

قال ابن عذارى: وفي سنة 92 من الهجرة خرج طارق بن زياد إلى الأندلس بمن كان معه من العرب والبربر ورهائنهم الذين تركهم موسى عنده والذين أخذهم حسان «من جبال آوراس» [1] قبله. وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85.[2] وفي هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كانت بنتها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في المساجد الجماعات وفيها صنع مسجد «اغمات هيلانة».

نسب طارق

ونسب طارق هو: طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو، بن ور فجوم، بن نبرغاسن، بن ولهاص، بن يطوفت، بن نفزاو، فهو نفزاوى «من قبيلة نفزاوة البربرية في جنوب افريقية».[3]

قال ابن الأثير: ثم إن موسى دعا مولى له كان على مقدمات جيوشه يقال له: طارق ابن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالي واقلهم العرب. قال ابن عذارى» وكان «يوليان» «ملك غمارة البربري» مجاورا لطارق بالجزيرة الخضراء التي تلي طنجة، فداخله طارق حتى صار معه على الرضى، وواعده «أيليان» باذخا له الأندلس هو وجنوده. فكان «أيليان» يحمل أصحاب طارق في مراكب التجارة التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل فوجا بعد فوج إلى الأندلس، فلما لم يبق إلا فوج واحد ركب طارق ومن معه حتى أجاز البحر إلى أصحابه.

قال ابن الأثير: فسار طارق في البحر، وقصد إلى جبال منيف وهو متصل بالبر فنزله فسمي الجبل جبل طارق إلى اليوم. وكان حلول طارق فيه في رجب سنة اثنتين وتسعين من الهجرة. فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل[4] نزل إلى الصحراء، وفتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل.[5]

ولما بلغ «رذريق» غزو طارق بلاده عظم ذلك عليه، وكان غائبا في غزواته، فرجع منها

1 - ما بين قوسين في كلام من نقل عنه ليس من كلامه.

2 - الظاهرة أن ولاية طارق كانت في سنة 88 أو بعدها، لان ولاية موسى على المغرب وقعت في سنة 87 كما هو الصحيح.

3 - افريقية هنا هي القطر التونسي وأماكن هذه القبيلة لا زالت تسمى نفزاوة إلى اليوم.

4 - ورد هذا الاسم يوليان وايليان والكسر اسبه بلغة البربر.

5 - قوله تكامل أصحاب طارق بالجبل دليل على ما رواه ابن عذارى من نقل ايليان لجنود طارق أفواجا.

وطارق قد دخل بلاده فجمع له جمعا يقال : بلغ مائة ألف. فلما بلغ طارقا الخبر كتب إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح، وانه زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به فبعث إليه بخمسة آلاف. فتكامل المسلمون اثني عشر ألفا ومعهم «يوليا» يدلهم علة عورة البلاد، ويتجسس لهم الأخبار.

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان: فلما بلغ «رذريق» غزو المسلمين رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس، معه العجل[1] يحمل الأموال والمتاع، وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد. فلما بلغ طارقا دنوه قام في أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد، ورغبهم في الشهادة ثم قال:[2] أيها الناس أين المفر والبحر ورائكم والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا إنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه،وأسلحته، وقوته موفورة، وانتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدي أعدائكم،وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم أن سمحتم بأنفسكم للموت، وأنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة ارخص مبتاع فيها النفوس إلا وأنا ابدأ فيها بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حطكم فيه أوفر من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان [3]وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة. أصهار وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كملته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصا لكم من دونهن ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم

1 - العجل جمع عجلة وهي التي يحمل عليها المتاع فتجرها الدواب.

2 - قد تكون هذه الخطبة صحيحة وقد لا تكون،ونحن ننقلها لبلاغتها. وقد ذكر بعض المؤرخين أن طارقا حرق سفنه التي اجتاز بها إلى الأندلس ليؤيس المسلمين في الرجوع ولا يمكن أن يفعل هذا وهو دخل سرا. والصحيح أن السفن لم تكن له، ولكن للتجار الذين ادخلوه هو وجنده فرجعت إلى المغرب فأصبح المسلمون بدون سفن للرجوع إلى المغرب.

3 - هذه المقطوعة المشجعة ليست على أسلوب الخطبة المتين ولعلها من زيادة الرواة.

إليه واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم «لذريق» فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتلهن فإنهم بعده يخذلون»[1] قد تكون هذه الخطبة لطارق أو جزء منها فزاد فيها الأدباء، ونحن قد نقلناها لأسلوبها المتين ولقيمتها الأدبية.

قال ابن الأثير: فالتقى الجيشان جيش طارق وجيش «رذريق» على نهر «لكة» من أعمال «شذونة» لليلتين بقيتا من رمضان سنة اثنتين وتسعين، واتصلت الحرب ثمانية أيام. وكان على ميمنة جيش المشركين وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك فاتفقوا على الهزيمة بغضا «لرذريق» وقالوا: أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي الملك لنا، فانهزموا، وهزم الله رذريق ومن معه وغرق رذريق في النهر،[2] وسار طارق إلى مدينة «استجة» متبعا لهم فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين خلق مثير فقاتلوه قتالا شديدا ثم انهزم أهل الأندلس ولم يلق المسلمون بعدها حربا مثلها، ولما سمعت القوط بهاتين الهزيمتين قذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا يظنون انه يفعل فعل طريف فهربوا إلى «طليطلة». وكان طريف قد أوهمهم انه يأكلهم هو ومن معه. فلما دخلوا طليطلة واخلوا مدائن الأندلس قال له «يوليا» قد فرغت من الأندلس ففرق جيوشك وسر أنت إلى طليطلة ففرق جيوشه من مدينة «استيجة» وبعث جيشا إلى «قرطبة» وجيشا إلى «غرناطة» وجيشا إلى «مالقة» وجيشا إلى «تدمير» وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة فاحتلها، ثم سار إلى وادي الحجارة فقطع الجبل من فج فيه فسمي بفج طارق إلى اليوم، وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة، وفيها وجد مائدة سليمان ابن داود عليه السلام، وهي من زبرجد اخضر، حافاتها وأرجلها مكللة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك، وكان لها ثلاثمائة وستون رجلا، وقيل ليست لسليمان وإنما من صنه أهل الأندلس. وكانت لهم أموال للكنائس تزيد عن حاجتها فصنعوا منها تلك المائدة فنسبت إلى سليمان لغرابتها» ثم مضى طارق إلى مدينة «ماية» فغنم منها ورجع إلى طليطلة في سنة ثلاث وتسعين، وقيل :اقتحم ارض جليقية فخرقها حتى انتهى إلى مدينة «استرقة» وانصرف إلى طليطلة».

وكان طارق بن زياد هو الفاتح الحقيقي للأندلس،فهو الذي أزال العقبات الكبرى، وانتصر

1 - وفيات الأعيان لابن خلكان ج 4 ط مكتبة النهضة.

2 - وهو نهر كودالت قيل انه انهزام أمام طارق فاعترضه نهر فغرق فيه لثقله بسلاحه وكثرة دروعه.

في المعركة الفاصلة التي وقعت بينه وبين «رذريق» واحتل عواصم الأندلس ومدنها الكبرى. ولما جاء موسى إلى الأندلس كانت قد أعطت بيدها للمسلمين، واخذ طارق بناصيتها فخضعت، ولم يبق إلا شمال الأندلس لم يفتحه، وهو سهل لا عقبات كبرى فيه.

إسراع موسى إلى الأندلس

وكان موسى يرجو أن يكون فتح الأندلس على يده، يقود هو الجيوش إليها، ليكون له شرف فتحها، ويتحقق له ما يريد من درجة حسان عند درجة حسان عند الوليد فسبقه طارق إلى هذا الشرف الكبير فاحتدم واغتاظ. وكان طارق قد أقدم على فتح الأندلس بدون أمر موسى. قال الشيخ عبد التعالبي في محاضراته:»ولما أبطأ جواب موسى بن نصير إلى طارق «في فتح الأندلس» وطال الانتظار على الكونت «اليان» كتب هذا إلى طارق يستحثه على العبور إلى الأندلس قبل أن يستعد القوط ويأخذوا في الأهبة، فرأى طارق رأي الكونت «أيليان» وخشي فوات الفرصة، وكره أن يراجع أميره ثانية في الفتح خفية أن يعدل به عنه لما يعلم من إيثاره لرأي أمير المؤمنين، فركب إلى الأندلس فغزاها».

قال ابن الأثير: ودخل موسى بن نصير الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين «في عشرة آلاف من العرب والبربر واستخلف على المغرب ابنه عبد الله» وكان قد بلغه ما صنع طارق «وما فتحه من البلاد» فحسده فلما عبر إلى الأندلس ونزل الجزيرة الخضراء قيل له: تسلك طريق طارق فأبى. فقال له الإدلاء: نحن ندلك على طريق اشرف من طريقه، ومدائن لن تفتح بعد، ووعده «يوليان» بفتح عظيم فسر بذلك وكان قد غمه» ففتح موسى في طريقه مدنا منها اشبيلية و»قرمونة» و»شذونة» و»ماردة». قال ابن الأثير: وسار موسى من مدينة «ماردة» في شوال يريد «طليطلة» فخرج طارق إليه فلقيه فلما أبصره نزل إليه، فضربه موسى بالسوط على رأسه، ووبخه على ما كان من خلافه ثم سار به إلى مدينة طليلطلة... وسار موسى إلى سرقسطة ومدائنها فافتتحها وأوغل في بلا الفرنج».

قال الشيخ التعالبي: «ومكث موسى في الأندلس إلى سنة 95 فاتحا إلى أن وصل إلى مدينة «لوتون» وهي آخر ثغور القوط فوقف عندها دون أن تنكس له راية أو يهزم له جند».

وجاء في كتاب «بهجة النفس» أن المسلمين لما بلغو مدينة «لوتون» لم يتركوا وراءهم

شيئا لم يتغلبوا عليه إلا جبال «قرقرشة» و»نيبلونة» و»قشتالة» وهي من الغلطات الحربية الفادحة، ولو احتلوها -وكان أمراها ميسورا- لقضوا نهائيا على أوروبا.

أن هذه الغلطة الصغيرة التي ارتكبها موسى في الأندلس قد استحالت على مر السنين إلى خرق كبير عسر سده على المسلمين في الأندلس. بعد انقسامهم إلى دويلات وطوائف. فقد جعلت النصرانية تلك الهضاب التي اعرض عنها المسلمون ملجأ للثوار الصليبيين والناقمين على الحكم الإسلامي، يتحصنون فيه ويغيرون منه على البلاد الإسلامية آنا فآنا، إلى أن اشتد باسهم فاجدلوا المسلمين أولا عن «قشتالة» ثم مازالوا يطاردونهم من مكان حتى اجلوهم عن الأندلس».[1]

أن توقف موسى في جبال قرقوشة وغيرها في شمال الأندلس فلم يفتحها ليست غلطته بل هي غلط الوليد بن عبد الملك.

وكان موسى قد وجد في الجند البربري الباسل ومن معه من الجيش العربي الشجاع قوته الكبرى فعزم أن يحتل شمال الأندلس وجنوب أوروبا كله وتركيا حتى وصل الشام فيربط المغرب بدمشق من جهة الشمال كما ارتبط به من جهة الشرق فيكون «بحر المسلمين»[2] كله للدولة الإسلامية ساحله الشمالي والجنوبي. ويحقق ما كان يراه المسلمون من فتح القسطنطينية من جهة الأندلس.

رجوع موسى إلى المغرب

وكان موسى بن نصير بطلا مقداما، فوجد من البربر قوة جديدة ضاعفت كل المضاعفة قوته من العرب وغيرهم فتضاعفت في شجاعته واعتداده بنفسه، وفي طموحه ومضائه، وأورثته بطولة البربر ما أورث فرسان نوميديا المغاوير -وكانوا بربرا- حنبعل القرطاجني من جرأة وإقدام، فقطع إلى «روما» جبال الألب من اسبانيا، وسلك إليها طريقا لم يقطعه جيش قبله في التاريخ ! ولكن الوليد بن عبد الملك أشفق على المسلمين من هذه المغامرة فأرغم موسى على التقدم إلى جبال قرقوشة وغيرها والى جنوب أوروبا فرانسا، وايطاليا، ويوغوسلافيا، وبلغاريا، والى تركيا. فلم يسع موسى إلا الرجوع، وهو يتحسر على ما فوت عليه الوليد من خير كبير للإسلام والمسلمين ولأوروبا أيضا. فولى ابنه عبد العزيز على الأندلس وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبى بن نافع وزيرا، فشمر عبد العزيز فقام بأعمال كبيرة في الأندلس، وكان شجاعا كابية. فرجع

1 - محاضرات الأستاذ الكبير التعالبي «فتح العرب لشمال افريقية» نشرت في جريدة الضياء المصرية.

2 - هو البحر الأبيض المتوسط بحرنا العزيز، ويسمى قديما بحر الروم، وبحر العرب، ونحن نسميه التسمية الواسعة الفخمة فنقول «بحر المسلمين».

موسى إلى افريقية في سنة خمس وتسعين بعد سنتين قضاهما في الأندلس قام فيهما بأعمال جليلة.

قال ابن عذارى في «البيان المغرب» وفي سنة 95 انصرف موسى من الأندلس إلى افريقية بما أفاء الله عليه، فأجاز الأموال من الذهب والفضة والجواهر في المراكب إلى «طنجة» ثم حملها على العجلات. قال الرقيق: كانت وسق مائة عجلة وأربع عشرة عجلة. وكانت المائدة من ذهب يشوبه شيء من الفضة، ومطوقة بثلاثة أطواق، طوق ياقوت، وطوق زبرجد، وطوق لؤلؤ. وحملت يوما على بغل عظيم افره وأقوى ما وجد، فما بلغ المرحلة حتى تفتحت قوائمه. قال الليث بن سعد لم يسمع قد بمثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام. ولما قدم عليه ابنه مروان من السوس «المغرب الأقصى» خرج للقائه مع وجوه الناس التقيا قال مروان بن موسى لرجاله: مروا لكل من خرج مع والي بصيف أو وصيفة ! وقال موسى مروا انتم لهم من عندي بمثل ذلك ! فرجع الناس كلهم بوصيف ووصيفة» الظاهر أن هذا حدث قبل فتح الأندلس أيام غزو موسى لأنحاء المغرب وحشره من وجد من السبي فيها، وارتكابه تلك الأغلاط التي أنكرت عليه. وفي آخر سنة 95 وصل موسى من الأندلس إلى القيروان. وفي سنة ست وتسعين رحل إلى المشرق فاستخلف على القيروان ابنه عبد الله، فكان أميرا على المغرب الأدنى والأوسط، وعلى المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز فحصر إمارات المغرب كلها في أبنائه ! وكان رجوع موسى إلى المشرق في أبهة كبرى، وفي قافلة عظمى،وفي كنوز وأموال لا تحصى. قال ابن عذارى:» ثم رحل موسى من افريقية مع بقية أولاده مروان،وعبد الأعلى وغيرهما،ومعه أشراف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب، ومن وجوه البربر مائة، منهم بنو كسيلة بن لمزم، وبنو يسدر ومزدانة، ملك السوس، وملك ميورقة ومنورقة، ومن أولاد الكاهنة، ومائة من وجوه ملوك الروم[1] الأندلسيين، وعشرون ملكا من ملوك المدائن التي افتتحها بافريقية، وخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرفها حتى انتهى إلى مصر، فلم يبق بها فقيه ولا شريف إلا وصله وأعطاه، ثم خرج من مصر متوجها إلى فلسطين فتلقاه آل روح بن زنباع ونحروا له خمسين بعيرا، وأعطى آل روح بن زنباع عطاءا جزلا. ثم وافاه كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بشد السير إليه، ليدركه في قيد الحياة، وكان مريضا، ووفاه كتاب من سليمان بن عبد الملك ولي عهد أخيه الوليد يأمره بالتأني والتربص، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان إلى أن وصل إلى الوليد قبل موته بثلاثة أيام. فقال سليمان: لئن ظفرت به لأصلبنه ! فدفع موسى الأموال والمائدة والدر

1 - يريد بالملوك الأمراء المتسلطين المستقلين في نواحيهم. ويريد ابن عذارى بالروم هنا القوط لا الروم اللاتينيين. وملك ميورقة ومنورقة ليسا بربريين.

والياقوت والتيجان والذهب والفضة إلى الوليد ابن عبد الملك. قال المسعودي في كتابه «عجائب البلاد والزمان» قال:لما فتح طارق طليطلة، وجد بها بيت الملوك ففتحه، فوجد فيه زبور داود عليه السلام في ورقات من ذهب مكتوبة بماء ياقوت محلول من عجيب العمل الذي لم يكد يرى مثله، ومائدة سليمان، وأربعة وعشرين تاجا منظومة، بعدد ملوك القوطيين بالأندلس، إذا توفي احدهم جعل تاجه يذلك البيت، ووجد فيه قاعة كبيرة مملوءة بإكسير الكيمياء فجعل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك.

نكبة موسى بن نصير

قال ابن عذارى: وفي سنة 96 توفي الوليد بن عبد الملك فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس، وكان رجلا بادنا ذا سمنة فوقف حتى سقط مغشيا عليه. وقال غير ابن عذارى، انه عرضه على السيف إرهابا له وإهانة. قال ابن عذارى: فقال له سليمان: كتبت إليك فلم تنظر في كتابي !! هلم مائة ألف دينار . فقال: يا أمير المؤمنين قد أخذتم ما كان معي من الأموال، فمن أين لي مائة ألف؟ [1] فقال سليمان: لابد من مائتي ألف، فاعتذر، فقال، لابد من ثلاث مائة ألف دينار وأمر بتعذيبه، وعزم على قتله، فاستجار بيزيد بن المهلب، وكانت له حظوة عند سليمان ، فستوهبه منه وقال: يؤدي ما عنده. وقيل أن موسى افتدى من سليمان بألف ألف دينار «وهو مليون بحساب هذا الزمان».

قال ابن عذارى: وقيل أن سليمان بن عبد الملك بعد ما افتدى منه موسى دعا يوما بطست من ذهب فراه موسى ينظر إليه فقال له: يا أمير المؤمنين انك لتعجب من غير عجب والله ما احسب أن فيه عشرة آلاف دينار. والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بتنور[2] من زبرجد اخضر. كان يصب فيه اللبن فيخضر، وترى فيه الشعرة البيضاء. ولقد قوم بمائة ألف دينار وانه لمن أدنى ما بعثت إليه. ولقد أصبت كذا وكذا وجعل يعدد كما أصاب من الدر والياقوت والزبرجد حتى انتهى بهت سليمان من قوله.

وخرج سليمان يوما يتصيد معه موسى بن نصير فمر في منية[3] لها ذو وغنم يكون فيها نحو ألف شاه فالتفت إلى موسى وقال له، هل لك مثل هذه؟ فضحك موسى وقال: والله لقد رأيت لأدنى موالي أضعاف هذه ! فقال سليمان: لأدنى مواليك؟! فقال: نعم. والله نعم والله ورددها مرارا. وما هذه فيما أفاء الله علي؟ لقد كانت الألف شاه تباع بعشرة دراهم. كل مائة بدرهم. ولقد كان الناس يمرون بالبقرة والغنم فلا يلتفتون إليها. ولقد رأيت الذود من الإبل بدينار. ولقد رأيت العلج الفاره وامرأته وأولاده يباعون بخمسين درهم» لقد نقلنا هذه القصة التي وردت في الجزء الثاني من البيان المغرب مع وصف التنور لنرى الدرجة التي كانت عليها الأندلس والمغرب في الحضارة والغنى والعمران، وإسراف موسى في السبي حتى بخس عند الناس.

1 - الظاهر أن هذا بعد استصفاء سليمان لأموال موسى وأموال آل بيته، وإلا فانه قبلها يستطيع أن يدفع أضعاف هذا.

2 - ورد في القاموس أن التنور «هو كانون يخبز فيه» وهو كالفرن الآن.

هكذا ورد منية إما أن يكون اسم مكان أو أن القوم كانوا يتمنون كما يقع في مثل هذه النزهة. أما الذود فيطلق على ثلاث من الإبل إلى الثلاثين.

3 - هكذا ورد منية إما أن يكون اسم مكان أو أن القوم كانوا يتمنون كما يقع في مثل هذه النزهة. أما الذود فيطلق على ثلاث من الإبل إلى الثلاثين.

غزو جزيرة سردانية

ومن أعمال موسى بن نصير في المغرب غزوة لجزيرة سردانية. وكان ذلك بعد غزو طارق للأندلس. وكأنه أراد بذلك أن يشعر الروم وأهل الجزر المجاورة للمغرب بقوته فلا يتوهمون أن المغرب صار اعزل بمسير جيشه إلى الأندلس فتحدثهم نفوسهم بالغارة عليه. قال ابن الأثير: هذه الجزيرة -سردانية- في بحر الروم، وهي من اكبر الجزائر، ما عدا جزيرة صقلية واقريطش، وهي كثيرة الفواكه، ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره في البحر إلى هذه الجزيرة سنة اثنتين وتسعين فدخلوها. وعمد النصارى إلى مالهم من أنية الذهب والفضة فالقوا الجميع في الميناء الذي لهم، وجعلوا أموالهم في سقف بنوه للكنيسة العظمى التي لهم تحت السقف الأول، وغنم المسلمون فيها ما لا يحد ولا يوصف، وأكثروا الغلول، فاتفق أن رجلا من المسلمين اغتسل في الميناء، فعلقت رجله في شيء فأخرجه فإذا هي صحفة من فضة واخذ المسلمون جميع ما فيه، دخل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حمام فرماه بسهم فأخطأه ووقع في السقف فانكسر لوح فنزل منه شيء من الدنانير واخذوا الجميع وازداد المسلمون غلولا، فكان عضهم يذبح الهرة ويرمي ما في جوفها فيملؤها دنانير ويخيط عليها ويلقيها في الطريق فإذا خرج أخذها، وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهبا فلما ركبوا البحر غرقوا عن آخرهم فوجدوا أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم.

ولو كان موسى يقسم الغنائم على الجند كما أمر الله، ولو كان يتعفف في الغنائم فلا يصرفها إلا في وجوهها لتعلم جنده الأمانة، ولكنه كان يحتجن لملوكه فيحرم الجند مما لهم في الغنائم فعلمهم الغلول، وجعلهم ينهبون ما يستطيعون إخفاءه قبل أن تختفي الغنائم في خزائن موسى. إن الناس على دين ملوكهم، والرعية على مذهب خاصتها، والجند على طرية أميرهم، ينسجون على منواله، ويحاكونه في أفعاله. لقد أثقل الجند أنفسهم بالغلول الذي حرمه الله فغرقوا. وغرق موسى كان اشد. لقد أثقل نفسه بالأموال والسبي الذي أخذه من وجوه غير مشروعة. فغرق في عرق تعذيبه، وفي جموع أحزانه، كما غرق أبناء عبد العزيز وموسى في دمائهما، وتقطع كبده أسى لما وضعت رأساهما أمامه.[1] إنها نهاية لا نرضاها لموسى، الرجل الشجاع الذي اتصف في ميادين الحروب والإدارة بكل ما يشرف الرجال. ولكن المرء إذا لم يجعل دليله. ولم يحكم شريعة الله في كل أموره، فانه يكون بلاءا عليه ما هو نعمة وسعادة ! فلو اتبع موسى في المغرب طريق حسان العظيم، ونهج منهجه لكانت خاتمته رضية، ونهايته حسنة، وآثاره في المغرب كآثار حسان العظيم، البطل الأمين.

1 - انظر حادثة قتل عبد الله وعبد العزيز ابني موسى في فصل محمد بن يزيد الذي يلي هذا.

وفاة موسى

ثم أن موسى حج في سنة 98مع سليمان بن عبد العزيز الملك فلما وصل المدينة وافاه اجله. وكان ميلاده في سنة 19 ووفاته في سنة 98 وعمره 79 عاما. وقد ولي على المغرب في سنة 78 ورحل منه في سنة 96 فكانت مدته في الولاية تسع سنين ولم تكن نهايته حسنة كنهاية حسان فما هو السبب يا ترى؟

نهاية موسى بن نصير

لم تكن نهاية موسى بن نصير نهاية حسنة تسره، ولم يكن موقف البلاط الأموي منه في آخر الأمر، وهو الذي جاهد وسلك كل الطرق لاسترضائه، يرضيه. لقد أنكر سياسته في المغرب كثير من الأمراء الأمويين، منهم سليمان بن عبد الملك وعمر ابن عبد العزيز. لقد أنكروا مبالغته في السبي، وعدم عدله في البربر، واحتجانه للأموال، وتفريقها في الأولياء والأنصار، وهي لبيت مال المسلمين يجب أن تدفع إليه. ولصالح المغرب وثغوره يجب أن تصرف فيها، وللجند الذين غنموها يجب أن تقسم عليهم بالعدل. وأنكروا عليه عمله لنفسه لا للدولة، واستئثاره بإمارات المغرب والأندلس. لقد أسندها كلها إلى أبنائه، وفي المسلمين الذين في المغرب من هو أكثر كفاءة، وأحسن في العدل والأمانة. وأنكروا عدم ورعه في أموال الدولة، وقلة أمانته وتحرجه فيما يحشر لهم من المال. روى ابن عبد الحكم. أن سليمان بن عبد الملك بينا هو يقلب الهدايا التي جاء بها موسى بن نصير يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة وكان على الغنائم فقال، يا أمير المؤمنين أن الله قد أغناك بالحلال عن الحرام، واني صاحب هذه المقاسم، وان موسى لم يخرج خمسا من جميع ما أتاك به، فغضب سليمان، وقام عن سريره فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال: نعم قد أغناني الله بالحلال عن الحرام، فأمر بإدخال ذلك بيت المال.

وكان عمر عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك، أكثر إنكارا لسلوك موسى في المغرب. وكان سليمان حانقا عليه، فلما ولي الملك بعد أخيه الوليد عاقب موسى ونكل به، وانتقم منه شر انتقام. فكان عبرة لغيره من العمال الذين تسيطر عليهم الأنانية، ويستولي عليهم حب المال، وتتحك فيهم الشهوات فيعملون لأنفسهم لا للرعية ويسعون لرضى الرؤساء لا لرضى الله!

لقد كان من أسباب غضي سليمان بن عبد الملك على موسى عدم اعتباره له، ومبالاته به. لقد كتب إليه سليمان أن يتمهل في سيره ليصل بعد موت الوليد، فتكون

غنائم الأندلس والمغرب وسبيهما وكنوزهما له فيتصرف فيها بحكمته، ويضعها حيث يريد، ولا تقع في أيدي الوليد فيفرقها في صنائعه،ويستأثر بها أبناؤه وأتباعه، فلم يبال موسى بكتاب سليمان فأسرع في سيره، فوصل إلى الوليد قبل مماته بثلاثة أيام، فدفع إليه ما معه، فحرم منها سليمان، وارزأه في طرف وسبي وكنوز لا نظير لها.

أن سليمان لم يظلم موسى بانتقامه منه، وتنكيله به. فالله هو الذي سلطه عليه عقابا له لعدم عدله في رعيته، وعدم تمسكه بالدين في سياسته. أن موسى هو الذي صنع تلك النهاية السيئة لنفسه. فلو حرص على إرضاء الله، فتقيد في سياسته بالدين، لنال رضا الناس مع رضاه، ولكنه حاول أن يرضى الناس بكل الوسائل، ويملك حب رؤسائه بكل الطرق، حتى المحظور منها، كحشره الأموال لملوكه بدون أن يخمسها، ويخرج نصيب بيت المال منها، وعدم توزيعه غنائمه بالعدل على الجند الذين غنموها، فعلمهم الغلول، وعد الأمانة، وعرضهم لاسوإ عاقبة، وظلمه للبربر بما اخذ من أموالهم وسبي من ذرارهم، فعاقبه الله بان اسخط عليه من عصاه لاسترضائه وتنكب دينه لنيل حبه، وجعل المال والسبي الذي ظلم فيه، وتعدى حدود الله في جمعه سبب نكبته، وأشعره بحرقة كالتي أورثها للمغرب باحجافه في سبيه. وهكذا كل وال لا يشعر الله قلبه في النهاية، ولا يملأ نفسه في الخاتمة، إلا بمثل ما اشعر به رعيته بسياسته، فان كان حرارة، فجمر الغضا هو ما يحشو به نفسه، بما يسلط عليه من البلايا والنكبات من جنس ما كان منه لرعيته.

إن مصيبة موسى انه كان مغرما بإرضاء ملوكه، ولم تكن رغبته الكبرى في إرضاء ربه. روي أن معاوية كتب إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي إلي كتابا توصينني فيه ولا تكثري علي. فكتب إليه: أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس والسلام. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال:»من اسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه، واسخط عليه من أرضاه في سخطه، ومن أرضى الله في سخط الناس رضي الله عنه من أسخطه في رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه» هذا ما يجب على المؤمن أن يعتقده، ويجعله طريقه، لينال رضا الله ورضا مجتمعه، وتكون له المنزلة العظمى في الناس، ويعيش طول حياته عزيزا محترما.

أن موسى كان فاتحا عظيما، وبطلا مغوارا، وعالما بارعا، وعاقلا من عقلاء قومه ليس لنا ما نحتقره فيه من مواهبه العقلية، ولكن عدم تمسكه بالدين أورثه تلك الخاتمة السيئة.

أن الإنسان لا يسعد في الحياة بقوة ذكائه،ولا بكثرة علمه، ولا بغزارة ماله ولكن يسعد ويستطيب حياته، وينال كل حظوظه، باستقامة سلوكه، وصفاء طويته،وتمسكه بدينه، ومراقبته لله في كل ما يأتي ويدع من أعماله، فان لم يفعل ذلك اسخط ربه، فيجعل مزاياه العقلية وبالا عليه، وما أطغاه من نعم الله هو الذي يغرقه فيشرقه الماء الزلال، وتخنقه النعم التي يجعلها الله بلاء عليه.

أسباب النجاح والسعادة في الحياة

أن الاستقامة والعدل والتمسك بالدين هي -لا غيرها- سبب نجاح كل وال وكل موظف وكل راع، وعامل سعادته سعادة دائمة لا تعقب بالغصص، وهنائه هناء كاملا لا يقطع بالكدر، وثباته في قنته وعلياء وظيفته لا يتدحرج منها، واتصال حلاوة الأيام له لا تخرم بمرارة العواقب الوخيمة، والنهايات السيئة كنهاية موسى بن نصير!

أن حياة المرء تنبع من أعماقه، وتكون على حسب نفسه، فإذا كانت بيضاء بالدين، صافية بطهره، كانت أيامه بيضاء صافية،وحياته جميلة نقية، وإلا فان زق القطران لا يرشح إلا بالسواد، ولا يكون حوله إلا على قتامته، فما اسود به مكانه منه لا من غيره. أن ذنوبك أيها الإنسان هي التي تصبغ دنياك وحظك بسواد القطران، وتجعل أيامك سوداء منكرة كالغربان. أن دموع التوبة الصادقة من العصيان، هي التي تغسل ذنوبك وتغسل أيامك فتكون لك حمائم بيضاء، تقبل عليك بالسعادة والرضاء!

إن رأس مال المرء الرابح هو فضائل الدين! ومن أراد لأبنائه سعادة، ولنفسه بأبنائه خيرا، فليطبعهم بالدين، وليغرس فيهم الخلق الكريم، وليجعلهم بالتربية الدينية الصحيحة يراقبون الله فيما يأتون ويدعون، فان هذا هو أساس الفضل الذي يضمن كل الحظوظ، وسبب الاستقامة التي تورث كل سعادة، وعامل رضا الله الذي يضن لنا الرضاء بحظوظنا في الدارين.

ليت شعري هل سيعرف المغرب هذا كما عرفه أجدادنا فيأخذ به، امن سيستولي على شبابه حب المادة والإيمان بها، والثقافة الأوروبية اللادينية، وآثار الاستعمار اللعينة بمدارسه التي هي معاهد للتجميل بالدين، وصرف المسلمين عن سبب النجاح في الدارين، فيزهدون في هذه القاعدة -التمسك بالدين- وهي قاعدة لا يكون النجاح في الحياة بدونها![1]

1 - أن هذا الاستطراد إلى الشجون الأخلاقية والاجتماعية هو الذي يجعل للتاريخ زبدته وروحه، وليست خارجة عن نطاقه كما يتوهم من لا يعرف الغرض من التاريخ. انه للتربية قبل كل شيء.

إن موسى بن نصير كان ذكيا أريبا، وعاقلا رزينا، وكان في عقله على كل الفضائل ولكن لما جنح به الهوى، ولم يجعل للدين كل أزمته، ولم يكن لله بل كان لنفسه، كانت نهايته كما ترى؛ وهي نهاية لا نرضاها لفاتح عظيم؟، وبطل صنديد كموسى .ثم يأتي محمد بن يزيد فكيف تكون سياسته يا ترى؟

ولاية محمد بن يزيد 97 هـ

سليمان بن عبد الملك وإحسانه إلى المغرب

وفي سنة سبع وتسعين ولي على المغرب محمد بن يزيد مولى قريش. ولاه سليمان ابن عبد الملك. وكان سليمان للدولة الأموية وللمغرب خاصة أحسن من الوليد. كان ينكر سياسة الوليد للدولة، وعسفه للرعية، وعهد عدله في الناس، وتوليته الحجاج على العراق، وقرة بن شريك على مصر، وموسى بن نصير على المغرب. فلما ولى أحسن إلى الناس، وجبر خواطر الرعية التعيسة، وطب لجروح الدولة، فأنكف نزيفها، وطال عمرها. وجاء بعده عمر بن عبد العزيز فأصلح كثيرا من أغلاط الملوك الأمويين واحيا سيرة الخلفاء الراشدين،وعدل في الأمة عدلهم، فأورث للدولة الأموية قوتها وشبابها، وكون لها جمالها وازدهارها، فامتدت بها السنون، ولم يسرع إليها المنون ولولا سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز اللذان امتلكاها القلوب، وخلقا لها الأنصار، وبارك الله فيها بفضل عدلهما وحسن سيرتهما، لكانت قد لفظت أنفاسها في آخر القرن الأول أو في مطلع الثاني، فان الوليد رغم قوة شخصيته، فانه لم يكن مرضيا عند رعيته، لعدم أخذه في السياسة بدهاء والده وحكمته، وبعدم تمسكه بما أمر الله به ساسة الشعوب لرعاياهم. فولي سليمان فزال كثيرا من المظالم، وأنصف كثيرا من الجهات، وعزل كثيرا من الولاة الذين يظلمون ويستبدون، فتنفس المشرق والمغرب الصعداء، وأشرقت له الأيام البيضاء، وغسل صدور المغرب ما كان بها من سخط على الدولة، وملأه بالتفاؤل والرضاء.

وكان سليمان بن عبد الملك يجالس الفقهاء ويسمع مواعظهم فيرق لها، وتنهمر جموعه من شدة التأثر بها، لذلك تذر آخرته أكثر من الوليد،واخذ حظه من دنياه أكثر منه،وكان أحسن للرعية،وألطف بالأمة.

أن الصدور التي تغمرها دموع الخشوع والخشية لله هي التي تخصب بالخير، وتلين للناس،وتكون لعباد الله ربيعا لا شتاء !

وكان من حسنات سليمان الكبرى، ومن خيره على الأمة استخلافه لعمر بن عبد العزيز. وكان عبد الملك قد أوصى بالملك بعد سليمان لابنه يزيد فرأى سليمان أن عمر بن عبد العزيز أليق للدولة، فهو الذب يجدد شبابها، ويبني مجدها، ويسعد المسلمين، فاستخلفه فكان هو رأس الدولة بعده.

روى ابن الأثير: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك فقال: الحجاج بالعراق، والوليد بالشم، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا، فأرح الناس. فلم يمض غير قليل حتى توفي الحجاج[1] وقرة بن شريك في شهر واحد، ثم تبعهم الوليد، وعزل عثمان وخالد، واستجاب الله لعمر.

وكان الناس يقولون سليمان مفتاح الخير؛ ذهب عنهم الحجاج، وولي فأطلق الأسرى، وأخلى السجون، وأحسن إلى الناس».[2]

وكان سليمان قد أنكر سياسة موسى بن نصير في المغرب، ورأى بذكائه أن المغرب لابد يثور عليه انم لم يداو جراحه بسياسة عادلة، وبوال حكيم، وبتأديب موسى واله الذين أساءوا إلى البربر وتفروا قلوبهم عن الدولة. وما كاد يتولى الملك حتى اهتم بالمغرب كل الاهتمام، فاستشار وزيره الحكيم، ومستشاره الأمين رجاء ابن حيوه فيمن يليق لولاية المغرب، وأراده رجلا ذا عقل ودين، وحنكة وعدل، يعمل لمصلحة الدولة لا لنفسه، ويحرص على هناء الرعية وسعادتها، لا يتعصب لقومه فيحتقره البربر فيثورون عليه، بل يعملهم بالحسنى، ويساويهم بغيرهم من المسلمين قال ابن عذارى:»فمكث رجاء بن حيوة أياما ثم قال لسليمان: قد وجدت رجلا له فضل! قال: من هو؟ قال: محمد بن يزيد مولى قريش. فقال ادخله علي، فادخله عليه. فقال سليمان يل محمد بن يزيد. اتق الله وحده لا شريك له. وقم فيما وليتك بالحق والعد. وقد وليتك افريقية والمغرب كله. قال: فودعه وانصرف وهو يقول مالي عذر عند الله ما لم اعدل».

آثار محمد بن يزيد الجميلة في المغرب

وكانت ولاية محمد بن يزيد في سنة سبع وتسعين. وكان حسن السيرة عادلا رفيقا بالرعية، مخلصا للجولة، فأحبه البربر ، اقبلوا عليه وخضعوا له.

وكان محمد حريصا على إسلام البربر، وعلى تعليمهم أمور دينهم، والأخذ بأيديهم إلى ما يسعدهم، فتم إسلام البربر في عهده، وانقطعت الوثنية منهم فسجدوا كلهم لله.

وكان محمد بهذا العدل في سياسته، والإحسان لرعيته، والحب والحدب لأهل المغرب، من الوجوه الجميلة التي رأى فيها البربر حسن الأمويين فاقبلوا عليهم، وسكنت نار السخط التي أضرمها موسى في قلوبهم.

1 - كانت وفاة الحجاج سنة 95.

2 - الكامل لابن الأثير ج 1.

وكان محمد بن يزيد محمودا في أفعاله بالمغرب. لقد سد الثغور، ونظم الأمور، وسكن النواحي الثائرة على الدولة، ومسح بيد العدل والإحسان على قلوب أهلها فانطفأت أحقادهم، وأرجعهم إلى حظيرة الدولة. وعاش المغرب ساكنا مطمئنا طول أيامه. وكان عهده عهد هناء وسكون وتقدم المغرب. وذلك بفضل سليمان الذي أحسن الاختيار، واشترط التقوى على محمد بن يزيد. فلولا التقوى ما كان محمد بن يزيد على العدل والإحسان، وما كان خادما للرعية يعطيها من نفسه، ويبذل في إسعادها كل جهوده. لولا التقوى لكانت الغرائز قد تسلطت عليه، فتستولي عليه العصبية، فيحتقر البربر ويعسفهم، ويسيطر عليه حب المادة فيجور في الأنفس والأموال، ويسلك طريق موسى فيبوء بعاقبته.

أن التقوى هي سبب الصلاح وعامل النجاح، نساس العدل واصله، وأم الديمقراطية ومنبعها، لذلك اشترطها سليمان على عامله في المغرب.

نكبة آل موسى ابن نصير

وكان سليمان غاضبا على موسى بن نصير وال بينه، وعلى خاصته وحشمه، لما احتجنوا من أموال المسلمين، واستأثروا به من أموال الدولة، ولظلمهم وسوء سيرتهم في المغرب، فعزم على تأديبهم، واستخلاص تلك الأموال منهم.

وكان عبد الله بن موسى قد خلف أباه في المغرب، فأمر سليمان محمد بن يزيد بمصادرة أموال عبد الله وأموال آل بيته وحاشيته، وكل من كان يفيض عليهم موسى من أموال الدولة، وأمر بتعذيبهم حتى يؤدوا ما يطالبون به من أموال. قال ابن عذارى: وفي سنة 97 من الهجرة استقر محمد بن يزيد بافريقية بأحسن سيرة وأعدلها، ثم وصله الأمر بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه، واستئصال أموال بني موسى. فسجنه محمد وعذبه، ثم قتله بعد ذلك «بأمر من سليمان» وكان سليمان قد أمره بأخذ أهل موسى وولده وكل من تلبس به، واستئصال أموالهم وتعذيبهم حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار «بقيت في ذمة موسى».[1]

قتل عبد العزيز ابن موسى

وكان عبد العزيز بن موسى قد ولاه أبوه على الأندلس. وكان أميرا جليلا، وقائدا شجاعا، فتح فتوحات كثيرة في الأندلس، وقام بأعمال حسنة فيها. ولما نكب سليما أباه، وقتل أخاه عبد الله، وأدب آل بيته، ثار في الأندلس فخلع طاعة بني مروان. قال النويري في

1 - ما يرد بين قوسين في قول بعض الرواة بيس من ذلك الراوي بل من المراجع الأخرى.

نهاية الأرب[1]: فأرسل سليمان بن عبد الملك إلى عبد العزيز بن موسى رسولا «ليرجع إلى الطاعة» فلم يرجع. فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرا بقتله. فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب، ثم قرأ الحاقة فقال له حبيب: حقت عليك يا ابن الفاعلة! وعلاه بالسيف فقتله، فحمل رأس عبد الله ورأس عبد العزيز ابني موسى حتى وضعا بين يدي أبيهما وعذب حتى مات».[2]

ولاية الحر بن عبد الرحمان على الأندلس

وكانت الأندلس تابعة للمغرب وجزءا منها، يولي عليها عامله من يشاء. فاستعمل محمد بن يزيد على الأندلس بعد مقتل عبد العزيز الحر بن عبد الرحمات القيسي.

وكانت أيام محمد بن يزيد في المغرب خير أيام. كان يبعث السرية إلى ثغور افريقية فتغزو الجزر القريبة من المغرب فما أصابوه من مغنم قسمة عليهم، بعد أن يأخذ منه نصيب بيت المال، ولا يحتجنه لنفسه، ولا يظلم الجند فيما غنموه، فكان مثالا حسنا لرعيته في العدل والأمانة،والعمل لخير الدولة، والغيرة على المصلحة العامة، فساد الهناء في المغرب، وعكف أهله على البناء ولتشييد، وجد محمد بن يزيد في نشر الدين فتم إسلام المغرب في عهده، وانقطعت الوثنية من البربر ودخلوا كلهم في الإسلام، فلم يعد في المغرب إلا امة واحدة هي الأمة الإسلامية. أما النصرانية فقد بقيت عليها طوائف من الروم اجتنب في البلاد.

آثار الهجرة إلى الأندلس في تعريب المغرب

وكانت أفواج المهاجرين من عرب المشرق تترى على الأندلس لاستيطانها فيمرون من المغرب فكثر اختلاط العرب بالبربر فكان ذلك من أسباب انتشار العربية في المغرب وشيوع لغة الضاد في الأمازيغ. ولولا هذه الهجرة لكانت العربية ضعيفة في المغربين الأوسط والأقصى.

وفاة سليمان وعزل محمد ابن يزيد

وفي سنة تسع وتسعين توفي سليمان بن عبد الملك فكانت مدته في الملك سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال، وولي بعده سيدنا عمر بن عبد العزيز فعزل محمد بن يزيد وولي مكانه على المغرب ولى الله إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر. وكانت مدة

1 - الجزء 22 من نسخة دار الكتب المصرية المصورة.

2 - الظاهر انه يريد بتعذيبه أن هذا المنظر كان يؤلمه ويعذبه حتى مات لان موسى قد مات موته طبيعية في المدينة بعد ما عفا عنه سليمان.

محمد في الإمارة سنتين وأشهرا. وكان عهده بالمغرب صباحا باسما لعدله وكفاءته، ثم يعقب هذا الصباح الجميل ضحى مشرق سعيد ينتشي به المغرب فيصدح بأغاريد السعادة والأفراح، وذلك بإسماعيل بن عبيد الله الذي يخلف هذا الأمير الحبيب ويأتي بعده.

ولاية إسماعيل بن عبيد الله 100 هـ

وولي بعد محمد بن يزيد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم في محرم مائة وهو حفيد أبي المهاجر دينار الذي أحسن إلى المغرب وفتح قلبه للإسلام ولاه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

خلافة عمر وشخصيته

وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز قد ولى الخلافة في سنة تسع وتسعين لعشر بقين من صفر. فكان خير أمير، وأحسن من ولي من بني أمية جميعا. جدد في السياسة ما بلي من طرق الدين، وأحيا ما أندرس من عدل الإسلام، وتقيد في أعماله بقانون الله، وجعل الكتاب والسنة أمامه، وآخرته دائما أمامه، وجعل هذي الخلفاء الراشدين هديه، واتخذ جده الفاروق مثله الأعلى يحدوه في كل الأشياء.

وكان رحمه الله ورعا تقيا لا ينسى آخرته، ولا تتسلط عليه الشهوات فتذهله عن ربه. وكان رجلا عمليا طموحا، غير أن كطموحه كان إلى رضا ربه، وبلوغ ارفع الدرجات عنده، بخدمة عباده، ونصرة دينه،والقضاء على المنكرات والظلم الذي كان اغلب من تقدمه من الملوك الأمويين، فشمر عن ساعده فأصلح في الدولة ما افسد الأمويون الذين كانوا بظلمهم وعدم تقيدهم في السياسة بالدين، فطهر جهاز الدولة فعزل كثيرا من العمال والموظفين الذين يعملون لأنفسهم فيظلمون الرعية ويستبدون عليها، ويغشون الدولة ويضرونها، فولى بدلهم عمالا وموظفين صالحين يتسمون بالأمانة والدين، ويتحلون بالإخلاص والدراية، وعمد إلى أسباب الخلاف التي كانت تشقق عصا المسلمين، وتفرق جماعتهم، والتي أحدثها الملوك الأمويون ليتقوى بها حزبهم، ويضمنون بقاءهم في عرش الملك الذي اغتصبوه، فقضى على تلك الأسباب، من ذلك سب الإمام على رضي الله عنه، فان الأمويين كانوا يشتمونه في منابرهم، ويسبونه في خطب الجمع والأعياد، ويأمرون ولاتهم على الأمصار أن يلتزموا سبه في المنابر، ليصرفوا قلوب العامة عن آله، ويسدوا الطريق على آل البيت الذين كانوا أولى بالرئاسة وأحق بالزعامة.

وفد الأباضية إلى عمر بن عبد العزيز

وكان الأباضية يعظمون الإمام علي بن أبي طالب ويجلونه ويغارون عليه، فأسخطهم سب الأمويين له على المنابر، فلم يكد يتولى سيدنا عمر بن عبد العزيز حتى أرسلوا إليه وفدا من علمائهم وهم: جعفر بن السماك، وأبو الحر علي بن الحصين العنبري، والحتات بن الكاتب، والحباب بن كليب، وأبو سفيان قنبر البصري، وسالم بن ذكوان، فطالبوا الإمام

عمر بن عبد العزيز بإزالة هذه الفاحشة وقالوا له منددين: أن المسلمين يلعنون على المنابر !! فلابد بتغيير المنكر فأبدل اللعن بقوله تعالى:» إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون» إن هذا الوفد من علماء الأباضية من اكبر الأسباب في إزالة هذه البدعة التي شانت الدولة الأموية، وأسخطت القلوب المؤمنة عليها.

إنصاف عمر لآل البيت

ومن حسناته أيضا إنصاف آل البيت واحترامهم، وتعويض ما حرموه من عطائهم من بيت المال في عهود الملوك الذين سبقوه.

روى المسعودي قال: كتب عمر إلى عاملة بالمدينة أن اقسم في ولد علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» عشرة آلاف دينار. فكتب إليه: إن عليا قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده؟ فكتب إليه: لو كتبت إليك في شاة تذبحها لكتبت إلي أسوداء أم بيضاء؟ إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم والسلام.

عدل عمر وشخصيته

وكان عمر بن عبد العزيز حريصا على اتخاذ المسلمين، فالتزم عدل الإسلام، وديمقراطية الدين، وترك جبروت الملوك الأمويين، وتعصبهم لأنفسهم، ميلهم إلى بني جنسهم،واحتقارهم وغطرستهم على سواهم، فملك قلوب الرعية كلها، ورضي عنه زمانه، وسعدت الدولة الأموية في عهده، وتنفس المسلمون في ظله الصعداء،واستشعروا السعادة والهناء، وظفروا بما اشتاقوا إليه من العدل والمساواة، وثني بأعنة رعيته إلى طريق الدين، وكانوا من قبل يغرمون بما يغرم به ملوكهم الذين كان حب الدنيا يملأ قلوبهم، والشهوات تتسلط عليه، فوجههم عمر إلى الدين، فتنافسوا في العبادة، وتجلببوا بالتقوى، وتباروا فيما ينيلهم رضا الله.

قال ابن الأثير: كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، فكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن البناء، وكان سلميان صاحب طعام ونكاح فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن النكاح والطعام، وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وكم تصوم من الشهر؟

وجوب اعتناء المغرب بتاريخ عمر

إن عمر بن عبد العزيز هو إمامنا المرتضى، وخليفتنا العادل، اهتم بالمغرب فازدهر واعتنى بإسلامه فتم، فلابد بوقفة قصيرة في أبنائه، وما يرسم شخصيته، فانه من المثل العليا التي يجب أن نوجه إليها أبناءنا ونضعها أمامهم، ونغرس فيهم حبهم، ومن المثل العليا التي يحب أن نرسمها لساستنا. انه لزام عليهم أن يدرسوا تاريخ عمر بن عبد العزيز وتاريخ الخلفاء الراشدين ويقتدون بهم، ليكون الله معهم فيصلوا كل مراد؛ فان الله هو القوة التي يجب أن يتدرعوا بها ويعولوا عليها، ويقوموا أنفسهم فيها.

أن تاريخ عمر بن عبد العزيز الذي أحب المغرب واعتنى به، ورآه جزاء منه جزء من تاريخ المغرب، فلزام على ناشئتنا أن تعرف هذه الشخصية العظيمة، وهذا الأمير العادل، ولزام على المغرب أن يسمى أفخم مساجده، وأجمل شوارعه، وأحسن مدارسه الدينية باسم هذا الرجل العظيم تخليدا لذكراه، واعترافا بفضله.

نسب سيدنا عمر

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان. فوالده هو عبد العزيز بن مروان والى مصر الذي شكونا سيرته، وانتقدنا سلوكه، ولكن عمر لم ينزع إليه بل نزع إلى أمه الصالحة، ولم يثأر به بل تأثر بها رحمها الله. إن عبد العزيز كان مشتغلا بوظيفته، مستغرقا في أشغال إمارته، فلم يتفرغ لأولاده ليسكب فيهم روحه، فتركهم لامهم الصالحة فطبعتهم بدينها، وأنشأتهم على صلاحها.

أمه وأثرها فيه

أما أمه فهي أم عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت صالحة كجدها، قوية الشخصية، فأثرت في ابنها عمر وملأت بدينها وصلاحها، وحدثته عن جده عمر بن الخطاب وجعله مثله الأعلى في السلوك، وحببت إليه سيرته، وجعلته قدوته في الأخلاق.

وكانت وراثة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوية في حفيده عمر بن عبد العزيز فزادت بيئة أمه وتربيتها الصالحة لهذا الوراثة قوة وظهورا وسيطرة على سلوك عمر واتجاه، فكان نسيج وحده في بني مروان، ومتوجا بفضائل جده الفاروق، متقيا لله صافي الطوية، طاهر الدخلة، نقي النفس، جلدا، شجاعا، صريحا، ى يخاف في الله لومة لائم، عمالا في كل طريق يقربه إلى الله، متفانيا في خدمة المسلمين وإسعادهم لترتفع درجاته عند الله.

بيئة الزهاد والصالحين

وكان إلى هذه الوراثة الزكية من أمه يجالس أهل الزهد والصلاح، ويختلط بذوي التقوى والورع، ويؤثر من الخلطاء من يذكره بالله، ويقوده إلى طرق الخير والنجاح، فأثرت فيه هذه البيئة الصالحة فكانت هي التي تصبغه، فلم يتأثر بالبيئة الملوكية المادية التي كانت تدعو إلى ضد ما اتصف به عمر من تقوى ودين ومن عدل وتواضع. ولما ولي الخلافة، ورأى عباد المادة من أشعراء المتزلفين وغيرهم من عباد شهواتهم وأغراضهم الذين لا ينصحون الملوك بل يصورن لهم جورهم عدلا وفجورهم تقوى واستقامة، رأت هذه الطبقات المضللة التي لا تنصح ملوكها تقوى عمر فانجلت عنه، وتوارت عن ساحته، وأيست من وجود ما تريده عنده، وأعجب به أهل الزهد والتقوى وذوو النصح والإخلاص، والذين يغارون على مصلحة الدولة ويرونها مصلحتهم العليا، وعلى هناء الرعية ويعدونه غرضهم الأسمى، وما يحقق لهم الطمأنينة والهناء، فاقبلوا عليه، واجتذبهم هو إليه واختارهم حاشيته ووزراءه ومستشاريه، فكان يجالس من حضر منهم في مقره، ويراسل البعيدين عنه ويسألهم النصح والموعظة، فعاش مع صلحاء زمانه يؤثر فيهم ويتأثر بهم، فكان على ذلك الطهر الذي نرى، وعلى ذلك التوفيق الذي أناله رضا الأمة ورضا الله.

روى المسعودي في «مروج الذهب» قال لما استخلف عمر دخل عليه سالم السدى «من العلماء الزهاد» وكان من خاصته فقال له عمر، أسرك ما وليت أم ساءك؟ فقال: سرني للناس، وساءني لك. قال عمر: أني أخاف أن أكون أو بقت نفسي. قال ما أحسن حالك إن كنت تخاف !! قال. عظني. قال: أبونا آدم اخرج من الجنة بخطيئة واحدة!

وكتب طاوس إلى عمر»وكان من العلماء الصالحين»: إن أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير. فقال عمر: كفى بها موعظة».

كرهه للإمارة

وكان عمر يكره الإمارة، ويتهرب من الرئاسة، ويراها ثقلا يحاسب الله عليه، واجبات وفروضا سيناقشه الله فيها. ولما استخلفه سليمان بن عبد الملك في مرض موته بسعي من رجاء بن حيوة أخفى عليه رجاء وصية سليمان حتى فاجأه بها لما جمع الناس لبيعته، فلم يسع عمر إلا القبول لاعتقاده أن يزيد الذي لا يليق للإمارة هو الذي سيتقدم إذا تأخر هو، وانه سوف لا يخلفه إن لم يقبل من هو في طبقته في الدين أو أحسن منه،

وان الله سيحاسبه على تأخيره، وعلى كل فساد وظلم يقع في الدولة بتقدم بني عبد الملك الذين يتحكم فيهم الهوى لا الدين، وتسيرهم العصبيات والشهوات.

قال المسعودي: لما فرغ من دفن سليمان بن عبد الملك نودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وحضر بنو مروان فاشرأبوا للخلافة، وتشوفوا نحوها، فقام الزهرى[1] فقال: أيها الناس، أرضيتم من سماه أمير المؤمنين سليمان في وصيته؟ فقالوا: نعم، فقرأ الكتاب فإذا اسم عمر بن عبد العزيز، ومن بعده يزيد بن عبد الملك. فقام مكحول فقال: أين عمر بن عبد العزيز؟ وكان عمر في أواخر الناس،فاسترجع حين دعي باسمه مرتين أو ثلاثا،، فاتاه قوم فاخذوا بيديه وعضديه، فأقاموه، وذهبوا به إلى المنبر، فصعد وجلس عللا المرقاة الثانية، وللمنبر خمس مراقي، كان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك، وقام سعيد وهشام ابنا عبد الملك فانصرفا ولم يبايعا، وبايع الناس جميعا « ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين أرغمهما كعب بن جابر صاحب شرطة سليمان، وهددهما بالقتل، وسد عليهما أبواب الشقاق».

قال رجاء بن حيوة لما كتب سليمان وصيته وعهد فيها لمن بعده ودفعها إلي «أتاني عمر بن عبد العزيز فقال أخشى أن يكون هذا اسند إلي شيئا من هذا الأمر فأنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا علمتني أن كان ذلك حتى استعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا اقدر فيها على ذلك. قال رجاء: ما أنا مخبرك. قال: فذهب عمر عني غضبان. قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك فقال: إن لي بك حرمة ومودة قديمة، وعندي شكر فأعلمني بهذا الأمر فإن كان إلى غيري تكلمت ولله علي أن لا اذكر شيئا من ذلك أبدا. قال رجاء، فأبيت أن اخبره، فانصرف هشام وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى ويقول: فإلى من إذا نحيت عني أتخرج من بني عبد الملك؟»[2] تلك هي نظرة الرجلين إلى الإمارة فعمر يراها ثقلا يهرب منه، وهشام يعدها غنما فيتهالك عليه!

ورعه

قال ابن الأثير: لما استقرت البيعة لعمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك، إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحلي وجوهر إلى بيت مال المسلمين فانه لهم، واني لا اجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد! فردته جميعه؛ فلما توفي عمر وولي أخوها يزيد رده عليها وقال: أنا اعلم أن عمر ظلمك فقالت: كلا والله. وامتنعت من أخذه. وقالت: ما كنت أطيعه حيا واعصيه ميتا! فأخذه يزيد وفرقه على أهله!

1 - وهو محمد بن شهاب الزهرى كان هو ومكحول من العلماء الأجلاء في عهد سليمان ابن عبد الملك.
2 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص 153 ط المنيرية.

قالت فاطمة: ما كنت أطيعه حيا واعصيه ميتا! تلك لعمري شيم الحرة، وخصال المؤمنة،وصفات المرأة التي تسعد زوجها، ويرضى عنها الله. ليت شعري متى ترجع المرأة المسلمة إلى أخلاق دينها فتكون لزوجها كما كانت فاطمة لعمر ابن عبد العزيز. تطيعه حيا وميتا، وتحرص على رضاه في الحالين. ولا عجب أن تكون فاطمة كذلك فإنها بنت عبد الملك بن مروان، وزوجة عمر بن عبد العزيز! والوالد بتربيته الرشيدة، والزوج بسياسته الحكيمة هما سبب صلاح المرأة ورشادها. إنهما القالب الذي يشكل المرأة ويكونها. فإذا اعوجت نساؤنا في هذا العصر المائع فلضعف الآباء وفساد تربيتهم، وميوعة الأزواج وسوء سياستهم.

ذكر ابن الأثير أن ميمون بن مهران قال: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لما وضعت الوليد في حفرته نظرت فإذا وجهه قد اسود! فإذا مت ودفنت فاكشف عن وجهي ففعلت فرايته أحسن مما كان أيام تنعمه.

قال: واتاه أصحاب مراكب الخلافة يطلبون علفها فأمر بها فبيعت، وجعل أثمانها في بيت المال. وقال: تكفيني بغلتي هذه. ولما رجع من جنازة سليمان بن عبد الملك رآه مولى مغتما فسأله فقال: ليس احد من امة محمد في شرق الأرض ولا غربها إلا وأنا أريد أن اؤدى إليه حقه من غير طلب منه.

ولما ولي الخلافة قال لامرأته وجواريه: انه قد شغل بما في عنقه عن النساء، وخيرهن بين أن يقمن عنده أو يفارقنه. فبكين واخترن المقام معه.

رأيه في الملوك الأمويين

ولما ولي عمر الخلافة اخذ من أهله «بني أمية» ما بأيديهم، وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فاتته فقالت له: تكلم أنت يا أمير المؤمنين فقال: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، وتركم للناس نهرا[1] شربهم سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد، ومروان وعبد الملك ابنه، والوليد، وسليمان، وقد يبس النهر الأعظم، فلم[2] يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت له: إن بني أمية يحذرونك يوما من أيامهم. فغضب وقال: كل يوم أخافه غير

1 - يريد بالنهر موارد الدولة وبيت مالها. وقال شربهم سواء يعني يأخذ كل إنسان نصيبه. لا فضل لأحد على احد. ويزيد هو ابن معاوية . وعمر يريد أن الملوك الأمويين استأثروا بيت المال ينفقون منه في أغراضهم وأخلوه في شهواتهم وصنائعهم.
2 - لم هنا بمعنى لا.

يوم القيامة، فلا أمنت شره. فرجعت عمته إليهم فأخبرتهم وقالت: انتم فعلتم هذا بأنفسكم، وتزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده ! فسكتوا.

لما ولي الخلافة احضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم :إن «فدك»[1] كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله. ثم ولها أبو بكر كذلك، وعمر كذلك ثم اقطعها[2] مروان، ثم إنها صارت إلي، ولم تكن من مالي أعود منها علي، أني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانقطعت ظهور الناس ويئسوا من الظلم.

وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه وكاتبه مزاحم، إن أهلي اقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه،ولا لهم أن يعطونيه، واني قد هممت برده على أربابه قال: فكيف تصنع بولدك؟ فجرت دموعه وقال: أكلهم إلى الله.

وقال له ابنه عبد الملك « وكان تقيا مثله»: يا أمير المؤمنين. ما تقول لربك إذا أتيته، وقد تركت حقا لن تحيه، وباطلا لم تمته. فقال: يا بني. إن أجدادك قد دعوا الناس «دفعوهم» عن الحق فانتهت الأمور إلي وقد اقبل شرها وأدبر خيرها، ولكن أليس حسنا وجميلا أن لا تطلع الشمس علي في يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت فيه باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك؟

ولما مرض ابنه عبد الملك مرض موته، وكان من اشد أعوانه على العدل دخل عليه فقال له: يا بني كيف تجدك؟ قال أجدني في الحق. قال: يا بني: أن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال ابنه: يا أبتاه. لان يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب ! فمات في مرضه وله سبع عشرة سنة.

درجته العليا عند أهل عصره

قال محمد بن الباقر: إن لكل قوم نجيبة، وإن نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز وانه يبعث يوم القيامة امة وحده.

وقال سفيان الثوري: «الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وعمر ابن عبد العزيز وما كان سواهم فهم منتزون» يعني مغتصبون لإمارة المسلمين.

1 - فدك قرية بخيبر في الحجاز فيها عين ونخل أفاءها الله نبيه صلى الله عليه وسلم.
2 - اقطع أعطى. يعني أن مروان أعطاها لأهله وولده وهي مال المسلمين.

مراقبة لله وتقواه

قالت فاطمة امرأته: دخلت عليه وهو في مصلاه ودموعه تجري على لحيته فقلت: احدث شيء؟ قال: أني تقلدت أمر امة محمد، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والغازي، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير،وذي العيال الكثير، والمال القليل،وأشباههم في أقطار الأرض، فعملت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وان خصمي دونهم محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى الله، فخشيت أن لا تثبت حجتي عند الخصومة فرحمت نفسي فبكيت!

زهده وتقشفه

قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر أعوده فإذا عليه قميص وسخ فقلت لامرأته فاطمة -وكانت أخت مسلمة -: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت: نفعل ثم عدت فإذا القميص على حاله فقلت: الم أمركم أن تغسلوا قميصه؟ فقالت: والله ما له غيره! قيل وكانت نفقته كل يوم درهمين!

تلك هي حقيقة هذا الأمير العظيم سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ترسمها لك هذه المقتطفات التي نقلناها لك من سيرته. إنها قليل من كثير سطره المؤرخون لهذا الرجل العظيم.

كان لا يملك إلا ما على ظهره من الثياب! وعاش فقيرا وهو يستطيع أن يكون أغنى الأغنياء في زمانه. وكانت نفقاته في اليوم درهمين! إنها نفقة ابسط الناس عيشة في عصره! لقد احتقر الماديات الفانية، واغرم بما عند الله، واستكثر من ثوابه بخدمة المسلمين وإسعادهم.

لقد ازدهرت الدولة الإسلامية في زمانه، وإنضرت الأيام للمسلمين به، لأنه كان للدولة بتضحيته وتفانيه جذعا حيا يعطيها من نفسه، فاخضرت وازدهرت ودخلت ربيعها. ولو كان كملوك بني أمية الذين يرون الدولة روضا يرتعون فيه، وثديا يرضعون، لكانت على السهوم والتعاسة، والاصفرار كما كانت في زمانهم. ليت شعري متى تفرض دساتيرنا أن يدرس كل وال، وكل موظف سيرة الخلفاء الراشدين وسيرة عمر بن عبد العزيز ويتأثروا بها قبل أن يتولوا وظائفنا ليكونوا لنا كما كان أولئك لأجدادنا في خير القرون. إن هذه الشخصيات العظيمة أجدى من تاريخ رجالات أوروبا الهزيلة الذين لم يسعدوا أممهم كما اسعد خلفاؤنا الراشدون.

كان عمر بن عبد العزيز خيرا ه=على الأمة الإسلامية وكان خيرا كبيرا للمغرب.

اختياره للولاة والموظفين

وكان-رضي الله عنه- متحرجا في كل أموره، ويراقب ربه ي كل الأشياء، ويعلم انه مسؤول عن الدولة في كل النواحي، سيما في الولاة والموظفين، فاختارهم من ذوي الورع والكفاءة، ومن أهل الفضل والاستقامة، وجعل للدولة جهازا صالحا يورثها الصلاح والنجاح، ويوجه إلى ما يرضى الله، ويضمن للدولة قوتها وازدهارها.

وكان رضي الله عنه يعتني بالمغرب أكثر، ولبعده عنه، فهو لا يستطيع أن يراقب عامله فيه، ولإباء البربر وثورتهم على كل من يظلمهم ويتعدى حدود الله فيهم فبحث له عن رجل على حسب مزاجه، ومن الورعين الحازمين مثله، يعمل لله لا لنفسه ويرى الإمارة واجبات وفروضا ثقيلة لا مغانم ولذات، وحظوظا جميلة، وبعد الولاية وسيلة لأرفع الدرجات عند الله، فيجد ويجتهد فيما يرفع الدين، وينفع المسلمين، ويلتزم العدل في سياسته، ويتقيد بدين الله في معاملته لرعيته. فوجد هذه الصفات في إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر فولاه على المغرب.

نسب إسماعيل وشخصيته

وكان إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر والى المغرب المحبوب من قبل مسلمة ابن مخلد، وقد ورث حفيده إخلاصه وحزمه وحكمته، ودهاءه وحسن تدبيره، يزيد ذلك ويؤكده ورع كورع عمر وتقوى الله كتقواه.

وكان إسماعيل من كبار التابعين، ومن علماء المسلمين،ومن أعلام الزاهدين، ومن أئمة المجتهدين في بناء آخرتهم باستنفاد دنياهم في أعمال البر والإحسان،وفي نفع عباد الله، والقيام بكل ما يورث الدين قوة، والمسلمين سعادة.

وكان عاقلا حصيفا، ومدبرا حكيما، وبطلا شجاعا، ومن الفقهاء في الدين، والمقتدين في السياسة بالخلفاء الراشدين.

وكان ورعا نقيا، ينكر ذاته فلا يعتني بها، ويحرص على مصلحته العليا، وهي ثوابه عند الله الذي تستقيم به دنياه، وتحلو به آخرته، فيمهرها بالتفاني في خدمة المسلمين والتضحية بكل شيء لإسعادهم وهنائهم.

قال معن التنوخي: ما رأيت في هذه الأمة «في الزهد» غير اثنين: محمد بن عبد العزيز وإسماعيل بن عبيد الله المخزومي. وبلغ من زهده انه كان إذا اقبل من الغزو في الصائفة افترش درعه فنام عليها. وكان هو وأم ولده وفرسه في بيت واحد زهدا منه في الدنيا

وتواضعا. وأوصى أن يتصدق عنه بكل شيء تركه بعد موته فأجاز هشام منه الثلث.

وكان متقشفا في عيشه، كان همه ورغبته أن يرى نضرة السعادة في وجوه رعيته، وعلامات الغنى على ملامح المغرب الذي يتولاه، وإشراف الثروة واليسار في الرعية التي يرعاها. فشمر عن ساعده فاعتنى بالمغرب من كل نواحيه، فنشطت الزراعة، وازدهرت التجارة، واقبل أهل المغرب في حماس ونشوة على الأعمال، فعمرت الأسواق، وازدهرت البلاد، وكانت كوجوه أهلها تطفح بالنصارة والسعادة، وسادت الإخوة والمحبة بين العرب والبربر، فازدادوا تقاربا وامتزاجا، ورأى المغرب في ظل إسماعيل أياما جميلة كجمال العدل الذي يلتزمه، والديمقراطية الإسلامية التي نشرها في المغرب.

وكان يعتني كل الاعتناء بتعليم البربر أمور دينهم، وتثقيفهم بالثقافة الإسلامية الصحيحة، فأسس كثيرا من المساجد في أنحاء المغرب فأقام فيها الفقهاء للوعظ والإرشاد، وانشأ بجانب كل مسجد مدرسة ابتدائية لأبناء البربر تعلمهم العربية والدين،وتربيتهم تربية دينية قويمة. فتم إسلام المغرب في عهده، وتفقه البربر في دين الله، وعرفوا حلاله وحرامه. وكانت كثير من الجهات البعيدة عن القيروان لا تعرف من الدين إلا الشهادتين. أما السلوك فهو ما اعتادت قبل الإسلام. وكان الخمر منتشرا في المغرب لا تعرف كثير من النواحي حرمته. فعرف البربر بفضل تعليم إسماعيل انه حرام، وعلموا إضراره للإنسان والمجتمع، فتركوه ونبذوه، وتقيدوا بالدين في السلوك، وتطهروا مما لا ينبغي من عاداتهم في الجاهلية.

وكان عهد إسماعيل عهد تربية وتعليم للبربر إذا كان عهد من تقدمه عهد دعاية لهذا الدين، واخذ بأيدي البربر إلى طريق المسلمين. وقد اعتنى سيدنا عمر بن عبد العزيز بتثقيف البربر وتعليمهم، وتمام إسلامهم، فأرسل مع إسماعيل إلى المغرب بعثة علمية لتعين إسماعيل في هذا الواجب الأعظم، وتنبث في أنحاء المغرب شرايين دين وعلم لتورثه ثقافته وإسلامه الصحيح.

بعثة سيدنا عمر العلمية إلى المغرب

وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- يعرف واجبه في المغرب كل المعرفة. وكان يعلم أن تمام إسلام المغرب أمانة في عنقه، وفرض عليه. وكان يعرف أن المغرب قد انتشر فيه الدين، واعتنق اغلب البربر فيه الإسلام، ولكن إسلاما سطحيا لا يقترن بالعلم بأسرار الدين، والتفقه في شريعة الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام، فأرسل مع

إسماعيل إلى المغرب عشرة من العلماء التابعين، من ذوي الشخصيات القوية، والنفوس النيرة، والفقه في الدين. وأمرهم أن يتوزعوا في أنحاء المغرب فيفقهوا البربر في الدين، ويعلموهم الحلال والحرام، ليكون الدين في سلوكهم، كما كان في وجدانهم. فكان هؤلاء العشرة الأخيار اعضاد إسماعيل في تثقيف المغرب بثقافة الدين، وجهازه الأدبي في تقوية معنويات البربر. هؤلاء التابعون العشرة هم: أبو عبد الرحمان عبد الله بن يزيد المعافري الإفريقي الحبلي وقد سكن القيروان وتوفي بها في سنة مائة وفن بباب تونس.

والعالم الفيلسوف أبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبي وسننقل ترجمته وطائفة من أقواله وحكمه.

وإسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله. قال الشيخ عبد الرحمان الدباغ في كتابه «معالم الإيمان» : وإنما سمي إسماعيل بتاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله عز وجل يصرفه في وجوه الخير» وكان رجلا خيرا كريم النفس، سمح الخلق «من جملة ما روي من كرمه وجوده انه وجه رفقة المشرق فيها خدم مولدات فخرج يشيعهن إلى قصر الماء فسمع بكاءا فقال: ما هذا؟ فقال له: هؤلاء المولدات التي وجهت يبكين مع آبائهن وأمهاتهن وأخواتهن، فبكى إسماعيل وقال: إن دنيا بلغت بي أن افرق بين الأحبة لدنيا سوء. وأشهدكم أن كل من لها أب أو أم أو أخت في هذه الرفقة فهي حرة لوجه الله عز وجل. فانزل من المحمل سبعين مولدة فاعتقهن»[1] وكان يلبس جبة صوف،وكساء صوف، وقلنسوة صوف، ورغم غناه وذلك لزهده وجلده. «ولم يزل مقيمنا بالقيروان إلى أن حضرته نية في الجهاد فخرج في مركب متطوعا في غزوة عبد الله بن رافع إلى صقلية فغرق في البحر فمات وهو معانق للمصحف وذلك سنة سبع ومائة».

ومنهم أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي وقد توفي بالقيروان سنة ثلاث عشرة ومائة.

وأبو سعيد جعيل بن عاهان بن عمير الرعيني الغساني. كان فقيها صالحا ولاه هشام بن عبد الملك وتوفي قريبا من سنة خمس عشرة ومائة.

ومنهم موهب بن حبي المعافري سكن القيروان وبها كانت وفاته.

ومنهم طلق بن حبان الفارسي. وكان فقيها عالما، ومتقيا لله، مخلصا لدينه، انتفع به أهل المغرب، وله تلاميذ كثيرون.

1 - المولدة كالوليدة يطلق على الأمة المملوكة وقيل للتي ولدت بين العرب. الظاهرة أن إسماعيل كان تاجرا. إن العلماء في زمن أجدادنا كانوا يعظون لله ويعمرون المساجد بالدروس والإمامة والأذان وغيره لله، ويعتمدون على أنفسهم في معاشهم، فعاشوا أعزة مبجلين شجعانا.

ومنهم بكر بن سوادة الجذامي.

ومنهم إسماعيل بن عبيد الله الأعور. هذه هي البعثة العلمية التي أرسلها سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى المغرب فانبثت في أنحائه تزرع النور والحياة. وتبث الهداية والاستقامة. ثم استقر اغلبهم بعد ذلك في القيروان فصارت بهم وبأمثالهم من الصحابة والتابعين الذين تقاطروا إلى المغرب فاستوطنوه. ودار علم ومعرفة. ويشد البربر إليها الرحال للتخلص في العربية والدين. وقد استقر هؤلاء في المغرب فصار وطنهم ورأوه دارهم. وذلك للانسجام الذي كان بينهم وبين البربر. وما وجدوه منهم من حب وإقبال. وإعزاز وتقدير. ولنظرتهم الواسعة إلى الوطن؛ فان وطن المسلم هي الديار الإسلامية كلها. سيما ما يحتاج إليه من الأوطان. وما يجب عليه القيام فيه بواجب علمي أو ديني أو سياسي. فان أجدادنا كانوا لا يكتفون بالاستقرار فيها والبناء بها بل يتزوجون منها أيضا فيعقدون بوطنهم الجديد آصرة المصاهرة مع الروابط الإسلامية. ووشائج الصداقة. ليت شعري متى يموت التكمش من الخمول الذي يجعل احدنا يعتقد أن وطنه هو مسقط رأسه فحسب فيرضى فيه بعيش الذل والهوان بالحياة الخاملة التي تقتل مواهبه. وتقضي على نبوغه ! ومتى يذهب التعصب الذي يجعل كثيرا من البلاد تعد المسلم من غيرها غريبا فيها. إن أجدادنا قد سبقوا الانجليز الذين نعجب بهجرتهم واستقرارهم بعيدا عن وطنهم لمصلحة دولتهم المادية. ومع أنهم أجانب في الأوطان التي يستقرون فيها. ومكروهون عند أهاليها. إن رجوعنا إلى التربية الصحيحة التي كان عليها أجدادنا لأبنائهم ومجتمعهم هو الذي يكفل لنا التحلي بهذا الخلق الذي يضمن لنا انتشار ديننا. وذهاب البؤس. والمساغب عنا. ويورثنا نضوجا في العقل والأخلاق. وعزة وكرامة في الحياة.

أبو مسعود التجبيبي

وكان من العشرة التابعين رجل أعجب ببلاغته وفلسفته. وشجاعته الأدبية. سيما الشجاعة التي تجعل للعالم قيمته في مجتمعه. وآثاره العميقة في بيئته. وتجعله مجاهدا جهاده الأكبر. وهو تطهير النفوس. وتربية المجتمع. ومحاربة المنكرات والضرب على أيدي أهل الجور والفساد.

إن هذا العالم الشجاع الفيلسوف هو أبو مسعود سعيد بن مسعود التجبيبي وسأنقل لك ما ورد فيه في «معالم الإيمان» ونبذة من أقواله. لترى أي مجالس كان يعقدها العلماء للعلم والحكمة في تلك العهود. وأي عمق كانوا عليه في التفكير مع بلاغة في

المنطق. وتأثر بكتاب الله العزيز. أنهم لم يكونوا على بساطة كثير من فقهائنا وعلى جمودهم. لان منهل أولئك الإعلام هو كتاب الله الذي يعلمون فيه عقولهم. فيكتسبون منه فلسفة وبلاغة ويرقى عقولهم فتكون على الإدراك العميق.

قال آلدباغ: سكن أبو مسعود القيروان. وبث فيها علما كثيرا. وكان رجلا صالحا. وعالما. مشهورا بالدين والفضل. قليل الهيبة للملوك. لا تأخذه في الله لومة لائم ! روي أن الريان بن عبد العزيز بن مروان «احد الأمراء الأمويين» بعث إليه رسولا فوجده في مجلسه في جامع الفسطاط «بمصر» مع أصحابه. فقال له» الأمير يقرأ عليك السلام. ويقول لك: إن رأيت أن تؤنسنا بنفسك العشية فافعل فقال: اقرأ على الأمير السلام.وقل له ليست لي إليك حاجة نأتيك إليها فان تك لك إلى حاجة فات إليها !! فاتاه الرسول فاخبره فقصد إليه الريان فلقيه فسلم عليه وقال له يغفر الله لد يا أبا مسعود. أتاك رسولنا فكان من كلامك له ما كان ! فقال له أصلح الله الأمير. دعوتني إلى ما يشينني. ودعوتك إلى ما يزينك. فقال له: كيف ذلك؟ قال: إن من رآك ماشيا إلى مدحك وقال ذا طالب علم وخير. ومن رآني ماشيا إليك قال ذا طالب حطام وعرض. فشانني. فقال له الريان: سليت ما كان يقلي ونورته نور الله قلبك وعملك» الظاهر أن الريان هذا شقيق عمر بن عبد العزيز وابن أم عاصم. ففي مشيه إلى أبي مسعود تواضع المؤمن. وفي كلامه رقة لا نجدها في أمراء بني المتغطرسين.

قال الدباغ: وروي أن سعيد بن مسعود صاح يوم الجمعة على أمير افريقية في وظلمة وقد خرج الأمير من الجامع: أنا بالله لا بك ! فقضى الأمير حاجته. وسئل سعيد عن علامة ولي الله فقال: من استفرغت آخرته دنياه.ومن كان الحق هواه. ومن لم يكن له شيء مما يسخط الحق رضاه. ومن كان الذكر قوله. والعلم يقينه. وفي بيوت الله تعالى مجلسه. وسئل أيضا عن علامة التوكل فقال: من رضي بحكم الله. واطمأن إلى موعد الله عز وجل. فكان عنده ما تكفل الله له به من رزقه بمنزلة ما قد بلغه وملكته يداه. وسئل أيضا عن علامة الحلم فقال: ومن كان مصيبا في قوله. حليما في غضبه. ذا عفو في قدرته. راض في منزلته. غير مفتون بما ليس له. قد استغنى بأمر آخرته عن دنياه. وسئل أيضا عن الطاعة هل تكون لها منزلة اشد من منزلة فقال: نعم. إذا كانت الطاعة في منازل ثقلها. ودافعتها المعصية في منازل دفعها. فهنالك اشتدت الطاعة على أهلها. فكان أعظم ما يكون من أجرها. يريد أبو مسعود أن الطاعة أصعب إذا عارضتها الشهوات. وكان طرقها خلاف ما تدعو إليه الغرائز. وسئل أيضا عن الذي يزين العالم عند من جالسه. فقال: كثرة صمته. وقلة غضبه. وحسن خلقه. ولينه وخشوعه

وتواضعه. وقال سعيد: إذا رأيت العبد دنياه تزداد، وآخرته تنقص، مقيما على ذلك راضيا به، فذلك المغبون الذي ينتقص دينه وهم لا يشعر. وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة ! وقال: أحب الموت اشتياقا إلى ربي، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتي، وأحب الفقر تواضعا إلى ربي. وتوفي أبو سعيد بالقيروان ودفن بها.

ذلك نموذج من كلام هؤلاء العلماء الذين تختارهم سيدنا عمر بن عبد العزيز للمغرب فحسن إسلام البربر بهم بما عرفوا من أسراره، ورسخ الدين في صدورهم بما عرفوا من حقيقته، وتثقفت عقولهم بدروس أولئك الرجال، واستنارت نفوسهم بروح أولئك التابعين الأطهار الذين كانت معانيهم تنبثق من ألسنتهم كلا ذما حيا يسطع للعقول، ووجدنا قويا يغمر النفوس، وليحاءا يشرقون به على السامع والجليس إشراق الشمس بنورها لا بد أن يتلبس به كل من تطالعه. وقد عرف البربر بفضل هؤلاء العلماء الذين هم خلفاء الأنبياء، بتقواهم، وإخلاصهم، وحماسهم، وعملهم لله أن الدين الإسلامي هو الدستور الذي ينظم المجتمع. ويرسم للإنسان الخطة الناجحة في كل أموره، وانه هو دين العدل والمساواة والحرية. يحرم الظلم ويأمر بقمعه، ويوجب على المسلم أن ينهي عن المنكر إذا رآه بكل ما يستطيعه، وانه ين المساواة وقتل العصبيات، «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» ولا لمشرقي على مغربي إلا بالدين، وان الكفاءة والصلاح هي موجب التقدم للرئاسة، ولمهمات الدولة لا غيرها. فأحب البربر كل الحب دينهم، وازدادوا تمسكا به، وتقيدوا به في الأعمال، وصاروا من حماته، يثورون على كل إنسان يخرم قوانينه، ويتعدى حدود الله التي بينها؛ كما ازدادوا عزة بالإسلام، وشرقا عند أنفسهم بالدين الذي امتلأوا به، فارتفعت رؤوسهم، وازدادوا شموخا واعتدادا بأنفسهم لما سجدوا لله في الصلاة، وعرفوا منزلة المسلم عند الله، وقيمته الكبرى في الوجود. فصار للبربر مع عزتهم الموروثة عزة أخرى من دينهم، فتعذر خضوعهم لمن يريد أن يسوسهم بالعصا، ويعملهم بالجبروت، وينتهك شريعة الله في سياسة الشعوب، وقد استقر هؤلاء العلماء في المغرب يشرقون أشرافهم حتى بعد وفاة سيدنا عمر بن عبد العزيز، وعزل إسماعيل بن عبيد الله.

القضاء

واختار سيدنا عمر بن عبد العزيز لقضاء المغرب عبد الله بن المغيرة ابن أبي بردة الكناني. وكان رجلا على صلاح عمر وورعه، وعلى علمه وحرمه، ودهائه وحسن تدبيره. وكان شبيها بوزير العدل في هذا الزمان، يعين مع الأمير القضاء على النواحي، ويرجع

إليه في النوازل الكبرى التي تستعصي على فروعه. وقد أقام عبد الله قاضيا إلى زمن كلثوم بن عياض فاستعفى من القضاء وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائة. ولعل استعفاءه لفساد الأمور في تلك الحقبة، وظلم الأمويين وعدم تقيدهم في الإدارة بدين الله.

انقراض المسيحية من البربر

وفي أيام إسماعيل عم الإسلام البربر كلهم فلم يعد فيهم من يدين بالمسيحية، فتوحد المغرب بالدين فلم يعد فيه إلا المسلمون. وبقيت المسيحية في الروم والأوروبيين الذين كانوا يرون أنفسهم أجانب في المغرب وقد هاجر أكثرهم إلى جنوب أوروبا، ومن بقي عاش محترما سعيدا مونا بين المسلمين.

وفاة وعزل إسماعيل

وكانت أيام إسماعيل في المغرب زاهية جميلة. وكانت عامرة بالأعمال الجدية، والمشاريع البناءة. ولما توفي سيدنا عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة وجاء يريد ابن عبد الملك وكانت شخصيته خلاف شخصية عمر، ونظرته إلى المغرب غير نظرته عزل إسماعيل عن المغرب فكانت مدته في الولاية سنتين وأشهرا، فولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن دينار كاتب الحجاج وصاحب شرطته، فاخرج البربر من الحرير إلى شوك القتاد، ومن الظل الظليل إلى الهواجر المتقدة، فكيف سيكون موقف الأمازيغ من تلميذ الحجاج، وماذا ستكون نهاية هذا الوالي الجديد؟

ولاية يزيد بن دينار 102 هـ

ولما ولى يزيد بن عبد الملك في سنة إحدى ومائة ولي يزيد بن دينار على المغرب في سنة اثنين ومائة. واسم والد يزيد دينار وكنيته أبو مسلم.

ويزيد بن دينار هو كاتب الحجاج وصاحب شرطته. وإذا عرفنا الحجاج الذي اغرق العراق في الدماء، وملأت بطون الكتب أنباء ظلمه وجبروته وعسفه أيام ولايته، والذي عده المؤرخون والمسلمون من سيئات عبد الملك الكبرى، ومن جرائم الدولة الأموية العظمى عرفنا شخصية يزيد.

لقد بحث الحجاج عن رجل في قساوته وجرأته،وحبه لسفك الدماء، ليصول به فوجد هذه الصفات في يزيد بن دينار فجعله كاتبه، يستشيره، ويستعين به في خططه وظلمه، وصاحب شرطته،[1] ورئيس حرسه. ذلك الحرس العارم القاسي الذي استطاع به الحجاج أن يقتل من قتل من خيار المسلمين، ومن العلماء الصالحين، وان يسكت به السنة المنتقدين الذين كانوا ينعمون على الأمويين ظلمهم وانحرافهم عن الدين، واستئثارهم برئاسة الدولة، وجعلها ملوكية وراثية بعد أن كان رئيس الدولة إماما ينتخبه المسلمون ويختاره العلماء الصالحون.

شخصية يزيد وشخصية

وكان يزيد بن دينار مع جرأته وقساوته ذكيا،ولكن ذكاءه لم يقترن بالدين والصلاح فيستعمله فيما يجدي المسامين. وكان شريك الحجاج معينة فيما انى في العراق من منكرات، وارتكب فيها من ظلم.

وكان يزيد بن دينار قصيرا ذميما، قبيح الوجه، عظيم البطن، تحتقره العين، وتهرب منه النفوس، فلم يكن في شكله ممن يبعث الاحترام في النفوس، ولا في روحه على الصفاء الذي يخلق الحب له في الناس فيحترمونه، فنشأ بعقدة نفسية تجمله كارها للبشر لا يرى إلا سيئاتهم، محبا لسفك الدماء والانتقام من الناس من الناس، فعرف الحجاج هذا الطبع وتلك القساوة فولاه شرطته، واستكتبه وجعله من خاصته، فزاده اتصاله بالحجاج عنفا وقساوة، وألف الظلم وعدم المبالاة بسفك الدماء وظلم المسلمين، فصارت سياسة العنف والقسوة والظلم هي الطريق الطبيعي عنده في سياسة الأمة، وفي معاملة الرعية.

---

1 - صاحب الشرطة هو كرئيس «الكوميسارية» اليوم.

كره سليمان وعمر ليزيد ابن دينار

وكان سليمان بن عبد الملك يكره يزيد وينتقد ظلمه وجبروته. وكان الحجاج قد ولاه على إخراج العراق في مرض موته. فاقره الوليد فما إن تولى سليمان حتى عزله وأمر واليه على العراق أن يرسله إليه مقيدا في الحديد كما يؤتى بالمجرمين ليحاسبه ويناقشه.

وكان عمر بن عبد العزيز اشد كرها ليزيد بن دينار لا يريد أن يكون في جهاز من أجهزة دولته، وقد أبى يتطوع في جيش من جيوشه، فأخرجه من جنده وأبعده، لأنه صفحة ملطخة، ونفس لا تورث نصر الله الذي لا يكون إلا برضاه.

قال ابن خلكان في «الوفيات» لما حضرت الحجاج الوفاة استخلف يزيد ابن أبي مسلم دينار على خراج العراق فاقره الوليد بن عند عبد الملك واغتبط به. وقال «ما مثلى ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا !!».

ولما مات الوليد وولي بعده أخوه سليمان عزل ابن أبي مسلم وأمر به فاحضر في جامعة.[1] وكان رجلا قصيرا ذميما، قبيح الوجه، عظيم البطن، تحتقره العين فلما نظر إليه سليمان قال: أنت يزيد بن أبي مسلم؟ قال: نعم. أصلح الله أمير المؤمنين قال: لعن الله أشركك في أمانته، وحكمك في دينه ! قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فانك رأيتني والأمر عني مدبر، ولو رأيتني والأمر علي مقبل لاستعظمت ما استصغرت ولاستجللت ما احتقرت ! فقال سليمان: قاتله الله. فما اربط جأشه ! واغضب لسانه ! ودارت بينه وبين سليمان محاورات غير هذه، ثم كشف عنه فلم يجد عليه خيانة «في المال» فهم باستكتابه. فقال عمر عبد العزيز: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحي ذكر الحجاج باستكتاب كاتبه. فقال» أني كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة يا أبا حفص. فقال عمر: أنا أوجدك من هو اعف عن الدينار والدرهم منه فقال سليمان: من هو؟ قال: إبليس. ما مس دينارا ولا درهما قط وقد اهلك هذا الخلق ! فتركه سليمان.

وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز لما ولي في الخلافة بلغه أن يزيد ابن أبي مسلم خرج في جيش من جيوش المسلمين، فكتب إلى عامل الجيش برده وقال: أني لأكره أن استنصر بجيش هو فيهم».

هذا هو يزيد بن أبي مسلم عند سليمان الذي ينظر بذكائه ولطفه، وعند عمر ابن عبد العزيز الذي ينظر بدينه وورعه. فاختاره يزيد بن عبد الملك لولاية المغرب لأنه هو الذي يليق بمزاجه، ويطبق سياسته في المغرب، ويحقق له أطماعه، ويشبع نهمه في المال،

1 - الجامعة هي القيد الذي يجمع اليدين إلى العنق وهي القيود.

وغرامه بالمادة. فلنلم بيزيد الملك إلمامة قصيرة لنعرف شخصيته، فنتبين الباعث له على توليته، ولنقف فيه وقفة، فان تاريخ هؤلاء الملوك الأمويين الذين يسيطرون على المغرب، ويوجهون سياسته، ويخلقون جوه جزء من تاريخه، فلا بد بمعرفته، سيما إذا وقع شذوذ لنعلم أسبابه.

يزيد عبد الملك نسبه ونشأته

كان يزيد سليل عبد الملك بن مروان، وابن عاتكة بنت يزيد بن معاوية. فهو ابن ملك وأميرة، ولم يكن له عرق للصلاح والتقوى من قبل أمه يجتذبه إلى ناحية الدين كما كان لعمر بن عبد العزيز، ولا شب في خشونة الحياة فتورثه لطفه، وفي هواجرها فتورثه نضوجه، فيكون لعقله لا لشهواته، ولإرادته لا لغرائزه، بل شب في ظلال الملك،وفي حجر أميرة مدللة مترفة، ولا تنشئ أبناءها على الجلد والقوة، وعلى الصلاح والاستقامة، وعلى التضحية والبذل، بل تعلمهم حب النفس والاعتماد على الغير، واستخدامهم في شؤونهم الخاصة. ومن خصائص هؤلاء الأمهات الضعيفات المترفات إنهن يرين الجلد والتضحية وبذل النفس والتعب في مصلحة الغير مما لا يليق بمقام الأمراء، ومما يؤدي بأبنائهن ويعرضهم للأخطار، فيأبينه عليهم. فيكون هؤلاء المدللون الناشؤون في الحرير في كبرهم كالفراش التي تطير من دودة الحرير، لا نفع فيهم للناس، ولا هم لهم إلا الانغماس في شهواتهم وملذاتهم والهرب من حياة الجلد والجهاد، والتهالك على حياة المتعة والشهوات لا يستطيعون غيرها، فهم كذلك الفراش لا يستطيع العيش إلا في الروض النضير !

ومن آثار التدليل السيئة في الإنسان انه يكون في كبره في عجم المبالاة بالمقدسات وما يحترمه المجتمع كما كان في صغره إذ تمكنه أمه من اللعب بكل ما يشاء -لينكف بكاؤه وتبلغ رضاه- حتى بجواهرها ولآلها النفيسة فيقذف الدرة لاعبا بها كما يقذف الحصاة!

أن الأم هي القالب الذي يصب فيه الابن فيكون على حسبه، سيما إذا كان الأب كعبد الملك الذي تشغله مهام الملك عن الاعتناء بأولاده، والتفرغ لذريته ليطبعهم بما يريد فان الأم حينئذ تكون هي كل شيء في التربية، والعامل الأكبر الذي يؤثر في الشخصية. فنشأ يزيد محبا للذات، متبعا للشهوات، مغرما باللهو والصيد والغناء لا هم له إلا في القصف والخمر والنساء، وفي كل الملذات التي تشره إليها النفس المنطلقة في شهواتها الواقعة في قبضة غرائزها.

شخصيته

وكان سليمان بن عبد الملك يعتب على يزيد سلوكه، وينتقد عليه الاسترسال في شهواته، حتى هم أن يحجر عليه لإسرافه في شهواته، وإفراطه في لتباع غرائزه ولما ولي الملك بعد سيدنا عمر بن عبد العزيز استمر فيما شب عليه من حب اللهو والقصف والاسترسال في الشهوات الذي يكلفه المال الكثير، ويجعله محبا للمادة يعبدها، ويحرص عليها ويجمعها من كل الوجوه.

ولم يكن يزيد على دهاء سليمان وحنكته، ورجاحة عقله، فيختار ما ينعش دولته ويصلحها، ويورث الهناء والسعادة للرعية فتقبل عليه، ويكون رشيدا في سياسته بعقله، موفقا في إدارة الدولة بعلمه ودهائه كما كان سليمان؛ ولا كان كابن عمه عمر ابن عبد العزيز يتسلط عليه الدين؟، ويستولي عليه الورع، فيرسم له طريقه حرصه على رضا الله، ويضع له سياسته مراقبته لله، فيقوده دينه إلى طريق الرشاد، فيكون على العدل والسداد الذي يضمن له ازدهار دولته، وحب رعيته، بل كان يزيد ابن شهواته عاكفا عليها، وابن غرائزه واقعا في قبضتها.

من الخصائص الأولى لمن يتبع شهواته، ويقع في قبضته غرائزه، ويتصف بالإسراف والتبذير الذي يستلزمه الانغماس في الشهوات،وحب المال والغرام به، والتهالك عليه. وكان يزيد علة هذا. فلم يولي حتى عزل كثيرا من ولاة سيدنا عمر بن عبد العزيز الذين كانوا يعلمون لمصلحة الرعية، ويتبعون طريق الدين في سياستها ويعدلون فيها، ويجعلون الدولة مطية للرعية تحقق ازدهارها وهناءها، وأما رؤوما لها تربها وتحوطها، وتورثها شبابها وتعطيها من نفسها، فولى على النواحي ولاة يليقون بمزاجه وبسياسته التي كان يرسمها حب المال، وعدم المبالاة بالشعب. ونحن ننقل إليك بعض ما ورد من أخباره في كتب التاريخ فهي أحسن ما يصور لك شخصية هذا الملك ابتدأ هرم الدولة الأموية في عهده. فلولا وجود مسلمة ابن عبد الملك وغيره من رجال بني أمية المحنكين الذين ساندوا يزيدا وقضوا على كثير من الثورات في عهده،وسدوا له الثغور الكبرى، ولولا قصر أيام يزيد في الملك واتصاف خليفته هشام بكثير من الحنكة وطول أيامه في العرش، لكانت الدولة الأموية قد استغرقت في شيخوختها فلفظت أنفاسها في مطلع القرن الثاني، ولكان يزيد هو آخر ملوكها.

يزيد وجاريتاه حبابة وسلامة المغنيتان

قال ابن ا لأثير: وكان يزيد بن عبد الملك قد حج أيام أخيه سليمان فاشترى «حبابة»

المغنية بأربعة آلاف دينار! وكان اسمها العالية. وقال سليمان لقد هممت أن احجر على يزيد فردها يزيد فاشتراها رجل من أهل مصر.

وقال المسعودي: كان الغالب على يزيد بن عبد الملك حب جارية يقال لها «سلامة» القس. وكانت لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري فاشتراها نريد بثلاثة آلاف دينار فأعجب بها وغلبت على أمره»ولما أفضى إليه الملك» احتالت أم سعيد العثمانية جدته بشراء جارية يقال لها حبابة قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديما منها شيء «فرجعتها إليه» فغلبت عليه. فرفض سلامة ووهبها لام سعيد. فعذله مسلمة ابن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو. وقال له: إنما مات عمر أمس، وقد كان من عدله ما قد علمت، فينبغي أن تظهر للناس العدل، وترفض هذا اللهو. فقد اقتدى بك عمالك في سائرا فعالك وسيرتك، فارتدع عما كان عليه، فاظهر الإقلاع والندم، وأقام على ذلك «أربعين يوما»، فغلظ ذلك على حبابة فبعثت إلى الأحوص الشاعر ومعبد المغني» انظرا ما إنما صانعان. فقال الأحوص في أبيات له:

إلا لا تلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

إذا كنت لم تعشق ولم تدرما الهوى فكن حجرا من يابس الصلد جلمدا

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وغناه معبد وأخذته حبابة، فلما دخل عليها يزيد قالت» يا أمير المؤمنين اسمع منى صوتا واحدا ثم افعل ما بدالك، وغنته، فلما فرغت منه جعل يردد قولها:[1]

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي[2] وإن لام فيه ذو الشنان[3] وفندا

وعاد بعد ذلك إلى لهوه وقصفه، ورفض ما كان عليه «من الوقار والقيام بأمر الملك».

وذكر إسحاق بن إبراهيم المصلى قال: ذكر يزيد بن عبد الملك قصيدة الشاعر «الفند الزماني» التي مطلعها:

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان

1 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص 191 ط. المنيرية.

2 - مروج الذهب للمسعودي ج 3ص 207 ط التجارية.

3 - الشنان أصله الشنآن فسهل الهمزة بقلبها ألفا ثم حذف إحدى الألفين وهذا يجوز في الشعر وحده.

فقال لحبابة: غنيني به بحياتي، فقالت: يا أمير المؤمنين. هذا شعر لا اعرف أحدا يغني به إلا الأحوال المكي، فقال: نعم، قد كنت سمعت ابن عائشة «المغني» يعمل فيه ويترك. قالت:إنما عن فلان ابن أبى لهب، وكان حسن الأداء فوجه يزيد إلى صاحب مكة: إذا أتاك كتابي هذا فادفع إلى فلان ابن أبي لهب ألف دينار «من خزينة بيت مال المسلمين» لنفقه طريقه، واحمله على ما شاء من دواب البريد، ففعل. فلما قدم عليه قال: غنني بشعر الفند، فغناه فأجاد وأحسن، وقال: أعده فأعاده فأجاد وأحسن. وطرب يزيد، فقال له: عمن أخذت هذا الغناء؟ فقال يا أمير المؤمنين. أخذته عن أبي، وأخذه أبي عن أبيه، فقال: لو لم ترث إلا هذا الصوت لكان أبو لهب قد ورثكم خيرا كثيرا. فقال: يا أمير المؤمنين. إن أبا لهب مات كافرا مؤذيا لرسول الله صلى عليه وسلم! فقال: قد اعلم ما تقول، ولكني دخلتني له رقة إذ كان مجيدا للغناء، ووصله وكساه، ورده إلى بلده مكرما».[1]

وكان يزيد محبا للغناء، ويجيده، وله ملكة كبرى فيه، فلو كان مغنيا لعذرناه ورأيناه في طريقه. أما وهو ملك فيجب أن يغرم بالجد أكثر، ويعطي نفسه لمهام الملك، ومشكلات الدولة، لتصدح دولته مغنية بشدة الأفراح، أما انغماسه هو في الغناء والقصف فقد أغرقها في الدموع والنواح.

قال ابن الأثير: طرب يزيد يوما وعنده حبابة وسلامة «تغنيانه» فقال دعوني أطير! فقال حبابة: على من تدع الأمة؟ قال عليك! ! قيل: وغنته يوما:

وبين لتراقي واللهاة حرارة وما ظمئت ماء يسوغ فتبردا

فأهوى ليطير، فقالت: يا أمير المؤمنين. أن لنا فيك حاجة. فقال: والله لأطيرن! فقالت: على من تخلف الأمة والملك؟ قال: عليك والله! وقبل يدها! فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك!

وخرجت حبابة إلى ناحية الأردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى أنتنت، وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها ويبكي. فكلم في أمرها حتى أذن في دفنها «فدفنها خمسة أيام فلم يطق ذلك فنبشها وأخرجها من القبر وجعل يقبلها ويبكي فقوي عليه الحزن حتى قتله بعد سبعة عشر يوما».[2]

أن هذه الأخبار التي نقلناها لابد أن يعرفها من يدرس تاريخ المغرب دراسة تامة ليعرف

1 - النجوم الزاهرة ج 1 ص 105 ط دار الكتب.
2 - النجوم الزاهرة ج 1 ص 105 ط دار الكتب.

الأسباب الداعية ليزيد لاختيار كاتب الحجاج لولاية المغرب، ويدرك العوامل التي هرمت بها الدولة الأموية فماتت، ويعرف الأسباب التي جعلت المغرب في هذا القرن ينفصل عن الأمويين ويؤسس دوله الكبرى.

لقد كان يزيد شابا لما ولي الملك لم يتجاوز عمره الثلاثين، ولم تحنكه التجارب، فزادت فورة الشباب في حبه اللهو، وأيدت ما كان به بالوراثة والتربية المدللة من غرام بالملذات، وانغماس في الشهوات.

وكانت زوجته أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بنت أخ الحجاج. فاجتمعت على يزيد الأسباب الدافعة للهوى، والزوجة كالأم تصبغ الرجل وتؤثر فيه.

وقد توفي يزيد في سنة خمس ومائة وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ويومين. فما آثاره في المغرب؟ ولماذا اختار له يزيد بن أبي مسلم وهو في الظلم والشناعة كما وصفه المؤرخون، وكما نعته سيدنا عمر بن عبد العزيز؟

أسباب ولاية ابن أبي مسلم على المغرب

كان يزيد يعرف قوة شكيمة البربر، وإباءهم وعزتهم، وكان يسمع بثوراتهم على من يناؤهم، ويسوسهم بما لا يرضيهم، وكان يعتزم أن يسوس المغرب على حسب مزاجه، ويسير فيه غير سيرة سلفه عمر بن عبد العزيز، فولى عليه يزيد ابن دينار الذي استطاع هو والحجاج أن يخضعا العراق الثائر للأمويين، ويمكناهم من ناصيته، وينفذا فيه سياستهم. وما علم يزيد أن المغرب غير العراق. فالعراق كان ثائرا منافسا فولى عليه عبد الملك الحجاج الذي كان اكبر مخزاة شانته، أما المغرب فقد كلن على أتمه في الهدوء والحب والإقبال على الدولة والانسحام بها لما توفي سيدنا عمر ابن عبد العزيز. ثم أن البربر غير عجم العراق الذين وطئهم الحجاج برجله فاستكانوا فلو أن الحجاج ولي على البربر فعاملهم معاملته لأعاجم العراق، وارتكب في المغرب فظائعه في العراق لثار عليه البربر فقتلوه، ولثاروا على عبد الملك بن مروان وانفصلوا عن دولته. هذا ما عرفه عبد الملك فلم يخاشنهم لما فتح بلادهم، ولم يرض أن يتولى عليهم موسى بن نصير بل آثر أهم حسان العظيم.

حب يزيد بن عبد الملك للمال

وكان يزيد محبا للمال مغرما به، يجمعه بكل وسيلة، ويحصل عليه بكل الأسباب، وإن كان ذلك يرهق الرعية، ويخالف الدين، ويأباه أسلافه الذين تقدموه. قال ابن الأثير

يذكر حرص يزيد على المال :»وعمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لا يوافق هواه فرده، ولم يخف شناعة عاجلة، ولا إثما عاجلا، فمن ذلك أن محمد بن يوسف أخا الحجاج بن يوسف كان على اليمن فجعل عليهم خراجا مجددا «يعني غير الزكاة المفروضة» فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله يأمره بالاقتصار على العشر ونصف العشر، وترك ما «ابتدعه» محمد بن يوسف، وقال: لان يأتيني من اليمن حفنة ذرة أحب إلي من تقرير هذه الوضعية،[1] فلما ولي يزيد بعد عمر أمر بردها وقال لعامله: خذها منهم لو صاروا حرضا[2] والسلام[3]» هذه هي رغبة يزيد في المال.

وكان يزيد قد رأى المكنوز التي جمعها موسى بن نصير من المغرب فأراد مثلها فولى ابن دينار ليجمع له نظيرها، ويجعل المغرب بقرته الحلوب، ومزرعته التي تغل عليه ما يملأ خزائنه، ويشبع نهمه إلى المال. فجاء يزيد بن دينار إلى المغرب في سنة اثنتين ومائة وهو يعرف هذه الرغبة في مليكه، فعزم على إشباعها، وبلوغ رضاه بما يحتلب له من المغرب، وبما يرسل إليه من أموال يستخلصها بكل طريق.

قتل يزيد بن دينار

وكان البربر لما جاء ابن دينار قد اسلموا كلهم بفضل جهود من تقدمه الولاة. فعوض أن يسر بذلك الإسلام، ويرى أن من واجبه تأكيده، وتوسيع نطاقه، وبذل الجهد ليسلم الروم الذين لم يسلموا رأى هو عكس ذلك، فانه قد ساءه أن يجد البربر كلهم قد اسلموا لم يبق فيهم مشركون يضع الجزية على رقابهم، والخراج على أموالهم، ويكونون له مورد مال وباب للثراء، «فعزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السود، «وهو القرى» من أهل الذمة فاسلم بالعراق فانه ردهم إلى قراهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار».[4] وزعم يزيد بن دينار أن بلاد المغرب فئ للأمويين، ومغنم لهم، فتحوه عنوة بالسيف فهو ملك للدولة لها أن تقرر ما شاءت من الخراج على أراضيه. وهذا ما رأى خلافه حسان كما بينا، واقره موسى بن نصير،وكل الولاة من بعده. فعلم البربر أن ابن دينار لا يعتبر إسلامهم، ولا يراهم مسلمين، وانه سيعاملهم معاملة الكفار فيفرض الجزية على رقابهم، والخراج على أراضيهم. فنصحوه أن يترك ما عزم عليه، واحتجوا عليه أن يحزم دين الله، ويستحل ما حرم الله فأبى واستكبر، وثار وتنمر، فلم يجد فيه الكلام، فعلم

1 - ورد في القاموس المحيط أن الوضعية هي ما يأخذه السلطان من خراج.
2 - الحرض جمع حرض وهو المضني مرضا وسقما الذائب بمرضه.
3 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص: 166 ط . المنيرية.
4 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص 182 ط. المنيرية.

البربر أن يزيد فظ خشن، والخشن لا يليق له إلا المخاشنة، وانه مستحل لما حرم الله من أموالهم، منهك بعدهم كفارا لحرماتهم، فعزموا فيه عزيمتهم. أنهم أبناء القرى وأبناء الجبال، صناديد لا يهابون الوغى، ولا يرضخون للذل، ولا يستطيع احد أن ينوخهم كالبعير فيرحّله أو يجزره، فهجموا على ابن دينار فقتلوه لشهر واحد من ولايته، ومرغوه في التراب، ولقنوا فيه درسا ليزيد بن عبد الملك فتح عينيه، واراه أن البربر غير العجم العراق، وان ما يستطيعه في المشرق لا يستطيعه في المغرب الفتي !

ولاية محمد بن يزيد الثانية

وكان البربر يعلمون أن يزيد بن عبد الملك لا يرضى إسماعيل بن عبيد الله واليا له، لبعد مزاج إسماعيل عنه، وان إسماعيل لا يرضى أن يتولى ليزيد فاتحه أهل الفضل والدين في المغرب إلى المغيرة بن أبي بردة الكناني فعزموا على توليته لما يتصف به من دين وعقل وشجاعة، فأبى المغيرة وابنه عبد الله خوفا أن يتهم بالتحريض على ابن دينار لأنه كان في القيروان لما قتل. وكان محمد بن يزيد في صقلية غازيا لما قتل ابن دينار فرجع فولاه البربر أمرهم، وأرسلوا إلى يزيد بن عبد الملك:»أنا لم نخلع يدا من طاعة، ولكن يزيد بن دينار سامنا مالا يرضى به الله ورسوله فقتلناه واعدنا عاملك» فعرف يزيد انه إذا خاشن البربر فسيثورون عليه، وينفصلون عنه، وانه لا طاقة باسترجاع المغرب إذا خرج من حظيرته، فلم يسعه إلا السكوت والرضى بما فعل البربر فأجابهم معتذرا:»أني لم ارض ما صنع يزيد» واقر محمد بن يزيد أياما ثم رأى أن إقراره في الولاية دائما لا يليق بكبريائه، وان ذلك قد يجرئ المغرب فيتفتى عليه في النواحي الأخرى، فعزل محمد بن يزيد وولى عامله على مصر بشر بن صفوان الكلبي على المغرب.

لقد ذكر بعض المؤرخين سببا ثانيا لقتل لبن دينار، ولكن السبب الأكبر الذي أثار عليه البربر هو ما ذكرنا، وما هذا السبب إلا القبضة التي يطفح بها الكيل، والجرعة التي يفيض بها الإناء. ونحن نذكره إتماما للفائدة.

قال ابن عذارى:»وكان يزيد بن أبي مسلم ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه فقام على المنبر خطيبا فقال: أني رأيت أن ارسم اسم حرسي «بالنار» في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها، فارسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره حرسيا ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على احد أسرع لما أمرت به فلما سمع حرسه ذلك قالوا جعلنا بمنزلة النصارى فقتلوه» إن المرء ليسم ماله بالمكواة، وعبده بالنار، أما الحرس الشجعان فلا يخطر ببال احد أن يسهم إلا إذا هانوا عنده ورآهم كالعبيد. انه يمكن أن

يثور البربر على شارة في الذراع، أو علامة فوق الجسم، ولكن يزيد عزم على وشمهم عليه فثاروا عليه. وكان هؤلاء الحرس من البربر البتر الأعزاء.

وقد أورد المؤرخون قصة الوضاح بن أبي خيتمه حاجب سيدنا عمر بن عبد العزيز مع يزيد بن دينار وقعت له في المغرب، وهي تدل على شجاعة الوضاح وقوة إيمانه، وعلى جبروت ابن دينار وعدم عفته في دماء المسلمين، كما أن فيها عبرة للظالم الذي يعتد بقوته المادية، وينسى قوة الله التي تنصر الضعيف، وتكون مع المظلوم، فتدور الدوائر على الظالم القوي، ويكون الضعيف المظلوم هو الأعلى لان الله معه، وهو المنتصر لان قوة الله بجانبه.

حدث الوضاح بن أبي خيتمه -كان حاجب عمر بن عبد العزيز قال: أمرني عمر بن عبد العزيز «في مرض موته» بإخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم أخرجتهم وتركته فحقد علي. فلما مات عمر هربت إلى افريقية خوفا منه. قال فبينما أنا في افريقية إذ قيل قدم ابن مسلم واليا فاختفيت فاعلم بمكاني، وأمر بي فحملت إليه. فلما راني قال: طالما سالت الله أن يمكنني منك. فقلت: وأنا والله لطالما سالت الله أن يعيذني منك! فقال ما أعاذك الله. والله لأقتلنك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته! ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما، وأمر بالوضاح فأقيم عليه مكتوفا. وقام السياف وراءه. ثم أقيمت الصلاة، فتقدم يزيد إليها، فلما سجد أخذته السيوف، ودخل على الوضاح من قطع كتافه وأطلقه» فنجا من كان على النطع مكتوفا، وقتل من كان على العرش بالجند محفوفا، وأيديه مملوءة بالسلاح.

إن المرء لا يستعيذ إلا من الشر والشيء الكريه، وقد قال الوضاح «وأنا طالما سالت الله أن يعيذني منك» لم يخضع ليزيد الجبار المتغطرس كما يفعل الجبناء، ولم يتذلل له كما يفعل الضعفاء، بل قابله بشجاعة المؤمن الذي يعتقد أن العمر بيد الله، لا يستطيع المخلوق أن منه دقيقة، وان النفع والضر لله لا يقدر الإنسان أن ينالك بشيء لم يجعله لك.

إن هذه القصة التي أوردها ابن خلكان في «الوفيات» تدل على أن سيدنا عمر بن عبد العزيز قد سجن يزيد بن أبي مسلم عقابا له فظائعه في العراق وانه بقي في سجنه إلى أن توفي سيدنا عمر رضي الله عنه. إن هذه القصة تؤيد ما ورد في كتاب «النجوم الزاهرة» من أن سليمان بن عبد الملك عزل يزيد بن أبي مسلم عن ولاية العراق بيزيد ابن المهلب وأمره باعتقاله وإرساله إليه فأرسله إليه فحسبه.

لقد لاقى ابن أبي دينار جزاءه على ما سفك من دماء المسلمين في العراق بان قتله البربر، وتلك هي عاقبة الظلم ومآل الظالمين. وجاء بعده بشر بن صفوان الكلبي ولاه يزيد بن عبد املك على المغرب، فخرج من مصر إليه في شوال سنة اثنتين ومائة فكيف ستكون سيرته في المغرب؟ إن دماء ابن دينار جرت قد كتبت السطور المؤثرة التي تعظ الولاة وتنهاهم عن الظلم والطغيان، وتنبههم إلى المصير الذي يصيرون إليه، وإذا رفعوا على المغرب المسلم العصا، وساسوه بغير ما انزل الله.

وكانت مدة يزيد بن دينار في الولاية على المغرب شهرا واحدا ثم كان ما كان والبقاء الدائم لله العظيم الشأن.

ولاية بشر بن صفوان الكلبي 103.

وكان قتل البربر ليزيد بن دينار لجوره وعدم عدله، وظلمه وغطرسته، وتعدى حدود الله في سياسته، وعظة ليزيد بن عبد الملك، فعلم أن المغرب لا يخضع بالعنف ولا ينقاد بالجبروت ولا يسكن له إلا بالعدل في السياسة، والإنصاف في المعاملة، وان البربر إنما يخضعون لمن يحترمهم لا لمن يحتقرهم ويتجبر عليهم، وينقادون لمن يعاملهم بالحسنى، ويطبق فيهم سياسة الله العادلة، ويساويهم بغيرهم من المسلمين وعلم يزيد أن المغرب لا يليق له إلا رجل رزين عاقل، يتحلى بالحزم والشجاعة، وبالدهاء والحنكة، وبالسهولة في الأخلاق، واللطف في المعاملة، فاختار له بشر ابن صفوان الكلبي لاتصافه بهذه الصفات، فولاه على المغرب في سنة ثلاث مائة.

وكان بشر بن صفوان عامل مصر ليزيد بن عبد الملك؛ ومصر عند الأمويين هي الدرة المتألقة في تاجهم، والناحية الأثيرة في دولتهم، لخصبها وغناها، ولهدوئها وانقيادها، ولموقعها المهم، فإنها الوصلة بينهم وبين المغرب، والرابطة بين أسيا وافريقية ولصلتها المتينة بالناحيتين، فأي شيء يحدث بها إلا انتقلت عدواه إليهما؛ لذلك لا يختار لها الأمويون والعباسيون إلا الولاة الأكفاء، والصناديد المحنكين، وإلا أنصارهم من رجالات العرب الذين ابلوا في نصرتهم، وكانوا أجنحتهم إلى عرش الملك والسلطان، ومخالبهم وأنيابهم في القضاء على المعارضين والمنافسين. وكانوا يرون أن إسناد مصر إلى أولئك الأنصار وتوليتهم عليها، هي أحسن جزاء لهم، وذلك لغنى مصر وخصبها، وغزارة دخلها، وكثرة خيراتها، وهدوئها بانقياد أهلها، وانسها وجمالها الطبيعي الفتان. وكانت أحسن ولاية يرغب فيها الطامحون، ويتنافس عليها الولاة الكبار.

وكان بشر بن صفوان من أولئك الولاة الأكفاء، ومن الرجال الصناديد، فولي على مصر، ثم اختاره يزيد للمغرب فولاه عليه وعزل محمد بن يزيد.

وكان بشر عاقلا رزينا، شجاعا محنكا، مخلصا للدولة، رءوفا بالرعية، فسار إلى المغرب في سنة ثلاث ومائة.

ازدهار المغرب وإقباله على البناء في كل نواحيه

وكان بشر بن صفوان قد اتعظ أيضا بما وقع لابن دينار، وعلم أن البربر أباة أعزاء، قد حسن إسلامهم، وتفقهوا في دينهم، وتكون فيهم العلماء، وصاروا يعرفون ما أمر الله به ساسة الشعوب، وما فرضه على ولاة المسلمين من سياسة وطريقة في الحكم، وعلموا ما لهم على الدولة وما عليهم، فصار حب العدل والمساواة وكره الطغيان

والجبروت، مما يدعوهم إليه طبعهم الموروث، ودينهم الذي يغارون عليه، ويأبون أن تخرم أحكامه فيهم. فسار في المغرب سيرة حميدة، وعامل البربر بلين وإحسان، وعرف لهم مقامهم، فسكنوا وأحبوه، ودانوا بطاعته، واقبلوا على الأمويين في عهده، فلم تحدث في أيامه زوبعة تعكر الصفاء، ولا انفصال من ناحية لعدم الرضا، ولا ثورة في مكان لسخط على سياسته، بل كان السكون والوئام والإقبال على العمل، والغرام بالبناء هو ما يعمر قلوب أهل المغرب. فكان عهد بشر عهد بناء وعمارة وتقدم لسكونه. لقد استمر في الطريق التي دفعه فيها محمد ابن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله، طريق العلم والدين، وسبيل البناء والتشييد، والإقبال في نشاط وإتقان وعلم لبناء الدنيا لتكون أقوى وأحسن مطية للآخرة فاستمرت بعثة سيدنا عمر بن عبد العزيز العلمية في عملها وجهادها لتثقيف المغرب، ومعهم إسماعيل بن عبيد الله ومحمد بن يزيد والعلماء المخلصون الذين كانوا يتقاطرون على المغرب من المشرق للاستقرار فيه، فكانوا أساتذة البربر الإجلاء، والنبراس الذي اضاء لهم فرأوا مثلهم العليا فعملوا لتحقيقها، وهي أن يعيشوا أباة عزاء، ويكونوا حصنا للدين، وجندا يقمع الظلم والجبروت، ويحي العدل والمساواة في المغرب.

وكان الهدوء والسكون الذي ساد المغرب في عهد بشر قد مكن هؤلاء العلماء من القيام بواجبهم خير قيام، وجعل أفكار البربر لا تشتغل إلا بالعلم والبناء، فازدهر التعليم في المغرب، وكثر إقبال البربر على حلق العلم في المساجد، وعلى تعليم الصبيان في المدارس، فانتشرت العربية في البربر كل الانتشار، وتكون فيهم علماء الدين والفقهاء في الشريعة، وأثمرت في هذه الأعوام الساكنة أغراس حسان بن النعمان التي أيدها وأزهرها محمد بن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله، فتكونت في البربر طبقة من الفقهاء صاروا أعوانا لأساتذتهم في تثقيف المغرب وتعليمه، وفي دفعه في طريق الخير والصلاح، وفي سبيل العزة والكرامة. كما ازدهرت التجارة والفلاحة والصناعة، وعم الرخاء في المغرب أعراسه، واستعد في هذه الفترة لميلاد دوله !

مصادرة أموال بقايا آل موسى ابن نصير

وكان بشر بن صفوان يعرف في مليكه يزيد بن عبد الملك حب المال، ولكن أموال البربر لا يستطيع أن يظلمهم فيها، ودخل المغرب تستنفده ثغوره ومصالحه، فرأى آل موسى بن نصير؛ هؤلاء الذين نكب منهم سليمان من نكب لعدم استقامتهم في المغرب، ولاحتجانهم للأموال من غير حلها، فأرى بشرف أيديهم بقية من أموال، وفي ديارهم آثارا من نعمة، وعلم أن النواحي المعشوشبة فيهم، والأموال التي لازالت في أيدي

بعضهم مما يستطيع أخذه ولا يغضب أحدا في المغرب، لان آل موسى كموسى بن نصير لم يكونوا محل الرضا من المغرب لما أسلفنا من سلوك موسى وبنيه وآله فيه. فعمد بشر إلى هؤلاء الذين أثلوا أموالا من آل موسى، واستطاعوا النجاة من مصادرة سليمان بن عبد الملك، فصادر أموالهم، واستولى على ما في أيديهم من نفائس ودراهم. قد يكون بعض الخاصة من أهل المغرب الذين يضطغنون على هذه العائلة، ويعلمون أن أصول أموالها مما احتجنوه أيام موسى من أموال الدولة، ومما ظلموا فيه البربر، وإنهم مدينون لخزانة المغرب بالشيء الكثير، وهم الذين أغروا بشرا بهم فوجد فرصته للحصول على مال يسترضي به مليكه ولا يغضب أهل المغرب به، فأقدم على آل موسى فسلخهم من مالهم. وإذا كان يزيد بن عبد الملك هو الذي أمره بذاك فان حب المال هو الدافع له، لأنه لم يكن في الدين والعدل وفي العمل لمصلحة الدولة بالدرجة التي تجعله ينكر ما أتى موسى فيؤدبه، وكما فعل سلفه الرشيد سليمان بن عبد الملك.

سفر بشر بهداياه إلى يزيد

وفي سنة خمس ومائة سافر بشر إلى الشام ومعه هدايا من طرف وأموال وجواري حسان ليزيد بن عبد الملك. لم يذكر المؤرخون سبب سفره إلى الشام، قد يكون الشوق إلى الأهل والخلان، لا استدعاءا من يزيد ليطلع على أحوال المغرب، ويفاوضه في شؤونه، فان يزيد لم يكن في الاعتناء بأمور الدولة كسلفه الحازمين، فيتصل بولاته في الخارج، ليعرف منهم أحوال الرعية، ويوجههم في السياسة، كما كان يفعل الخلفاء الراشدون؛ ولكن يزيد بن عبد الملك مات قبل أن يصل بشر إليه، فقدم هداياه إلى هشم بن عبد الملك الذي تولى الملك بعد يزيد، فسر بها، فرده إلى عمله في المغرب فعاد بشر إلى القيروان، والمغرب هادئ هدوء الرضا والاطمئنان لان البربر ينقادون ويطيعون، ويسكنون ويهدأون لكل عادل يتبع سياسة الله المشروع فيهم ، وإذا ثاروا فللظلم النازل عليهم، ولانحراف الولاة عن طريق الدين، وخرمهم لأحكام كتاب الله المبين.

إن كل الثورات التي سيقوم بها البربر سببها ظلم الولاة لهم، والغيرة على الدين الذي تخرم أحكامه، ويتجاوز الولاة والعمال حدوده، وليس حب الفوضى والثورة كما يدعي كثير من المؤرخين الجهلة، ومن المغرضين المتزلفين لملوكهم، الذين أرادوا أن يكون المغرب للملوك الأمويين لحما على وضم يقطعونه كما يريدون ولا يتحرك، ويعصرون دماءه كما يشاءون ولا يثور، وينتهكون فيه حرمة الدين ثم لا يقمعهم بما المر الله به. ومن الغريب أن بعض المؤرخين المغاربة المحدثين قد قلدوا الأقدمين أو الأوروبيين المستعمرين في

هذه الفرية فالصقوا بأجدادهم ما تنزهوا عنه، فلم يكونوا بالأحفاد البررة، ولا بالعلماء النزهاء !

ولاة بشر على الأندلس

وكانت الأندلس تابعة للمغرب فولى عليها بشر عنبسة بن سحيم الكلبي فاستشهد في بعض وقائعه مع الإفرنج فولى عليها بشر في سنة سبع ومائة يحي ابن سلمة الكلبي فأصلح شانها ، ونظم أمورها.

غزوة صقلية

وكان المغرب هادئا كل الهدوء، قد انتظمت أموره، وحسنت أحواله، فاتجه بشر إلى خارج المغرب فجهز جيشا من العرب والبربر فاقلع به إلى صقلية ليغزوها، ويمهد لفتحها، لتكون تابعة للقيروان، ويسلم أهلها ويكونوا من أبناء القرآن، وينقذها الإسلام بنوره من ظلام الشرك الذي تتخبط فيه، والفساد الذي ينخر في عظامها فانتصر بشر على أعدائه في صقلية فنزل المسلمون فيها، ثم رجعوا منها تثقلهم لغنائم والسبي. ولما كانوا في طريقهم من صقلية جاش البحر وثار، فغرق من جيشه الكثير وأصابه هو مرض «الدبيلة»[1] فوصل القيروان فاشتد عليه المرض فمات. وشاء الله لبشر أن يختم له بأحسن الخواتم، فينتقل إلى جوار الله بعد الجهاد في سبيله. ولما أحس بالوفاة استخلف على المغرب العباس بن أبي باضعة الكلبي، وهو رجل من عشيرته وبني قومه. وكانت وفاته في شوال من سنة تسع ومائة، ومدته في الولاية حوالي سبع سنسن. وكانت أيامه هادئة، وعهده عهد تقدم وازدهار للمغرب بفضل جهود من تقدم من الولاة الصالحين، وبفضل السكون الذي ظل عليه المغرب بفضل سيرته الحسنة واتعاضه بما وقع لابن دينار. ثم هشام عبيدة بن عبد الرحمن السلمى فكيف كانت سيرته، وما حال المغرب في عهده؟

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى 110.

ولما توفي بشر بن صفوان ولي هشام بن عبد الملك في سنة عشر ومائة عبيدة ابن عبد الرحمن السلمى، وهو ابن أخي أبي الأعور السلمى قائد خيل معاوية في حرب صفين.

وكانت سيرة عبيدة في البربر رشيدة، ومعاملته للمغرب حسنة، فهدأ في أيامه وكان على السكون الذي يدل على الرضى، والهدوء الذي يدل على الهناء، فاستمرت

1 - الدبيلة داء في الجوف كالدمل:

أعمال البناء التي اتصلت في عهد بشر بن صفوان، واخذ المغرب يتدرج إلى قنة شبابه وتمام نضوجه.

عماله في الأندلس

وكان عبيدة يختار عماله على النواحي، فولى على الأندلس ثلاثة عمال على التوالي في كل سنة عامل. واستبداله للعمال دليل على إيثاره لمصلحة الرعية، وحرسه على هنائها. لا يكاد يبدو من احدهم شذوذ حتى يعزله آخر أحسن منه للناس. قال ابن عذارى: في سنة 110 ولى عبيدة بن الرحمن عثمان بن أبي نسعة على الأندلس فقدمها في شعبان.

وفي سنة 111 قدم على الأندلس واليا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن حذيفة ابن الأحوص الاشجعي وذلك في غرة محرم من السنة المذكورة.

وفي سنة 112 ولي عبيدة على الأندلس الهيثم بن عبيد الكناني فقدمها في محرم من هذه السنة.

وكان آخر ولاته على الأندلس هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي في 112 أيضا. وكان بطلا صنديد، مع العفاف والتقوى والعمل لله. وهو الذي سيغزو جنوب فرنسا كما سيأتينا.

عامله على طرابلس

وولى عبيدة على طرابلس يزيد بن مسلم الكندي. وكان المغرب بفضل هذا الجهاز الذي اختاره ساكنا سكون الرضا والاطمئنان، هادئا هدوء الهناء والسعادة إن دماء ابن دينار لا زالت إشارة الخطر الحمراء التي تذود العمال والموظفين عن طريقه وتنهاهم عن ظلمه، وتبين لهم عاقبة كل ظالم يتجبر على المغرب المسلم، ويعس الأمازيغ الأباة !

غزوة صقلية

وكانت صقلية هي باب الجهاد الذي يتجه إليه المغرب، والناحية التي يعمل لضمها إليه كما ضم الأندلس، فينتشر فيها الإسلام، وتعمها السعادة والوئام. فلما وصل عبيدة إلى المغرب جهز جيشا من العرب والبربر فسيره تحت قيادة المستنير ابن الحبحاب الحرشي لغزو صقلية والتمهيد لفتحها، واستقرار المسلمين فيها. فانتصر المستنير على عدوهم فيها، وفتح بعض نواحيها، فاستقر بها إلى الشتاء ثم قفل راجعا إلى القيروان. وكان الجو عاصفا، والبحر ثائرا، والزمان غير ملائم لركوب اليم، فغرق معظم

جيشه، ونجا قائده إلى طرابلس فأخذه وعاقبه، ثم سجنه لتقصيره، وعدم أخذه بالحزم فيرجع قبل الشتاء، أو يبقى في صقلية إلى الربيع. قال ابن عبد الحكم:فكتب عبيدة إلى عامله على طرابلس يزيد بن مسلم الكندي يأمره أن يشد المستنير وثاقا ويبعث به إليه. فلما قدم عبيدة جلده جلدا وجيعا، وطاف به القيروان على أتان، ثم جعل يضربه في كل جمعه «حتى نال جزاءه» فحبسه» ولم يزل محبوسا إلى أن أطلقه عبيد الله بن الحبحاب.

إن هذا يدل على حزم عبيدة وغيرته على جيشه، سيعتبر به بقية القواد فيأخذون بالحزم في الأمور.

تنكيله بعمال بشر بن صفوان

وكان عبيد يضطغن على بعض عمال بشر بن صفوان لمنافسة بينهم، أو لعداوة قديمة، فعزلهم من وظائفهم ثم أخذهم فسجنهم وأغرمهم، وتحامل عليهم، وعذب بعضه، وكان فيهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، وكان قائدا جليلا، ورجلا ممتازا له مكانه في الدولة، وحظوة عند الأمويين. وقد اسند إليه بشر ولاية كبيرة في أيامه وكان من عماله الكبار في المغرب. فلما نكل به عبيدة انشأ هذه القصيدة وأرسلها إلى ملكه هشام. قال أبو الخطار:

أثارت بنو مروان فينا وما لنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

كأنهم لم يشهدوا لي وقعة ولم يعلموا من كان قبل له الفضل

وقينا كم حر القنا بصدورنا وليس لكم خيل سوانا ولا رجل

فلما بلغتم نيل ما قد أردتهم وطاب لكم فينا المشارب والأكل

تغافلتم عنا كأن لم نكن لكم صديقا وانتم ما علمتم لنا وصل

عزل عبيدة من الولاية

وبعث بها إلى هشام فلما قرئت عليه غضب وأمر بعزل عبيدة، فقفل من المغرب واستخلف عليه عقبة بن قدامة التجيبي وترك بافريقية عبد الله بن المغيرة القرشي قاضيا.[1]

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 نسخة دار الكتب المصورة.

قد يكون هؤلاء العمال تآمروا عليه. إن سكون البربر لعبيدة دليل على حسن سيرته فيهم. أنهم لا يخضعون إلا لمن يسوسهم بالعدل، ويعاملهم بالحسنى. ومن يدري؟ لعل العصبية التي اتصف بها بعض الملوك الأمويين للعرب، واتصف بها هشام هي سبب هذا الانتقام من عمال بشر. إن من يتعصب لجنسه يتعصب لقبيلته في جنسه، ويتعصب لنفسه في القبيلة. إنها داء[1] عضال، يلازم المرء في كل أحواله ويفصله عن كل معاشريه، ويحمله على التحيز في كل المقامات. ولعل هؤلاء العمال من غير قبيلة عبيدة فتآمروا عليه. إن الدولة الأموية في هرمها في عهد هشام. إ هذا الظلم الذي يقع من العرب على بعضهم سيتسع نطلقه بعد عبيدة فيعم المغرب، فتنفجر البراكين، وتدور الدوائر على الأمويين.

وكانت مدة عبيدة أربع سنين وستة أشهر. ولم يكن عبيدة وبشر بن صفوان على ورع إسماعيل بن عبيد الله، ولا على كفاءة محمد بن يزيد وحسن سيرته، ورجاحة عقله، وإنما كانا عاقلين فاتعظا بما وقع لابن دينار، وانتفعا بآثار محمد بن يزيد وإسماعيل في المغرب، وتركاه يسير في الطريق المثلى التي دفعاه فيها، ودفعه أيضا حسان. فلم يخاشنا أبناء مازيغ فيربد الجو، ويتعذر على الشموس إسماعيل وصحبه من العلماء أن تشرق إشراقها، فتورث للمغرب نضوجه وزينته، وتهيؤه لإنشاء دوله الإسلامية الكبرى التي ستحي ما اندس من العدل، وتلتزم في سياستها طريق الخلفاء الراشدين، ويكون المغرب بها حمى الدين، وموطنا لسعادة المسلمين وعزهم، ورقيهم وهنائهم.

وبعد عبيدة بن عبد الرحمن ولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب على المغرب فما أثره فيه، وما سيرته؟

1 - الضمير يرجع إلى العصبية.

ولاية عبيد الله بن الحبحاب 114

وفي سنة أربع عشرة ومائة ولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب على المغرب.

وكان عبيد الله عاقلا رزينا، ومدبرا حكيما، ومع فصاحة في القول، وبلاغة في الخطابة. وقد العجب هشام بن عبد الملك بحسن تدبيره، وبحزمه وحنكته، فولاه على خراج مصر.[1]

وكان هشام حريصا على المال، شحيحا به، لا يرضى أن يضيع دانق واحد مما يرد عليه من دخل الدولة، وما يأتيه من أنحاء المملكة. وكانت مصر لغناها اكبر مورد للمال للأمويين، فاختار هشام لخراجها وجبايتها وجمع الأموال منها عبيد الله بن الحبحاب. فظل في وظيفته هذه زمنا طويلا. وكان هشام يثره ويتمسك به. وقد عزل ثلاثة من عماله على مصر كان قد ولاهم ليتولوا شئون الإمارة فيها غير الخراج، من اجل عبيد الله. لا يكاد يحدث خلاف بين العامل وابن الحبحاب حتى يعزل هشام العامل ويستبقى ابن الحبحاب، وإعجابا به، ورضا بما يبعث إليه من مصر من أموال. حتى كانت سنة أربع عشرة ومائة، وحدث في المغرب ما حدث من فتنة بين عبيدة السلمى وبين عمال بشر صفوان، فاربد الجو في المغرب، فاحتاج هشام إلى كفاءة إدارية ورجل حازم يوليه على المغرب، ليسكن عمال بشر ويسترضيهم ويبعث له من المغرب ما ينتظره من خراجه ودخله.

وكان هشام يدرك بقوة ذكائه أن البربر وإن سكنوا بحسن سيرة بشر وعبيدة فإنهم ليسوا راضين عن الدولة الأموية، لسوء سيرة يزيد بن عبد الملك وتهتكه، وعدم مبالاته بالدين، ومجاهرته بالمعاصي التي تورثه الاحتقار في النفوس، وتنزع هيبة الدولة من الصدور، وأنهم ليسوا راضين عنه لعدم التزامه العدل في السياسة، ولتجرده من الورع والتقوى التي كانت تزين سلفه عمر بن عبد العزيز، وجّعل المغرب مقبلا على دولته، معتزا بالانتساب إليها. وكان يعلم شدة تمسك البربر بالدين، وانه هو الرباط الذي جعل المغرب تابعا للمشرق، وهو العامل الوحيد الذي يجعل البربر على الطاعة للأمويين، لان طاعة أولى الأمر واجب في الدين، وامتثال أوامر الرئيس الذي ارتضوه وبايعوه واعترفوا بفضله وبجدارته للرئاسة فرض في الشريعة. هذا هو الذي جعل البربر يخضعون لعمر بن عبد العزيز ويطيعونه. أما هو ويزيد فإنهم لا يبلغون درجة عمر في الدين، فلا عجب

1 - لم يكن عبيد الله واليا عاما على مصر كما ذكر بعض المؤرخين بل كان على الخراج وحده كما ورد في النجوم الزاهرة ج 1.

إلا يكونوا في درجته في قلوب البربر المسلمين. إن البربر الغيورين على الدين لا بد أن يثوروا عليه إذا رأوا عدم تقيده بالشريعة في سياسته، ووصلتهم أنباء ظلمه، وأخبار الثورات التي تنفجر عليه في المشرق من منافسيه على الملك، ومن الثائرين عليه لظلمه وحيفه. فاختار عبيد الله بن الحبحاب الرجل الصارم الذي سيرعب المغرب فلا يثور عليه، ويطأ نواحيه برجله فلا تخرج عن طاعته، ويحتلب له منه ما يتعطش إليه من مال، ويرغب فيه من مادة.وكان من الأسباب التي جعلت هشاما يولى عبيد الله على المغرب، وما وقع من نزاع بين الوليد بن رفاعة والى مصر وبين عبيد الله صاحب الخراج، فسعى الوليد بعبيد الله عند هشام، وطالبه بعزله، وضم ولاية الخراج إليه. فرأى هشام في الوليد كفاءة ونصحا فاستطاع أن يعفى ابن الحبحاب ويبعثه إلى المغرب.

عماله في المغرب

فسار عبيد الله إلى المغرب في سنة أربع عشرة ومائة فعين العمال على النواحي، ونظم الجيش وقواه، واستعد به، وجعل قائده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، واعتنى بالأسطول ونظمه وزاد في سفنه. وولى على كل ناحية عاملا حازما ينفذ سياسته، فولى على جنوب المغرب الأقصى ابنه إسماعيل، وعلى شماله عمر بن عبيد الله المرادى.

غزواته

وأرسل عبيد الله جيشه القوي تحت قيادة حبيب بن أبي عبيدة فاخترق المغرب، فغزا المغرب الأقصى، وطرق بلادها، وغنم وسبي منها، ثم سار إلى الصحراء فطرق مواطن البربر فيها، وغنم منهم وسبي من بناتهم، ومن جملة سبيه في هذه الغزوة جاريتان ليس لكل واحدة منهما إلا ثدي واحد، وهي التي تسميه البربر «إجان». ثم سار حبيب إلى السودان فغزا بلاده وملأ أيديه بطرفه ومغانمه وسبيه، فرجع إلى القيروان مثقلا بالسبي، وما غنمه من ذهب وفضة وأموال.

لم يذكر المؤرخون سبب غزو عبيد الله للمغرب الأقصى، وهي البلاد المسلمة الهادئة. ولعله قد قصد السودان الذي اشتهر بكثرة ذهبه، ومعادن التبر فيه، فجعل طريقه على المغرب فعسفهم حبيب وغنم من أموالهم، وسبي من ذراريهم. إن اضطغان أبناء عقبة على المغرب الأقصى مما عرفناه من قصة[1] عياض بن عقبة وإخوته في «سقومة» قلعة «أوربة» قد يكون هذا هو السبب في معاملة المغرب الأقصى هذه المعاملة القاسية، مع

1 - هذه القصة في فصل موسى بن نصير من هذا الكتاب.

الغرض المادي لهذه الحرب، ورغبة عبيد الله في أن يتحف هشاما بما يبلغ به رضاه من سبي المغرب وكنوزه.

إن هذه الغزوة هي العاصفة التي هبت في المغرب فكسرت غصونه، وكانت من أسباب انفصال بعض أجزائه عن القيروان، وإسراع المغرب الأقصى إلى الثورة على الأمويين.

أن عبيد الله كموسى بن نصير يعتمد على القوة في رضوخ المغرب، وهشام كان كالوليد ملكا فظا لا يدين إلا بالكتيبة في طاعة رعيته، وبالخشونة ليكونوا حريرا كما يريد. لهذا نرى سياسة القوة هي التي تطبق في المغرب في عهد البن الحبحاب فيبوء بأوخم العواقب، ولا يرى في المغرب إلا لياليه.

غزوة سردانيا

ثم أرسل عبيد الله جيشا بقيادة قثم بن عوانة فغزا جزيرة «سردانية» فنازلها فاحتل كثيرا من مدنها، وغنم منها الشيء الكثير،وسبي فرجع عنها، ولكنها لم يصل إلى القيروان، فان البحر قد ثار عليهم فأغرقه مع جيشه، فكانت نكبة كبرى للمسلمين. من يدري؟ لعل الغلول الذي اغرق جيش ابن نصير إلى سردانية [1] هو سبب هذه الفجيعة. إن التاريخ يعيد نفسه، لان الإنسان ينسى فلا يتعظ بحوادثه. وعبيد الله كموسى، والناس على سلوك أمرائهم، وطريقة رؤسائهم.

غزوة صقلية

وأرسل عبيد الله أسطوله تحت قيادة حبيب بن أبي عبيدة ومعه ابنه عبد الرحمن ابن حبيب لغزو صقلية، فنازلها حبيب فانتصر على الروم فيها، ودخل كثيرا من مدنها فغنم وسبي منها، ونازل عاصمتها «سرقوسة» وشدد عليها الخناق، وارغب الروم بقوته ومضائه، فأذعنوا للجزية، ففرضها عليهم واستقر حبيب في صقلية عازما أن يفتح «سرقوسة» ويفتح صقلية كلها فتكون للمسلمين، ولكن عبيد الله أمره بالرجوع إلى المغرب لما ثارت عليه البراكين، واحتاج إلى جيشه كله لينازل المغرب الأقصى الذي ثار عليه، لظلم عماله، ولمخاشنته له، وعدم العدل فيه. فرجع حبيب وهو موفور بغنائمه وسبيه، وما ظفر به في هذه الغزاة.

ولاته على الأندلس ووقعة بلاط الشهداء

وكان عبيد الله معجبا بوالي الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وبطولته

1 - انظر هذه القصة في باب موسى بن نصير من هذا الجزء.

وحسن سيرته، فاقره في ولايته، فكانت له في جنوب فرنسا غزوات موفقة فاستولى على مدن كبيرة منها «ليون» و«ديجور» و«بلفور» وانهزم «أود» دوق اوكيتانيا أمامه، ولم يقدر على رده، فاستعان «بشارل مارتيل» احد ملوك العائلة «الكرولانجية» فاجتمعوا على عبد الرحمن في بلاط الشهداء، وقعت حرب عنيفة بين المسلمين والإفرنج. استطاع فيها «شارل» بكثرة جيشه، وقوة تصميمه أن يتغلب على الجيش الإسلامي، فاستشهد عبد الرحمن الغافقي وكثير من جيشه في هذه المعركة المعروفة عند الإفرنج بمعركة «بواتي Poitiers» فرجع بقية الجيش الإسلامي إلى الأندلس، ثم لم يعاود المسلمون الكرة على جنوب فرنسا ليفتحوه فيكون منبعا للنور والعلم والدين يطهر أوروبا من جهالتها فتسعد بالإسلام والمسلمين، وتنجو مما ستظل تتخبط فيه قرونا من جهل وفساد، ومن شقاء وتعاسة. إن غرض عبد الرحمن الغافقي ومن معه في أوروبا غرض السحاب إذا غزا البقاع المجدبة، وغرض النور إذا اتجه إلى النواحي المظلمة، ومقصده مقصد الطبيب الوالد في ابنه المريض، وليس كمقصد المستعمرين الأوروبيين الذين يغزون بلاد المسلمين، ويؤمونها بدافع من الجشع والحقد، لا بداع من حب الخير، والحرص على نفع الناس، والرغبة في تمدين البلاد التي يغزونها.

تجديد الزيتون والاعتناء بدار الصناعة

وكان عبيد الله مولعا بالعمارة، محبا للبناء، مغرما بالغزو والفتوح. فما كاد يصل المغرب حتى شرع في تجديد جامع الزيتون ليكون مسجدا جامعا يسع تونس التي كبرت، ويليق بجمال هذه المدينة التي تحضرت وترقت. وكان سيدنا حسان بن النعمان قد أسس هذا المسجد وبناه، ولكنه كان على حسب تونس في عهده، على البساطة والصغر، فوسعه عبيد الله وجملة، وأعلى بناءه، وجعله أم المساجد في تونس الخضراء.

وكان عبيد الله محبا للفتوح، فاستعد لذلك وتأهب، فاعتنى بدار الصناعة التي أنشأها سيدنا حسان الغساني، فرقاها ووسعها وبنى فيها سفنا كثيرة قوى بها الأسطول المغربي، فصار أسطولنا الإسلامي اكبر أسطول في بحر المسلمين «البحر الأبيض المتوسط» وبهذا الأسطول استطاع عبيد الله أن يطمع في فتح صقلية وضمنها إلى المغرب، وتأسيس إمارة إسلامية فيها، فجهز إليها الجيوش من العرب والبربر فنزلت فيها لتنشر دين الحضارة والعمران والشباب، وتنقذها من ظلام الشرك والشقاء والشيخوخة التي تقتلها.

ثورة البربر على الأمويين

هذه هي الأعمال التي ذكرها المؤرخون لعبيد الله بن الحبحاب في المغرب. وقد تكون أعماله العسكرية، وغزواته في البر والبحر أكثر من ذلك فأغفلها المؤرخون فذكروا أهمها فقط، وقد تكون أعماله العمرانية ، ومنشآته المدنية أكثر مما اثبتوا. إن طول عهده في المغرب، مع سكون أوله، ونشاطه هو وطموحه، واندفاع المغرب في طريق البناء والتشييد بفضل من تقدم من الولاة، يستلزم أن يكون عمله في المغرب أكثر مما ذكروا له، ولكن ثورة البربر عليه في سنة اثنتين وعشرين ومائة لسوء سياسته، وعدم عدله، وظلم عماله، ومخالفته للدين في معاملة البربر، واحتقاره لهم، وعدم المبالاة بإسلامهم، ومعاملتهم كالمشركين الذين لم يسلموا، وظلمه لهم في أموالهم وذراريهم، واستحلاله فيهم لما حرم الله، وتعطيل حدود الدين الذي يغار عليه البربر. هذه الأسباب التي سنبسطها بالنصوص التاريخية في آخر هذا الفصل، أثارت البربر عليه فمرغوه في الرغام، وهزموا جيوش هشام، وقتلوا رجاله الصناديد، وإشراف جنده الذين يعول في تمكين سلطانه في المغرب عليهم. هذه الحوادث المؤلمة، ونهاية عبيد الله السيئة، غطت على قد يكون له من أعمال في البناء والتعمير قام بها في المغرب. ولكن ما هي الأسباب التي جعلت براكين البربر تنفجر عليه، وجعلت المغرب الأقصى ينفصل عن الدولة الأموية ثم لا يرجع إليها، والاه المغرب الأوسط فاستقل وانفصل، فلم تستطع القيروان استرجاعه؟ ما هي الأسباب من الأسباب من الأمويين ومن البربر؟

أغلاط المؤرخين القدماء في تعليل الثورة

إن المؤرخين القدماء الذين كان جلهم يتملق الملوك، ويتزلف للأمويين والعباسيين، والذين كانت تسيرهم بطونهم لا دينهم وعقولهم، والذين الجم الخوف ألسنتهم عن قولة الحق، فلم يتصفون بالشجاعة، وبالأمانة العلمية، وبما يأمرهم به دينهم من الصدق في القول، والتمحيص للشائعات، والتجرد من العصبية والأنانية فيما يكتبون. أولئك المؤرخون المتزلفون الذين وصلتنا كتبهم لأنها توافق هوى الملوك، فعملوا لنشرها فحفظت في الآفاق، وسلمت من تحريق أولئك الملوك لكل ما لا يوافق هواهم، ويخضع الرقاب لهم، وينصر السياسة التي يريدون. إن جل أولئك المؤرخون القدماء الذين كانوا آلة مسخرة للدعاية في أيدي الملوك والأمراء لم يذكروا الأسباب النفسية، والحوادث التاريخية التي أجبرت البربر على الثورة، وقهرت المغرب على الانفصال عن المشرق. إن كل ما كتبوه يوحي بتخطئة البربر في الثورة على هشام، ويقولون: إن البربر ثاروا بتحريش من الصفرية، وأنهم ارتكبوا بذلك عملا يخالف الدين، فلا يسهبون في أغلاط الأمويين

وانحرافهم عن الدين كإسهابهم في ثورة البربر على الأمويين، فظلموا المغرب ظلما شنيعا في هذا الفصل وفيما يليه من الفصول، وشحنوا كتبهم بأنباء وتعاليل تنفر المشرق عن المغرب، وتفصم الجماعة الإسلامية، وتفرق أبناء التوحيد وقد خلقهم الله امة واحدة. وقد انساق كثير من الخلق ومن مؤرخينا المحدثين في ذلك التيار، واعتمدوا على تلك المراجع، ونظروا إلى المغرب والى البربر بمنظار أولئك القدماء فرأوه على غير حقيقته، وبدا لهمن في قتامة وهو في إشراق، وعلى الخطإ في انفصاله عن الأمويين والعباسيين وهو على الصواب، ورأوا استقلال المغرب وإنشاء دوله الإسلامية العادلة خسارة للعلم الإسلامي وهو ربحه، وضعفا للدين وهو قوته. ونحن في هذا العصر الذي انقشعت فيه الغيوم السياسية القديمة التي حجبت الأقمار والشموس عن عيون كثير من مؤرخينا القدماء فلم يتبينوها، ونقلوا شائعات الملوك التي تطلقها أبواقها، وزال الخوف الذي عقل ألسنتهم، يجب علينا نحن أن نقرر الحقيقة في هذا الباب، وننصف المغرب في هذه الفصول، ونقول قولة إنسان اختصمت أسرته، وتنازع أبواه، فادعى كل على الآخر ما يخمله، وشتم كل منهما صاحبه بما يزرى به؛ فان الابن البار لا يميل إلى احدهما، ولا يتأثر بدعاوي وشتائم احد الجانبين، بل يكون لسان الميزان الصحيح، وعقل القاضي المنطقي، فيقرر الحق، ويصلح بين الجانبين. إن البربر أجدادنا والعرب أجدادنا، فنحن أبناؤهم تصرخ في عروقنا دماؤهم جميعا، وتوجهنا وراثتهم، فحرام أن نتعصب على احدهم وهو من الآباء، ونظلم احد الجانبين بترديد دعاوى الأقدمين الباطلة، وهو من أصولنا التي يجب أن نغادر عليها، وننظر إليها بمنظار ابيض صاف يبدي الحقيقة، ويوقفنا على الواقع.

لقد ثار البربر على ابن الحبحاب لماذا ثاروا؟ واستقل المغرب الأقصى عن الأمويين وحاربهم، فلم ذلك الاستقلال؟؟

الأسباب النفسية لثورة البربر على الأمويين:

لقد جاء ابن الحبحاب إلى المغرب وهو ساكن وادع، قد حسن إسلامه، وتكون فيه العلماء والفقهاء،ونبغ كثير من البربر في علوم الشريعة، سيما في شرف المغرب، جنوب افريقية، وجبل نفوسة، وفي النواحي القريبة من القيروان، والتي كانت طريق العرب المهاجرين إلى المغرب والأندلس، فازداد البربر اعتدادا بأنفسهم، وثقة بها، واعتزازا بكرامتهم، وتمسكا بحقهم في الحرية والمساواة، وفي أن يعيشوا أعزاء محترمين كما أمر الله المسلم أن يعيش.

وكان البربر متمسكين بالدين كل التمسك، متقيدين به في أقوالهم وأعمالهم،

وكانوا يعرفون واجب الله على المسلم في حياطة الدين، والدفاع من صراط الله المستقيم، فأبوا كل الآباء أن تحزم قوانين الدين، سيما فيما يتصل بالسياسة، وفي معاملة الملوك للرعية، وقد اقبلوا على حسان بن النعمان ومن بعده من الولاة الموفقين لأنهم كانوا مظهرا لجمال الدين بسلوكهم الرشيد، وإحسانهم للرعية، وعدلهم في السياسة، وأحبوا الدين الإسلامي وعضوا عليه بالنواجذ لأنه دين العدل والحرية والمساواة، وخضعوا للدولة الأموية في أول أمرها بفضل الولاة الصالحين الذين كانوا أحسن عنوان لها في المغرب، وأجمل مظهر لها عند الأمازيغ.[1] وكان البربر يسمعون بظلم هؤلاء الملوك في المشرق، وبعسف الحجاج ومناكره، فسكنوا مع ذلك لان عبد الملك بن مروان، وابنه سليمان، وعمر بن عبد العزيز عاملوهم بالحسنى، فما كانوا ليقبلوا لهم ظهر المجن وهم يحسنون إليهم، وما كانوا لينفصلوا عنهم وإن خالف بعضهم الدين في المشرق، وهم في حاجة إلى إليهم لتكوين أنفسهم، وتعلم دينهم، واقتباس أساليبهم في الحضارة والمدنية، وكل ما حملوه من المشرق من علم وصناعة، ومن مدنية وعمران. وقد انتفع البربر كل الانتفاع في هذه الفترة الجميلة بالأمويين، واستفادوا بفضل العادلين منهم ما أورثهم النضوج، وجعلهم كاهل المشرق في العلم والعرفان، وفي الغنى والثروة، وفي كل ما تعتمد به الأم وترفع رأسها، وتنضج به الشعوب ويرثها الثقة بالنفس.

هذه هي حقيقة البربر لما ولى عليهم عبيد الله بن الحبحاب. وكان يجب أن يسوسهم سياسة تشعر بالاحترام، وتدل على مساواتهم بغيرهم من بني سام، ولكنه جهل هذه الحقيقة، وتأثر بهشام، فتصرف في المغرب على حسب مزاجه، وعمل لاسترضائه، وجرفه تيار التعصب الجنسي الذي كان يتصف به هشام ومن لم يتقيد بالدين والعقل من الأمويين، فاحتقر هو وعماله في المغرب البربر، وعسفوهم وظلموهم في أنفسهم وأموالهم وبناتهم فصبر الأمازيغ ما وسعهم الصبر، وشكوا وتذمروا واحتجوا ما استطاعوا الشكوى والاحتجاج، فلما وجدوا الدولة الأموية في شيخوختها، وقد صمت آذانها عن سماع الشكوى، وقصرت يدها عن ردع عمالها الظالمين، ووجدوا أنفسهم طعمة لموظفي الدولة، ومنهبا لعمال بني أمية وشيعتهم، سلكوا طريق الله الذي شرعه للمسلم في الدفاع عن نفسه، ورفعوا لتغيير المنكر النازل عليهم القناة والحسام، لما لم يجد العتاب والملام، وسلكوا مسلك العباسيين والعلويين في الثورة على الأمويين، فأسسوا -البربر- دولهم الإسلامية العظمى التي أحيت العدل الإسلامي، والتزمت الدين في السياسة، وكانت ملجأ لمحبي المساواة والحرية من كل البقاع في

1 - الأمازيغ اسم نسبه إلى جدهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام فهم والقدماء المصريون والفلسطينيون من أصل واحد.

العالم الإسلامي. ولكن ما هي المظالم التي ارتكبها عبيد الله وعماله في المغرب فثار عليه، وما هي الأسباب التي جعلت عبيد الله يحيد عن طريق من تقدمه من الولاة الصالحين. هذا ما يجب معرفته قبل الأخذ في الحوادث التاريخية والنصوص التي تصور المظالم التي أثارت المغرب على الأمويين، لان تلك الأغلاط التي ارتكبوها في المغرب فرع عن هذه الأصول.

أسباب انحراف الأمويين في المغرب

إن سبب المظالم التي وقعت على البربر هو شيخوخة الدولة الأموية؛ والدولة كالإنسان إذا شاخت وهرمت رفعت العصا... ولازمتها في الأمكنة، واعتمدت عليها في كل الخطوات ! وهي كالمرء أيضا إذا شاخت تسوء أخلاقهم وترتد إلى طفولتها، فيكون ما يسيرها هي الغرائز لا الدين، والهوى وما تشيه النفس لا الأخلاق الحسنة، وما يستلزم إرادة وحرمانا وبذلا وتضحية؛ وتضعف مداركها، وترين الشيخوخة على قواها فتعدم التميز بين الأشياء، والإدراك الصحيح للأمور، والاهتداء إلى الحجة المثلى عند اختلاف السبل، وتعدد المسالك، فتتخبط الدولة في سياستها تخبط الشيخ الخرف الذي يحجر الناس عليه، ويقدمون إنسانا عليه وعلى أسرته للكفالة والحياطة. وقد رأى البربر شيخوخة الأمويين، فأيسوا من شفائهم من انحرافهم عن الدين، والرجوع إلى طريق الله القويم الذي تتسم به الدول الشابة التي تسيرها إرادتها لا أهواؤها، وأصابهم القنوط من رجوع الدولة الأموية الهرمة إلى رشادها، ورأوا ثورة العلويين والعباسيين عليها لظلمها وتحيزها، فنفضوا أيديهم عنها، وقدموا على أنفسهم الأئمة الذين أسعدوهم، وطبقوا فيهم قوانين دينهم، والتزموا شريعة الله في كل شيء من أعمالهم، وحفظوا لهم كرامتهم، وأورثوا لهم عزتهم، ولم يروهم كالأمويين مزرعة تحصد، وبقرة تحلب، وبلادهم خلية النحل للمشتار[1] يجمع عسلها وهو رأفة، ويستولى على نتاجها بدون أن يقدم إليها ما تزدهر به !

أسباب هرم الدولة الأموية

ولكن ما هي أسباب هرم الدولة وهي لم تتجاوز القرن من السنين، واحد يداب ظهرها فركبها الموت في عصر وعمر سنرى فيه الدول المغربية العادلة تبلغ أقصى قوتها، وتصل ذروة شبابها؟ ما هو سبب الهرم الذي أسرع إليها فرفعت العصا، وعاشرت أبنائها معاشرة العجوز المشاكسة، فخسرت قلوب الأصدقاء، وثقلت على الأولياء، وتمنى الناس زوالها؟.

1 - المشتار: جامع العسل من الخلية.

إن سبب الهرم الذي أسرع إليها هو عدم نسمك ملوكها بالدين، فكانت واهية الأساس، ضعيفة البنية، لم تنبع من قلوب كل المسلمين فتكون بجذورها الراسخة التي يمتد بها عمرها، وبعروقها الغائصة التي تورثها ازدهارها وطول مدتها، بل فرضت بالسيف على الناس، فكانت طاقة الزهر في أصيصها تعمر زمنا قصيرا ثم تذبل، وتعيش أياما معدودة ثم تنتثر، فلو رضيها كل من خضع لها كما وقع للدول المغربية لطال عمرها، وهدأت أيامها.

لقد ولدت هذه الدولة بعوامل الهرم والموت؛ فلولا النفوس القوية، والدهاء الذي واتيه معاوية وعبد الملك بن مروان، والرشاد في السيرة الذي كان عليه سليمان، وورع وعدل سيدنا عمر بن عبد العزيز، لقضت نحبها قبل الأمد الذي زالت فيه بزمن طويل. لقد جاء الوليد بن عبد الملك بعسفه وظلمه، فمالت الدولة للسقوط، ثم جاء يزيد بن عبد الملك وهشام ومن بعدهما فانغمسوا في الملاذ، وغرقوا في الترف، وازدادوا بعدا عن الدين، فاختنقت الدولة في أيامهم فماتت.

لو تمسك الأمويين بالدين كما تمسك به سيدنا عمر بن عبد العزيز لكانوا على المتانة في الأخلاق، وعلى الرشاد في السيرة، وعلى العدل في السياسة، وعلى كل ما يرضيهم ويرضينا، لبلوغهم رضا الله. إن الدين -هو لا غيره- سبب المتانة في الأخلاق، والقوة في النفوس، والاستقامة في السلوك؟. فإذا تمسك به الدولة، وتتوج به رؤساؤها، وكانوا على الشباب الدائم،وعلى القوة التي لا تقهر، والسعادة التي لا تزول، وكان لها الوقاية من كل الأمراض التي تقتل الأمم، والأدواء التي تهدم الدول، والعلل التي تتكدر بها الحياة. لقد كان اغلب الأمويين ومن شايعهم، وسار في ركابهم، وتأثر بهم من أعمالهم على الضعف في الدين، فتسلطت عليهم غرائزهم، فانهمكوا في الملذات، وانغمسوا في الشهوات، وتعودوا مفاسد الحضارة فضعفت أخلاقهم، وكثرت أمراضهم، وطبعتهم غرائزهم التي تستعبدهم بالأنانية وحب النفس، وبالعصبية للقبيلة، والتحيز للجنس، والميل إلى المشرق وتفضيله على المغرب، والى المغرب وإيثارهم على العجم، والى الأمويين وتقديمهم على من سواهم من العرب، فباءوا بالعاقبة الوخيمة التي جعلها الله عقابا لكل من ينحرف عن الدين، ولا يتقيد بقانون الله في سياسة المسلمين، ويتبع شهواته، وستولي عليه غرائزه، ويجعل إلهه هواه ! فشاخ الأمويون قبل الأوان، واحتضرت دولتهم فماتت. وقد رأى البربر حشرجتها في إزبادها عليهم، وظلمها لهم، ورمحها لهم بأرجلها، فخلعوها وأسسوا دولهم الفتية التي تليق بشباب الدين الذي هم عليه، وبقوة الإسلام التي يحسون بها في نفوسهم. هذا هو السبب الذي جعل عبيد الله بن الخطاب وعماله

على الظلم والانحراف، فانحرف عنهم المغرب وثار. إن عدم تمسكهم بالدين وظلمهم هو سبب ثورة المغرب عليهم لا غيره !!

والسبب الثاني في هرم الدولة الأموية وموتها في المغرب، وفي المظالم التي ارتكبها ابن الحبحاب وعماله في المغرب فثار عليهم هو هشام بن عبد الملك.

نشأة وشخصيته

لقد كان هشام وليد البيئة الملوكية التي طبعت أخاه يزيدا، والتي بينا آثارها في النفوس، فلم يكن على عبقرية أبيه ومتانة أخلاقه، ولا على سداد أخيه سليمان وتوفقه في سياسته، ولا على ورع سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وتقواه، بل كان رجلا تسيره المصلحة لا الدين، ويتحكم فيه الهوى لا شريعة الله. انه وإن كان أدهى من يزيد، وابرع في السياسة، ولكنه لم يكن أكثر منه تدينا. لقد كان أحب منه للدنيا، وأشح منه بالمال، وارغب منه في المادة، وأكثر تعصبا منه للجنس، واقل إدراكا لحقيقة البربر، وابعد عن تيار الصلاح الذي جرف يزيد من عمر بن عبد العزيز فسار في اتجاه بعض السير في المغرب.

إن الولاة على حساب ملوكهم، والموظفين على طريقة رئيس جولتهم، وهم دائما على حسبه لأنهم من اختياره، فهو أصل الشجرة وهم فروعه، لا ينبت إلا ما يكون مظهرا له، يحمل ثماره، ويكون من نوعه، فكيف كان هشام فتأثر به ولاته في المغرب؟ ما يجب أن نعرفه لان هشاما هو أصل كل ما وقع في المغرب، وما ولاته إلا فروعه، وما المظالم التي سنذكرها إلا ثمرة من ثماره، كانت بسلوك الولاة طريقة، وتأثرهم به.

قال المسعودي: كان هشام أحول، فظا غليظ خشنا، يجمع الأموال، ويعمر الأرض، ويستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خلية وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، واستجاد الكسى والفرش، وعدد الحرب ولامتها واصطنع الرجال، وقوى الثغور، واتخذ القني[1] والرك بطريق مكة «من الشام ليكون السفر إلى الحج له وللأمراء من أسرته سهلا منعشا» وغير ذلك من الآثار التي أنى عليها داود بن على في صدر الدولة العباسية.

وفي أيامه عمل الخز، والقصف الخز[2] فسلك الناس جميعا في أيامه مذهبه، ومنعوا

1 - القني جمع قناة وهي الساقية تحت الأرض. ما بين قوسين ليس من المسعودي.

2 - الخز هنا يراد به الحرير الخالص، والقطف هي الثياب المخملة وهي كالقطيفة في هذا الزمان. وهذا يدل على الترف الذي استغرق فيه الأمويون وأهل زمانهم.

ما في أيديهم، فقل الأفضال، وانقطع الرفد، ولم ير زمان أصعب من زمانه».[1]

روى الأصمعي عن أبي الزناد عن منذر بن أبي ثور قال: أصبنا في خزائن هشام اثني عشر ألف قميص كلها قد اثر بها.[2]

وكان هشام مع حبه للترف، واستغراقه في النعيم، بخيلا على غيره، غيورا لا يرضى أن يتمتع الشعب بما يتمتع به: روى المسعودي قال: دخل هشام بستانا له ومعه ندماؤه فطافوا به، وبه من كل الثمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين، فقال: وكيف يبارك لي فيه وانتم تأكلونه؟ ! ثم قال: ادع قيمه فدعا به، فقال: اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه احد شيئا !!

ونظر هشام إلى رجل على برذون طخارى فقال: من أين لك هذا؟ قال حملني عليه الجنيد بن عبد الرحمن. قال: وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة؟ ! لقد مات عبد الملك وفي مربطه برذون واحد طخارى، فتنافس فيه ولده حتى ظن من فاته أن الخلافة فاتته، قال الرجل: فحسدني إياه.

وكان أخوه مسلمة مازحة قبل أن يلي الأمر، فقال له: يا هشام، أتؤمل الخلافة وأنت جبان بخيل؟ ! فقال: والله أني عليم حليم» وقد عاقب الله هشاما علي بخله لما كان بالبخل، فان الوليد بن يزيد الذي ملك بعده أمر الخزنة فغلقوا الخزائن في القصور كلها، وحرم هشاما ما كان يجمعه ويدخره ويشح به على رعيته، وهو مالهم، جمعه من الدولة، واكسبه من الرعية، حتى أنهم لم يجدوا فحما ليسخنوا الماء لغسله، ولا قمقما[3] يسخنون فيه، ولا كفنا يكفنونه به، فطلبوا الفحم له والقمقم، وكفنه احد عبيده، وقيل صديقه الابرش بن الوليد. ليت شعرى هل يتعظ الأمراء الأشحاء والأغنياء البخلاء الذين لا يزكون، ولا يتخذون أسباب التنمية والزيادة في أموالهم بالصدقات والتبرعات، هل يتعظ أولئك القساة بهذه القصة؟

وكان هشام مع بخله قاسيا لا يلين حتى في المواطن التي يذوب فيها الناس من خشية الله، ولا يراقب الله حتى في الأماكن التي تذكر كل الناس بالله. وكان ظالما لا ينصف من يشكو له، مجبرا لا يلين للضعفاء الذين يتضرعون إليه. انظر إلى قصة الرجل الذي عرف قساوته فاغتنم فرصة وجود هشام بالكعبة، وظن انه قد لان من خشية الله، فرفع إليه ظلامته، بماذا أجابه، وكيف قابله؟

1 - مروج الذهب للمسعودي ج 3 ص 217.

2 - البداية والنهاية لابن كثير ج 9 ص 353.

3 - القمقم: آنية وهو معرب.

قال ابن الأثير: في هذه السنة «ست ومائة» كلم إبراهيم بن محمد بن طلحة هشام ابن عبد الملك -وهو في الحجر- فقال له: أسالك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظما له إلا رددت علي ظلامتي. قال: أي ظلامة؟ قال: دراي قال: فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال ظلمني والله قال: فالوليد وسليمان؟ قال: ظلماني. قال: فعمر؟ قال: يرحمه الله ردها علي. قال: فيزيد بن عبد املك؟ قال: ظلمني وقبضها مني بعد قبضي لها وهي في يدك. فقال هشام: لو كان فيك ضرب لضربتك ! فقال في والله ضرب بالسيف والسوط. فانصرف هشام !

إن هذه القصة تطلعنا على هشام وتجبره، وسيرته في رعيته. هذا في مقام اللين والخشية، وفي الكعبة المقدسة، فكيف يكون إذا هو في قصوره وفي دار ملكه، وعلى عرشه، وحوله أجناده، ومن يوحى إليه بالغطرسة والجبروت، وما يبعثه على الظلم والطغيان؟ انظر إلى قوله: لو كان فيك ضرب لضربتك! إن الرجل كان دقيق العظم، هزيل الجسم، لمرض أو شيخوخة، فلم يرحمه فيصرفه بالحسنى، أو يقضي له حاجته، بل قال له: لو كان فيك مكان للضرب لضربتك! ثم إن الرجل شكا إليه في داره. وهي ضرورة له ولعائلته، ومما لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنه ولكن لما صارت من أملاك الدولة، عز على هشام أن يردها إليه، لان الغرائز وحب الدنيا هي التي تتحكم فيه، وفي عماله وموظفيه، لا خشية الله.

وكان هشام صعب الحجاب لا يستطيع أصحاب المظالم أن يتصلوا به، ولم يكن هو يكترث بهم كما كان سيدنا عمر بن عبد العزيز، وكما سنرى الأئمة العادين في الدولة المغربية؛ يجلسون في المسجد الجامع فيختلطون بكل الناس، ويتحدث إليهم كل إنسان، ويرفع لهم مظلمته وحاجته كل مظلوم وفقير فلا يقومون من مجالسهم حتى ينصفوه من ظالمه ويقضوا له حاجته. وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز والأئمة في الدول المغربية أسسها البربر لما ثاروا على الأمويين يتجولون في الأسواق لتفقد أحوال المسلمين، ويقصدون الإحياء الفقيرة ليلا لعلهم يجدون بائسا لا مأوى له، أو ذا حاجة فيسارعون بقضائها. لم يكن هشام على هذه السيرة التي يأمر بها الدين، لان الدين لم يكن هو أمامه، فلو كان الدين قائده، وما يملأ اهابه، كما كان سلفه عمر بن عبد العزيز لرأيناه على الرأفة والرحمة التي تجعله للرعية أما رءوما لصغارها، وحمامة لفراخها، وتغطيهم بجناحها، وتقيهم من الثلج والأمطار بنفسها. لقد كان قاسيا فتأثر به عماله فثار البربر عليه، وأسسوا دولهم التي التزم أئمتها طريقة الخلفاء الراشدين،

وتمسكوا في كل أمورهم بدين الله المتين، وأسعدت المغرب وازدهر بها الإسلام، وفاء إلى ظلها المسلمون من المشرق المظلوم.

قساوته مع آل البيت

وكان هشام قاسيا عنيفا مع آل البيت، ومع أبناء الإمام علي رضي الله عنه. كان غليظ الكبد قاسيا لا مع أحيائهم الذين يمكن أن ينافسوه في ملكه فقط، بل حتى مع الأموات الذين يأمر الدين بصيانتهم، وتوجب كل القوانين الدنيوية مراعاة حرمتهم انظر إلى زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما ثار على هشام لظلمه وظلم الأمويين في عهده، فقاتله، فاستشهد رحمه الله، كيف عامل هشام جثته، وكيف عاملها الوليد من بعده. لم يكن هشام قاسيا ظلوما للبربر فقط فنقول انه لم يعرف حقيقتهم فجهل الأسلوب الذي يليق لهم في الحكم، وان عصبيته لجنسه هي التي تدفعه، بل كان على القساوة والظلم حتى مع من هم اشرف منه في النسب،وأعلى مقاما في صدور المسلمين، ومن هو من ذؤابة قريش، ومن بؤبؤ بني هاشم لأنه لا يحكم دينه، ولكن غرائزه وأنانيته.

قال المسعودي: وثار زيد بن علي بن الحسين «في سنة اثنتين وعشرين ومائة»[1]على هشام في الكوفة فخرج ومعه القراء والأشراف، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي «والي العراق» فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد، وبقي في جماعة يسيرة، فقاتلهم اشد قتال، وهو يقول متمثلا:

أذل الحياة وعز الممات *** وكلا أراه طعاما وبيلا

وإن كان لابد من واحد *** فسيرى إلى الموت سيرا جميلا

وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخنا بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته فطلبوا من ينزع النصل فأتي بحجام من بعض القرى، فاستكتموه أمره، فاستخرج النصل، فمات من ساعته. فدفنوه في ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش واجري الماء على ذلك وحضر الحجام موارته فعرف الموضع فلما أصبح مضى إلى يوسف منتصحا، فدله على موضع قبره، فاستخرجه يوسف، وبعث برأسه إلى هشام «فصلب على باب مدينة دمشق ثم أرسل إلى المدينة المنورة»[2] (ليصلب فيها أيضا وهي مقر

1 - هذه السنة هي السنة التي ثار فيها البربر وهي تدلك على ضيق المشرق والمغرب معا بظلم هشام.
2 - ابن الأثير ج 4.

أهله وعائلته وأنصار علي رضي الله عنه)[1] قال المسعودي: فكتب هشام إلى يوسف أن اصلب زيدا عريانا! فصلبه كذلك! وبنى تحت خشبته عمودا «حتى لا تقع: وأقام عليه من يحرسه حتى لا ينزلوه. وأقام على ذلك سنة أن مات هشام، فولي الوليد بن يزيد، فأمر بإنزال جثته وإحراقها! !»[2] قال المسعودي: إن هشاما هو الذي أمر بإحراق الجثة وذروها في الرياح!

تلك هي معاملة هشام لزيد، وهو سيد في زمانه، جدته فاطمة الزهراء، وجده علي رضي الله عنه، وهو من خاصة قريش وكبرائها، ولم يعرف له مقامه وهو حي، ولم يكرم جثته لما مات! إن الإسلام قد حرم التمثيل حتى بجثث المشركين، ونهى أن تصلب أو تكشف أو تنتهك حرمة الميت. ولكن هشاما ومن على غراره من الأمويين كانوا قد بلغوا في التأثر بالفرس والروم درجة كبرى، فقلدوهم حتى في التمثيل بالأعداء، وضعف الدين في نفوسهم، فسيرتهم الشهوات والأهواء، فكانوا على القساوة والشدة، وعلى التجبر والغطرسة. وقد سار عماله وموظفوه في المغرب سيرته، وكانوا على حبه للمال، وتهافته على الطرف، وعلى قساوته وخشونته، وعلى عصبيته لجنسه، فظلموا البربر ظلما شديدا فثاروا عليهم. فما هي أنواع الظلم التي انزلوها على البربر فثاروا؟ وما هي المنكرات التي ارتكبوها فيهم فخلعوا دولة الأمويين، وأسسوا دولهم التي سارت فيهم سيرة الخلفاء الراشدين؟

1 - ما بين هذين القوسين ليس من المسعودي ولا من ابن الأثير.
2 ابن الأثير ج 4 ومروج الذهب ج 3.

أسباب ثورة البربر على الأمويين

أن سبب ثورة البربر على الأمويين هو ظلم الأمويين وجبروتهم لا غيره، فلو عدلوا كسيدنا عمر بن عبد العزيز ما فكروا في الثورة عليهم، ولا رضوا بالانفصال عنهم، بل يكونون لدولتهم الجفن للعين، والشغاف للقلب، يفدونها وينصرونها، ويقاتلون الثوار عليه، وليس المذهب الصفري هو الذي آثار بربر المغرب الأقصى كما ادعى كثير من المؤرخين المتعصبين لجنسهم ومذهبهم؛ فان المذهب الصفري من الأسباب الصغيرة في هذه الثورة، والأمويون بظلمهم وجبروتهم هم الذين فتحوا قلوب البربر لهذا المذهب المتطرف، ولتلك النحلة الشاذة. لقد كان المذهب الصفري الذي يوجب الثورة على الملوك الظلمة شرارة صغيرة اتصلت بقلوب محشوة بالبارود فانفجرت، فلو وجد الصفرية هذه القلوب خالية من حقدها وضيقها بظلم الأمويين، وكانت ماءا باردا لرضاها وهنائها ما اثروا فيها. إن البربر ذوو ركانة ورزانة وترو في الأمور، فليسوا بالطياشين الذين يجرون وراء كل ناعق، ولا بالمائعين الذين يتركون ما ألفوه ومن ألفوه بأقل سبب. انه يثيرهم إلا الشيء الذي يوجب الثورة، وإذا ثاروا فثورة الناس المحنكين، يضعون الخطط المحنكة، ويختارون الزمان المناسب.

إن البربر لقوة شخصيتهم وركانتهم كالفحم الحجري بطئ الاشتعال وإذا اشتعل فهو بطئ الانطفاء أيضا! هذه هي حقيقتهم كما دلت عليها سيرتهم وتاريخهم. أما ما يصفهم به المستعمرون الأوروبيون والمغرضون من صنائع العباسيين والأمويين، والمقلدون الجهلة لأولئك أو هؤلاء، من أن ثوراتهم في التاريخ على من وطئهم برجله لحبهم الفوضى، فقول هراء، لا يصدر إلا من النمل الذي يريد أن يرتع في الأسد ويمتص حياته ثم لا يتحرك، وإذا زأر وثار ونقض عنه الظلم والهوان قالوا: انه محب للفوضى.! !

إن ما آثار البربر على الأمويين هو ظلمهم. قال ابن عذارى:»وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل افريقية، فيبعثون لهم البربريات المسبيات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة».[1]

ترف هشام وأهل دولته

وكان هشام رجلا مترفا يحب المدنية،ويهوى الحضارة، ويألف النعيم، وينغمس في شهواته ولذاته. وكان أهل عصره كذلك، سيما عماله في النواحي، وولاته على المغرب.

1 - البيان المغرب ج 1 ص 53 بيروت.

وقد استجاد هو وأهل زمانه الكسى، واتخذوا الثياب من الحرير، وفي أيامه عمل الخز، والقطف الخز. لقد لان اهابه وأهاب حاشيته وخاصته فصاروا لا يطيقون إلا كل ما لان من الثياب، ونعم من الحلل، ولا يختارون للباسهم إلا النفيس من الأقمشة، والغالي من الألبسة حتى أنهم عافوا الثياب الصوفية المغربية التي تشبه الحرير لنعومتها، وألوانها البهيجة، وتفصيلها المحكم. لقد برع النساء البربريات منذ القديم في نسيج الثياب الصوفية، وكانت لهن البراعة في تلك الصناعة، والسبق في هذا العمل. وكانت الجبة الكبيرة من صنع المغرب في القديم تطوى فتحشى في قصبة، لدقة الصنع، والأحكام في النسج، والبراعة في عمل الصوف. ولا تزال كثير من أنحاء المغرب التي لم تقتلها مفاسد المدينة، وكل الحضارة، وضعف الرجال على براعة كبيرة في صنع الثياب الصوفية، وصبغها صبغة ثابتة لا تحول، وجميلة جمالا لا تجده في الأصواف الأوروبية.

وكان هشام ووزراؤه وعماله في المغرب وكبار دولته لا يكتفون بما يصنع البربر من الثياب الصوفية البديعة من صوفهم الطبيعي الناعم، بلا يريدون ثيابا أحسن، بالغة النعومة، بارعة اللون، تصنع من جلود سخال[1] الضأن أول ما تولد قبل أن يغلظ صوفها بغلظ عظمها ويخشوشن بالأرض والهواء، ثم لا يريدونها إلا عسيلة الألوان غير مصبوغة ولا ملونة، بل هي بالطبيعة كذلك، صفراء ضاربة إلى الحمرة؛ واللون العسلي نادر في الغنم، قليل في الضأن. فكان العمال الأمويون وأعوانهم في المغرب يبحثون عن الجلود العسلية السخال ليتخذوا منها الجبب الناعمة لملوكهم وكبرائهم ولأنفسهم فكلن يصعب عليهم أن يجدوا هذه السخال الحديثة الولادة، وإذا وجدوا البعض فلا يكفي فصاروا يختارون من غنم البربر التي يهجمون عليها ويغصبونهم إياها النعاج التي هي على وشك الولادة، فيشقون بطونها بحثا عن هذه السخال العسلية ! قال ابن خلدون «وكانت الصرمة[2] من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا واحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم».[3]

إن اعز شيء لدى الإنسان الذي يملك الغنم وينميها، ويعمل لكثرتها وازديادها النعاج المنتجة، سيما الحامل التي على وشك الوضع، فهي اعز وأغلى، وأنفس وارفع وكان العمال لا يعمدون إلا إلى هذه النجائب من أغنام البربر، فيقرون بطونها، فيرزؤونهم في

1 - السخل: ولد الشاة.

2 - ورد في القاموس: أن الصرمة القطعة من الإبل «أو الشياه» ما بين العشرين إلى الثلاثين أو إلى الخمسين والأربعين أو ما بين العشرة إلى الأربعين أو ما بين عشرة إلى بضع عشرة» كل ذلك يطلق عليه صرمة

3 - العبر لابن خلدون ج 1 ص 119ط. أولى.

النعجة وسخلها، فتكون الخسارة عليهم متكررة، والرزء مضاعفا وما كانوا يشترون هذه النعاج فيبقرونها، بل يهجمون على أموال البربر فيفعلون بها هذه الأفاعيل المنكرة، ويرتكبون فيها تلك الجرائم الشنعاء! إن هذه الجرائم تدل على الاحتقار وعدمن المبالاة، وعلى الغطرسة والتجبر، فان المرء لا يرتكب في مال غيره هذه الفظائع إلا وهو نهاية في التجبر والغطرسة، ومن يظلمه ويرتكب فيه جرائمه نهاية عنده في الضعة والهوان، وفي الحقارة وانعدام الشأن!

وكان البربر في الاعتداد بأنفسهم، وفي إبائهم، وعدم استطاعتهم للذل، وصبهم على الاحتقار كما بينا، وكما دل عليه تاريخهم، وكانوا مسلمين يغارون على دينهم، ويأبون أن تخالف أحكامه أمامهم، وكانوا يعرفون تحريم الشريعة الغارية والغضب، ولتعذيب الحيوان، وان ترتكب فيه هذه الفظائع، فتجمعت لديهم الأسباب التي تثيرهم: عزة الأموال التي تتلف، واحتقار العمال الذي تذل عليه فظائعهم في أموالهم، وشريعة الله التي تنتهك بهذه الأفعال البشعة، والغضب لأموال الغير والتعدي عليها. على أن البربر لم يثوروا لأجل المال وحده، فهناك مظالم أخرى قد نزلت عليهم في ناحية تثير غيرتهم أكثر، وهي عندهم اعز من المال، واشرف من كل نفيسة، وأغلى من كل قنية، وهي بناتهم!

وكان هشام وكبار دولته، وعماله وموظفوه، لا يرغبون في ثياب المغرب النفيسة وحدها، بل يغرمون ويتطلعون إلى وروده الإنسية، وظبائه الجميلة، والحوريات البارعات الحسن من بنات الأمازيغ. ذكر بعض المؤرخين أن العمال لا يسمعون بفتاة بارعة الحسن في البربر إلا ويأخذونها، فيستأثرون بها، أو يتحفون بها أمراءهم، ومن يحرصون على استرضائه من حاشية هشام!؟

أي شيء اعز من الأولاد على الإنسان، سيما الأنثى الضعيفة التي يغار عليها الأب وتعز على العشيرة، ويحامى عليها كل الأقرباء!؟ لقد كان العمال يعمدون إلى البنات العزيزات المصونات اللائي يغار عليهن البربر أكثر من كل شيء فيسلبونها ويغتصبونها كما يفعل بأولاد المشركين المحاربين، ومن يقاتلهم المسلمون من الكفار المعاندين! !

إن هذا الظلم الشنيع الذي لا يرضاه أي إنسان في بناته قد غاظ البربر أيضا لأنه يدل على عدم اعتداد الأمويين بإسلامهم، وعدم مبالاتهم بدينهم، فهم عندهم كالمشركين تحل أموالهم وذراريهم، فلهم أن يختاروا من الذرية ما يهوون، ومن الأموال ما يشاءون. ثم إن هذه الشنيعة تدل على الاحتقار، وتشعر البربر بان الأمويين يرونهم مغنما وغنما يختارون منها ما يريدون، ويرتكبون فيها ما يشاءون.

وكان عبيد الله بن الحبحاب وعماله ينتفعون بشجاعة البربر في الغزوات، وببطولتهم فيمن يحاربون من المشركين في صقلية، وسردانيا، وفي الأندلس، وفي كل الجزر التي يغزوها المسلمون. وكانوا يقدمونهم للقتال، وينالون بهم النصر، ويغنمون بهم الكنوز والأموال من المحاربين الذين يتغلبون عليهم، فإذا قسم عبيد الله وعماله الغنائم على الجيش المنتصر أعطوا العرب وحرموا البربر، وتصرفوا في الغنائم بالعصبية وعلى نحو يدل على احتقار البربر وعدم المبالاة بهم، كأنهم عبيد مسخرون، يغزون ليغنم سادتهم، ويقاتلون ليكون الوفر لمالكهم! !

إن الإسلام دين العدل والمساواة، ودين المحبة والمؤاخاة، حرم العصبية الجاهلية والاعتداد بالعرق، وجعل المسلمين كلهم في صعيد واحد. «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وكلهم لآدم، وآدم من تراب». وقد تأثر البربر واغتاظوا لعدم الإسهام لهم في الغنائم التي حازها بسيوفهم، لهذا الاحتقار الذي يدل عليه الحرمان، لا لحبهم للمال؛ ولعدمن الاعتراف لهم بالفضل في الحروب، وهم ذووه، والجدوى في المعارك وهم مساعيرها.

إن هذا المظلم الذي ينزل على البربر فيما يغنمونه يدل على تهالك الأمويين على المال وعلى عصبيتهم للعرق! ومن شأن المتعصب لنفسه وبني جنسه احتقار سواه، وعدم الاعتراف بفضل غيره، فهو يرون أن المحارب الذي يستحق الغنيمة إنما هم جند الملك من القيروان، أما البربر المتطوعون الذين دفعتهم غيرتهم على الدولة، ونصرتهم للدين، واستجابتهم للعمال، فأطراف الجيش، وغمد السيوف، لا شأن لهم في المعركة، ولا تتجه لهم في الصدام، ليسوا هم الذين يحصدون الهام، وينكسون أعلام الأعداء، ويورثون النصر لجيش المسلمين، فلهذا يحرمونهم من الغنيمة، ولا يقسمون لهم في الفيء؛ فغاظ البربر هذا العمل لذلك المغزى، وساءهم أن يحرموا لذلك الاحتقار.

وكان عمر بن عبيد الله المرادي عامل ابن الحبحاب على شمال المغرب الأقصى أكثر العمال تجبرا وظلما، وأكثرهم غطرسة واحتقارا للبربر؛ فانه أراد أن يخمس أموال البربر كما يفعل بأموال المشركين، زاعما أن البربر وأموالهم غنيمة للأمويين، دخلوا البلاد بسيوفهم، واخضعوا البربر بقوتهم، فأراضيهم مما فتح عنوة بالحسام، وأموالهم وأراضيهم غنيمة وفيء للمسلمين، وهو ما لم يره غيره من الولاة الذين تقدموه، وما لم يهم به من سبقه إلى المغرب من الأمراء المسلمين!

إن هذا يدل على جشع الأمويين وتهالكهم على المال، فعمد المرادي إلى هذه الحيلة، واستند إلى هذه العلة. على أن البربر وإن فتحت أراضيهم عنوة وهو ما أثبتنا واثبت

العلماء خلافه[1] فإنهم قد اسلموا فحرمت أموالهم الأخرى وذراريهم على المسلمين، فلا يجوز لمسلم أن يأخذ من أموالهم وأراضيهم إلا ما شرعه الله، ولكن المرادي لم يكن يتقيد في أعماله بالدين، بل تسيره غرائزه وأهواؤه، وعصبيتاه وغطرسته، وحرصه على استرضاء ابن الحبحاب الذي ولاه بالإكثار له من الأموال.

لقد اغتاظ البربر في المغرب الأقصى، وفي الجهات الأخرى لما أراد المرادي تخميسهم، وان يعاملهم كالكفار، ويسلكهم في طبقة المشركين! أنهم يعتدون بدينهم، فأي معاملة تشعرهم بأنهم لا يعتبرون مسلمين، وفي الذروة من الإسلام، تجرح نفوسهم الأبية، ويأباها الاعتداد بالنفس الذي ضعافه الذي في نفوسهم، وما يعلمونه من قيمة المسلم العظمى، ودرجته الكبرى، والمرتبة العالية التي أحله الله فيها في الدارين.

لقد نظر المرادي إلى البربر بنظرة ابن دينار إليهم، واحتهم احتقاره، فهل يكون مصيره غير مصيره؟

قال ابن الأثير:»...إن ابن الحبحاب استعمل على طانجة ابنه إسماعيل[2] وجعل معه عمر بن عبد الله المرادي، فأساء السيرة، وتعدى، وأراد أن يخمس مسلمي البربر وزعم أنهم للمسلمين! ! وذلك شيء لم يرتكبه احد قبله».

وقال ابن خلدون:» استعمل ابن الحبحاب عمر بن عبيد الله المرادي على طانجة والمغرب الأقصى، وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه، وساءت سيرتهم[3] في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوظائف:[4] البربريات، والأردية العسلية الألوان، وأنواع طرف المغرب. فكانوا يتعالون في جمع ذلك وانتحاله حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العلسية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر ودورهم عليهم».[5]

هذه هي الأسباب الكبرى في ثورة البربر على الأمويين، وفي انسلاخ المغرب عنهم،

1 - انظر ذلك في صفحة 13 و 14 من هذا الجزء.

2 - الصحيح ما سيقوله ابن خلدون: وهو أن إسماعيل استعمله على السوس من مراكش إلى الصحراء، والمرادي استعمله على الشمال طانجة وأعمالها. وقد أطلق ابن الأثير طانجة على المغرب الأقصى لأنها قاعدته الكبرى.

3 - الضمير يرجع إلى عمال ابن الحبحاب. وبين هذه الجملة وما قبلها كلام مبهم إما انه من أغلاط المطبعة أو من طمس النساخ الذين تؤتيهم الحقائق شيئا من كلام ابن خلدون. وقد أورد الشيخ السلاوي هذه الحقائق في الاستقصاء بعبارة أوضح مع تصرف في كلام ابن خلدون.

4 - الوظيفة ما يقدر للمرء من اجر وطعام وما يقدر عليه من واجبات وغرامات. والمعنى الثاني هو المراد هنا.

5 - العبر لابن خلدون ج 1 ص 199 ط . أولى.

وانفجار البراكين عليهم. ولكن هل ثار البربر على الأمويين وانفصلوا عنهم لظلم عمالهم الذين يمكن أن يكونوا قد تصرفوا بغير رضاهم، وارتكبوا ما يسخطهم، أم قد شكوا إلى ابن الحبحاب فلم تنفع الشكوى، وسافروا إلى الشام وحاولوا مدة طويلة أن يتصلوا بهشام فلم تجد المحاولة، وسلكوا كل الطرق السليمة لرفع المظالم عنهم فلم تجد، وأرغموا على امتشاق الحسام، وعلى خلع الأمويين، فأسسوا دولهم الإسلامية العادلة التي سارت فيهم سيرة الخلفاء الراشدين.

استقلال المغرب الأقصى[1] وانفصاله عن الأمويين 122 هـ.

إن سبب ثورة البربر في المغرب على الأمويين، وانفصالهم عنهم، وتأسيسهم لدولهم العادلة التي ساستهم كما أمر الله، والتزمت فيهم كتاب الله وسنة رسول الله، وأسعدتهم، ونالوا في ظلها كل عز وهناء، وكل نعيم وسيادة؛ إن سبب تلك الثورة العارمة إنما هو ظلم الأمويين وغطرستهم، وتعصبهم وجبروتهم، ويأس البربر من أن تشفى الدولة الأموية من شيخوختها، فتعود إلى صوابها في السياسة، والى دين الله في معاملة الرعية، وتلزم العدل والمساواة، وما شرعه الله لرئيس الدولة في معاملة المسلمين. لقد رأوا انحلال عائلة بني مروان، وأيقنوا انه لا يأتي بعد هشام إلا أناس هم اقل منه في الكفاءة، وعلى غراره في السياسة، وفي حب النفس والجنس والتحيز لهما، وأنهم سوف لا يظفرون من هذه الأسرة الحاكمة بمثل سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز فيصبرون على المرارة التي تنقضي، ويعيشون في خيال الحلاوة التي تأتي، ويخضعون لشتاء الدولة الذي يعقبه الربيع، ولجدبها الذي يمسحه الخصب الممرع. إنها شيخوخة في الدولة لا تشفى منها، ولا تزيدها الأيام إلا تمكنا، ولا تزداد الدولة بها إلا ضراوة وشراسة، واختلالا وضعفا، وفسادا في كل الأمور.

والسبب الثاني في ثورة البربر وانفصالهم هو ما يرونه من ثورة العلويين على الأمويين لتأسيس دول لهم في المشرق، وكثورة زيد بن علي بن الحسين التي وقعت في هذه السنة التي ثار فيها البربر، وما يعرفونه من استعداد العباسيين في خرسان، وفي أطراف الدولة في المشرق للثورة على الأمويين، وتأسيس دولة عباسية تشبع نهمهم في الملك، وترضى طموحهم إلى السلطان، فرأى البربر أنفسهم أولى بالاستقلال من هؤلاء للظلم النازل عليهم، والاحتقار يرونه من الأمويين، ولبعد المغرب عن المشرق؛ ثم أنهم لا يريدون أن يجردون الأمويين من ملكهم، ولا أن يهجموا عليهم في دارهم، ولا هم منافسون لهم في الملك والرئاسة كما كان العباسيون؛ فكل ما يريدونه هو أن يعيشوا في ديارهم أحرارا أعزاء، تطبق فيهم أحكام الله، ويسير الولاة فيهم بما أمر الله، لا تعصب ولا تحيز، ولا غطرسة ولا جبروت، ينظر إليهم أميرهم ورئيس دولتهم بعين الأب الحنون آل أبنائه الأعزاء، هم جزء منه، لا يعدهم الأمير وعماله مغنما يرتعون فيه، وطعمة يلتهمونها، كما صار اغلب الأمويين يعدون المغرب.

1 - أقسام المغرب: قسم العرب المغرب بحسب قربه وبعده عن مصر التي سيرون منها لفتحه إلى ثلاثة أقسام: الأدنى من السلوم في غرب مصر إلى بجاية، ويشمل على برقة وطرابلس وتونس وعمالة قسنطينة. والى مغرب أوسط وهو من بجاية شرقا إلى وادي ملوية غربا، ويشمل على جبال القبائل وعمالة الجزائر ووهران إلى ملوية. والى أقصى من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي.

والسبب الثالث لثورة المغرب الأقصى على الأمويين هو المذهب الصفري الذي يوجب الثورة على الملوك الظلمة، الذين اغتصبوا رئاسة المسلمين بالقوة، واعتلوا عروشهم بحد السيف، وأرغموا المسلمين على مبايعتهم والخضوع لهم، ثم لم يعدلوا فيهم، بل ساروا بالهوى، وتجبروا، وخالفوا الدين بظلمهم وجبروتهم، وعدم تعففهم في أموال المسلمين ودمائهم، وبتعصبهم لأنفسهم، واستئثارهم برئاسة الدولة، لا يرضون أن تخرج منهم إلى من هو أكثر كفاءة، وأصلح الدين، وأليق بالأمة، وبمصالح الدولة العليا.

إن الصفرية بمذهبهم الذي نشروه في المغرب الأقصى، وفي جنوب افريقية[1] لم يزيدوا على أن أكدوا للبربر ما عرفوه من دينهم ومن سيرة الخلفاء الراشدين في رئاسة الدولة، وفي الثورة على الملوك الظلمة، ولم يزيدوا على انم أضافوا إلى الكيل حبات فطفح، ولقلوب البربر المستعدة للانفجار شرارة فانفجر «ديناميتها».

لقد كان البربر في العشرة الثانية من القرن الثاني الهجري قد تفقهوا في الدين، وتكون فيهم علماء في الشريعة، وعرفوا ما أمر به الكتاب والسنة في رئاسة الدولة وأيقنوا أن الإسلام جاء بالإمامة العادلة وبالجمهورية لا بالملوكية، وان الذي يجوز له أن يتقدم إلى عرش الرئاسة، والى كرسي الإمامة هو الرجل الكفء الذي يرضاه جمهور المسلمين، ويرشحه علماؤهم وخاصتهم الذين هم عقل الأمة المميز، وميزانها الصحيح . لا إكراه ولا إرغام، ولا تخويف ولا ترهيب؛ فخاصة المسلمين الذين يحسنون الانتقاء، ويعرفون الشروط التي يجب توفرها في رئيس الدولة، هم الذين يعينون شخصا للإمامة، ثم تبايعه الرعية برغبة منها، وبرضاها عن سيرته وكفاءته ولثقتها بخاصتها الذين امتازوا بصلاحهم وعلمهم، وبإخلاصهم وذكائهم وقوة شخصيتهم فصاروا عيونها وعقلها، ويوقفونها على محل الحسن فتدركه، ويلفتونها[2] إلى مواطن اللياقة والكفاءة فتؤثرها. هذا هو دين الله، وما يسعد الأمة في رئاسة الدولة، لا ما فعله الأمويون الغاضبون لإمارة الدولة، ولرئاسة المسلمين.

وعرف البربر من دينهم وأيقنوا أن الإسلام قد ساوى بين الناس، وجعل المسلمين امة واحدة، وفي صعيد واحد، لا فرق بينهم إلا بالتقوى، ولا امتياز لأحد إلا بالكفاءة والصلاح، وان الأمة الإسلامية كلها إنما هي أسرة النبئ صلى الله عليه وسلم، فالكل متصل

1 - المراد بافريقية هنا هو القطر التونسي اليوم وسيتكرر هذا الاسم في الفصول التالية والمراد به ما ذكرنا.

2 - لفته إلى الشيء يلفته بفتح الياء، انه ثلاثي لا رباعي. وكذلك الحنكة فانه بضم الحاء لا يفتحها. وقد شاع في المغرب الفت والحنكة بفتح الحاء، وهو خطأ.

به بوشيجة الدين، وبصلة الإسلام التي هي اشرف وأقوى من صلة النسب، لان صلة الدين هي التي تجعل المرء في طريق المصطفى، وتصبح نفسه بنور الإيمان الذي يشاكل به نبئ الإسلام، فيعترف بقرابته، ويعده من حزبه؛ وان النبي علي السلام إنما هو هديه ودينه القويم، فأكثر الناس تمسكا بدينه، والتزاما لهديه هو الأقرب إلى الرسول، وان أبا لهب عن النبئ، وأبا جهل، والوليد ابن المغيرة، وأمية بن خلف وغيرهم من أشراف قريش الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وحاربوه لم تنفعهم صلة الدم بالنبي، وقرابة النسب من رسول الله فتقيهم من اللعنة التي تنزلت عليهم في القران، ومن الدرك الأسفل الذب اعد الله لهم في النار. إن قوم النبي صلى الله عليه وسلم إنما هم أتباعه جميعا ! فأقربهم إليه وأولاهم بتقديم المسلمين له، أكثرهم تشبثا بدين الرسول، وأكثرهم علما بدينه، ورجاحة بعقله وكفاءته.

وعلم البربر وأيقنوا من دينهم أن المسلمين إنما قدموا الخلفاء الراشدين لرئاسة الدولة الإسلامية لدينهم وكفاءتهم، وامتيازهم بقوة العقل والخلق، وبقوة الشخصية، لا لنسبهم ولا لعرقهم، وان إمامة،[1] وهي التقوى والورع، والعلم، والدهاء، وقوة الشخصية والسلامة من العاهات التي تعوقه عن القيام بأمور المسلمين.

وكان البربر يعرفون من دينهم ويوقنون أن ما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من انه قال:»الأئمة من قريش» كذب وزور،وانه من وضع الأمويين المتعصبين ليستبقوا الرئاسة فيهم، فردده العلماء الذين يمالئونهم، ويسيرونهم بالرغبة أو بالرهبة في طريقهم، ويجرون على ألسنتهم وأقلامهم ما يريدون. لقد علم البربر المتفقهون في دينهم أن تعصب الأمويين وأتباعهم لأنفسهم ولقبيلتهم قريش هو الذي سول لهم أن يضعوا هذا الحديث، وان الإمامة لو كانت لقريش، وجعلها النبي لهم، فهي خاصة بهم لا يجوز لمسلم من القبائل الأخرى أن يتقدم إليها، ما قالت الأنصار يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لقريش:» منا أمير ومنكم أمير» وهم العارفون أكثر من يأتي بعدهم بما قال الرسول، وأكثر فقها لدين الله، وقد أجابهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بان قريشا أولى بالإمامة واحتج بدين المهاجرين وكفاءتهم، وباحترام المسلمين لهم وإكبارهم، وتقديمهم على من سواهم لذلك السبق إلى الإسلام، ولتلك الكفاءة التي تقدموا بها على غيرهم، وطال النقاش بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم جميعا في هذا الموضوع، ولم يذكر أبو بكر هذا الحديث، فلو قاله الرسول عليه السلام لا ستغنى به عن خطبته الطويلة وعن حواره للأنصار، ولو كان هذا الحديث موجودا قد قاله الرسول

1 - المراد بالإمامة هنا وفي هذا الفصل هي رئاسة الدولة. ونظام الإمامة في الإسلام كنظام الجمهورية مع خلاف في بعض النواحي يجعل الإمامة أفضل وأجدى للدولة.

لقر في قلوب الأنصار أن الإمامة لقريش لا لسواهم قبل موت النبي صلى الله عليه وسل، فيخضعون وينقادون ولا ينافسون قريشا فيها، لان منافسة قريش في الإمامة، وتقديم غيرهم إليها مخالفة للدين، وخروج على الشريعة، وهم في التمسك بالدين، وحياطته والغيرة عليه، والتقيد به في كل أمورهم في الذروة التي لا يبلغها من أتى بعدهم، ولا من عاصرهم من هؤلاء الملوك الأمويين الذين اغتصبوا رئاسة المسلمين، ووضعوا الأحاديث الكاذبة في الإمامة ونسبوها إلى الرسول، وأجروها على السنة صنائعهم من العلماء وأقلامهم، فشاعت في الناس، واخذ بها كثير من المتعصبين للعرق لموافقتها لهواهم.

أن إمامة المسلمين لا تسند إلا لمن يختاره جمهور المسلمين، وشروطها إنما هبي الصلاح، والتقوى، والورع، والعلم، والدهاء، والسلامة من العاهات التي تعوق المرء عن تحمل أعباء الإمامة، وإذا وجدت هذه الشروط في زنجي اسود من بني حام ولم توجد في عربي ابيض من بني سام فالزنجي أولى بها. هذا هو دين الله الذي أثبته في كتابه وبسنة رسوله، والتزمه الخلفاء الراشدون، وآمن به كل من خلا من التحيز والتقليد من المسلمين. وهذا ما عرفه البربر وأيقنوا به، فاثن آذانهم عن الأحاديث الكاذبة، ودعاوى الأمويين المزورة. ولما جاء الصفرية بمذهبهم لم يزيدوا على أن أكدوا للبربر في المغرب الأقصى وفي جنوب افريقية ما عرفوه في الإمامة من دينهم، وايقنوه بفضل تفقههم في شريعة الله، وتمكنهم في علم ما جاء به الرسول عليه السلام. فلو كان ما يقرره الصفرية وغيرهم من صحة الإمامة في غير قريش مخالفا للدين ما أصغى إليهم البربر، وما تأثروا بهم، بل كانوا يحاربونهم ويقمعونهم، ويطردونهم من ديارهم لمخالفتهم للدين فغي الإمامة، والثورة على الظلمة كما ثاروا على الأمويين لمخالفتهم للدين.

صفرية المغرب

لقد أصغى البربر في المغرب الأقصى لدعاة الصفرية، واعتنقوا مذهبهم وصاروا من حزبهم لموافقة بعض مبادئ هذا المذهب للدين، ولما في نفوس البربر بدينهم، وهو الثورة على الظلم والقضاء عليه، واختيار الإمام العادل الكفء من المسلمين، بدون تقيد بالقرشية، وبجنس من الأجناس. هذا هو الذي جعل البربر في المغرب الأقصى، وفي جنوب افريقية يفتحون قلوبهم للصفرية، ويصيرون من أتباعهم ومن أنصار مذهبهم.

إن الأمويين بظلمهم، وتعصبهم لأنفسهم، وادعائهم أن الإمامة يجب أن يكون في قريش وفي العرب من بعدهم لا تخرج منهم إلى غيرهم، هم الذين هيأوا قلوب البربر

للمذهب الصفري الذي يدعو إلى الثورة على الملوك الظالمين، ويقرر ما جاء به الدين في الإمامة، وهو أن إمام المسلمين تراعى فيه الكفاءة فقط، ولا يشترط فيه أن يكون قريشا ولا عربيا. إن هاتين القاعدتين هما اللتان استهوتا قلوب البربر للصفرية لأنهما موافقتان للدين؛ والدين جاء بالإمامة العادلة، وما يختاره الجمهور، لا بالملوكية المستبدة، أما ما سوى هاتين القاعدتين في مذهب الصفرية من الأقوال التي خالفوا فيها الدين، وشذوا بها عن جماعة المسلمين، كتكفيرهم لصاحب الكبيرة ومعاملتهم له كالمشرك الذي يحل دمه وماله، وغلوهم ونظرتهم الشزرى لمن خالف مذهبهم من المسلمين. إن هذا الشذوذ في المذهب الصفري مما لم يتحمس له البربر الصفرية فلم يأخذوا به في دولتهم التي سينشئونها في جنوب المغرب الأقصى.

خروج البربر من الصفرية إلى المذهب الأباضي ومذهب المعتزلة

إن اكبر دليل على أن البربر تحمسوا للمذهب الصفري لما ورد فيه الإمامة ولايجابة الثورة على الملوك الظلمة فقط هو انسلاخ اغلب النواحي التي كانت تدين به في المغرب إلى المذهب الأباضي الذي لا يشذ في شيء عن الدين، والى المذهب ألمعتزلي لما رفعوا الظلم الأموي عنهم، واستقلوا في بلادهم.

لقد اعتنق جمهور البربر الصفرية في المدن بشمال المغرب الأقصى المذهب ألمعتزلي فبقي المذهب الصفري في الجبال النائية التي يتمسك أهلها بالإلف، وتقصر عقولهم عن المقارنة بين المذاهب فيؤمنوا أحسنها، وانسلخ البربر في جنوب افريقية في آخر القرن الثاني الهجري عن المذهب الصفري واعتنقوا كلهم المذهب الأباضي المعتدل الذي لا يخالف الدين في شيء، ولا يكفر أصحاب الكبائر، بل يراهم عصاة، ويوافق الدين الصحيح في كل أقواله.

اعتدال صفرية المغرب الأقصى

كان البربر الصفرية في المغرب الأقصى معتدلين. لقد أنشأوا دولتهم في جنوب المغرب الأقصى «سجلماسة»[1] فعاشت هذه الدولة قرنا وستين سنة، وكانت تجاور الدولة الرستمية والدولة الإدريسية، وكانت معهما على الصداقة، وحسن الجوار وكان الأباضية والأدارسة يقيمون فيها فيستطيعون الإقامة لعدم شذوذ أئمتها عهن الدين، ولعدم معاملتهم العاصي كالكافر في دمه وماله. لقد عاشت هذه الدولة الصفرية

1 - سجلماسة هي «تافيلالت» اليوم وسنبين حدود هذه الدولة المغربية وغيرها من الدول المغربية المستقلة: الرستمية، والإدريسية والأغلبية في الجزء الثالث من هذا الكتاب وهو خاص بهذه الدول.

وهيب على أحسن العلاقات، وأجمل الصلات مع الدولة الرستمية التي تجاورها من الشرق، والدولة الإدريسية التي تجاورها من المغرب، وكان الاحترام بينها وبين جارتيها متبادلا. وكان اليسع بن مدرار أعظم ملوك سجلماسة صهرا للإمام عبد الرحمن ابن رستم إمام الدولة الرستمية. فلو كان اليسع يطبق بأعماله ما يراه مذهبه، فيعامل العاصي معاملة الكافر، فيسفك دمه، ويغنم أمواله، لتبرأ منه جيرانه، وقاطعوه بل إن الإمام عبد الرحمن بن رستم يهجم عليه ليغير المنكر الذي يقع بجواره، كما هجم أبو الخطاب إمام الأباضية في طرابلس على «وار فجومة» الصفرية في القيروان لما استحلوا دماء المسلمين وأموالهم، فقاتلهم وقتلهم، وانتزع القيروان منهم، وأراح المسلمين من شرهم وشذوذهم عن الدين. لقد كانت الدولة الرستمية أعظم دولة في المغرب ! كان من رقعتها اغلب المغرب الأوسط واغلب المغرب الأدنى، وكانت في كثرة الجيوش وفي القوة الحربية لا تدانيها دولة أخرى في المغرب، فما أسهل مهاجمتها لدولة سجلماسة الصغيرة واحتلالها، ولكن سجلماسة لم تكن شاذة عن الدين بأعمالها، لقد كانت نزيهة متعففة عن دماء المسلمين وأموالهم لم تلطخ بها صفحتها، ولم تغرق فيها كما غرق فيها العباسيون الذين عاصروها.

لقد أسهبنا في هذه النقطة لنبين أن البربر اعتنقوا المذهب الصفري لجوانبه الصحيحة، وهو ما قرره في الإمامة، وفي الثورة على الظلمة، وهو ما أتوه بأعمالهم ونفذوه بأفعالهم، أما ما سوى ذلك فبقي نظريات لا أرى أنهم آمنوا بها واستصوبوها في المغرب الأقصى.

أسباب اعتناق المغرب الأقصى للمذهب الصفري

لقد اعتنق المغرب الأقصى المذهب الصفري المتطرف الذي يوجب الثورة على الملوك الظالمين، ولم يعتنق المذهب الأباضي المعتدل الذي يجيز الثورة على الظلم إذا انس المسلمين في أنفسهم قوة، ولا يحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر، بل يراه عاصيا يتبرأ منه؛ اعتنق المغرب الأقصى مذهب الصفرية لشدة حنقه على الأمويين لارتكابهم ضروب الكبائر فيه، والظلم النازل منهم عليه، وإفراط عماله في اضطهاده فنزل عليه من الظلم أكثر مما نزل على الأمكنة الأخرى، فكان أهله على الحنق الشديد والغيظ المتأجج فهيأهم ذلك لهذا المذهب المتطرف فارتضوه واعتنقوه، وفتحوا صدورهم لدعاته. على أن البربر الصرفية في المغرب الأقصى حتى في ثورتهم الأولى العارمة على الأمويين، وحروبهم لابن الحبحاب، ومنازلتهم لجيوشه، وهم في اشد غيظهم، وأيام انفجارهم

لشدة حنقهم، وفي جو من العداوة والغيظ والحنق على الأمويين يسول لضعفاء الدين أن يمثلوا بالجرحى، ويضطهدا أتباع الأمويين من المدنيين، حتى في هذا الجو الذي يسيطر فيه الوجدان، ويسير الإنسان فيه غضبه، لم نر الصفرية يرتكبون في الجيوش الأموية التي هزموهم ما يرتكبه الأمويون لو هزموا هم البربر، من سبي البنات، والاستيلاء على الأموال، واستحلال الدماء التي لم تحاربهم.

أكاذيب المؤرخين على المغرب

إن المؤرخين القدماء قد ظلموا المغرب ظلما فظيعا في هذه الحلقة، وذلك لان ما كتبوه ووصلنا كان بدافع من الملوك الأمويين والعباسيين الذين عملوا كل وسيلة لتشويه صفحة البربر الذين ثاروا عليهم، واستقلوا، وكونوا دولهم العظمى، حتى لا يقتدى بهم غيرهم من النواحي التي تئن تحت ظلمهم واستبدادهم.

إن من يقرأ ما كتبه المؤرخون القدماء عن ثورات المغرب على الأمويين والعباسيين الذين ظلموهم، وخالفوا الدين فيهم، وكان يعرف المغرب، ويتصور البربر قوما بسطاء جهلة، يثيرهم كل فتان، ويقودهم إلى الثورة كل مشاغب، وأنهم من الأمم البدائية التي يسيطر عليه وجدانها لا عقولها، وتسيرها شهواتها لا دينها، والبربر لعمرك على النقيض مما يصفهم به أولئك المؤرخون المغرضون. لو كانوا كذلك ما هزموا جيوش الدولة الأموية والعباسية، وما أسسوا دولهم الإسلامية الكبرى التي أحيت المغرب، وجعلته كعبة القصاد لكل المسلمين! ومن الغريب أن كثيرا من المؤرخين المغاربة المحدثين الذين هم مظهر لأولئك الأجداد قد وقعوا في هذه الأغلاط فيما كتبوا عن هذه الحلقة، ورددوا ما قاله دعاة الأمويين، وما الصقوه بأجدادهم، فأهانوا أنفسهم، وعقوا أجدادهم، ولم يكونوا علماء فيعلمون عقولهم لاستنباط الحقيقة، ولا أبناء بررة فيزيحون عن وجوه أجدادهم الوضاءة الملاءة السوداء التي ألقاها عليها الأمويون والعباسيون المستبدون؛ كما رأينا كثيرا من المؤرخين الأوروبيين يرددون أغلاط هؤلاء المؤرخين، وهم الذين اشتهروا بأعمال عقولهم، واستنباط الحقائق، والسفر إلى أماكن التاريخ، ودراسة الأجداد في سيرة الأحفاد، لان الوراثية القوية لا تموت، ومع هذا نجدهم يصفون البربر بغير حقيقتهم لان الذين كتبوا ما كتبوا وهم في المغرب كان بروح استعمارية تبعثهم على أن يرسموا للمغرب أجدادهم في صورة زرية، لينفروا عنهم، فلا يعتنون بتاريخهم. وتجدهم يؤكدون ويقرون في قلوب أبنائنا أن البربر كانت ثورتهم على الأمويين لأنهم عرب ! فيذرون بذور التفرقة الخبيثة في قلوب ناشئتنا، ويصورون لهم العرب على أنهم قوم غير البربر، وهم شعب واحد قد مزج بينهم الدين، وصيرهم أسرة واحدة، وجسما واحدا نور الله المبين،

وصاروا بفضل الإسلام طاقة الزهر متعانقة متضاحكة متفتحة، ثم أخلطت الدماء فصار المغرب الكبير شعبا واحد من دماء عربية وبربرية قد امتزجت امتزاج الألوان التي يتركب منها نور الشمس، فصارت لونا واحدا يتلألأ في الفضاء !

لقد ثار البربر في المغرب الأقصى على ابن الحبحاب لظلم عماله، وخلع البربر الأمويين وانفصلوا عنهم لمخالفتهم للدين في سياسة المغرب، ولهرم الدولة الأموية التي أغرقت المغرب في التعاسة والشقاء.

صبر المغرب ومسالمته

وكان البربر مع الأمويين على شدة الظلم النازل عليهم، وعلى شجاعة البربر وكثرة عددهم، واستطاعتهم للثورة في كل حين من عهد ابن الحبحاب. كانوا غاية في الرزانة والركانة، ونهاية في ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب، فحكموا عقولهم ودينهم في الخروج من ظلم الأمويين، لا وجدانهم المتأجج بالغيظ، وقلوبهم المتقدة على الذين يظلمونهم؛ فسلكوا كل السبل الهادئة لرفع الظلم عنهم، فشكواهم تصل إلى الآذان، ولعل هشاما غير عماله، فسار هذا الوفد حاولا آلام البربر وشكواهم ليعرضها على هشام بن عبد الملك.

وفد المغرب الأقصى إلى هشام بن عبد الملك.

كان ذلك -كما أرى- في سنة إحدى وعشرين ومائة. وكان ميسرة بن الخفير المضغرى هو رئيس البربر في المغرب الأقصى، لعلمه، وفضله، وقوة شخصيته. فأوفده البربر في بضعة وعشرين رجلا من خاصتهم، وذوى النباهة والقدر فيهم، ليرفعوا شكواهم إلى هشام. فسار ميسرة ومن معه حتى وصلوا الشام، فطلبوا مقابلة هشام ليشرحوا له ما يحل بقومهم م ظلم وعدوان، فدوفع الوفد فلم يؤذن له في الدخول على هشام، وبقي ميسرة ومن معه سنة كاملة في الشام، وهم يطرقون أبواب هشام، ويتخذون الوسائل لمقابلته، ورفع الشكوى إليه، فلم يؤذن لهم ! لقد كان وزراءه وحجابه وموظفو قصره متواطئين مع ابن الحبحاب وعماله. إن طرف المغرب، وسباياه، وجببه العسلية الرفيعة، وأمواله كانت تنصب عليهم فجعلتهم لا يكترثون بالوفد البربري، ولا يبالون به. إن شكواهم في آذانهم كخوار البقرة التي تتأذى بالحلب فتصبح، وصياح النعجة التي لا ترضى أن يحتلب درها فتثغو، ولا تعبث الرأفة في قلب النهم الغرثان، وفي نفس الجشع الحريص !

قال أبو جعفر الطبري في «تاريخ الأمم والملوك»: «...فما زال أهل المغرب من اسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك. فلما دب إليهم أهل العراق واستثاروهم قالوا: إنا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا لهم لا نقبل ذلك «أي الثورة عليهم» حتى نخبرهم. فخرج ميسرة «المضغرى» في بضعة عشر إنسانا «من البربر»[1] حتى قدم على هشام. فطلبوا الإذن فصعب عليهم. فاتوا الابرش «كبير وزراء هشام» فقالوا ابلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم[2] دوننا وقال. هم أحق به! فقلنا: هو اخلص لجهادنا. وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وأخر جنده. فقلنا «لجندنا» تقدموا فانه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه. فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم. ثم أنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين[3] فيقتلون ألف شاة في جلد فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين. فاحتملنا ذلك، وخليناهم وذلك. ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا[4] فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ! فأحببنا أن نعلم اعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا. قال الابرش: نفعل. «يعني يبلغ شكواهم إلى هشام» «فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع، ورفعوها إلى الوزراء، وقالوا: هذا أسماؤنا وأنسابنا فان سألكم أمير المؤمنين عنا فاخبروه، ثم كان وجههم إلى افريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على افريقية،[5] وبلغ هشاما الخبر، فسأل عن النفر فرفعت إليه أسماؤهم فإذا هم الذين صنعوا ما صنعوا» إن قول الطبري فسأل عن النفر فرفعت إليه أسماؤهم دليل على أن الابرش لم يرفع شكوى الوفد البربري إلى هشام، استهانة بهم، وتواطئا مع عمالهم في المغرب.

وكان حرمان ابن الحبحاب وقواد جيشه للجند البربري من الغنائم وقولهم لهم: إن الأمويين[6] أولى به» وتقديمهم للبربر في محاصرة المدن لتنزل الضربات عليهم، وتأخيرهم

1 - إن ابن خلدون وابن عذارى وغيرهما قالوا أن الوفد بضعة وعشرين وقد أخذنا بقولهم.
2 - النفل محركة الغنيمة نفلة أعطاها إياه.
3 - قال ابن خلدون وغيره إن المطلوب هو الفراء العسلية وهي أندر وقد يطلب الأبيض بياضا خالصا لا يشوب فيه فيكون نادرا.
4 - كانوا يأخذونهن حظايا لا زوجات.
5 - المراد بافريقية هو العرب الأقصى والقدماء يطلقون أحيانا افريقية على المغرب كله وعلى جزء منه.
6 - نريد بالأمويين بني مروان وكل من سار في ركابهم وسار سيرتهم وكان من مؤيدهم. وترى الأوروبيين يقولون : العرب ليهموا أبناءنا أن ثورة البربر ثورة عنصرية. إنها ثورة إسلامية على الأمويين الظلمة لا على العرب. إن العرب أساتذة البربر وإخوانهم الأعزاء.

للأمويين حتى لا يصابوا. ثم بعد ذلك يخصون بالغنائم، ويحرم منها البربر الذين تحملوا عبء الفتوح، وقاموا بثقل المعركة، وفضلوا الحصون المستعصية بعد أن نقعوها في دمائهم؛ كان كل ذلك دليلا على احتقار البربر، وتحيز الأمويين لأنفسهم، وعدهم المغرب وآله مطية تسخر في أغراضهم، وآلة تستخدم في شؤونهم، بيس جزءا من الأمة الإسلامية التي ساوى الله بينها في الحقوق، ولا فئة تساوى الأمويين في القيمة والرتبة فيكون لهم مالهم في الغنائم والحظوظ !

وكانت مدافعة الأمويين للوفد البربري، وعدم الإذن لهم في الدخول على هشام ليقدموا إليه شكواهم دليلا على الاحتقار أيضا، فانك لا تتصام، وتعرض عن شكوى إنسان إلا وأنت تحتقره، وتعتقد انه لا قوة له فيؤدبك، ولا حول له ولا طول فيثور عليك، وانه لا يستطيع الانتصاف بنفسه، والانتقام منك بقوته. وهناك من يقول: إن الملوم على هذه المدافعة، وفي عدم الإذن للوفد إنما هي حاشية هشام ووزراؤه وحجابه، أما هو فبرئ، فلو عرف بالوفد لأذن له. ونحن نجيبهم بان هذا ما كان ليقع في عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد الحازمين من ملوك بني أمية، كمعاوية وعبد الملك، وسليمان وعمر بن عبد العزيز، لمباشرتهم لأمور الدولة بنفوسهم، ولاعتنائهم بحال الرعية، والاتصال بها، وأن حاشية هؤلاء ما كانت لتستطيع مدافعة وفد اقل شأنا من الوفد البربري الذي قطع الفيافي الطوال، وتحمل المشاق الكبار، ثم هو لا يشتمل إلا على كل رئيس وزعيم، وهو موفد من مئات الآلاف من البربر الصناديد، أبناء الطعان والفداء، وأرباب البطولة والإباء، لان أولئك الملوك الحازمين سيقمعون هذه الحاشية، فهي تخاف سطوتهم، وتخشى باسهم؛ بل إن أولئك الملوك لا تحوط بهم إلا حاشية مثلهم في الحزم والاهتمام بشأن الرعية، والغيرة على مصلحة الدولة، وحياطتها من كل الفتوق التي تؤذيها، وثورات الشعب التي ترهقها.

إن حاشية الملك عنوانه، وهيب دائما على حسبه، تتصرف مثل تصرفه، وتسلك في السياسة طرقه، وتعامل الناس على حسب مزاجه. إنها من اختياره، يؤثر فيها ويتأثر بها. لم يكن هشام كيزيد بن عبد الملك قد أعطى نفسه لشهواته، وترك شؤون الملك لغيره، ولا بالضعيف الذي تسيطر حاشيته عليه، وتستبد به، فتمنع الناس عنه، فهو حسن النية، محب للرعية، ومؤثر للعدل، ولكنه غلب على أمره، بل كان هشام حازما قوي الشخصية، فما كان لحاشيته أن تتصرف بغير رضاه، وتأتي ما يسخطه، وما كان لامرئ أن يسيطر عليه فيكيف سياسة الدولة، ويعامل الرعية بما لا يعجبه، ولكن حاشية هشام وهشام كانوا يمثلون الدولة الأموية الهرمة التي صمت آذانها؛ وكذلك

الدولة كالإنسان، من علامات هرمها أن تسمع الشكاوي، ولا ترى يعيدا فتعرف ما يقع، لضعف إدراكها، واختلال قواها.

قال المؤرخون: وبقي وفد البربر يطرق أبواب هشام سنة كاملة حتى نفدت نفقاته وأبس من تفتح أبواب هشام له، وأيقن بأن القصر كله متواطئ عليه، فدخلوا على الابرش بن الوليد الكلبي، وكان رئيس وزراء هشام، والإنسان الأثير لديه، فعددوا له أنواع الظلم التي يقاسيها المغرب من عمالهم فيه، ودفعوا إليه أسماءهم، وقالوا له إن سال عنا أمير المؤمنين فاخبروه.إن ميسرة وزملاءه يوقنون بان هشاما لا بد أن يعرف بوفودهم، إذا عبروا عن شكواهم بالأسلوب الحسي الذي يشعر به، ويهتم له، لأنه قعقعة الكتائب المدوية، لا عبارات الكتب الهادئة، وصليل السيف والسنان الذي سينفذ إليه في قصوره بدون استئذان، فتطفح منه كل الجوارح والآذان.

ورجع وفد البربر إلى المغرب بقلوب مجروحة، ونفوس آيسة من إنصاف الأمويين وعدلهم. وكانوا قد رأوا في الشام ومن برؤها من الهرم، وأنها إلى ليلها المعتكر، بانحلال الأخلاق بالمدينة، وضعف الدين، لا إلى صباحها، وان يومها الذي يعولون به، ويتقلون عليه، ويتألمون فيه، خير من غدها، فعزموا على خلعها، ومبايعة من يسوسهم بكتاب الله وسنة رسول الله، وينعش الدين والدنيا بعدله، والتزامه لطريق ربه، فيزدهر المغرب به، ويدخل أعراسه، وتقبل العهود السعيدة عليه.

أغراس الأمويين في المغرب

وكان الوفد البربري، كما كان البربر في المغرب يعلمون أطماع الأمويين في بلادهم وعزمتهم فيهم، وما عولوا عليه من إيوائهم إلى المغرب والأندلس إذا ثار عليهم العباسيون وغلبوهم على المشرق، وارتحالهم إلى المغرب والأندلس وحلولهم فيهما، وجعلهما دار الملك والسلطان، ومحلا تستمر فيه دولتهم، ويعتصمون به إذا تغلب المنافسون عليهم فانسلخ عنهم المشرق، وهزمهم العباسيون الذين رأوا سواعدهم تمتد إلى السلطان، وشبابهم يهجم على شيخوخة دولتهم ليواريها التراب. حبذا عزمتهم في المغرب، وإيواؤهم إليه، لو كانوا يذهبون إليه بنفوس جديدة، وبدين مكين، وأخلاق متينة، ولكنهم سوف لا يذهبون إليه إلا ما ألفوا، ولا ينتقلون إليه إلا بالشيخوخة التي لا شفاء منها، ولا يعاملون المغرب إلا بما يشكوه، ولعل ظلمهم سيزداد بازديادهم في الشيخوخة، وسوء عشريهم سيتضاعف بغرقهم في الهرم؛ فأبى البربر لبلادهم هذه الحال، وعزموا على إنشاء دولهم الفتية التي تورث للمغرب شبابه، وتدخل به في أعراسه، وتجدد ما أغرض

عنه الأمويون من العدل الذي أمر به الدين، وحتى ما أماتوه من سيرة الخلفاء الراشدين.

إن انتقال عبد الرحمان الداخل إلى المغرب ثم الأندلس ومعه جماعة من بني مروان لم يكن شيئا مرتجلا ألجأت إليه لحوادث، ولكنه كان مبيتا من قبل، وكان خطة موسومة في نفوس الأمويين منذ زمن بعيد.

إن عبد الرحمان كان أقلية من الأمويين فانغمس في الأندلس التي كانت فتية لاشتمالها على العنصرين القويين البربري والعربي، وامتزاج دمائهما في عروقها فاكتسب من شبابها، وملأته بفتوتها، وسار بدولته في الطريق الصحيح الذي اندفعت به إليه، ثم إن أمه كانت بربرية. إنها «راحا النفزية» فورث شباب أخواله، وجعله امتزاج الدماء صقر قريش ونسيج وحده في الأمويين، فبني بعبقريته ما بني. أما هؤلاء الأمويون لو بقي المغرب فراشا وثيرا هادئا موطأ الأكناف لهم، فانتقلوا إليه في جماهير غفيرة، وفي حشود كبيرة، ما كانوا فيه إلا على سيرتهم في المشرق، لان المرء لا يشفى من الهرم، والدولة لا تنسلخ من شيخوختها.

وكان البربر مع خوفهم من التجاء الأمويين إلى المغرب لسوء سيرتهم وأمراض شيخوختهم، يعلمون أن العباسيين لا بد وان يطاردهم فتسمى بلادهم ميدان حرب يكونون طعمتها، وساحة صدام يتحملون أثقاله. هذا ما أدركه البربر بذكائهم، وعلمه المغرب بنضوجه وبعد نظره، وأيقن به أهله فثاروا على الأمويين واستقلوا، وأنشأوا دولهم الزاهرة التي عدلت فبهم، واعتنت بهم، وكانت ملجأ لطلاب الحرية والعدل والهناء من أنحاء العالم الإسلامي كله.

قال ابن القطان: «كان هشام بن عبد الملك قد ندب كلثوم بن عياض لقتال البربر، وعهد إليه في سد افريقية وضبطها إذ كانوا يجدوا في الروايات أن ملكهم يزول، فأمر بالجد في أمر افريقية ليلجأوا إليها إذا ذهب ملكهم.[1]

1 - البيان المغرب ج 2 ص 42 ط . بيروت. ويريد ابن القطان بافريقية المغرب كله. والقدماء كثيرا ما يطلقون افريقية على المغرب من باب تسمية الكل بالبعض.

إمامة ميسرة الخفير المضغري 122

كان ميسرة من علماء البربر، ومن ساداتهم، وذوي العقل والحنكة فيهم. وكان شجاعا جريئا، بطلا مقداما، مخلصا لقومه، غيورا على وطنه، طموحا عزيز النفس لا يرضى بالذل والهوان. وهو من قبيلة مضغرة البترية البربرية المستقرة في شمال المغرب الأقصى؛[1] فاختاره البربر لمزاياه التي ذكرنا إماما لدولتهم فبايعوه، والتفوا حوله واستعدوا للقراع معه، وخلعوا الأمويين ونبذوهم، وبدأوا حياة الاستقلال والكرامة وشمروا عن ساعدهم لتطهير المغرب من الظلم والفساد ورقة الدين، ومن التعصب والتحيز والأنانية، والرجوع إلى الإخوة الإسلامية، والى مساواة الدين الحنيف وديمقراطيته التي تخلق الحب في الصدور، والصفاء في النفوس، وتجعل أبناء الدولة كلهم فيها كالفروع في الشجرة، يأخذ كل نصيبه، لا يظلمه أخوه، فيعمر الهناء والرضا كل القلوب، وإذا هب إعصار على الدولة لم يزدها إلا قوة وتماسكا، ولا يزيد القلوب إلا تعانقا كما تتعانق الأغصان في الشجرة إذا هبت العاصفة عليها.

ومبايعة البربر لميسرة لاتصافه بالأخلاق العظيمة، وبالعلم والإخلاص، وبروزه في قومه بعلمه، وتضحيته، وبدون أن يراعوا عرقه، ولا البيت الذي نبع منه، ولا أن يكون لآله سابقة في الملك، وماض في الرئاسة، كما يفعل الملوكيون العظاميون الذين ينظرون إلى ماض الرجل لا إلى حاضره، والى أجداده والقابه، لا إلى عمله وكفاءته، وما يقدر عليه. إن مبايعة البربر لميسرة وهو مجرد من الألقاب إلا من لقب البطولة الذي يزينه، والكفاءة والعمل الصالح آل=بي يتوجه، دليل على تمسكهم بالديمقراطية الإسلامية، وعلى أنهم ثاروا ليرجعوا رئاسة الدولة وشؤونها إلى الطريق الذي شرعه الله لها، والى السبيل الذي بينه الدين، واجبه على المسلمين.

وقد حول بعض المؤرخين المتعصبين، أبواق الأمويين والعباسيين أن يغضوا من مقام ميسرة الذي حرر المغرب من الظلم، ومهد للدولة الإدريسية بأن قطع جذور الأمويين من المغرب، فاستطاع إدريس الأكبر أن يلتجئ إليه، واستطاع البربر أن يؤسسوا دولتهم الإدريسية العظيمة بإمامته. إن هؤلاء المغرضين قد ثلبوا ميسرة واحتقروه، وقالوا انه سقاء! كأن حرفة المرء تزري به، ونسوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان راعي غنم، وان جل الأنبياء والزعماء الذين نهضوا بشعوبهم كانوا من ذوي الحرف البسيطة التي تجعلهم يختلطون بالشعب فيعرفون أمراضه، وتهيئتهم للزعامة بما تغرس فيهم من رأفة وجلد وتواضع وتضحية. أنهم تناسوا أن أبا تمام الشاعر كان سقاء، والجاحظ إمام

1 - ذكر ابن خلدون أن مواطنهم في عهده من تلمسان إلى فاس غربا.

الأدب كان سماكا ينتقل بالسمك على ضفاف دجلة والفرات ليبيعه مشوبا بدريهمات زهيدة، فما منعت حرفة أبي تمام أن يكون إمام الشعر، وذورة الأدب، وما عاقت زمانه أن يعترف له بإمارة القريض، وان يجعله أمير الشعراء، وسيد الأدباء، وما عاقت حرفة الجاحظ أن يكون إمام الأدب والفصاحة، وسيد البلغاء والعلماء، وتعنو رقاب الأدباء له، وتطأطئ رؤوس الفصاحة لعبقريته وسمو مقامه!

إن البذور التي تندس في الرغام، وتختلط بالطين هي التي تكون أشجارا عالية، تملأ الساحة بالظلال والثمار، وبالعطر والجمال، ويفئ الناس إليها فتقهم حرا لهواجر، أما البذور التي تعيش في حقق العاج النفيس، وفي أواني الذهب الغالي كأبناء الأغنياء والملوك فلا يكون منها إلا الديدان... ![1]

لقد كان ميسرة سقاء فاختلط بشعبه، ودخل كل دار، وعرف الناس فعرف آلامهم وآمالهم، ودرس طباعهم، ثم لم تمنعه حرفته أن يكون عالما في الدين، فهو أحسن من يليق للزعامة، ويقود قومه في ثورتهم التي تحتاج إلى الجلد والتضحية والإقدام والدهاء.

وكانت مبايعة ميسرة وثورته في سنة اثنتين وعشرين ومائة. فهجم بجنده على طنجة فاحتلها، وقتل عاملها الغشوم عمر عبيد الله المرادي، فانثال البربر عليه من أنحاء المغرب الأقصى فبايعوه، وانضووا تحت لوائه، فكثرت جموعه، فاستعد للدفاع، ولتحرير المغرب الأقصى كله من الظلم والطغيان، ليكون دولة واحدة تنعم بالعدل والأمان.

ولاية عبد الأعلى ابن جريج على طانجة واستشهاده

وكان ميسرة قد قسم جيشه ا قسمين قسم استبقاه معه في عاصمة الثورة بجبال مضغرة، وهي من تلمسان إلى طنجة، وقسم سيره مع قائده ووالية على طنجة عبد الأعلى بن جريح الرومي مولى موسى بن نصير لفتح جنوب المغرب الأقصى.

وكان في جنوب المغرب الأقصى: من مراكش إلى الصحراء إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب واليا عليه، وكان قد استعد لهجوم ميسرة عليه، فسار إليه عبد الأعلى

1 - من الناس الذين احتقروا ميسرة مكتبة صادر اليسوعية في بيروت. إن كل المؤرخين ومنهم ابن عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب قد سموا ميسرة بالخفير، ولكن هذه المكتبة التي كنا نحترمها سمته في البيان المغرب ج 1 ص 52 «بميسرة الحقير». ونحن نقول لهذه المكتبة إن أصدقاءهم الفرنسيين الذين يسرهم أن يزري الناس بأبطال المغرب وأجدادهم العظام لم يعدوا في المغرب فلتحذر من الوقوع في هذه الغلطة المعتمدة في الطبعة الثانية إنها غلطة مقصودة لان المكتبة مشهورة بالتدقيق في التصحيح

بن الجريح فوقعت حرب عنيفة بينهما استشهد فيها الأعلى، وانهزام جيشه، لتفوق إسماعيل عليه في العدد والسلاح.

دهاء ميسرة

وكان ميسرة داهية فاختار الزمان لثورته، وانتظر حتى غاب معظم جيش ابن الحبحاب عن المغرب، وأرسله تحت قيادة حبيب بن أبي عبيدة لغزو صقلية، فلم يستطع ابن الحبحاب أن يهاجمه بكل قواه قبل أن تتمكن جذوره، ويغزر جمعه، ويسرع إليه البربر التواقون إلى الحرية والعدل من كل الأنحاء، فيستعد لكل من يسير إليه.

وكانت هذه الثورة العارمة، ومبايعة البربر لميسرة بالإمامة، ونبذ الأمويين وخلعهم، وفرح البربر بهذه الثورة ومسارعتهم إلى ميسرة، وانتفاض كل أنحاء المغرب واستعدادها لخلع الأمويين، كان هذا مفاجأة مريعة لابن الحبحاب، لم يكن تخطر بباله فيستبقى معه كل جيشه. لقد كان يحتقر البربر، ويرى أنهم لا يستطيعون الثورة عليه، وإذا فعلوا فاقل جيش يخمدهم ويرجعهم إلى حظيرته، ثم لا تكون ثورتهم إلا جزئية تنفجر في مكان فتحصر فيه، لا تتجاوزه إلى غيره، فها هو المغرب كله يغلي حول القيروان، ويجد نفسه في بحر مزيد في أعماقه ثورة تهز سفينته لتلتقمها، فأسرع فحشد ما استطاع جمعه من الجيش وأرسله تحت قيادة خالد بن حبيب بن أبي عبيدة ليعاجل ميسرة قبل أن تتسع نار ثورته، ويتكاثر جمعه، فيسير هو إليه، فيفتح القيروان فيقضي على الأمويين في المغرب، وأرسل إلى كبير قواده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أن يرجع بما معه من الجيش عله يستطيع رد هذا الطوفان عنه.

وكان خالد بن حبيب بطلا كابية فسار إلى طنجة لمنازلة ميسرة، فاستعد له ميسرة، فوقعت بينهما حول طنجة معركة مهولة سقط فيها عشرات القتلى من الجانبين، فأحس خالد بالخطر، ورأى شجاعة البربر، وبطولتهم في القتال، وتصميمهم على القضاء عليه، وعلم أن المعركة إذا استمرت طويلا فسوف يكون جيشه طعمة للبربر المصممين على محوه، فانسحب من المعركة، وتحاجز الجيشان، ومضى خالد إلى تلمسان الحصينة العالية الأسوار، وهي أول المغرب الأوسط فعسكر فيها، ليكون حاجزا لميسرة إذا هم بالمسير إلى القيروان، ويمنع الثورة من النشوب في المغرب الأوسط لكي لا يتسع الخرق على الأمويين. لقد منى نفسه بالتقوى بابيه إذا وصل بجيشه الكبير من صقلية فانضم إليه. سيسير بجحافله إلي ميسرة فيقضي عليه، فبقي مرابطا في تلمسان، وهو حذر مما سيقع في المغرب الأوسط أيضا لأنه يحس به ساكنا متكمشا تكمش

الأسد إذا تداخل في جلده يستعد لوثبته الكبرى، ويرى نار قلوب البربر في عيونهم المحمرة عليه، فأيقن أن دولته إلى حروب مريرة مع المغرب الذي اجمع على الاستقلال والانفصال، والذي خسر الأمويون قلوب أهاليه، فأنى لهم استرجاعها. فبقي خالد على أهبة الحرب في كل وقت، وآثر تلمسان الحصينة مقرا له ينتظر فيه وصول أبيه.

عزل ميسرة عن الإمامة

وكان البربر بعد هذه المعركة الأولى لهم مع الأمويين قد استضعفوا ميسرة، وسخطوا سيرته، وانتقدوا سلوكه، وسوء تدبيره. ها هو جيشهم يمنى بالهزيمة على يد إسماعيل بن عبيد الله في السوس الأقصى فيطمع الأمويين فيهم، وها هي النتيجة في معركتهم مع خالد بن حبيب لا تكون كما يريدون، وحسب ما يستطيعون. أنهم يستطيعون أن يهزموا خالدا لو كان ميسرة ابرع مما هو في القيادة، وأكثر سدادا في التدبير. لو طال المعركة معه لأدركوا مناهم فيه، فيكسرونه شر كسرة فتضعف معنويات الأمويين فلا يمنون أنفسهم بالقضاء على ثورتهم، فيوجهون الحجافل الجرارة إليهم، لو اتبع خالدا لما انسحب من المعركة لأدركوا فيه مناهم، ولكنه تركه حتى اعتصم بتلمسان الحصينة، ومكنه من الزمن الطويل الذي يتهيأ فيه ويصل أبوه ليجدد الكرة عليهم. إن ما يستقبلهم من قراع مرير مع الأمويين يستدعى براعة في القيادة أكثر مما يستطيعه ميسرة، فلا بد من قائد لهم أقوى منه ليدركوا مناهم. انه أمامهم، فالكفاءة هي التي تقدمه، وإذا عجز عن مهمات الدولة فالعجز يؤخره، فيقدمون الأقوى. إن هذه من حسنات الإمامة، فاجمعوا على عزله.

قال المؤرخون: إن البربر أنكروا سيرته، وتغيره عما كان عليه من استقامة وسداد. ولم يبينوا هذه السيرة، والسلوك الذي أنكروه عليه. قد يكون ميسرة تغطرس واستبد برأيه، ولم يأخذ بمبدأ الشورى الذي تقوم عليه الإمامة. فلو وفق ونجح وتغلب على خصومهم لارتضوه، واغتفروا له استبداده، ولكنه فشل وخاب فرأوا عناده وانفراده بالحكم خطرا عليهم.

وقد يكون ارتكب في أتباع الأمويين ممن لم يقاتلوه ما يحرمه الدين، وما هو من الظلم الذي ثاروا من اجله. إن ميسرة من علمائهم في المذهب الصفري، ولعله أراد أن يغلو في الأمويين الذين ارتكبوا فيهم كبائر من الذنوب فيعاملهم كالمشركين كما يقرر مذهبه، وهو ما أباه جل البربر ولم يأخذوا به. إن ميسرة ضعيف القيادة هذا ما كشفت عنه المعارك التي خاضها وهو قد ساء سلوكه، وتغير عما عليه. لقد بايعوه على الصلاح

والتزام الدين، وعلى الشورى، وأن يكون أمامهم الذي يحاسبه الشعب، فإذا خاس بإحدى هذه، وارتكب ما يضر بمصلحة الدولة العليا، وما يخالف الدين فلهم عزله؛ فاجمع أهل الحل والعقد في جبال مضغرة على عدم صلاحية ميسرة للإمامة فعزلوه، وبايعوا خالد بن حميد الزناتي إماما عليهم.

قال بعض المؤرخين: إن البربر لم يكتفوا بعزل ميسرة بل حكموا بإعدامه فأعدموه. وإذا صح هذا فان البربر قد أنكروا مخالفته للدين، وارتكابه في دماء المسلمين ما يستوجب قتله فقتلوه. إن الإمامة تجعل الإمام كأبسط رجل من الشعب في حدود الله. إن قانون الله يسرى عليه كما يسرى على شعبه، فترى الإمام يردعه عن الظلم خوف الحدود التي تنفذ فيه، مع خوفه لله. وجاء خالد بن حميد إمام البربر الجديد الذي سيصول بهم في المعارك الهوجاء مع الأمويين. فلمن يكون النصر يا ترى؟ انه للمظلوم الذي ثار على الظلم، ولطالب العدل الذي يسعى لتنفيذ أحكام الله. ونصرة دين الله.

إمامة خالد بن حميد الزناتي 123

كان خالد بن حميد الزناتي من قبيلة زناتة البربرية البترية. وكانت زناتة أقوى القبائل في المغرب، وأكثرها عددا. وكان جلهم في المغرب الأوسط، وقد نسب إليهم فسمي مغرب زناتة، وذلك لكثرة عددهم فيه. وكانت لزناتة أفخاذ وعشائر في المغرب الأدنى بطرابلس، وفي المغرب الأقصى. وكان خالد بن حميد من هذه القبيلة الكبرى.

إن اسم خالد واسم أبيه حميد دليل على رسوخ البربر في الإسلام وفي العربية، فلولا هذا ما اختاروا هذه الأسماء العربية، وما آثر حميد لابنه اسم خالد بن الوليد، ليكون كسمية[1] في البطولة والدين، وفي الغيرة على المسلمين. إن الأسماء الجديدة في شعب تدل على مزاجهم وآمالهم وطموحهم وما يرجون لهم ولأولادهم من مستقبل كبير، وليس التقليد والإلف هو الذي يبعثهم على التسمية بها.

وكان خالد بن حميد الزناتي كما تمنى له أبوه، كان كسمية،[2] رجلا صنديدا، وزعيما كفؤا، وأمرا صالحا متمسكا بالدين، عالما به، غيورا عليه. وكان داهية في السياسة، بارعا في التدبير، محنكا في شؤون الزعامة والرئاسة. وكان مخلصا لقومه، غيورا عليهم، أبي النفس لا يرضى بالهوان، طموح النفس لا يقع بالدون، معتدا بنفسه وبقومه لا يرضى لهم إلا الذروة الشماء والمنزلة العالية.

وكان شابا قوي النفس يدفعه حماسة وقوة الشباب فيه فيبلغ بنفسه وبقومه كل ما يرسم له عقله الحصيف من أهداف سامية، وغايات ممكنة.

وكان خالد بن حميد إلى هذه الحصافة في عقله، والمكارم في خلقه، شجاعا، جريئا، مقداما، بارعا في فنون الحرب ومكائدها، عليا بعورات العدو وأماكن ضعفه. فاختاره البربر إماما لهم ليقودهم في ثورتهم الكبرى، وينظم شؤون دولتهم الناشئة، ويسوسهم بما أمر الله. فبايعوه بالإمامة، وأسرع البربر إليه من أنحاء المغرب الأقصى فبايعوه، وانضموا إلى صفوفه، فغزر جمعه، وتضاعف عدده.فنظم خالد صفوف جنده، وشؤون دولته، واستعد للقراع.

المعركة الفاصلة

وكان حبيب بن أبي عبيدة بطلا عظيما، وفارسا قويا، وقائدا بارعا، وإماما في الحرب. وكان أكبر قواد ابن الحبحاب، ومعه اكبر قوة، وأغزر عدد من الجند يملكه الأمويون في

1 - سميك من اسمه اسمك.
2 - سميك من اسمه اسمك

المغرب؛ فأرسله ابن الحبحاب لينضم إلى ابنه خالد بن حبيب، فيشد أزره، ويعينه في حروبه مع خالد بن حميد. فسار حبيب حتى وصل إلى ابنه خالد فانضم إليه فتكاثف جيش الأمويين وغزر جمعه، فسمع بهم خالد بن حميد، وعلم أنهم يستعدون لمهاجمته فسار هو إليهم.

وكان حبيب بن أبي عبيدة يعتد بنفسه؛ وكان لا يبالي بالبربر، فأبى أن يسير هو لمنازلة خالد بن حميد، وبدا له أن خالدا كمسيرة يستطع ابنه بن حبيب أن ينازله فلا يهزمه، وان ما انضم إلى خالد من جيشه القوي، وما يداخله من ثقة بالنفس لوجوده قربا سيجعله أقوى مما كان، فهزم خالدا ويقضي على ثورة المغرب الأقصى وما علم أن البربر الأقوياء الذين صمموا على الاستقلال وحياة العزة، وتطهير وطنهم من الظلم والاستبداد، يستطيعون في السنة الثانية من استقلالهم ما لا يقدرون عليه في السنة الأولى، قبل أن يتكاثف جمعهم، وتنظم شؤون ثورتهم وان خالد بن حميد غير ميسرة. فسار خالد بن حبيب بجيشه وجيش أبيه حتى التقى بخالد بن حميد على نهر شلف في شمال تاهرت، فدارت معركة عنيفة بين خالد بن حميد الزناتي وبين جيش الأمويين، فانهزم جيش الأمويين، وقتل خالد بن حميد في المعركة أشرفهم وصناديدهم، فقتل خالد بن حبيب، وإسماعيل بن الحبحاب والي جنوب المغرب الأقصى وما علم أن البربر الأقوياء الذين صمموا على الاستقلال وحياة العزة، وتطهير وطنهم من الظلم والاستبداد، يستطيعون في السنة الثانية من استقلالهم ما لا يقدرون عليه في السنة الأولى، قبل أن يتكاثف جمعهم، وتتكون دولتهم، وتنظم شؤون ثورتهم وان خالد بن حميد غير ميسرة، فسار خالد بن حبيب بجيشه وجيش أبيه حتى التقى بخالد بن حميد على نهر شلف في شمال تاهرت، فدارت معركة عنيفة بين خالد بن حميد الزناتي وبين جيش الأمويين، فانهزم جيش الأمويين، وقتل خالد بن حميد في المعركة أشرافهم وصناديدهم، فقتل خالد بن حبيب، وإسماعيل بن الحبحاب والي جنوب المغرب الأقصى، وكان قد أسرع بجيشه فانضم مع حبيب إلى خالد، فانتصر البربر على الأمويين، ورسخوا جذور دولتهم في المغرب الأقصى، واستقل جنوب المغرب الأقصى بمصرع إسماعيل بن الحبحاب فانضم إلى الشمال، فصار المغرب الأقصى كله من وادي ملوية إلى المحيط الاطلانطي، ومن البحر إلى الصحراء مستقلا تحت إمامة خالد بن حميد. فرجع خالد إلى عاصمته في جبال مضغرة ليستعد لحرب أخرى مع الأمويين لقد كسر ابن الحبحاب في هذه المعركة الفاصلة، وأيأسه من أن يكون له في المغرب شأن، وعلى البربر سلطان، فبقي هشام، فلا بد أن يسول له جهله بحقيقة المغرب،

واستخفافه بالبربر، وان يرسل عليه جيوشه الجرارة من الشام لترجع المغرب بالقوة إلى حظيرته، وترضخهم لسلطانه.

وكانت هذه المعركة التي انهزم فيها الأمويون تسمى «وقعة الأشراف» لكثرة من قتل فيها من أشراف الأمويين، وصناديدهم.

ثورة الأمويين في القيروان وعزلهم ابن الحبحاب

وبلغت هزيمة الأمويين القيروان، وعلم الأمويون فيه ما حل بجيشهم القوي، ومن قتل من أشرافهم الأعزاء، وصناديدهم في المغرب، فثارت ثائرتهم، واشتد سخطهم على ابن الحبحاب، فاستضعفوه، وأرادوا واليا آخر أقوى منه في الحرب وأكثر عسكرية، ليقف في وجه المغرب الثائر، فعزلوا ابن الحبحاب، وأرسلوا إلى الملك هشام صريخ ليبعث إليهم واليا أقوى، وجيوشا أعظم، وتثأر لأشرافهم، وتحوطهم في المغرب الثائر عليهم، وتمنع الثورة التي يرون مقدماتها وعلاماتها في المغرب الأدنى والأوسط.[1]

بواعث البربر على الثورة

وكان البربر في كل حروبهم مع الأمويين والعباسيين مدافعين عن أنفسهم، لا يقاتلونهم إلا إذا بدأوا بالعدوان، وعزموا على الشر فيهم. إن كل مقاصد البربر في ثوراتهم أن يعيشوا في وطنهم أحرارا مستقلين ! لا يبعثهم على الحرب كره الأمويين ولا التعصب للجنس، ولا التحيز للمغرب، أنهم ثاروا ليطهروا وطنهم من الظلم والعصبية الجاهلية التي كانت تسير عمال بني أمية وأتباعهم في المغرب، وينشئوا دولهم الإسلامية التي تسوى بين المسلمين، وعامل الكل معاملة واحدة. لقد

مزج الإسلام بين العرب والبربر فأصبحوا أسره واحدة. لا فرق بين بربري وعربي، وبين مغربي ومشرقي، فالكل مسلمون، قد مزج بينهم الدين، ووحدتهم آصرة المصاهرة التي كثرت بين البربر والعرب، وبين المغرب والمشرق.

لقد كان في صفوف الثورة التي قام بها المغرب على الأمويين، وفي الجند الثائر، كثير من المغرب الذين أووا إلى المغرب لما ضاقوا ذرعا بظلم الأمويين في المشرق، وكثر من الذين ساءهم ظلم الأمويين للبربر، ومخالفتهم للدين في معاملة المغرب المسلم.

ثورة البربر ثورة إسلامية

إن ثورة المغرب ثورة طلاب العدل والإنصاف والمساواة، وإتباع الدين الحنيف في السياسة،

1 - انظر أقسام المغرب في صفحة .... من هذا الكتاب.

ضد الظلم والجبروت، والعصبية والعنصرية، ومخالفة الدين. فهي ثورة إسلامية هدفها إحياء الإمامة العادلة والقضاء على الملوكية الظالمة، قام بها البربر فانضم إلى صفوفها، وأيدها، وباركها كل الأتقياء النزهاء الذين ينظرون بدين الله في المشرق والمغرب.

كان المغرب الأقصى في حربه للأمويين يدافع عن نفسه، فلذلك لم يسر خالد ابن حميد إلى القيروان ليخرج ابن الحبحاب وينتقم منه ومن أتباعه، لان ما آثاره هو أن يعيش هو وقومه في وطنهم بالمغرب الأقصى أحرارا، وقد خلا من الأمويين وانكسروا، فلم تعد لهم قوة حربية يحسب لها حسابها في القيروان فيسير إليها ليريح منها المغرب الذي يهتز كله من أدناه إلى أقصاه ليثور ويستقل كما ثار المغرب الأقصى فآثر الرجوع إلى مقر قيادته بجبال مضغرة حتى يتحرك الأمويون فينزل إليهم. وكانت «وقعة الأشراف» في سنة ثلاث وعشرين ومائة، ثم يثور هشام بن عبد الملك، فيعزل ابن الحبحاب، ويولي على المغرب كلثوم بن عياض القشيري، ويرسل معه جيشا جرارا. فلمن يكون نصر الله يا ترى؟ إنه لناصر الحق، والمتمسك بالدين، والعامل لخير المسلمين. فما كان الله لينصر ذا النية السيئة، والذي تسيره أهواؤه، لا حب دينه، والعمل لتكون كلمة الله هي العليا، ودستور الله هو أساس الدولة وقوامها، وطريقها الذي تلتزمه ولا تحيد عنه في سياسة المسلمين !

غضبة هشام وولاية كلثوم بن عياض القشيري على المغرب الأدنى والأوسط 123

وبلغت أنباء هزيمة الأمويين في المغرب، ومن قتل من أشرافهم، وصناديد جندهم إلى هشام بن عبد الملك، فثارت ثائرته، واشتد غضبه، واحتدم غيظه، وساءه أن يقع من البربر الذين يحتقرهم ما قع على الأمويين الذين يراهم هم السادة في البلاد، وهم الشرفاء في المغرب، فليس للمغرب إلا الخضوع لهم، وتمجيدهم، لا الثورة عليهم، وقتل الأشراف منهم. واغتاظ هشام اغتياظ من يرى الفارس الأثير يصرعه فرسه من صهوته، ثم يفترسه كما تفعل الأسود، وهو المطية الذليلة التي يجب أن تكون مطواعة للفارس، يستخدمها في أغراضه، ويسخرها في بلوغ أهدافه ! قال النويري: «فسال هشام: اقتل أولئك الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من المغرب؟ قيل نعم. فقال: والله لأغضبن ««للعرب»» غضبة عربية، ولأبعثن إليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي! ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو يميني».[1]

إن غضب هشام وعزمه على الانتقام يدل على غشامته وغطرسته، وعلى ظلمه وعدم مبالاته بالبربر، وعلى جهلة بالمغرب وما يقع فيه، وبقوة الأمازيغ وما يستطيعونه، وعزيمة البربر على الاستقلال، وتصميمهم على الانفصال عن الأمويين الذين ظلموهم وجاروا عليهم.

كان يجب على هشام أن يعرف أسباب ثورة البربر فيزيلها، ويبحث عن علل سخط البربر على دولته فيقضي عليها، ويطب لقلوب البربر النافرة عنه، ويرجع المغرب بالحكمة والإحسان، وبالأناة والرفق إلى حظيرته، وإذا وجدهم مصممين على الاستقلال تصرف معهم تصرف هارون الرشيد مع الأغالبة، فيأذن لهم في الاستقلال الداخلي مع بقاء الروابط المتينة، وتبادل المصالح، والخضوع الظاهري للدولة، ولكن هارون الرشيد كان يمثل قوة الدولة العباسية ونضوجها، أما هشام فيمثل هرم الدولة الأموية وضعفها، فتصرف تصرف الهرم الذي ضعف عقله، وقل إدراكه، فصار الوجدان هو الذي يسيره كالصبيان.

مقاصد هشام وآلة في المغرب

وكان هشام قد احتدم ذلك الاحتدام، وثار تلك الثورة لانفصال المغرب عنه لسبب آخر

1 - نهاية الأرب للنويري ج 21 من نسخة دار الكتب المصرية المصورة ما ورد بين قوسين في كلام النويري من المراجع الأخرى وهكذا كل كلام نورده في كلام مؤلف بين قوسين جمعا بين الروايات فهو من المراجع الأخرى

أيضا، وهو انه كان عازما أن يكون المغرب والأندلس دار هجرته وهجرة الأمويين، لتستمر فيهما دولته إذا انتزع العباسيون المشرق منه، لذلك حلف أن يجعل بجانب كل حصن بربري خيمة قيسي أو يمني، ليكثر العنصر الأموي في المغرب، ويتقوى جمع أنصاره فيه؛ ولكن ذلك يستلزم أن يقضي على هذه الثورة العارمة، ويمنع الثورات الأخرى من النشوب فيه، ليسكن المغرب ويعطى بيده، فيمهد لانتقاله إليه بتكثير سواد أتباعه فيه، وإسكان الأعراب الذين يجيدون القتال، وتسيرهم العصبية في المغرب ليكونوا حماته وجنده إذا رحل إلى المغرب، ويكونوا عروق دولته المغربي التيس يتمناها فلا تستطيع الأعاصير أن تقتلعها. هذا ما كان يتمناه هشام فشمر لتحقيقه. فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن المغرب، وولى عليه كلثوم بن عياض القشيري، وأرسل معه جيشا جرارا للانتقام لأشراف بني أمية الذين سقطوا في وقعة الأشراف، وللقضاء على ثورة المغرب الأقصى، وإزالة الإمامة الناشئة فيه، ولإرضاخ المغرب بالقوة، وإرهابه بكثرة الجيش فلا يحدث نفسه بالثورة والانفصال.

كلثوم ابن عياض القشيري

وكان كلثوم بن عياض القشيري بطلا صنديدا، وشجاعا قويا، وكان من أحلاس الحرب والصدام، ومن قواد بني أمية العظام، ومن رجالها المخلصين الذين تعتمد عليهم في النوائب، وتتسلح بهم في الأزمات، وتستخدم في المضايق فيفرجونها. وكانت له شهرة حربية كبرى. وكان لبأسه ودهائه في الحروب يعده الأمويون من أسودهم الكاسرة، ومن الأسماء التي ترادف السيف والضرغام، وتدل عند السامعين على البطل الذي لا يهزم، والفارس الذي لا يغلب، والقائد الماهر الذي يخشاه كل الأعداء، ويجرع الحتوف لكل المناوئين. فآثره هشام لمقاتلة البربر، والولاية على المغرب لهذه الخصائص العظيمة، ولشدة ثقته به، واعتداده بكفاءته، وأرسل معه ثلاثين ألف فارس؛ عشرة آلاف من صرحاء بني أمية، وعشرين ألفا من أبطال الشام، وكتب إلى عماله في مصر، وبرقة، وطرابلس أن يمدوه بأحسن ما عندهم من الجند، ويندبوا الناس للسير معه. فسار كلثوم فانضم إليه جيش غزير من مصر، وجيش من برقة، ومثله من طرابلس. ولما وصل افريقية ندب الأمويين إلى القتال معه، والانضمام إلى جنده، فانضمت طوائف كبيرة منهم فبلغ جيشه سبعين ألف مقاتل، وكان جيشا جرارا لم يدخل مثله في المغرب، وقوة عسكرية كبرى لم يجتمع مثلها في القيروان، وكان وصول كلثوم إلى القيروان في رمضان من سنة ثلاث وعشرين ومائة.

وكان مع كلثوم ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، وأرسله هشام ليشد أزر كلثوم

ويخلفه في القيادة والولاية على المغرب إن حدث به سوء. وكان بلج شجاعا جريئا، طموحا، فيه مضاء وكفاءة، ونجدة ونهضة. فجعله كلثوم مقدمة جيشه، فسار بلج حتى وصل القيروان فظلمن أهلها وعسفهم، وانزل الجند في ديارهم، وادخل عليهم ما تضرروا به واستاؤوا منه «فقال لأهل افريقية: لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلهم ! ومع ذلك الكلام كثير يغيظهم به». أما كلثوم فنزل قرب القيروان، لكثرة جيشه، وغزارة جنده فانه لا يسعه إلا فضاء واسع، وأمكنة فسيحة. فشكى أهل القيروان ما أصابهم من جيش كلثوم إلى حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع.

وكان حبيب شخصية بارزة في المغرب. وكان له ولآله المكانة العظمى عند أهل القيروان لمكانة جدهم عقبة ومنزلته العظمى. وكان اكبر قائد للأمويين في المغرب، فكان يدل ببطولته، بمكانته في الدولة وبنسبه، ويرى نفسه ذروة عالية في المغرب لا تسامى. وكان حبيب في تلمسان بجيوشه يرابط فيها ليقف في وجه خالد بن حميد إذا سار إلى القيروان، وينتظر المدد من هشام لينازل المغرب الأقصى؛ فساءه ما حل بأهله وذوبه وسكان مدينته من جند كلثوم، فأرسل إليه يحتج عليه، ويلومه، فتدهمه في الخطاب، وخاشنه في الكلام، ووقف منه موقف الند للند، واسمعه في نفسه وفي بلج ما أسخطهما، وقال له: «لئن لم تنته لنصرفن أعنة الخيل إليك».

خصام كلثوم وحبيب وتصدع الصف

وكان كلثوم معتدا بنفسه، وكان هو أمير المغرب، وقائد جيوشه، وحبيب رعية له، وضابط تحته، فساءه موقف حبيب منه، وجرأته عليه، فعزم على تأديبه، وطأطأة رأسه، فعبأ جيوشه فاستخلف عل القيروان عبد الرحمان بن عقبة الغفاري وعلى الجند فيه مسلمة بن سوادة القرشي، فسار هو إلى المغرب الأقصى، وأرسل ابن أخيه بلج مقدمة له، وكان ساخطا على حبيب لشموخه عليه وعلى عمه، ولإسماعهم ما لم يرتضه. فلما وصل تلمسان تجهم حبيبا في الخطاب وخاشنه، وشتمه، فتقاتلا، واشتبكت جنودهما في معركة، ثم توادعا، ورجع إلى معسكره، وهو ينظر نظرة شزرى إلى الآخر، ويراه منافسه وعدوه. فوصل كلثوم بجيوشه فخطب في تلمسان فأهان حبيبا وشتمه، وقال:»أهذا الذي يصرف أعنة الخيل إلينا؟!».

وكان ما حل بأهل القيروان من بلج وجنده، وما وقع من قتلا ومشاتمة بين حبيب وكلثوم مظهرا لشيخوخة الدولة الأموية، وانحلال الأخلاق الذي كانت نعانيه، فان المرء لا يشاكس أخاه ويقاتله، ويبعده عنه، وهو بين سواعد الأسود الفاغرة عليه إلا إذا كان

نهاية في ضعف العقل بتسلط الوجدان عليه. وارى أن ما وقع من بلج وكلثوم مع حبيب يدل على استخفافهما بالبربر، واغترارهما بقوتهما. لكأنهما ذاهبان إلى وليمة، أو إلى نزهة، إلى مقارعة البربر الأبطال الذين عفروا وجوه جيشهم القوي في «وقعة الأشراف» وانزلوا بهم الهزيمة الشنعاء !

إن الدولة في هرمها لتصاب بغرور الطفل الذي يستهين بالصعوبات، فيلقي بنفسه في التهلكة، ويقدم على ما لا يقد عليه. إن منافسة حبيب وكلثوم تدل على الأنانية التي تملكت نفوس الأمويين لشيخوختهم، وضعف أخلاقهم بالحضارة التي انغمسوا فيها.

إن بساط الحضارة المادية، والمدنية المفرطة لا تتقلب فيه امة، وتستغرق فيه، إلا كان مقدمة للأكفان التي ستدرج فيها! وليس كحياة البساطة والجد، والطموح، والتدين عاملا لقوة الأمم وسموها!

إن المريض الذي يستقبل الآخرة هو الذي يوجد في الحشايا الوثيرة، أما الوليد الذي يستقبل الحياة فتلده أمه في التراب![1]

جيوش كلثوم الجرارة / المعركة الفاصلة

فضم كلثوم إلى جيشه الذي كان عدده سبعين ألف مقاتل جيش حبيب القوي الذي كان غزير العدد كثير السلاح فتجمع لكلثوم بن عياض جيوش كثيرة، وما لا يحصى من السلاح. فسار إلى خالد بن حميد ألزناتي في المغرب الأقصى لينازله في عقر داره، ويحتل عاصمة إمامته، ويقضي على دولته الناشئة، وينتقم من البربر الذين بايعوه ونصروه. فسمع خالد بن حميد بمسير كلثوم بن عياض إليه، وبغزارة جنده، وكثرة جيوشه فاستعد له، فهيأ أصحابه للقتال، ونظم جنده للقراع، فسار إلى كلثوم فالتقى به في وادي «سبو» بجنوب طانجة، فدارت حرب عنيفة بين الفريقين، واشتدت المعركة بين الجانبين، فتجلل الميدان بجثث القتلى، وسالت الدماء غزيرة في ساحة المعركة، فكر خالد بن حميد ألزناتي في جيشه الباسل، وفي جنده المخلص البطل على جيوش كلثوم فهزمها، ومزق شملها، وقتل أبطالها وصناديدها، وقوادها الكبار. وقد أبت على حبيب بن أبي عبيدة كبرياؤه أن يفر لما رأى تمزق جيوشهم، وإحاطة جيش خالد به، ورأى ذلك عارا

1 - نريد بالوليد هنا المولود في البادية وفي الجبال، والقابلات هناك يفرشن الرمل للنفساء. أولئك الولدان الذين سيكونون صخور الدولة في القراع، وأجنحتها في الارتفاع. أما بيض الحمام في القصور المترفة، ودود الحرير فيولدون بهرمهم فلا يعنون في هذا الباب.

لشرفه، وللقب البطولة الذي يعتز به، فثبت في الميدان فقاتل حتى قتل. أم كلثوم فنجا جريحا من المعركة، وفر مع أهل الشام إلى «سبتة».

أسباب قوة البربر وتفوقهم على الأمويين

وكان البربر قد خرجوا عراة إلى قتال كلثوم ليس عليهم إلا السروايل، لا تجللهم الدروع التي تجلل جيش كلثوم، وبرزوا عراة الصدور والأجسام وهو ما يفعله الأبطال الذين يثقون بشجاعتهم، ويعتدون بفروسيتهم، ويؤمنون بان ما كتب الله لهم في المعركة لا ترده الدروع. فقاتلوا وليس في أيديهم إلا سلاح خفيف.

وكان البربر في هذه المعركة أقوى من الأمويين على تفوق جيوش كلثوم في العدد والسلاح، لمتانة أخلاق البربر، وإخلاصهم، واتحادهم، وتضحيتهم، وبطولتهم في الحروب، ومحاربتهم لأجل الدين، والدفاع عن النفس، وغضبا لما ينتهك الأمويون من حرمات الله فيهم.

وكانت براعة خالد بن حميد في القيادة، وتفوقه على كلثوم وحبيب في الإخلاص وحسن النية، وعدم احتقار عدوه، من أسباب هذا النصر الذي كان للبربر على الأمويين.

انهزام الأمويين إلى افريقية والشام

وساد الذعر والهلع جيش كلثوم وحبيب فولوا الأدبار، فاتبعهم البربر يطاردونهم ليبعدوهم عن المغرب الأقصى، ويشتتوا شملهم، فلا تحدثهم نفوسهم بإعادة الكرة فانهزم أهل مصر وافريقية إلى القيروان، وأسرعوا إليه، واحتموا به. أما كلثوم ابن عياض وجند الشام فقد كان البربر اشد حنقا عليهم لأنهم جند هشام الذي اختاره للقضاء على إمامتهم، فهم الذين سيضربون فيهم هشام الضربة الموجعة إذا قضوا عليهم سيما كلثوم الذي كان قائد هشام ووالي القيروان، فأرسل خالد بن حميد وراءهم لما انهزموا أبا يوسف الهواري فاتبعهم وطاردهم ووقعت معارك بينهم ففر كلثوم وبلج بن بشر ومن معهما من جند الشام وكان عددهم عشرة آلاف من بني أمية إلى مدينة «سبتة» لحصانتها، وعلو أسوارها فاعتصموا بها. فحاصرهم البربر فيها، وقطعوا الميرة عنهم، فوقعوا في المجاعة الشديدة حتى أكلوا الدواب والكلاب.

موت كلثوم ابن عياض القشيري

وقد مات كلثوم في سبتة متأثرا بجراحه، فتولى إمارة جند الشام بلج ابن أخيه. فلما اشتد الضر على بلج وصحبه، وطال حصارهم، وأيقنوا بالهلاك أما جوعا داخل

الأسوار أو بسيوف البربر خارجها، وأرسلوا إلى عبد الملك بن قطن أمير الأندلس يسألونه أن يأذن لهم في الالتجاء إلى الأندلس، وان يرسل إليهم سفنا تحملهم من سبتة التي كانت على الشاطئ، فخافهم عبد الملك وحزبه على إمارتهم لأنهم عالمون بعزم الأمويين على إنشاء دولة في المغرب والأندلس، وزاد عبد الرحمن بن حبيب الذي فر إلى الأندلس لما حلت الهزيمة بالأمويين، فأوغر صدوره على بلج وأصحابه، وحذره منهم، فخشي عبد الملك أن ينافسه بلج في الإمارة، وخشي حزب عبد الملك بن قطن الأمويين من أهل الشام أن يستولوا على الأمور فتخرج من أيديهم، فأبى أن يأذن لهم وقطع الميرة عنهم ليشتد بهم الحال فيرجعوا إلى المشرق أو يسلموا للبربر فيستريح منهم.

إياس هشام من المغربين الأقصى والأوسط

وكانت هذه المعركة الكبرى، والملحمة العظمى التي ألقى فيها هشام بكل قواه، وانتخب لها أحسن جنده، واكبر قواده، كانت هي الفاصلة، فأيس الأمويون وأيس هشام من أن يكون لهم في المغرب الأقصى مقام، أو يستطيعوا استرداده والتغلب على أهله، والقضاء على الإمامة التي أنشأوها فيه. ورأى هشام تحفز المغرب الأوسط أيضا للثورة والانفصال. فلم تحدثه نفسه بإرسال قوة إليه، أو استبقاء جند فيه يمنعه من الثورة، أو يقف في وجهه إذا ثار لأنه قد اتعظ بما وقع له في المغرب الأقصى. وكان يعلم أن المغرب الأوسط أكثر عددا، وأغزر جمعا، وان القبائل البربرية فيه قد اعتنقت المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الإمامة، ويأبى الملوكية، ويناهض الظلم، يجعل أتباعه حربا على الظالمين؛ فأيس من المغربين الأوسط والأقصى،[1] وجعل في المحافظة على المغرب الأدنى، سيما افريقية التي فيها جمهور غفير من الأمويين قد استقروا فيها واستوطنوها، فحصر قواه فيها، وعزم على الدفاع عنها. وترك المغربين الأوسط والأقصى لأهلهما الذين سينشئون في المغرب الأوسط وجنوب افريقية إلى شمال «قفصة» وفي طرابلس إلى سرت الدولة الرستمية الكبرى[2] التي ستملأ هذه النواحي التي تشتمل عليها عدلا وسعادة، وعزة وحرية، ويحي أئمتها العادلون المتقون لله فيها سيرة الخلفاء الراشدين، وتكون ملجأ للمسلمين الذين يرهقهم ظلم العباسيين من كل أنحاء العالم الإسلامي. كما سينشؤون في المغرب الأقصى الدولة الإدريسية العظمى التي أنشأها البربر بإمامة إدريس الأكبر، وسعد بها أهلها لعدل وحصافة نية أبناء بنت رسول الله صلى الله عليه

1 - انظر أقسام المغرب في صفحة 238 من هذا الكتاب.

2 - هذه النواحي كلها من نطاق الدولة الرستمية وترابها. وهي أول دولة مغربية كبرى تنشأ في المغرب. وقد دخل المغرب بها أعراسه وأمجاده. وسترى حدودها في خريطة الدول المغربية الإسلامية في الجزء الثالث الخاص بهذه الدول المغربية في القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

وسلم، ودولة بني واسول «في سجلماسة» وهي التي كانت تشتمل على اغلب جنوب المغرب الأقصى؛ فسعد المغرب الكبير بدوله الكبرى، ولبس بها أفراحه وأيامه البيضاء!

ثورة البربر على الأمويين في الأندلس 122

كان الفاتح الحقيقي للأندلس هو طارق بن زياد. لقد فتحها بجيش معظمه من البربر وفيه عدد يسير من العرب. فوقعت المعارك الفاصلة في الأندلس فانتصر فيها طارق بشجاعة البربر وإخلاصهم، واستماتتهم في الحروب، وبطولتهم في المعارك. فمهروا النصر الإسلامي في الأندلس بدمائهم، وساروا إلى عواصمها الكبرى على أشلاء قتلاهم. فاستقرت جماهير غفيرة من البربر في الأندلس فاستوطنوها وجعلوها دارهم، ثم توالت الهجرة إلى الأندلس من الشام والعراق ومصر، ومن الجزيرة العربية، مكل أنحاء الدولة الإسلامية الكبرى فاستقروا بها، فصارت الأندلس ولاية من ولايات المغرب يولى عليها أمير القيروان من يشاء، ويسوسها كما يريد. ولما كانت سيرة عبيد الله بن الحبحاب، وسيرة عماله في المغرب كما رأينا، وكانوا متحيزين للعرق، متعصبين لأنفسهم وقومهم، وكان جمهور الأمويين على هذه الطبيعة، وكانوا يمالئون العمال على هذه السيرة، فظلموا البربر ورأوهم اقل منهم في الدرجة، وأدنى منهم في المرتبة، واقل منهم في الحقوق، فان هذه المعاملة وهذا التحيز قد كان من الأمويين على البربر في الأندلس أيضا، وهذا الظلم قد وقع من عامل ابن الحبحاب على البربر في الأندلس. فلما ثار إخوانهم وجيرانهم في المغرب الأقصى، انفجر البربر في الأندلس أيضا فثاروا، وعزموا على الانفصال عن الأمويين، ومبايعة خالد بن حميد ألزناتي في المغرب الأقصى، أو إنشاء إمامة خاصة لهم في الأندلس، غير أن ثورة البربر في الأندلس لا يكتب لها النجاح لأنهم لم يكونوا في الأندلس هم الأغلبية العظمى، والعدد الأوفر، كما كان إخوانهم في المغرب. وكانوا أيضا متوزعين في بلاد الأندلس، وتداخلهم القبائل التي هاجرت من المشرق، ويمتزج بهم الأمويون الذين يأبون عليهم الاستقلال.

ولاية عقبة ابن الحجاج السلولي على الأندلس

وكان ابن الحبحاب قد ولى في سنة ست عشرون ومائة عقبة بن الحجاج السلولي على الأندلس. وكان حازما شجاعا، محبا للجهاد والفتوح، راغبا في نشر الدين. قال ابن عذارى:»وذكر عنه انه كان صاحب باس ونجدة، ونكاية للعدو وشدة؛ وكان إذا اسر الأسير لم يقتلع حتى يعرض عليه دين الإسلام، ويقبح له عبادة الأصنام، ويذر انه اسلمن على يديه بهذا «النحو» ألف رجل»[1]

1 - البيان المغرب ج 2 / ط بيروت.

ولاية عبد الملك ابن قطن الفهري على الأندلس

وقيل إن أهل الأندلس ثاروا على عقبة في سنة إحدى وعشرين ومائة فخلعوه فولوا على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهري. وقد يكون السبب في خلعهم له ه أنهم استضعفوه فرأوا انه لا يليق أميرا عليهم يحميهم من البربر الذين يرون اشتعال فتيل ثورتهم في عيونهم المحمرة عليهم، وعلموا أنهم على وشك الانفجار والانفصال فولوا عبد الملك بن قطن الفهري.

وكان عبد الملك بن قطن من رجالات الأمويين في الأندلس، ومن ذوي الكفاءة في الحرب، الجرأة في القتال.وكان طموحا إلى الملك والسلطان. فلما رأى انفصال المغربين الأقصى والأوسط عن الأمويين، وهما صلة الأندلس بالقيروان عاصمة المغرب، ورأى الدولة الأموية في هرمها، ودخولها في أصيلها، وجنوح شمسها إلى الغروب، وانزواء أنوارها عن المغربين الأقصى والأوسط، أراد عبد الملك وحزبه من أهل المشرق أن تكون الأندلس إرثا لهم من الدولة التي يسمعون دوي انهدامها، فطمعوا في الاستيلاء عليها، وتأسيس ملك يشبع رغبتهم في الإمارة والسلطان، فشمروا لمحاربة البربر الذين ينزعون إلى الاستقلال، وأبوا على الأمويين وشيعتهم أن يهاجروا إلى الأندلس خوفا من مزاحمتهم لهم في الملك.

وكان في الأندلس من المنافسة على الملك بين القبائل العربية، و من التناطح على الرئاسة بينهم، واضطهاد بعضهم لبعض ما يدلك على الأنانية التي مرضت بها النفوس، والهرم الذي ضعفت به أخلاق تلك الفئات المتناطحة، وضعف الدين الذي سوغ سفك الدماء الحرام، والانتقام من منافسيهم حتى بعد الممات، وبصلب جثتهم في الميادين، والإزراء بها وأهانتها بما حرمه العقل والدين. ونحن ننقل لك قصة عبد الملك بن قطن مع بلح بن بشر، وقساوته وفظاعته، وظلمه وجبروته، وتسميله لعيني من رحم «بلجا» ورق له، وانتقام بلج من عبد الملك، فان في هذه القصة دليلا على أن البربر لم يثوروا على الأمويين إلا لظلمهم وتحيزهم وانحرافهم عن الدين، وانم نفوس أهل المشرق لم تعد كما كانت في صدر الدولة الأموية على المتانة في الأخلاق، والتمسك بالدين، والعمل لخير المغرب، والغيرة على مصلحة الدولة العليا.

نقل السلاوي عن ابن حيان قال:»إن كلثوم بن عياض لما انهزمت جيوشه لجا جريحا إلى «سبتة» في أهل الشام، ومعه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض، فحاصرهم البربر بها، ولما اشتد حصارهم بسبتة وانقطعت عنهم الأقوات، وبلغوا من الجهد الغاية، واستغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتثاقل عنهم صاحبها عبد الملك بمن قطن لخوفه على

سلطانه منهم، فلمال شاع خبر ضررهم عند رجالات العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمى بمركبين مشحونين ميرة أمسكت من أرماقهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط ! ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه، فسمل عينيه! ثم ضرب عنقه، وصلب عن يساره كلبا! ! واتفق في هذا الوقت أن بربر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور بربر العدوة «على الأمويين» انتقضوا في الأندلس، واقتدوا بما فعله إخوانهم في المغرب، فاستفحل أمرهم بالأندلس، وكثر إيقاعهم بجيوشه ابن قطن، فخاف أن يلقى منهم ما لقيه «الأمويون» بالمغرب من إخوانهم، وبلغه أنهم عازمون على قصده فلم ير أجدى له من الاستعداد بصعاليك عرب الشام: أصحاب بلج الموتورين بسبة. فكتب إلى بلج وقد مات عمه كلثوم فأسرع إلى إجابته، وكانت تلك أمنيتهم، فأحسن إليهم، وأسبغ عليهم النعمة، وشرط عليهم أن يقيموا سنة واحدة، حتى إذا فرغوا له من البربر انصرفوا إلى مغربهم! وخرجوا عن أندلسه! فرضوا بذلك وعاهدوه، واخذ منهم الرهائن عليه، ثم قدم عليهم أبنية قطنا وأمية، والبربر في جموع لا يحصيها غير خالقها، فاقتتلوا قتالا صعب فيه المقام إلى أن كانت الدائرة على البربر، فرجع الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدت شوكتهم، وثابت همتهم، وبطروا ونسوا العهود، وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس فتعللوا عليه، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم بسبتة وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة فخلعوه، وقدموا أنفسهم أميرهم بلج بن بشر وتبعه جند ابن قطن، وأغروه بقتله فأبى، فثارت اليمانية، وقالوا قد حميت لمضرك! والله لا نطيعك، فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فاخرج إليهم، وهو شيخ كبير كفرح نعامة، قد شهد الحرة بالمدينة «وكانت زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين» فجعلوا يسبونه، ويقولون له افلت من سيوفنا يوم الحرة، ثم طالبتنا بتلك الثرة، فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود، وحبستنا «بسبتة» محبس الضنك، حتى امتنا جوعا؟! فقتلوه وصلبوه في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة، وصلبوا عن يمينه خنزيرا! وعن يساره كلبا! واستولى بلج على الأندلس»[1] ملك سنة ثم ثار عليه أمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن ووقعت بينهم حروب مهولة أسفرت عن احد عشر ألف قتيل. وقد انتصر فيها بلج فقتل أمية وقطنا وهزم جيشهما، ولكن بلجا خرج من المعركة مثخنا بالجراح فمات في سنة أربع وعشرين ومائة.

1 - الاستقصاء للسلاوي ج 1 ص 10 ط المغرب.

ولاية ثعلبة ابن سلامة على الأندلس

فولى أهل الشام عليهم ثعلبة بن سلامة ألعاملي في الأندلس. وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش إذ جهزه من الشام كلثوم. فان أصيب فابن أخيه بلج. فان أصيب فثعلبة فاقعد أصحابه ثعلبة بما عهد به هشام إليه. وكان ثعلبة طاغية مستبدا لا يتقيد بالدين. روى ابن عذارى: «انه كان بيع ذراري البلد «المسلمين الثائرين عليه. وهو ما يحرمه الإسلام» ويرهقهم من أمرهم عسرا».[1]

وروى ابن عذارى أيضا فظائع ثعلبة في البربر والعرب معا تدلك على جبروت الأمويين وظلمهم واحتقارهم للبربر. كما تدل فيهم على ضعف الدين. وانحلال الأخلاق قال ابن عذارى: «لما هزم ثعلبة البربر «في الأندلس» سبي ذراريهم. ولم يكن قبل بلج ولا غيره يتعرض للذرية بسباء. فاقبل إلى قرطبة بعدد من السبي كثير « وكانوا مقيدين قد اشتبك في الحبائل الولد بالولد»[2] فنزل طرف «المصارة» من قرطبة. ومعه الأسرى والسبي من عرب البلد والبربر. وهو يبيع السبي في النداء. ويبعث ويبطر. فكان يبيع الشيوخ والأشراف من ينقص لا من يزيد! وكان فيهم علي ابن الحصين «وهو سيد في قومه» والحارث بن أسد من أهل المدينة «وهو من سراة عشيرته» فابتدأ المنادي عليهما بعشرة دنانير! فلم يزل ينادي من ينقص؟ حتى باع احدهما بعود والآخر بكلب!».[3]

وكان ثعلبة يفعل هذا بالأسرى وفيهم سادة البربر. وسراة العرب. عبثا بهم. وإهانة لهم. ثم يقتلهم بعد ذلك. لا يقصد أن يبيعهم ويجعلهم عبيدا. ثم قال ابن عذارى «فبينا هو على هذه الحال من العبث والبغي. وقد أوقف رجالهم وأبرزهم للقتل. وذلك يوم جمعة. إذ قدم أبو الخطار. فالفاهم بهذه الحال فأمر بإطلاقهم.

ولاية أبي الخطار على الأندلس

ثم تولى على الأندلس أبو الخطار بن ضرار الكلبي ولاه أمير القيروان حنظلة ابن صفوان فسكنت كثيرا من السكون في عهده. وكان للأندلس أحسن من ثعلبة وكانت العصبية القبائلية هي التي تصرف نفوس الأمويين في الأندلس. فانقسموا إلى يمانية قحطانية والى مضرية . فمال أبو الخطار إلى اليمانية وتعصب لها. فثار عليه الصميل بن حاتم وثوابه بن سلامة الجذامي مع مضر فهزموه وسجنوه. فاستولى ثوابة على الأندلس ثم افلت أبو الخطار من سجنه فتجددت الحرب بينهما. ووقعت حروب بين

1 - البيان المغرب ج 2 ص 47 ط بيروت.
2 - البيان المغرب ج 2 ص 48.
3 - البيان المغرب ج 2 ص 49 ط بيروت.

اليمانية والمضرية. ثم ولى أهل الأندلس عليهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان أحسن ممن مضى ولكن الأيام لم تسكن له كل السكون. فقد ثار عليه عبد الرحمن ابن علقمة للخمى. وتميم بن معبد. ودامت الأندلس تمور بالفتن. وتعصف بها العصبية. وترزح تحت وطأة الوباء والقحط والفتنة التي عاقبهم الله بها. وتتجرع كئوس المرارة والشقاء. ولا تعرف الاستقرار والهناء. فالبربر يثورون على الأمويين والأمويون ينتقمون منهم. وينكل بعضهم ببعض مما يدلك على انحلال الأمويين ومرض هذه الدولة. وضعف الدين في النفوس. وهو ما أرغم البربر في المغرب على الثورة عليهم ليؤسسوا دولهم التي تلبس المغرب هناءه وسعادته. وشبابه وقوته. ودامت الأندلس على ذلك الاضطراب إلى أن دخل الأندلس صقر قريش عبد الرحمن الداخل. وكان شابا لم يتجاوز عمره خمسا وعشرين سنة. وكان مزيجا من الدماء البربرية والعربية فان أمه «راحا» النفزاوية البربرية. وأبوه معاوية بن هشام بن عبد الملك. فأورثته دماء الجديدة عبقرية وبطولة: فكان للبربر أخواله. كما كان العرب أعمامه. وألف بين قلوبهم. ومزجهم فصاروا امة واحدة كما يأمر الدين فبايعوه وانضووا تحت لوائه. وتكونت دولة عبد الرحمن الداخل في سنة ثمان وثلاثين ومائة فاستقلت الأندلس عن المغرب فلم تعد ولاية تابعة له. وجزءا يسيطر عليه أمير القيروان.

وكان عبد الرحمن الداخل قد اتعظ بما وقع للأمويين في المشرق. ورأى مصرع آله وتجرع هو كئوس الحنظل في الأيام العصيبة لما كان يطارده العباسيون. فأورثه كل ذلك. والدماء الجديدة فيه. والوراثة القوية من أمه. متانة أخلاقه. وحصافة عقله فكان سباب الأندلس وربيعها. فمزج بين العرب والبربر فيها فتكونت منهم الأجيال القوية العبقرية التي بنت الحضارة الإسلامية العظمى في الأندلس. فجددت للدين شبابه. وللغة العربية قوتها وازدهارها. وكانوا سادة أوروبا ومخرجيها من الجهالة والهمجية إلى نور العلم والمدينة !

وبعد انهزام جيوش كلثوم على يد خالد بن حبيب ألزناتي أيس هشام من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط الذي كان يتمخض عن إمامته ودولته الكبرى. وعلم انه لا يستطيع السيطرة عليهما. فجعل همه المحافظة على افريقية التي يستوطنها جمهور غفير من الأمويين. فهم معرضون للخطر من الثورات التي نشبت على الأمويين في جنوب افريقية أيضا من البربر الساخطين عليهم لظلمهم وسوء معاملتهم: فانتخب هشام اكبر قواده. وأعقل رجاله. حنظلة بن صفوان الكلبي والى مصر. فولاه على افريقية ليحفظها من الانفصال. وينقذ الأمويين من ثورات البربر العارمة التي تنفجر عليهم في كل أنحاء المغرب. فماذا سيكون اثر حنظلة بن صفوان في افريقية؟

ثورة افريقية على الأمويين 123

وكانت افريقية وطرابلس والمغرب الأدنى كله يغلي حنقا على الأمويين لظلمهم واستبدادهم، وانحرافهم عمالهم عن الدين. وكانت افريقية لمجاورتها للقيروان، ولكثرة سواد الأمويين فيها قد نزل عليها من الظلم أكثر، ورأت من الإهانة وعدم مبالاة الأمويين بالبربر ما ملأ قلوب الأمازيغ بها غيظا وحنقا، فصارت مستعدة للانفجار.

وكان المذهب الصفري قد انتشر في شمالها وجنوبها وتفتحت له قلوب البربر بها فصارت عقيدة وجوب الثورة على الملوك الظلمة، مع حنقهم على الأمويين لظلمهم وتحيزهم هي التي تصرف البربر، فجعلتهم مستعدين للانفجار؛ ولكن الأمويين أقوياء في القيروان، فلديهم الجيوش الجرارة، والجحافل الكبرى قد أعدها ابن الحبحاب لإخماد ثوراتهم، والأمويين في افريقية كثرة قد انتشروا في كل أنحائها، وعمروا مدنها وانبثت عيونهم وأنصارهم في جبالها، فصارت افريقية، مقر إمارة الأمويين في المغرب تحت مراقبة ابن الحبحاب الشديدة وفي قبضته القوية، فسكن البربر بها، ولكن على استعداد للانفجار، وعلى ترقب الفرصة ليثوروا.

عكرمة مولى ابن عباس وأثره في المغرب

وكان أول من دعا إلى المذهب الصفري في المغرب هو عكرمة مولى ابن عباس وكان عكرمة بربريا. وكان من كبار تلاميذ عبد الله بن عباس، ومن جبال العلم في عصره، ومن الفقهاء الكبار في الدين، ومن الشخصيات العلمية الناضجة التي يشار إليها بالبنان بين التابعين. وكان ثائرا على الظلم والظالمين، شديد الحنق على تعصب الأمويين لأنفسهم، وتحيزهم للعرق، وتفرقهم بين المسلمين. وكان عكرمة صفريا يعتقد بطلان خرافة الأمويين: «أن الإمامة لا تكون إلا في قريش»[1] فسار عكرمة من المدينة في أوائل القرن الثاني الهجري فحل في افريقية فدعا البربر إلى المذهب الصفري الذي يدعو إلي المساواة والديمقراطية، ووجوب إسناد إمامة الدولة إلى ذي الكفاءة بدون تقيد بالقرشية، فانتشر مذهبه في افريقية، وفي شمال المغرب الأوسط، وفي المغرب الأقصى، فاعتنقه

1 - قال ابن خلكان «في وفيات الأعيان» في ترجمة عكرمة : هو عكرمة بن عبد الله روى عن ابن عباس رضي الله عنه فقال له ابن عباس: لنطلق فأفت الناس. وقيل لسعيد بن جبير: هل تعلم أحدا اعلم منك؟ قال: عكرمة ! وروى عنه الزهري، وعمرو بن دينار، والشعبي، وأبو إسحاق» وكلهم من كبار العلماء في عصرهم. وقال الزركلي «في الإعلام» عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس تابعي. كان من اعلم الناس بالتفسير.والمغازي. طاف البلدان وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل منهم أكثر من سبعين تابعيا، وخرج إلى بلاد المغرب فاخذ عنه أهلها رأي الصفرية، وعاد إلى المدينة فطلبه أميرها فتغيب عنه حتى مات. وكانت وفاته بالمدينة وهو كثير عزة في يوم واحد، فقيل مات اعلم الناس! وأشعر الناس» وكانت وفاته في سنة 115 وعمره ثمانون سنة.

البربر المتعطشون إلى العدل، والمتلهفون إلى المساواة الإسلامية التي حرمهم منها الأمويون. واستطاع المغرب الأقصى أن يثور ويهيئ لثورته لان الأمويين به أقلية، وقواتهم العسكرية فيه اقل من قواتهم في القيروان. وبقيت افريقية تنتظر فرصتها، حتى انهزم كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة، وقضى خالد بن حميد ألزناتي عليهما، ومزق جيوشهما، وكسر قوة الأمويين في المغرب فوجدت افريقية فرصتها للثورة فثارت ثورتها العارمة على الأمويين.

وكان ذلك في سنة ثلاث وعشرين ومائة كما أرى فثار محصن بن عكاشة الفزاري في ناحية «قابس».

وكان عكاشة بن محصن من جند الشام وهو أموي قدم مع عبيد الله بن الحبحاب لما ولي على المغرب في سنة أربع عشرة ومائة، وكان من ضباطه، وقد جعله مقدمة جنده الذي سار به إلى المغرب. فاعتنق عكاشة المذهب الصفري في افريقية فانظم إلى البربر الساخطين على الأمويين في جنوبها. فقدموه قائدا عليهم، فرأسهم في ثورتهم.

وكان عكاشة طموحا إلى الرئاسة، محبا للتقدم. وكان ساخطا على الأمويين لظلمهم وتحيزهم، وعدم تمسكهم بالدين في سياستهم، فثار في ناحية «قابس» بجنوب افريقية. وأرسل أخاه إلى ناحية مدينة «صبرة» في غرب طرابلس فدعا زناتة ومن بها من البربر إلى الثورة، فانضمت جماهير غفيرة إليه، فتكون له جيش منهم فهجم على مدينة «صبرة» وكان بها حبيب بن ميمون عاملا لكلثوم فحاصر سوقها ودار الإمارة بها. وشدد الخناق على ميمون فبلغ الخبر صفوان بن ملك عامل كلثوم على طرابلس فخرج في جيشه فقاتل الفزاري أخا عكاشة، ووقعت حرب شديدة بينهما فانهزم اخو عكاشة ورجع إلى أخيه في ناحية قابس.

وكان عكاشة قد تقوى جمعه فاستعد للسير إلى القيروان واحتلال العاصمة.

وكان كلثوم بن عياض ينتظر هذه الثورة، ويعتقد أن الانفجار لا بد أن يقع أيضا في افريقية. وقيل أن يسير إلى المغرب الأقصى لمقاتلة خالد بن حميد ألزناتي ولي على القيروان عبد الرحمن عقبة الغفاري، وعلى الحرب مسلمة بن سوادة القرشي «فخرج مسلمة في أهل القيروان إلى عكاشة بن أيوب بقابس، فقاتلهم فانهزم مسلمة وقتل عامة من خرج معه، فلحق بالقيروان فتحصن بها فعزله عبد الرحمن بن عقبة وجعل على جيشه سعيد بن بجرة الغساني»[1] وبات أهل القيروان في خوف كبير من عكاشة.

1 - فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص 219 ط. ليدن.

وكان كلثوم لما رأى قوة خالد بن حميد ألزناتي وأحس بالهزيمة «قد كتب إلى عامله على طرابلس صفوان بن أبي مالك يستمد فخرج إليه «في جيش كبير من أهل طرابلس الأمويين» حتى وصل قابس فبلغته هزيمة كلثوم وما حل بجيوشه فرجع أدراجه إلى طرابلس.

وكان سعيد بن بجرة ومن تحصن معه من أهل القيروان قد تشجع بمسير صفوان ابن أبي مالك، فخرج في جيشه ليجتمعا على عكاشة في قابس، فعلم عكاشة انه لا طاقة بمقاتلة جيوش الأمويين بالمصادفة، فخرج إلى نهر على اثني عشر ميلا من قابس حيث الغابات والجبال ليشن على الأمويين حرب العصابات إذا ساروا إليه، فوصل سعيد بن بجرة قابس فوجد صفوان قد رجع إلى طرابلس فخاف هجوم عكاشة عليه، وفتكه به، فتحصن بمدينة قابس العالية الأسوار، فأمسى محصورا بها لا يستطيع الرجوع إلى القيروان خوفا من هجوم عكاشة عليه في الطريق. فرأى عبد الرحمن ابن عقبة الغفاري أمير القيروان ما وقع فيه قائد جيشه فجهز جيشا فسار به لإعانة سعيد بن بجرة على عكاشة فالتقوا بعكاشة بين قابس والقيروان، فوقعت حرب عنيفة بينه وبين جيوش الأمويين، فانتصر عبد الرحمن بن عقبة على عكاشة فولى الأدبار، فاعتصم بالجبال والغابات ليستعد لكرة أخرى، فلم يتبعه عبد الرحمن فرجع أدراجه إلى القيروان.

استعانة عكاشة بعبد الواحد الهواري

وجاء حنظلة بن صفوان واليا على افريقية، فاخرج عبد الرحمن بن عقبة الغفاري إلى عكاشة بن أيوب الفزاري، وقد جمع بعد انهزامه، واستعد لإعادة الكرة على الأمويين؛ فوقعت حرب عنيفة بين الطرفين،، فانتصر عبد الرحمن وانهزام عكاشة أيضا وعلم عكاشة انه لا يستطيع التغلب على عبد الرحمن والنجاة من قبضة إلا بإعانة قائد من قواد البربر، فاتصل بعبد الواحد بن يزيد الهواري، وكان في شرق طرابلس، فاستنجد به، ودعاه للانضمام إليه، فسار إليه عبد الواحد في جيش من الصفرية فأعانه ونازلا عبد الرحمن الغفاري فهزماه وقتلاه واستأصلا عامة جنده. فنجا عكاشة مما كاد يحل به من الاستئصال، وانتصر هو على عبد الرحمن.

استعانة عبد الواحد بصفرية المغرب

وكان عبد الواحد بن يزيد وعكاشة يعلمان قوة حنظلة بن صفوان، وإصراره على المحافظة على افريقية، والقضاء على ثوراتها. وكان يعلمان أن الأمويين قد ايسوا من المغربين الأوسط والأقصى فسوف لا يوجهون جيوشا إليهما فتتفرق قوتهم، وان حنظلة

سيصوب كل قواته إليهما. ورأياه بعد ما حل بجيشه وبقائده عبد الرحمن يستعد للانتقام وللسير إليهم بكل قواته. فعلما إنهما لا يستطيعان منازلة حنظلة إلا بجيوش كثيرة. فنظرا فوجدا أن شرق طرابلس وجبال نفوسة وكثيرا من جنوب افريقية هي إباضية، وان للإباضية فيها خطتهم وبرامجهم لينضموا إليهم ومذهبهم الصفري يرى معاملة العصاة المسلمين ومن يحاربه الصفرية معاملة الكفار. إن الأباضية حرب على هذه العقيدة، وإن قلوبهم مزورة عنهم لهذا، فسوف لا ينصرونهم إذا سار إليهم حنظلة. فسار إلى غرب المغرب الأوسط في ناحية تلمسان والى الأقصى فاستنجدا بالصفرية هناك، وكانوا أكثرية في تلك البقاع، وقد أرهفت قواهم لانتصارات على كلثوم فصاروا يتمنون السير إلى القيروان للقضاء على الأمويين في المغرب الأدنى أيضا فوجد عبد الواحد وعكاشة بغيتهما في المغربين فانضمت طوائف كبيرة من الصفرية إليهما وانضم إليهما الأمير البربري أبو قرة اليفرني رئيس الصفرية في نواحي تلمسان وأمدهما خالد بن حميد ألزناتي أيضا فغزر جمعهما، فسار إلى القيروان في جيشين كبيرين احدهما تحت قيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري، الثاني بقيادة عكاشة. فرأى حنظلة ابن صفوان انه قد سار إليه مالا قبل له به، وأن هذه الجيوش ستقضي عليه إذا اعتمد في مكافحتها على الشجاعة وحدها ، وانه لا بد بالدهاء والجرأة والتصميم لينجو مما سيحل به. فماذا سيفعل حنظلة للتغلب على أعدائه. لقد ولاه هشام على افريقية بعد كلثوم فكيف ستكون في عهده؟

ولاية حنظلة بن صفوان على افريقية 124

شخصية حنظلة ودهاؤه

كان حنظلة هو اخو بشر بن صفوان والي المغرب في عهد يزيد بن عبد الملك. وكان حنظلة كأخيه من الصناديد الأكفاء. ومن الرجال العقلاء.ومن ذوي الحنكة والحصافة. والدهاء والرزانة. والذكاء وحسن التدبير. وكان واليا على مصر فاختاره هشام بن عبد الملك لافريقية التي ابتدأت ألغامها في الانفجار. وثورة البربر فيها في التأجج. عله يستطيع التغلب عليها فيبقى الأمويون في القيروان. ويحفظ افريقية فلا تنفصل عنه كالمغربين الأوسط والأقصى. فسار حنظلة إلى افريقية فوصل القيروان في شهر ربيع الآخر عام أربع وعشرين ومائة. فوجد جنوب افريقية مخضبة بالدماء. وأجزاء منها قد انفصلت عن القيروان. فرابط فيها عكاشة بن أيوب الفزاري. وهو يطمح برأسه إلى القيروان. ويرمي بالنظر الشزر حنظلة وذويه. ويستعد للاصطدام به. فأرسل إليه حنظلة قائد جيشه عبد الرحمان بن عقبة الغفاري فهزم عكاشة. ثم كر عليه عكاشة وعبد الواحد بن يزيد الهواري فهزماه فقتل عبد الرحمان الغفاري واغلب جيشه. ثم سافر عكاشة وعبد الواحد إلى المغربين ليستنجد بإخوانهم الصفرية هناك كما فصلنا القول في هذا في الفصل الماضي: ثورة افريقية على الأمويين.

زحف عبد الواحد الهواري وعكاشة إلى حنظلة

وكان عبد الواحد بن يزيد الهواري في جيش كبير. وكان عكاشة كذلك فسار من المغرب الأوسط لينازلا حنظلة في القيروان. فلما وصلا الزاب سار عكاشة على السهول بشمال أوراس وتبسة ليهاجم القيروان من جهة الجنوب ويحتل جنوب افريقية التي فيها أنصاره ومؤيدوه. أما عبد الواحد الهواري فقد كان في مقدمة جيشه أبو قرة اليفرني أمير الصفرية في تلمسان ومعه جيش كبير من قومه. وكان طريقه على الجبال في ناحية «قسنطنية» فسار عبد الواحد بن يزيد ليحتل شمال افريقية ومدينة «تونس» فيزحف هو عكاشة من الجنوب على القيروان فيجتمعان على حنظلة فيتغلبان عليه. تلك هي الخطة التي وضعها عبد الواحد. وهي خطة بارعة تدل على الدهاء والنظر البعيد. ولكن عكاشة ساءه ما يلاقى عبد الواحد بن يزيد الهواري في طريقه من إقبال البربر عليه. وإجلالهم له. واعتدادهم بكفاءته وشخصيته. وسطوع نجمه في افريقية فصغار هو متجه الأنظار. فعلم أن عبد الواحد إذا احتل معه القيروان فسينسب الفضل إلى عبد الواحد فيبايعه البربر بالإمامة دونه. وان عبد الواحد أكثر كفاءة منه في الحرب.

وأكثر أنصارا، وأعز جيوشا، وأقوى شخصية، وانه هو الذي أنقذه من الهزائم المتلاحقة عليه في حروبه الأولى، فلولاه ما انتصر على عبد الرحمان النفاري؛ فسولت له نفسه أن ينازل القيروان وحده، ليسبق عبد الواحد إليها، فيبايعه أهلها، فلا يكون اعبد الواحد إلا الرضوخ للأمر الواقع، والرضا بما فعلت العاصمة، ويحوز شرف القضاء على الأمويين في افريقية وحده، فيكون نجمه هو الساطع، وشخصيته هي البارزة، فيغطي على عبد الواحد ويجعله، وينال ما تمناه، وقصد إليه من سلطان ورئاسة بثورته. هذا ما سولت لعكاشة أطماعه ومنافسته لعبد الواحد، واراه غروره انه يستطيع وحده أن ينازل كل جيوش الأمويين في القيروان، وقد عجزوا قبل أن ينتصر وحده على جزء منها في نواحي قابس. فتقدم حتى نزل «بالقرن» قريبا من القيروان، ولم يبتعد بجيوشه إلى الجبال والغابات في نواحي قابس، ويحتل جنوب افريقية، ويكون بعيدا عن حنظلة فلا يهاجمه قبل وصول عبد الواحد إليه. فاعتصم حنظلة بن صفوان هذه الغلطة الحربية التي ارتكبها عكاشة، وعلم أن عكاشة اضعف من عبد الواحد، وانه إذا هزمه فستتقوى معنويات جيشه الذي أصبح يرتعد وجلا من الصفرية، ومن مقاتلة البربر بعد الهزائم التي حلت بالأمويين في المغرب الأقصى، وان سيجرئ جيشه على منازلة عبد الواحد إذا وصل إليه؛ فعزم على كعاجلة عكاشة ما دام وحده في الميدان، فشمر عن ساعده، واعد كل ما استطاع من جند وسلاح، وانتخب من رجاله ذوي الشجاعة والثبات، وفتح خزائن المال فأجزل العطاء لكل شاب قوي يتطوع في جيشه، وكل فارس شجاع ينضم إلى جنده، فاحتفل في تعبئة جيشه كل الاحتفال، واستخراج في ذلك كل طاقته، كما احتفل جنده وحسبوا للبربر ألف حساب، وعزموا على الموت المعركة، وعلى القضاء على عكاشة قبل أن يصل عبد الواحد الهواري، فتكون هزيمتهم المحققة، وما يخشونه من انقراض دولتهم في افريقية، فيحل بهم على يد عكاشة مالا يرضونه.

وقعة القرن

وكان حنظلة بن صفوان حازما شجاعا، جريئا، فألهب حماس جيشه، وأحيا ما مات من ثقتهم بالنفس، فسار إلى عكاشة «بالقرن» قريبا من القيروان فنازله، وحمي الوطيس بين الطرفين، واشتد الوغى، ووقعت معركة مهولة بين حنظلة وعكاشة سقط فيها مئات القتلى من الطرفين. وسال المكان بدماء المتقاتلين، وتجلل بالقتلى من الجيشين. وكان حنظلة هو الذي يقود جيشه، فهزم عكاشة وقتل كثيرا من جنده. ففر عكاشة منهزما إلى بعض الجبال ليختبئ فيها. فأرسل حنظلة وراءه من أتى به فقتله، فسر حنظلة بهذا الظفر، وتنفس الصعداء، وراجعت جيشه ثقتهم بأنفسهم، فاغتبط بما

انتعش من معنوياتهم، فجهز جيشا كبيرا بلغ عدده أربعين ألفا، فأرسله تحت رجل لخمي من اكبر قواده لينازل عبد الواحد في «باجة» في غرب تونس قبل أن يغزر جمعه، ويحتل شمال افريقية كلها، ينضم إليه كل من بها من الصفرية.

أما عبد الواحد بن يزيد الهواري فكان طريقه على الأطلس ألتلي بشمال الزاب فمر على قسنطينة «وقالمة» اليوم ثم سار حتى وصل مدينة «باجة» في غرب مدينة تونس وكان وهو في طريقه يتكاثر جمعه، ويتكاثف جنده، بمن ينضم إليه من ولاية قسنطينة وشمال تونس الثائرة على الأمويين لظلمهم، وسوء سيرتهم، وانحرافهم عن الدين في سياسة المسلمين. ولما وصل عبد الواحد «باجة» وافته بها جيوش حنظلة التي أرسلها إليه لتحول بينه وبين احتلال مدينة «تونس» قاعدة شمال افريقية وتصده عن السير إلى القيروان. فاستعد لها عبد الواحد فوقعت معارك عنيفة بين الطرفين دامت شهرا فكر عبد الواحد على جيوش حنظلة فمزقها، وهزمها وقتل منها عشرين ألفا، ورجع الباقون إلى حنظلة. وكان اللخمي قائد جيوش حنظلة قد خندق على نفسه وهو يقاتل عبد الواحد خوفا من فتكاته، والهجوم المفاجئ عليه. فارتاع حنظلة وأهل القيروان من الأمويين بانهزام جيوشهم، وما حل بجندهم، فعملوا أن عبد الواحد سيسير إليهم بجيوشه، وقد أرهفه النصر، وضاعف قواه الظفر، فيحتل القيروان، ويقضي على الدولة الأموية في المغرب، ويثار منهم لما سلف من ظلمهم لقومه وما ينكر من سياستهم للمغرب. فبات حنظلة في هموم تؤرق جفونه، وفي حزن يملأ دنياه بالسواد، وأمسى الأمويون في رعب وارتياع، ولكن حنظلة كان بطلا صنديدا، وكان من الرجال الأقوياء الذين يفتحون روحهم في الجماعات فيقوونها، ويؤججون حماسها، ويجبرون ثقتها بنفسها، فتصير قلوبهم التي يذيبها الروع، ويسيلها الخوف والتشاؤم قطعا من الحديد الذي ينقب الجبال، ويفتت الصخور. وكان حنظلة إلى بطولته يعلم انه إذا لم يهزم عبد الواحد فسيقضي عليه وعلى دولته، فثارت فيه غريزة المحافظة على البقاء، وإنقاذ الحياة التي تضاعفت قوى الإنسان فيستطيع بها ما لا يقدر عليه في أوقات الدعة والسكون، فضاعفت حنظلة والأمويين في القيروان، ورأوا أن تشجيعهم، وبذلهم الجهد في حرب عكاشة قد أورثهم النصر المبين، ولو جبنوا لكانوا طعمته، ولصاروا حطاما تحت سنابكه، ومزقا في مخالبه؛ فشمر حنظلة فنادى للدفاع، وجمع جيوشه فأعدها، وأجج حماسها، وسلحها، واستخرج كل طاقته، وبذل كل جهده في التهيئ والاستعداد. وكان من عبد الواحد على حذر عظيم فغلقت القيروان أبوابها، وشددت الحراسة على نفسها لما سار إليها عبد الواحد وصار قريبا منها.

مبايعة عبد الواحد ابن يزيد الهواري بالإمامة

أما عبد الواحد فبعد أن هزم جيوش حنظلة في «باجة» سار إلى مدينة تونس فاحتلها، وانثالت عليه جموع البربر من كل نواحيها، فبايعوه بالإمامة، وقدموه على أنفسهم رئيسا يقودهم في ثورتهم على الأمويين، ويسوسهم سياسة عادلة تضمن لهم حياة العزة والكرامة. فسار عبد الواحد من تونس يقصد القيروان، وقد صمم على احتلالها وإزالة الدولة الأموية من المغرب، فنزل «بالأصنام» على بعد ثلاثة أميال من القيروان.

قال ابن عبد الحكم: «فكتب عبد الواحد بن يزيد إلى حنظلة أن يخلى له القيروان ومن فيه، فاسقط في أيديهم، وظنوا أنهم سيسبون. حتى إن كان حنظلة ليبعث الرسول منهم ليأتيه «بخبر عبد الواحد» فما يخرج إلى مسيرة ثلاثة أميال إلا بخمسين دينارا»[1] فاستعد الفريقان للمعركة الفاصلة. وكان احتفال حنظلة واستعداده، واستخراج كل طاقته، وبذل كل جهده، وجده واجتهاده أكثر.

موقعة الأصنام المهولة

قال النويري: «فاجرح حنظلة جميع ما في الخزائن من السلاح، ونادى في الناس، فكان يعطى لكل منهم درعا وخمسين دينارا. فلم يزل يفعل ذلك حتى كثير عليه الناس، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين، ولم يقدم إلا شابا قويا، فعبأ الناس طول ليلته، والشمع حوله، وبين يديه، فعبي في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل، وأصبح فتقدم للقتال» وقد تجمعت له جيوش غفيرة لم يذكر المؤرخون عددها، ولكنها كانت كثيرة تناهز السبعين ألفا كما أرى. وإذا استطاع حنظلة أن يوجه مع اللخمي إلى باجة لصد عبد الواحد أربعين ألفا من الجند، فان ما يكون له إذا جمع كل قواته، وحشر كل جنده من أنحاء افريقية وشرق المغرب الأدنى، يصل سبعين ألفا أو يزيد. فكانت المعركة المهولة بين حنظلة وعبد الواحد في الأصنام، فصبر فيها الفريقان، فسال المكان انهارا من الدماء، وتكدس القتلى من الطرفين في ساحة المعركة، فقتل عبد الواحد من جند حنظلة آلافا عديدة، وقتل حنظلة من جيش عبد الواحد مثلها. وكان البربر يؤرثهم في المعركة حنقهم على الأمويين لظلمهم، وحبهم للاستقلال والعزة. وكان الأمويون يؤرثهم وتذكيهم غريزة المحافظة على البقاء لأنفسهم ودولتهم، ويخافون البربر خوفا جعلهم يقدرون عدوهم فيستخرجون كل طاقتهم للتغلب عليه. أما البربر فجعلهم

1 - فتوح المغرب ص 222 ط ليدن.

الاعتداد بأنفسهم، وشموخهم بما نالوه من نصر على جيوش الأمويين في المغرب الأقصى وفي «باجة» ينظرون إلى الأمويين على أنهم شيخ ينازله شاب قوي. وإذا استهان الشاب بالشيخ فنازله ببعض قواه، وتأرث الشيخ وتضرم فاستخرج كل طاقته، فان الشيخ في المعركة هو الشباب. ثم لا تكون الدائرة إلا على المغتر بنفسه، المزهو بما مضى له، المعتد بوفرة قوته ثم لا يستعملها كلها في المعركة، ولا يستخرجها جميعها في مصارعة العدو.

قال النويري: «وكسر جنود حنظلة أجفان سيوفهم، والتقوا واقتتلوا، ولزم الرجال الأرض، وجثوا على الركب، فانكسرت ميسرة حنظلة وميسرة عبد الواحد، ثم كرت ميسرة حنظلة على ميمنة عبد الواحد» واشتد القتال، وصمم جنود حنظلة على النصر فكان لهم فانهزم جيش عبد الواحد. أما هو فقاتل حتى قتل في المعركة، وقد أبت عليه بط

ولته أن يفر كما فر عكاشة. ففرح حنظلة بالظفر فرحا لا نظير له، وتنفس الصعداء، وانقشعت أثقال الحيرة والهم التي كانت تجثم على قلبه، ونجا هو وقومه من الاستئصال الذي كان يهددهم، وكتب للدولة الأموية أن تزيد بضع سنين في افريقية. وقد بلغ من فرح حنظلة بالنصر أن خر لله ساجدا لما أوتي برأس عبد الواحد فوضع أمامه، فطير الخبر إلى هشام، وأرسل البشائر إلى الشام، وسطع نجم حنظلة في الدولة الأموية، فرجحت كفته في ميزان البطولة، وأصبح هو الشخصية المرموقة في أنحاء الدولة.

وكانت معركة «القرن» مع عكاشة، ومعركة «الأصنام» مع عبد الواحد من اكبر ما خاض الأمويون من المعارك في المغرب، وكانت محنتهم بزحف هذه الجيوش إليهم أقسى من كل ما أصيبوا به من محن بثورات البربر عليهم، لأنها جيوش تقرع الرأس لتفلقه، وتقصد الحشاشة لتقضي عليها، وتنازل القيروان وهو آخر معقل للأمويين لتحتلها، وليس بعدها إلا زوال دولتهم من المغرب، وانقراض مادتهم في هذه الديار، وفناؤهم وزوالهم؛ لذلك كانت المحنة بزحف عبد الواحد إليهم اشد، وانتصارهم عليه ونجاتهم من المحق ألذ. وأما ما نزل بهم في أنحاء المغرب الأخرى سيما المغرب الأقصى فانه لا يهدد وجودهم في المغرب، أنهم يعدون تلك النواحي أطراف دولتهم، إذا خرجوا منها بقي لهم وسط الدولة وهو افريقية التي يستوطنونها، ويرونها دارهم وجزءا من المشرق يحفظ وجودهم في هذه البقاع، ويفيئون إليه إذا اشتدت المحنة، ويعتصمون به فينجيهم من الهلاك إذا أزبدت الأيام.

فرجع حنظلة إلى القيروان وهو قرير العين بعد انسلاخ افريقية عنهم. أما المغرب الأوسط والأقصى فقد استقلا وانفصلا، وأيس حنظلة وأيس هشام من استرجاعهما وكذلك بقية المغرب الأدنى سيما طرابلس ونواحيها من شرق «قابس» إلى سرت فان نفوذهم فيها ضعيف. لقد اهتزت هي أيضا للاستقلال، وانكمشت عنهم انكماش من هو مستعد للثورة عليك إذا جاذبته، ولم يبق لحنظلة ساكنا وادعا يسيطر عليه كل السيطرة إلا وسط افريقية، حيث يكثر سواد الأمويين، ونترابط جيوشه الوفيرة أما جنوبها وشمالها فسكونها سكون الخوف لا سكون الرضى. إن البربر فيهما مستعدون للثورة، فلو خاشنهم حنظلة لأعادوها عليه جذعه، ولكن حنظلة كان واقعيا وحكيما فلم يخاشنهم، واكتفى منهم بالسكون له، وعدم الثورة عليه.

ولاية أبي الخطار على الأندلس

وكانت هذه الحروب التي خاضها في أول سنة خمس وعشرين ومائة. وكانت الأندلس عاصفة. إن حب الرئاسة صار طبعا في الأمويين بها، فتناطحوا عليها فكثرت الحروب بينهم، وأمست الأندلس على صخب وتنازع يمزق وحدتها، ويقتل هناءها. وكانت العصبية بين اليمانية والمضرية تؤرث هذه النار، وتزيد الشمل تشتتا، والأمور فسادا. وكان حنظلة قد ولى عليها في سنة خمس وعشرين ومائة أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي. وكان حازما فسكنت له حينا ثم عليه الصميل بن أبي حاتم الكلبي فعزله ثم قتله بعد حروب كبيرة وقعت بينهما. وقد ابتلى الله الأندلس في هذه السنين بالوباء والموت فحصد كثيرا منها، وصارت الأندلس بهذا في ليلها لا في نهارها، وجللها سواد البؤس والكدر، وأمست وهي غريقة في دماء الفتنة ودموع الأحزان.

وكانت الدولة الأموية في هذه السنين قد ازدادت استغراقا في الهرم. وكانت شمسها قد افلت فدخلت في ليلها البهيم فكثر تعثرها، وتناطح أبناؤها فتمايلت للسقوط وقد توفي هشام بن عبد الملك في ربيع الثاني من سنة خمس وعشرين ومائة، وكان يحفظ حشاشتها بعض الحفظ بحزمه، وهيبة النواحي له، فجاء بعده الوليد بن يزيد، فاستغرق في شهواته، وانصرف عن عجلة القيادة، فاتجهت الدولة إلى الهاوية، وطمع الأمراء وذوو الطموح في الدولة.

ثورة ابن حبيب على حنظلة

وكان من الطامحين إلى الإمارة عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري. وكان قد حضر حرب حبيب أبيه مع خالد بن حميد ألزناتي، ولما حلت الهزيمة

بالأمويين فر إلى الأندلس فصار يترقب الفرصة للإمارة بها، ولما ولي أبو الخطار على الأندلس أيس من أن يكون له مع أبي الخطار حظ، أو تسنح له فرصة، فخرج في جمادى الأولى من سنة ست وعشرين ومائة إلى مدينة تونس، فاستمال الأمويين بها فمالوا إليه، فثار على حنظلة فاستولى على تونس في هذه السنة فتهيأ للسير إلى القيروان.

اعتزال حنظلة للإمارة

وكان حنظلة حكيما، يسيطر عليه عقله لا غرائزه،فعلم محاربته لعبد الرحمن أضعاف للأمويين في المغرب، وتمكين للبربر من الفرصة فيهم فيقضون عليهم جميعا إن البربر الحنقين على الأمويين لتغلي قلوبهم في افريقية بكل عوامل الثورة، وأنهم في المغرب الأوسط والأقصى موتورون فبودهم أن يقضوا عليهم في المغرب، وكأنه بالمغرب من أدناه إلى أقصاه يطبق على الأمويين إذا لم يتحدوا ويتماسكوا. ونظر حنظلة فوجد عبد الرحمن بن حبيب كفؤا للإمارة، وعلم أن الأمويين سيتقوون به، وانه سيحسن الاضطلاع بأعباء الإمارة، فتخلى له عن إمارة افريقية التي كانت ثقلا يبهضه، ووجد فرصته للاستراحة من هذا الحمل الثقيل فارتحل إلى المشرق في سنة سبع وعشرين ومائة فاحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان، فاستقلت افريقية داخليا فلم يعد للأمويين فيها إلا مظاهر الملك، أما السيطرة والنفوذ فقد كانت لعبد الرحمن ابن حبيب.

وكانت ولاية حنظلة على افريقية في سنة أربع وعشرين ومائة وارتحاله منها في سنة سبع وعشرين ومدته في الإمارة نحو من ثلاث سنوات. وكان حنظلة حازما ذا كفاءة في السياسة، ولكنه وجد الدولة الأموية في هرمها، ووجد القيروان سفينة في بحر مزيد. لذلك لم يتجه إلى الفتوح في صقلية، ولم يذكر له المؤرخون عملا في ميدان الإنشاء والتعمير كما ذكروا لغيره. وعلى كل فان المغرب وإن هرم فيه الأمويون فانفكوا عن البناء، واشتغلوا بحفظ نفوسهم، فان البربر ومن معهم من المشارق الذين امتزجوا بهم آخذون في شبابهم يتدرجون فيه، واستمرت أعمال البناء ونشر الثقافة كما كانت، فلم تشغلهم الحروب عن التقدم إلى الإمام، ولم يعق المغرب عن التطور والنمو ما كتان يهزه من ثورات، لان العاصفة وإن ناوشت الشجرة وشعثت منها فإنها لا تمنعها من النماء. وسنذكر في الفصول التالية من سطع نجمه بالمغرب في هذه العهود من العلماء، لتعلم معي أن المغرب القوي العبقري سماء رفيعة يجللها الظلام، ولكنها مع ذلك تلد أقمارها ونجومها الساطعة، وتملأ الجو بالنور.

الدول الإباضية في المغرب / وأكاذيب الملكيين القدماء على الإباضية

هذا هو حال افريقية في عهد حنظلة بن صفوان، فكيف حال المغربين الأوسط والأقصى، وبقية المغرب الأدنى؟ أما المغرب الأقصى فقد نشأت فيه الإمامة البربرية التي رأيناـ فقرت عينه، وسكن سكون الرضا. أما المغرب الأوسط وشرق المغرب الأدنى، فانه يتمخض عن دوله الكبرى التي تلتزم في سياستها الدين، وتحيى سيرة الخلفاء الراشدين، وتنعش المغرب الأوسط والأدنى، وتنهض بهما النهضة الكبرى، وتخلق للمغرب صفحاته الغراء، وتكون له وجهه الجميل، وذكره العاطر،وتمهيد للدولة الإدريسية في المغرب الأقصى، وتهيئ المغرب وتعده لكل ما أنشأ من دول مستقلة راقية بعد ذلك. والإباضية في المغرب هم الذين سيقومون بهذا. فمن هم الإباضية؟ وما حقيقتهم؟ وكيف نشأ مذهبهم؟ وما الفرق بينه وبين المذهب الصفري؟ هذا ما سنأخذ فيه مضطرين، وهذا ما يبعثنا عليه الأمويون والعباسيون بدعاياتهم المغرضة ومينهم وأكاذيبهم على كل من ثار على ظلمهم، ودعا إلى الإمامة العادلة، والى ما فرضه الدين في الرئاسة، واخذ «بالجمهورية» التي تسعد المسلمين، وثار على الملكية[1] الغاشمة المستبدة التي ينابذها الدين.

إن الإباضية قد ثاروا على ظلم العباسيين والأمويين في المشرق والمغرب، وانفصلوا عنهم، وأنشأوا في كليهما دولهم الإسلامية العادلة التي تقوم على الإمامة العادلة، لا على الملكية[2] المستبدة، فبسط الأمويون والعباسيون فيهم السنة دعايتهم الكاذبة في المشرق والمغرب، فصورهم في كتب التاريخ، ولمن لا يعرفهم، على غير حقيقتهم، وأبرزهم في غير ثوبهم، ليبعدوا الناس عنهم فلا يقتدوا بهم في الثورة عليهم، وتأسيس الدول التي تقوم على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية مثلهم. وقد ابرزوا المغرب والبربر في تلك الأزمنة الغراء من تاريخهم في هيئة زرية، وحال منفرة؛ والمغرب في تلك العهود الزاهرة هو وجه الإسلام الجميل، وحيا العربية الفتان، لتقيده بالدين في السياسة، وتمسك أئمته بالكتاب والسنة في كل الشئون، ولازدهاره في كل نواحيه. وقد جاء الاستعمار الفرنسي والايطالي فأيد مزاعم الأمويين والعباسيين، واستغل كل الاستغلال في التفرقة ترهات الأقدمين. وقد رأى المستعمرون الإباضية في المغرب هم من ارسخ الجذور للعربية والدين في ربوعه، لتمسكهم بالدين والعربية، وغيرتهم

1 - الملكية نسبة إلى الملوك وكذلك الملكيون وقد ورد في الفصل الماضي «الملوكية» و«الملوكية» وهو لا يصح في النحو وإن شاع وذاع في الصحافة وفي الألسنة.

2 - الإمامة يقابلها الملك. والملكية وصف للدولة والمراد بهذا اللفظ نظامها في رئاسة الدولة. والعلاقة بين النظام والدولة الحلية فهو مجاز هنا لا حقيقة.

عليهما، وتضحيتهم بكل شيء في سبيل نشرهما والذود عنهما، ولاعتدادهم كل الاعتداد بالشخصية الإسلامية والتمسك بها، والمحافظة عليها، ولنشاطهم، وجدهم، وطموحهم، ونفسيتهم العلمية التي تأبى عليهم الاستسلام والخمول؛ فرآهم الاستعمار الفرنسي والايطالي اكبر عقبة في سبيل ما يعمل له من تجريد المغرب من ثوب العربية والدين، فاستغل الأغلاط التاريخية في الكتب العربية، وأكاذيب الملوك وترهاتهم، فأطلق ألسنته المأجورة بها، فصوروا للمغرب الإباضية على غير حقيقتهم، ليبعدوا الأخ عن أخيه، ويمزقوا مغربنا العظيم الذي امتاز في الأقطار العربية كلها بعوامل الوحدة بالجنس الواحد، والدين الواحد، الذي جعله أسرة واحدة، ليس فيه المغاربة المسلمون، والمغاربة المسيحيون كما نجد في البلاد العربية الأخرى. لقد عمد الاستعمار الخبيث الماكر الذي استغل اختلاف الدين في تمزيق البلاد العربية الشرقية، عمد في المغرب إلى المذهبية الخبيثة فصار يذكيها بكل وسائله، ليعزل الإباضية الذين يراهم من ارسخ أوتاد العربية والدين في المغرب، ومن اشد حماتهما شكيمة، لكي لا يؤثروا في غيرهم، ولا ينتفع بكفاءتهم إخوانهم، ولا يجتمع المسلمون فيكونوا قوة كبرى، وجسما تتم أعضاؤه فتسرى روحه فيه، فينهض نهضته فينفض القمل عنه، ويبعد الذئاب عن ساحته ! حدثني الأستاذ الجليل الشيخ أبو اليقظان شيخ الصحافة العربية المناضلة في الجزائر أن احد أعوان الاستعمار ممن يطلعون على الخبايا ويعلمون الأسرار اخبره: أن «ميو» الفرنسي مدير الشئون الأهلية في الجزائر قال لرؤساء إدارته الذين يتولون شئون المسلمين في الجزائر: «أنفقوا صندوقنا الأسود[1] كله في التفريق بين الإباضية والمالكية في الجزائر، ولا تعدوا أنفسكم خاسرين. أما والله إن اخدوا فان فرنسا لا تقوم لها قائمة في هذه الديار» وقد اخدوا والحمد لله رغم مكائد الاستعمار، فوقعت ثورة الجزائر التي كنست الاستعمار والمستعمرين إلى اليم، فيجب علينا في عهد الاستقلال أن نصحح الأغلاط التي وقع القدماء، وقلدهم فيها المحدثون، وأصبحت تلك المصادر التي أملتها الملكية المغرضة القديمة خطرا على وحدة المغرب، فنذكر أسباب نشأة المذهب الأباضي، والفرق بينه وبين المذهب الصفري الذي جاوره في المغرب، فان هذا قد خبط فيه المؤرخون الذين يستقون من المصادر الأموية والعباسية خبط عشواء، فصوروا الإباضية والمغرب في عهود الدول الإباضية الزاهرة على غير حقيقته وأظهروه في غير زينته؛ وكان شامة بيضاء، وشمسا منيرة، فأبرزوه في لون القطران وسكبوا في أقداحه اللذيذة المنعشة من أكاذيب الأمويين والعباسيين فصارت مرة تنفر عنها النفوس، مرغوا وروده الأريجة الرائعة في الأوحال لبزروا بها عند الناس !

1 - الصندوق السوداء هي التي ينفق منها على الجواسيس ومكائد الاستعمار الأخرى ولا يحاسب رئيس الناحية أين أنفقها فهي سر من أسراره محجب في الظلام.

إننا فيما يستقبلنا من الفصول سنرى الإباضية هم الذين يرفعون علم الثورة على الأمويين والعباسيين، وينشئون في المغرب الدول الإسلامية المستقلة، فلا بد بمعرفة حقيقتهم، وسبب تسميتهم بهذا الاسم.

وجوب قتل المذهبية المخربة

إننا من الساعين لقتل المذهبية ومحوها بكل الوسائل، إنها هي البلاء الأكبر على المسلمين، وهي مطية الاستعمار وكل المصائب إلينا. ومذهبنا في الدين أن نعتني في كلياتنا وفي دراستنا بالكتاب والسنة فندرسهما كل الدراسة، ونتفقه فيهما كل التفقه فنعرف منهما أسرار الدين ومقاصده، ويتكون فينا العقل المنطقي، والفكر الفاحص، ومحبة الحقيقة، فندرس على ضوء الكتاب والسنة، وبعقولنا الناقدة كل ما تركه لنا أجدادنا من تراث فقهي فنأخذ بما وافق الكتاب والسنة، ونرمي بما خالفه وكان من إملأ السياسة القديمة، وضيق الأفق في بعض الفقهاء عرض الحائط، فيتكون لنا الفقه الإسلامي الذي لا ينتسب لمذهب من المذاهب، بل هو وليد الكتاب والسنة، وخلاصة مصفاة للتراث الذي تركه لنا أجدادنا الفقهاء. هذا هو مذهبنا وإذا وقفنا في الإباضية وقفة فليس اعتناءا بالمذهبية، ولكن تصحيحا لأخطاء تشين صفحة المغرب في الكتب القديمة، وتبعد الأخ عن أخيه في مغربنا الكبير الماجد.

عادة المؤرخين في تاريخ المغرب

وترى المؤرخين القدماء ومن قلدهم من المحدثين إذا وصلوا هذا الفصل من تاريخ المغرب، ينتقلون إلى الصراع الذي وقع بين الأمويين والهاشميين في خلافة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقعون في الأخطاء الكبرى، ويصورون الإباضية كما يريد الأمويون والعباسيون، فيصفونهم بما هم منه بريئون، ويلصقون بهم ما اتصف به الأمويون لا غيرهم من الخروج على الإمام علي، فيرددون في هذا الباب أكاذيب الملكية المغرضة القديمة التي استعملت كل وسيلة لتشويه صفحة الإباضية، لان الإباضية في كل ادوار التاريخ كانوا أنصار الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وحربا على الملكية الظالمة المستبدة التي تضعف المسلمين وتشقيهم. وأجدني لهذه العادة التي التزمها المؤرخون القدماء والمحدثون مضطرا لأرجع بالقارئ العزيز إلى الوراء حوالي قرن من الزمان، لنلم إلمامة وافية بثورة الأمويين على الإمام علي رضي الله عنه وخلافهم عليه، ونشأة المذهب الأباضي والأسباب الداعية إليه، فنعرف الحقيقة التي تغسل صدورنا من الترهات، وتكون لنا نورا نرى به صفحات المغرب الغراء،وما امتاز به في القرنين الثاني والثالث من مجد

وسعادة، وما دخل فيه من حياة وعزة، وما تمتع به أجدادنا في ظل دولهم العادلة التي نقوم على الدين، ويلتزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين. إن هذا الانتقال إلى الوراء وإن كان سيؤلنا بمناظر الصراع الذي وقع بين المسلمين، فننا سنحيا به مع الإمام علي رضي الله عنه بذكر سيرته، ونتمتع بقراءة ما يصور شخصيته العظيمة، فنقبس من روحه، ونتزود بمحاورة احد أعلامنا الكبار وأئمتنا العظام !

لماذا ثار الأمويون على هذا الإمام العظيم؟ ما هي الأسباب النفسية الداعية لذاك؟ ولماذا استطاع معاوية أن يتغلب في المعركة ويستولي على الملك والسلطان؟ وما هي أسباب نشأة الإباضية والمذهب الأباضي من كل ذلك؟.

المنافسة القديمة بين الأمويين والهاشميين

لم يكن منافسة معاوية للإمام علي رضي الله عنه في الرئاسة، وخروجه عليه شيئا يخص معاوية وحده، وحدثا ابتدأ في عهدهما، بل إن خروج معاوية على الإمام علي ومقاتلته، والعمل لتجريده من الرئاسة، وحصرها في بني أمية، فصل من فصول المنافسة القديمة التي كانت منذ الجاهلية بين الأمويين والهاشميين.

حب الأمويين للرئاسة

لقد كان الأمويون منذ القديم يتعطشون إلى الرئاسة، ويحبون الظهور، ويتعشقون الامتياز، ويريدون أن يكونوا هم الذروة، ولكن بني هاشم كانوا يسدون عليهم الطريق، ويكسفونهم بمزاياهم، ويأخذون قصب السبق عنهم في ميدان الرئاسة؛ فكان الأمويون يرون الهاشميين عقبة لهم وسدا دون ما يردونه لأنفسهم من رئاسة في قريش، وعلو حتى يكونوا هم الذرة في العرب، والذؤابة في بني عدنان، ومن يشار إليهم من كل أنحاء الجزيرة بالبنان. وكان الأمويون على حرد كبير على بني هاشم، ينظرون إليهم بقلوب تغص بالغيرة، ونفوس يملأها الغضب، وينظرون إليهم بحسد العاطلة المتجردة من حلاها إلى من كسفتها في العرس بحليتها وجواهرها النفيسة.

وكانت غريزة حب الظهور في بني أمية من الغرائز الثائرة التي حاولت أن تشبع نفسها في الجاهلية بالرئاسة فمنعها بنو هاشم لوجود شخصيات بارزة فيهم كعبد المطلب ابن هاشم اتجهت إليها الأنظار، وأعجبت بها القلوب، وخصتها النفوس بالاحترام والإجلال. ولما جاء الإسلام وكان الرسول من بني هاشم، ازدادت القلوب إجلالا لبني هاشم، وانصرافا عن بني أمية، سيما لما قتل رؤساؤهم في بدر، وأمست العين محجرا بدون مقلته، والعقد ودعا بدون جواهره، ونادى بني أمية من وجوهه كالطلل الدارس.

وكان انصراف العيون عن بني أمية يزداد على قدر انتشار الإسلام، وتأيد الرسول، لمقاومتهم لهذا الدين، وعدائهم للنبي عليه السلام، بدافع المنافسة والحسد، لأنهم يعلمون ما يكون لبني هاشم من نباهة فوق نباهتهم لو ظهر هذا الدين، وشعشت أنواره في العرب، وتغلغل حبه في قلوب أهل الجزيرة.

وكانت غزيرة حب الظهور تجد بعض شبعها في الجاهلية بمنافسة بني هاشم في المفاخر، وكان على رأسها الشجاعة في القتال، والإطعام في المساغب، والسقاية للحجيج، والفصاحة في النوادي، فاتجهت إليهم الأنظار بعض الاتجاه، فوجدوا كثيرا من الرضى. ولما كان لبني هاشم رسول يوحي إليه، وهو مالا يستطيعه كل احد، ولا يكون

لكل الناس، فلم يستطيعوا منافسهم فيه، وانصرفت عنهم الأنظار بسببه، وأصيبوا بالخمول من اجله، لان التفاخر صار بالإسلام، والتقدم عند الناس أصبح بالإيمان، وحب النفوس أمسى بحب محمد وتأييده، وهم كانوا على الضآلة في هذه الصفات، وعلى الخلو من ذلك الحب، فتجهمت لهم النفوس، وانطوت لهم على المقت، وعبست لهم القلوب، واشتملت لهم على الحقد والازدراء، فأصيبوا بداهيتين، فقدان الرئاسة والنباهة والازدراء معه، والنزول مما كانوا فيه من المكانة، فلم يحلوا في البسيطة كالناس، ولكن في هوة الاحتقار والإعراض.

وكان مبعث الرسول عليه السلام، وكونه من بني هاشم، وقد اخملهم وأخمدهم بانصراف العيون كلها فلم يعد لهم معه حظ كما كان لهم مع أجداده، فانكبتت غريزة حب الظهور فيهم، فأصبحت لهم عقدة نفسية تحثهم على طلب الرئاسة، وتدفعهم بقوة خفية لاستلاب الزعامة والسلطان.

وكان الإسلام قد اضعف العصبية في النفوس، وغير أسباب الرئاسة في الناس، فلم يعد السيد والرئيس هو الذي يطعم الطعام، ويسقى الحجيج فحسب، ولكن من امتلأ بالتقوى، وفاض بالإيمان، وكان له السبق إلى الإيمان بالرسول وتأييده، واليد الطولي في ظهور الإسلام على الكفر، والحق على الباطل. وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من فاز بالقدح المعلي في هذا السبيل مع ما كان لهما من الشخصية البارزة، والعبقرية النادرة، والماضي المشرق منذ الجاهلية بخصال الرجولة والصلاح، فاتجهت إليهما الأنظار، وآثرهما المسلمون بالخلافة، وخصوهما بالتبجيل.

وكان الجو لوجود هاتين الشخصيتين العظيمتين أبي بكر وعمر، وبهمود العصبية بالإسلام في القلوب، غير ملائم لبروز بني أمية، فظلوا على العقدة تسيرهم وتوجههم حتى ولى عثمان رضي الله عنه الخلافة لاتصافه بما اتصف به صاحباه من تأييد للدين، وسبق إلى الإسلام، وكان من بني أمية، فتنفسوا الصعداء، ووجدت غريزة حب الظهور فيهم كثيرا من الرضى، سيما لما استولى على عثمان في آخر أمره، فخصم بكثير من المراتب في الدولة، وآثرهم بالولاية على الأقطار الكبيرة، ونالوا في عهده كثيرا مما يشتهون.

تمسك الأمويين بالرئاسة

وكان الأمويون يرون خلافة عثمان رضي الله عنه ملكا لهم، فعزموا على التمسك به، والمنافحة عنه، والاستماتة فيه، واتخاذ كل الوسائل أن لا يخرج عنهم إلى غيرهم.

روى أبو سعيد الشماخي في كتاب السير كما روى غيره من المؤرخين قالوا: إن بني أمية اجتمعوا بعد مبايعة الإمام عثمان بالخلافة، وكان فيهم أبو سفيان بن حرب رئيس بني أمية وكان أعمى فسأل: «هل فيكم احد من غيركم؟ قالوا لا. فقال يا بني أمية تلقفوها -الرئاسة- تلقف الكرة. فو الذي يحلف به أبو سفيان ما زلت ارجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم !» قد يكون هذا القول صحيحا من أبي سفيان، وقد يكون من وضع الرواة الذين يستنطقون الحوادث، ويستنبطون من الكائنات، فان اقتناص الأمويين للرئاسة الإسلامية بالقوة والحيلة، واستيلاءهم عليها كما يتلقف المرء باقتداره الكرة من منافسيه، وجعلهم الإمامة الإسلامية ملكا يرثه أعقابهم، ويوصون به إلى صبيانهم، لا يرضون أن يخرج عنهم، وأن يتولاه سواهم ممن هو اقدر منهم وأليق للمسلمين؛ إن عملهم هذا الذي اضر الدولة الإسلامية، وفرق جماعة المسلمين، يؤيد ويوافق ما نسب إلى أبي سفيان، وما نعتهم به المؤرخون في بداية خلافة الإمام عثمان، وأن ما سيكون منهم في آخر أيامه نابع من هذه الشنشنة التي تلازمهم من أول الزمان.

لين عثمان وسماحته / مشاكل الأمويين لعثمان / استشهاده

وكان الإمام عثمان رضي الله عنه هينا لينا، سمح النفس، كريم الخلق، حسن النية، محبا لأهله وذويه، ولم يكن كصاحبيه أبي بكر وعمر في شدة اليقظة، وفي الصرامة والقوة، وفي هيبة النفوس لهما، وخشية ذوي الأطماع والاستغلال من ضربهما على أيديهم؛ فاستغل الأمويون سيما خاصتهم كمروان بن الحكم، ومن كان متصلا بالإمام في المدينة، ملازما له في محل إقامته؛ استغلوا في الإمام عثمان رضي الله عنه سماحته خلقه، وحسن نيته، وعاطفته نحو أهله، فأحدثوا ما آثار الثائرة عليه، وكان من أسباب الفتنة الهوجاء التي أدت إلى قتله في ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين، فقبضت أنفاسه الزكية بعد اثني عشر عاما أمضاها في خلافته.

استخلاف الإمام علي رضي الله عنه

ولما قتل عثمان رضي الله عنه سارع كبار الصحابة وخاصة المسلمين إلى مبايعة الإمام علي رضي الله عنه فكان هو خليفة المسلمين.

وكان الإمام علي رضي الله عنه من كبار الزاهدين، ومن العباد الأولين، ومن العلماء المتقين، ومن الذين يراقبون الله في كل الأشياء، ويستشعرون حساب الله في كل الأمور، ويتذكرون آخرتهم وما فيها من العقاب والثواب في كل الأوقات.

هربه من الخلافة

وكان رضي الله عنه يرى الخلافة واجبات ثقيلة، وتكاليف صعبة، وثقلا باهظا يضعه المسلمون على عاتق الخليفة.

وكان يرى تغير نفوس المسلمين بما فتحوا من الأقطار، وبما نالوا من زهرة الدنيا ومتاعها، وبنا عاشروا من أمم أعجمية كانت محبة للدنيا، ومتهالكة على المادة، فتأثروا بها، فتكونت الأنانية في نفوس المسلمين، وارثت هذه الأنانية العصيبة في القلوب، والتنافس في الصدور، فصارت الدولة الإسلامية بهذا بحرا تكونت أمواجه، وهبت عواصفه، فلا بد له من خلفية بالغ الدهاء، قوي في السياسة، بارع كل البراعة في التدبير، يسنده الصحابة وخاصة المسلمين، ويكنفونه ويؤيدونه، ويؤازرونه في مواقفه، ويكونون له عروقه الراسخة في خلافته، وهو قد أنس في نفسه رضي الله عنه عدم الاستطاعة لمواجهة تلك الأنواء، وتحمل تلك المسئوليات، ومصارعة ذوي الأطماع الذين رأى تحفزهم لمنافسته، سيما بني أمية ومن يشايعهم من ذوي الأطماع والحب للدنيا، فهرب من الإمارة ما وسعه الهرب، وأبى على الصحابة قبول الخلافة، واعتذر لهم بضعفه، واراهم عدم استطاعته، وآثر أن يكون من الوزراء الذين يؤازرون الخلفاء، لا من الأمراء الذين تتنزل عليهم الأعباء. وقال لهم: «أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا، ومن اخترتم رضيته»[1] ولكن الصحابة رضوان الله عليهم الحوا عليه أن يكون هو الإمام، وأبوا أن يختاروا للخلافة غيره، وأشعروه بأنه إذا لم يقبلها فسيهرع إليها من لا يليق للخلافة، ومن لا يتصف بدينه وورعه، ومن لا يلتزم الدين في السياسة، ولا يسعد المسلمين بعدله وتقواه. فلما خاف الإمام علي رضي الله عنه طمع الطامعين في الخلافة، ورأى أن تقدم غيره إليها بتأخره يجعله مسئولا عن كل الأضرار التي تلحق المسلمين، وانه ليس هناك شخصية من الصحابة يجمع عليها السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار غيره؛ لما رأى كل ذلك قبل الخلافة مضطرا وهو يستشعر ثقلها عليه، ويجد مرارتها في نفسه، ويعلم أن الأمويين وغيرهم من النافسين سيجعلون الجو مغبرا عليه، ورأى جو الدولة الإسلامية مكفهرا فعلم انه يتمخض عن عواصف هو جاء، ويسفر عن قلاقل تتعبه، وتبهظ كاهله.

وكان الإمام علي رضي الله عنه سيد المتقين، وإمام العالمين، ومعدن الفصاحة والبلاغة، واصل الشجاعة والفروسية، مع ماض مشرق في نصرة الرسول وتأييده، ومواقفه في غزوات الرسول وحروبه، فلذلك اتجهت الأنظار إليه، ورجحت كفته عند المسلمين، ورأوه في الدين والعلم والفضل درجة راقية لا أعلى منها بعد الخلفاء الذين تقدموه فمالوا

1 - العبر لابن خلدون ج 2 ص 150 ط أولى.

إليه لهذا الفضل الذي كلن عليه بدينه وورعه وعلمه، ولماضيه المشرق في الإسلام لا لعرقه ونسبه، ولا لقرابته من الرسول، فان هذا إذا زانه عند الصحابة والتابعين فانه درة واحدة في تاجه المصرع، ومأثرة صغيرة بجانب مآثره الكثيرة بورعه وعلمه، وما كون شخصيته العظيمة، وأورثه درجته العالية عند الصحابة والتابعين الذين لا يحترمون إلا التقوى، ولا يفضلون إلا ذوي الدين، ولا يقدمون المرء إلا بما يقدمه الإسلام به، ولا يحكمون في الرجال إلا مقاييس الله ورسوله في الناس. فما هي خصائص الإمام علي رضي الله عنه التي أثره الصحابة للخلافة من اجلها؟ لقد طالما عشنا مع العمال الأمويين الذين يميلون إلى الدنيا، ويأتون ما يوجع قلوبنا، فابتعدنا عن جو الصحابة الأخيار، والمتقين، الأبرار الذي يشعرنا إذا انغمسنا فيه يشعر جو الشموس الدافئ للمقرور من لذة وقوة فتنزل رعدته، وينبسط وينتعش بالحياة التي تتدفق فيه. فلنلم بشخصية الإمام علي رضي الله عنه لنقيس من أنواره، وندرك سبب تغلب الأمويين عليه.

نسبه

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم أول هاشمية ولدت لهاشمي. وكان الهاشميون كلهم يتزوجون من غير أسرتهم لما يقصده العرب في ذلك من تقوية الروابط بأصهارهم، ومن الآثار الحسنة في نسلهم، أما الإمام على فأمه هاشمية فاجتمعت له وراثة الهاشميين الزكية من أبويه، واكتنفه فضلهم من جهتيه.

وكانت أمه فاضلة زكية، ومن المسلمين الأولين الذين سارعوا إلى الإيمان بالرسول وأيدوه وناصروه، وتحمسوا لدعوته، وكانت آثارها بهذا في الإمام علي حسنة، فإنها من الأسباب التي جعلت الإمام علي يتحمس للدين منذ حداثته، مع نشأته في حجر الرسول وكفالته.

روى ابن أبي الحديد قال: أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين؛ وكانت الحادي عشر. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمها ويعظمها ويدعوها أمي، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وصلى عليها، ونزل في لحدها واضطجع معها فيه، بعد أن البسها قميصه. فقال له أصحابه: إنا ما رأيناك صنعت يا رسول الله بأحد ما صنعت بها!؟ فقال: انه لم يكن احد بعد أبي طالب ابر بي منها. إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها لتهون عليها ضغطة القبر.

وفاطمة أم علي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء.

وكان الإمام علي اصغر أبنائها، فجعفر أسن منه بعشر سنين، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين، وطالب أسن من عقيل بعشر سنين. وفاطمة بنت أسد رضي الله عنها أمهم جميعا.

بيئته

وقد نشأ الإمام علي في حجر الرسول عليه السلام فتأثر به، وورث منه الفصاحة والطهر، وابتعد به الرسول عليه السلام مما وقع فيه أمثاله من الأطفال قبل البعثة من تقليد الآباء في وثنيتهم، فلم يسجد لصنم كما سجدوا، ولم تحتل قلبه الطاهر عقيدة من عقائد الجاهلية في الأصنام بالإيحاء، لان الرسول عليه السلام تسلمه من أبيه أبي طالب وهو ابن ست سنين، فتبناه وأنشأه أحسن تنشئة، ولما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كان ابن عشر سنين فاسلم وكان من السابقين الأولين. وقد أثرت فيه بيئة الرسول الدينية فكان من كبار المتقين، ومن أئمة الزاهدين، كما ازدهرت وراثته الهاشمية في الفصاحة والبلاغة في بيئة الرسول، فتأثر كل التأثر منذ نعومة أظفاره بفصاحة النبي عليه السلام، ثم زاده جو القرآن، فكان سيد الفصحاء في زمانه، وإمام البلغاء في عصره.

زهده في الدنيا

وأما الزهد في الدنيا فقد كان إمام الزهاد، ما شبع من طعام قط. وكان اخشن الناس مأكلا وملبسا. قال عبد الله بن أبي رافع: «دخلت عليه يوم عيد فقدم جرابا مختوما، فوجدنا فيه خبز شعير يابسا مرضوضا فقدم فأكل. فقلت: يا أمير المؤمنين كيف تختمه؟ قال: خفت هذين الولدين -الحسن والحسين- أن يلتاه بسمن أو زيت» إكراما لوالدهما، وهو يؤثر الخشونة في طعامه لشدة زهده، وعدم رغبته في لذات الدنيا وزخرف الحياة.

قال سفيان : «إن عليا لم يبن آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وإن كان ليؤتى بحبوته من المدينة» والحبوة هي الثوب الذي يحتبى به الإنسان إذا جلس. وهذا دليل على تمسكه بالعادات البسيطة وإبائه أن يتمدن ويتحضر كالملوك والأمراء الماديين.

وكان ثوبه مرقوعا بجلد تارة، وكان يلبس الكرباس[1] الغليظ. فإذا وجد كمه طويلا قطعه بشفرة ولم يخطه، فكان لا يزال متساقطا على ذراعيه حتى يبقى سدى لا لحمة

1 - الكرباس: ثوب القطن البسيط الرخيص

له. وكان يأتدم إذا أئتدم بخل وبملح اقتداء بالرسول عليه السلام الذي كان لا يجد لفقره من الإدام غيرهما، وإذا ترقى علي عن ذلك فبعض نبات الأرض، فان ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل، ولا يأكل اللحم إلا قليلا ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان ! وكان مع ذلك اشد الناس قوة، وأعظمهم أيدا، لا ينقص الجوع قوته، ولا يخون الإقلال منته، وهو الذي طلق الدنيا وكانت الأموال تجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام، فكان يفرقها ويمزقها، ويعطيها لمستحقيها من الفقراء والمساكين، ويضعها في مصالح المسلمين، لا يخص نفسه بشيء، ولا يفعل فعل الملوك الذين يستأثرون بأموال الدولة، ويخصون أنفسهم وشهواتهم بها.

ورعه وعفافه وتحرجه

وكان رضي الله عنه ورعا عفيفا متحرجا في أموال الدولة، يسارع بتفريقها على مستحقيها، لا يكتنزها ويدخرها، ويحرم منها المحتاجين والفقراء. وكان يكنس كل يوم جمعة بيت مال الدولة ويصلي فيه ركعتين. لا يترك فيه شيئا، ولا يستأثر منه بشيء.

روى هرون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بالخورنق «في العراق» وهو فصل الشتاء، وعليه خلق[1] قطيفة، وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك؟ ! فقال: والله ما أرزؤكم شيئا، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة !

وقال يحيى بن سلمة: استعمل علي عمرو بن سلمة على اصبهان فقدم ومعه مال، وزقاق فيها عسل وسمن. فأرسلت أم كلثوم بنت علي إلى عمرو تطلب منه سمنا وعسلا فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن، فلما كان الغد خرج علي واحضر المال والعسل والسمن ليقسم فعد الزقاق، فنقصت زقان فسأله عنهما فكتمه وقال: نحن نحضرهما، فعزم عليه إلا ذكرهما له فاخبره فأرسل إلى أم كلثوم فاخذ الزقين منها فرآهما قد مقصا، فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما، فكان ثلاثة دراهم، فأرسل إليها فأخذها منها ثم قسم الجميع !

قال عاصم بن كليب عن أبيه: قدم على علي مال من اصبهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة، ودعا أمراء الأسباع فاقرع بينهم لينظر أيهم يعطي أولا !

1 - الخلق: الثوب البالي، من خلق يخلق إذا بلى.

ومن تحرجه رضي الله عنه انه كان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: لا أحب أن يدخل بطني إلا ما اعلم.

وقيل إنه رئي وهو يحمل في ملحفته تمرا قد اشتراه بدرهم فقيل له: يا أمير المؤمنين إلا نحمله عنك؟ فقال: أبو العيال أحق بحمله.وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خازنا لعلي على بيت المال. فدخل علي يوما وقد زينت ابنته فرأى عليها لؤلؤة كان عرفها لبيت المال فقال: من أين لها هذه؟ لأقطعن يدها فلما رأى أبو رافع جده في ذلك قال: أنا والله يا أمير المؤمنين زينتها بها فقال علي: لقد تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار وما لبي خدم غيرها.!

ذكاؤه وغزارة علمه

وأما علمه بالشريعة، وتفقهه في الدين، وعلمه لكتاب الله وسنة رسول الله، وذكاؤه في الاستنباط، وفتواه في معضلات المسائل، فقد كان فيه إمام أهل عصره، ومن الأفذاذ المبرزين في زمانه. قال ابن عباس: قسم علم الناس خمسة أجزاء فكان لعلي أربعة أجزاء، ولسائر الناس جزء شاركهم علي فيه فكان أعلمهم به.

وكان عمر رضي الله عنه يرجع إليه في كثير من المسائل التي تشكل عليه في الدين. وقد قال غير مرة: لولا علي لهلك عمر، وقوله: لابقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن. وقوله: لا يفتين احد في المسجد وعلي حاضر.

ونقل السيوطي في الجامع الصغير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ارأف أمتي بأمتي أبو بكر ! وأشدهم في دين الله عمر! وأصدقهم حياءا عثمان، واقضاهم علي» والقضاء لا يكون إلا بالعلم الغزير، والفهم الكثير، والذكاء النافذ.

وهو الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر، وهو الذي أفتى في الحامل الزانية. وهو الذي قال في المنبرية صار ثمنها تسعا،[1] وهو الذي وضع أصول النحو وأملاها على أبي الأسود الدؤلي.

فصاحته وبلاغته

وأما الفصاحة والبلاغة فعلى رضي الله عنه إمام الفصاحة، وسيد البلغاء، وهو

1 - سميت هذه المسالة بالمنبرية لأنه سئل عنها وهو على المنبر فأفتى من غير روية. وبيانها انه سئل في ابنتين وأبوين وامرأة. فقال: صار ثمنها تسع. يعني أن السهام عالت فصار للمرأة التسع.

احد الأئمة الذين شرعوا للناس طريق الكلام الفني. فالحسن البصري وغيره من أئمة الفصحاء تأثروا به مع تأثرهم بالقرآن والحديث. وسلكوا في الخطابة مسلكا فنيا تأثر به عبد الحميد الكاتب بعدهم في أول القرن الثاني وغيره من الذين بدأوا الكتابة الفنية، وشقوا الطريق للجاحظ فبلغ بالأسلوب الفني العربي ذروته، ووصل به على قننه[1] !

قال عبد الحميد الكاتب: حفظت سبعين خطبة من خطب الإمام علي ففاضت ثم فاضت. يعني إنها كانت كثيرة فلم يستطع حفظها كلها.

قال ابن نباتة الشاعر: حفظت من الخطابة كنزا لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة فحفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب.

وكان الأئمة الرستميون في الدولة الرستمية بالمغرب يجلون الإمام عليا ويعظمونه، وكانوا يحفظون خطبه ويخطبون بها في الجمع والأعياد. قال ابن الصغير المالكي في كتابه «سيرة الأئمة الرستميين» وقد عاش في تاهرت وعاصر هذه الدولة: «وأكثر ما يخطب الأئمة الرستميون في صلاة الجمعة بخطب الإمام علي رضي الله عنه».

ولما قال محصن بن أبي محصن لمعاوية وقد أراد أن يتقرب إليه بثلب الإمام رضي الله عنه: جئتك من عند أعيا الناس ! قال له معاوية: ويحك كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سن الفصاحة لقريش غيره ! والعي هو العجز في الكلام، وعدم الإبانة في القول.

تواضعه وحسن خلقه

وأما سماحة الأخلاق، وبشر الوجه، وطلاقة المحيا، والتبسم/ والتواضع للناس، والسهولة والانقياد في المعاملة، فهو المضروب به المثل فيه حتى عابه بذلك أعداؤه. قال عمرو بن العاص لأهل الشام: إنه ذو دعابة شديدة. لبعض من قدره عندهم، ويكون الجرأة فيهم عليه. وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر بن الخطاب لقوله لما عزم على استخلافه: لله أبوك! لولا دعابة فيك.[2] وقال معاوية لقيس ابن سعد: رحم الله أبا حسن فلقد كان هشا بشا ذا فكاهة، يغمزه بهذا، ويريد انه لا يستطيع قيادة العامة، والسيطرة على الجماهير لعدم اتصافه بالصرامة، وبالقوة التي تخضع له الناس.

1 - لا ادري لماذا لا تقبل ناشئتنا على رسائل الجاحظ وكتبه إنها والله هي التي تكون الأديب وتبني ملكة البلاغة والإنشاء في الطالب لا غيرها من الكتب الصحفية الهزيلة التي لا يؤثرها للتكوين إلا المهازيل ضعفاء الهمة والذوق الفني.

2 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 1 طبع الحلي.

كرم نفسه

وأما كرم النفس فانه كان من المتصفين بهذه الخلة النبيلة حتى مع أعدائه الذين يحاربون ويمكرون به. ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء في حروب صفين، وأحاطوا بشريعة الفرات، ومنعوه وجيشه الماء حتى عطش جيشه فأحس بالخطر حمل على عساكر معاوية حملات عنيفة، ودارت له معهم معارك طاحنة، سقطت فيها الرؤوس والأيدي، وملكوا عليهم الماء، وصار أصحاب معاوية في الفلاة لا ماء لهم. فقال له أصحابه وشيعته: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، ولا تسقيهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضا بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب. فقال: لا والله أكافئهم بمثل فعلهم، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة ففي حد السيف ما يغني عن ذلك.

سخاؤه

وكان رضي الله عنه اسخى الناس. وكان دخل الوقوف التي جعلها للفقراء والمساكين أربعة آلاف دينار -وقيل أربعين ألف دينار- في كل عام. قال الإمام علي: لقد رأيتني واني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار، وقيل أربعين ألف دينار.

شجاعته

وأما في الشجاعة والفروسية، وفي البطولة في الحروب، وفي قوة الأيد في القتال، فهو الشجاع الذي ما فر قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحدا إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى الثانية. ولما دعا معاوية إلى البراز ليستريح الناس من الحرب بقتل احدهما قال له عمرو بن العاص: لقد أنصفك. فقال معاوية ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم !

عبادته وقوة قلبه

وأما العبادة فكان اعبد الناس، وأكثرهم صلاة وصوما، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة؛ وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير. وهي أقسى معركة واشد هو لا ما وقع في «صفين»، فيصلي عليه ورده، والسهام تقع بين يديه، وتمر على صماخيه يمينا وشمالا، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته؛ إن هذا لقوة قلبه، وخشوعه في الصلاة، وانقطاعه إلى الله، فلا يشعر بما يقع حوله.

وما ظنك برجل كانت جبهته كثفنه[1] البعير لطول سجوده.

وقال سعيد بن عمرو لعبد الله ذبن عياش: يا عم لم كان صغو[2] الناس إلى علي؟ قال: يا ابن أخي. إن عليا كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله عليه وسلم، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود بالماعون.

وكان رضي الله عنه من العشرة الذين شهد لهم الرسول بالجنة وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح.

وكان من أهل بدر الذين قال الرسول عليه السلام فيهم: «ما يدريكم لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم ووجبت لكم الجنة».

وكان من أهل الشورى الستة الذين اختارهم عمر بعد أن طعن ليختاروا من بينهم رجلا للخلافة.

كان من أعلام الدين والفضل، والفصاحة والبلاغة الذين يجب أن نقتدي بهم ونجعلهم مثلنا العليا، وسلفنا الصالح.

الأسباب النفسية لتغلب معاوية على الإمام علي

لقد رأينا شخصية الإمام علي العظيمة، ومناقبه الشريفة، وخصائصه الممتازة التي عرفها فيه الصحابة فقدموه للخلافة، واختاروه للإمامة، وحملوه قيادة الأمة، فلماذا تغلب معاوية عليه، فجرده مما البسه المسلمون، وامتلك عليه البلاد والعبادة، وحاز الرئاسة لنفسه، وصار ملكا يستبد بأمره، وخرج برئاسة الدولة عن طريق الإمامة العادلة التي ألفها المسلمون، إلى الملكية المستبدة التي ينكرها جمهورهم؟ لماذا نجح معاوية وهو يقصد ما ينكره الناس وينابذونه، وفشل الإمام علي وهو على الإمامة المرتضاة، والخلافة المبتغاة، وعلى هدي الرسول وخلفائه الراشدين؟ وبماذا استطاع معاوية أن يوجه عامته وأنصاره إلى ما يريد، وإن كان ما يشاء يخالف تقاليدهم وعقائدهم، ويعاكس مصالحهم وآخرتهم، وهو ليس في الدين، والعلم، والفصاحة والسابقة في الإسلام، ومواقف التأييد والنصرة للرسول كما كان الإمام علي رضي الله عنه، فما هو الفرق بين الرجلين، وما هو سبب فوز معاوية وفشل الإمام؟.

1 - الثفنة هي كركرة البعير التي تكون تحت صدره يبرك عليها.
2 - الصغو الميل من صغا يصغو إذا مال.

إن السبب هو أن الإمام عليا رضي الله عنه كان لينا أكثر من اللازم، ولم يكن صارما بالمقدار الذي توجبه الرئاسة، وتكون به طاعة العامة لرئيسها، وانقياد الرعية لإمامها. إن الإمامة والرئاسة إذا كان التقوى والعلم أساسها، فالحزم وقوة الإرادة والتصميم هي ركنها الركين، فبدونها لا يستطيع المرء أن يقود غيره، ويسوس سواه، سيما إذا كان المسوس قد ابتلي بمن يفسده على السائس كما كانت رعية الإمام وكان في طبعه العناد وحب الثورة وسرعة التقلب كما كان أهل العراق في عهد الإمام علي رضي الله عنه، فان الدهاء والحزم وحسن التدبير، وقوة التصميم، والصرامة في مواطنها، والشدة في محلها تكون ألزم للإمام والرئيس من كل شيء، وإلا فلا يستطيع استتباع الرعية إلى طريق الرشاد الذي يريده، ولا تكون أزمتها بيده فيوجهها إلى حيث يشاء، بل تتسلط هي عليه وتكون أزمته بيدها، فتقوده إلى الطريق الذي تجمح إليه شهواتها، وتملي عليه إرادتها، فتكون كما تسول لها نزواتها ويوحي به أعداؤه الذين عرفوا كيف يوحون إليها بما يريدون، ويغرسون بجواسيسهم في أعماقها ما يشتهون، ويوجهونها بواسطة صنائعهم وطابورهم الخامس إلى ما يشاءون.

إن الإمام عليا رضي الله عنه وإن كان في درجة أبي بكر وعمر في الزهد والتقوى، وفي العلم والذكاء، ولكنه كان اقل منهما في الحزم والصرامة، وفي التصميم وقوة الإرادة، ألا ترى إلى موقف أبي بكر الحازمة في سقيفة بني ساعدة لما أراد الأنصار أن تكون الخلافة فيهم، فأبى عليهم أبو بكر ذلك. فلولا حزمه وقوة إرادته التي اقنع بها الأنصار بصواب رأيه، وحملهم على ما رآه بثاقب نظره، لا نتثر عقد المسلمين، وافترقت جماعة الصحابة، فيقع الإسلام والمسلمون في بلاء عظيم؛ ثم إصراره رضي الله عنه علي انفاذ جيش أسامة الذي جهزه النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته، رغم إجماع الصحابة كلهم، -ومنهم عمر وعلى وعثمان-، على وجوب استبقاء هذا الجيش في المدينة ليكافح به أهل الردة، فأبى إلا إنفاذه، فأنفذه لحرب الروم، وكان الصواب ما فعل والخير فيما رأى، والحزم والدهاء، وحسن العقبي فيما أتى؛ وموقفه مع أهل الردة وصرامته معهم وتصميمه فيهم، حتى كسر رؤوس العناد والفتنة، ورد القافلة التي جنحت عن طريق الإسلام إلى جادته، واقر الأمور المرتبكة في نصابها، وارجع الدولة التي هاجت وماجت، ووقعت فيها الفوضى بموت النبي صلى الله عيه وسلم إلى حالة الاستقرار والهدوء، والى الانقياد والاتحاد، واجتماع الكلمة التي كانت عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم. لقد استطاع ذلك بحزمه وقوة إرادته، وصرامته في المواطن التي تجب فيها الصرامة، وشدته وإصراره وحمله العامة على ما يريد في الأحوال التي يجب فيها ذلك.

وكان أبو بكر رضي الله عنه محبوبا لدينه وسماحته، مبجلا لعلمه وماضيه في الإسلام، مهابا مطاعا لحزمه وقوة إرادته، لا تستطيع العامة أن تتمرد عليه، بل لا تستطيع حتى الخاصة أن تخالفه، أو تجعله منقادا لما ترى، إلا أن يكون ما أرادت هو ما يقرره الدين، ويؤيده العقل، فحينئذ يكون خضوعه للدين والعقل، لا لنزوات الناس وأهوائهم.

إن الشهادة بلياقة المرء لرئاسة الدولة لا نراها في شهاداته العلمية وحدها، بل نقرؤها في خطوط العبوس التي يكتبها حزمه وقوة إرادته وتصميمه في جبينه ! أما الضاحك الجذلان، البشوش المنبسط دائما، فإذا لاق للصداقة والمحبة، فلا بليق للرئاسة والقيادة !

وكان عمر كابي بكر في الحزم وقوة الشكيمة، وفي الصلابة، في المواطن التي يجب أن يكون الرئيس فيها صلبا، يأمر فلا يجوز إلا الامتثال، ويشير فلا يكون للرعية إلا التنفيذ، ويقرر فلا يكون للناس إلا الخضوع وإتيان ما يراه. انه العقل وهم أعضاؤه، وانه ينظر بنور الدين الذي لا يشير إلا بالصلاح والفلاح، فما كان لهم أن يخالفوه وهو لا يخرج عن نطاقهما، ولا يتصرف إلا بما تمليه هاتان القوتان فيه وقد نجح عمر في الخلافة كما نجح أبو بكر قبله، رغم تعرض الدولة الإسلامية في عهدهما العواصف داخلية كثورات المرتدين، وعواصف خارجية كتنمر الفرس والروم واستعداهم للزحف على المسلمين، فتغلبا على كل المشاكل، وخضعت لهما الرعية، وأطاعت وامتثلت، ورغم كون السواد الأعظم من الدهماء لا زال حديث العهد بالإسلام لم يهذبهم الدين فتكون أزمتهم في قبضته، وهواهم في طريقه، بل لا تزال الغرائز والأهواء هي التي تعصف بأكثرهم فتحدثهم نفوسهم بالثورة والعصيان، ألا ترى كيف ارتدت جماعات غفيرة منهم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وأبت الخضوع لأوامر الدين، والانقياد لخلفية المسلمين.

لقد كان عمر يخفق بالدرة كل رأس تعانده، وينفجر كالصواعق على كل إنسان يتمرد عليه في المقامات التي يرى الصواب فيها بدينه وثاقب نظره؛ وترى العامة تهابه وتحبه وتثق برأيه، فسارت كلها وراءه، فحارب بهم الروم والفرس، وخاض بهم المعارك الهوجاء، وسلك بهم في البحار الثائرة، وهم بارجة عتيدة متماسكة لا تتأثر باصطحاب الأمواج، ولا تنفصل أجزاؤها بضربات اليم المهتاج ! هذا ما يجب أن يكون عليه الرئيس: أن يعبس في مواطن العبوس، فتقرأ العامة القوة في سطور التجاعيد في جبينه فتهابه وتخضع له، وتحس بقوته وصرامته، فيثير ذلك غريزة الخضوع فيها فتنقاد، فيكون الصلاح والنجاح، والخير والفلاح.

إن عليا رضي الله عنه يجب أن يكون في الحزم والدهاء، وفي الصرامة وسعة الحيلة أكثر من أبي بكر وعمر، لان الزمان قد تغير عما كان عليه في عهد أبي بكر وعمر، وأصبح حب الدنيا هو الذي يصرف أكثر النفوس، والرغبة في المادة، والزهد في الآخرة هو الذي يوجه كثيرا من خاصة المسلمين، وتبتلى علي بما لم يبتل به أبو بكر وعمر من منافسيه داهية العرب معاوية، واتخاذه كل وسيلة لإفساد أنصاره عليه، واستمالتهم إليه، إثارة العامة حتى لا تطيعه، ولكنه رضي الله عنه كان لينا أكثر مما يجب، حسن النية أكثر مما ينبغي، لا يصغي إلى ما يشير به عليه وزراؤه كابن عباس، ودهاة أنصاره كالمغيرة بن شعبة، فوقع في أول أمره في غلطات سياسية أثارت معاوية عليه، ومكنته مما يريد من الشغب وإحداث الفتنة التي يصطاد فيها، ويبلغ مرامه بها؛ ولان للعامة فشمست عنه، وتمردت عليه، فصار هو الخاضع لها، يريد ما تريد فلا يسعه إلا متابعتها، وتجنح إلى ما يوحي به جواسيس معاوية فلا يكون له إلا الرضوخ لما تختار، وهو ما يورثه الخيبة، ويجرده من الرئاسة، ويرث معاوية ظهورا عليه، ووصولا إلى ما يريد لنفسه من الملك والسلطان، وتجريد الهاشميين والإمام علي من الخلافة التي آثره المسلمون.

إن معاوية كان ضعيفا بماضيه في الدين، ودرجته في العلم والفصاحة، وفي الفروسية والشجاعة، فاستطاع أن يكون هو القوي بالحزم والدهاء، وبالصرامة والمضاء، والإمام علي رضي الله عنه كان هو القوي بجنوح اغلب المسلمين إليه، وبشخصيته ومناقبه وماضيه، فصار هو الضعيف بلينه وحسن نيته، فوقع فيما وقع فيه، وأجبرته العامة على إتيان ما يعتقد انه بواره، وأرغمته على إتيان أربعة أشياء كانت كلها وبالا عليه وعلى الخلافة الإسلامية، وسببا لفوز معاوية عليه. وهذه الأشياء التي أرغم عليها الإمام علي رضي الله عنه هي: إيقاف الحرب، وقبوله للتحكيم في صفين، ومد الأجل لمعاوية قبل التحكيم، وقبوله لأبي موسى الأشعري وكيله في التحكيم، وقتاله أهل النهروان، وهم أنصاره، والمخلصون من أتباعه، فهاض جناحه، وهدم أركانه.

هذه هي الغلطات السياسية التي أباها عليه خاصته، فخالفهم فيها مجبورا، لتسلط العامة عليه، فعلموا انه لا يستطيع قيادة العامة، والسيطرة على الجماهير التي سممها معاوية بجواسيسه وصنائعه، والقضاء على رؤوس الفتنة والفساد التي بثها معاوية في جماعته، وان الخلافة الإسلامية تحتاج إلى شخصية في دهاء معاوية، وصرامة عمر بن الخطاب، ولما جرد نفسه من الخلافة بقبوله للتحكيم، لان التحكيم في شيء معناه انه غير ثابت الحكم، وبتجريد الحكمين اللذين ارتضاهما لهمن الخلافة، وزالت بيعته عن الأعناق، ورأت تلك الخاصة مكن المسلمين ، وان معاوية إلى نجاح في

أمره، وانه متغلب على الإمام علي، وانه سيحقق ما يريده لنفسه ولبنى أمية من ملك، فتصير الإمامة الديمقراطية، والجمهورية الإسلامية «ملكية» كسروية مستبدة، أعفوا الإمام عليا مما خلع منه نفسه، فقدموا على أنفسهم رجلا يصول بهم على معاوية، ويرده بحزمه ودهائه وامتثال العامة له إلى طريق المسلمين، ويصون الإمامة الإسلامية فلا يقضي عليها الأمويون فيجرون الدولة الإسلامية إلى طريق الملكية المستبدة التي مزقت جماعة المسلمين، ووقع بها العالم الإسلامي في بلاء شديد. وهذه الجماعة هي التي بايعت عبد الله بن وهب الراسي الصحابي إماما لها.

إن الله لا يجمع كل الفضائل النفسية إلا الأنبياء، فما كان لشخص غيرهم أن يكون على التفوق في كل النواحي، وعلى اللياقة لكل الأمور، إنه إذا كمل في نواح فلابد وان يكون على القصور في نواح أخرى. وقد كان علي في الذكاء العلمي أكثر من أكثر وعمر، فلا عجب أن لا يكون مثلهما في الميدان العلمي، ويتمتع بما يتمتعان به من نفاذ ونظر بعيد. وكان علي رضي الله عنه إمام الفصاحة، ومعدن البلاغة، وعلم الإعلام في العلم والشجاعة، فلا بد وأن يكون ضعيفا في نواحي أخرى مما تستوجبه الإمارة، وهو ركن في الخلافة، لان الكمال الإنساني لا يكون إلا للأنبياء، ولا يؤتيه الله إلا لصفوة الرسل، أما العلماء والزعماء فإذا رجحت كفتهم في ناحية شالت في نواحي كثيرة، فلذلك يجب أن يضموا إلى عقولهم عقولا كثيرة، والى مواهبهم مواهب عديدة من الوزراء والمستشارين، ومن خاصتهم الذين هم القدامى في الأجنحة، والنور في الظلمات المدلهمة، فيكملون بهذا، فيضطلعون بأمور الدولة، ويصلون بالأمة إلى كل ما تريد من قوة ونجاح، وسعادة وفلاح. وقد فعل معاوية هذا في أول أمره فكان يصغي إلى عمرو بن العاص، وغيره من دهاء أهل الشام فنجح، وترك الإمام علي رضي الله عنه هذا الشرط فلم يصغ لوزرائه، ودهاء حزبه، كابن عباس، والأحنف بن قيس، والمغيرة بن شعبة، فوصل إلى العاقبة الوخيمة التي وصل إليها.

إن عدم إصغاء الإمام علي رضي الله عنه إلى الوزراء، ولينه للعامة، سيطرتها عليه هو سبب تفوق معاوية وغلبته له. فلنلم بأسباب ثورة معاوية عليه، وبحروبه معه، لنرى بالنصوص والحوادث ما قررناه من عدم إصغاء الإمام علي لخاصته، ولينه للعامة حتى تمردت عليه، ووقع في قبضتها، لنرى بعد ذلك كيف ينشأ الإباضية الذين لابد أن نعرف حقيقتهم لتكون دراستنا لتاريخ المغرب كاملة، ومعلوماتنا فيه صحيحة، وليزول من صدورنا منا أقرته فيه الدعاية الملكية الكاذبة في الكتب التاريخية القديمة التي لا زالت مرجعا لنا نهل منه، وننقل عنه ما يوقعنا في أخطاء كبرى، ويكتب كثيرون في

تاريخ المغرب ما نظلم به المغرب أشنع الظلم,ويصور أولئك المطمئنون إلى هذه المراجع الخاطئة آباءهم وأجدادهم وإخوانهم في صورة بعيدة عن الحقيقة، تسئ إلى المغرب وتزري به، وتبرز النور ظلاما. والجواهر التي تشرق إشراقها في التاج على الهام، حصاة رخيصة توطأ بالأقدام.

فكيف نشأ الإباضية الذين احيوا في المغرب ما أندرس في المشرق من الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، فسعد المغرب بهم وعلا، ودخل بهم أعراسه، ونجا من غطرسة الملوك واستبدادهم، ومن انحرافهم عن طريق الدين في سياسة المسلمين؟.

ثورة معاوية وخروجه على الإمام علي رضي الله عنه.

كان الإمام عثمان رضي الله عنه قد عزل بعض عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمداخلة الأمويين له، فولى بدلهم على الأمصار رجالا من أهله وذويه. وكان قد عزل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم سعيد بن أبي العاص بن أمية بعده، وولى على البصرة عبد الله ابن عامر، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعيد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة، واستعمل على اليمن يعلى بن منية وكان حليف، واستعمل أسيد بن الاخنس بن شريف الثقفي حليف بني زهرة وكان ابن عمه عثمان.

وكان الناس قد سخطوا بعض هؤلاء العمال، وانتقدوا سيرتهم، وشكوا من ظلمهم، واتهموهم برقة الدين، وبالأنانية والأثرة، وباحتجان أموال المسلمين لأنفسهم. وكانوا يطالبون الإمام عثمان بعزلهم، واستبدالهم بغيرهم. وكان هؤلاء العمال من أسباب ثورة العامة على عثمان، ومن الأشياء التي استغلها خصومه لإثارة الفتن عليه، وإحداث القلاقل التي أدت إلى قتله رضي الله عنه.

وكان من هؤلاء العمال الأمويين معاوية بن أبي سفيان بن حرب. وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قد ولاه على الشام، فاقره عثمان في ولايته، وبقي واليا عليه إلى مقتله.

وكان معاوية فيه كفاءة ونهضة، وذكاء ودهاء، وجرأة وطموح، وكان محبا للرئاسة، مشرئبا إلى الملك، ذا همة عالية تأبى عليه أن يسوده غيره، ويتقدمه سواه. وكان كابية قد سر وابتهج بخلافة عثمان لأنه أموي، ولما قتل وجد فرصته، وآلى أن لا تخرج الإمارة من بني أمية، وان لا يحظى بها احد سواه.

شخصية معاوية / استعداد معاوية للحصول على الملك

وكان معاوية قوي الشخصية. رزينا ركينا، ذكيا قوي الذكاء، ينظر بعيدا فيرى مل يكن فيستعد له، وكان حازما طموحا. وقد سماه عمر بن الخطاب لدهائه وقوة شخصيته: كسرى العرب ! وكان معاوية يعلم أيام عثمان في الخلافة لابد أن تنقضي فيبايع الناس عليا لأنه يليه في الدرجة، وهو الشخصية البارزة بعد عثمان، فآلى أن لا يخرج الأمر من الأمويين إلى الهاشميين فاستعد لاستبقاء الإمارة فيهم، فاصطنع أهل الشام، واستمال رؤساءهم، واستطاع بقوة شخصيته دهائه أن يمتلك قلوب أهل الشام فأحبوه وأطاعوه، وصاروا جنده وأنصاره، يغضبون لغضبه ويرضون لرضاه، ويوجههم أنى يشاء، ويصرفهم كما يريد.

وكان التدبير والدهاء وحسن السياسة يقتضي أن يقر الإمام على عمال عثمان سيما الأمويون منهم الذين يعرفون حبهم للدنيا، وغرامهم بالرئاسة، ويبقيهم على أقطارهم وإمارتهم إلى أن يبايعوه ويأخذوا له البيعة على الناس، فتكون تلك الأقطار له، ويكون أولئك العمال من رعيته، تجب عليهم طاعته، وامتثال أوامره. فيستطيع بعد ذلك عزلهم الواحد بعد الآخر بتدبير حكيم، ووسائل بارعة لا تجعلهم يثورون عليه ولكمنه رضي عنه تأثر بانتقاد العامة لأولئك العمال، فرأى أن أول عمل يجب أن يقوم به في إمامته هو تطهير جهاز الدولة، وعزل أولئك العمال قبل أن يبايعه بعضهم سيما معاوية الذي رسخت عروقه في الشام، وكثرت أتباعه، وصار اكبر قوة يمكن أن تثور عليه.

عدم إصغاء علي إلى نصحائه

وقد نصحت عليا خاصته أن لا يتعجل بعزل عمال عثمان، وبينوا له السبب الذي ذكرنا، ولكنه رضي الله عنه لم يصغ إلى نصحهم، فأبى إلا عزلهم، سيما معاوية الذي رأى عزله فرضا عليه، وأراد رضي الله عنه أن يتشبه بالفاروق في صلابته في بعض الأمور، ولكن الفاروق لو كان مكانه وفي أيامه ما تصرف إلا كما أشارت به خاصة الإمام، وهو الإبقاء على عمال عثمان إلى أن تبايعه إقطارهم ويبايعوه ثم يعزلهم بعد ذلك الواحد بعد الآخر بأسلوب بارع يثيرهم عليه.

قال ابن الأثير: روى ابن عباس قال: أتيت عليا بعد مقتل عثمان عند عودى من مكة، فوجدت المغيرة بن شعبة مستخليا به، فخرج من عنده فقلت له: ما قال لك هذا؟ فقال: لي قبل مرته هذه: إن لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس، وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم يضيع به ما في غد أقرر معاوية، وابن عامر، وعمال عثمان على أعمالهم، حتى تأتيك بيعتهم، ويسكن الناس، ثم اعزل من شئت. فأبيت عليه ذلك، وقلت: لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنية في أمري.. قال : فإن كنت أبيت علي فانزع من شئت واترك معاوية، فإن في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع منه، ولك حجة في إثباته. كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام. فقلت: لا والله لا استعمل معاوية يومين، ثم انصرف من عندي، وأنا اعرف فيه انه يود أني مخطئ. ثم عاد إلي الآن فقال: أني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت، فتعزلهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله، وهم أهون شوكة مما كان ! قال ابن عباس فقلت لعلي: أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الثانية فقد غشك. قال: ولم نصحني؟ قلت: لان معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون: اخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون

عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق، مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك. وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية، فان بايع لك فعلى أن اقلعه من منزله، وقال علي: والله لا أعطيه إلا السيف ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز *** بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب. أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحرب خدعة» فقال: بلى. فقلت: أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعدد ورد، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك، ولا إثم لك. فقال يا ابن عباس، لست من هناتك ولا من هنات معاوية في شيء. فقلت: اطعني والحق بمالك «بينبع» وأغلق بابك عليك فأن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان إذا، فأبي علي فقال: تشير علي وارى، فإذا عصيتك فاطعني. -قال: فقلت: افعل. إن أيسر مالك عندي الطاعة. فقال له علي: تسير إلى الشام فقد وليتكها فقال ابن عباس: ما هذا برأي ! معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان، وإن أدنى ما هو صانع أن يحسبني فيتحكم علي لقرابتي منك. وإن كل ما حمل عليك حمل على، لكن اكتب إلى معاوية فمنه وعده فقال: لا والله لا كان هذا أبدا ! وكان المغيرة بن شعبة يقول: نصحته فلما لم يقبل غششته وخرج فلحق بمكة.[1]

خروج معاوية على الإمام علي

وكان الإمام رضي الله عنه مصرا على رأيه، ورغم معارضة ابن عباس والمغيرة نصحهما له، فأبى إلا عزل معاوية عن الشام، فعزله، فتمرد معاوية وأعلن الخروج عليه، واستعد لحربه.

وكان معاوية داهية يعرف كيف يؤرث الحماس في النفوس، وكيف يثير العامة ويهيجها. فاستعمل قتل عثمان كل الاستغلال في إثارة عامة الشام. فعلق قميص عثمان الملطخ بدمائه في منبر المسجد ومعه أصابع زوجته نائلة بنت القرافصة التي قطعها الثوار لما حامت عن زوجها، واتقت السيوف المنهالة عليه بيدها، فجمع معاوية جنده وحاشيته وأنصاره فتباكوا حول القميص، فألهب حماس العامة بهذا المنظر المؤثر وتظاهر بالطلب بدم عثمان واتهم عليا بقتله والتآمر عليه، وهو يريد بهذا أن يجر الإمارة

1 - الكامل لابن الأثير ج 3 ص 101 ط. النيرية.

إليه، ويصطاد ما يريده لنفسه، فثارت عامة الشام على الإمام علي وانضوت كلها تحت لوائه.

استمالة معاوية لرؤساء القبائل ولعمرو بن العاص

واستمال معاوية رؤساء القبائل في الشام، ومناهم وواعدهم المناصب العلية، والخير الكثير في دولته، فقاموا معه يؤيدونه ويحثون أقوامهم على تأييده والحرب معه. واستمال رجالات العرب الذين يعرف حبهم للدنيا وغرامهم بالسلطان كالأشعث بن قيس، وعمرو بن العاص، وذي الكلاع.

روى المسعودي قال: بعث معاوية إلى عمرو بن العاص فسار إليه فقال له معاوية: يا يعني قال: لا، والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك، قال: سل، قال: مصر طعمه، (يعني يوليه عليها ويطلق أيديه في أموالها، يأخذ ما يشاء، ويتمتع بها كما يريد.) فأجابه معاوية إلى ذلك، وكتب له به كتابا.[1]

دعوة الإمام على معاوية إلى الجماعة وإباؤه

وكاتب الإمام علي معاوية فدعاه إلى الجماعة، والدخول فيما دخل فيه المسلمون، وأن يبايعه وينضم إلى جماعة المسلمين، فأبى واستكبر، وصرح بالحرب والعدوان، فلم يجد الإمام علي رضي الله عنه بدا من استعمال العنف وامتشاق الحسام، ورأى أن معاوية من البغاة الذين اوجب الله مقاتلتهم في قوله الحكيم: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله»[2]فجهز جيوشه فسار إلى معاوية ليردعه بالقوة، ويرده إلى طريق الله بحد السيوف، وينفذ فيه حكم الله الذي أمر بمقاتلة أمثاله إلى أن يفيئوا إلى أمر الله. وكان عدد جيش الإمام علي تسعين ألفا فيه كبار الصحابة والتابعين، والعلماء والزهاد، وكل من يعمل لآخرته، ويؤثر ما عند ربه، ويريد للحق أن ينتصر، وللعصبية والأنانية والملكية أن تبيد. وكان مسير الإمام علي من الكوفة لقتال معاوية لخمس بقين من شوال سنة ست وثلاثين من الهجرة.

خروج معاوية إلى الإمام علي ومنعه الماء في صفين

وكان معاوية قد سمع بسير الإمام إليه فزحف في جيوشه، وكان عددهم خمسا وثمانين ألف جندي.

1 - مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 363 ط. التجارية. ما بين قوسين شرح ليس من المسعودي.
2 - سورة الحجرات.

قال المسعودي: «فسبق معاوية إلى «صفين»[1] وعسكر في موضع سهل افيح اختاره قبل قدوم علي، على شريعة لم يكن على الفرات في ذلك الموضع أسهل منها للوارد إلى الماء، وما عداها اخراق عالية، ومواضع إلى الماء وعرة، ووكل أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفا، وبات علي وجيشه في البر عطشا قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء ! فأرسل الإمام علي رضي الله عنه فصيلة من جيشه فقاتلوا أبا الأعور السلمي وجيش معاوية حتى أزالوهم عن الماء، وكسحوهم عن مكانهم. قال المسعودي: وورد علي فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية، وانحاز معاوية بأهل الشام إلى ناحية في البر نائية عن الماء، فأرسل إلى علي يستأذنه في وروده مشرعته، واستقاء الناس من طريقه، ودخول رسله في عسكره، فأباحه الإمام كل ما سأل وطلب منه».[2]

خطر جواسيس معاوية على الإمام

وكان معاوية داهية كل الدهاء فاستغل اختلاط جيشه بجند الإمام، فستمال كثيرا من قواده، منهم الأشعث بن قيس، وبث جواسيسه في جيش الإمام ينفخون في عامته ما يشاء، ويسولون لهم ما يريد، ويهيؤون نفوسهم لتنفيذ الخطة التي رأى بثاقب نظره انه لا بد أن يضطر إليها للتغلب على الإمام.

لقد كان الإمام كريم النفس، حسن النية، فأبى أن يعامل معاوية بالمثل، ثم أذن له في المسير بين صفوفه، والاختلاط بجنده، فلو منعه الماء لعجل بهزيمته، وأرغمه على الاستسلام. وإذا كان هذا ليس من كرم النفس، ومن التدبير الحكيم، فانه يجب أن يحصن جيشه، وألا يدع جواسيس معاوية وصنائعه يسممونه، ويجرون جنده إلى ما يريد، وان يكون متيقظا فيقضي على كل من يخونه من جنده، ويعمل في الخفاء ضده، كالأشعث بن قيس وغيره ممن استمالهم معاوية من قواد الإمام فصاروا يعملون في الخفاء ضده.

دعوة الإمام على معاوية وجيشه إلى الكتاب والسنة والدخول في الجماعة

قال المسعودي: « ولما كان أول يوم من ذي الحجة-سنة ست وثلاثين- بعث علي إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين. ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث علي إلى أهل الشام: أني قد احتججت عليكم بكتاب

1 - صفين. قال ياقوت: موضع بقرب الرقة على الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس.
2 - مروج الذهب ج 3 ص 386 ط التجارية

الله، ودعوتكم إليه، واني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين، فلم يردوا عليه جوابا: «إلا السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا» !

وأصبح يوم الأربعاء وكان أول يوم من صفر فعبأ الإمام علي الجيش، واخرج الاشتر النخعي إمام الناس، واخرج إليه معاوية -قد تصاف أهل الشام وأهل العراق- حبيب بن مسلمة الفهري، وكان بينهم قتال شديد سائر يومهم، وأسفرت عن قتلى من الفريقين جميعا، وانصرفوا».

دعوة الإمام علي معاوية إلى مبارزته

وكانت الحروب في أول الأمر مناوشات، ومعارك صغيرة لا يشترك فيها إلا جزء من الجيشين، ثم استعر الأوار، واشتدت الهيجاء، وقاد الإمام جيوشه بنفسه، وركب بغله النبي الشهباء، وتعمم بعمامته، وخاض أتون المعركة يجندل الأقران، ويهزم جيوش معاوية ويردهم إلى الوراء. وقد دعا معاوية إلى مبارزته فأجفل عنه وخاف من فتكه. قال المسعودي :»ثم نادى علي: يا معاوية، علام يقتل الناس بيني وبينك؟ هلم أحاكمك إلى الله، فينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال له عمرو بن العاص: قد أنصفك الرجل. فقال له معاوية: ما أنصفت ! وانك لتعلم انه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره ! فقال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته. فقال له معاوية: طمعت فيها بعدي، وحقدها عليه.

دهاء عمرو وكرم نفس الإمام

وقد قيل في بعض الروايات: إن معاوية اقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا أن يبرز إلى علي، فلم يجد عمرو من ذلك بدا، فبرز، فلما التقيا عرفه على وشال السيف ليضربه به، فكشف عمرو عن عورته، وقال: مكره أخوك لا بطل. فحول على وجهه عنه «لحيائه وكرم نفسه» وقال: قبحت، ورجع عمرو إلى مصافه».[1]

وكانت المعركة الكبرى في صفين هي معركة يوم الهرير وليلة الهرير استمرت يوما وليلة، وإنما سميت معركة يوم الهرير لشدتها وعنفها فكان لا يسمع فيها إلا هرير الأبطال يحمل بعضهم على بعض، ويجندل بعضهم بعضا. وكان أبطال هذه المعركة إنما هم القراء، وهم جماعة من الصحابة وكبار التابعين وخاصة الإمام علي وزبدة أنصاره، وكان يقودهم عمار بن ياسر الصحابي المشهور الذي قال له الرسول عليه السلام: تقتلك الفئة الباغية فقتل في هذه المعركة الفاصلة، قتله جيش معاوية،

1 - مروج الذهب ج 2 ص 397 ط التجارية

فكان قتله من الأدلة والبراهين على بغي معاوية، وخروجه على الجماعة، ومخالفته لأمر الله، وما قوى عزائم كثير من عامة الإمام وثبت قلوبهم في القتال، وزادهم يقينا أنهم على الهدى. وكان من الأبطال في هذه المعركة الكبرى الاشتر النخعي. وقد اشتد وطيسها ورجحت فيها كفة الإمام، وانتقضت صفوف معاوية، وانهزم أصحابه، وقارب جيش الإمام خيمة معاوية، فرأى الموت الأحمر يسرع إليه، والهزيمة تحل بجيوشه، فداخله الرعب فهم بالهرب، ولكنه كان قوي القلب صنديدا، فعلم أن النصر إنما يكون بالصبر في ربع الساعة الأخير، وان ثباته قد يفتح له بابا للفرج، ويفتق له كوة للنجاة والنجاح، فتماسك وثبت وترك منا هم به ! وكان معاوية بعد ذلك يحدث فيقول: لما وضعت رجلي في الركاب ذكرت قول عمرو بن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي *** وأخذني الحمد بالثمن الربيح

وإقدامي على المكروه نفسي *** وضربي هامة البطل المشيح[1]

وقولي كلما جشأت وجاشت[2] *** مكانك تحمدي أو تستريحي

فأخرجت رجلي من الركاب وأقمت، ونظرت إلى عمرو فقلت له: اليوم صبر وغدا فخر فقال: صدقت، واشتدت المعركة واستمرت الهزيمة في جيش معاوية، وانتقضت كل صفوفه، وأمسى النصر محققا للإمام علي، ورأى القراء والاشير الظفر والنجاح فعلموا أن دماء قتلاهم لم تذهب هدرا، وأيقنوا بالنصر المبين، وتأكد لديهم انهزام معاوية وحزبه. ورأى معاوية الهزيمة النكراء تحل به، فعلم أن المعركة إذا استمرت فانه سيكون طعمتها، وانه إما أن يثبت فيقتل، أو يهرب وهذا عنده شر من القتل وكان داهية وقد اصطنع عمرو بن العاص لمثل هذه المآزق، واعده لمثل هذا اليوم العصيب ففزع إليه فقال: هلم مخبآتك يا عمرو. فقال عمرو: «هل لك في أمر اعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة، فاني عليم بأهل العراق» قال: نعم: نرفع المصاحف ثم نقول «لهم» هذا حكم بيننا وبينكم، فان أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول، ينبغي لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى اجل. وكان معاوية يعلم أن جواسيسه وصنائعه في جيش الإمام علي سيقبلون هذه الدعوة ويغتنون هذه الفرصة لبث الشقاق والبلبلة ويعملون لإيقاف الحرب التي أمسى معاوية في لهوتها تطحنه لتزدرده، فينجو من الهزيمة، ويفلت من النطع الذي أوقف فيه. فقبل مكيدة عمرو فرفعوا

1 - المشيح: المقبل على عدوه المانع لما وراء ظهره.

2 - جشأت وجاشت: ارتفعت نفسه من الفزع.

المصاحف على الرماح وقالوا: هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم. من لثغور الشام بعد أهله؟ من لثغور العراق بعد أهله؟

وكان معاوية قد اصطنع رؤساء كثيرين من جيش الإمام علي، منهم الأشعث ابن ألقيس الكندي، وكان مسموع الكلمة في قومه، كثير الأتباع من قبيلته، فوجد الأشعث وحزبه فرصتهم فقبلوا إيقاف الحرب والرجوع إلى التحكيم، فبثوا الدعاية في العامة البسيطة، واروهم أن معاوية يدعو إلى تحكيم الكتاب، فما حكم به خضع له. وكانت كلمة «الكتاب» سحرية. والرضوخ لحكم الله وصف جليل، فاستغل الأشعث وحزبه هذه المفاتيح السحرية، فموهوا بها على العامة، واستغلوا أيضا ضجر كثير من العامة لطول القتال، وسامهم من امتداد المعارك، فاستمالوا جمهورا غفيرا منهم، وأصبح اغلب الرأي العام من العامة في جيش الإمام معهم، فذهبوا إلى الإمام في هذا الجمع الغفير الذي حمسوه واروه أن قبول التحكيم دين لا بد من أتباعه، فطالبوا الإمام عليا بإيقاف الحرب وقبول التحكيم، وهددوه وأرعدوا عليه فلان لهم، ورضخ لمطالبهم، فكانت الطامة الكبرى.

وكان الاشتر النخعي يقود جيش القراء فرأوا المصاحف فلم يبالوا بها، وأيقنوا إنها خدعة، ومضوا قدما في الحرب ليجهزوا على معاوية الإجهاز الأخير، ويجنوا ثمرة كفاحهم وقتالهم الذي خاضوه في تسعين معركة في مائة يوم وعشرة أيام قضوها في صفين في لامة الحرب ومكارهها، وسقط في هذه المعارك من شهدائهم وخيرة أبنائهم وإخوانهم خمسة وعشرين ألف شهيد منهم خمسة وعشرين من الصحابة، ورأوا النصر على كثب، وقربوا من معسكر معاوية وخيمته، ولم تبق إلا خطوة قصيرة فينتهي القتال بانتصار رائع للإمام ! فما هالهم إلا خضوع الإمام للعامة التي يقودها الأشعث بن قيس وصنائع معاوية، وأمر الإمام لهم بوقف القتال وقبول التحكيم. فأبى الاشتر وأبى الذين معه وهم من الصحابية وكبار التابعين قبول التحكيم، فاستمروا في القتال حتى أرغمهم الإمام علي بالكف ووضع السلاح. فبلغ معاوية ما يريد.

قال ابن الأثير فلما رأوا -»الأشعث وأنصاره»- المصاحف قالوا: نجيب كتاب الله فقال لهم علي: عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم فان معاوية وعمرا وابن أبي معيط وحبيبا ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. أنا اعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالا ثم رجالا. ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ووهنا ومكيدة ! فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله. فقال لهم علي فاني إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه فأبى الأشعث ومن

معه إلا إيقاف الحرب، فخضع الإمام علي. فافلت النصر من يده. وكان يجب أن يعلمن من قبل لرعيته الطاعة، ويعودهم الانقياد، سيما إذا كان ما يأمر به قد أوجبه الدين كهذا الذي هم فيه من قتال البغاة. فقد أمر الله واوجب أن يقاتلوا حتى يرجعوا إلى الجماعة، ويفيئوا إلى أمر الله. وكان يجب علي الإمام أن يكون صارما في هذه المواطن، فلا يفتح باب المفاوضة والجدال مع العامة في شيء حكم الله فيه فأصبح فرضا واجبا لا يجوز خلافه، ولا يأذن لهم أن يجادلوه ويخاصموه في ترك شيء أيقن بالصواب فيه، وإتيان شيء يعتقد خلافه للمصلحة، ونايه عما أمر الله به، ولكنه رضي الله عنه كان لينا فاستغل صنائع معاوية كالأشعث وأنصاره لينه، فاثأروا العامة عليه فأرغمته على ما أراد لها أنصار معاوية فرضخ لما تريد؛ ولو صمم على ما أرى من وجوب الاستمرار في القتال آونة قصيرة، ووقف موقفا حازما صارما مع الذين طلبوا منه إيقاف الحرب، وقد رأى النصر والنجاح، ورأى معاوية ينكسر ويتضعضع، وصفوفه تنتقض وتتراجع، وجنده يداخلهم الوهن والجزع؛ لو وقف موقفا صارما مع الأشعث وأنصاره، فضرب على أيديهم، وأدبهم بما به يرتدعون لو جد من جنده الكثيف ومن خاصته التي تأبى التحكيم من يعينه على ذلك التأديب ومن يطهر جيشه من صنائع معاوية وجواسيسه، فيضمن لنفسه ولجيشه النتيجة الحسنة وهي: قمع الملكية، والإبقاء على الإمامة العادلة؛ والجمهورية الإسلامية التي جاء بها الدين، هذه النتيجة التي حاربت جيوشه من اجلها، وخاض لتحقيقها القراء المعارك الفاصلة المهولة، فاستطاعوا أن يقوضوا جيوش معاوية القوية، وضحوا من اجلها بخمس وعشرين ألفا من شهدائهم الأبرار.

لقد ابتلى أبو بكر وابتلى عمر بمطالبة العامة لهما بأشياء لم يحكم فيها الدين، ولكن المصلحة كانت في غير ما طالبت به العامة، والنجح والفلاح وما يراه الخاصة غير ما تريد تلك الدهماء، فكانا صارمين قويين فرضخت العامة لنا يريدان، ولم يرضخا هما للعامة ! عن لين الإمام علي وانقياده للعامة هو الذي جرأها عليه، فلم تعد تهابه وتخشى سطوته، وأمست مقاليده بيدها، فصارت تستطيع أن ترغمه لما تشاء، وتدفعه لما تريد.

كان جيش الإمام هو المنتصر فأمر بإيقاف القتال، قبول التحكيم، وأرسل إلى القراء الذين كان يقودهم الاشتر بعد استشهاد عمار بن ياسر فأمرهم بإيقاف المعركة، فأبوا عليه إيقاف الحرب، ورفضوا قبول التحكيم، وسألوه أن يمهلهم ساعة في المعركة ليجهزوا على معاوية، أنهم على أبواب معسكره ليحتلوه، وهو قد هيأ فرسا شديدة سريعة العدو، ليهرب عليها، فيحققوا للإمام ولأنفسهم النصر الذي سفكوا دماءهم

من اجله. وكانوا يوقنون أنهم إذا أوقفوا الحرب، ومكنوا معاوية من تنظيم صفوفه فسيحتاجون إلى آلاف من الشهداء يضحون بها للتغلب عليه، أو تنقلب النتيجة فلا تكون لصالحهم. فاحتجوا على الإمام على في الرضوخ للعامة، وسألوه رفض التحكيم، ولكن الإمام للينة كان قد مكن الأشعث بن قيس وحزبه من أنصار معاوية أن يؤلبوا العامة عليه، ويجمعوا حولهم جموعا غفيرة منها زحفوا بها على الإمام فأرغموه على إيقاف الحرب وقبول التحكيم. وكان يجب على الإمام ولو تألب جمهور كبير من العامة عليه أن يداورهم ويطيل المفاوضة معهم ليطول الوقت فيبلغ الاشتر والقراء غايتهم في المعركة، ويتحقق النصر على معاوية، ثم لا تستطيع تلك العامة وأولئك الجواسيس أن يستمروا في تعنهم، وفي العمل ضده لأنه يقمعهم بجيوشه فلا يخاف أن يقع بين نارين بثورتهم عليه، ولا أن يجد عدو له يحاربه سببا للضعف بشغب العامة عليه فيستغله. وقد بلغ من تعنت العامة وصنائع معاوية، ومن زوال هيبة الإمام عندها، وانعدام احترامه لديها أن هددته بالقتل، كما فعلت بعثمان، إن لم يوقف الحرب ويقبل التحكيم، أو تأسره فتسلمه لمعاوية فيحكم فيه بما يريد ! وبلغ الإمام بلينه إلى هذه الحال المؤسفة، وصار إلى هذه العاقبة التي آلت القراء، وصيرتهم يفكرون أن يعتزلوه احتجاجا إن لم يأخذ بالحزم فيستطيع ضبط العامة، والتصرف في الأمور بدينه وصلاحه، وبما يراه بثاقب نظره ويراه خاصته، فيتوفر فيه شرط من أول ما يجب أن يكون في الإمام، فيرفض التحكيم، ويعاود الكرة على معاوية الذي يعمل للقضاء على الجمهورية الإسلامية العادلة، والإمامة التي أمر بها الدين، وإحياء الملكية المستبدة التي يشقى بها المسلمون؛ لقد صارت خاصة الإمام والقراء في جيشه يتذمرون ويتأسفون لوقوع الأزمة في يد العامة ليلن الإمام ورضوخه لها، واتجاه سير الأمور لغير صلاح الدولة، ويعزمون أن يعتزلون الإمام إذا هو استمر في طريقه، ويطالبون بكل الوسائل أن يرفض التحكيم، ويمضي قدما في حرب البغاة كما أمر الله.

إن لين الإمام الذي يضره هو الذي اذهب هيبته، فأرغمه صنائع معاوية الذين ألبوا العامة عليه على إيقاف الحرب وقبول التحكيم، فأرسل إلى قائد المعركة الذي يجني النصر الاشتر النخعي ومعه القراء والخاصة فأمره أمرا صارما بإيقاف المعركة.

«سئل إبراهيم بن الاشتر عن الحال كيف كانت يومئذ في «صفين» فقال: كنت عند علي رضي الله عنه حين بعث إلى الاشتر «قائد المعركة» ليأتيه، وقد كان الاشتر اشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه علي يزيد بن هانئ: أن ائتني، فاتاه يزيد فابلغه، فقال الاشتر: ائته فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك علي فاخبره؛ فما هو إلا

أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج، وعلت الأصوات من قبل الاشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام. فقال القوم لعلي «وهم الأشعث بن قيس وحزبه صنائع معاوية، والعامة التي اثروا فيها وجذبوها إليهم» قالوا لعلي: والله ما نراك إمرته إلا بالقتال ! قال: أرأيتموني سارت رسولي إليه ! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وانتم تسمعون ! قالوا: فابعث إليه فليأتك؛ وإلا فو الله اعتزلناك ! فقال: ويحك يا يزيد ! قل له لقبل إلي فان الفتنة قد وقعت. فاتاه فاخبره، فقال الاشتر، أبرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال أما والله لقد ظننت إنها حين رفعت ستوقع خلافا وفرقة. إنها مشورة ابن النابغة «يعني عمرو بن العاص» ثم قال ليزيد بن هانئ: ويحك ! ألا ترى إلى الفتح؟! ألا ترى إلى ما يلقون؟! ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟! أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟! فقال له يزيد أحب انك ظفرت ها هنا وان أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه «يقتل أو « يفرج عنه، ويسلم إلى عدوه؟ قال: سبحان الله! والله لا أحب ذلك، قال: فإنهم قد قالوا له، وحلفوا عليه، لنرسلن إلى الاشتر فليأتينك، أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا ذ عثمان، أو لنسلمنك إلى عدوك» فلم يسع الاشتر قائد الإمام، والقراء الذين معه وهم خاصة الإمام والمخلصون من أنصاره إلا إيقاف المعركة والرجوع إلى معسكر الإمام.

قال إبراهيم بن الاشتر: فاقبل الاشتر «إلى الإمام وحوله الأشعث بن قيس وأنصاره والعامة الذين ألبهم عليه» فصاح في الأشعث وحزبه: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتهم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وتركوا سنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم ! أمهلوني فواقا[1] فأنى قد أحسست بالفتح، قالوا: لا نمهلك، قال: أمهلوني عدوة الفرس؛ فاني قد طمعت في النصرة، قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك.

قال إبراهيم: فسبهم الاشتر وسبوه، وضربوا بسياطهم وجه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، وصاح بهم علي فكفوا. وقال الاشتر، يا أمير المؤمنين، احمل الصف على الصف تصرع القوم ! فتصايحوا: إن أمير المؤمنين قد قبل الحكومة، ورضي بحكم القران. فقال الاشتر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين.[2] فاقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وعلى ساكت لا ينبس بكلمة، مطرق إلى الأرض !

1 - الفواق : ما بين حليتين يقال انتظرتك فواق ناقة .

2 - لقد قال الاشتر هذا تبكيتا لهم وتحديا لأنه يوقن أن الأمير غير راض، ولكنهم أرغموه.

ثم قام «الإمام علي» فسكت الناس كلهم فقال: أيها الناس، إن أمري لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك، وأنها فيهم أنكى وأنهك؛ إلا أني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا، وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون ثم قد !

خوف معاوية وحيرته

وكان معاوية لما رفع المصاحف ورأى مع ذلك جيش علي يزحف نحوه، ويتقدم ليحتل معسكره، والقراء والاشتر باتون على ما بقي من مقاومته، وثبت في الميدان من جنده، قد خاف أن يكون علي قد رفض إيقاف الحرب وقبول التحكيم، فبات في هم، واخذ الأهبة للهرب إذا اقتحم الاشتر معسكره، وهزم البقية الباقية من جيشه. فلو أن الإمام طاول العامة والأشعث وداورهم زمنا لربح الوقت، ومكن الاشتر والقراء من دخول معسكر معاوية والإجهاز عليه، فيهرب معاوية أو يقتل أو يؤتى به أسيرا، ولكن الإمام رضي الله عنه لينه، وسرعة انقاده، أصغى للمهرجين والمشاغبين، ولصنائع معاوية وجواسيسه، وفتح لهم باب التحكم عليه، وفتق على نفسه بابا للفتنة بتساهله مع الدهماء، ووقع في كرب عظيم، وفي مأزق حرج. فأسرعت جواسيس معاوية إليه تنبئه بان خدعة المصاحف قد أثمرت، ومكيدة التحكيم قد آتت أكلها، وان صنائعه قد استغلوها وأثاروا العامة على الإمام، وقسموا جيشه، فاستغل بعضهم ببعض، وأمسى الإمام في بلاء كبير، فتنفس معاوية الصعداء فاستمسك، وعاودته الحياة، وتجدد فيه الأمل، وقويت فيه الثقة بالنفس، ورجا بلوغ أغراضه بجيشه الخفي الذي بثه في جيش الإمام، فقام بواجبه أحسن قيام.

حدث ابن عباس قال: حدثني معاوية انه كان يومئذ قد قرب إليه فرسا له أنثى، بعيدة البطن من الأرض ليهرب عليها؛ حتى أتاه آت من أهل العراق فقال له: أني تركت أصحاب علي في مثل ليلة الصدر من منى،[1] فأقمت، قال: فقلنا له: فاخبرنا من هو ذلك الرجل، فأبى وقال: لا أخبركم من هو.[2]

اجتماع الأشعث بمعاوية ليتفقا على الخطط المقبلة

وكان الأشعث بن قيس هو رأس البلاء الذي حل بالإمام، وزعيم صنائع معاوية، واكبر

1 - ليلة اليوم الرابع إذا خرج الحجاج من وادي منى.
2 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 2 ص 225 ط الحلبي.

منابع هذه الفتنة، وكان عثمانيا، قد ولاه الإمام عثمان على أذربيجان، فصار من صنائع الأمويين، يتمنى أن يكون الملك لهم لتتصل ولايته، وينال ما يريد من الحظوظ لنفسه. وكان الأشعث لما يملك من أتباع العامة له، ولما له من كثرة الأتباع من قومه وصنائعه ذا نفوذ على الإمام، يطالبه بأشياء فلا يسعه إلا الرضوخ، خوفا من تحريك أتباعه فيهتاجون عليه. ولما توقفت الحرب ونجا معاوية من شر الاستئصال، بدأ الأشعث في العمل لإدراك الغرض الثاني وهو تنفي التحكيم وإبرامه وأحكام عقدته، فسأل الإمام عليا أن يجتمع بمعاوية ليرى ما يريد بالتحكيم، وما خطته فيه، وهو يريد الاتصال بمعاوية ليخبره بما جرى، ويتفق معه على الخطط المقبلة، فلم يسع الإمام إلا الإذن له، فأسرع الأشعث إلى معاوية فاجتمع به، فاغتنم معاوية الفرصة فيه، وواعده ومناه، وأكد صلته به، واتفق معه على الخطط المقبلة التي تورث الإمام الفشل في معركة التحكيم، فيفوز عليه، ويبلغ مراده، فيجرد الإمام من إمامته، فيستأثر بالملك الذي يريده لنفسه.

المكيدة في اختيار الأشعري

قال المسعودي: ثم إن الأشعث قال للإمام: «إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد، قال: ذلك إليك فاته إن شئت، فاتاه الأشعث فسأله، فقال له معاوية: نرجع نحن وانتم إلى كتاب الله، والى ما أمر به في كتابه: تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل، نأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في كتاب الله ولا يخرجا عنه، وننقاد جميعا إلى ما اتفقنا عليه من حكم الله، فصوب الأشعث قوله، وانصرف إلى علي فاخبره بذلك، فقال أكثر الناس «وهم صنائع معوية وأتباعهم !»: رضينا وقبلنا واطعنا، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال الأشعث «وحزبه»: رضينا نحن بابي موسى الأشعري. فقال علي: قد عصيتموني في أول هذا الأمر فلا تعصوني الآن، أني لا أرى أن أولي أبا موسى الأشعري، فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلا بابي موسى الأشعري. قال: ويحكم ! هو ليس بثقة، قد فارقني وخذل الناس عني وفعل كذا وكذا، وذكر أشياء فعلها أبو موسى، ثم انه هرب شهورا حتى أمنته، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك، فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فينا مضريان، قال علي: فالاشتر. قالوا: وهل هذا الأمر إلا الاشتر، قال: فاصنعوا الآن ما أردتم، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه».[1]

إباء خاصة الإمام للأشعري وكيلا له

قال ابن الأثير: وجاء الاشتر عليا فقال: ألزني[2] بعمرو بن العاص فوالله لئن ملت عيني

1 - مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 401، 402 ط التجارية.
2 - ألزني ألصقني.

منه لأقتلنه، وجاء الأحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين انك قد رميت بحجر الأرض، وإني قد عجمت أبا موسى، وحابت اشطره فوجدته كليل الشفرة قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في اكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فان أبيت أن تجعلني حكما فاجعلني ثانيا أو ثالثا، فانه لن يعقد عقدة إلا حللتها، ولا يحل عقدة اعقدها لك إلا عقدت أخرى احكم منها، فأبى الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب. فقال الأحنف: إن أبيتم إلا أبا موسى فادفئوا ظهره بالرجال. وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتب «عقد التحكيم» بحضوره فكتبوه فألزم الإمام نفسه ما يحكم به الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص. فتمت المكيدة الثانية التي دبرها معاوية للإمام.

كيد الأشعث وحزبه بمد الأجل لمعاوية

وجد الأشعث وحزبه في تمام المكيدة الثالثة وهو مد الأجل قبل التحكيم، وإعطاء الوقت الطويل لمعاوية ليجدد قواه، ويستعد، ويوالي ما يشنه على الإمام من حرب حفية بالأشعث بن قيس وصنائعه الكثيرون الذين يدسهم على الإمام، ويكونهم في جيشه، وفي رعيته.

وكانت كتابة عقد التحكيم في آخر صفر، من سنة سبع وثلاثين، وجعلوا اجل التحكيم في رمضان من السنة أو بعده، فأعطوا لمعاوية سبعة أشهر كاملة يدبر فيها ما يدبر.

رجوع الإمام علي إلى الكوفة مصدع الصفوف

وقد أبت خاصة علي المهلة وأرادوا أن يقع هذا التحكيم الذي يرون بطلانه والذي اكره الإمام عليه في صفين بعد العقد مباشرة، قبل أن تفترق جيوش الإمام وقبل أن يستجم معاوية، ويحوك الدسائس التي تزيد في الفتنة التي أشعلها على الإمام فثارت العامة التي يحركها الأشعث وحزبه فأرغمت الإمام على قبول هذا الأجل الطويل والوقوع فيما أراد له معاوية أن يقع فيه ! فرجع الإمام إلى الكوفة مضعضع القوى مفترق الصفوف، قد أوقعه معاوية في إشراكه، ودفعه إلى العاقبة التي يريدها له فتمت المكيدة الثالثة على الإمام. أما معاوية فرجع إلى الشام، ففرق جيوشه فرجع كل إلى بلده، لأنه يعلم انه سوف لا يحتاج إلى الجيوش الحربية في تجريد الإمام من إمامته، وان عمرو بن العاص في يوم التحكيم، وجيشه السري في الكوفة الذي يقوده الأشعث بن قيس، سيحققان كل ما يريد، ويضمنان له أن يتتوج بتاج الملك الذي يتمناه، وان الإمام عليا لم تعد له سيطرة

على الجماهير، فقد زالت هيبته، وأصبح في قبضة الجماهير التي يوجهها الأشعث وصنائعه كما يشاءون.

دعاية الأشعث الواسعة وهجوم عروة بن أدية عليه

وكان الأشعث لما كتب عقد التحكيم قد ذهب به يقرؤه على الناس، ويزينه لهم، زيادة في تثبيته، وتكثيرا لجمعه الذي رضي بالتحكيم، فدخل على بني تميم في معسكرهم وكان اغلبهم يأبى التحكيم فهم أن يقرأ عليهم صحيفته فانبري له عروة بن أدية التميمي فأهوى عليه بسيفه. ولكن الأشعث هرب فوقعت الضربة بجز بغلته، ولو قتله لنجا الإمام من الشرور التي سيجرها عليه.

حزن الإمام علي وتأسفه لما اجبر عليه

ورجع الإمام علي إلى الكوفة وهو مقروح الفؤاد، حزين القلب، قد ساءه ما حل به، متشائما من المستقبل الذي يقبل عليه. قال ابن الأثير يذكر ما قاله الإمام بعد إبرام عقد التحكيم يؤنب العامة ومن اجبره عليه: «والله لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وايقطت منة، وأورثت وهنا وذلة !».[1]

رأي خاصة الكوفة في التحكيم

وقال ابن الأثير»ولما كان علي بظاهر الكوفة في طريقه من صفين» لقيه عبد الله لن وديعة الأنصاري فدنا منه وسلم عليه وسايره، فقال له علي: ما سمعت الناس يقولون في أمرنا؟ قال: منهم المعجب به، ومنهم الكاره له. قال: فما قول ذوي الرأي؟ قال: يقولون: إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه، وكان له حصن حصين فهدمه، فمتى يبني ما هدم، ويجمع ما فرق !! ولو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظفر أو يهلك كان ذلك الحزم.[2]

وكان خروج الإمام علي إلى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين، ورجوعه منها في آخر صفر سنة سبع وثلاثين، ومدة إقامته بصفين ثلاثة أشهر وعشرين يوما، وعدد جيشه غير الخدم تسعون ألف مقاتل، وعدد جيش معاوية خمسة وثمانون ألف جندي غير الخدم والعبيد، وعدد المعارك التي خاضها مع معاوية تسعون معركة والقتلى من الطرفين سبعون ألف قتيل، خمسة وأربعون ألفا من جيش معاوية، وخمسة وعشرين ألفا من جيش الإمام، ومن هؤلاء الشهداء من جيش الإمام عمار بن ياسر وهاشم بن

1 - الكامل ج 3 ص 163 ط المنيرية.
2 - الكامل لابن الأثير ص 164 ج 3.

عينية. وخزيمة بن ثابت. وهم من كبار الصحابة. وثلاثة وعشرين آخرون من الصحابة الذين كانوا في جيش الإمام.

حزن الكوفة وعويلها

قال ابن الأثير: ثم اقبل علي حتى حاذى سكة الثوريين « في الكوفة» فسمع البكاء فقال: ما هذه الأصوات؟ فقيل البكاء على قتلى صفين فقال: أما إني اشهد لمن قتل منهم صابرا محتسبا بالشهادة. ثم بالفائشيين فسمع مثل ذلك. ثم مر بالشباميين فسمع رجة شديدة فوقف فخرج إليه حرب بن حبيل الشبامي فقال له علي: أيغلبكم نساؤكم؟ ألا تنهونهن عن هذا الرنين؟ قال: يا أمير المؤمنين لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثا قدرنا على ذلك. ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومائة فليس دار إلا وفيها البكاء».[1]

إن نساء الكوفة وهن نساء الصحابة والتابعين. وبنات العرب الأحرار والمسلمين الأولين. لا يبكين لمجرد فقد الأحباء. فإنهن بنات يعرب المؤمنات. يستقبلن نعي شهدائهن بالزغاريد. ويعددن يوم موت قتلاهن في معركة الأجر والشرف يوم عيد. فيزغردن مع الحور لان شهداءهن يزفون إلى الجنة. ويفرحن لان قتلاهن في عرسهم بالفردوس يحظون بنعيم الله الخالد. ولكن بكاء نساء الكوفة المرير. وعويلهن الشديد كان لحسرتهن على ما منى به إمامهن وجيشهن في صفين. ولما أضاع عليه معاوية بكيده من نصر مبين قد أحرزه. وظفر وفتح كان شهداؤهن قد مهروه بدمائهم. وضحوا فيه بأرواحهم. ثم افلت من الإمام فذهبت جهوده ودماء شهدائه أدراج الرياح. إن بكاءهن على قتلى صفين يمازجه حزن شديد. وحسر كبير على ما فقد الإمام من نصر كان في يده. وظفر على الأعداء كان قد امتلكه.

شماتة الأمويين

قال ابن الأثير: «ثم مضى الإمام علي في طريقه بالكوفة» حتى مر بالناعطيين. وكان جلهم عثمانية. فسمع بعضهم يقول: والله ما صنع علي شيئا. ذهب ثم انصرف في غير شيء. فلما رأوه ابلسوا» فدخل علي رضي الله عنه الكوفة ودخلت معه العامة والأشعث وحزبه الذين حملوه على التحكيم. وبعض خاصته الذين أنكروا التحكيم. كابن عباس والأحنف بن قيس. وكانوا لقرابتهم منه وصلتهم به لا يستطيعون إظهار كل ما في نفوسهم فيحتجون ويحتدون ويعملون في قوة مقنعة تليق بجلالة ومكانته السامية في الدين. لحمله على ترك التحكيم. ومعاودة الكرة على معاوية قبل أن تبرأ

1 - الكامل لابن الأثير ص 164 ج 3.

جراحه. ويذهب الجزع عنه. ويشتد قلبه. وتعاوده الثقة بالنفس. أما القراء الذين كانوا مع الاشتر في معركة النصر. وهم خاصة الإمام ونصحاؤه. وقد أبوا في شدة إيقاف الحرب وقبول التحكيم. فإنهم لم يدخلوا الكوفة مع الإمام. ولكن اعتزلوه احتجاجا وإنكارا للتحكيم. لا خلعا له وثورة عليه كما يدعي الملكيون المغرضون من المؤرخين. فنزلوا «حروراء» وهي قرية من قرى الكوفة. وعددهم اثنا عشر ألفا جلهم من القراء المخلصين للإمام. وفيهم عدد كبير من الصحابة البدريين ومن كبار التابعين. فماذا وقع بين هذه الخاصة من الصحابة والتابعين وبين الإمام؟

إباء القراء وخاصة الإمام علي التحكيم واحتجاجهم عليه.

كان مع الإمام علي رضي الله عنه في حروب صفين جمهور كبير من الصحابة والتابعين. وذوي البصيرة في الدين. والنصح للمسلمين. والتقيد بما أمر الله. الوقوف عند حدوده. وكنوا يلقبون لغزارة علمهم. ومعرفتهم بما في الكتاب والسنة ولورعهم بالقراء. وهم خاصة الإمام وعماده. واعضاده الكبار. وأنصاره المخلصون وهم الذين خاضوا المعارك الكبرى في صفين. وكانوا قلب المعركة ومساعيرها في ليلة الهرير ويوم. وهم الذين جالدوا وقاتلوا. وضحوا بآلاف من صفوة إخوانهم وأبنائهم في المعارك. واغرقوا ساحة الوغى بدماء شهدائهم ودمائهم لينصروا أمامهم ويحافظون على الإمامة العادلة. والجمهورية الإسلامية التي رام معاوية أن يقضي عليها ويردوا البغاة المعتدين إلى طريق الحق كما أمر الله: وهم الذين جاهدوا وصابروا فقوضوا صفوف معاوية واشرفوا على معسكره. ورأوا النصر المبين علي كثب منهم قد لاح وأشرقت لهم تباشير الظفر والفلاح. وأصبح النصر عندهم محققا. ثم أمروا بإيقاف الحرب وقبول خدعة التحكيم. والوقوف فيما نصب لهم معاوية من إشراك. فأبوا ذلك على الإمام. وطالبوه بالاستمرار في الحرب. وبينوا له أن معاوية الذي رفض هو وجيشه العمل بما في الكتاب لما دعاهم إليه قبل الحرب ما كانوا ليعملوا به في يوم آخر. وان الله قد حكم في معاوية بحكم قاطع[1] وهو أن يقاتل حتى يرضخ للحق ويرجع إلى الجماعة. ويدخل فيه المسلمون. فما كان لإمام أو رعية أن يحكم الرجال في شيء نزل فيه حكم قاطع. واوجب فيه واجبات بينة. وكان رأي الإمام علي هو رأيهم. ولكن جرفه سيل الدهماء. ورضخ للعامة فجروه لما أرادوا. ولم يضع للخاصة فيستمر في الحرب إلى أن يقضي على معاوية. ولان رضي الله عنه في

1 - هذا الحكم هو ما حكم الله به البغاة المعتدين في هذه الآية الكريمة من سورة الحجرات «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله» وقوله فقاتلوا أمر على الوجوب. وقوله: أصلحوا يقصد المفاوضة والأساليب السليمة قبل الحرب فإذا لم تجد فتبح المقاتلة. وقد جرب الإمام علي كل الأساليب اللينة قبل صفين مع معاوية فلم تجد.

مقام لا يجوز فيه اللين، فوقع في الفخ الذي نصبه معاوية، وعلق في الإشراك الظاهرة التي وضعها في طريقه. ولما أبى الإمام ترك التحكم، والاستمرار في حرب البغاة، احتجوا عليه. واظهروا له إنكار ما أتى. ولما دخل الكوفة عاصمته بعد المدينة لم يدخلوا معه احتجاجا وإظهارا للاستياء، فنزلوا في قرية حروراء قريبا من الكوفة.

أسباب استياء الخاصة على الإمام

وكان هؤلاء الخاصة من الصحابة والتابعين مستائين لمخالفة أمر الله في قتال البغاة ولانهدام جهودهم في صفين، وذهاب دماء شهدائهم أدراج الرياح، وأرزائهم في النصر الذي احروه، والنجاح الذي حصلوا عليه، ولوقوع الإمام في الخدعة الظاهرة التي كاده معاوية بها، ولوقوعه في قبضة العامة يملون عليه ما يشاءون، وهو ما يهدم الدولة، وتأباه السياسة، ويناقض مصلحة المسلمين، ورضوخه للأشعث وحزبه وهم صنائع معاوية وجواسيسه لا يجرون الإمام والدولة إلا إلى المصير السيئ الذي يريده معاوية لهم. فلو أن الإمام عليا هو الذي رأى إيقاف الحرب فاخطأ في رأيه، وآثر التحكيم ولم يصب فيما اختاره، لاغتفروا له، فان المرء يخطئ ويصيب، ولكن معاوية هو الذي أراد ذلك فنصب لهم فخا ظاهرا بينا رآه الإمام ورأته كل الخاصة، ومع ذلك أوقع نفسه فيه بلينه ورضوخه للعامة. كان استياء خاصة الإمام بالغا لكل هذه الأسباب، فاعتزلوه احتجاجا وإنكارا لا خلعا له وثورة عليه كما يدعى الملكيون المغرضون الذي افسدوا التاريخ، واستخدموا حوادث صفين في الدعاية ضد الجمهوريين الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويأبون الملكية المستبدة.

وكان عدد هؤلاء الذين أبوا التحكيم واعتزلوا الإمام اثني عشر ألفا جلهم من الصحابة وكبار التابعين وفيهم عدد كبير من الصحابة الذين شهدوا بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعدد غفير من الذين بايعه تحت الشجرة، ومن هؤلاء الصحابة حرقوص بن زهير السعدي الذي بشره النبي عليه السلام بالجنة ثلاث مرات كما روت عائشة وورد في الكتب الصحاح، وعبد الله بن شجرة ممن بايع رسول الله تحت الشجرة ويزيد بن عاصم ممن بايع تحت الشجرة، وشجرة بن أو في السلامي من أهل بدر، وعبد الله بن وهب الراسبي من الصحابة، أبو عمر بن نوفل، وعيينة بن معمر الأنصاري من الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لما لم يجد النبي ما يحملهم عليه للجهاد معه، وغيرهم كثير. ومن هذه الخاصة أبو الهيثم بن نبهان، وفروة بن نوفل الاشجعي، وسارية بن الجام السعدي، ويزيد قيسي الازدي، وجعفر بن مالك السعدي، وبشر بن جبلة العامري، وشريك بن الحكم الازدي، وأبو بلال مرداس ابن جدير، أخوه عروة، والمستورد بن علامة،

والأشعث بن بشر العبدي، ميسرة ابن خالد الفهري، وحمزة بن سنان، وزيد بن حصن الطائي، وعباد بن الحرشاء الطائي، والحويرث بن ورع الأسدي، وعمير بن الحارث الأنصاري، وشجرة ابن الحارث، والمسيب بن ضمرة الاسدي، وعبد الله بن عفيف الخزاعي وأخوه سفيان، ونافع مولى ترملة، وترملة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهرم ابن عمرو الأنصاري من بني واقف، وأبو قدامة بن لبيد من بني قيس، وزياد بن حبيل العجلي، والأشهب بن بشر الكوفي، ومالك بن النبهان، وحكيم بن عبد الرحمن الكناني[1] وغيرهم كثير، وهم خاصة الإمام علي واعضاده، والقراء من جيشه، وكبار العباد من رعيته، والذين ناصروه وأيدوه، وكانوا أبطاله في حروب صفين، وأعوانه في مكافحة معاوية وردعه، فماذا وقع بين هؤلاء الخاصة والإمام؟

مطالبة الخاصة بنقض التحكيم والرجوع إلى قتال معاوية

وكانت خاصة الإمام علي وهو الصحابة وكبار التابعين والطبقة العالمة من أنصار الإمام قد أنكروا التحكيم وأبت قبوله، وتأثرت واستاءت من وقف القتال. ولما دخل الإمام علي رضي الله عنه الكوفة لم يدخل معه اغلب هذه الخاصة، إظهارا لاستنكارها، واحتجاجا على الإمام لقبوله للتحكيم، فنزلت في قرية قريبة من الكوفة تسمى «حروراء» فأرسلوا إلى الإمام علي وفدا فيهم حرقوص بن زهير السعدي الصحابي الذي شهد له الرسول بالجنة، ودرعه الطائي ليقدموا احتجاجهم إلى الإمام على قبول التحكيم، ومطالبتهم بنقضه، والرجوع إلى قتال معاوية. فدخلوا عليه فادوا إليه رسالتهم ومطالبهم، وابدوا له استياءهم من قبول التحكيم، وطالبوه بالرجوع إلى قتال البغاة فأبى عليهم الإمام ذلك، وأصر على التمسك بخدعة التحكيم.

أكاذيب الملكية على الجمهوريين

وكان هؤلاء المعتزلون للإمام هم خاصته وكبار أنصاره، والقراء من رعيته، والطبقة العالمة من أتباعه، وليسوا عامة جاهلة تسيرها الأهواء، ويسيطر عليها حب الشغب كما ادعى الملكيون من الأمويين والعباسيين وغيرهم الذين استخدموا حوادث صفين في الدعاية الكاذبة ضد الجمهوريين الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويأبون الملكية المستبدة، ويناهضون الظلم والطغيان.

إن اغلب الكتب التاريخية القديمة التي أوردت حوادث صفين، واعتزال الخاصة للإمام، ووقعة النهروان، كابن الأثير، وابن كثير، والطبري، والمسعودي، وابن أبي الحديد وجمهور

1 - الجواهر لأبي القاسم بن إبراهيم البرادي ص 118 و 119 ط البارونية.

المؤرخين في عهود الملوك الأمويين والعباسيين وغيرهم قد نقلت دعاوي هؤلاء الملكيين ضد الجمهوريين، إما رغبة أو رهبة، وهي بعيدة عن الواقع. وجل ما أوردوه سيما في وقعة النهروان، واعتزال القراء للإمام من وضع السياسة، ومن الدعاية الملكية الكاذبة.

قال هؤلاء المؤرخون الذين يملي عليهم الملوك المستبدون ما يشاءون: إن الذين اعتزلوا الإمام وطالبوه بنقض التحكيم هم العامة التي قبلت التحكيم في صفين، وأرغمت الإمام على قبوله، ثم ارتدت فصارت تطالبه بنقضه !! والحق الواقع الذي ر مرية فيه أن القراء وهو خاصة الإمام من الصحابة والتابعين، وذوي البصيرة في الدين هم الذين أبوا التحكيم فاتصلوا بكثير من العامة التي جرفها تيار الأشعث بن قيس فاندفعت فيه، وناصرت التحكيم، فافهموها ضرر التحكيم للإمام، وخطره على الإمامة، ومنابذيته للشريعة، فأدركت الصواب، وانجلت عنها عماية الفتنة، وزال إيحاء الأشعث وحزبه عن عقولها، فندمت مما وقعت فيه، وتابت عما ارتكبته من المشاركة في إرغام الإمام على قبول التحكيم، وانضمت إلى القراء فصارت من حزبهم، تؤيدهم في مطالبتهم الإمام بنقض تحكيم الرجال، والرجوع إلى تحكيم السيف في القتال. إن هؤلاء جزء من العامة التي تؤيد القراء وتأبى التحكيم، ولكن المؤرخون الذين يملي عليهم الملوك ما يقولون جعلوا كل الذين اعتزلوا الإمام إنما هم هذه العامة التي تابت من خطئها، وأنهم كل الذين أبوا التحكيم، فهم الرؤساء والمدبرون، والقادة والمسيرون، وما هم كما قلنا إلا جزء من العامة يقودها خاصة الإمام من الصحابة وكبار التابعين، والطبقة العالمة من المسلمين، وهم أنصار علي المخلصون، وأبطال يوم الهرير وليلة الهرير، والذين كان يقودهم الاشتر النخعي فاشرفوا على معسكر معاوية فكادوا أن يجهزوا عليه. إن هؤلاء هم الذين أبو التحكيم وهم في المعركة، وأبوه وحذروا الإمام من قبوله، وطالبوه بالاستمرار في القتال، فأرغمهم على وقف الحرب فأوقفوا الحرب لما صارت حياته مهددة بالعامة التي جرأها على نفسه، ومكنها من أزمته واغمدوا أسلحتهم، ولكنهم لم يقبلوا التحكيم، ولم يرتضوه، ولم يشاركوا فيه، وانتصروا حتى سكنت فورة العامة بدخولها الكوفة فطالبوا الإمام بإعادة الكرة على معاوية فأبى ، فاعتزلوه احتجاجا لا ثورة عليه وخلعا لإمامته كما ادعى الملكيون المغرضون.

إن وصف هؤلاء الخاصة الذين اعتزلوا الإمام احتجاجا عليه، وهم من الصحابة وكبار التابعين بأنهم قلبوا التحكيم وأرغموا الإمام عليه، ثم ثاروا عليه لقبوله ما أرغموه على قبوله، إن وصفهم بهذا إزراء بالصحابة وكبار التابعين، وبالأمة الإسلامية التي كان قراؤها وعلماؤها هم خاصتها، وعنوانها، وزبدتها، فوصفهم بما ادعى عليهم الملكيون

إزراء بالأمة الإسلامية التي كانوا خاصتها، وإزراء بالإمام علي الذي يراهم من حاشيته، ويعدهم اكبر أنصاره كما سترى بالأدلة التي تستقبلك، وبالحجج التي تراها فيما سأورد عليك.

حزن الإمام علي من اعتزال الخاصة له

وكان الإمام علي رضي الله عنه قد ساءه أن تعتزله خاصته، وان يفقد القراء الذين هم اعضاده، فأرسل إليهم عبد الله بن عباس ليفاوضهم في الرجوع إليه، ثم خرج إليهم بنفسه ففاوضهم، واستمع إلى عتابهم، واقتنع بحججهم، فرجع إلى نقض التحكيم.

إن تعيين الإمام لابن عباس حبر الأمة، ومعدن المعرفة والذكاء، واعلم رجل بالدين بعد الإمام، ليكون سفيره إلى الذين اعتزلوه، دليل على درجة هؤلاء عنده، وأنهم علماء فقهاء، ومن خاصة أنصاره، فاختار لهم اكبر رجل من خاصته، واعلم إنسان من أتباعه، ثم خرج إليهم بنفسه. إن هذا دليل على درجتهم العليا عنده، وعلى إكباره وإجلاله لهم، وعلى أنهم من الخاصة التي يحترمها، ولا من العامة التي تسيرها الأهواء كما يردد المؤرخون الملكيون، والمقلدون الغافلون الذين نقلوا عنهم ! لو كان هؤلاء المعتزلون في «حروراء» للإمام عامة تمردت عليه، ودهماء جاهلة ارتدت عن التحكيم الذي أرغمته على قبوله، وشغبت عليه، لأرسل إليها رجلا ذا حزم وشدة يرعبها ويفرض إرادته عليها، ويوحي إليها في غمرة الخوف بما يشاء، ولوجه إليها احد قادته الحربيين الذين تصغي إليهم العامة أكثر لان في كلامهم صليل السيف الذي تفهمه، وفي عيونهم بريق الحسام الذي تخشاه، وفي رنتهم جلجلة الرعد التي تنبئ بالصواعق التي ينطوي عليها السحاب ! وإذا لان الإمام وجاملهم فانه يرسل إليهم رؤساء قبائلهم، وزعماء أقوامهم الذين يصغون إليهم أكثر، ويثقون بهم فينقادون لما يريدون، لا حبر الأمة الذي يملك الحجج العقلية ويعتمد على المنطق الذي لا تعيه العامة، ولا تتأثر به في فورة اللجاج والعناد، وفي حدة التمرد والتحدي.

مناظرة الخاصة لابن عباس

وذهب ابن عباس رضي الله عنه سفيرا من الإمام فناظروه مناظرة عميقة تدلك على درجة المعتزلين الرفيعة في العلم، وعلى علو كعبهم في المعرفة، وعلى عمق فهمهم للدين وعلى أنهم خاصة الإمام من الصحابة وكبار التابعين.

قال احمد بن سعيد الشماخي: واخرج على إليهم ابن عباس فناظروه وقالوا: أعلى

هذى نحن غب سفك الدماء يوم الجمل لنكث طلحة والزبير وعدم رجوعهم إلى كتاب الله، وفي قتالنا لأهل الشام لبغيهم وتعديهم كتاب الله وسنة رسول الله أم على ضلال؟

قال: بل رشد

قالوا: فهل نزل أمر من السماء يحرم الأمر الأول؟[1]

قال: لا

قالوا: فلم حكم في دين الله؟

قال: قد علتم أن الله قد أمر بالتحكيم في رجل وامرأة، وفي طير يقتله المحرم فكيف بأمر امة محمد عليه السلام.

قالوا: تحكيم الحكمين في رجل وامرأة وفي طير رد الله الحكم فيه إلى العدول وهذا الأمر جاء الحكم فيه من الله كالزنا والسرقة والقذف التي لا يمكن لإنسان أن يحكم فيها بغير حكم الله. ولو أراد إمام قطع يد السارق فقال له الناس حتى نحكم فيه حكمين اله أن يحكمهما أم يمضي على حكم الله؟

قال بلى، بل لا يحكم الرجال.

قالوا: فهل فاء معاوية وعمرو بن العاص إلى حكم الله؟[2]

قال: لا.

قالوا: اعدل عمرو بن العاص الذي صرح بالعداوة والبغي، وباع دينه بمصر[3] وسفك دماء المسلمين بغير حق، وأبو موسى الذي ثبط الناس عن الجهاد «وخذل الناس عن الإمام علي».

قال:لا.

1 - يريدون بالأمر الأول أمر الله بقتال البغاة في قوله في سورة الحجرات : فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله».

2 - يريدون إباء معاوية وعمرو بن العاص ورفضهما تحكيم الكتاب والدين لما دعاهما الإمام إليه قبل هجومه عليهم في صفين، ويريدون أيضا أن معاوية وعمرو بن العاص ليسا ممن يتقيد بالكتاب حتى يجابا إلى طلبهما لما طالبا الإمام بتحكيم الكتاب، وأنهما لو كانا يتقيدان به لعرفا أن الخروج على جماعة المسلمين حرام فلا بإتيانه، وان قتال معاوية لأنه باع هو ما أمر الله به الإمام فلا تمكن المفاوضة فيه. ويريدون أيضا أن عمرو بن العاص ليس عدلا فيقبله الإمام حكما في الإمامة التي هي أساس الدولة والدين.

3 - يريدون شرط عمرو بن العاص على معاوية أن تكون مصر طعمه له ليناصره فأجابه معاوية وجعلها له.

قالوا: إن كان عمرو عدلا وهو يقاتلنا فنحن على غير حق، وإذا كان عدلا فنشهد أن عمارا ومن استشهد معه قتلوا على باطل وضلالة. ثم رجع ابن عباس إلى علي فقال خصمك القوم، ثم خرج إليهم علي فوقعت بينهم مناظرة»[1]

وكان ابن عباس رضي الله عنه على رأي الخاصة التي اعتزلت الإمام في التحكيم، وعلى مثل إبائهم له إلا انه لم يستطع أن يعتزل الإمام احتجاجا عليه لروابط القرابة ولإشفاق ابن عباس أن يعزل الإمام فيخلو الجو أكثر للأشعث وحزبه، فيكون البلاء اشد، والطامة اكبر.

وكان ابن عباس قد أبي التحكيم لأنه يعرف انه خذعة، وانه لا يجوز في الدين، ولكنه كان نصوحا للإمام، حزينا على مفارقة القراء وهم خاصته له، فتصرف تصرف السفير الداهية الحريص على الصلح، فيستعمل كل وسيلة لإيقاعه والوصول إليه، حتى الحجج الواهية التي يعتذر بها عمن أرسله تطييبا لخواطر مناظرية، وحملا لهم ليعذروه فقال في المناظرة: إن الله قد حكم الرجال في الطير والزوجين، وهو يعرف انه حجة واهية، ودليل لا يثبت في المناظرة.

إن ابن عباس حبر الأمة، وعلم في الدين، فخر الإسلام في العبقرية العلمية، لا يخفي عنه الفرق بين الحالين وحرب البغاة.

مناظرة الإمام على المعتزلين وإقناعهم له

ولما ابلغ ابن عباس الإمام رضي الله عنه ما دار بينه وبين خاصته الذين اعتزلوه ورأى أنهم على صواب في احتجاجهم عليه، وانه لابد من مصالحتهم وإرجاعهم إلى حظيرته، ليتقوى جمعه، وتشتد أركانه، فيستطيع أن يصول على معاوية إذا أعاد الكرة عليه، فخرج إليهم فاجتمع بهم، وتفوض معهم فيذما وقع، فناظروه، وابدوا له استياءهم وإنكارهم لخضوعه للعامة، وقبوله للتحكيم، ودعوه إلى نقض التحكيم، والرجوع إلى قتال معاوية الذي تمرد وبغى، وهو يسعى للقضاء على الإمامة، والجمهورية الإسلامية، وعلى حكم الشورى وديمقراطية الإسلام، وإحياء الملكية الباغية، وحكم الفرد المستبد، والرجوع إلى الكسروية المتجبرة التي جاء الإسلام لمحوها، فاقتنع الإمام بقولهم، وتأثر بعتابهم، وعاهدهم على نقض التحكيم الذي يرى معهم انه لا يجوز في الدين، والرجوع إلى قتلا معاوية، وحمله بالقوة عللا الدخول في جماعة المسلمين، فتصالحوا مع الإمام، ورجعوا إليه، فقاموا فدخلوا الكوفة معه.

1 - سير المشايخ للشماخي ص 49 و 50 ط البارونية.

رجوع الخاصة إلى الإمام وابتهاج أنصاره بذلك

وكان فرح أنصار الإمام والمخلصين له عظيما برجوع القراء إليه فتقوى جمعهم، وتأيد ركنهم، ثم أعلن الإمام على المنبر بطلان التحكيم وتنقضه، وعزمته على قتال معاوية ورده إلى الجادة بما أمر الله، فازداد أنصار الإمام فرحا بهذه البشري، وصوبوا رأيه في نقض التحكيم، وأيدوه فيما قرره من الحرب والصدام، والقضاء على أصحاب الملكية والبغاة بالقوة والحسام، والمحافظة على الإمامة العادلة والجمهورية الإسلامية التي يسعى معاوية للقضاء عليها.

جزع معاوية من نقض التحكيم وإثارة صنائعه

وكان معاوية متيقظا يرقب حركات الإمام بعيون الصقر، وكان يخشى من تأثير الخاصة التي تأبى التحكيم على الإمام فيرجع إلى حربه، وكان الأشعث بن قيس وصنائعه الآخرون يراسلونه بكل الأنباء، فعلم بنقض الإمام للتحكيم، وعزمته على حربه، فقامت قيامته، واشتد حزبه، فشمر عن ساعده لإرغام الإمام على الرجوع إلى خدعة التحكيم بواسطة أنصاره الذين تقوى جمعهم في رعية الإمام، وكثر أتباعهم، وتعاظم نفوذهم منذ أرغموا الإمام في صفين لما يريدون، فأرسل إليهم وواعدهم ومناهم، وحثهم على اتخاذ كل وسيلة لرد الإمام إلى التحكيم، والعدول به عن الحرب، كما أرسل إلى كثير من رؤساء القبائل في العراق ممن يأنس فيه استعداد للميل إليه، فخرهم إلى صفوفه بالمواعيد والدهاء، فانضموا إلى صنائعه في العراق، فاشتد ركن الأشعث بن قيس وحزبه أنصار معاوية، فصار يستطيع أن يصول على الإمام ويرغمه لنا يشاء.

رجوع الإمام إلى التحكيم

قال أبو القاسم بن إبراهيم: «فلما بلغ الأشعث بن قيس ما فعل على «من عدوله عن التحكيم» وما تحدث الناس به من توبته دخل عليه فقال: ما صنعت؟ ! ما بالكوفة امة على ظهرها جرة إلا وهي تحدث بأنك تبت إلى القوم !... وما تنكر من الحكومة !؟ أتخاف أن يعدل الناس بينك وبين معاوية؟ ! فوالله لانت أكرم منه حسبا، وأعظم شرفا وأقدم هجرة، واسبق إيمانا ! فلما بلغ معاوية خبر علي ورجوعه عن الأمر كتب إلى الأشعث بن قيس والى وجوه أهل العراق يعدهم ويمنيهم... فنهضوا إلى علي نهضة رجل واحد»[1] فذهبوا إليه فما زالوا يطالبونه بالرجوع إلى التحكيم، والتمسك بعقده، والعدول عن الحرب، وأشعروه انه إذا لم يستجب لما يريدون فستثور العامة عليه، ويقع في شر أكثر

1 - كتاب الجواهر ص 125 و 126 ط .البارونية.

مما وقع فيه عثمان، فشعر الإمام بعاصفة العامة تكاد أن تهجم عليه، وبفتنة عمياء يكاد أن يشعلها هؤلاء الرؤساء الذين يسيرهم معاوية، فترغمه على ما يريدون، فرجع إلى التحكيم مرغما، وأعلن على المنبر تمسكه به، والرجوع إلى تعاقد عليه مع معاوية في صفين.

استياء خاصة الإمام وإياسهم منه

فعلمت خاصة الإمام الذين اعتزلوه ثم رجعوا إليه أن الإمام لم تعد له سيطرة على الجماهير، ولا نفوذ عند العامة، وأن أتباع معاوية هم المسيطرون عليه، ويرغمونه بواسطة العامة على ما يريدون، وأن هيبته عند العامة المتمردة قد زالت، وانه لا يستطيع سياستها، ولا يقدر على قيادتها، ولا يمكنه أن يقف موقفا لا يرضى معاوية؛ وأيقنوا أن التحكيم سيؤدي إلى خلع الإمام، وان معاوية ولم تكن نتيجة التحكيم له فانه يستطيع أن يرغم الإمام لما يريد بأنصاره العديدين الذين اصطنعهم من رؤساء القبائل في العراق، فيتولى الملك كما يريد، ويقضي على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وتنتصب الملكية المستبدة، حكم الغطرسة والجبروت، فايسوا من الإمام على رضي الله عنه في ميدان السياسة، وأيقنوا انه لا يستطيع أن يقود معاركهم ضد معاوية، وانه لابد لهم من إمام قوي تهابه العامة وتنقاد له، ويقطع رءوس الفتنة في الكوفة، ويقضي على الأشعث وحزبه، ويسير بالأمة لردع معاوية، والإبقاء على الجمهورية الإسلامية، ولكن هؤلاء الخاصة لم يخلعوا عليا رغم ما أيقنوا به من عدم استطاعته الاضطلاع بأعباء الإمامة، ولم يبايعوا أحدا قبل التحكيم، واعتبروا أن بيعته لا زالت في أعناقهم، وإن كان قبوله للتحكيم في الإمامة معناه إنها غير ثابتة الحكم ! فأنت لا تقبل التحكيم في شيء إلا وأنت تعترف أن خصمك قد يكون فيه محقا وان الخطأ قد ب

يكون في جهتك، ولكنهم لتحرجهم في الدين انتظروا حتى ظهرت نتيجة التحكيم، لم يخلعوا الإمام ولم يبايعوا أحدا سواه.

اجتماع الحكمين وخلعهما للإمام علي رضي الله عنه / مبايعة الخاصة لعبد الله بن وهب الراسبي

واجتمع الحكمان في دومة الجندل، وهو مكان سواء بين الشام والعراق، فنصب عمرو بن العاص فخافه لأبي موسى الأشعري فأوقعه فيها، وكان أبو موسى مستعدا لها لازوراره عن الإمام علي، وعدم تحمسه لإمامته، فخلع أبو موسى عليا من الإمامة وخلعه عمرو بن العاص، فبلغ معاوية مراده في تجريد الإمام مما البسه المسلمون، فزالت بيعة الإمام

عن أعناق الناس، وأمسوا أحرارا يستطيعون أن يختاروا للإمامة من يشاءون، ويبايعوا من يختارون. فاختارت الخاصة التي اعتزلت الإمام ثانية لما رجع إلى التحكيم عبد الله بن وهب الراسبي الصحابي إماما عاما لهم في السياسة والدفاع والهجوم، وليس للدفاع وحده كما يدعي بعض المؤرخين، فبايعوه، فشمر لتنظيم صفوفه، والاستبداد والتأهب ليسير إلى معاوية فيردعه، ويقضي على الملكية، ويستبقى الإمامة العادلة، والجمهورية التي تسعد المسلمين.

أكاذيب الملكيين على الجمهوريين

وقد استغل دعاة الملكية من الأمويين والعباسيين الذين أشهروا حربا دعائية واسعة ضد المتمسكين بالجمهورية الإسلامية اعتزال للإمام، ومبايعتهم بعد خلع الحكمين للإمام على رضي الله عنه عبد الله بن وهب الراسبي، فوصفوهم بالخروج على الإمام. وسموهم «خوارج» وعدوا اعتزاله قبل إجماع الحكمين خروجا عليه، وما هو بالخروج لأنهم لم يخلعوه، ولم يحاربوه، وعدوا مبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي خروجا على علي أيضا وما هو بالخروج لان بيعته قد زالت عن أعناقهم بعد خلع الحكمين اللذين وكلهما ورضي بما يحكمان به، وأصبحوا أحرارا يبايعون من يشاءون. هذا ما عرفه كل المسلمين في ذلك العهد فلذلك جدد أتباع الإمام على الذين آثروه للإمامة ثانية البيعة له بعد خلع الحكمين له لان البيعة الأولى قد زالت قال ابن الأثير: «ولما خرجت «الخاصة» من الكوفة «بعد خلع الحكمين للإمام» أتى عليا أصحابه وشيعته فبايعه وقالوا نحن أولياء من والت وأعداء من عاديت فشرط لهم فيه سنة رسول الله، فجاءه ربيعه بن أبي شداد الخثعمي فقال له: بايع على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال ربيعة على سنة أبي بكر وعمر قال له علي:ويلك لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله لم يكن على شيء من الحق»[1] هذا في سنة سبع وثلاثين بعد أن خلع الحكمان الإمامة عن الإمام فلولا زوال بيعته عن الأعناق ما جدد البيعة أتباعه وشيعته، ولولا زوالها ما بايعت الخاصة غيره، لأنه حرام في الدين، وهم في التمسك بالدين والغيرة عليه في الدرجة العالية التي لا يصلها إلا الصحابة وكبار التابعين أمثالهم، فما كانوا ليرتكبوا محظورا في الدين وهم ما أبوا التحكيم إلا لمخالفته للدين، وما بايعوا عبد الله بن وهب الراسبي إلا ليحافظوا على الجمهورية الإسلامية التي جاء الدين الحنيف بها، ويحيى أمامهم سياسة الدين، والتقيد بالكتاب والسنة في كل الأمور.

1 - الكامل ج 3 ص، 170 ط المنيرية.

حب حزب عبد الله بن وهب لعلي وإجلالهم له

وكانت الخاصة التي بايعت عبد الله بن وهبي الراسبي أكثر الناس إجلالا لعلي وحبا له، واعترافا بمقامه في العلم، ومكانته في الدين، فلم يعدلوا عنه وبايعوا سواه عدول إنسان مزور يشنؤه فوجد فرصة خلع الحكمين له فاستغلها فبايع سواه لما في قلبه من انحراف عنه أو منافسة له، ولكنهم أعفوه من الإمامة لأنه لا يستطيعها، وأيقنوا بأنه لا يقدر على السيطرة على الجماهير، وفرض إرادتها على العامة، والقضاء على الأشعث وحزبه في العراق، واستئصال الملكية بالتغلب على معاوية وشيعته.

هذا هو السبب الذي جعلهم يختارون غيره، أما خلع الحكمين له فلو وجدوا انه يستطيع الاضطلاع بأعباء الإمامة، والقضاء على الملكية، فانه لا يمنع من استمراره إماما عليهم لأنهم يجددون بيعته، ويقدمونه ثانية للإمامة.

معاوية وحزبه هم الخوارج على الإمام

إن معاوية وحزبه هم الذين خرجوا على الإمام وحاربوه حتى قتل، واستمروا بعد ذلك على حربه في آله وذريته، فقتلوهم، وصلبوهم، سجنوهم، وارتكبوا فيهم ما لا يرتكب في المشركين، ولعنوه على منابرهم، وجعلوا لعنه في خطب الجمعة والأعياد فرضا على خطبائهم، وارتكبوا في حربه والقضاء عليه كل كبيرة، واتوا بكل محظور، ومع هذا تجد الأمويين لدهائهم يصفون الخاصة التي اعتزلت الإمام بأنهم خوارج عليه، أعداء له، وبسطوا السنة علمائهم المأجورين صنائع الملكية فملأوا كتب التاريخ والفقه أيضا بهذه الدعاية الكاذبة، وموهوا على المسلمين، وصرفوا حنقهم في حوادث صفين إلى هذه الخاصة التي سارت في الطريق المعقول الذي يجب أن تسير فيه، وشغلوا العقول بأكاذيبهم على أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي حتى لا تنتبه إلى جرائمهم التي ارتكبوها في الإمام علي وآل بيته ! وقد استمر الملوك العباسيون وغيرهم من الملوك سيما ملوك الدولة العبيدية في المغرب في ترديد أكاذيب الأمويين، سيما على الإباضية الذين رفعوا لواء الجمهورية الإسلامية، وأسسوا في المغرب والمشرق في دولهم الجمهورية العادلة، فصوروا الإباضية -كذبا وزورا- خوارج على الإمام، ونعتوهم بأنهم من عادى الإمام وثار عليه، ومن يشنؤه ويعرض عنه، ليبلغوا مرادهم في تشويه سمعة الجمهوريين وصرف النفوس عنهم، وليغطوا على الجرائم التي ارتكبها العباسيون في آل البيت، وهو ما تقشعر منه النفوس، وتأباه العقول، ولا يجوز في شريعة، فصارت كتب التاريخ التي لا زالت عندنا لإبقاء الملوك عليها لأنها توافق هواهم وتسير في ركابهم،

وتردد دعايتهم؛ وصار جل هذه الكتب كالكامل لابن ارثير، مروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، والعبر لابن خلدون، وغيرها مما كتب في عهد الملوك وبقي وانتشر فوصلنا، وصارت مملوءة بهذه الأغلاط التاريخية، ويتلك الدعاية الكاذبة ضد الإباضية، وبتلك الترهات التي يوحي بها الملوك بالرغبة والرهبة للعلماء فيرددونها في كتبهم لتكون بالتكرار والتأكيد عقائد راسخة في العامة تصرفهم عن الجمهوريين الذين يرونهم خطرا عليهم وعلى دولهم الملكية المستبدة. وترى كثيرا من المؤرخين في هذا العصر ينتقلون من تلك المصادر الملكية أكاذيبهم على أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي وعلى الإباضية فلا يعلمون عقولهم فيها ليتبينوا كذبها، فيقعون في رذيلة التقليد التي تأباها ثقافتهم العصرية، وترى في كتبهم العصرية الفلسفية تلك الآراء الملكية العتيقة تشينها عند ذوي الدراية كما يشين الحشف البالي الغصن النضير، والرمص المزري الأهداب الكحيلة !. وترى جل الذين كتبوا في تاريخ المغرب إذا وصلوا إلى الدول الجمهورية التي أسسها الإباضية في المغرب يدسون انفهم في الخلاف الذي وقع بين الصحابة بدون تمييز ودراية ليبينوا أسباب نشأة الإباضية فيأتون بالمضحكات في ترديد الآراء الملكية القديمة، ودعايتهم الكاذبة !!

إن أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي ليسوا خوارج لأنهم لم يخرجوا على الإمام علي ولم يخلعوه، ولكن الذي خرج عليه إنما هو معاوية وحزبه، ولقب الخوارج هذا من اختراع الأمويين والعباسيين، أما في عهد علي فقد كان عبد الله بن وهب وحزبه يسمون « المحكمة» لأنهم أبوا تحكيم الرجال في الدين فقالوا: «لا حكم إلا لله» فصار شعارهم فسموا به. فماذا سينسج معاوية بدهائه للإمام علي رضي الله عنه من مكائده فيرزؤه في خاصته، ويهيض أجنحته، ويفرق جموعه، ويقضي على دولته؟ انه سيكيد له فيوقعه في حرب النهروان، ويعمل للقضاء على عبد الله بن وهب الراسبي وعلى علي معا ! فكيف ولى عبد الله بن وهب الراسبي الإمامة، وما كيد معاوية له فوقعت حرب النهروان التي قضت عليه، وأجهزت على الإمامة، ومكنت للملكية المستبدة فترعرعت ورسخت جذورها؟

إمامة عبد الله بن وهب الراسبي في سنة 37 هـ

وكيد معاوية له والإمام علي رضي الله عنه

كان اجتماع الحكمين وخلع الإمام علي رضي الله عنه في شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين، ثم وقعت بيعة الخاصة من الصحابة وكبار التابعين لعبد الله بن وهب الراسبي في شوال من سنة سبع وثلاثين كما روى ابن الأثير.[1] وهذا من الأدلة على أن الصحاب عبد الله بن وهب الراسبي -وهم من الخاصة الذين أبوا التحكيم- لم يخلعوا الإمام عليا ولم يخرجوا عليه، ولكن بايعوا من اختاروا للإمامة بعد أن زالت بيعة الإمام عن أعناقهم بخلع وكيله له وبقبوله للتحكيم. وكان عبد الله بن وهب إماما عاما للسياسة والدفاع مما لا إماما للدفاع فحسب كما قال بعض المؤرخين.

شخصية عبد الله بن وهب الراسبي

وكان عبد الله بن وهب الراسبي من الصحابة الزاهدين، ومن العلماء في الدين، وكان ذكي الفؤاد، حازما في الأمور، قوي الشخصية، شجاعا، صارما في مواطن الصرامة، صلبا في الأماكن التي تجب فيها الصلابة، داهية، حكيما، يتوج هذه الصفات العقلية والخلقية كلها ورعه وتقواه، وإخلاصه ونزاهته، وتمسكه كل التمسك بالدين، وعمله لآخرته لدنياه، وتفانيه في مصلحة المسلمين، واجتهاده في خدمتهم ! وكان يلقب «بذي الثفنات»[2] لكثرة عبادته، واجتهاده في صلاته، حتى اثر ذلك في جبهته، لكثرة سجوده لله.

زهده في الرئاسة

وكان عبد الله زاهدا في الإمام، كارها للرئاسة، يراها فروضا وواجبات ثقيلة، وحسابا عسيرا بين يدي الله، فنفرت نفسه عنها، وأبي على أصحابه قبول الإمامة، حتى وجد أصحابه من ذوي الكفاءة قد تدافعوها، وزهدوا فيها، وخاف أن يتطلع إليها من ليس كفؤا لها، فيقعون فيشر كبير، ويحاسبه الله وأصحابه على ما يحدث بتولي الضعيف الذي أفسحوا له المجال، وتقدم بتأخرهم إلى رئاسة المسلمين، فوجد نفسه مضطرا لقبولها، فقبل الإمامة، فبايعه أصحابه من الخاصة وهم من الصحابة وكبار التابعين، ثم توالت العامة التي أبت التحكيم فبايعته، فغزر جمعه، وتكاثر عدده، وصار نفوذه ينتشر في العراق، والقلوب تتجه إليه من أنحائه.

1 - الكامل ج 3 ص 170 ط المنيرية.

2 - جمع ثفنة بفتح فكسر وهي من البعير ما مس الأرض من كركرته وسعداناته، وأصول أفخاذه. يعني أن جبهته لأثر السجود الطويل الكثير فيها تشبه الثفنات من البعير.

خروج عبد الله ابن وهب إلى النهروان

وكان ذلك في الكوفة، ثم خرج الإمام عبد الله وصحبه وأنصاره إلى مكان بعيد عن الكوفة بين بغداد وحلوان، يسمى بالنهروان، في غرب نهر طبرستان، من ارض خراسان. وقد آثر عبد الله وأصحابه لابتعاد عن الكوفة لكي لا يقع بينهم وبين علي رضي الله عنه صدام، فان العامة التي تسيطر عليه، والأشعث وحزبه، لابد أن يوقعوا بينهما فيجبرون عليا على أن يقف منهم موقفا معاديا، وهم لا يريدون أن يحدث بينهم وبين الإمام علي أي سوء.

قال ابن الأثير: «ثم إن أصحاب عبد الله» لقي بعضهم بعضا واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم فزهدهم في الدنيا، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «ثم أمرهم بالخروج من الكوفة» فقال حمزة بن سنان الاسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم فولوا أمركم رجلا منكم فإنكم لابد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون إليها، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، وعرضوها على حرقوص بن زهير السعدي فأبى، وعلى حمزة بن سنان الأسدي، وشريح بن أوفى العبسي فأبيا، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقال: هاتوها أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا، ولا ادعها فرقا من الموت ! فبايعوه لعشر خلون من شوال «لسنة سبع وثلاثين» وكان يقال له: «ذو الثفنات».[1]

الغرض الرئيسي لعبد الله بن وهب هو المحافظة على الجمهورية الإسلامية والقضاء على الملكية

وكان الغرض الأول الذي يهم به الإمام عبد الله بن وهب الراسبي وأصحابه، ويشغل أفكارهم، ويساعدون له هو الهجوم على معاوية، وإعادة الكرة عليه، والقضاء على الملكية[2] المستبدة، والمحافظة على الإمامة العادلة. فخرج إلى معسكره بالنهروان، وأرسل إلى أصحابه بالبصرة وأنحاء العراق ليلحقوا به، فتكمل عدته فيسير إلى الشام.

وسمعت العامة والخاصة الذين أبوا التحكيم باختيار عبد الله بن وهب الراسبي إماما، وبخروجه إلى معسكره بالنهروان ليتجهز للقضاء على الملكية، فابتهجوا واستبشروا، وأسرعوا إلى اللحاق به في النهروان، فبايعوه بالإمامة، وانضووا تحت لوائه، فاجتمع لعبد الله بن وهب من أتباعه الذين لحقوا به أربعة آلاف، فأقام في النهروان ليتكاثر الوافدون

1 - الكامل ج 3 ص 170 ط المنيرية.
2 -الملكية نسبة إلى الملوك.

عليه، والذين يسرعون إليه من كل ناحية، فيتكون الجيش الكبير الذي يستطيع به منازلة معاوية والقضاء عليه. وكان يتكاثر، وجنده في تزايد، فأصبح قوة تهدد الشام، ويرى فيها معاوية الموت الأحمر، والفناء الماحق، والقضاء على أطماعه وأمانيه، فجعلها داهية العرب نصب عينيه، ومرمى سهامه، وأرسل إلى الأشعث بن قيس وحزبه في العراق يحثهم على أن يضربوا العدو بالعدو، ويجروا الإمام لحرب أهل النهروان فيتخلص منهما جميعا.

سير علي لحرب معاوية وكيد معاوية له

وكان الإمام علي رضي الله عنه قد عزم على إعادة الكرة على معاوية بعد اجتماع الحكمين وتجديد أصحابه البيعة له، وإن كانت أجنحته قد قصت، وقواه قد ضعفت، ونفوذه في العراق لم يعد كما كان في حرب «صفين» الأولى، فبذل كل جهد فجمع جندا فسار بهم إلى الشام لحرب معاوية وكان ذلك في آخر سنة سبع وثلاثين.

وكان الأشعث بن قيس ورؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية وأتباعهم يخذلون الناس عن علي. وكان ما وقع له رضي الله عنه من جرأة العامة عليه، وقبوله للتحكيم، واستلاب معاوية النصر من يده في معركة صفين، ومفارقة خاصته له ممن بايع الله بن وهب الراسبي، وما يعلمونه من عدم استطاعة الإمام أن يقف في وجه معاوية لكثرة أنصاره، وحنكته ودهائه، وقوته وصرامته، كان هذا كله قد اضعف نفوذ الإمام في العراق، فتثاقل الناس عن السير معه لحرب معاوية. فوجد رضي الله عنه صعوبة في الحصول على العدد الكافي للحرب التي سيخوضها، فالتجأ إلى تجنيد العبيد والعامة التي لا تناصره عن حماس ودين ومحبة.

قال ابن الأثير: فكتب على عبد الله بن عباس «عامله على البصرة» أما بعد فإنا خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة « في ظاهر الكوفة» وقد اجمعنا المسير إلى عدونا من أهل الشام فاشخص إلى بالناس. فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس، وندبهم مع الأحنف بن قيس، فشخص ألف وخمسمائة فأستقلهم عبد الله بن عباس فخطبهم وقال: يا أهل البصرة. أتاني كتاب أمير المؤمنين، فأمرتكم بالنفير إليه فلم يشخص منكم إليه إلا ألف وخمسمائة، وانتم ستون ألف مقاتل سوى أبنائكم وعبيدكم ! ألا انفروا إليه مع جارية بن قدامة السعدي، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا، فأنى موقع بكل من وجدته متخلفا عن دعوته، عاصيا لإمامه، فلا يلومن رجل إلا نفسه، فخرج جارية فاجتمع إليه ألف وسبعمائة فوافوا عليا وهم ثلاثة آلاف ومائتان، فجمع إليه رءوس أهل

الكوفة، ورءوس الأسباع، ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل الكوفة انتم إخواني وأنصاري، وأعواني على الحق، وأصحابي إلى الجهاد المحلين،[1] بكم اضرب المدبر، وأرجو تمام طاعة المقبل. وقد استنفرت أهل البصرة فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان فليكتب لي رئيس كل قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال، وعبدان عشيرته، وموالهم، ويرفع ذلك إلينا. فكتبوا إليه ما طلب، وأمروا أبناءهم وعبيدهم أن يخرجوا معهم و لا يتخلف منهم متخلف. فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل، وسبعة عشر ألفا من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، وكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفا سوى أهل البصرة وهم ثلاثة آلاف ومائتا رجل. وكتب إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلة» فكان جيش الإمام سبعين ألف مقاتل أو يزيد. ولكن أكثره كان من العامة والفتيان والموالي والعبيد الذين حشروا حشرا للحرب معه، وليسوا بذوي البصائر الذين يثبتون معه، ويتمثلون أمره، ويملكون حصانة من حماسهم للإمامة وكرههم للملكية، ومن نضوجهم، وتحصنهم من سموم أنصار معاوية الذين اندسوا في جيش الإمام.

وكان في جيش الإمام الأشعث بن قيس ورؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية، وجمهور غفير من العامة التي تسير وراءهم، وتمتثل أوامرهم، وتنفيذ ما يشاءون.

قعود ابن عباس عن الخروج مع الإمام

وكان ابن عباس رضي الله عنه في حروب صفين من ضباط الإمام الكبار، ومن قواده وأركان حربه، ومن الأبطال العظام في يوم الهرير، ولكنه في هذه المرة قعد فلم يسر مع الإمام، وارى أن ذلك لتشاؤمه وعدم ثقته باستطاعة الإمام أن يصل إلى معاوية ويحاربه، أو ينجح في حزبه إن هو وصل إليه، لما يعرفه من الخفايا في جيش الإمام، ومن طوية أكثر رؤساء القبائل الذين ساروا معه، ولا يمكن انم يكون الإمام هو الذي استبقاه لأنه لو تركه في الكوفة عاصمته لقلنا انه آثره لحفظها في غيبته، وخلافته في تسيير الأمور من بعده، لكنه بقي في البصرة فلم يغادرها إلى الكوفة والأماكن التي يكثر فيها سواد أنصار معاوية الذين يمكن أن يثوروا على الإمام فيضربوه من خلفه.

كيد معاوية وصرف الإمام إلى أهل النهروان

فخرج الإمام علي رضي الله عنه بهذا الجيش الذي كان معظم ضباطه وقواده وذوي النفوذ في جنده من صنائع معاوية الذين عزموا على الكيد للإمام، وصرفه بكل وسيلة

1 - يريد بالمحلين معاوية وحزبه الذين استحلوا ما حرم الله من الخروج عليه وسفك دماء المسلمين. وخطبته الأولى في أهل الكوفة قبل هذه في ص 171 من ابن الأثير ج 3 تؤكد هذا المعنى.

عن السير إلى الشام، وتسليطه على عبد الله بن وهب الراسبي الذي يستعد ليسير كالإمام لحرب معاوية والقضاء على الملكية، فيهيضون جناح الإمام بالقضاء على خاصته، ويهجمون تحت رايته على هذه القوة الجديدة التي يوقنون إنها ستكون أمضى من كل قوة تهجم على معاوية، واكبر خطر يهدد الملكية بالمحق ثم يلزمون الإمام قتلهم والقضاء عليهم، وهم ذوو النفوذ في العراق، وذوو المكانة السامية في عشائرهم، ومحل حب وإكبار المخلصين الذين مع الإمام كالأحنف بن قيس الذي أبى التحكيم، وصار بعد ذلك من الإباضية،[1] وجارية بن قدامة السعدي فيفسدون بقتلهم هذه القلوب على الإمام، ويفرقون عنه أبناء قبائلهم م أتباعه، وهم كثيرون في جيش الإمام. هذه هي الخطة البارعة التي رسمها معاوية الداهية لأتباعه، ورسمها معه أعوانه كعمرو بن العاص، وعزم الأشعث بن قيس وحزبه من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية، عزموا على تنفيذها فاندسوا هم وجماهيرهم الكثيرة في جيش الإمام، فصاروا يرقبون الفرصة لتنفيذ الخطة، وصرف الإمام علي إلى قتال أهل النهروان، ليضربوا العدو بالعدو فتخلصوا منهما جميعا، حتى وصل الإمام الانبار، وأراد أن يدخل في طريق الشام، ويبتعد عن أهل النهروان فلا يمكنهم صرفه إليهم، فأرغموه بإثارة العامة عليه، وبأتباعهم الكثيرين من جنده على السير إلى النهروان، مقاتلة عبد الله بن وهب الراسبي وأصحابه.

إباء الإمام علي أن يسير إلى أهل النهروان

وقد أبى الإمام عليهم ذلك، وكره أن يسير إليهم، واظهر الامتناع من قدهم، وقال: اتركوهم رجاء أن يتغير رأيهم فيه فيرجعوا إليه، سيما بعد أن ينتصر على معاوية ويقضي عليه فيسترد بذلك ما فقده في جولاته الماضية معه، ورأى الإمام رضي الله عنه أن عدوه هو معاوية وحزبه أنصار الملكية المستبدة، وان عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه لا يضرونه بشيء، أنهم على مذهبه في المحافظة على الإمامة والتمسك بالدين، إما أن ينتصر على معاوية فتظهر كفاءته، ويسترد صيته، فيرجعوا إليه، أو يكونوا هم أكثر كفاءة، وأغزر جمعا بميل الجمهور إليهم فيرجع هم إليهم، فيكونوا يدا واحدة. هذا هو رأي الإمام علي رضي الله عنه في أصحاب - النهروان، فما كان ليعاديهم ويقاتلهم لاعتزالهم له لان بيعته قد زالت عن أعناقهم، ثم إن ما أخرجهم إلى النهروان هو الاستعداد لحرب معاوية لا لحربه، وأنهم لم يحدثوا شيئا يخالف الدين فيستوجب قتالهم.

1 - كان الأحنف بن قيس من الإباضية، وقد ورد في الامالي انه دخل على معاوية فقال له: لم يحبك الناس وأنت من الخوارج؟ فقال له: لو عاب الناس الماء ما شربوه ! يعني لو أنكر الناس شيئا من عقائدي وسيرتي التي تراني بها من الخوارج ما أحبوني.

أكاذيب الملكيين على أهل النهروان

ونرى أنصار الملكية يقولون في دعاياتهم الكاذبة: إن أهل النهروان قتلوا عبد الله بن خباب وقطعوا الطريق، وهو ما سنبين بطلانه. ومن الأدلة على كذب هذه الدعاية الملكية إباء الإمام أن يسير إلى أهل النهروان فلو ارتكبوا ما نسب إليهم لكان الإمام احرص على السير إليهم، ولرآهم خطرا يهدده في الكوفة فيسرع إليهم وينازلهم قبل أن يعزم على السير إلى الشام، لتأمن ظهره، ويتخلص من هؤلاء الذين سيهاجمون ذراريه ورعاياه إذا تركهم وراءه. إن عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه كانوا أصحاب رسول الله عليه السلام، ومن كبار التابعين، ولا ينسب إليهم ما ألصقته الملكية بهم من بهتان إلا إنسان يحتقر نفسه، فيزري بسلفه الصالحين، وأصحاب الرسول الذين هم زبدة الأمة، وذروتها الشماء، في العفاف والتقوى، وفي الورع والدين.

قال ابن الأثير: وبلغ عليا أن الناس يقولون: لو سار بنا إلى قتال هذه «الحرورية»[1] فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى قتال المحلين ! فقال لهم: «بلغني أنكم قلتهم كيت وكيت وإن غير هؤلاء... أهم إلينا فدعوا ذكرهم، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكا، ويتخذوا عباد الله خولا»[2] فناداه الناس أن «سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت»[3] هذا هو رأي الجند المخلص للإمام وليسوا كثرة في جيشه، فهب الأشعث بن قيس وأنصاره فاثأروا العامة على الإمام، فما زالوا به يطالبونه بالسير إلى أهل النهروان، وتشعره عيونهم المحمرة عليه بالتهديد، ويلوحون له بالثورة عليه حتى أرغموه على السير إلى النهروان، فقصد عبد الله بن وهب وأصحابه، ولكن على نية استمالتهم إليه، واجتذابهم إلى صفوفه لا على نية مقاتلتهم، والقضاء عليهم.

قال الشماخي: «ثم سار علي إلى معاوية حتى انتهى إلى الأنبار فقال له الأشعث أتسير إلى الشام ومعاوية، وتترك أهل النهروان وراءك ! .. فبعث إليهم الحسن في خيل فلما جاءهم قالوا له: لم جئينا يا حسن؟ نذكرك الله في دمائنا ! علام تقاتلنا؟ الأننا سمينا أباك أمير المؤمنين فخلع نفسه، وأبينا أن نخلعه، ودعوناه أن يمضي إلى قتلا عدو الله وعدونا فأبى وثبتنا نحن على ذلك؟! فانصرف الحسن فلم يقاتلهم حتى انتهى إلى

1 - الحرورية نسبة إلى قرية حروراء التي نزلها أصحاب عبد الله بن وهب في اعتزالهم الأول للإمام. إن هذه النسبة من وضع الملكيين الذين لا يألون جهدا في تحقير الجمهوريين، وليست مما يسمى به عبد الله وصحبه في عهد الإمام.

2 - الخول ، العبيد، ويطلق على الواحد والجماعة ومفرده أيضا خائل.

3 - الكامل ج 3 ص 172 ط المنيرية.

علي، فقال له الأشعث: يا ناجز القوم فإنهم إن كلموا الناس أفسدوهم عليك».[1] فما زال الأشعث بن قيس ورؤساء القبائل يلحون على الإمام أن يسير إلى أهل النهروان ليقاتلهم ويقضي عليهم، والإمام يأبي ذلك ويرفضه، ويرى أنهم لم يأتوا شيئا يستوجب قتالهم، وأنهم خاصته في صفين، وعدو معاوية والملكية المستبدة فهم من حزبه، يعلمون لما يعمل له، ويجهدون فيما لتحقيقه، ولكن الأشعث ابن قيس وصحبه كان في يدهم العامة فهي السلاح الذي يجبرون به عليا على الخضوع ويرغمونه على الامتثال، فأشهروه عليه فلم يسع عليا إلا الرضوخ، فسار إلى النهروان لا على نية القتال، ولكن على نية مصالحة عبد الله بن وهب وصحبه فيكونوا جميعا، فيتقوى بهم علي في جيشه وترجح بهم كفته في جنده، وتكون القوة في جانبه، فلا يستطيع الأشعث أن يملي عليه ما يريد، ويخضعه لما يشاء، فيتقوى بهم علي معاوية فينازله ويدحضه، ويهاجم الملكية الغاشمة في أوكارها فيقضي عليها، لذلك لما وصل علي النهروان لم يسارع لحرب عبد الله، بل بعث إليه سفراءه، يدعوه إلى المصالحة والمسامحة، فأرسل إليهم صعصعة بن صوحان، ثم أرسل إليهم قيس بن سعد بن عبادة، وهو أدهى رجل في أنصار علي. وكان معاوية يراه لدهائه اكبر خطر يهدده لما كان على مصر للإمام، فهو أحسن من يليق لإصلاح ذات البين، ويطب للجروح فتندمل، ويقع بدهائه ورفقة أصحاب عبد الله فيضمهم إلى علي. فذهب إليهم ففاوضهم وحاججهم فأقنعوه فرجع إلى الإمام فرده الإمام إليهم وثالثه فواعدهم قيس أن يأتيهم الإمام بنفسه ليعتذر عمل مضى، ويعاهدهم العهود المؤكدة أن لا يلين في مواطن الصرامة، وان لا يأتي ما يأباه الحزم والدهاء، فرضي عبد الله وأصحابه بهذا، واستبشروا به، وصاروا مستعدين لمصالحة الإمام ونسيان ما مضى مما مكن لمعاوية وأورثه قوته، ورسخ جذور الملكية[2] التي تزاحم الجمهورية الإسلامية لتقضي عليها، فسرحوا خيولهم، وزالت من وجوههم دهمة الاستعداد للوغى، وأشرقت بنور الإقبال والاستعداد للمصالحة والإخاء، ووضعوا سلاحهم، وتفرق جندهم فاختلطوا بأقاربهم وإخوانهم من جند الإمام، وقد زالت الحزازات من النفوس، وذهب الحذر الذي يمنع من اختلاط الجيوش، فلم يبق إلا أن يتحرك ركب علي ذاهبا إلى معسكر عبد الله، فيجتمع بأصدقائه القدماء، ويعطف بالاعتذار قلوبهم إليه، ويضم خاصته القديمة المخلصة إلى جانبه. وقد تفاءل الأحنف بن

1 - إن هذا النص دليل على نسبة جرائم مسعر بن فدكى إلى أصحاب عبد الله بن وهب من فعل الملكيين بعد النهروان فلو نسبت إليهم قبلها لتدرع بها الأشعث لحمل الإمام على قتالهم، وتساؤلهم للحسن علام تقاتلنا؟ وانصرافه عنهم دليل على براءتهم مما يستوجب قتالهم.

2 - الملكية بفتح اللام نسبة إلى الملوك.

قيس وخاصة الإمام المخلصة بهذا، واستبشر الأصفياء من جند علي بهذا الفتح المبين، أما الأشعث وأنصاره، وجماهير الجند التي تتبعه، فارتاعت من مفاوضات الصلح، وما توصل إليه الإمام من نتيجة حسنة مع عبد الله، ورأت عبد الله وعليا يوشك أن يكونا يدا واحدة على معاوية وحزبه، فآلى الأشعث وأصحابه أن يحولوا دون وقوع هذا الصلح، وان يقعوا الإمام في حرب مع أصحاب النهروان، فكان ما أرادت بطانة معاوية أن يكون !

لقد أورد الشماخي والبرادي مفاوضات الصلح أجراها سفراء علي نع عبد الله، وتردد قيس بن سعد بن عبادة بين الطرفين، وإرسال علي له ثلاث مرات لما يرجوه ويرغب فيه من إصلاح ذات البين، وهذا دليل على أن عليا لم يقصد الحرب لما ذهب إلى النهروان، وإنما قصد الصلح وضم عبد الله وقوته الحربية الكبرى إليه، لان عداء علي كان يتجه إلى معاوية، وإذا تعب علي في شيء فتعبه في كف الأشعث وحزبه من دعاة الفتنة الذي يدعونه لحرب عبد الله وهو يدافعهم ويداورهم، ويأبى عليهم أن يوقع شرا بأناس يحاربون عدوه معه، وهم لم يرتكبوا ما يجيز الدين قتالهم من اجله. وليس صحيحا ما قاله بعض المؤرخين الذين ينقلون كل ما يسمعون، حتى كلام العامة التي يستولي عليها الحماس والغضب وقصر النظر فتعلل حوادث النهروان بما يأباه المنطق الصحيح، وما تصرح به بعكسه ما يثبتونه في كتبهم من نصوص صحيحة ! إن هؤلاء اتهموا الإمام بأنه واعد عبد الله وأصحابه بإتيانهم ليعتذر إليهم ويصالحهم ايامنوا فيفرقوا جيوشهم فيهجم عليهم، وانه كادهم ! إن عليا رضي الله عنه اجل وارفع نفسا من أن يرتكب هذا. إنه علم في الدين، ورأس في الشجاعة، لا يحارب من يحاربه إلا وهو على أتمه في الاستعداد! لو كاد الإمام أحدا ومكر به، لأبى على معاوية في صفين أن يشرب جيشه من النهر الذي استولى عليه، وقد ألح عليه أصحابه أن يمنعهم الماء كما منعوه، ويهجم عليهم وقد قيدهم العطش له، فيأخذهم قبضا بالأيدي، فلا يحتاج إلى الحرب معهم فقال لهم: لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حد السيف ما يغني! هذا هو الإمام علي! لا يعتمد في الحرب على كيد الضعفاء، ولكن على أسلوب الشجعان الأقوياء!

إن عليا لم يكن راغبا ولا عازما على حرب عبد الله فيكيده كي يفرق جموعه، ولكنه كان صادقا فيما ابلغ سفيره قيس عبد الله من إتيانه إليهم للمصالحة والاعتذار. وما كان لعلي وهو علم في الدين، ومن يضرب به المثل في الورع والتقوى، أن يخيس بوعدهن ويكذب في قوله، ويهجم على الآمن الذي وثق بعهده، واطمأن إليه، فألقى سلاحه، وفرق جنده واختلط بجيشه !

إن من يصفون عليا بالكيد لعبد الله ففرق جيوشه، يصفون عبد الله وأصحابه بالغرارة والغفلة، وهم الدهاة الأذكياء، الذين يتبينون الخفايا الخفية، ويتنبهون للدقائق التي لا تبين، وما كان لقيس ولأدهى منه أن يداجي عبد الله وصحبه فيلبس غير وجهه، ويظهر بغير حقيقته، ثم لا يعرفون. وما كان لقيس في فضله وصلاحه، وفي اعتداده بنفسه، وفي غيرته على مكانته العالية في عصره أن يفعل هذا، فيخادع أناسا يشهد بفضلهم، وينطوي على إجلالهم وإكبارهم، ويراهم قوة عظمى يجب جرها إلى الإمام، وأجنحة على الكبرى يجب أن ترجع إليه!

إن العوام والذين لا يحكمون المنطق في هذه الحوادث قد أراهم الغضب والنظر بالعاطفة في هذه الحوادث غير الحقيقة، فتفوهوا وعللوا الحوادث تعليلا خاطئا، فنقل بعض المؤرخين تلك الأقوال التي يناقضها ما أثبتوه بعد ذلك ونسبوه إلى الإمام من تحسره وتأسفه وبكائه على عبد الله وصحبه الذين استشهدوا في النهروان، وما وصفوه به من تحسره حين كانت المعركة جارية، والهجوم يقع على عبد الله بن وهب وصحبه. فلو كان هو الأمر بالهجوم، المشعل للحرب، لفرح بالنصر، وسر بقضاء جنده على أصحاب عبد الله!

هجوم الأشعث وحزبه على عبد الله بن وهب

ووقوع مأساة النهروان

وكان الأشعث بن قيس وصحبه من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية يتحسرون ويتألمون لما وصل إليه على من نتيجة حسنة مع عبد الله، وعزم علي على المسير إلى عبد الله لن وهب ليصالحه فيكونوا يدا واحدة، فعزم أن يفسد خطة الإمام، ويمنع الصلح أن يقع، فيهجم على عبد الله بن وهب وصحبه، ويشعل عليهم الحرب الضروس، ويجعل الإمام في الأمر الواقع الذي لا يستطيع له ردا. إن أتباع الأشعث في جند علي كثيرون، وإن كثيرا من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية هم ضباط جيش علي، فيستطيع هم وهؤلاء الضباط أن يعلنوا الحرب بدون إذن الإمام، ويبعثوا الجيش على القتال بغير مشيئته.

وكان عبد الله بن وهب الراسبي في أربعة آلاف من جنده، فلما واعده قيس بن سعد بمسير على إليه، شرع يستعد للقاء المصالحة، وامن واطمأن، وأذن لجيشه أن يتفرق، فذهب أكثره لزيارة أقاربهم وإخوانهم في جيش الإمام، ليؤكدوا ما عزم عليه الطرفان من المصالحة، ويبينوا برفع الحذر حسن نية عبد الله. فلم يبق في معسكر عبد الله وتفرق جيشه، فهجموا عليه، وأحاطوا به، فركب عبد الله وركب أصحابه وخاصته الذين كانوا معه في المعسكر ينتظرون وصول وفد الإمام، فدارت معركة رهيبة بين الأشعث بن قيس الذي يندفع بجيش الإمام وعبد الله وصحبه، سقط فيها من القتلى مئات من الطرفين، ودامت يوما كاملا من الغداة إلى الأصيل. وكان الأشعث وصحبه في حوالي ستين ألف مقاتل، وكان عبد الله بن وهب في ألف وثمانمائة، وهوجموا على غرة، فقاتلوا حتى قتلوا فلم ينج منهم إلا القليل، فاستشهد في المعركة عبد الله ابن وهب الراسبي وخاصته من الصحابة وكبار التابعين، وتفرق بقية جيش عبد الله الذي لم يشارك في المعركة، وأكثرهم من العوام الذين سينقسمون بعد ذلك أقساما فيكون منهم الازارقة الذين وقع لهم رد فعل بهذه المعركة فكانوا على ما سنبينه في الفصل التالي.

وكان الإمام علي كما روى الشماخي يتأسف ويتحسر ويندب حظه لما أشعلت هذه الحرب بغير إذنه، ورأى عبد الله وصحبه يسقطون في ميدان المعركة، فيفقد فيهم اكبر نصير كان يتمنى أن يتقوى به على معاوية. فلو كان الإمام هو الأمر بالحرب، الراضي بها، ما تحسر وتأسف لما رأى جيشه يحيط بعبد الله ويعمل للقضاء عليه. لقد كان يسر ويبتهج بهذه النتيجة والحرب مشتعلة، وهو على الحماس والغيظ الذي بعثه عليها. إن

الإنسان ليتأسف ويتحسر لما أشعل من حرب على أخيه، ولكن بعد خمودها وسكونه، وأوبة العقل إليه، وسكرت مراجل غضبه، ولا يتأسف ويتحسر وهي مشتعلة إلا وهو كاره لها، غاضب لإشعالها، متأسف لما وقع بغير إذنه! !

قال الشماخي:[1] وقاتل عبد الله وأصحابه قتالا شديدا، وقتل زيد بن حويم نحو مائة وأكثرهم من همذان. واقتتلوا من صلاة الغداة إلى الأصيل، وعلي واقف ومعه «ذو العقيصة» فسمعه يقول: والله إن كنتم لأصحاب الدار يوم الدار، وأصحاب الجمل يوم الجمل، وأصحاب صفين يوم صفين، وأصحاب القرآن إذا تلي القرآن! ! فقال له: ففيما نحن إذا فضرب فرسه فلحق بهم».

عدم مشاركة علي في حرب النهروان

ومن الأدلة على كره علي لهذه الحرب، وأنها قد وقعت بغير إذنه عدم مشاركته فيها، وهو الفارس الذي تأبى عليه شجاعته أن تشتعل حرب بمشهده ولا يخوضها، سيما إذا كانت حربا قاسية تستمر يوما كاملا، ويصاب فيها جيشه بالخسائر الكبيرة، ويقتل من همذان وحدها نحو مائة رجل. وقد رأيناه في حروب صفين يشارك في المعارك، ويكون القلب لجيشه في الوقائع الكبرى، ويأخذ سيفه فيقتحم الانون فيضرب به حتى يتفلل فلا يبقى فيه مكان يصلح للضرب، ثم يرجع وقد أشفى طبع البطولة فيه، وابرد الغليل الذي تحدثه شجاعته فيه لاقتحام المعارك واصطلاء الوغى. وقد نهاه أصحابه في صفين عن المشاركة في الحرب فكان لا ينتهي، فأقاموا عليه حراسة تمنعه وتكفه عن خوض الوغى! هذا هو علي سيد الشجعان، وإمام الأبطال! فلو كانت حرب النهروان برضاه لشارك فيها، ولكنها من فعل الأشعث وحزبه الذين هاضوا أجنحة الإمام بالقضاء على أصحاب النهروان، ليتمكنوا بعد ذلك من الكيد الأكبر له، وتفريق جيوشه عنه، فلا يسير إلى معاوية في الشام، فتنتصر الملوكية،[2] ولا يقوم لعلي قائمة بعد وقعة النهروان المشئومة.وكان حزن علي كبيرا على عبد الله وصحبه الذين فقدهم في النهروان. وقد بكاهم بكاء مرا، وحزن لفقدهم الحزن الشديد، ورآهم اعضاده قد أزيلت، وأجنحته قد قصت، وقوته الكبرى قد جرده معاوية منها.

قال الشماخي: روي عن ابن عباس قال: حدثني قنبر مولى علي قال: تحولت أنا وعلي إلى النهر بعد القتال فانكب طويلا يبكي. فقلت: ما يبكيك؟ قال: ويحك! صرعنا ها هنا خيار هذه الأمة وقراءها! فقلت: أي والله فابك، فبكى طويلا.

1 - سير المشايخ ص 53 ط البارونية.

2 - الملوكية صحيحة على مذهب ابن جني الذي أجازها وسنبين ذلك في تعليق مقبل.

إن هجوم جيش علي على أصحاب النهروان كان بغير إذنه، وإنما بتدبير من الأشعث وصحبه! ولما قتل عبد الله وصحبه تنفس الأشعث وصحبه الصعداء، وعلموا أنهم قد بلغوا ما يشاءون في الإمام، فشمروا للإجهاز عليه، وضربه الضربة الأخيرة التي تفرق جيوشه عنه، وتجرده من بقية أنصاره، فيقعد عن حرب معاوية يحدث نفسه بها بعد ذلك! فما هو كيد الأشعث وصحبه للإمام؟

كيد الأشعث لعلي واثر وقعة النهروان في أنصاره.

ولما قضى الأشعث على أهل النهروان بهجومه المفاجئ الذي لم يأمر به الإمام علي، وعلم انه قد قضى على العدو الأكبر الذي يهدد الملكية، والقوة الكبرى التي يخشاها معاوية، وانه قد شان صفحة الإمام بالقضاء بجيشه على أهل النهروان، وان هذا سيكون له الأثر الكبير في جرح خواطر من بقي معه من أنصار المخلصين،لأنهم يعدون أهل النهروان لهم خاصة مبجلة، ما منهم إلا وله قريب أثير في أولئك الشهداء أو شخص يبجله ويؤثره في أولئك القتلى، وان قتل أهل النهروان سيملأ بالتشاؤم والاستيلاء البالغ قلوبهم، ويقضي على معنوياتهم، ويكون سببا لانصرافهم عن الإمام فلا يجد القوة التي يسير بها إلى الشام، وان استياء هؤلاء الأنصار المخلصين للإمام مما وقع لأهل النهروان، وإياسهم وانصرافهم عن الإمام، سيزيد الأشعث وحزبه في التمكين من ناصيته، والهيمنة والتحكيم فيه، فيجره لما يشاء، ويرغبه على يريد.

وكان الإمام علي قد خرج من الكوفة لقتال معاوية، ولما صرف جيشه إلى النهروان، ووقع ما وقع بها من المآسي التي أحزنته، وملأت قلبه بالأسى، وأغرقت صدره بالبكاء، حاول أن يصرف جيشه إلى وجهته، وان يسير به إلى عدوه، ليقضي على الملكية وأنصارها، ولكن الأشعث وحزبه من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية فاندسوا في جيش الإمام كانوا له بالمرصاد، فما كادوا يتخلصون من جيش النهروان الذي كان يستعد لقتال معاوية حتى شمروا للتخلص من جيش علي، وتفريق الجند عنه، فقام الأشعث في أعوانه، وفي العامة الكثيرة التي تؤازره من الجند فقال لعلي: إن جيشا قد كل، ورماحنا تقصفت، وسيوفنا تفللت، وقوانا قد ضعفت بمعركة النهروان، فارجع بنا إلى الكوفة لنستجم، وتتجدد قوانا، ونتأهب لعدونا، فنكون أدرك لما تريد، وابلغ لما تحب، وأنكى في العدو القوي الذي سنحاربه ! فعرف الإمام وخاصته إنها مكيدة من الأشعث، فأبى عليهم ذلك، وحاول إقناعهم بوجوب السير إلى معاوية وافهمهم أن قتال البغاة واجب في الدين، وان معاوية يريد أن يقضي على الجمهورية الإسلامية، فتكون ملكا مستبدا يسير في الناس سيرة كسرى، معرضا عن طريق الخلفاء الراشدين الذي سنه

المصطفى، وأمر به الله، ولكن الأشعث وحزبه أبوا لان معاوية ولي نعمتهم، فهو الرجل الذي سيشبع أطماعهم، والملكية هي النظام الذي سيحققون في ظله كل ما يشاءون لأنفسهم من حظوظ عاجلة، ويتبوأون بها في الدولة ما يريدون من مراتب رفيعة، وتؤثل لهم ما تتحلب عليه أشداقهم، وتشره إليه نفوسهم من مال جسيم، فأبوا على الإمام إلا الرجوع إلى الكوفة!

رجوع علي إلى الكوفة وافتراق جيشه عنه

وكان الأشعث وأنصاره في جمهور كبير من جيش الإمام يناصرهم ويؤيدهم، ويمثل أوامرهم، فعلم الإمام انه لا يستطيع إرغامهم على ما يكرهون، وانه إذا سار بهم إلى الشام مرغمين فإنهم سينقلبون عله، أو يكونوا جيشا مغلولا لا يستطيع أن ينازل به جيوش معاوية الجرارة المخلصة المتحمسة لأميرها، فلم يسعه إلا الرجوع إلى الكوفة، فرجع وهو يرجو -في الشام واستياء- أن يكون الأمر كما تظاهر به الأشعث، وان يستجم جيشه ويستعد فيسير إلى الشام، فنزل بالنخيلة في ظاهر الكوفة، ونهى جيشه عن الافتراق والدخول إلى المدينة حتى لا ينتثر عقدهم، ويبرد حماسهم، وتتبدل نيتهم في قتال معاوية وحزبه، ولكن الأشعث وحزبه ما كانوا ليمكثوا في معسكر علي ليسير بهم إلى الشام، إنهم لا ينوون حرب معاوية، بل مناصرته وتأييده، ليكون الأمر له، فصاروا يتسللون وحدانا وجماعات فلم يبق في المعسكر إلا الإمام وجماعة قليلة من أنصاره.

اثر وقعة النهروان في أنصار علي

وكان كثير من أنصار الإمام المخلصين قد خرجوا معه على نية قتال أهل الشام، فهم على حماسه للسير إلى الملكية والقضاء عليها، ولكن لما أرغم الإمام على العدول إلى أهل النهروان، ثم وقعت المعركة المشؤومة، فقتل فيها رجال لهم المكانة العليا في نفوسهم، والماضي المشرق الذي بوأهم في أعلى المراتب من قلوبهم، ورأوا الأشعث وكيده، ومتابعة جمهور الجيش له، وقع لهم رد فعل شديد بوقعة النهروان التي قتل فيها خاصتهم وإشرافهم، وبما صار إليه الإمام من عدم سيطرته على الجند، ووقوعه في قبضة الأشعث يوجههم كما يريد، فتشاءموا، وايسوا من استطاعة علي الوقوف في وجه معاوية، وان تكون الغلبة له بعد ما قضي الأشعث على خاصته وأركان جيشه من أهل النهروان، فرجعوا إلى الكوفة مع الراجعين، فبقي الإمام في عدد ضئيل من خاصته فلم يسعه إلا الرجوع.

قال ابن الأثير يذكر مكيدة الأشعث وتفريق جيش الإمام، وما طلبوه به لما أمرهم

بالمسير إلى الشام من النهروان قالوا له: «يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرها قصدا، فارجع إلى مصرنا فلنستعد، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا، فانه أقوى لنا على عدونا! وكان الذي تولى كلامه الأشعث بن قيس! فاقبل حتى نزل النخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وان يقلوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا فيه أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالا من وجوه الناسي، وترك المعسكر خاليا «وقد خرج في يوم واحد اثنا عشر ألفا واراهم من شيعة الأشعث، وفي يوم ثلاثمائة» فلما رأى علي ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير».[1]

وكانت وقعة النهروان وقضاء الأشعث على الجمهوريين فيه شرا على الإمام؛ فقد هاضت جناحه بمن استشهد فيها من خاصته، ومن المناهضين للملكية معه، وزادت في جرأة معاوية عليه، فلم تقم للإمام علي بعدها قائمة، ولم يستقم له أمر، ولا استطاع أن يمني نفسه بالسير إلى معاوية والقضاء على الملكية، بل صار لتخاذل جيشه، وفساد قلوب رعيته بدعاية الأشعث لا يستطيع حتى الدفاع عن مدن العراق التي يهاجمها معاوية فيقتل عماله، ويرتكب أنواع الظلم في رعيته. وقد حاول الإمام المرار العديدة أن ينفخ الحماس في قلوب رعيته، ويستنهض هممهم، ويشعل العداء للملكية في قلوبهم، ويشعرهم بما أمر الله به من مقاتلة البغاة، فكان كمن يحاول أن يشعل الماء ويسرج التراب وينبت في الصخور الصماء التي لا تنفعل بالماء! إن رعيته احد اثنين فجمهور الدهماء كان مع الأشعث بن قيس وأنصاره من رؤساء القبائل التي اشترها معاوية، وبقية أنصاره قد تشاءموا وانكسرت قلوبهم بمن قتل من خاصتهم في النهروان، وباستشهاد أركان حربهم الذين يصولون بهم على معاوية مع عبد الله ابن وهب الراسبي في وقعت النهروان المشئومة، فانطفأ حماس هؤلاء الأنصار فلم يعودوا للإمام كما كانوا، فايس على رضي الله عنه أن يكون له في وجه معاوية موقف قوي يحول بينه وبين الملك الذي يرده، فتقوى معاوية وأيقن بتحقيق آماله في الملك بعد القضاء على أهل النهروان، وعلم أن الإمام قد قصت أجنحته، وقضى الأشعث على أنصاره لما قتل عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه، فلن يستطيع منازلته، فأرسل أعوانه فاحتل مصر والحجاز واليمن، وصار يغير على أطراف العراق، ويمهد لاحتلالها وضمها إليه، فانتصرت الملكية على الجمهورية الإسلامية، وبلغ معاوية ما يريد، وعاش الإمام على بقية أيامه بعد وقعة النهروان مقصوص الأجنحة، كاسف البال، مجروح القلب متشائما حتى استشهد رضي الله عنه في سنة أربعين بعد ثلاث سنين من وقعة النهروان.

1 - الكامل ج 3 ص 176 المنيرية. ما بين قوسين أثناء كلام ابن الأثير من المراجع الأخرى.

وكانت وقعة النهروان اكبر مكيدة دبرها معاوية لعلي، فإنها قد وجهت إلى علي ليقضي عليه أكثر مما وجهت إلى عبد الله بن وهب الراسبي! وعاش الإمام بقية أيامه بعد وقعة النهروان في وحشة وغربة لما فقد من أنصاره، ولما هد من أركانه! روى الشماخي: أن عليا فقد أصوات المتهجدين التي كانت في الليل كأنها دوي النحل «فتؤنس الكوفة، وتستنزل ملائكة الرحمة» فقال: أين اسود النهار ورهبان الليل!؟ «فقالت له العامة التي أغراها الأشعث في النهروان». قتلناهم يوم النهروان.[1]

قال الشعبي لما قتل أهل النهروان أيس علي أن يستقيم له الأمر فقال لابنه لا تكرهوا بيعة معاوية.[2]

الأشعث ابن قيس وقضاؤه على علي

وكان الأشعث بن قيس اكبر أنصار معاوية في جيش علي ورعيته، وكان شؤما وبلاء على الإمام علي وآل بيته، فهو جسر معاوية إليه، ومنفذ الخطط والمكائد التي يحوكها معاوية له، وإذا كان معاوية هو الذي بطش بالإمام وقضى على دولته، فان الأشعث هو أمضى أظفاره، واحد أنيابه، والتي هاجم بها الإمام فبلغ فيه مراده!

وكان الأشعث رقيق الدين، تسيره غرائزه، وحب المال المستولي عليه، فاستطاع معاوية أن يجذبه إليه، وان يصطنعه ويسخره في أغراضه.

وكان الأشعث من آخر من اسلم في عهد النبي، اسلم في سنة عشر من الهجرة وكان من المرتدين بعد موت الرسول عليه السلام «فسير أبو بكر الجنود إلى اليمن فاخذوا الأشعث أسيرا فاحضر بين يديه»[3] فعفا عنه أبو بكر، ولو قضى عليه لأغلق بابا للفتنة تفتح على المسلمين، ومنبعا للبلاء تسلط على علي رضي الله عنه.

قضاء جعده بنت الأشعث على الحسن ابن علي

وكان الحسن بن علي قد تزوج ابنته جعدة بنت الأشعث فداخلها معاوية وجعل لها إن سمت الحسن أن يزوجها ابنه يزيد، وان يعطيها مالا كثيرا فسمت زوجها الحسن فمات فوفى لها معاوية بالمال أما يزيد فقال لها: لا تزال لنا في يزيد رغبة! فلم يوف لها بوعده في الزواج.

1 - سير المشائخ لأحمد بن سعد الشماخي ص 54 ما بين قوسين في كلامه ليس له وهكذا كل كلام يرد بين قوسين في نص من النصوص في هذا الكتاب.
2 - سير المشائخ ص 55.
3 - أسد الغابة ج 1 ص 98.

تسلط الأشعث على جيش علي

ومن اكبر الأدلة على أن الأشعث كانت له الأغلبية في جيش علي هو عدم استعداد معاوية لما خرج إليه الإمام بجيوشه، وقد رأيناه في حروب صفين يستعد ويأخذ كل أهبته، ويجمع كل قواه، فيخرج إلى الإمام ليدافعه عن الشام، وينازله قبل أن يطأ أرضه فتزداد جرأته بدخول بلاده، أما الآن فقد أيقن أن جيش الإمام بعد أن فارقته خاصته من أهل النهروان جسم قد فارقه صلبه، وذهب عموده وان الذين هم منبع الحماس لجيشه فيندفع ويثبت في القتال قد فارقوه فبقي في جيش يسيطر عليه الأشعث وحزبه، فما كان لعلي أن يبلغ إليه فيقاتله، فنام مطمئنا معتمدا على جيشه المبثوث في جند علي، متكلا على الأشعث وصحبه أن يحققوا له كل ما يشاء وقد بلغ معاوية مراده في الإمام ففرق جيشه، واستولى على بلاده، وشله عن كل حركة يقوم بها ضده، فشمر للقضاء على الجمهوريين من بقايا أهل النهروان وأنصارهم، ومن انضم إليهم من علماء المسلمين، فأشهر عليهم هو والملوك الأمويون والعباسيون من بعده السنة الدعاية الكاذبة ليشوهوا سمعتهم، ويبعدوا العامة عنهم، فلا تكون كفة الجمهورية الإسلامية هي الراجحة! وكان من أكاذيب الدعاية الملكية ضد الجمهوريين نسبة جرائم مسعر بن فدكي، وجريمة عبد الرحمن بن ملجم إلى الجمهوريين أتباع عبد الله بن وهب الراسبي! فما هي تلك الأكاذيب الملوكية على أنصار الجمهورية الإسلامية؟

أكاذيب الملكيين[1] على الجمهوريين

مسعر بن فدكي وعصابته

لما خرج عبد الله بن وهب الراسبي وأصحابه من الصحابة وكبار التابعين، ومن يؤيدهم من العامة التي تتمسك بالجمهورية الإسلامية، وتأبى الملكية المستبدة، لما خرجوا من الكوفة إلى النهروان بين بغداد وحلوان، فجعلوه معسكرهم يستعدون فيه للسير إلى معاوية ليقضوا على الملكية وأنصارها، تلاحق بهم أنصارهم من الكوفة والبصرة وأنحاء العراق فخرجوا جماعات إلى النهروان. وكان ممن خرج من البصرة مسعر ابن فدكي وعصابته.

وكان مسعر عاميا من يسيرهم الحماس والعاطفة لا الدين والعقل. إن اسمه يدل عليه. إنه ليس اسم رجل جليل الشأن عظيم المكانة، فمسعر بن فدكي اسم لا يكون إلا لفاتك من العامة من مساعير الفتن الذين تسيرهم عواطفهم وحماسهم وتطرفهم في متابعة الأهواء والنزوات. وكان مسعر في عصابة مثله يقودها، ويندفع بها في طريقه فسفك الدماء وارتكب الجرائم! وارى مسعرا وعصابته قد دسوا على أصحاب النهروان من معاوية وحزبه ليشوهوا سمعتهم، وينفروا الناس عنهم. إن دهاء معاوية، واتخاذه كل وسيلة لإسقاط مناوئيه والقضاء عليهم وبراعته في الدعاية وتأثيره في الجماهير ليسوا له أن يوحي إلى مسعر وعصابته، فيتظاهرون بالخروج إلى أهل النهروان، وينتسبون إليهم، ويتعصبون لهم، وينادون بشعائرهم ويبدون في كل مظاهرهم حتى يعدهم الناس منهم، ويرونهم من حزبهم، ثم يرتكبون من الأخطاء والذنوب ما يستغله معاوية وحزبه في الدعاية ضد الجمهوريين. إننا لنشاهد هذا العصر أن من المتعارف عند الساسة، وما يأتيه كل من يريد تهديم حزب أن يدس في أعضائه من يتعمد ارتكاب ذنوبي تشوه سمعة الحزب فيستغلها أعداء الحزب في تهديمه والقضاء عليه. وارى أن مسعر بن فدكي من هؤلاء الذين أوحى إليهم معاوية وأنصاره بالخروج وارتكاب ما ارتكب من الفظائع ليستغلوا ذلك في الدعاية ضد أصحاب النهروان الجمهوريين فان لم يكن ذلك وكان مسعر بن فدكي جمهوريا يرى رأي أهل النهروان في الجمهورية الإسلامية، ويريد مثلهم مناصرة الإمامة العادلة فانه لم يكن على دين أهل النهروان وطريقتهم، عفافهم وورعهم، وتحرجهم كل التحرج في دماء المسلمين وأموالهم. لقد تبرأ أهل النهروان من مسعر، وأبوا أن ينضم إليهم ويعد من جماعتهم، وطلبوه لينفذوا فيه حكم الله فيقتلونه هو وعصابته لما سفك من دماء حرام فهرب فلم يستطيعوا إدراكه.

1 - الملكيون بفتح اللام أنصار الملوك منسوب إلى الملوك وكذلك الملكية.

فماذا فعل مسعر بن فدكي فاستغله الملوك ودعاتهم، وبنوا عليه أكاذيبهم لتشويه سمعة الجمهوريين؟

قال الشماخي. «وخرج مسعر بن فدكي من البصرة في عصابة فجاز على « المدائن وفيها عبد الله بن خباب وكان عاملا للإمام علي عليها كما قال بعض المؤرخين» قال الشماخي: فسأله مسعر عن التحكيم فقال إن أبي أوصاني أن ألزم بيتي إذا وقعت الفتنة فقال: إن الله أوصانا بغير ما أوصاك به أبوك. قال: تقاتلوهم حتى لا تكون فتنة فقتله مسعر،»وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا متما في شهرها التاسع» قال الشماخي: فأتى أصحاب النهروان فأنكروا ذلك عليه، وهموا بقتله ففر فبرئوا منه».

وقال الشماخي: «وفي كتاب النهروان حدثني عتاب بن إبراهيم أن مسعرا حين هرب لقي أناسا من أهل خراسان حجاجا فضرب أعناقهم»[1] وصار يستعرض كل من يخالفه ويستحل دماءهم، وسلك مسلك الأزارقة الغلاة الذين جاءوا من بعده.

هذا هو مسعر بن فدكي وذلك هو موقف أصحاب النهروان منه ومن أعماله، أنكروا جرائمه، وهموا بقتله تنفيذا لحكم الله فيه فهرب، فتبرءوا منه حتى لا ينسب إليهم، ولا يعده المسلمون من جماعتهم.

وقد استغل الملكيون جرائم مسعر بن فدكي وفظائعه في دعايتهم الكاذبة ضد الجمهوريين فنسبوها إلى عبد الله بن وهب وأصحابه في النهروان، ثم بالغوا في أكاذيبهم فنسبوا إلى الإمام علي رضي الله عنه بأنه طالب أهل النهروان بان يدفعوا إليه مسعر ابن فدكي فأبوا وقالوا: قلنا قتل عبد الله بن خباب! فجعلوا مسعرا فيهم، وفي جماعتهم يطالبهم به الإمام وهم يحمونه ويتعصبون له، ثم جعلوا عبد الله بن وهب ومن معه من الصحابة وكبار التابعين كلهم يرى رأي مسعر في دماء المسلمين، ويسلك سلوكه فيهم ليصوروا للعامة ومن لا يعرف عبد الله وصحبه أهل النهروان عصابة تقتل الأبرياء، وتقطع الطريق، وتبعث في الأرض فسادا، ويوهمون الناس أن الإمام عليا قد عدل إلى أهل النهروان فقاتلهم باختياره، وهجم عليهم بإرادته لمخالفتهم للدين وسفكهم دماء المسلمين.

إن أهل النهروان لو كان مسعر بن فدكي منهم، وأنهم ارتكبوا في عبد الله ابن خباب ما ارتكبوا ما أبى الإمام علي أن يسير إليهم لما دعاه الأشعث بن قيس وحزبه إلى ذلك. إنه احرص منهم على الدين، فما كان ليسكت عن عصابة تسفك دماء رعيته

1 - سير المشائخ ص 51 ما بين قوسين أثناء نصوص الشماخي من المراجع الأخرى ابن الأثير والمسعودي.

وتقتل ظلما عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبقر بطن امرأته الحامل، وتأتي هذه الفظائع التي تعبث النقمة والسخط في كل النفوس، فما بنفس متدينة غيورة على الدين وعلى المسلمين كعلي رضي الله عنه وما كان الإمام أن يسكت ويقعد ويأبى السير إلى مقاتلة أناس قتلوا عاملة على المدائن فتعدوا على الدولة، وجرؤوا عليه، وارتكبوا فيه ما لا يسكت عنه أبى شعاع كالإمام! لو كان مسعر بن فدكي من أصحاب النهروان ما أبى على المسير إليهم بل لوجدناه إلى قتالهم أسرع من الأشعث وحزبه لينفذ حكم الدين الذي يغار عليه، ويأمن ظهره إذا سار إلى الشام، فلا يصيب رعيته وبلاده في غيبته ما يسوءهم. ثم إن الحسن لما أرسله الإمام إلى أهل النهروان[1] ليعجم عودهم، ويرى استعدادهم للصلح معه سألوا الحسن: علام تقاتلنا؟! فلو كان مسعر بن فدكي منهم لاحتج الحسن ابن علي بجرائمه عليهم، وقد أفحموا الحسن وانصرف عنهم فلم ينلهم بسوء. ولو كان أصحاب النهروان يستحلون الدماء، ويسارعون إلى إهراقها لقاتلوا الحسن لما جاءهم في جزء من جيش أبيه يستطيعون أن يقاتلوه فيهزموه، ولكنهم كفوا وأقنعوه ليكف عنهم فانصرف إلى أبيه:

ومن الغريب أن هؤلاء الملكيين قد حاولوا أن يشوهوا سمعة الإمام أيضا بمسعر ابن فدكي فقد روى بعض المؤرخين ونقل عنهم الشماخي: أن مسعر بن فدكي بعد أن سفك الدماء الحرام وعاث في الأرض فسادا دخل على علي في الكوفة فوقف على رأسه فعفا عنه !» إن الإمام عليا لأجل واش غيرة على الدين، وأقوى على تنفيذ أحكام الله في مثل مسعر من أن يعفو ويسكت في مقام لا يجوز فيه العفو والسكوت، ولكنها الدعاية الملكية التي أرسلها الملوك الأمويون والعباسيون وأنصارهم وأكدها الملوك في القرون العشرة الأولى ليشوهوا سمعة الجمهوريين الذين ناهضوا الملكية المستبدة، وخرجوا عن الظلم والطغيان فأسسوا دولهم الجمهورية العادلة التي التزمت في سياستها وفي كل أمورها الدين، وسار أئمتها المتقون سيرة الخلفاء الراشدين! ثم يستشهد الإمام علي رضي الله عنه فيستغل قتله الملكيون في الدعاية ضد الجمهوريين فما هي أكاذيبهم على الجمهوريين ليشوهوا سمعتهم عند المسلمين؟

اغتيال الإمام علي وأكاذيب الملكيين على الجمهوريين

كان استشهاد الإمام علي رضي الله عنه في شهر رمضان لسبع عشرة خلت سنة أربعين من الهجرة، والذي اغتاله هو عبد الرحمن بن ملجم ألمرادي لعنه الله.

1 - انظر قصته في صفحة 359 من هذا الكتاب.

قال ابن الأثير: إن عبد الرحمن بن ملجم ألمرادي، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا «في مكة» فتذاكروا أمر الناس (واختلافهم) وعابوا عمل ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهروان فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا «أئمة الخلاف» فقال ابن ملجم أنا أكفيكم عليا -وكان من أهل مصر- وقال البرك أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص» ثم مضى كل إلى صاحبه فنجا عمرو بن العاص لعدم خروجه في ذلك اليوم وقتل خليفته، ووقى معاوية سمنه فلم يقتل ولكن الضربة قطعت منه الولد. واختار الله للإمام الشهادة فاغتاله الشقي.

كتمان ابن ملجم أمره على الجمهوريين في الكوفة

قال ابن الأثير فأتى ابن ملجم الكوفة فلقي أصحابه بالكوفة فكتمهم أمره» ويريد ابن الأثير بأصحابه الجمهوريين أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي، وقد كتمهم أمره لأنه يعرف مخالفتهم له في هذا الأمر، ومعارضتهم لهذه الجريمة، وأنهم سيكفونه ويمنعونه، أو يبلغون عليا عنه. فكمن ابن ملجم لعلي رضي الله عنه فلما خرج لأذان الصبح هوى عليه بالسيف فأصابه فمات بضربته بعد يومين. وكان عمره اثنتين وسبعين سنة، ومدة خلافته أربع سنين وعشرة أشهر وثمانية أيام. وقبل وفاته رضي الله عنه أوصى بنيه وآل بيته بهذه الوصية قال:»النفس بالنفس. إن ملكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رائي، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين تقولون قد قتل أمير المؤمنين! ألا لا يقتلن إلا قاتلي! انظر يا حسن. إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور» فلما قبض بعث الحسن إلى ابن ملجم فاحضره ثم قدمه فقتله، وأخذه الناس فأدرجوه في بواري[1] «ثم طلوها بالنفط»[2] فأشعلوا فيها النار فاحترق.[3].

تلك هي وصية الإمام رضي الله عنه، أبى أن يتهم احد بقتله غير ابن ملجم، وخاف أن يستغل الأشعث وحزبه حماس العامة بقتله فيوجهوا ثورتهم إلى الجمهوريين ليتخلصوا منهم، فسد هذا الباب، ولم يتهم أحدا من الجمهوريين الذين معه بالكوفة، وهم الذين يعمل الملكيون -الأشعث وحزبه- كل وسيلة للقضاء عليهم، وإبعاد الناس عنهم.

1 - البواري بتشديد الياء بارية وهي الحصير المنسوج.
2 - ما بين قوسين من مروج الذهب.
3 - الكامل ج 3 ص 197 ط المنيرية..

أكاذيب الملكيين

لقد استغل الملكيون مقتل الإمام علي رضي الله عنه ضد الجمهوريين أتباع عبد الله ابن وهب الراسبي. ولما كان ابن ملجم ينتسب إليهم، ويناصر الجمهوريين مثلهم، ويقول بقولهم في الملكية وأنصارها، فإنهم جعلوا أتباع عبد الله بن وهب الراسبي الجمهوريين كلهم على رأي ابن ملجم في علي، وجعلوهم كلهم شركاء ابن ملجم في دمه، وفي جريمته التي ارتكبها في الإمام رضي الله عنه.

لو أن ابن ملجم كان من رؤساء الوهبيين، ومن أعلام الجمهوريين، ومن أئمتهم وقادتهم فارتكب ما ارتكب بدون اتفاق خاصة الجمهوريين معه،وإجماع أتباع ابن وهب كلهم على رأيه، ما جاز أن تنسي إليهم فعلته، وتسند إليهم كلهم جريرته، فكيف وابن ملجم رجل بسيط عامي من الجمهوريين توطأ مع آخرين عامة مثله على قتل الرجال الثلاثة معاوية وعمرو بن العاص وعلي رضي الله عنه، هؤلاء الذين وقع بينهم النزاع، فافترق المسلمون، وسفكت الدماء بينهم، وانقسموا إلى معسكرين يتقاتلان، وحزبين يتناحران، فأبدى للعصابة الجاهلة قصر النظر، وبساطة التفكير، والجهل بالأمور، وعدم الدراية بالدين أن قتلهم يرجع للأمة الإسلامية وحدتها، ويجمع كلمتها، فتصير على ترابطها واتحادها وتحابها في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما! وما علموا أن الفرقة كانت بسبب تغير أخلاق المسلمين، وتبدل طباعهم بتحضرهم وتمدنهم، ومعاشرتهم للفرس والروم، ومصاهرتهم لهم واختلاطهم بهم، وان عهد أبي بكر وعمر في الوحدة ما كان ليرجع بزوال الثلاثة الذين وقع التنافس بينهم، والنزاع بين أتباعهم، ولكن بشيء آخر هو رجوع المسلمين إلى دينهم، وخضوعهم لأوامر ربهم، وتنزههم عن عبادة الذات والأنانية، والتحيز والعصبية كما كانوا في عهد الخلفاء الراشدين!

إن تآمر ابن ملجم وصاحبيه وحكمهم بالإعدام على الثلاثة لترجع الوحدة إلى المسلمين، يدل على بساطة التفكير، وقصر النظر، والجهل بالدين،وعلى أنهم جهلة بسطاء ليسوا من خاصة الجمهوريين الذين كانوا علماء أتقياء، دهاة حكماء! إن تفكير هذه العصابة المتآمرة يدل على حقيقتها، وهو برهان على إنها من الدهماء، ليسوا من خاصة الجمهوريين، ولا من يمثلهم ويكون عنوانهم، ويبدي آراءهم في السياسة والدين، وعلى أن هذا العمل ارتكبوه بدون علم الخاصة، وأنهم لا يمثلون فيه إلا أنفسهم، ولا يبدي إلا حقيقتهم، أما تفكير خاصة الجمهوريين وقادتهم فأعمق من هذا وارفع. لو وجدوا أن اغتيال معاوية وعمرو بن العاص يرجع للأمة الإسلامية وحدتها، لقضوا عليهما بأنفسهم. فما أسهل أن يقتلوا معاوية في طريقه أو في مجلسه، أو في مخدع نومه، بل

يستطيعون قتله وهو بين جنده وحوله حرسه. فقد كان للجمهوريين الأنصار الشجعان، ومئات من الأتباع الفرسان، وجهاز من الفدائيين الذين يسلطونهم على القتلة الظلمة من الملكيين. روى الشماخي أن غيلان بن خرشمة ذكر الجمهوريين عند زياد بسوء ليوغر صدره عليهم فيقتلهم. فلما خرج من المجلس لقيه أبو بلال مرداس بن جدير احد خاصة عبد الله بن وهب، ومن حضر صفين والنهروان، ورئيس الجمهوريين وإمامهم عبد الله بن وهب الراسبي، فقال أبو بلال لغيلان بن خرشمة: بلغني ما كان منك يا غيلان ! ما يؤمنك أن يلقاك رجل احرص والله على الموت منك على الحياة فينفذك برمحه! فقال: لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة! ومر أبو بلال على فرسه بنادي قومه فوقف وسلم فقال شاب منهم من سفهاء الملكيين يسب أبا بلال إمام الجمهوريين ويزري به. قال الشاب الملكي لأبي بلال: فرسك حروري! قال أبو بلال: وددت والله لو أوطأته بطنك في سبيل الله فمضى. وقال الفتى لأصحابه: إني مقتول! فمشوا إليه بالفتى فقالوا: اصفح عنه وقال: إذا كنت في مجلس أحسن حملان راسك! أولئك هم الجمهوريين بالكوفة وبالبصرة لم يكونوا بالضعفاء، ولا بالعزل، بل كان لقادتهم جهاز كبير من الفدائيين يعدمون بهم من يردون، ويقضون بهم على كل من يتعدى حدود الله فيهم من أتباع الملوك وصنائعهم الذين لا يحسنون حملان رؤوسهم، ولا يحكمون الدين والعقل في أعمالهم.

إن ابن ملجم كان من مصر واجتمع بصاحبيه اللذين تآمر معهما بمكة، أما خاصة الجمهوريين قادتهم كابي بلال مرداس بن جدير، وعروة بن جدير، والأحنف بن قيس، وعدي بن حاتم الصحابي، وفروة بن نوفل الاشجعي، وحريث بن حجل السدوسي، وأبو العباس بن عبد القبس وغيرهم من الصحابة وكبار التابعين الذين كانوا خاصة الجمهوريين وقادتهم؛ هؤلاء كلهم كانوا في الكوفة وفي البصرة فكيف ينسب شيء إلى الجمهوريين وهم لم يشاركوا فيه، ولا علموا به، ولا وقع في بلدهم وقريبا منهم. ولماذا لم تقع المؤامرة على الإمام في بلده، ويغشون مجالسه، ويصلون خلفه، ويجدونه وحده في خلوته، فيمكنهم في الإمام ما لا يمكن لابن ملجم وهو غريب الدار؟ وكيف لم يتول اغتياله رجل من فتيانهم الذين يأتمرون بأمر أبي بلال وخاصة الجمهوريين، واحد جهازهم من الفدائيين الذين أعدوهم للملوكية وأنصارها، فتولاه رجل سكنه بالكنانة وتآمر مع صاحبيه بمكة؟! ذلك أن الجمهوريين ما كانت جريمة اغتيال الإمام تقع ببالهم، وما كان هذا الأمر الفظيع يرضونه ويسكتون عنه. لو أن الجمهوريين كانوا يرون الفتك بالإمام لتآمر عليه خاصتهم لأنهم معه في الكوفة، ولأنهم من بقايا أهل النهروان الذين تسيل قلوبهم دما لما أوقع بهم الملكيون في النهروان اللين الإمام وانقياده للأشعث وحزبه، ولكنه الجمهوريين كانوا

يجلون الإمام ويعظمونه، وكانوا موقنين بان دماء أهل النهروان يتحملها الأشعث وحزبه، ومعاوية وأعوانه، وان الإمام إذا ليم في هذا فعلى انقياده للأشعث وحزبه، وعدم حزمه مع أتباع الذين اصطنعهم معاوية فحاكوا الدسائس والمكائد.

لو أن ابن ملجم لما تآمر مع العصابة في مكة على الإمام فجاء العراق استشار خاصة الجمهوريين وعقلائهم في الكوفة والبصرة وأعلمهم به، لجاز لأحد أن يتهمهم بالرضا بما فعل، أو بالتواطئ معه، فكيف وابن الأثير وغيره من المؤرخين قالوا انه نزل الكوفة فالتقى الجمهوريين فأخفى أمره[1] عنهم ولم يخبر أحدا بما جاء به إلا امرأة تسمى «قطام» وكانت بارعة الجمال فأراد أن يتزوجها، وكان أبوها وأخوها، قد قتلا في النهروان، فأشركها في المؤامرة، وباح لها بسره، فأمدته بمولى لها رومي يسمى «وردان» ليشد أزره في الجريمة، فكيف لم تده بأحد أبناء قومها الصرحاء فمدته بمولاها الرومي الذي لا غيرة له ولا بصيرة له في الأمور، والذي يمتثل أمرها ويكتم سرها؟ ذلك أن ابن ملجم وقطام كانا يعرفان معارضة الجمهوريين وخاصتهم لهذا الأمر الفظيع فلم يطلعاهم عليه.

إن أبا بلال وصحبه خاصة الجمهوريين وقادتهم لم يعرفوا ما جاء به ابن ملجم، ولو عرفوا لكفوه ومنعوه، أو اخبروا الإمام بقصده لأنهم لم يكونوا يرون الإمام في صف عمرو بن العاص ومعاوية تجوز مقاتلتهما. لقد كان عندهم ارفع واجل، وأعظم وأنزه، وكانوا يرونه علما في الدين، وجبلا في العلم، وبقية السلف الصالح من السابقين الأولين! !

لو أن الجمهوريين سيما خاصتهم كانوا متواطئين مع ابن ملجم، راضين بفعله، وكان ما فعله من رأيهم ومذهبهم، لكانوا شركاء له في دم الإمام، فيقتص الحسن ابن علي وخاصة الإمام منهم، فيقتلون منهم مقتلة كبرى. وقد حكم الحسن وصحبه وخاصة المسلمين على ابن ملجم بالإعدام، فقتلوه، وحرقته العامة مما يدل على تأثر أنصار الإمام، وهياجهم وغليانهم، وعلى ثورتهم الثائرة التي لابد أن تدفعهم للهجوم على كل من يشمون فيه رائحة التواطئ والتآمر على الإمام فيقتلونه. إن الدين يجيز لهم ذلك، فلو أن الأمة كلها تآمرت على مسلم لا يحل دمه فقتل لوجب قتلها جميعا.

لقد كان الجمهوريون مئات عديدة في الكوفة وفي البصرة وفي أنحاء العراق، وكانوا معروفي المكان، مشهورين يعرفهم الخاص والعام، ولم يكونوا أغلبية في العراق فتخشى، فلو تواطأوا مع ابن ملجم، أو اتجهت إليهم اقل تهمة سيما إلى خاصتهم لاغتنم الأشعث وأنصاره الفرصة فيهم، فيوجه إليهم سخط العامة التي تنقاد لهم

1 - انظر هذا النص في صفحة 376 من هذا الجزء.

لتقضي عليهم، فيستريح من هؤلاء الجمهوريين الذين يراهم الموت الأزرق، والبلاء الأحمر، والداهية السوداء للملكية وأنصارها!

إن ابن الأشعث ما كان ليدع هذه الفرصة لو وجدها، فلو وجد اقل شبهة وأوهى خيط لاتهام الجمهوريين سيما خاصتهم بدماء الإمام والتآمر عليه لهاجمهم ليقضي عليهم متظاهرا بالمطالبة بدمع كما تذرع معاوية للملك بالمطالبة بدم عثمان، ولكن شيئا من ذلك لم يقع مما يدل على أن خاصة الإمام وأنصاره وأهل العراق يعلمون براءة الجمهوريين ونزاهتهم، ورفعتهم وبعدهم عن هذه الجرائم الفظيعة، وتحرجهم كل التحرج في دماء المسلمين، سيما إماما يجلونه ويحترمونه ويرونه علما في الدين.

لو أن ابن ملجم الذي قتل عليا رضي الله عنه كان من أهل الكوفة، أو من أهل البصرة، حيث يوجد اغلب الجمهوريين وعلماؤهم، ورؤساؤهم، والممثلون لهم، والموجهون لعامتهم لقلنا إنه تأثر بآرائهم، واتجه اتجاههم، ولكنه كان من أهل مصر كما قال ابن الأثير، بعيد عنهم، لا يمكن أن يقال إنه مرآة يرون، وعنوان لما يعتقدون. إنه لا يشبه الجمهوريين إلا في إنكار الملكية، أما التمسك بالدين في الصغيرة والكبيرة، والتقيد بالشريعة في كل الأمور، وهو ما امتاز به الجمهوريون، خلو منه. إنه لو تمسك بالدين، وكان من الخاصة لعرف أن تنفيذ الأحكام ى يجوز إلا للإمام، وإذا لم يوجد فلجماعة المسلمين، ولخاصتهم دون عامتهم، ولعلمائهم الورعين الذين يعرفون حكم الله، ويحكمون بالعدل في الأشياء.

إن ابن ملجم إذا صحت نسبته للجمهوريين، عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه، فلكرهه للملكية، ولتحمسه للجمهورية الإسلامية والإمامة العادلة.[1] أما هو فعامي بعيد الدار عن محل الجمهوريين ومكان خاصتهم وقادتهم لا يمكن أن يكون عنوانهم.

وقد استغل الملكيون سيما الأمويون والعباسيون صلة ابن ملجم البسيطة بالجمهوريين، وبنوا عليها دعايتهم الكاذبة ضد الجمهوريين، فنسبوا إليهم قتل الإمام، ثم تجاوزوا في كذبهم وافترائهم فقالوا: إن الإباضية هم الذين قتلوه، مع أن الإباضية يبرؤون من عبد الرحمن بن ملجم ويلعنونه، ويرونه مجرما قد أتى ما حرمه الله، وارتكب شيئا فظيعا يأباه كل المسلمين.

1 - إن الإمامة الحقيقية كإمامة الخلفاء الراشدين والدول الجمهورية في القرن الثاني والثالث الهجري في المغرب هي الجمهورية مع امتياز الإمامة الإسلامية بخصائص تجعلها أحسن ! ليت المسلمين يعلمون هذا ليعرفوا أن ما تتمدح به أوربا قد سبق إليه أجدادنا وجاء به ديننا. وسترى في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن المغرب كان من النواحي التي حافظت على الجمهورية الإسلامية كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين بعد أن قضى عليهما الأمويون والعباسيون.

تعظيم الإباضية للإمام علي وإجلالهم له

إن الإباضية كانوا يعظمون الإمام عليا رضي الله عنه ويجلونه، ويغارون عليه، ويدافعون عنه. فهم الذين أرسلوا وفدا من علمائهم إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، «فيه جعفر بن السماك العبدي، وأبو الحر علي بن الحصين العنبري، والحتات بن الكاتب، والحباب بن كليب، وأبو سفيان قنبر البصري، وسالم ابن ذكوان»[1] فكلموا الإمام عمر بن عبد العزيز وطالبوه بإبطال عادة لعن على في منابر الأمويين، وسبه وسب آل بيته في خطب الجمع والأعياد، فأجاب عمر بن عبد العزيز طلبهم، وكان الإباضية من الأسباب في أبطال هذه العادة الملكية التي تسئ إلى علي والى كل المسلمين.

الإباضية هم أتباع عبد الله ابن وهب الحقيقيون

إن الإباضية هم الذين استمروا على طريقة عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه، وتمسكوا بهديهم، فلم يشذوا عنهم، ويخرجوا عن طريقهم، ويخالفوا سنتهم كما خالف بقية الجمهوريين الآخرين كالازارقة والصفرية والنجدية فلم تعد لهم نسبة إلى عبد الله بن وهب إلا بإنكار التحكيم وإباء الملكية أما فيما عدا ذلك من عقائدهم الشاذة وأعمالهم فبعيدون عن عبد الله بن وهب وصحبه، والإباضية الذين التزموا طريقته. إن الإباضية وهم الخلف الحقيقي لعبد الله بن وهب كانوا ينظرون إلى علي رضي الله عنه نظرة عبد الله ابن وهب وصحبه إليه بينا أنهم خاصة علي وأنصاره واعضاده، وأن الأشعث لما قضي عليهم لم تقم لعلي بعدهم قائمة. وكانوا يعظمون عليا ويجعلونه، ويحترمونه ويغارون عليه.

لو كان الإباضية حنقين على علي حتى رضوا باغتياله لوجدنا أثرا لذلك الحنق في أقوال أئمتهم كجابر بن زيد، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، والربيع بن حبيب، وأبي بلال مرداس بن جدير، وفي أقوال الأئمة الرستميين الذين كانوا مرآة لأباضية المغرب، وقادتهم ورؤسائهم، ولكننا لا نجد في أقوال هؤلاء الأئمة ما يشعر بعدائهم لعلي، بل لا نجد فيها حتى ما يشعر بعدم الإجلال والإكبار.لقد كان ابن عباس عامل الإمام علي على البصرة لما وقعت وقعة النهروان المشئومة وكان ابن عمه وبطانته، فلو أنهم كانوا حنقين على الإمام، أعداء له، لشمل الحنق خاصته وبطانته التي لم تكفه عن السير إلى النهروان، والتي بقيت متصلة به بعد وقعة النهروان، تؤازره وتعينه وتسدله الثغور، وكان الأحنف بن قيس مع علي في وقعة النهروان ولكننا نرى الإباضية يعدون ابن عباس اكبر أساتذتهم ويعدون الأحنف بن قيس من رؤسائهم وخاصتهم.

1 - نبذة من تاريخ الخوارج، رسالة مخطوطة أبي إسحاق إبراهيم اطفيش.

كان جابر بن زيد هو إمام الإباضية وإن لم ينسبوا إليه فنسبوا إلى عبد الله بن إباض لما سنبينه بعد هذا الفصل؛ كان جابر اكبر تلاميذ ابن عباس. قال جابر: أدركت سبعين بدريا فحويت كل ما عندهم من العلم إلا البحر. يعني ابن عباس وكان منقطعا إليه، يتزود من علمه، ويتشرب روحه، ويتأثر به فيما يذهب إليه من أمور الدين. وكان ابن عباس يجل تلميذه جابر بن زيد ويكبره، ويراه خليفته ومن ينوب عنه في الفتوى. روى الشماخي أن ابن عباس قال: عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد ! لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه! وروى عن ابن عباس انه قال: جابر اعلم الناس! هذا هو إمام الإباضية! وتلك هي صلته بابن عباس ومنزلته عنده، وهو بطانة على وابن عمه وعامله لما وقعت وقعة النهروان، وحدثت مأساة التحكيم. فلو أن عليا امتدت حياته حتى ينضج جابر ويعطي نفسه للعلم لكان على اكبر أساتذته، ولا نقطع جابر إليه، ينهل من علمه، ويتخصص في الشريعة على يده.

إن هؤلاء الأئمة جابرا وصحبه وهم رأس الإباضية ومرآتهم، وعنوانهم، ففيهم يجب أن نراهم ونحكم عليهم؛ لا نجد في كلامهم كلمة واحدة تشعر بالإزراء بالإمام وبعداوته، فكيف بالرضى باغتياله، وارتكاب الجرائم الفظيعة فيه!

إكبار الرستميين لعلي والتزام خطبه في منابرهم

لقد كان هؤلاء الأئمة الإباضية يجلون عليا ويكبرونه فورث تلاميذهم لائمة الرستميون الذين انشؤوا الدولة الجمهورية الكبرى في المغرب هذا الإجلال لعلي وهذا الإكبار، وكانوا يحفظون خطب الإمام علي ويخطبون بها في منابرهم في الجمعة والأعياد، وأكثر ما يخطبون في هذه المناسبات الكبرى التي يحتفل الإمام فيها بالخطبة كان بخطب الإمام فيها بالخطبة كان بخطب الإمام علي كما روى ذلك ابن الصغير المالكي الذي عاش في تاهرت عاصمة الدولة الرستمية وفي زمن الأئمة الرستميين.[1]

إن خطبة المرء مظهر شخصيته، وزبدة عقله، وتبدي حقيقته، وتمثل مذهبه، فلو كان الإباضية لا يحبون الإمام عليا ولا يجبونه ما حفظوا خطبه، وما خطبوا بها في أحسن مقاماتهم، وأقدس مواضعهم، وفي مسجدهم الجامع، وفي أكرم المناسبات ثم يخطب بها إمام الدولة، ورئيسها الضليع في العلم، البارع في الخطابة، لا رجلا من العلماء فنظن به العجز في الخطابة ففزع إلى خطب الإمام، ونسمه بالتقليد فآثر ما يعتقد الناس فصاحته وبلاغته..

1 - انظر تاريخ الأئمة الرستميين لان الصغير.

إن الأئمة الرستميين قد آثروا خطب الإمام علي لمنابرهم في الجمعة والأعياد لأنهم يجلونه ويكبرونه، ويرونه علما في الدين، ومثالا في البلاغة والعلم.

إن أكثر الناس تسمية بعلي إنما هم الإباضية! إنك لتجد عندهم من سمي بعلي ما لا تجد في غيرهم، فلو كانوا حردين عليه مزورين عنه ما سموا أبناءهم باسمه! إن اختيار الوالد اسم شخص لولده يدل على إجلاله لذلك الشخص، وعلى إعجابه به، وعلى التفاؤل والأمل أن يكون ابنه مثله، وعلى هديه، ونسخة منه.

إنك لا تجد في الإباضية رجلا واحدا تسمى بمعاوية، أو باسم ملك من الملوك العباسيين والأمويين الظلمة كهشام وما لا نجد مثله كثيرا في الصحابة من الأسماء، وتجد فيهم من تسمى بعلي مئات في كل عصر لان الإباضية يعظمون عليا ويسلكونه في زمرة الخلفاء الراشدين، ويرونه علما في الدين.

إن أئمة الإباضية وخاصتهم، والذين يمثلون الإباضية، وهم مرآة لهم، فبأعمالهم وأقوالهم نحكم على الإباضية،وفي سيرتهم نرى حقيقتهم، كابي بلا

ل مرداس بن جدير وجابر بن زيد، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة والربيع بن حبيب، والأئمة الرستميين في المغرب، هؤلاء الذين هم وجه الإباضية وعنوانهم؛ لا تجد في أقوالهم وأفعالهم شيئا واحدا يدل على الزراية بعلي، والازورار عنه، وعدم الحب له.

لقد كان الإباضية ينتقدون على علي لينه للعامة حتى أرغمته على التحكيم، وخضوعه للأشعث وحزبه، ويرون ذلك مما لا يليق بالإمام، ومما لا ينبغي أن يتصف به رئيس دولة تكونت في زمانه عواصف وأعاصير من أهواء النفوس لحبها للمال والسلطان، وهو ما لم يكن قبله، ويرون عدم حزمه وإصراره وصلابته في المواطن التي يجب فيها ذلك مما لم يشبه فيه الخلفاء الذين تقدموه، ومما جعله لا يستطيع السيطرة على العامة، والاضطلاع بأمور الإمامة، أما حسناته ومزاياه فكانوا أكثر الناس إدراكا لها، وقد اختاروه في أول الأمر إماما من اجلها، فبايعوه عن اختيار ورغبة، وعن إدراك لفضله ومزاياه، ولما ظهر انه لا يستطيع الاضطلاع بالأمر، ومعاوية ينافسه، وأنصاره يجاذبونه بساط الإمارة، لم يخلعوه حتى حكم الحكمان بخلعه، فوالت بيعته عن الأعناق. هذا هو حال الإباضية مع الإمام، وموقفهم منه، وإجلالهم له، وإكبارهم لمقامه، ولكن الملكيين الذين يريدون تشويه سمعة الإباضية الجمهوريين الذين أبوا الملكية، وتمسكوا بالجمهورية الإسلامية، وقد استغلوا شخصية الإمام التي يكبرها المسلمون، ومقتله الذي يجرح قلب كل مسلم في الدعاية ضد الجمهوريين، فاتهموهم بالتواطئ مع ابن ملجم على

قتل الإمام، واستغلوا انتساب ابن ملجم إلى الجمهورين فجعلوهم كلهم يقتلون الإمام معه، ويرتكبون جريمته فيه! ! لقد كان يجب على هؤلاء الملكيين المغرضين أن ينسبوا جريمة ابن ملجم في الإمام إلى كل المصريين لان ابن ملجم منهم، ولكن لا يحكم بهذا ولا يقول به إلا معتوه لا تمييز له، وجاهل أحمق قد عدم العقل والعلم! لقد نهى الدين عن هجو قبيلة بأسرها لأجل عمل شخص واحد منها أو أشخاص، فقال الرسول صلوات الله عليه: «ملعون من هجا قبيلة بأسرها: هذا في القبيلة وقد لا تتجاوز المائة فما بالك بمئات الآلاف من الجمهورين المنبثين في المشرق والمغرب؟، فهل يجوز في الدين وفي العقل أن يحملوا كلهم جريرة شخص من بسطائهم وعامتهم ضعيف الصلة بهم، يرتكبها بدون علم منهم، وهي مما ينكرونه ويأبونه ولا يوافقون عليه؟!

عداء الملكيين للإمام علي وآله

إن الملكيين الأمويين والعباسيين هم الذين حاربوا الإمام و؟آل بيته، وقاتلوه، فلو ظفر معاوية وعمرو بن العاص بالإمام علي في صفين لقتلاه، وقد رأينا معاوية يمنعه الماء في صفين ليموت هو وجنده عطشا، وهم الذين جبروا له كل المكائد، ووضعوا فطريق كل العقبات، ونغصو حياته، وكدروا أيامه، ثم لم يكتفوا بحربه والقضاء عليه في حياته، فحاربوه بعد مماته في ذريته، فقتلوهم وارتكبوا فيهم كل فظيعة.

إن الملكيين العباسيين هم الذين حاربوا الدولة الإدريسية في المغرب، وسموا إدريس الأكبر حفيد علي فقتلوه، وتآمروا على إدريس الأصغر، واتخذوا كل وسيلة، ودبروا كل مكيدة، وسلكوا كل طريق يستطيعونه للقضاء على الدولة الإدريسية لأنها دولة آل البيت في المغرب !

الصداقة بين الدولة الرستمية والدولة الإدريسية.

وكانت الدولة الرستمية الإباضية تجاور الدولة الإدريسية وتصاقبها، فحدودهما متلاصقة،[1] وكانت على أحسن ما يرام مع الدولة الإدريسية، لم يحدث بينهما على طول أيامهما حادث واحد مما يقع بين الدولتين المتجاورتين. وكانت الدولة الرستمية أوسع منها رقعة، وأكثر عددا، وغزر جيوشا، وارسخ أصولا لنشأتها قبلها، وأكثر تماسكا منها واتحادا، فلو كان الإباضية لا يحبون عليا وآله لوقفوا موقفا عدائيا من الدولة الإدريسية، ولهاجموها وقضوا عليها، وهي في المهد لم تشب. لو أنهم فعلوا لوجدوا

1 - انظر حدود الدولتين الرستمية والإدريسية خريطة الجزء الثالث من هذا الكتاب وتاريخها وصفحات المغرب الغراء في عهدهما.

من العباسيين التأييد والمؤازرة، ولكن الدولة الرستمية كانت اخلص صديق وأوفى حبيب للدولة الإدريسية، وكانت درعا لها فلم يستطع العباسيون أن يسيروا إليها من القيروان ليقضوا عليها. انه لولا وجود الدولة الرستمية القوية الواسعة الرقعة في شرق الدولة الإدريسية ومعها في المغرب ما استطاع الأدارسة أن يلتجئوا إلى المغرب، ولا استطاعت الدولة الإدريسية أن تنشأ لان العباسيين يقضون عليها، ولكن العباسيين في القيروان رغم تحرقهم وتسعرهم عداوة لإدريس الأكبر وآله، ورغم كثرة جيوشهم التي كانت أضعاف ما يستطيع إدريس أن يحارب به أيام نشأته، وكانوا يستطيعون القضاء عليه، ولكنهم لم يستطيعوا السير إليه لان الدولة الرستمية ستثور في وجههم، وتقوم لمناصرة إدريس الأكبر، والإمام عبد الوهاب إمام الدولة الرستمية أيام نشأة الدولة الإدريسية

سيهب في جيوشه الجرارة الباسلة فيدمغ الملكية وأنصارها، ويحمي الدولة الإدريسية البيضاء التي تقوم على العدل والدين، والتي تنصر عليا وآل بيته، وتجعل المغرب يزداد شرفا بأبناء بنت رسول الله.

وكان الادارسة يعيشون في الدولة الرستمية فيجدون كل إكرام. وقد سكنوا مدنا في شمال تاهرت عاصمة الدولة، وعلى قرب منها، وكان أهلها إباضية، فسادوا في تلك المدن، وكانت لهم المكانة العالية، حتى نسبت إليهم تلك المدن فقال المؤرخون الذين لا يعرفون: إمارة فلان وإمارة فلان من الادارسة وهي على قرب من تاهرت، وفي مناطق جمهورها إباضية، وليست بإمارات مستقلة، بل هي جزء من الدولة الرستمية ساد فيها أشخاص من الادارسة، وذلك لاحترام الدولة الرستمية لهم. لقد جاءوا لاجئين وحيدين، فارين من ظلم العباسيين، فبسطت لهم الدولة الرستمية ذراعها، وأحلتهم في أحسن بلادها، ومنحتهم كل الحريات، وأضفى عليهم الإباضية الذين هم الجمهور في تلك المدن التي ينزلونها كل إعزاز وتبجيل حتى نسبت تلك المدن إليهم بفضل ما وجدوه فيها من احترام وتقدير اظهر شخصيتهم، ورفع لواءهم.

إن الملكيين قد بسطوا السنة دعايتهم الكاذبة ضد الجمهورين فملأوا كتب التاريخ بأكاذيبهم على الجمهورين، وحرقوا وقضوا على خزائن الكتب التي تبين تاريخ الجمهورين وصفحات دولهم الغراء لما قضوا على تلك الدول في المغرب.[1] واتخذوا كل

1 - لما قضى أبو عبد الله الحجاني على الدولة الرستمية حرق في 296 هـ مكتبة المعصومة في تاهرت وكانت تشتمل على ثلاثمائة ألف مجلد، وجعل من الكتب قنطرة لجيشه في وادي «مينا» وقضى على الكتب التي تبين تاريخ الدولة وتكون مرآة لها فلم يبق إلا كتب الاقتصاد والفلك وغيرها من العلوم العامة لينتفع بها.

وسيلة لتشويه سمعة الجمهوريين لما قضوا على دولهم، حتى لا تحن النفوس إلى عدلها وصفحاتها الغراء، فلم يبق من الكتب التاريخية التي تعتمدها جامعاتنا ومدارسنا ومكاتبنا ومؤلفونا إلا مصنفات الملكيين الذين شوهوا فيها سمعة الجمهوريين، فلنحذر من تلك الدعاية ولنعلم أن جل ما ورد في تلك الكتب في حروب صفين وفي وقعة النهروان، وفي الإباضية من وضع الملكيين الذين يعملون للقضاء على الجمهوريين، وهو بعيد عن الحقيقة، وعكس الواقع الذي ورد في الكتب الصحيحة.

وقد استغل الاستعمار الفرنسي والايطالي تلك الأكاذيب في الكتب العربية فرددها في مدارسه، وبلسان أجهزته الاستعمارية، كالرهبان الذين يختلطون بالبسطاء، ويعلمون صغار الأبناء، وأذنابهم الذين يبثونهم في المغرب فيبثون سموم التفرقة فيه، ويصورون الإباضية أنهم يشنأون الإمام، وهو خلاف الحقيقة، وعكس الواقع كما بينا ووضحنا. وترى مؤلفينا المحدثين الذين يكتبون في تاريخ المغرب يعتمدون على هذه المصادر الملكية كابن الأثير والطبري وابن خلدون وغيرها فيقعون في أخطاء فاحشة وتقصير كبير إذا تحدثوا عن الدول الجمهورية في المغرب، وإذا حاولوا أن يبينوا الإباضية، لذلك وقفنا في هذا الفصل وقفة لأنه يتصل بتاريخ المغرب؛ فهو يبين نشأة الإباضية الذين سنراهم في بقية هذا الجزء وفي الجزء الثالث يرفعون راية الجمهور الإسلامية في المغرب، ويكونون لغربنا بدولهم الديمقراطية انصع صفحاته، وأزهى عهوده، فعسى هذه الفصول تكون مرجعا لجامعاتنا ومدارسنا في الأقطار العربية، ولأبنائنا في المغرب، فيزول ما خلقه الملكيون والمستعمرون الذين رددوا دعاياتهم من عقد في نفوس كثيرة، فأمسوا يرمقون أسلافهم وأجدادهم بعيون شزراء، ويكرهون ماضيهم، ويعافون أن ينظروا إلى الوراء، وليس فيه إلا المجد الأشم والعهود الغرام !

وقد حشر الملكيون الإباضية الجمهوريين مع الأزارقة والصفرية الذين خرجوا عن الدين بغلوهم، والإباضية بعيدون عنهم، ويتبرءون منهم.

وترى البستاني صاحب دائرة المعارف ينقل هذه الأكاذيب الملكية وينخدع بما قال ابن خلدون في الإباضية، فيعكس القضية، فيصف الصفرية بالاعتدال والإباضية بالغلو، والعكس هو الصحيح. إن الصفرية كانوا في المغرب اقل شأنا من الإباضية فلم ينشئوا مثل دولهم التي كسفت الدول الملكية، لذلك تجد ابن خلدون وأنصار الملكية يحقدون على الإباضية ويعكسون الحكم فيهم. فما هو الفرق بين الإباضية والخوارج؟ ولم حاربهم الملكيون، وحشرهم مع الخوارج الذين ينفر منهم المسلمون؟

نشأة الإباضية والفرق بينهم وبين الخوارج

كان الذين أنكروا التحكيم، وخرجوا مع عبد تالله بن وهب الراسبي إلى النهروان وبايعوا بالإمام، وتمسكوا بالجمهورية الإسلامية، وأبوا الملكية، واستعدوا لحرب معاوية. كان هؤلاء الجمهوريون جماعات كبيرة، وجمهورا غفيرا. وبعد وقعة النهروان التي قضى فيها الأشعث بن قيس وحزبه على عبد الله بن وهب وعلى كثير من خاصة الجمهوريين الذين معه انقسم منكروا التحكيم إلى قسمين: بقية الخاصة التي ثبتت على منهاج عبد الله بن وهب الراسبي ومن معه من الصحابة وكبار التابعين، وهم جماعة من العلماء المتفقهين في الدين ذوو تقوى وورع، منهم أبو بلال مرداس بن جدير، وعروة بن جدير، والأحنف بن قيس، وعدى بن حاتم الصحابي، وفروة ابن نوفل الاشجعي، وحربت بن حجل السدوسي، وأبو العباس بن عبد ألقيس وغيرهم من الصحابة والتابعين، وذوي البصيرة في الدين، وكان هؤلاء العلماء وأتباعهم من العامة المتبصرة، والجماهير المتمسكة بالدين، المتقدمة بهؤلاء العلماء هم الذين استمروا على طريق عبد الله بن وهب الراسبي في التمسك بالدين والفقه فيه، والتمسك بالجمهورية الإسلامية، وإنشاء الدول الجمهورية العادلة التي أحيت سيرة الخلفاء الراشدين. هؤلاء هم الذين سموا بعد ذلك في زمن عبد الملك بن مروان «الإباضية» وإمامهم في الدين هو جابر بن زيد فنسبهم الأمويين إلى عبد الله بن إباض للأسباب التي سنذكرها أما الطائفة الأخرى ممن أبى التحكيم وناصر الجمهورية فقد كان اغلبها من العامة التي يسيرها حماسها فتشتط في الحكم، وتغلو في التطرف، وتخرج عن دين الله بالغلو، وهؤلاء هم الأزارقة الذين كان رئيسهم وقائدهم نافع بن الأزرق، والصفرية الذين كان رئيسهم عبد الله بن الصفار، والنجدية الذين كان رئيسهم نجدة بن عامر. وقد وقع لهؤلاء رد فعل شديد بقضاء الأمويين على خاصتهم في النهروان، وبما كان الملوك الأمويون يرتكبون فيهم وفي كل معارضيهم ومنكري ظلمهم من أنواع الظلم والجبروت فثاروا واشتطوا في الحكم وحكموا على كل مرتكب للكبيرة[1] بالشرك وزاد الأزارقة غلوا فقالوا إن كل أنواع المعاصي شرك مؤولين قوله تعالى: ومن بعض الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا» بان المراد بالمعصية هنا مطلق المعصية حتى الصغائر والضلال البعيد هو الشرك. وقد أنكر الإباضية حكمهم على مرتكب الكبيرة وعلى كل عاص بالشرك، ورجوا عليهم بان عموم الآية مخصوص بقوله تعالى: «تجتنبوا

1 - الكبيرة: الذنب الكبير الذي يستوجب حدا ويورث غضب الله، كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقتل. قال الشيخ السالمي في تعريف الكبيرة في «مشارق أنوار العقول»:

والذنب قسمان كبير وجبا — حد به والباري منه غضبا

كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» ولما حكموا على مرتكب الكبيرة بالشرك فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم وسبي ذراريهم أنكر عليهم الإباضية حكمهم وعملهم فتبرأوا منهم، وطردوهم من جماعتهم، فانقسم الجمهوريين إلى قسمين: الذين ثبتوا على نهج عبد الله بن وهب الراسبي وهم الإباضية وإمامهم جابر بن زيد، والذين غلوا في الدين وخرجوا منه وهم الأزارقة والصفرية والنجدية.

وكان هؤلاء يهجمون على مخالفيهم ومن يحكمون بكفره حسب مذهبهم فسفكوا الدماء الحرام واستحلوا الأموال الحرام فتبرأ منهم الإباضية وحكموا بكفرهم لان من يستحل ما حرمه الدين ويعتقد انه حلال كافر بإجماع الأمة كما هو مبسوط في كتب التوحيد.

إن الإباضية لا يحكمون على مرتكب الكبيرة بالشرك ولكن يرونه عاصيا يتبرءون بعد استتابته إذا أصر. وهم اعف الناس في دماء المسلمين وأموالهم. وأئمة دولهم الجمهورية، وقادة جيوشهم هم الذين تمسكوا بما فعل الرسول والخلفاء الراشدون وبما أمر الله في محاربة المسلم الذي تجوز محاربته، فكانوا في كل حروبهم مهاجميهم أو مع البغاة المعتمدين من المسلمين لا يغنمون أموالهم، ولا يجهزون على الجرحى، ولا يسبون الذراري والنساء، ولا يتبعون مدبرا هاربا لا ينوي الكرة عليهم. إن هؤلاء الأئمة الإباضية في الدول الجمهورية في المشرق والمغرب هم الذين تمسكوا بهذا فلم يعاملوا المسلم في الحرب معاملة المشرك كما فعل الملوك الأمويون والعباسيون الذين يرتكبون في محاربيهم من المسلمين وفي أموالهم كل شنيعة. إن الدول الإباضية من انصع الدول صفحة، لعفتها وتحرجها كل التحرج في الدماء والأموال، وذلك لان الإباضية ليسوا كالخوارج الذين يستحلون دماء مرتكب الكبيرة لحكمهم عليه بالشرك. وقد موه الدعاة الملكيون في دعاياتهم الكاذبة ضد الإباضية الجمهوريين على العامة، ومن لا يعرف الإباضية فحشروا الإباضية مع الخوارج الذين غلوا في الدين، واستغلوا في ذلك مشابهة الخوارج للإباضية في إنكار التحكيم، وفي التمسك بالجمهورية، مع أن الفرق بين الإباضية والخوارج في الاعتقاد والمسائل الجوهرية وفي السلوك بعيد، والبون بينهم شاسع.

وقد انخدع بعض مؤلفينا المحدثين بما كتب المؤرخون والفقهاء الملكيون[1] في الإباضية وحشرهم لهم مع الخوارج، ووثقوا بما ورد في هذه الكتب الملكية فوقعوا في أخطاء كبرى. وقد نقل بعض هذه الأخطاء في الفرق بين الإباضية والخوارج المرحوم الشيخ مبارك الميلي في الجزء الثاني من كتابه القيم، تاريخ الجزائر قال: «والإباضية أصحاب عبد

1 - الملكيون نسبة إلى الملوك، وهم صنائعهم الذين يبثون ويرددون دعاويهم وكذلك الملكية نسبة إلى الملوك.

الله بن إباض قال ابن خلدون: والصفرية موافقون للإباضية إلا في القعدة فان الإباضية اشد على القعدة منهم».[1]

لقد نقل الشيخ الذي نكبر علمه وحبه للبحث والاستقصاء أقوال ابن خلدون الذي كان من دعاة الملكية في الإباضية فوقع في خطأ كبير، كما نقل كثيرا من دعاوي الملكيين في وقعة النهروان وصفين فوقع في أخطاء تاريخية. ولو رجع إلى مؤلفات الإباضية وعلمائهم لتنبه إلى أخطاء ابن خلدون والملكيين من الفقهاء والمؤرخين فلا يتأثر بها ويوردها في كتابه النفيس !

إن الفرق بين الإباضية والصفرية وغيرهم من الخوارج فرق جوهري كبير في العقائد والأعمال! فالإباضية كاهل السنة لا يحكمون بالشرك على مرتكب الكبيرة، كالصفرية والازارقة. والإباضية هم الذين يجيزون الخروج على الملوك الظلمة وتأسيس الدول الجمهورية إذا انس المسلمون في أنفسهم قوة . أما الصفرية فيوجبون ذلك ويرون القاعدة عن مقاتلة الملوك الظلمة عاصيا. وقد عكس ابن خلدون القضية ليسيء إلى سمعة الإباضية ويصفهم بالغلو لان الإباضية في المغرب هم الذين كان الناس يحنون إلى دولهم الجمهورية العادلة فاستجاب للملوك الذين كتب تاريخية في عهدهم وفي ظلمهم فحشر الإباضية مع الخوارج ليفسد سمعة الجمهوريين ويصرف العيون عنهم.

إننا نكبر ابن خلدون ونحله! فهو أما أن يكون قد قال ما قال في الإباضية عن رهبة من الملوك ومداراة لهم ليبقوا على كتبه، أو عن قصد واختيار، فقد قال ما يتنافى مع عبقريته، وعظمته العلمية ومعرفته لدقائق المغرب وأطواره!

إن تاريخ الجزائر للشيخ مبارك الميلي من المراجع المهمة في تاريخ المغرب، ومن المصادر التي ستعتمد عليها مدارسنا في تاريخ المغرب، وعسى الذين نرجو أن يعيدوا طبعه ينزعون منه هذه الأقوال الملكية التي تسم العالم الجليل بعدم الدراية، وبنقل ما شق الملكيون به عصا المسلمين.

إن الإباضية ليسوا من الخوارج فهم بعيدون عن الأزارقة والصفرية والنجدية في العقائد والأعمال، فأولئك لا يتعففون في الدماء ويغلون في الدين فمرقوا منه، أما الإباضية فاعف الناس عن سفك الدماء، أنهم لا يقاتلون إلا دفاعا عن النفس، أو دفاعا عن الدين كما هاجم أبو الخطاب إمام الإباضية في طرابلس «وار فجومة» الصفرية لما سفكت الدماء وانتهكت الحرمات في القيروان وعاثت في افريقية فسادا. وإن حروبهم

1 - تاريخ الجزائر ج 2 ص 9 ط أولى.

مع الأمويين والعباسيين كلها حروب دفاعية، وإذا قاتلوهم تقيدوا كل التقيد بما أمر الله به في قتال المسلم، فلا يغنموا لهم مالا، ولا يسبون لهم ذرية، ولا يجهزون على جريح، ولا يتبعون مدبرا، وذلك لأنهم يراعون حرمة المسلم ويتقيدون بما أمر الله به. والإباضية في نشر مذهبهم الجمهوري، وفي الرد على الملكيين يعتمدون على الحجة والإقناع لا على القوة كما يفعل غيرهم، ورسالة عبد الله ابن إباض إلى عبد الملك بن مروان، ومحاججته له، ومدافعته عن نظريات الإباضية الجمهوريين شاهد على ذلك. ومع هذا البون الشاسع والفرق البعيد بين الإباضية والخوارج نرى الملوك الأمويين والعباسيين والعبيديين في المغرب يحشرونهم مع الخوارج ليشوهوا سمعتهم لأنهم جمهوريون قد كسفوهم بدولهم الجمهورية العادلة التي التزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدون وعدلهم وورعهم فأرادوا أن يصرفوا عنهم الأنظار، ويغطوا على ظلمتهم وجبروتهم فصوروا الإباضية -كذبا- أنهم خوارج، يستحلون الدماء، ويشذون عن الدين، ليظهروا لعامتهم أنهم هم المتمسكون بالدين وإن غرقت عروشهم في دماء المسلمين التي يسفكونها. ودماء آل البيت!

الإباضية ليسوا خوارج

إن الإباضية ومن أبى التحكيم لم يخرجوا على الإمام علي كما بينا، والإباضية لا يحكمون على مرتكب الكبيرة بالشرك، ولا يقولون بشيء يخرج عن الدين في الفقه، ولا يهاجمون من خالفهم، فهم ليسوا خوارج عن الدين كالازارقة الذين غلوا فلماذا سماهم الملكيون خوارج؟ لقد سموهم خوارج لأنهم استقلوا عنهم فأسسوا دولهم الجمهورية في المشرق والمغرب، ففي المشرق دولة عمان التي كانت على الإمامة الصحيحة وعلى النظام الجمهور الصحيح، وكان كل أئمتها على التقوى والورع، لم تكن الإمامة فيها وراثية كاليمن. فالشعب هو الذي يختار الإمام بكل حريته ويبايعه على شرط العدل والتقيد بالدين، وفي المغرب دولة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، والدولة الرستمية التي التزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين، ودخلت بالمغرب في أعراسه، وجعلت المغرب كعبة القصاد والملجأ الأمين لطلاب العدالة والحرية الفكرية، يلجأ إليه من يضيق ذرعا بظلم الملوك واستبدادهم، ومعهم لحرية التفكير والكلام! لقد غاظ الملوك أن يستقل عنهم الإباضية فسموهم خوارج، ثم أرادوا أن يكسبوا هذا الوصف شناعة فاستغلوا إباءهم للتحكيم، ومبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي، فجعلوهم خوارج على الإمام علي، ثم الصقوا بهم الأكاذيب التي بينا بطلانها، وبالغوا في محاربة الإباضية الجمهوريين فاستغلوا أيضا إباء الأزارقة والصفرية للتحكيم، ومناصرتهم للجمهورية ومشابهتهم للإباضية في هذا فحشروهم معهم،

وادعوا أنهم خوارج مثلهم، وما هم بخوارج، لأنهم لم يخرجوا على الإمام علي ولا على الدين بشيء!

إن الدعاية الملكية الكاذبة ضد الإباضية الجمهوريين هو ما تطفح به مصادر التاريخ الإسلامي الموجود في أيدينا فلنحذر في هذا العصر من الوثوق بكل ما يرد فيها في الإباضية فان اغلبه دعاية ملكية كاذبة لتسويد سمعتهم لأنهم جمهوريون!

إن مغربنا والحمد لله أصبح على النظام الجمهوري، أو على الملكية الدستورية تحت ملوك اختارهم الشعب لحبه لهم ولماضيهم المجيد، فهم رؤساء الدولة بهذا لا ملوكه، الكاذبة التي صوروا بها الإباضية في غير صورتهم، لأنهم يعارضون الملكية المستبدة، يعجون إلى الجمهورية الإسلامية، ويؤسسون دولهم العادلة التي استقلوا بها عن الملوك. هذا هو سبب هجوم الأمويين والعباسيين والعبيديين وخلفائهم من الملوك الأقدمين في المغرب على الإباضية.

والإباضية يرفضون ما ادعاه الملوك الأمويون والعباسيون من أن النبي قال: «الإمامة في قريش» ويقولون: إن الإمامة لا يراعي فيها العرق ولكن الكفاءة ! فينما وجدنا التقوى والعلم والكفاءة العقلية وتوفر شروط الإمامة فهو محلها. وإذا توفرت الشروط في زنجي فكان اعلم واتقى وأكثر كفاءة من القريشي فالزنجي أولى بها. وهذا ما خالفوا فيه الملكيين فاستشاطوا غضبا عليهم. إن ما يذهب إليه الإباضية في الإمامة وفي رئاسة الدولة هو ما يدعو إليه عصرنا المثقف وما جاء به الدين الحنيف.

وللإباضية أقوال خاصة بهم في الفقه الإسلامي كأخذهم بالمجاز في القران،فحملوا كثيرا من كلماته على المجاز المتعارف عند العرب لا على حقيقتها لكي لا يقعوا في التشبيه والتجسيم. لقد قال الإباضية في القرن الأول الهجري أن المراد باليد في قوله تعالى: «يد الله فوق أيديهم» هو القوة، وان قوة الله فوق قوة قوتهم، وكذلك في الآيات الأخرى كقوله تعالى: «تجري بأعيننا».

وقولهم بخلود صاحب الكبيرة في النار إذا مات وهو مصر لم يتب. والكبيرة هي الجريمة التي تستوجب حدا وغضبا من الله.

ونفيهم لرؤية الباري جل وعلا.

إن هذه المسائل التي اختص بها الإباضية قد وافقهم فيها المعتزلة وزادوا عليها مسائل أخرى خالفوا فيها المذاهب الإسلامية، ومع ذلك لا نجد الملكيين يهاجمون المعتزلة

ويجعلونهم خوارج لان المعتزلة لم يؤسسوا الدول الجمهورية، ولم يستقلوا عن الملوك العباسيين والأمويين كما فعل الإباضية! !

إن المعتزلة ممن يدين بالجمهورية ويحبذها ولكن لم يخرجوا إلى نطاق العمل فيؤسسوا دولا جمهورية كما فعل الإباضية، فلذلك لم يصفهم الملوكيون بأنهم خوارج فلو كانت الأقوال الخاصة بالإباضية في الفقه وهي توافق الدين ومما يذهب إليه أهل العصر الآن الذين يفكرون تفكيرا فسلفيا ويفهمون أسرار القرآن؛ لو كانت تلك الأقوال هي سبب وصف الإباضية «بالخوارج» لوصف به المعتزلة لأنهم قالوا بكل ما خالف فيه الإباضية غيرهم؛ وزادوا عليه، ولكن الملكيين هاجموا الإباضية لأنهم جمهوريون، فموهوا على العامة بالدين، فاعتقدت العامة بتكرار الدعاية وتواليها بكل أسلوب وفي براعة فرونا أن الإباضية خوارج، وان سبب تسميتهم بهذا هو خروجهم على الإمام على وقولهم في الفقه بما خالفوا فيه المذاهب الأربعة.

إن ما ورد في الفقه من أقوال الإباضية الذين كانوا يفكرون تفكيرا فلسفيا ويفهمون القرآن فهما عميقا سيتكفل العصر المثقف به. وقد صار اغلب العلماء النبغاء في الدين الآن يقررون في كثير من المسائل ما قال به الإباضية منذ قرون ويظنون انه مما اختصوا به، ولكن الذي يضرنا فيجب أن ننبه إليه هو ما ورد في كتب التاريخ، لان الدول الإباضية التي كذبوا عليها لم تعد موجودة واغلب كتبها ومؤلفاتها قد قضوا عليها فبقيت أكاذيبهم تشوه صفحات المغرب، وتشق عصا المسلمين، وتوقع علماءنا ومؤلفينا في خطأ فظيع، وتمكن المستعمرين وأذناهم الدساسين للمغرب الفتي من الوسائل التي تبث بها التفرقة، وتقسم الجماعة وتباعد بين الإخوة الأشقاء الذين خلقهم الله شيئا واحدا ممتزجين متحدين قد وفر لهم كل أسباب الاتحاد من الجنس الواحد والدين الواحد، والوطن الواحد فهم أكثر الأمم اتصافا بكل أسباب المحبة والامتزاج.

نشأة الإباضية

إن الإباضية قد نشأوا بمبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي ليقضوا على الملكية ويحافظوا على الجمهورية، وباستقلالهم عن الملوك ومبايعتهم للائمة، ومعارضتهم للملكية الأموية ودعوتهم إلى الجمهورية الإسلامية، والتزام سيرة أبي بكر وعمر في العدل والديمقراطية والمساواة، والتمسك بالدين في كل الأمور. وكانت هذه النشأة في شوال سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد خلع الحكمين للإمام علي في رمضان من تلكم السنة. وإمامهم في الدين هو جابر بن زيد ! وقد نسبهم الأمويون إلى عبد الله بن إباض. وكان عبد الله بن إباض من علمائهم، ومن فصحائهم وشجعانهم ومن المناظرين

للخوارج يرد عليهم مقالاتهم، ومن المناظرين لعبد الملك بن مروان ومن الدعاة إلى الجمهورية، وكان متحمسا مناضلا بالحجة والبرهان في النوادي والمجامع وكان يجتمع الإباضية في داره، ويسير بهم إلى المجامع والنوادي لمناظرة الخوارج والملكيين فظهرت شخصيته بهذا فنسب الجمهوريون إليه. أما الإباضية فهو جابر بن زيد

وكان جابر بن زيد جبل العلم في عصره، وكان يشهد له أهل عصره بالورع والتقوى، ويجلونه ويحترمونه، فأبى الأمويون أن ينسبوا إليه الجمهوريين وهو أمامهم في الدين ورئيسهم حتى لا يجذبوا إليهم الأنظار، ولا يبدون في هالة جابر المشرقة فتميل إليهم النفوس، فنسبوهم إلى عبد الله بن إباض وهو اقل منزلة من جابر في العلم وإن كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح!

لقد طال الكلام في هذا الفصل. انه توطئة ومقدمة ضرورية لما يأتي من الفصول في تاريخ المغرب. وقد ألجأني إلى الإطالة فيه ما تعج به من أكاذيب وأخطاء تاريخية مصادر التاريخ التي ستعتمدها جامعاتنا ومدارسنا في عهد الاستقلال السعيد فتقع في خطأ كبير، ونظلم أجدادنا، وتخفي عنا الصفحات الغراء من تاريخ مغربنا. لقد وقع جل من ألف في تاريخ المغرب في تلك الأخطاء على ما نعتقد فيهم من حسن النية ودراية واسعة! فأردت أن لا يقع أبناؤنا ومؤلفونا فيها في المستقبل. فعسى الله أن يجعل هذا الفصل مصدرا لمدارسنا وجامعاتنا في المغرب، وينتفع به مستقبلنا فأجد ما يكافئ ما بذلت من جهد جهيد في استقصاء المراجع التي لا تحصى في هذا الباب وما تحمله من جهد الكتابة في باب بودي ألا آخذ فيه لولا ما ذكرته من أسباب أرغمتني عليه.

إنه باب يصنع لنا النظرة الصحيحة فنفهم الفصول التي تستقبلنا في تاريخ المغرب فهما صحيحا عميقا، فهو من أبوابه وليس بالشيء البعيدة عنه.

إنه مما افسد التاريخ في هذه الفصول وفي خلاف الصحابة تطفل العامة وإنصاف العلماء عليه! ففي تاريخ أي امة، وفي أي مذهب يجب أن ننظر إلى أقوال أئمتها وعلمائها الفحول، ونستقي معلوماتنا الصافية منة تلك المنابع الصافية، أما السواقي البعيدة عن منابعها فقد يخوض فيها الفصلان فيكدرونها بالمناسم!

في تاريخ أي امة وفي كل المذاهب يجب الرجوع إلى الأئمة، والى العهود الزاهرة الأولى. يجب أن تكون كراكب السيارة، إذا رأى بعيدا رأى الحقيقة. أما إذا نظر قريبا في جوانب الطريق تراءت له الأرض تجري، والأشجار تتسابق، وهو خلاف الحقيقة، فلا يرى إلا ما يورثه الغثاثة والدوار! !

لقد تركنا المغرب يثور على الأمويين ويستقل منه المغرب الأوسط والأقصى، ثم ثار عبد الرحمن بن حبيب في المغرب الأدنى على حنظلة بن صفوان فتخلى له عن الإمارة وغادر القيروان إلى المشرق. أراك تتشاءم يا عزيزي مما وقع فيه مغربنا من ثورات، وما هب فيه من أعاصير، وما يتكاثف في سمائه من سحب تنفجر بالرعود والبروق. إن عاقبة هذا لمغربنا الازدهار والصفاء؛ فالأرض لا تلبس ربيعها ووشيها وعقودها من الزهر النضير حتى تغرق في الأوحال!

إن مغربنا الفتى علب أبواب ربيعة بما يتراءى لك من رعوه وسحابة وأوحال في الثرى!

انه يتمخض عن دوله الزاهرة العادلة! فما تسمع من الضجيج هو عويل النفساء التي تتمخض عن الحياة، وما ترى من الرجة والانتفاض هو انتفاضتها، فنحظى بالوليد السعيد، الذي يملأ قلوبنا بالحياة والسعادة، ويطلق حناجرنا بالزغاريد!

فماذا فعل عبد الرحمان بن حبيب لما احتل القيروان؟ وكيف حال المغرب في عهده؟ وكيف سيستقل اغلب المغرب الأدنى أيضا مع الأوسط والأقصى فينشئ مغربنا الحبيب دوله الإسلامية الكبرى؟

ثورة عبد الرحمان بن حبيب واستيلاؤه على افريقية 126 هـ

نسب عبد الرحمن وشخصيته

هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، بن عقبة بن نافع الفهري.

وكان حبيب والد عبد الرحمن رئيس أركان حرب عبيد الله بن الحبحاب، وأعظم قواده. وكان من الشجعان، ومن الفرسان العظام!

وكان حبيب شخصية بارزة في المغرب. إن عقبة رضي الله عنه بإنشائه القيروان وبجهاده ومرابطته في المغرب، وحرصه على فتحه وإسلامه، واستشهاده، وموتته الرائعة التي تدل على بطولة كاملة، وشجاعة تامة وحب للشهادة في سبيل الله، إن ذلك قد جعله شخصية محترمة يكن لها المغرب سيما أهل القيروان كل إجلال واحترام.وكانوا يجلون أهل بيته أيضا، سيما وقد نبغ فيها رجال ورثوا شخصية أبيهم الحربية وشجاعته وفروسيته. وكان اكبر تلك الشخصيات، وأبرزها حبيب وبأنه عبد الرحمن ابن حبيب.

وكان عبد الرحمن قد ورث كل صفات أبيه. وكانت أمه بربرية من جبال أوراس كما ذكر النويري في نهاية الأرب! فورث البطولة والشجاعة الخارقة، والاعتداد بالنفس والطموح والإقدام من أخواله، فضاعف هذا وراثة أبيه، فكان نسيج وحده في الشجاعة والطموح، وفي الإقدام والثبات والهمة العالية!

وكان عبد الرحمن قد اعتنى به والده فانشأه إنشاء حربيا، ودربه على القتال، وأرهف استعداده العسكري الكبير. وكان معجبا بشجاعته وكفاءته الحربية، فجعله من أركان حربه. وكان يسند إليه الفتوح الكبرى في غزواته، ومنازلة القلاع الصعبة فيغني في ذلك كل الغناء!

ولما غزا حبيب صقلية في سنة اثنتين وعشرين ومائة كان عبد الرحمن اكبر أعوانه في تلك الغزوة فاسند إليه مهمة غزو «سرقسة» عاصمة صقلية وكبر مدنها،فنازلها عبد الرحمن حتى أرغمها على قبول الجزية والرضوخ للمسلمين، كما أحرز انتصارات رائعة في كثير من المعارك في هذه الغزوة كان هو الذي يقودها ويباشر القتال فيها. وقد أورث أباه قوة كبرى، وزاده بنفسه، وضاعف طموحه وإقدامه وثباته فعزم على فتح صقلية كلها وإلحاقها بالقيروان لتكون تابعة لها كالأندلس!

وكان عبد الرحمن قد حضر مع أبيه حروبه مع خالد بن حميد ألزناتي في المغرب الأقصى. ولما قتل أبوه وهزمت جيوشه وجيوش كلثوم نجا إلى الأندلس، فبرزت فيها

شخصيته، وبدت عبقريته الحربية، وقوة عزمه ومضائه، فاتجهت إليه الأنظار والتف حوله المضريون الذين كانوا في نزاع ومنافسة مع اليمنيين في الأندلس، فقادهم ضد منافسيهم فكان له الفلج والظهور، ورجا أن تكون له دولة في الأندلس، وان تكون هذه البقاع مولد ما يرجوه لنفسه من الرئاسة والسلطان.

حب عبد الرحمن للرئاسة

وكان عبد الرحمن طموحا إلى الملك، محبا للرئاسة. وكان يرى الدولة الأموية تلفظ أنفاسها، والنواحي تنقطع عنها، والمغرب الأقصى والأوسط وهما صلة الأندلس بالقيروان قد استقلا، فطمع أن يستولي على الأندلس ويكون له بها سلطان. وكانت الأندلس ممزقة الأوصال بالتنافس على الرئاسة، وبالعصبية القبلية. وكان الأمويون بها أمواجا تتناطح لميوعة نفوسهم بالحضارة وضعف الدين، وكان الجو بها مكفهرا بالفتن والخصومات، فرجا عبد الرحمن أن يظفر في هذا الجو بما يريد، ويكون الشخصية التي تتجه إليها الأنظار، وكان معتدا بكثرة أنصاره، وبحسبه ونسبه، فرجا أن يقضي على منافسيه، فتكون الأندلس له. ولما أرسل حنظلة بن صفوان في سنة 125 أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي واليا من قبله على الأندلس، فضبط أمورها، ووحد كلمتها، ودانت له الأندلس وخضعت، وقضى على كمل الخصومات فيها، وضرب على أيدي المتنافسين الذين يفرقون شملها، أيس عبد الرحمن أن يكون حظ مع أبي الخطار في الرئاسة، ثم خافه على نفسه لما رآه يقضي على كل من يأنس فيه تمردا ومنافسة، فركب البحر سر إلى تونس فنزل بها في سنة ست وعشرين ومائة، فدعا أهل تونس إلى نفسه فأجابوه، فثار على حنظلة بن صفوان، فجهز فسار إلى القيروان ليحتلها فلما قرب من القيروان أرسل إلى حنظلة يأمره بالخروج منها، واجله ثلاثة أيام.

وكان حنظلة يرى ترقب الصفرية للفرصة في افريقية ليثوروا عليه فيثأروا لقتلاهم ويقضوا على الأمويين الملوكيين[1] في المغرب، فكره حرب عبد الرحمن، وان يضعف الأمويين بعضهم بعضا ويمكن الصفرية من فرصتهم، فأرسل إليه وفدا من أشراف القيروان عددهم خمسون رجلا ممن يظن أن عبد الرحمن سيسمع منهم، لينصحوه بعدم الحرب، ويبصروه بعواقبها الوخيمة عليهم جميعا، فاغتنم عبد الرحمن الفرصة، وكان جريئا ماضيا، فقبض على الوفد فسار بهم مقيدين في الحديد إلى القيروان، فأرسل إلى

1 - جمهور النحاة لم يجيزوا النسبة إلى الجمع ولكن ابن جني أجاز النسبة إلى الملوك خاصة في كتابه (التصريف الملوك) وسنأخذ بقوله فنسب إلى الجمع في هذا اللفظ بعد أن أخذنا بقول الجمهور وعدلنا عنه فان النسبة إلى الملوك اظهر وأوفى بالمراد.

أهل القيروان: إنكم إن وميتم ولم بحجر عند هجومي على القيروان قتلت أشرافكم ورؤساءكم فشل حنظلة بهذا التدبير البارع، فكان هذا مما اقعد حنظلة عن مقاتلته.

تنازل حنظلة عن الإمارة لعبد الرحمن

وكان حنظلة قد أدرك بذكائه ما سيقع في افريقية من ثورات عارمة على الأمويين إنه قد سكنها فسكنت، ولكن على حنق وغيظ على الأمويين، وأن الدولة الأموية التي صارت تنهدم في المشرق قد انتعشت آمال البربر في الاستقلال وإنشاء دولهم الجمهورية المستقلة.

وكان حنظلة يكره سفك الدماء، ويؤثر الهدوء، سيما والدولة الأموية تلفظ أنفاسها فهي لا تنجده ولا تشد أزره إذا ثارت عليه الزلازل، فعاف البقاء في الإمارة، وآثر أن يتنازل لعبد الرحمن عنها، إنه عنود صارم لا يمكن صرفه عما يريد، وإنه كفء للإمارة بطل صنديد، فهو أحسن من يليق للمحاماة عن الأمويين، والمحافظة عليهم إذا انفجرت براكين الثورات التي يرى مقدماتها في عيون البربر المحمرة عليه؛ فكف جنده وأتباعه عن دفاع عبد الرحمن، فتنازل عن الإمارة، فخرج إلى المشرق في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائة، فدخل عبد الرحمن القيروان في جمادى الآخرة بعدها، فتم له احتلال افريقية، وتحقيق له ما يريد من ملك وسلطان.

عفة حنظلة في الأموال

قال ابن عذارى فلما رأى حنظلة ذلك دعا القاضي والعدول، ففتح بيت المال فاخذ منه ألف دينار وترك الباقي، وقال: لا تلبس منه إلا بقدر ما يكفيني ويبلغني، ثم شخص عن افريقية».

وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى صاحب بيت المال أن لا يعطي حنظلة شيئا إلا ما كان له من أرزاقه! ولما دخل القيروان نادى مناديه: لا يخرجن احد مع حنظلة ولا يشيعه احد! فخرج حنظلة مجروح القلب، مكدر النفس بهذا الجفاء والعقوق، فدعا عليهم فنفذت فيهم دعوته.

وكان هشام بن عبد الملك قد توفي في سنة خمس وعشرين ومائة، وتولى الملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكانت الدولة في أيامه تترنح للسقوط، وكان هو ضعيفا ماجنا مستبدا فقتل في سنة ست وعشرين ومائة بعد ستة أشهر وليلتين من ولايته الملك. وفي سبع وعشرين استولى مروان بن محمد الجعدي على الملك، فأرسل إليه عبد

الرحمن بن حبيب هدايا وتقرب إليه، فأرسل إليه مروان بالولاية على افريقية والأندلس. وكان مروان يعلم انه لا يستطيع عزل عبد الرحمن فرضي به أميرا على القيروان، واكتفى منه بهذا الخضوع الظاهري، وببقاء دولته في افريقية.

وكانت الدولة الأموية قد زال نفوذها من المغرب الادني وافريقية أيضا، وانقضت أيامها فيهما باستيلاء عبد الرحمن على القيروان، فلم يعد لها فيهما إلا مظاهر بسيطة كالدعاء في الخطبة. وكان عبد الرحمن مستقلا كل الاستقلال، لا يخضع للأمويين إلا في بعض المظاهر التي يؤيد بها نفوذه، ويحفظ بها صلته ويسد بها الباب في وجه منافسيه.

ثورة طرابلس وافريقية على عبد الرحمن

وكان المغرب الأدنى يتحفز للثورة. وكانت افريقية تغلي مراجلها، وكانت ترقب الفرصة للثورة والاستقلال، فلما تمرد عبد الرحمن على حنظلة فاستولى على القيروان وانقطعت النواحي عن مروان بن محمد، واستولى عليها الأمراء، ورأى البربر في افريقية وفي طرابلس أنهم بالرئاسة في وطنهم من عبد الرحمن، وان الفرصة قد تهيأت لهم للقضاء على الملوكية، وإنشاء الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الديموقراطية فثاروا في افريقية وفي طرابلس فاستقل شمال افريقية وطرابلس، وثارت براكين الثورات الاستقلالية على عبد الرحمن في كل النواحي، ولكن عبد الرحمن كان صلبا طموحا لا يخضع ولا يستسلم. وكان له جيش قوي مدرب، وأتباع مخلصون قد ساءهم أن تثور افريقية، وتحاول القضاء على الملوكية التي يتمسكون بها، ويرونها حصنا لهم ولمصالحهم، وسبب تفوقهم واستئثارهم بالسلطة في افريقية. وكان لعبد الرحمن إخوة مخلصون هم الياس، عمران، وعبد الوارث. وكانوا يشدون أزره، ويسندون دولته، وينصرونه في كفاحه.

وكان الياس بن حبيب بطلا كأخيه عبد الرحمن، فوجد فيه عبد الرحمن عضده الأيمن، ومخالبه التي صول بها على أعدائه، فجهز له جيشا وأرسله إلى شمال افريقية ليقضي على الثوار فيها، ثم سار هو إلى طرابلس حيث تأسست إمامة الحارث بن تليد الحضري لينازلها ويقضي عليها في مهدها، إنها اكبر شيء يخشاه، فاثر أن يتولاها بنفسه، ويسير إليها بمعظم جيشه وأنصاره، وكان الذين ثاروا عليه في شمال افريقية صفرية؛ أما الذين استقلوا، وأنشأوا إمامتهم في طرابلس فإباضية. وكان عبد ارحمن يعلم انه لا يستطيع التغلب على الثوار إلا بالدهاء والحيلة، فعول عليه، واعتمدها في حروبه؟

حيلة عبد الرحمن في القضاء على الصفرية

قال ابن الأثير: «فممن خرج على عبد الرحمن عروة بن الوليد الصدفي واستولى على تونس، وأقام أبو عطاف عمران بن عطاف الازدي فنزل «بطيفاس» وثارت البربر بالجبال، وخرج عليه ثابت الصنهاجي «بباجة» فأخذها. فاحضر عبد الرحمن أخاه إلياس، وجعل معه ستمائة فارس وقال له: سر حتى تجتاز بعسكر أبي عطاف الازدي فإذا رآك عسكره، فارقهم، وسر عنهم كأنك تريد تونس إلى قتال عروة بن الوليد بها، فإذا أتيت موضع كذا فقف فيه حتى يأتيك فلان بكتابي فافعل ما فيه. فسار إلياس. فدعا عبد الرحمن إنسانا وهو الرجل الذي قال لأخيه الياس عنه، وأعطاه كتابا وقال له: امض حتى تدخل عسكر أبي عطاف، فإذا اشرف عليهم الياس ورايتهم يدعون السلاح والخليل، فإذا فارقهم الياس، ووضعوا السلاح عنهم وامنوا، فسر إليه وأوصل كتابي إليه. فمضى الرجل ودخل عسكر أبي عطاف، وقاربهم الياس، فتحكوا للركوب، ثم الياس نحو تونس فسكنوا وقالوا: قد دخل بين فكي أسد ! نحن من هنا وأهل تونس من هناك، وامنوا وصمموا العزم على السير خلفه، فلما امنوا سار ذلك الرجل إلى الياس فأوصل إليه كتاب أخيه عبد الرحمن، فإذا فيه: إن القوم قد أمنوك فسر إليهم وهم في غفلتهم. فعاد الياس إليهم وهم غارون، فلم يلحقوا يلبسون سلاحهم حتى دهمهم فقتلهم، وقتل أبا عطاف أميرهم. «وكان ذلك في سنة ثلاثين ومائة» فاستطاع عبد الرحمن بدهائه أن ينتصر على عدوه، فلولا ذلك لاستعصى التغلب عليهم، والظفر بهم في معركة متوسطة الأهوال.

قال ابن الأثير فأرسل الياس إلى أخيه عبد الرحمن يبشره بذلك، فكتب إليه عبد الرحمن يأمره بالمسير إلى أهل تونس ويقول: أنهم إذا رأوك ظنوك أبا عطاف فامنوا فظفرت بهم، فسار إليهم، فكان كما قال عبد الرحمن عبد الرحمن ، ووصل إليها وصاحبها عروة بن الوليد في الحمام، فلم يلحق يلبس ثيابه حتى غشيه الياس بن حبيب، فالتحق بمنشفة ينشف بها بدنه، وركب فرسه عريانا وهرب، فصاح به الياس. يا فارس العرب ! فعاد إليه الياس، فاحتضنه عروة فسقطا إلى الأرض، وكاد عروة يظهر على الياس فاتاه مولى لإلياس فقتله، واحتز رأسه، سيره إلى عبد الرحمن وأقام الياس بتونس» ولم يذكر المؤرخون القوة التي توجهت إلى «باجة» للقضاء على ثورتها. وارى أن الياس هو الذي سار إليها لقربها من تونس، أو أن ثابتا الصنهاجي قد تفرق عنه جمعه لما وقع لزميليه الصفريين ما وقع فخرج هو من افريقية ولا أرى الياس الصارم الشديد يرضى بسكون باجة واستسلامها دون أن يطأها بجحافله ويؤيد بها بسيفه. فاستطاع عبد الرحمن بدهائه، وبكفاءة أخيه الياس أن ينتصر على الثورات في شمال افريقية،

فبقي له الإباضية في طرابلس. أنهم أقوى شكيمة، وأكثر تصميما على إزالة الملوكية، وأكثر نظاما، واحكم خطة، وعددهم أغزر، وكلمتهم واحدة، والحارث بن تليد أمامهم وعبد الجبار بن قيس ألمرادي قاضية ووزيره من الأبطال الصناديد ! فلابد من مهاجمتها قبل أن يشتد ساعده، وترسخ عروق دولتهما. فكيف نشأت إمامة الحارث بن تليد في طرابلس وما حالها مع عبد الرحمن ابن حبيب.

إمامة الحارث بن تليد الحضرمي 130 هـ

كان الإباضية هم الحزب الجمهوري الذي تمسك بالإمامة العادلة، وبالجمهورية الإسلامية ودعا إليها، وجاهد لإنشائها. وقد نجحوا في ذلك كل النجاح، فأنشأوا دولا جمهورية كانت تقوم على الإمامة العادلة، ويلتزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين في العدل والدين، فازدهرت، وترقت، وأشرقت كل الإشراق، فاتجه إليها العالم الإسلامي، فصارت محط أنظاره، ومهوى أفئدة كل من يحب الجمهورية، ويطالب بالعدل والديمقراطية، وملجأ للمضطهدين الذين يطالبون بالعدل، وينتقدون على الملوك الأمويين والعباسيين ظلمهم واستبدادهم، وموئلا لطلاب الحرية الفكرية، والديمقراطية الإسلامية التي قضى الملوك في المشرق، فلذلك حنق الملوك الأمويون والعباسيون على الإباضية فبسطوا فيهم دعايتهم المسمومة، ونشروا عنهم الأكاذيب ليشوهوا سمعتهم، ويصرفوا الأنظار عنهم، ويمنعوا سمعتهم الحسنة من الانتشار في رعيتهم، فلا تزيد بإشراقها بيانا لصفحاتهم المسودة بالظلم والجبروت والطغيان، فتدرك تلك الرعايا التعيسة ظلمهم واستبدادهم الذي يصورونه لها بدعاياتهم البارعة التي يخدرونها بها عدلا ومساواة وأنهم بها أحسن من كل الناس، وأنهم السرحة[1] المباركة التي تظلم من الهواجر وتغمرهم بعطرها وثمارها وجمالها !

وكان إمام الإباضية هو جابر بن زيد رضي الله عنه الذي توفي في سنة ست وتسعين من الهجرة، ثم خلفه في إمامة الإباضية في الدين أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، فوالى جهود جابر في تنظيم حركاتهم ودعايتهم للإمامة العادلة، والعمل لإنشاء دولة قوية تحميها.

وقد حاول الإباضية إنشاء دولتهم الجمهورية في العراق، فوجدوا العراق والشام قد استولى عليها الملوكيون، ورسخت فيها جذور الملوكية، فلا تصلح لنشأة الإمامة، فوجدوا دعاتهم إلى أطراف الدولة الإسلامية، في خرسان، وجنوب الجزيرة العربية: اليمن، وحضرموت، وعمان، والى المغرب. فانتشر المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الجمهورية الإسلامية كل الانتشار، فصار اغلب جنوب الجزيرة العربية إباضية. وقد ثار في حضرموت على ظلم الأمويين واستبدادهم عبد الله بن يحيى طالب الحق، وأبو حمزة المختار في آخر سنة ثمان وعشرين ومائة زمن مروان بن محمد، فانظم إليهم جنوب الجزيرة، وبايعوا طالب الحق بالإمامة، فأرسل جيشه وأنصاره إلى مكة والمدينة فاحتلوهما، ثم ساروا إلى الشام ليقضوا على الملوكية باحتلال عاصمتها، ولكن الملوكيين تكاثروا عليهم،

1 - السرحة هي الشجرة العظيمة التي لا شوك فيها، وهي أحسن الشجر وأبهاه.

وأحاطوا بهم، وقضوا على حركتهم وإمامتهم في سنة ثلاثين ومائة. وانشأ الإباضية دولتهم الجمهورية بعمان، ولا زالت إلى الآن متمسكة بنظام الإمامة العادلة والجمهورية الإسلامية؛ فترى الشعب هو الذي يختار أمامه في كل حرية، ثم يبايعه على التزام الكتاب والسنة، وسيرة الخلفاء الراشدين في العدل والدين. ولا تجد إماما يذهب وابنه أو احد قرابته يخلفه بسعي منه كما يقع في الدول التي لم يبق من الإمامة فيها إلا اسمها، بل الشعب هو الذي يختار، والعلماء وعقلاء الأمة الذين هم دماغ الأمة وعقلها ينتخبون شخصا توفرت فيه كل الصفات التي تؤهله للإمامة، وتجعل الشعب يرتضيه، فيبايعه الشعب لما أدرك فيه من تلك الصفات وتلك الكفاءة.

ثم وجه الإباضية من البصرة دعاتهم الذين يدعون إلى الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، والتمسك بسيرة الخلفاء الراشدين في سياسة الدولة، والى المساواة والحرية، ونبذ التعصب، والتحزب، والظلم والجبروت الذي كان عليه الأمويون. وكان المغرب يعلم أن الدين قد جاء بما يدعو إليه الإباضية. وكانوا متعطشين إلى العدل والمساواة، متبرمين قد ضاقوا ذرعا يظلم الأمويين واستبدادهم، وتعصبهم، وانحرافهم عن الدين، فاقبلوا على دعاة الإباضية في شوق ولهفة، فاعتنقوا مذهبهم الجمهوري، فانتشر المذهب الأباضي انتشارا واسعا، فكان اغلب المغرب الأوسط، وجنوب افريقية، وطرابلس كلها من سرت إلى قابس كلها إباضية.

وكان دعاة الإباضية قد توجهوا إلى المغرب في أول القرن الثاني. وكان أول دعاتهم في المغرب هو سلمة بن سعد، أوفده أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وكان ذا علم وورع، وفصاحة ودهاء. وما كادت ثورة الصفرية تقع في سنة 122 هـ حتى كانت هذه البقاع كلها قد انتشر فيها المذهب الأباضي. لذلك لم ينضم كل المغرب الأوسط إلى الصفرية في ثورتهم، ولم ينضم شرق طرابلس وجبل نفوسة إلى ثورة عكاشة وعبد الواحد الهواري. لان الإباضية لا يوالون الصفرية لتطرفهم ومخالفتهم للدين في بعض عقائدهم، ولان الإباضية لا يهاجمون أحدا ولا يسرعون إلى سفك دماء المسلمين، ولا يقاتلون أحدا إلا دفاعا عن أنفسهم وعن دولتهم.

وكان شرق طرابلس من «سرت» إلى المدينة لهوارة، والجنوب الغربي لمدينة طرابلس لنفوسة، وهي بلاد واسعة تسكنها قبائل هوارة، وقبائل نفوسة، وكانت كلها إباضية. وكانوا يحنون إلى إنشاء دولة جمهورية تسوسهم بالعدل، وتقوم على الإمامة التي جاء بها الدين. وكانوا يرقبون الفرصة لذلك. لما شاخت الدولة الأموية وتقلصت عن المغرب، واستقل المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عن الأمويين، وثار عبد الرحمن بن حبيب

فاستولى على افريقية، اجتمع الإباضية في طرابلس، فتداولوا فيمن يصلح للإمامة لينشئوا دولتهم الجمهورية.

وكان عبد الله بن مسعود التجيبي هو رئيس الإباضية في طرابلس، والشخصية البارزة فيهم، لعلمه، وتقواه، وقوة شخصيته، وحسن تدبيره، فاتجهت إليه الأنظار، ورشحه الإباضية للإمامة. فعلم عبد الرحمان بن حبيب بما عزم عليه الإباضية في طرابلس، فولى أخاه الياس بن حبيب على طرابلس، وأرسل معه قوة عسكرية كبرى ليمنع الإباضية من إنشاء جمهوريتهم، ويخنق دولتهم في الأرحام قبل أن تولد.

قتل الياس عبد الله ابن مسعود رئيس الإباضية

وكان الياس بن حبيب عسكريا غشوما سفاكا للدماء، لا يعتمد إلا على القوة والعنف في بلوغ أغراضه. وكان يظن أن الإباضية من الضعفاء الذين إذا قتل رئيسهم يفشلون ويفترق جميعهم، وينبذون ما هموا به ! فعدا على رئيس الإباضية عبد الله ابن مسعود التجيبي فقتله. فاغتاظ الإباضية، علموا أن الياس قد استحل دماءهم، واعتدى عليهم، وفتح باب الحرب معهم، فلا بد من ردعه، ومخاطبته بالعنف العنيف الذي يعيه ويؤثر فيه، فأسسوا إمامتهم، وبايعوا الحارث بن تليد الحضري إماما عليهم، فنهض الحارث فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم.

وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي ووزيره عبد الجبار بن قيس ألمرادي -كما أرى- من الإباضية الذين كانوا في جيش أبي حمزة المختار الذي أرسله الإمام طالب الحق لفتح شمال الجزيرة العربية، والقضاء على الملوكية في الشام. ولما قضى الملوكيون على حركة طالب الحق، واستولوا على جنوب الجزيرة، سافر هذان الحارث وعبد الجبار إلى المغرب، فحلا في طرابلس، فواصلا عملهما الذي لم يكتب له النجاح في المشرق، وهو إنشاء دولة جمهورية، والقضاء على الملوكية المستبدة.

وكان الحارث وعبد الجبار كلاهما متصف بالتقوى والورع والعلم، وبقوة الشخصية وحسن التدبير، فاختارهما الإباضية في طرابلس لرئاسة دولتهما، ولقيادة حروبهم مع الملوكيين الذين سيهاجمونهم. فكان الحارث إماما ورئيسا الجمهورية، وعبد الجبار وزيره وقاضيه. فبايعت قبائل هوارة وقبائل نفوسة وزناتة هذا الإمام والتفت حوله، فنظم شؤونها، ورتب أمورها، وساسهم بالعدل والدين، فتنفست طرابلس الصعداء، وزال عنها النكد والشقاء، بارتفاع كابوس الظلم والجبروت والتعصب الجاهلي عنها.

وكان عبد الرحمان بن حبيب يرقب الأمور في طرابلس. فلما أنشأ الإباضية جمهوريتهم

قامت قيامته، ورأى هذه الإمامة اكبر خطر يهدده، ويهدد الملوكية في المغرب والمشرق ! ثم إن جمهورية الحارث ستقطع صلته بالشام والمشرق، فلا يستطيعون أنجاده إذا ثار عليه المغرب كله، وأحاطت به جيوش الحارث وجيوش الإمارة الإباضية في المغرب الأوسط؛ فعزم على القضاء على إمامة الحارث قبل أن ترسخ عروقها، ويعاجل الحارث قبل أن يشتد ساعده، ويبايعه إباضية المغرب الأوسط فيصبح خطرا يهدده بالمحق والزوال. فجهز جيوشه، فسار بها بنفسه، فلما قرب من طرابلس كره أن يشارك في القتال لأنه لا يثق بالنصرة، وخاف من فتكات الحارث وعبد الجبار، فأرسلها تحت ابرع قواده، وصار هو يوجههم يديرهم من معسكر بعيد عن مكان المعركة حتى إذا وقعت الهزيمة بجيشه استطاع أن ينجو إلى القيروان. فوقعت حرب شديدة بينه وبين الإمام الحارث، فكر الحارث على جيوش عبد الرحمان فمزقها فولت الأدبار، وهزمها شر هزيمة، فنهى جيشه أن يغنموا مالا، أو يجهزوا على جريح، أو يتبعوا فارا لجا بنفسه لا ينوي إعادة الكرة عليهم ! وكان كما أمر الدين في محاربة المسلمين، فلم يعامل المسلمين في الحرب معاملة المشركين كما يفعل الملوكيون. فدخل الحارث مدينة طرابلس فكانت له، وأمست طرابلس من سرت إلى «قابس» كلها تحت إمامته ! ورجع عبد الرحمان بن حبيب إلى القيروان كاسفا مهموما، قد جرحت كبرياؤه، وطأطأت الهزيمة رأسه، وهو الشامخ البطل الذي لم يذق طعم الهزائم في الحروب التي يقودها ! فجهز جيشا آخر أقوى فسار به بنفسه حتى قرب من طرابلس، فأرسله تحت ابرع قواده فكر عليه الحارث فهزمه شر هزيمة. فأيس عبد الرحمان ابن حبيب من القضاء على هذه الجمهورية بالقوة العسكرية، فعول على الحيلة فدس في عامة الحارث وعبد الجبار من اغتالهما.

ديموقراطية الإمام الحارث

وكان الإمام الحارث وعبد الجبار قاضية على سيرة الخلفاء الراشدين في الاختلاط بالناس والاطلاع على أمورهم. وكانا يجلسان بين الصلوات في المسجد فيلقيان الدروس ويعلمان الناس أمور دينهم، ويفتون من يستفتيهم، وترفع إليهما الشكاوي والمظالم فيحكمان فيها بحكم الله، ويصلحان بين المتنازعين، ويعطيان كل ذي حق حقه. وكانت لهم دار للندوة في وسط المدينة يجلسان فيها فترفع إليهما الشكاوي، ويتصل بهما كل من أراد الاتصال.

اغتيال عبد الرحمن ابن حبيب الإمام الحارث وعبد الجبار

وكانا على الديموقراطية التامة، لا يمنعان أحدا، ولا يحتجبان عن الشعب كما يفعل

الملوك ! وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما، حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم، والمكان خال، فظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات، فدخلوا عليهما فقتلوهما، ثم ادخلوا في كل واحد منهما سيفا وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر، ليتوهم الناس إنهما تنازعا فتقاتلا فقتل كل منهما صاحبه ! ثم دس عبد الرحمن جماعة من أنصاره فبثوا فتنة في عامة الإباضية، وتدرعوا في ذلك بقتل الحارث وعبد الجبار فإنهم أوهموا العامة إنهما تقاتلا فقتل كل منهما صاحبه، وأنهما في البراءة كلاهما، وان الحكم في كل قضية من هذا النوع إنما هو البراءة من القتيلين. وقال آخرون خلاف هذا فأوقعوا الشقاق في طرابلس. أما الإباضية فقالوا: إن صلاح القتيلين من هذا النوع وقد قتلا وهما على الولاية وتقواهما هو المتيقن به، والقتل الذي يورثهما البراءة مشكوك فيه، فيهما على الولاية. فاحدث عبد الرحمن الشقاق في صفوف العامة وفي الجماهير الجاهلية بهذه المسألة الكلامية، فتصدعت صفوفهم، وأورثهم الخلاف ضعفا كبيرا، فأمسوا على غير الاتحاد والقوة التي كانوا عليها، ولما قتل الحارث وعبد الجبار بايع الإباضية إسماعيل بن زياد النفوسي إماما عليهم. فماذا سيقع لهذا الإمام الذي يحي الجمهورية الإسلامية، مع عبد الرحمن بن حبيب الذي يناصر الملوكية المستبدة؟

إمامة إسماعيل بن زياد النفوسي 132 هـ

وكان إسماعيل بن زياد قوي الشخصية، شجاعا، صنديدا، ذا تقوى وورع وحصافة، وكان من الأقوياء الذين يستطيعوا أن يورثوا لعبد الرحمن بن حبيب الهزائم ولكن مكيدة عبد الرحمن كانت قد بثت الفرقة في عامته، وقتل الحارث وعبد الجبار وإيهام الدهماء البسطاء أن كلا منهما قتل صاحبه قد أورث التشاؤم واليأس لهم ففت في اعضادهم، فلم يكن الإباضية كلهم صفا مرصوصا وراء أمامهم، وعلى الحماس والثقة بالنفس كما كانوا في عهد الحارث، فعاجل عبد الرحمن بن حبيب إسماعيل بن زيادا النفوسي قبل أن يجمع شمل رعيته، ويوقفهم على المكيدة التي فرقت صفوفهم، وقبل أن يستمد ويجمع قواته، فداهمه بجيوشه الكثيرة التي كان يقودها بنفسه، فهجم بها عليه، فقاتل إسماعيل، ووقع معركة عنيفة بينهما، فقتل إسماعيل وانهزام جيشه، فدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس، فقتل الأسرى، وتتبع رجالات الإباضية الذين يمكن أن يجددوا إمامتهم فقضى عليهم.

وكان عبد الرحمن سفاكا للدماء، انه لم يشبه جده عقبة إلا في الشجاعة، أما تقوى عقبة وورعه فانه لم يتصف بهما حكى ابن عذارى» «أن جيش عبد الرحمن قتل ابن عطاف (الذي ثار عليه وأصحابه) وأمعن عبد الرحمن بن حبيب في مقتل البربر، وامتحن الناس بهم، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا (يمنع عنهم الطعام والشراب ويسلط عليهم أنواع العذاب حتى يموتوا !!)، وكان يؤتى بالأسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله فيقتله !»[1] وتتبع عبد الرحمن أنصار الحارث ومؤيدي الجمهورية الإسلامية فقتل منهم مقتلة كبرى، ثم بالغ في إذلالهم، وسول له طغيانه وجبروته وحبه للمال وعدم تمسكه بالدين أن يعاملهم معاملة المشركين !! فأمر بغنم أموالهم ليضعفهم بالفقر، بعد أضعفهم بقتل رؤسائهم، فلا تحدثهم نفوسهم بالحنين إلى الجمهورية والعمل لإنشائها ! فبلغ عبد الرحمن ما أراد فقضى على جمهورية الحارث وعبد الجبار، وكان ذلك في سنة اثنين وثلاثين ومائة. وكانت مدة إمامة الحارث نحو ثلاث سنين ومدة إمامة إسماعيل بن زياد زمنا قصيرا. هذه أنباء هذه الإمامة كما وردت في عدة كتب. وأحسن من أورد بعض أنبائها هو ابن عبد الحكم في كتابة فتوح مصر والمغرب قال ابن الحكم: «ثم بعث عبد الرحمن أخاه «الياس» ابن حبيب عاملا على طرابلس، فاخذ عبد الله بن مسعود التجيبي، وكان إباضيا ورئيسا فيهم، فضرب عنقه، فاجتمع الإباضية بطرابلس ! فعزل عبد الرحمن أخاه، وولى حميد ابن عبد الله العكي. وكان على الإباضية

1 - البيان المغرب لابن عذارى ج 1 ص 66 ط بيروت ما بين قوسين ليس منه.

حين اجتمعوا عبد الجبار بن قيس ألمرادي، ومعه الحارث بن تليد الحضرمي، فحاصروا حميد بن عبد الله عامل عبد الرحمن في بعض قرى طرابلس، فوقع الوباء في أصحابه فخرج بعهد وأمان، فلما خرجوا اخذ عبد الجبار بن قيس نصير بن راشد[1] مولى الأنصار فقتله. وكان من أصحاب حميد وكانوا يطلبونه بدم عبد الله بن مسعود التجيبي المقتول، واستولى «الحارث» وعبد الجبار على زناتة وأرضها. فكتب عبد الرحمن إلى يزيد بن صفوان المعافري بولاية طرابلس، ووجه مجاهد ابن مسلم الهواري يستألف الناس ويقطع عن الحارث وعبد الجبار هوارة وغيرهم من البربر (ظنا منه أن البربر تسيرهم العصبية التي تسيره فيرون الحارث وعبد الجبار يمنيين فيفارقونهما، وما علم أن الدين قد مزج بين العرب والبربر فصاروا امة واحدة، وان البربر يرون العرب إخوتهم الأشقياء فيبايعونهم بالإمامة ويسندون إليهم الرئاسة والوظائف الكبرى في دولهم، كما بايعوا الحارث وعبد الجبار، وان الإسلام قد طهر أهل المغرب من أوضار الجاهلية، فأمسوا امة واحدة، لا يتسمون بالعصبية التي تسيطر على الملوكيين)[2] قال ابن عبد الحكم: فأقام مجاهد الرحمن بن حبيب محمد بن مفروق في خيل وكتب إلى يزيد بن صفوان بالخروج معه، فخرجوا، فلقيهم الحارث وعبد الجبار بمكان من ارض هوارة (في شرق طرابلس) فقتل يزيد بن صفوان ومحمد بن مفروق وانهزام مجاهد بن مسلم إلى ارض هوارة. فقفل عبد الرحمن بن حبيب (الذي لم يشارك في المعركة وإنما كان قريبا منها إلى القيروان) فاجتمع إليه جمع كثير فزحف بهم إلى عبد الجبار والحارث فلقيهم بأرض زناتة فانهزم عمرو بن عثمان (قائد جيوش عبد الرحمن وأصحابه فاستولى الحارث وعبد الجبار على طرابلس كلها. ثم خرج عمرو بن عثمان إلى «دغوغا» ومعه مجاهد ابن مسلم، فاتبعه الحارث بن تليد فتوحه عمرو من «دغوغا» إلى الصحراء فأدركه الحارث فتقدم عمرو إلى «سرت» فأدركته خيل الحارث فقتلوا نفرا من أصحابه فنجا عمرو جريحا على فرسه، فاحتوى الحارث على عسكره، واستفحل أمر عبد الجبار والحارث... ثم قال ابن عبد الحكم: وقتل الحارث وعبد الجبار جمعا، فولى البربر على أنفسهم إسماعيل بن زياد النفوسي، فعظم شانه، وكثر مبايعوه. فخرج إليه عبد الرحمن ابن حبيب حتى إذا كان (بقابس) قدم ابن عمه شعيب بن عثمان في خيل فلقي إسماعيل، فقتل إسماعيل وأصحابه، واسر من البربر اسارى كثيرون. وكان عبد الرحمن مقيما في عسكره ولم يشهد الوقعة فنهض حين فتح إلى سوق طرابلس، ومعه الاسارى، فكتب إلى عمرو بن عثمان فقدم عليه من ارض سرت،

1 - إن الذي أخذه هو الحارث لأنه الإمام، فحكم بإعدامه عبد الجبار لأنه القاضي، ولكن ابن عبد الحكم نسب الفعل كله إلى القاضي فأوهم من لا يعرف انه الإمام.

2 - ما بين قوسين في أثناء كل نص ليس منه.

وقدم الاسارى فضرب أعناقهم وصلبهم، واستعمل على طرابلس عمرو بن سويد ألمرادي وأمره أن ينفل «البربر»[1]!

وكانت دولة الحارث أول جمهوريو إباضية في المغرب. وقضى عبد الرحمن على الجمهورية في الأرض، ولكن لم يقض عليها في القلوب. وكانت الدماء الزكية التي سفحها لقتل الجمهورية ريا لعروقها فرسخت وانبتت بعد ذلك دولة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح الجمهورية في سنة أربعين ومائة فانضوت تحت لوائها طرابلس وافريقية كلها وجمهور المغرب الأوسط. ورجع عبد الرحمن بن حبيب إلى القيروان ولكن الأيام لا تهنأ له. إن المغرب ينازعه ليستقل، فيخوض حربا أخرى عنيفة ثم يقتله أخوه الياس الذي سلطة على كثير من النواحي فأغرقها في الدماء، فيكون جزاء الله لعبد الرحمان مكن جنس ما صبه على عباده ! فكيف كانت أحوال عبد الرحمن بعد سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكيف قتل فكانت عاقبته وخيمة، ونهايته مؤلمة؟

1 - فتوح مصر والمغرب ص 224 ط ليدن.

أحوال افريقية في عهد عبد الرحمن بن حبيب

إن عبد الرحمان وإن كان شجاعا قويا، وداهية محنكا، فاستطاع أن يسكن افريقية ويقضي على الثورات فيها، فانه لم يهنأ بالملك، ولم تصف له الأيام ! لقد سلط الله على افريقية الأوبئة والطاعون، ففتك بأهلها، وكدر الحياة فيها، ودامت عليهم هذه الأوبئة سبع سنين لا ترتفع عنهم إلا أياما في الشتاء، وأياما في الصيف، فصارت بها أيام عبد الرحمن منغصة، وعهده مملوءة بالمرارة. ثم كان على خوف دائم من انفجار البراكين عليه، وزحف أعداء الملوكية من المغرب الأوسط والأقصى فيقضوا على دولته. إن المغرب الأوسط قد استقل فلم تعد له سلطة عليه، وفيه الإباضية الأقوياء، الكثير والعدد، الأشداء الشكيمة، أنهم ليضعون الخطط المحكمة، ويهيئون الوسائل والأسباب لتكون دولتهم الجمهورية القوية ! وفي المغرب الأقصى الصفرية الذين استقلوا في شماله، فأمسوا قوة تهدده ويخشى زحفها عليه، إن ضرباتهم لأبيه، وما وقع فيه هو في معارك كلثوم بن عياض القشيري مع خالد بن حميد ألزناتي، وما رأى من الموت الأزرق يحيط به، والمحق الأحمر يهجم عليه، فلولا طول عمره، وفروسيته، ومحاماته عن نفسه، ونجاته إلى الأندلس، لكان طعمه لتلك الملحمة، وفريسة معفرة في تلك المعركة. إن هذا لا يزال يملأ بالرعب قلبه، ويخشى أن يقع في نظيره، إذا هم صفرية المغرب الأقصى به؛ وإن صفرية افريقية لعلى غيظ عليه، وأحقاد تملأ قلوبهم، فهم يرقبون الفرصة فيه.

هذا هو الجو المستعمر الذي كان يعيش فيه عبد الرحمن في افريقية. لقد كان على أهبة دائمة للحرب، وعلى احتراس ويقظة وخشية من ينام على ألغام هي إلى الانفجار، أو يركب أسدا لابد أن يصحو من حماه، فيفترس راكبه الذي عفره، وجرح كبرياءه.

غزوة عبد الرحمن لصقلية وسردانية

وكان عبد الرحمن مع كل هذه العوامل التي تشل حركته بطلا صنديدا، لا يخضع ولا يستكين، ولا يضعف طموحه، ولا تهدأ جرأته. فجهز جيشا وأرسله إلى صقلية، فنازل قلاعها، واختن فيها، فاجبر أهلها على الخضوع وأداء الجزية، وآخر إلى سردانية فأرغمها على أداء الجزية، فرجع جيشه مكللا بالنصر المبين.

وفي سنة خمس وثلاثين سمع بتجمع الصفرية في تلمسان ليهاجموه فسار هو إليهم فهزمهم بعد معركة عنيفة خاضها، معهم، وأبطل عزيمتهم في السير إليه.

انقراض الدولة الأموية

في أيام عبد الرحمن انقرضت الدولة الأموية في سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقامت الدولة العباسية.

وفي أيامه دخل عبد الرحمن الداخل إلى المغرب فنزل القيروان، فهمن عبد الرحمن ابن حبيب بقتله لما رأى من قوة شخصيته وطموحه وجرأته، فخافه على ملكه، فنجا عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس فتغلب عليها في يوم الأضحى لعشر خلدون من ذوي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة، فانشأ بها دولته الأموية الكبرى.

ثم تطلع السحب القائمة في سماء عبد الرحمن، وتثور المنافسة والحسد له في صدور إخوته، فيغتالونه، فيقع عبد الرحمن في الخاتمة السيئة التي خلقها له سفكه لدماء الأبرياء، واغتياله للائمة الأتقياء، ويعاقبه الله بجنس ذنوبه !.

فكيف كان مقتل عبد الرحمن، وما هي أسبابه النفسية والخارجية؟

مقتل عبد الرحمن حبيب وأسبابه النفسية.

لم يكن عبد الرحمن بدعا في الأمويين الذين أثرت فيهم الحضارة، والانغماس في المدنية، فتغيرت أخلاقهم، وفسدت طباعهم، وأورثهم الأنانية القاتلة التي هي أم الحسد والعصبية للجنس والقبيلة والنفس، فتنافسوا على الرئاسة، وتصارعوا على المناصب، وحال بعضهم لبعض الدسائس والمكائد، ونصب لبعض الإشراك والمصائد، فقتلهم ضعف الأخلاق الذي يكون برقة الدين، وفارقتهم الأيام البيضاء لما ضعف في نفوسهم الدين والصفاء.

إن عبد الرحمن قد ورث الشجاعة من أخواله بربر «أوراس» ومن أبيه، وأورثه امتزاج الدماء فيه قوة بدت في شجاعته ودهائه وطموحه، وأرهفته الحروب التي أشركه فيها أبوه، وأورثته صلابة وصرامة، وحفظته من الضعف والميوعه، ومن الخنوع والاستسلام؛ ولكنه لم يكن كما يجب في التمسك بالدين الذي يحمله على العفة في الدماء، والنزاهة في السلوك، وعلى الجادة التي أمر الله بها في كل الأمور. إن حياته ملطخة بالدماء الحرام التي سفكها، فانزلق فيها، فباء بأسوإ الخواتم. وإنها لمثقلة بالظلم لرعيته، فسلط الله عليه من ظلمه. وقد عق رحم أخواله فتحيز ضدهم، فابتلى بمن لا يراعي الرحم فيه، ومن يقطنها بقتله.

لقد سفك عبد الرحمن دماء الحارث وعبد الجبار اللذين كانا مثالا في الورع والنزاهة،

واللذين بعثا الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية التي جاء بها الدين، وعدلا في الرعية، وأحييا سيرة الخلفاء الراشدين، وكانا خيرا للمسلمين،وفتحا للمغرب، وبركة على البقاع التي انضمت إليهم، ولكن تمسكه بالملوكية، وحرصه على الرئاسة، وتعصبه للعرق أبي عليه أن يرضى بنشأة إمامة بجانبه تكسفه بعدها، وتجذب الانتظار إليها، وتزاحمه في المغرب الأدنى، فعدا على رئيسها التقيين اللذين لا يبغيان به شرا، الحارث وعبد الجبار، فاغتالهما وهما في مكان أمنهما، وفي دار الإمارة التي يقومان فيها بشئون المسلمين، ثم الصق بهما تهمة القتل، ودبر لهما مكيدة تجعل الدهماء تعتقد أن كلا منهما سفك دماء صاحبه وزميله ! ثم سفك دماء الاسارى في سوق طرابلس، وصلبهم وهو ما يحرمه الدين، ويدل على الطغيان والجبروت، ثم تتبع رجالات الإباضية في طرابلس، فقتل منهم وهم أبرياء، لم يهاجموه، ولم يعتدوا عليه، ولا همو بشر فيه ! فهل تذهب دماء الحارث وعبد الجبار هدرا لا ينتقم الله لها؟ وهل ينجو عبد الرحمن من الاغتيال في مكان أمنه، وعلى يد من لا يظن السوء به؟ إن الله عادل يبتلي كل جبار يتسلط على أوليائه، ويخالف دينه في عباده، بمثل ما ابتلى به الأولياء منه، ليكون عبرة لغيره، فينتهي الرؤساء والملوك من الظلم والجبروت، ويتيقنوا أن العدل والاستقامة والتمسك بالدين ورضا الرحمن، هو سبب الفوز والنجاح، وان تنكب هذه هو سبب الدمار والخسران، وأن أيام الرئيس والملك وخاتمته على حسب طويته وصفحته عند شعبه، فان كانت بالعدل والاستقامة جميلة بيضاء فان خاتمته كذلك !

لقد قدم عبد الرحمن بظلمه وسفكه للدماء الحرام ما خلق له نهايته السيئة، وخاتمته المؤلمة، فسلط الله عليه إخوته فاغتالوه في داره، وفي مكان أمنه، وجعل قتله على يد إخوته ليكون أنكى له، واشد وقعا في نفسه.

وكانت أسرة حبيب بن أبي عبيدة على تلك الأمراض النفسية التي أودت بالأمويين، فأصيبوا بالحسد الذي هو وليد الأنانية بنت الحضارة والانغماس في الشهوات، فتنافسوا على الرئاسة، وتقاتلوا عليها، وسفك بعضهم دماء بعض من اجلها، فأودى النزاع والحسد بهم، وذهب بدولتهم، فوقعوا في اسوإ الخواتم! هذه هي الأسباب النفسية لقتل عبد الرحمن، وللحروب التي ستقع بين أفراد أسرته، فكيف قتل عبد الرحمن ومن قتله؟

إن ابن الأثير، وابن عذارى، وابن خلدون،والسلاوي وغيرهم قد أوردوا كلهم قصة اغتيال عبد الرحمن وما أعقب قتله من حروب بين أعضاء أسرته، كما أوردها النويري في نهاية الأرب في جزء من الأجزاء التي لا زالت مخطوطة لم تطبع، فلننقل منه قصة الاغتيال والصراع ونكمل ما ورد فيه بما ورد في غيره. إن ابن الأثير أحسن أسلوبا، وأكثر انسجاما

بهذا الكتاب، ولكن النويري أكثر مادة، وأوفى حديثا، وهو لا يوجد في الأيدي، فلنعتمده في هذا الباب مع السلاوي الذي نقل من ابن خلدون، وننقل من كل مرجع ما تفرد به من النصوص الصحيحة.

مقتل عبد الرحمن بن حبيب 137 هـ

قال النويري في نهاية الأرب: كان سبب قتل عبد الرحمن انه لما قتل مروان ابن محمد الحمار آخر ملوك بني أمية، وانقرضت الدولة الأموية، هرب جماعة من بني أمية ومعهم حريمهم إلى افريقية. وكان ممن هرب إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز ابن مروان ومعه أخته، وكان يحمل مالا كثيرا فاخذ عبد الرحمن بن حبيب ماله، وغلبه على أخته فزوجها لأخيه الياس. وكان ممن قدم إلى افريقية ابنان للوليد بن يزيد الملك الأموي، واحدهما يسمى العاص، والآخر عبد المؤمن. وكانت ابنه عمهما تحت الياس بن حبيب، فانزلهما عبد الرحمن بدار شيبة بن حسان، وتسلل إليهما ذات ليلة ليسمع كلامهما، وكانا على نبيذ وغلامهما يسقيهما، فقال العاص: ما اغفل عبد الرحمن. أيظن انه يبقى أميرا ونحن أولاد الملوك! ! فنزل وانصرف ولم يعلما به.

تحريض زوجة الياس على قتل عبد الرحمن

ثم دعاهما واظهر لهما بشرا، فتاهما من اخبرهما أن عبد الرحمن سمع كلامهما، فركبا جملين فهربا، فبعث عبد الرحمن الخيل في طلبهما، وأدركا، فأمر بضرب أعناقهما فقالت ابنه عمهما لزوجها الياس: إن أخاك قد قتل أختانك ولم يراقبك فيهم، وتهاون بك، وأنت سيفه الذي يضرب به، وكلما فتحت له فتحا كتب إلى الملوك في الشام: إن ابني حبيبا فتحه! وقد جعل له العهد بعده، وعزلك عنه! فلم تزل تغريه به حتى تحرك لقولها، وأثارت ما في نفسه فعزم على قتل أخيه.

وكان السفاح أول الملوك العباسيين قد مات، وولي الملك بعد المنصور، فدعا عبد الرحمن إلى طاعته فأجابه. فعبث إليه المنصور خلعة سواء فلبسها، وهي أول سواد دخل افريقية. فأرسل إليه عبد الرحمن هدية فيها بزاة وكلاب للصيد وذهب قليل، وكتب إليه يقول، إن افريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها والمال فلا تطلب مني مالا.

غضب المنصور على عبد الرحمن

وكان عبد الرحمن معتمدا بنفسه،[1] وكان قد سبق المنصور إلى الملك، فخاطب المنصور في رسالته مخاطبة الند للند، ولم يكن كما يريد الملوك من عمالهم ورعيتهم أن يكونوا؛ ترابا تحت أقدامهم! وبدا للمنصور كتاب عبد الرحمن خشنا فظا ليس فيه ليس فيه التضرع والاستخذاء والركوع الذي ألفه من أمثاله، فعزم أن يخفض هامته ويريه سطوته وسلطانه. وكان المنصور محبا للمال حريصا عليه يجمعه من كل الوجوه، وكانت دولته في نشأتها، وخزائنها فارغة، والمال الكثير للدولة الملوكية ضروري لها لإشتراء القلوب، واصطناع الرؤساء، والإحسان إلى الجند ليضمن نصرتهم له على منافسيه الكثيرين، وعلى مناوئي دولته من العلويين وغيرهم. وكان حريصا على ضم افريقية والمغرب الأدنى إليه لما يعرف من غنى المغرب، فيتدفق عليه عبد الرحمن بالأموال الوفيرة التي تشبع نهمه وحرصه على المال. فلما اعتذر إليه عبد الرحمن غضب ورآه يستأثر بالأموال دونه، ويمسكها عنه، ويريد أن يستمر على ما ألفه من الاستبداد بافريقية، واحتكار أموالها كأنه ملك عليها لا عاملا يجب أن ينفذ مشيئته، ويكون له ملعقة تحمل اللقم الدسمة إلى فيه! فغضب لشموخ عبد الرحمن وحرمانه من المال، فأرسل إليه كتابا شتمه فيه وسبه، وتوعده ونظر فيه إلى عبد الرحمن بعينين يتطاير منهما الشرر، وسحنة عابسة مقطبة تتأجج بالجبروت والطغيان والاحتقار له.

ثورة عبد الرحمن على المنصور وخلعه

وكان عبد الرحمان سليل حبيب الشامخ، وابن اوراسيه أورثته عزة قومها وإباءهم، وعدم رضوخهم للجبابرة، فغلت دماؤه في عروقه، وأظلمت الدنيا في عينيه، فعزم على خلع المنصور والثورة عليه. قال النويري: ثم نادى الصلاة جامعة! فاجتمع الناس في المسجد الجامع، ثم خرج عبد الرحمن في مطرف خز، وفي رجليه نعلان! ! فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم،صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم اخذ في سب أبي جعفر ثم قال: ظننت هذا الجائر يدعوني إلى الحق ويقوم به، حتى تبين لي منه خلاف ما بايعته عليه من إقامة الحق والعدل. وأنا الآن قد خلعته كما خلعت نعلي هاتين فقذفهما وهو على المنبر! ثم بخلعه أبي جعفر التي كان أرسلها إليه وفيها سواد، وكان قد لبسها

1 - ما يأتي من الكلام من المؤلف لا من المراجع، وارى القارئ يتبين من الأسلوب الفرق بين النصوص وكلام المؤلف.

قبل ذلك ودعا فيها لأبي جعفر، فمزقها، وأمر بتحريقها فحرقها! وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابا بخلع المنصور، ويقرأ على المنابر في سائر بلاد المغرب ففعل ذلك.

اغتيال الياس لأخيه عبد الرحمن

وكان الياس بن حبيب قد تحرك الحسن في قلبه وأججته زوجته بنت ابان التي قتل عبد الرحمن ابني أخيها، وأفسده الوساد على أخيه! والوساد إذا كانت فيه امرأة جميلة محبوبة ذكية يكون هو مصنع الأفكار والعقائد التي تدخل رأس الرجل مع العطر والحديث اللين، وكل ما تحتلنا به نساؤنا فنمسي مستعمرة لهن، لا يكون فيها جلاء، ولا استقلال، ولا رفع قضية إلى الأمم المتحدة! !

كان الياس يرقب الفرصة في أخيه عبد الرحمن ليثور عليه، فلما ثار على المنصور وخلعه كنعليه، ومزق خلعته وحرقها، وأثار بذلك كثيرا من الملوكيين في القيروان وجد الياس فرصته فعزم عزيمته وهم بأخيه!

قال النويري: فاجتمع رأي الياس بن حبيب، وعبد الوارث أخيه على قتل عبد الرحمن أخيهما، ووالاهما على ذلك جماعة من أهل القيروان والمشارقة وغيرهم على أن يكون الأمر لإلياس، والدعاء لأبي جعفر المنصور. فشعر عبد الرحمن بما هم به الياس، فولاه على تونس وأمره بالسير إليها ليبعده عن أنصاره الذين تآمروا معه، ثم يفعل بعد ذلك في الياس وكل من تآمر عليه ما يبدو له.

قال النويري: فأتى الياس أخاه عبد الرحمن ليلا متظاهرا انه سيودعه قبل الرحيل إلى تونس ومعه أخوه عبد الوارث، فأذن له فدخل عليه وهو في غلالة وردية وابن له صغير في حجره، فقعد طويلا وعبد الوارث يغمزه! فلما قام ليودعه اكب عليه يعانقه، فوضع السكين بين كتفيه حتى صارت إلى صدره! فصاح عبد الرحمن فقال: فعلتها يا ابن اللخناء! ثم ضربه الياس بالسيف فالتقاء بمرفقه فأبان يده، وضربه حتى أثخنه! فدهش الياس فخرج هاربا، فقال له أصحابه: ما فعلت؟ فقال: قتلته! فقالوا: ارجع وحز رأسه لعله لم يمت وإلا قتلنا عن آخرنا ففعل.

وكان مقتل عبد الرحمن في آخر سنه سبع وثلاثين ومائة. ومدته في الملك عشر سنين وسبعة أشهر.

ثورة حبيب وعمه عمران أن حبيب

وكان لعبد الرحمن ابنان قد ورثا جرأته وكفاءته، احدهما يوسف بن عبد الرحمن

الذي غاطب أباه فذهب إلى الأندلس فاستولى عليها فبقي أميرا عليها إلى أن انتزعها منه عبد الرحمن بن معاوية الداخل. والثاني حبيب بن عبد الرحمن وهو الذي كان معه في القيروان وأقامه ولي عهده. وكان الياس وحزبه قد عزموا على قتله لأنه في الجرأة والشجاعة والطموح كابية.

قتال حبيب وعمران مع الياس واصطلاحهم

قال النويري: ولما قتل عبد ثارت الصحية فاخذ الناس أبواب دار الإمارة. فسمع حبيب بن عبد الرحمن الصيحة فهرب من القيروان إلى تونس وكان عليها عمه عمران فانضم إليه. وكان عمران موغر الصدر على الياس لاستيلائه على الملك، وكان يحسده، وساءه أيضا قتله لعبد الرحمن الذي أحسن إليه وولاه على تونس وجعله من خاصته، فعزم على قتال الياس فجهز جيشه فخرج هو وحبيب إليه.

قال ابن الأثير: فسار الياس إليهما فاقتتلوا قتالا يسيرا ثم اصطلحوا على أن يكون الحبيب جنوب افريقية: قفصة، وقسطيلية ونفزة، ولعمران شمالها: وهو تونس وصطفورة (شمال غرب تونس إلى بنزرت) والجزيرة، ويكون وسط افريقية وبقيتها لإلياس. وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين ومائة وكان الياس بهذا يريد أن يفصل حبيبا عن عمران ويبعده عنه ثم يضرب كل واحد منهما وهو مجرد عن أخيه وأنصاره الذين بتقوى بهم.

وكان عمران أكثر أنصارا في تونس لرسوخ قدمه في الإمارة. وكان الياس يخشاه أكثر فعزم على البدء منه.

غدر الياس بعمران أخيه

قال النويري والسلاوي: وبعد هذا التقسيم اصطلحوا على أن يعود عمران إلى تونس فانصرف حبيب إلى عمله وما أعطي له من الجنوب، وارتحل الياس مع أخيه عمران إلى تونس، ولما وصلا إليها غدر الياس بعمران فقتله! وقتل جماعة من الأشراف الذين ناصروه، وقبض على رءوس أهل بيته الذين مالوا إلى عمران، عمر ابن نافع الفهري، والأسود بن موسى الفهري، وعلى بن قطن فشدهم وثاقا وأرسلهم في سفينة إلى يوسف بن عبد الرحمن في الأندلس. وكان يوسف مغاضبا لأبيه، ولعله كان يضطغن على عمه عمران وصنائعه وآل بيته. وعاد الياس إلى القيروان. وكتب بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع قاضي افريقية عبد الرحمن بن زياد بن انعم، وصفا له أمر «افريقية» وثقل عليه مكان حبيب «وبلغته عنه أخبار يكرهها» فاحتال عليه حتى اركبه البحر إلى الأندلس، واركب منعه أخاه عبد الوارث «لتخوفه منه، ولحسد عبد الوارث له، فردهم قاصف من الريح إلى

طبرقة. (في الشمال الغربي لافريقية) وكتبوا بخبرهم إلى الياس فلج في طردهم.

وتسامعت موالي عبد الرحمن وشيعته بابن مولاهم، فتسارعوا إليه وانزلوه من السفين، والتفوا عليه، وزحفوا به إلى تونس»فاسروا عامل الياس سليمان بن زياد الرعيني فشدوه وثاقا» فملكوا تونس. فخرج الياس لقتالهم، فخالفوه إلى القيروان، وملكوها عليه، ففتقوا السجون «فخرج منها صنائع عبد الرحمن وأنصاره فانضموا إليهم» فرجع الياس لقتالهم، وقد فر أكثر من معه إلى حبيب. ولما تواقفا للقتال حول القيروان برز حبيب فنادى بأعم لم نقتل أولياءنا وصنائعنا وهم جنتنا! فهلم للبراز، فأينا غلب ملك! فصاح الجيشان بتصويب رأيه، فبرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما، فضرب الياس حبيبا فاعمل السيف في ثيابه ودرعه ووصل إلى جسمه، فعطف حبيب عليه فضربه بالسيف ضربة سقط بها عن فرسه إلى الأرض، فألقى حبيب نفسه عليه فحز رأسه، وأمر برفعه على رمح، فدخل القيروان فملكها آخر سنة ثمان وثلاثين ومائة.

إن ما اسقط الياسا في الصراع فاحتز رأسه إنما هي دماء أخيه عبد الرحمن التي سفكها، انزلق فيها فطرحه الله للقصاص! وهكذا كل من يقطع رحمه، ويعق قرابته تكون نهايته نهاية بعير المجزرة، وتكون خاتمته سوداء، وعاقبته وخيمة!

وكانت ولاية الياس نحو سنة ونصف، ثم يشتد الصراع بين حبيب وعبد الوارث الذي شارك في دماء عبد الرحمن، فتكر عليهم ورفجومة فتقضي على ملكهم، وتنتقم منهم شر انتقام. فماذا فعل حبيب بعد استيلائه على القيروان؟

استيلاء حبيب على افريقية وحربه مع ورفجومة 138 هـ

لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عمه الياس وملك القيروان طلب عمه عبد الوارث لمشاركته في دم أبيه ففر عبد الوارث إلى «ورفجومة» إحدى بطون نفزاوة.

حقيقة ورفجومة

وكانت نفزاوة من القبائل البربرية الكبرى، وكان جمهور كبير منها في جنوب افريقية، وكان منت بطون هذه القبيلة ورفجومة، وكانت في جنوب افريقية، وكانت كثيرة العدد، شديدة البطش، تتمتع في هذه العهود باستقلال كبير في بلادها. وكانت صفرية، قد ضاعف عداوتها للملوكيين في القيروان ما رأت منهم من فتك وإراقة للدماء في حروب عكاشة الصفري مع حنظلة بن صفوان، وما كان من عبد الرحمن بن حبيب من قتل لحزبهم وأبناء عمومتهم الصفرية في شمال افريقية وفي وسطها.

وكانت ورفجومة لمذهبها الصفري الذي يخلق عداوتها للملوكيين، ولحقدها على عبد الرحمن وشيعته لوقائعه فيهم نارا تضطرم على الملوكيين، فبودها أن تظفر بهم فتشفي أحقاد منهم. وكانت إلى مذهبها الصفري المتطرف قد ظلت على البداوة والجهل، فصارت رقيقة الدين، لا تعرف من الإسلام إلا مظاهره، أما سلوكها فتسيطر عليه غرائزها ووجدانها.

وكانت ورفجومة ترى تعصب الملوكيين لأنفسهم وعرقهم، واحتقارهم للبربر واضطهادهم، فأورثها ذلك تعصبا، واحدث فيها رد فعل شديد، فصارت متحيزة ترى الملوكيين في القيروان هم أعداؤها الألداء، فعرف عبد الوارث هذه النزعة فيهم فهرب إليهم فآووه ونصروه.

حرب حبيب مع ورفجومة وهزيمته

وكان رئيس ورفجومة هو عاصم بن جميل، وكان كاهنا قد التقت حوله ورفجومة فهو صاحب الكلمة المسموعة فيها، فأجار عبد الوارث فصار في حماه، فنهض إليهم حبيب فأوقعوا به وهزموه، فالتجأ إلى «قابس» واعتصم بأسوارها واستفحل أمر عاصم ي افريقية، فصار فيها هو القوة الحربية الكبرى.

احتلال ورفجومة للقيروان / التجاء حبيب إلى أوراس ونصرتهم له / هجوم حبيب على القيروان ومقتله

وكان أهل القيروان يعرفون عداوته للملوكيين، وانه لا بد أن يسير لاحتلال القيروان،

فأرادوا أن يتخذوا عنده يدا، وان يتقربوا إليه ليخففوا من عداوته، فأرسلوا إليه يدعونه للقدوم عليهم، والقيام بأمرهم، بشرط الدعاء المنصور، فأبى عاصم قبول هذا الشرط، فسار إليهم فقاتلهم فهزمهم، ودخل القيروان عنوة، وكانت تسيره عداوته للملوكيين، وتسيطر عليه أحقاده، وجفاء البداوة، ومذهبه الصفري الذي يرى مرتكبي الكبيرة مشركين تحل دماؤهم وأموالهم وذراريهم وسبي نسائهم، فستباح القيروان وهتك الحرمات فيها، وارتكب في الملوكيين فظائع كثيرة. ثم استحلف عاصم بن جميل على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي كبير قواده فسار لقتال حبيب والقضاء عليه فحاربه في قابس فانتصر عليه، فهرب حبيب إلى أخواله أهل جبال أوراس فالتجأ إليهم فحموه ونصروه. فزحف إليهم عاصم فهزموه، وقتلوه، واستلحموا جماعة كبيرة من أنصاره. ثم زحف حبيب في قواته الخاصة على القيروان فبرز إليه عبد الملك ابن أبي الجعد فهزمه وقتله في المحرم سنة أربعين ومائة ولم يشارك أهل أوراس في هذه الحرب لأنهم إنما حاربوا ورفجومة لأنها جاءت تبغي بجارهم حبيب شرا، ولما فارقها لم تسر معه لان أهل أوراس ليسوا من أنصار الملوكية.

وكانت ولاية حبيب نحو ثلاث سنين. وانقرض بمقتله ملك آل عقبة من المغرب وانقضت أيام الملوكية فيه، واستقلت افريقية تحت رؤسائها، فكل ناحية كانت فيها شخصية بارزة تديرها، إلى أن جاء أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح إمام الإباضية في طرابلس والمغرب الأوسط، فضم افريقية إلى دولته،وطهرها من عيث الصفرية وفظائعهم، وبسط عليها جناح العدل والإحسان، وسار فيها عامله عبد الرحمن ابن رستم كما يأمر الدين، وكما تقتضي سيرة الخلفاء الراشدين ! فماذا فعل عبد الملك ابن أبي الجعد لما استولى على القيروان؟ وما هي الفظائع التي ارتكبها؟ وكيف كانت نهايته؟

فظائع عبد الملك بن أبي الجعد الصفري في القيروان!

لما قتل عاصم بن جميل في حروبه مع أهل أوراس خلفه عبد الملك بن أبي الجعد في إمارة ورفجومة. وكان مع قومه ورفجومة صفرية غلاة، فأباح القيروان لقومه فارتكبوا فيهاكل ما سولت لهم أحقادهم، ومذهبهم المتطرف، وبداوتهم، ورقة دينهم! فسفكوا دماء الملوكيين، وهتكوا أعراضهم، وأهانوا المساجد وربطوا فيها الدواب ففر كثير منهم إلى طرابلس حيث نشأت دولة أبي الخطاب الجمهورية فالتجئوا إليها، وشكوا إليه يرتكبه الصفرية من الفظائع، وهتك الحرمات، وكتبت إليه امرأة من القيروان: أن لها ابنة أخفتها في مطمورة خوفا عليها من ورفجومة. ورأى الإباضية الذين سافروا إلى القيروان فظائع الصفرية في المسلمين فأسرعوا فاخبروا أمامهم أبا الخطاب، فجهز جيوشه،

وسار فهزم الصفرية، وقتل عبد الملك ابن أبي الجعد، وطهر القيروان من عيثهم، وارجهم إلى الجادة بحد السيوف، وطبق فيهم حكم الله.

أكاذيب الملوكيين على الإباضية:

إن المؤرخين الملوكين كابن خلدون ومن نقل عنه من المحدثين كالسلاوي وغيره قد قالوا إن ورفجومة كانت إباضية لما احتلت القيروان وارتكبت فيها الفظائع المنكرة: وقد ساء الملوكيين أن يجدوا صفحات الدول الإباضية في المشرق والمغرب بيضاء ناصعة، لا تدنسها الدماء الحرام، ومخالفة الدين في المسلمين، هذه الأشياء التي طفحت بها الدول الملوكية، فنسبوا ورفجومة إليهم.

إن ورفجومة كانت من الصفرية، وهي من الذين انضموا إلى عكاشة وعبد الواحد الهواري الصفريين فحاربت معهم حنظلة. إن أعمالها وفظائعها تدل على مذهبها وصبغتها.

نهى أبي الخطاب جيشه أن يغنم أموال ورفجومة وعقبة والإباضية

إن الإباضية أكثر المسلمين تنزها عن دماء المسلمين وأموالهم. انظر إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن سمح لما حارب ورفجومة بعد ارتكاب جرائمها، كيف هي جيشه عن الإجهاز على جرحاهم وعن غنم أموالهم، وتقيد بأحكام الله في محاربة المسلمين.

إن ورفجومة كانوا صفرية غلاة. ولما ولى أبو الخطاب عبد الأعلى بن سمح عاملة عبد الرحمن بن رستم على افريقية، اعتنى عبد الرحمن بورفجومة وعلمها الدين وهذبها، فحسن إسلامها، وانضمت إلى الإباضية الجمهوريين مع بقية بطون نفزاوة الأخرى في جنوب افريقية. وقد رأى المؤرخون الملوكيون ورفجومة في آخر القرن الثاني الهجري وفي القرن الثالث إباضية فحكموا عليها بأنها كانت إباضية لما ارتكبت فظائعها في القيروان ليشوهوا سمعة الإباضية.

إن الإباضية إنما هم الذين غيروا منكر (ورفجومة) وأنقذوا افريقية من ظلم الصفرية وفظائعهم. فليتنبه المحدثون الذين يثقون بكل ما في كتب التاريخ القديمة إلى هذه الأكاذيب ! فان الملوكيين لم يدخروا وسعا في تهديم الدول الإباضية الجمهورية في المغرب، فنسبوا إليهم كل ما ينفر النفوس عنهم، ويشين صفحاتهم البيضاء النقية!

فكيف نشأت الدولة الإباضية في طرابلس الغرب، فكانت خيرا للمغرب وأنقذته من ظلم ورفجومة الصفرية وفظائعها؟

جمهورية أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح 140هـ

كان الإباضية في المغرب الأدنى والمغرب الأوسط قد عزموا على إنشاء دولتهم الجمهورية الكبرى التي تقوم على الإمامة العادلة، ويسير أئمتها فيهم سيرة الخلفاء الراشدين!

وكانوا بعد أن قضى عبد الرحمن بن حبيب على دولتهم التي يرأسها الحارث وعبد الجبار في سنة 132 هـ قد اجتمعوا، واتفقوا على أن التربية والتعليم هي أساس الدول الكبرى، وانه لابد لكل ناحية من نواحيهم في المغرب الأدنى وفي المغرب الأوسط من رئيس عالم مثقف قد اعد إعدادا خاصا لقيادة ناحيته، وتثقيفها لتجمع كلمتهم على الهدف الواحد، ويكونوا جماعة متراصة الصفوف، فيحققوا ما يصبون إليه من إنشاء دولتهم الجمهورية، ويكون هؤلاء الرؤساء أركان الدولة، وأعوان الإمام وجهازه في إدارة النواحي، فانتخبوا من نواحيهم من نواحيهم في المغرب الأدنى وفي المغرب الأوسط جماعة من فتيانهم الأذكياء الصالحين، فأرسلوهم بعثة علمية إلى البصرة، فرباهم الإباضية بعد جابر بن زيد رضي الله عنه، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وعلمهم، ونفخ فيهم روحه الجمهورية، ودينه وصلاحه، وهيأهم لإنشاء الدولة التي يرجوها في المغرب، فرجعوا في آخر سنة تسع وثلاثين ومائة أو في أول أربعين، فانشأوا دولتهم الجمهورية في طرابلس، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح إماما، وهو احد البعثة العلمية التي كونها أبو عبيدة في البصرة، وقد ازدهرت دولته، ونعمت في ظله بالعدل والمساواة، وبكل ما قرر الدين للمسلمين من حقوق.

وكانت نشأة هذه الدولة في سنة أربعين ومائة من الهجرة، فسار أبو الخطاب في سنة إحدى وأربعين ومائة فطهر افريقية من ظلم الملوكية، ومن فظائع الصفرية، وضمها إلى دولته الجمهورية، ودامت هذه الدولة حتى تحركت جيوش أبي جعفر المنصور الجرارة، وكاد لها قائد هذه الجيوش الملوكية محمد بن الأشعث الخزاعي فقضي عليها، فكيف كانت هذه الدولة الجمهورية، وما سيرة أبي الخطاب فيها؟ هذا ما ستراه مفصلا في الجزء الثالث الخاص بالدول المغربية المستقلة في القرن الثاني والثالث الهجريين أن شاء الله.

قال ابن الأثير: «لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عاد عبد الملك بن أبي الجعد إلى القيروان وفعل ما كان يفعله عاصم من الفساد والظلم وقلة الدين وغير ذلك، ففارق القيروان أهلها، فاتفق أن رجلا من الإباضية دخل القيروان لحاجة له، فرأى ناسا من الورفجوميين قد اخذوا امرأة قهرا، والناس ينظرون، فادخلوها الجامع! فترك الأباضي حاجته فقصد أبا

الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فاعلمه ذلك، فخرج أبو الخطاب وهو يقول «بيتك اللهم بيتك! فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان» فسار بجيشه فطهر افريقية من عيث الصفرية، وضمها إلى دولته الجمهورية. كان ذلك في صفر من سنة إحدى وأربعين بعد حوالي سنتين قضتها القيروان وافريقية في قبضة ورفجومة الصفرية.

وكانت الدولة الأموية قد انقرضت في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فما هي آثارها الحسنة في المغرب، وما هي أياديها الكبرى عنده؟

الآثار الحسنة للدولة الأموية في المغرب

إن الدولة الأموية وإن انتقدنا عليها أمورا، منها قضاؤها على الإمامة الإسلامية، والجمهورية الديمقراطية التي جاء بها الدين، وسنها للنظام الملوكي المستبد الذب افسد الدولة الإسلامية، وشقي به المسلمون، وكان من أسباب ضعفها هي وتضعضعها، وثورة كثير من النواحي عليها، وانفصالها عنها، كما كان من أسباب انقراض الدولة الأموية السريع، وموتها العاجل، وما عمرها اقل من قرن، ومدتها اقل من الدول الإسلامية الكبرى التي ستعقبها في المشرق والمغرب.

وما ننتقده على الدولة الأموية أنانيتها وتعصبها للجنس، وظلمها وتجبرها في آخر عمرها، وعدم التزامها في سياسة المغرب ما يوجبه الدين، ويقتضيه العقل، وتستلزمه الحنكة السياسية. ذلك الظلم والجبروت، وذلك التعصب الذي جعل المغرب يضيق ذرعا بها، ويحنق على النظام الملوكي، ويحن إلى عدل الجمهورية الإسلامية، وديمقراطية الإمامة العادلة، فيثور على الأمويين، وينشئ دوله الجمهورية التي أسعدته ودخل بها أعياده وأعراسه، والتزمت سيرة الخلفاء الراشدين.

إن الأمويين وإن كانت لهم هذه السيئات، وشانوا صفحتهم في المغرب بكثير من الغلطات، فان لدولتهم في المغرب حسناتها الكبرى، ولها الفضل العظيم الذي لا ينكر على المغرب ! وفيها حلقات ذهبية من ملوكها الأولين الذين أحسنوا إلى المغرب، وبذلوا الجهد الجهيد في فتحه، ونشر الإسلام فيه، وتثقيفه، والأخذ بيده إلى طريق الدين، وتثبيت قدمه في طريق السعادتين.

الحلقات الحسنة للمغرب من الملوك الأمويين

إن الحلقات الحسنة للمغرب من الملوك الأمويين هم: معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، والإمام سيدنا عمر بن عبد العزيز! هؤلاء هم

الملوك الذين خلقوا شباب الدولة الأموية وأورثوها ازدهارها، بمتانة أخلاقهم، وعبقريتهم، وحزمهم، وحسن تصرفهم في أمور المغرب، واختيار ولاته!

إن معاوية هو الذي اختار لها عقبة الذي بنى القيروان، وأبا المهاجر الوالي العبقري الذي فتح قلوب البربر في المغرب للإسلام، وحبب العرب إلى البربر، وابتدأ ذلك الامتزاج الذي تم بعد ذلك بمدة قصيرة، فصار المغرب امة واحدة، قد امتزجت فيها الدماء العربية بالدماء البربرية، وأصبح مغربنا فذا في العالم الإسلامي، قد توجه الله بخصائص أجداده العظيمة كلها، وضاعفت مزايا كل منهما مزايا الآخرة، وأورثتها قوة ونضارة وحسنا كالذي يورثه بياض الصبح لحمرة الورد إذا امتزجا في وجه الحسناء فصار لونها خمرا تسكر العيون، تنتشي بها كل النفوس!

وعبد الملك بن مروان هو الذي اختار لمغربنا الحبيب حسان بن النعمان. ذلك الرجل العظيم العبقري الذي أتم فتح المغرب، ونظم أموره، ونشر نور الله فيه، وغرسه في طريق الإسلام فرسخت فيه أقدامه، وتم على يده امتزاج البربر بالعرب فصار المغرب مزيجا من الدماء البربرية والعربية، وأمة تمتاز بخصائص العرقين، وتسمو وتصول بمواهب الطرفين!

وسليمان بن عبد الملك، الرجل العاقل الحصيف المحنك! هو الذي اختار لولاية المغرب محمد بن يزيد فأسعده بعدله، وزاد للمغرب امتزاجا بالمشرق، وإقبالا على الدولة الأموية بحسن سيرته، وكان لسليمان والدولة الأموية أحسن عنوان، ورآه المغرب لسيرته البيضاء، في وجه الأموية إشراق الصفاء، الذي يدل على المحبة والوفاء، فاطمأن إليها، وازداد إقبالا عليها!

والإمام عمر بن عبد العزيز هو الذي ثبت الإسلام في المغرب، ونشر العلم فيه، واعتنى به في كل نواحيه، واختار له إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي كان خير وال ولي علي المغرب بعد حسان العظيم، وأرسل عشرة من علماء التابعين مع إسماعيل فكانوا أساتذة البربر في الشريعة الإسلامية، ومن العوامل الكبرى التي عجلت بتفقههم في الدين، وأورثهم نضوجهم، ووصلتهم بصلات الله المتينة بالدولة الإسلامية، فصاروا عضوا قويا فيها، وركنا ركينا في بنيانها.

هؤلاء هم الولاة الذين تم إسلام المغرب في عهدهم، وتمت ثقافته الدينية على أيديهم، وتكون فيه عشرات من العلماء النبغاء صاروا منبعا للعلم في أقوامهم، ومنارا للهداية في نواحيهم، وسنذكر جملة ممن نبغ في هذا القرن الثاني في الجزء الثالث من هذا

الكتاب. إن للأمويين الفضل الكبير على المغرب، فلولاهم لتأخر فتح المغرب وإسلامه، ولظل يرسف في الجهالة والوثنية، ولبقي مسرحا لدسائس الروم التي تفكك أوصاله، وتسممه بأمراض الحضرة، وتجرعه كل ما يؤذي به، انه بفضل أولئك الملوك الأمويين حظي المغرب بهؤلاء الولاة المخلصين، وتم إسلامه ونعمة الله عليه.

إن فضل الدولة الأموية على المغرب في عهود أولئك الملوك المحسنين اظهر من أن ينكر. إن المغرب مدين لهم بما ينعم به الآن من اكبر النعم واجلها، وأعظم شيء واتيه، وأقوى قوة ظفر بها، وأغلى كنز حظي به وهي نعمة الدين واللغة العربية!

إن الدولة الأموية هي سبب نشأة الدول المغربية المستقلة بما أورثته من نضوج فانشأ دوله الكبرى، وهي سبب نشأتها الباكرة. فلولا الدولة الأموية التي عجلت بفتح المغرب، وسارت به الأشواط الواسعة في طريق النضوج والتقدم، وأبرزت استعداده الموروث ومواهبه الدفينة، ووجهت طموحه وما يغرم به منذ الأزمنة البعيدة من الاستقلال والحرية، فصار استقلاله في دائرة الدول الواسعة لا في نطاق القرية والقبيلة والجهة الضيقة كما كان.

عناية الدولة الأموية بالفتوح

والدولة الأموية هي الدولة الإسلامية التي اعتنت بالفتوح بعد الخلفاء الراشدين فمدت رقعة العالم الإسلامي، وكثرت سواد المسلمين، وهي التي اعتنت بالفتح في المغرب أيضا فوسعت رقعته بفتح الأندلس، وهي التي غزت صقلية وسردانية ووالت غزوهما لفتحهما وضمهما إلى المغرب ليكون أهلهما من المسلمين. وإذا كانت الدولة الأغلبية قد أتمت فتح صقلية فأنشأت فيها الإمارة الإسلامية، ونشرت فيها الدين، وضمتها إلى المغرب، فان الأمويين بغزواتهم الكبرى المتوالية لها هم الذين مهدوا لذلك، وأزالوا العقبات، ونشروا الأشعة الأولى من نور الإسلام التي باشرت قلوب أهل صقلية ففتحتها كم يفتح الرهام الأرض فتتشقق عن النبات الأخضر الجميل ! فلولا جهادهم وتمهيدهم لتأخر فتح صقلية عن الموعد الذي فتحت فيه، أو لاستعصى على الأغالبة فلا يستطيعونه. إن الدولة العباسية لم تقد بشيء كبير في باب الجهاد والفتوح. أنهم لا يدانون درجة الأمويين في ذلك.

لقد نشأت الدولة الأموية إبان شباب المسلمين، وفي وقت نمو الدولة الإسلامية وامتدادها، فسايرت ذلك النمو فاتسعت رقعة العالم الإسلامي في عهدها. وأنها لمشكورة على عنايتها بالجهاد، وإن لها لآثارا حسنة في المغرب يجب أن لا ننساها!

إن ما ذكرنا من ظلم وجبروت الوليد، وغطرسة وحيف آخر ملوكها لا يجوز أن ينسينا هذه الحسنات، ويغطي على هذه الحلقات الجميلة، وتلك العهود الزاهرة التي أورق فيها المغرب فأثمر ثماره اليانعة، ونشأ دوله الإسلامية الكبرى.

انقراض الدولة الأموية ومدتها في المغرب

كانت نشأة الدولة الأموية في آخر سنة أربعين لما استشهد الإمام علي رضي الله عنه فتم لمعاوية ملك العراق، وانقضاؤها في أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فمدتها تسعون سنة وثمانية أشهر.

وكانت مدة هذه الدولة في المغرب تختلف بحسب الزمن الذي ثبتت فيه قدمها في نواحيه. إن مدتها في برقة أطول، وقدمها في ارسخ، ونستطيع أن نعتبر برقة تابعة لمصر في الفترة الواقعة بين استشهاد عثمان وتمام الأمر لمعاوية في سنة أربعين فيكون عهد الدولة الأموية في برقة قد ابتدأ باستيلاء معاوية على مصر في سنة ثمان وثلاثين، فظلت تابعة لها إلى انقضائها في سنة اثنتين ومائة، فمدتها في برقة حوالي ثلاث وتسعين سنة.

أما طرابلس فتم في سنة خمس وأربعين، وظلت تابعة لها إلى انقراضها وقد زال نفوذها منها ثلاث سنين لما نشأت دولة الحارث وعبد الجبار فيها، فمدتها فيها حوالي أربع وثمانين سنة .

وقد تم فتح افريقية بإنشاء القيروان وولاية عقبة في سنة خمسين، فظلت تابعة للدولة الأموية إلى انقراضها. وقد انفصلت عنها في هذا الزمن طويلا حوالي ست سنين لما استشهد عقبة واستولى «كسيلة» عليها، فمدتها في افريقية حوالي ست وسبعين سنة.

أما المغرب الأوسط والأقصى فقد تم فتحها في سنة ثمان وخمسين أو تسع وخمسين في عهد أبي المهاجر دينار، واستقلا عنها في سنة ثلاث وعشرين ومائة في عهد كلثوم ابن عياض القشيري، فمدتها فيهما حوالب أربع وستين سنة. وكان انسلاخ المغرب الأقصى عن الأمويين في سنة ثلاث وعشرين ومائة لتم. وقد ظل لها في اغلب المغرب الأوسط ظل من النفوذ إلى سنة ثلاثين اعدم إنشاء الإباضية لدولتهم في المغرب الأوسط كما انشأ الصفرية دولتهم في تلمسان والمغرب الأقصى.

هي مدة الدولة الأموية بالتفصيل في أنحاء المغرب الخمس. وإذا أجملنا قلنا إن مدتها

في المغرب من سنة خمسين إلى سنة اثنين وثلاثين: اثنان وثمانون سنة. والتفصيل أحسن وأدق، وبه يجب الأخذ في مدارسنا لكي لا يتعارض مع ما عرفوه من ثورات المغرب واستقلال بعض أجزائه من الأمويين.

ثم ينشئ المغرب الأدنى إمامته العادلة في سنة أربعين ومائة، فينضم إليه المغرب الأوسط ويبايعه، وتبايع طرابلس الإمام أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح، ثم يبسط جناح دولته الجمهورية على افريقية، وتنقرض الملوكية في المغرب، فيتنفس الصعداء، ويحظى بالهناء والسعادة والعزة والعدل في ظل أئمته، وتشمخ طرابلس وافريقية والمغرب الأوسط على الملوكية، فيرتاع أبو جعفر المنصور، ويخشى من عدوى الجمهورية على مصر، ومن تسربها كنور الشمس فتغشى الشام والعراق، فتحل به الطامة الكبرى، فشمر عن ساعده للقضاء على الجمهورية الإسلامية في المغرب الأدنى، والاستيلاء على افريقية وطرابلس لتكون حاجزا بقي مصر والمشرق من عدوى الإمامة العادلة، فتأمن دولته الملوكية في المشرق من الانهدام، ويستمر هو وأبناؤه وأسرته ملوكا يحكمون بأمرهم، ويرضخون المشرق الإسلامي لمشيئتهم؛ فأرسل في سنة أربع وأربعين ومائة محمد بن الأشعث الخزاعي ومعه كبار قواده، وحشر له جيوشا جرارة من خيرة جنده، فسار بها إلى المغرب لينازل جمهورية أبي الخطاب ويقضي عليها، فماذا وقع بين الملوكيين العباسيين والجمهوريين؟ هذا ما ستراه مفصلا في الجزء الثالث من هذا الكتاب يا صديقي. ستشاهد المغرب الأبي الباسل ينازع فيقطع القيود، ويتخلص من الظلم والاستبداد، فينشئ دوله الإسلامية الجمهورية الكبرى، فتخلق للمغرب ربيعه، وتطلع فيه طلوع الزهر في الشجر بالربيع، مؤذنا بزوال وحشة الشتاء، وإقبال عهود الخصب والنماء، والزمان الذي ترقص فيه الأشجار منتشية بحللها الخضراء، وبالشباب الفوار في عروقها، وبأغاريد الطير الصداح في أفنانها.

ستري المغرب في أول الجزء الثالث في لامة الهجاء، وهو يثير بثوراته العامة على الملوكيين العباسيين المستبدين غبارا قائما يسد الأفق. إنه السحاب الهتان الذي لا ينبت الاستقلال للشعوب غيره، ولا يلد الحرية والعزة للأمم سواه ! وهو الليل المعتكر الذي لابد أن تخوضه الأمم لتظفر بفجرها، وهو وحده يضع صباحها! ثم يهدأ جو المغرب ويعمه الصفاء، وتشيع الطلاقة والبشر في أجوائه، فتبدو الغزالة جذلانة مستبشرة وهي تبسط من أنوارها المتلألئة بسط النور فيها الدول المغربية العادلة!

إنها لا لتزامها الدين في السياسة، ولعدلها وطهرها وصفائها لا يليق لميلادها إلا بساط من النور!

إنها تبسط من أنوارها المتلألئة حلة العروس البيضاء التي ستجرر أذيالها الدول المغربية العادلة غداة يطلع السعد على المغرب فيزفها إليه!

سترى يا عزيزي في محيا تلك الدول العادلة وجه المغرب الجميل، وتشاهد في عهودها صفات المغرب البيضاء، وترى المغرب في زمانها ركن الإسلام الركين، وسند العربية المتين، وملجأ المسلمين الأمين، ويلجئون إليه من الظلم والاستبداد، فينعمون فيه بكل ما يشتهون من حرية وهناء، ومن سعادة وإخاء، ومن طهر وصفاء، وكل أسباب الرقي والتقدم والرخاء ! فإذا كنت يا عزيزي القارئ كما اعتقد راضيا بهذا الكتاب، فستشتاق إلي كما اشتاق إليك، فتسرع إلى الجزء الثالث فنلتقي فيه أجمل لقاء، فأزف إليك تاريخ المغرب الكبير في أسلوب أدبي يحببه إليك، وبتحليل فلسفي يرضيك، وببحث علمي، ونزاهة وأمانة تصفى تاريخنا من أكاذيب الملوكية القديمة، والاستعمار الحديث، فتجد التاريخ منبعا للمواد والصفاء، وسببا للمحبة والإخاء، وعاملا للتربية الراقية، وكل ما نرجوه من الفوائد التربوية العظيمة، والآثار الحسنة بالتاريخ في النفوس!

سترى في صفحات الجزء الثالث قلوب أجدادنا في المشرق والمغرب تتعانق بالوداد وامتنا الإسلامية في دولها العادلة بالصفاء والاحترام المتبادل جسما واحدا، وبنيانا مرصوصا كما أمر الله! ! والحمد لله على توفيقه وتأييده وعونه في البدء والانتهاء، والصلاة والسلام على صفوة الأنبياء! !

أهم مراجع الكتاب

الأزهار الرياضية - تأليف سليمان بن عبد الله الباروني.
القاهرة المطبعة البارونية 1324 هـ

الاستقصاء لأخبار دول المغرب 1 تأليف احمد بن خالد الناصري السلاوي
الأقصى الدار البيضاء دار الكتاب 1373 هـ- 1954م

البيان المغرب في أخبار المغرب 1-2 تأليف ابن عذارى المراكشي. بيروت
مطبعة المناهل 1369هـ1950م

كتاب السير - تأليف احمد بن سعيد بن عبد الواحد
الشماخي مصر المطبعة البارونية - طبع حوالي 1320هـ

طبقات الدرجيني - تأليف أبي العباس احمد بن سعيد
الدرجيني. مخطوط في خزائن وادي ميزاب بجنوب الجزائر وفي جبل نفوسة في
طرابلس

كتاب السير 1-2 تأليف أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر
مخطوط يوجد في وادي ميزاب بالجزائر وفي جبل نفوسة بطرابلس

تاريخ الأئمة الرستميين - تأليف ابن الصغير المالكي. مخطوط
في وادي ميزاب بالجزائر.
فتوح المغرب - سفر كبير مخطوط لم يذكر مؤلفه في مكتبة الشيخ اطفيش في وادي
ميزاب بالجزائر

فتح العرب للمغرب تأليف حسين مؤنس. القاهرة مطبعة
مصر 1366هـ- 1947م

فتح المسلمين لشمال افريقية - بقلم عبد العزيز الثعالبي. ثلاث - محاضرات نشرت في جريدة الضياء - المصرية في 15 فبراير 23 مارس - 27 مارس 1931م1351-هـ

فتوح مصر والمغرب - تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن الحكم. ليدن مطبعة بريل 1920م - 1340 هـ.

نزهة الأنظار 1-2 تأليف محمود بن سعيد مقديش - الصفاقسي.تونس 1321هـ-1910م.

نهاية الأرب 22 تأليف شهاب الدين النويري. نسخة فتوغرافية في دار الكتب المصرية
تاريخ الدول الإسلامية - جمع البارون دسلان. الجزائر المطبعة الحكومية 1847م

العبر في ذكر المبتدأ والخبر 4-6-7 تأليف عبد الرحمن بن خلدون. القاهرة - مطبعة بولاق 1284 هـ
الكامل 3-4 تأليف أبي الحسن علي بن الأثير. - القاهرة المطبعة المنيرية 1357هـ.

محاضرات في تاريخ المغرب الكبير 1-2 بقلم علي دبوزألقاها في معهد الحياة الثانوي بالجزائر 1949-1950م- 1369هـ. مخطوط
تاريخ دول الإسلام 1-2-3-4 تأليف رزف الله منقريوس. القاهرة - طبعة الهلال 1326هـ-1908م.

تاريخ الجزائر 2 تأليف مبارك بن محمد الهلال الميلي. - الجزائر المطبعة الإسلامية بقسنطينة - 1350هـ.

موجز التاريخ العام للجزائر - تأليف عثمان الكعاك. تونس مطبعة - العرب 1344هـ.

تاريخ الجزائر - تأليف احمد توفيق المدني. الجزائر - المطبعة العربية.

تاريخ الجزائر العام 1 تأليف عبد الرحمن الجيلالي. المطبعة العربية 1954م1373-هـ.

تاريخ الفتح العربي في ليبيا - تأليف الطاهر احمد الزاوي القاهرة دار المعارف.

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب - تأليف احمد بن حسين الأوسي - الطرابلسي الآستانة مطبعة جمال أفندي - 1317 هـ.

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب - تأليف احمد النائب الأنصاري. الآستانة مطبعة جمال أفندي 1317هـ.

تحفة الزائر في مآثر عبد القادر 1 تأليف محمد باشا حفيد الأمير عبد القادر الجزائري. إسكندرية المطبعة التجارية 1903م.

المؤنس في أخبار افريقية وتونس - تأليف محمد بن أبي القاسم الرعيني - القيرواني. تونس مطبعة الدولة - لتونسية 1286 هـ.

الخلاصة النقية في أمراء افريقية - تأليف محمد الباجي المسعودي. تونس - 1323هـ.

الحلل السندسية في الأخبار التونسية - تأليف محمد بن محمد الأندلسي - المشهور بالوزير. تونس المطبعة التونسية 1287هـ.

خلاصة تاريخ تونس - تأليف حسن حسني عبد الوهاب. تونس - دار الكتب الشرقية 1373 هـ.

الفتوحات الإسلامية - تأليف احمد بن زيني دحلان. القاهرة - المطبعة الإسلامية المصرية 1323هـ

المغازى - تأليف أبي عبد الله الواقدي. كلكوتا - 1071هـ 1855م.

تاريخ الدول الإسلامية 2 تأليف احمد بن زيني دحلان. القاهرة - مطبعة محمد أبي زيد 1306هـ

فتوح البلدان 1 تأليف أبي بكر البلاذري ليدن 1283هـ

تاريخ الأمم والملوك - تأليف أبي جعفر الطبري القاهرة مطبعة الاستقامة 1357هـ-1939م.

مقدمة كتاب الوضع للشيخ أبي زكرياء - تأليف أبي إسحاق إبراهيم اطفيس. القاهرة مطبعة الفجالة الجديدة - 1381هـ.

دائرة المعارف للبستاني - تأليف بطرس البستاني. بيروت مطبعة المعارف 1878م.

دائرة المعارف للقرن الرابع عشر - تأليف محمد فريد وجدي. القاهرة - مطبعة دائرة المعارف 1921م

دائرة المعارف الإسلامية - تأليف احمد الشنتناوي وجماعة. - القاهرة 1937م.

كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - تأليف أبي عبيد الله البكري. باريس 1330هـ 1911م.

وصف افريقية والأندلس - تأليف احمد بن يحيى بن فضل الله العمري. تونس مطبعة النهضة.

صفة المغرب - تأليف احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي.

معجم البلدان - تأليف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي. ليبسك 1873م

نبذة في تاريخ الخوارج - تأليف أبي إسحاق إبراهيم اطفيس. مخطوط لم يذكر مؤلفه.

تاريخ اليعقوبي 1-2 تأليف ابن واضح الإخباري. ليدن - مطبعة بريل 1883م

مروج الذهب ومعادن الجوهر 2-3 تأليف أبي الحسن علي بن الحسين - المسعودي. القاهرة مطبعة السعادة - 1377هـ 1958م.

البداية والنهاية - تأليف عماد الدين ابن كثير. القاهرة - مطبعة السعادة 1351هـ 1932م.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 1 تأليف جمال الدين أبي المحاسن الاتابكي. القاهرة مطبعة دار الكتب - 1351هـ 1932م.

أخبار البربر في القرون الوسطى - منتخب من كتاب مفاخر البربر لم يعلم - مؤلفه نشره لاقى بروقنصال. الرباط - مطبعة رباط الفتح 1352هـ 1934م.

وقعة صفين - تأليف محمود عباس ألعاملي. بيروت - 1921م

شرح نهج البلاغة 1-2 تأليف ابن أبي الحديد. القاهرة دار إحياء الكتب العربية 1378هـ 1959م.

شرح مشارق أنوار العقول - تأليف أبي حميد السالمي. القاهرة - 1314هـ

الرحلة التيجانية - تأليف أبي محمد عبد الله التيجاني التونسي. مخطوط

وفيات الأعيان 1-2-3-4 تأليف شمس الدين خلكان. القاهرة - طبع مكتبة النهضة 1367 هـ 1948م

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان 1 تأليف عبد الرحمن بن محمد الدباغ. تونس المطبعة العربية 1320هـ

أسد الغابة في معرفة الصحابة - تأليف عز الدين بن الأثير. القاهرة - المطبعة الوهبية 1280هـ.

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان - تأليف أبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي. القاهرة طبع مكتبة النهضة - 1370هـ 1951م

الأعلام - تأليف خير الدين الزركلي. القاهرة - طبعة كوستاتسوماس 1959م.

التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار - تأليف محمد بن خليل غليون الطرابلسي. القاهرة المطبعة السلفية - 1349هـ

تاريخ افتتاح الأندلس - تأليف أبي بكر محمد بن عمر. مخطوط

مجموع في تاريخ الأندلس وبلاد المغرب - لجماعة من المستشرقين. مدريد - 1915م.

تاريخ الإسلام السياسي - تأليف حسن إبراهيم حسن. القاهرة - مطبعة حجازي 1353هـ 1935م.

جغرافية الجزائر - تأليف احمد توفيق المدني. الجزائر - المطبعة العربية 1952م.

المغرب العربي جغرافيا - تأليف أنور الرفاعي ورفاقة. دمشق - مطبعة العلوم والآداب 1368هـ.

جغرافية المغرب - تأليف عبد العزيز بن عبد الله. الدار - البيضاء مطابع لاسكي إخوان - 1375هـ.

فهرس الجزء الثاني

الفتح الإسلامي

غزوة عمرو بن العاص

فتح برقةفتح طرابلسفتح صبرةعزم عمرو بن العاص على فتح افريقية والمغرب

غزوة عبد الله بن سعد لافريقية

شخصية عبد الله بن سعد وبطولته

علاقة المغرب بمصر

حرص عثمان على فتح المغرب

مسير عبد الله إلى افريقية

دولة جرجير وعلاقته بالبربر

نهضة المغرب للاستقلال

سير المعارك مع جرجير

المعركة الفاصلة والقضاء على دولة جرجير

حضارة المغرب وغناه

الانتصار الإسلامي الباهر وغنائم المسلمين

غزوة معاوية بن حديج السكوني

شخصية معاوية بن حديج وبطولته

شخصية البربر وبطولتهم

فتح طرابلس وجربة

خطة معاوية بن حديج في تطهير افريقية من الاستعمار الرومي

غزو جلولا

غزو بنزرت

غرض معاوية بن أبي سفيان من غزوة ابن حديج
غزوة عقبة بن نافع الأولى
شخصية عقبة وبطولته
حرص معاوية بن أبي سفيان على فتح المغرب وإسلامه
بناء القيروان لتكون منبعا للإسلام
عزل عقبة
غزوة أبي المهاجر دينار
شخصية أبي المهاجر وعبقريته
خطة أبي المهاجر الحكيمة في فتح المغرب
شخصية مسلمة بن مخلد وعظمته
اعتقال عقبة وسببه
قضاء أبي المهاجر على دولة الروم
تطهير افريقية من الاستعمار الرومي
فتح جزيرة شريك وميلة
استقرار أبي المهاجر في ميلة وخطته الحكيمة في الفتح
أقسام البربر وشعوبهم ومواطنهم
فضل البونقيين على المغرب
وحدة المغرب
إمارة كسيلة الأوربي
شخصية كسيلة وبطولته
دسائس الروم وإذكاء كسيلة على أبي المهاجر
حرب أبي المهاجر مع كسيلة
انتفاع أبي المهاجر بكسيلة في إسلام المغرب الأوسط والأقصى

انتشار الإسلام في المغرب الأوسط والأقصى
فضل أبي المهاجر على المغرب وخطته العبقرية
عزل أبي المهاجر
غزوة عقبة بن نافع الثانية
انتقام عقبة من أبي المهاجر وكسيلة
شخصية عقبة دينية وحربية
نصيحة أبي المهاجر لعقبة
زحف عقبة على مواطن البربر
غزوه للمغرب الأوسط والأقصى
آثار عسف عقبة لأبي المهاجر وكسيلة
حنق البربر على عقبة
ثورة الكاهنة وكسيلة على عقبة
شهامة أبي المهاجر وبطولته
استشهاد أبي المهاجر وعقبة وصحبهما
خروج الجيش الإسلامي من افريقية
إمارة كسيلة في افريقية
شهامة كسيلة وكرم نفوس البربر
الأسباب النفسية لفشل عقبة-
غزوة زهير بن قيس البلوى
شخصية زهير وبطولته
المعركة الفاصلة مع كسيلة
إرجاع افريقية إلى حضيرة المسلمين
إشفاق زهير من الإمارة ورجوعه إلى برقة

مدينة برقة
هجوم الروم على برقة واستشهاد زهير وصحبه
ولاية حسان بن النعمان على افريقية وفتوحه
حرص عبد الملك بن مروان على فتح المغرب وإسلامه
شخصية حسان وعبقريته العظمى
فتح قرطاجنة والقضاء على الروم في افريقية
الكاهنة ملكة جبال أوراس
شخصية الكاهنة وبطولتها
احترام البربر للمرأة وتمتعها في المجتمع البربري بكل الحقوق
شخصية المرأة المغربية القوية وميزاتها-
حرص الاستعمار الفرنسي واللاتيني على احتلال نفس المرأة المغربي
يقضي على دين المغرب وعروبته ويتم له احتلاله-
شخصية أوراس وبطولته وكرهه للاستعمار
حرب حسان مع الكاهنة
هزيمة حسان وانتصار الكاهنة
شهامة الكاهنة وكرم نفوس البربر
خروج حسان والجيش الإسلامي من افريقية
نزول حسان في غرب سرت وانتظاره المدد من المشرق
العوامل النفسية لهزيمة حسان-
عودة حسان إلى افريقية وإتمام فتح المغرب
أغلاط الكاهنة السياسة واستغلال حسان لها-
حضارة المغرب وعمرانه-
احتلال الروم لقرطاجنة وأطماعهم

فظائع الروم في مسلمي افريقية
المعركة الفاصلة مع الكاهنة والقضاء على دولتها
فتح جبال أوراس وانتفاع حسان ببطولة أوراس
عدل حسان وحب البربر له وإسلام المغرب على يده
دهاء حسان وأساليبه البارعة لإسلام المغرب
فتح شمال افريقية وتطهيرها من الروم
أسباب صعوبة فتح المغرب -
نشأة ولاية المغرب الإسلامية وتنظيم حسان لها
تدوين الدواوين، اختيار العمال، التربية والتعليم
تنظيم الخراج والزكاة ومحاربة الفقر والحاجة
القضاء
الشرطة وحفظ الأمن
إنعاش الزراعة وتقسيم الأرض
تنظيم المدن وتنشيط العمران
الاعتناء بمدينة تونس وجعلنا قاعدة بحرية
إنشاء مرفأ تونس، ودار صناعة الأسطول المغربي فيه
نشر اللغة العربية في المغرب وجعلها لغة رسمية
إنشاء حسان للملكية الإسلامية في المغرب
فصل الكنيسة القرطاجنية وقطع علاقات المغرب بالروم ووصلها بمصر
مساعي أعداء حسان لعزله
عزل حسان
غضب البربر لعزل حسان
جشع عبد الله بن مروان عامل مصر، وغنى المغرب ووفرة دخله للدولة

ولاية موسى بن نصير
نسب موسى، وشخصيته، ومكانته في الدولة
أعماله في المغرب
اعتناء موسى بإسلام البربر
خوف موسى في المغرب وسخط البربر عليه
الأسباب النفسية لأغلاط موسى بن نصير في المغرب-
مزايا البربر وخصائصهم الذهبية
مزايا المرأة البربرية وخصائصها الذهبية-
حكمة السبي في الإسلام
امتزاج الدماء البربرية بالدماء العربية وأثره في امتزاج المغرب بالمشرق
فتح الأندلس
أسباب الفتح الإسلامي -
نسب طارق بن زياد النفزاوي
فتوح الأندلس-
نكبة موسى بن نصير-
غزوة جزيرة سردانية
نهاية موسى بن نصير-
أسباب النجاح والسعادة في الحياة -
ولاية محمد بن يزيد
سليمان بن عبد الملك، شخصيته وإحسانه إلى المغرب -
آثار محمد الحسنة في المغرب
نكبة آل موسى بن نصير
قتل عبد العزيز بن موسى

ولاية الحر بن عبد الرحمن على الأندلس
آثار الهجرة إلى الأندلس في تعريب المغرب
وفاة سليمان وعزل محمد بن يزيد
ولاية إسماعيل بن عبيد الله
خلافة عمر بن عبد العزيز وشخصيته العظيمة
وفد الإباضية إلى عمر بن عبد العزيز
إنصاف عمر لآل البيت
عدل عمر وإحسانه
وجوب اعتناء المغرب بتاريخ عمر ابن عبد العزيز
نسب سيدنا عمر بن عبد العزيز
امة وأثرها فيه
بيئة الزهاد والصالحين وأثرها فيه
كرهه للإمارة
ورعه
رأيه في الملوك الأمويين
درجته العليا عند أهل عصره
مراقبته لله وتقواه
زهده وتقشفه
اختياره للولاة والموظفين
إسماعيل بن عبيد الله وعهده في المغرب
نسب إسماعيل وشخصيته العظيمة -
بعثة سيدنا عمر العلمية إلى المغرب -
أبو مسعود التجيبي الفيلسوف -

القضاء في المغرب
انقراض المسيحية من البربر
وفاة عمر وعزل إسماعيل
ولاية يزيد بن دينار
شخصية يزيد وشخصية
كره سليمان وعمر ليزيد بن دينار
يزيد بن عبد الملك
نسبه ونشأته
شخصيته
يزيد وجاريتاه حبابه وسلامة المغنيتان-
أسباب ولاية ابن دينار على المغرب
حب يزيد بن عبد الملك للمال
عسف ابن دينار وجبروته وقتل البربر له
ولاية محمد بن يزيد الثانية
ظلم ابن أبي دينار وجبروته-
ولاية بشر بن صفوان الكلبي
اتعاظ يزيد بن عبد الملك بقتل ابن دينار وحسن اختياره للمغرب
شخصية بشر
ازدهار المغرب وإقباله على البناء في كل نواحيه
مصادرة أموال آل موسى بن نصير
سفر بشر بهداياه إلى يزيد
ولاة بشر على الأندلس
غزوة صقلية

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي
عماله في الأندلس
عامله على طرابلس
غزوة صقلية
تنكيله بعمال بشر بن صفوان
عزل عبيدة بن عبد الرحمن
ولاية عبيد الله بن الحبحاب
شخصية عبيدة الله وأسباب وإيثاره للمغرب-
عماله في المغرب
غزواته
غزوة سردانيا
غزوة صقلية
ولاية على الأندلس ووقعة بلاط الشهداء
تجديد جامع الزيتونة والاعتناء بدار الصناعة
ثورة البربر على الأمويين
أغلاط المؤرخين القدماء في تعليل الثورة
الأسباب النفسية لثورة البربر على الأمويين
أسباب انحراف الأمويين في المغرب
أسباب هرم الدولة الأموية-
هشام بن عبد الملك: نشأته وشخصيته-
قساوته مع آل البيت
أسباب ثورة البربر على الأمويين
ظلم الأمويين وعسفهم للمغرب -

ترف هشام وأهل دولته
استقلال المغرب الأقصى وانفصاله عن الأمويين-
صفرية المغرب
خروج البربر من الصفرية إلى المذهب الأباضي والمذهب ألمعتزلي
اعتدال صفرية المغرب الأقصى
أسباب اعتناق المغرب الأقصى للمذهب الصفري
أكاذيب المؤرخين على المغرب
صبر المغرب ومسالمته
وفد المغرب الأقصى إلى هشام بن عبد الملك-
أغراض الأمويين في المغرب-
إمامة ميسرة الخفير المضغري
شخصية ميسرة وبطولته-
ولاية عبد الأعلى بن حريج على طنجة واستشهاده
عزل ميسرة عن الإمامة-
إمامة خالد بن حميد ألزناتي
نسب خالد وشخصيته العظيمة وبطولته-
المعركة الفاصلة بين المغرب الأقصى والأمويين-
ثورة القيروان وعزل ابن الحبحاب
بواعث البربر على الثورة
ثورة البربر ثورة إسلامية على الظلم والطغيان
غضبة هشام وولاية كلثوم ابن عياض القشيري
مقاصد هشام وآله في المغرب
شخصية كلثوم وبطولته

خصام كلثوم وحبيب وتصدع الصف الأموي
جيوش كلثوم الجرارة
المعركة الفاصلة والقضاء على جيوش الأمويين
أسباب قوة البربر وتفوقهم على الأمويين
انهزام الأمويين إلى افريقية والشام
موت كلثوم بن عياض القشيري
إياس هشام من المغرب الأقصى والأوسط
ثورة البربر على الأمويين في الأندلس
ولاية بن الحجاج السلولي على الأندلس
ولاية عبد الملك بن قطن الفهري على الأندلس
ولاية ثعلبة بن سلامة على الأندلس
ولاية أبي الخطار على الأندلس
ثورة افريقية على الأمويين
عكرمة مولي ابن عباس وأثره في المغرب
استعانة عكاشة بن محصن بعبد الواحد الهواري
استعانة عبد الواحد الهواري بصفرية المغرب
ولاية حنظلة بن صفوان على افريقية
شخصية حنظلة ودهاؤه
زحف عبد الواحد الهواري وعكاشة إلى حنظلة
وقعة القرن
مبايعة عبد الواحد بن يزيد الهواري بالإمامة
وقعة الأصنام المهولة
ولاية أبي الخطار على الأندلس

ثرة عب الرحمن بن حبيب على حنظلة
اعتزال حنظلة للإمارة
الدولة الإباضية في المغرب
أكاذيب الملوكيين القدماء على الإباضية
استغلال الاستعمار في المغرب لأكاذيب القدماء على الإباضية
وجوب قتل المذهبية المخربة
عادة المؤرخين في تاريخ المغرب وخبطهم خبط عشواء
وجوب التنبيه إلى أكاذيب الملوكيين في باب خلاف معاوية وخروجه
على الإمام على رضي الله عنه
المنافسة القديمة بين الأمويين والهاشميين
حب الأمويين للرئاسة-
تمسك الأمويين بالرئاسة
لين عثمان وسماحته
مشاكل الأمويين لعثمان
استشهاد عثمان رضي الله عنه
خلافة الإمام على رضي الله عنه
هربه من الخلافة-
نسب الإمام علي رضي الله عنه وشخصيته العظيمة
بيئته الزكية
زهده في الدنيا
ورعه وعفافه وتحرجه-
ذكاؤه وغزارة علمه
فصاحته وبلاغته

تواضعه وحسن خلقه
كرم نفسه
سخاؤه
عبادته وقوة قلبه
الأسباب النفسية لتغلب معاوية على الإمام علي-
ثورة معاوية وخروجه على الإمام علي رضي
الله عنه وحروب صفين
استعداد معاوية للحصول على الملك
عدم إصغاء علي إلى نصحائه-
خروج معاوية على الإمام علي
استمالة معاوية لرؤساء القبائل ولعمرو ابن العاص
دعوة الإمام علي معاوية إلى الجماعة وإباؤه
خروج معاوية إلى الإمام ومنعه الماء في صفين
خطر جواسيس معاوية عللا الإمام
دعوة الإمام علي معاوية وجيشه إلى الكتاب والسنة
والدخول في الجماعة
دعوة الإمام علي معاوية إلى مبارزته
دهماء عمرو بن العاص وكرم نفس الإمام
المعارك الكبرى في صفين
مكيدة رفع المصاحف والتحكيم
سعي الأشعث بن قيس وصنائع معاوية في جيش الإمام
لإيقاف الحرب
إباء القراء وخاصة الإمام قبول التحكيم وإيقاف الحرب

إرغام الأشعث بن قيس وأتباعه في جيش الإمام عليا
وقبول التحكيم-
إباء الإمام على التحكيم ومناظرته لابن الأشعث
وأنصاره ولينه معهم-
سخط القراء وخاصة الإمام لرضوخه لصنائع معاوية
والعامة وقبوله للتحكيم -
خوف معاوية وحيرته
اجتماع الأشعث بمعاوية ليتفقا على الخطط المقبلة
في تجريد علي من الخلافة
المكيدة في اختيار الأشعري
إباء خاصة على للأشعري وكيلا له
كيد الأشعث وحزبه بمد الأجل لمعاوية قبل اجتماع الحكمين
رجوع الإمام علي إلى الكوفة مصدع الصفوف
دعاية الأشعث الواسعة وهجوم عروة ابن أدية عليه
حزن الإمام علي وتأسفه لما اجبر عليه
رأي خاصة الكوفة في التحكيم
حزن الكوفة وعويلها
شماتة الأمويين
إباء القراء وخاصة الإمام علي للتحكيم واحتجاجهم عليه
أسباب استياء الخاصة على الإمام -
أكاذيب الملوكيين على الجمهوريين -
حزن الإمام على لاعتزال الخاصة له
مناظرة الخاصة لابن عباس-

مناظرة الإمام علي للمعتزلين وإقناعهم له
رجوع الخاصة إلى الإمام وابتهاج أنصاره بذاك
حزن معاوية وجزعه بنقض التحكيم وإثارة صنائعه على علي
رجوع الإمام إلى التحكيم
استياء خاصة الإمام ويأسهم منه
اجتماع الحكمين وخلعهما للإمام علي رضي الله عنه
مبايعة الخاصة لعبد الله بن وهب الراسبي
أكاذيب الملوكيين على الجمهوريين
حب حزب عبد الله بن وهب لعلي وإجلالهم له
معاوية وحزبه هم الخوارج عللا الإمام -
إمامة عبد الله بن وهب الراسبي
شخصية عبد الله بن وهب الراسبي وعظمته
زهده في الرئاسة
خروج عبد الله بن وهب إلى النهروان
الغرض الرئيسي لعبد الله بن وهب وصحبه
هو المحافظة على الجمهورية الإسلامية والقضاء على
الملوكية المستبدة
خروج علي لحرب معاوية وكيد معاوية له-
قعود ابن عباس عن الخروج مع الإمام
كيد أنصار معاوية وصرف الإمام إلى أهل النهروان
إباء الإمام علي أن يسير إلى أهل النهروان
أكاذيب الملوكيين على أهل النهروان
عدول علي إلى أهل النهروان كان على نية

المصالحة لا على نية القتال -
هجوم الأشعث وحزبه على عبد الله بن وهب ووقوع
مأساة النهروان
عدم مشاركة علي في حرب النهروان ووقوعها
بغير إذنه
حسر على وتأسفه لما وقع الهجوم على أهل النهروان-
الهجوم على أهل النهروان من فعل الأشعث وأنصار معاوية
لا من فعل علي-
كيد الأشعث لعلي واثر وقعة النهروان في أنصاره
رجوع علي إلى الكوفة وافتراق جيشه عنه
اثر وقعة النهروان في أنصار علي -
الأشعث بن قيس وقضاؤه على علي
قضاء جعدة بنت الأشعث على الحسن ابن علي
تسلط الأشعث على جيش علي
أكاذيب الملوكيين على الجمهوريين
مسعر بن فدكي وعصابته-
اغتيال الإمام علي وأكاذيب الملوكيين على الجمهوريين
كتمان ابن ملجم أمره على الجمهوريين في الكوفة
أكاذيب الملوكيين لتشويه سمعة الجمهوريين-
تعظيم الإباضية للإمام علي وإجلالهم له
الإباضية هم أتباع عبد الله بم وهب الراسبي ى غيرهم
إكبار إباضية المغرب الرستميين للإمام على والتزام خطبه في منابرهم
عداء الملوكيين للإمام علي وآله

الصداقة بين الدولة الرستمية والدولة الإدريسية
حماية الدولة الرستمية للدولة الإدريسية من العباسيين-
استغلال الاستعمار الفرنسي والايطالي لأكاذيب الملوكيين
على الإباضية الجمهوريين لبث التفرقة بين الإخوة الأشقاء
تقليد المؤلفين المحدثين للكتب الملوكية المغرضة
ووقوعهم في أغلاط تاريخية فاحشة
نشأة الإباضية والفرق بينهم وبين الخوارج-
الإباضية ليسوا خوارج -
نشأة الإباضية-
ثورة عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على افريقية
نسب عبد الرحمن وشخصيته
حب عبد الرحمن للرئاسة
تنازل حنظلة عن الإمارة لعبد الرحمن
عفة حنظلة في الأموال
ثورة طرابلس وافريقية على عبد الرحمن
حيلة عبد الرحمن في القضاء على الصفرية
إمامة الحارث بن تليد الحضرمي
قتل إلياس بن حبيب عبد الله بن مسعود رئيس
الإباضية في طرابلس
شخصية الحارث وعبد الجبار وتقواهما
ديمقراطية الإمام الحارث وعبد الجبار قاضيه ووزيره وتواضعهما
اغتيال عبد الرحمن بن حبيب الإمام الحارث وعبد الجبار
إمامة إسماعيل بن زياد النفوسي

أحوال افريقية في عهد عبد الرحمن ابن حبيب
غزوة عبد الرحمن لصقلية وسردانية
انقراض الدولة الأموية
مقتل عبد الرحمن بن حبيب وأسبابه النفسية-
مقتل ابن حبيب
تحريض زوجة إلياس على قتل عبد الرحمن
غضب المنصور على عبد الرحمن
ثورة عبد الرحمن على المنصور وخلعه
اغتيال إلياس لأخيه عبد الرحمن
ثورة حبيب بن عبد الرحمن وعمه عمران ابن حبيب
قتال حبيب وعمران مع إلياس واصطلاحهم
غدر إلياس بعمران أخيه
نفي إلياس لحبيب وثورة حبيب عليه
استيلاء حبيب على افريقية وحربه مع ورفجومة
حقيقة ورفجومة
حرب حبيب مع ورفجومة وهزيمته
احتلال ورفجومة للقيروان
التجاء حبيب إلى أوراس ونصرتهم له
هجوم حبيب على القيروان ومقتله
فظائع عبد الملك بن أبي الجعد
الصفري في القيروان
أكاذيب الملوكيين على الإباضية
جمهورية أبي الخطاب عبد الأعلى ابن السمح

الآثار الحسنة للدولة الأموية في المغرب
الحلقات الحسنة للمغرب من الملوك الأمويين-
عناية الدولة الأموية بالفتوح
انقراض الدولة الأموية ومدتها في المغرب-
خاتمة الكتاب-